الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير
طه حسين

مجلد ٧



القاهرة ١٩٤٧

الكاتب المصري
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها . يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى
٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصرى



ذو القعدة ١٣٦٦ — أكتوبر ١٩٤٧

السنة الثالثة — مجلد ٧ — عدد ٢٥

فى الأدب الأمريكى

ريتشارد رايت

أما فرنسا فقد سافرت إليها وأقمت فيها أشهر الصيف، ولكنى على ذلك لا أعد هذه الاقامة إلا إلمامة قصيرة. فقد كانت حياتى المادية أثناء هذه الأشهر فى فرنسا، ولكن حياتى المعنوية أو العقلية بعبارة أدق، كانت بعيدة عنها أشد البعد. وأكاد أقطع بأنى لأول مرة قد أطلت الاقامة فى فرنسا دون أن أحيا فيها حياة كاملة. فلم أقرأ من الكتب الفرنسية إلا قليلا أقل مما أقرأ فى القاهرة، ولم أتعمق قراءة الصحف الفرنسية، وإنما كنت أمر بها مرًّا سريعًا، كما أمر بالصحف العربية فى القاهرة مرا سريعاً، أجتزئ بالعنوان فى أكثر الأحيان عن قراءة ما بعده، إلا ما كان من النظام الجديد الذى شرع للجزائر فقد أتتبعه فى عناية خاصة.

ومصدر ذلك أن الإنتاج الفرنسى الأدبى فى هذا العام لم يغرنى ولم يستخفنى من جهة، وأنى قد ذهبت إلى فرنسا هارباً من القاهرة لأخلو فيها إلى طائفة من الكتب ليس بينها وبين الحياة الفرنسية سبب، بل ليس بينها وبين الحياة الحديثة كلها سبب، وإنما هى كتب تتصل بالحياة العربية القديمة.

فلم أكد أبلغ فرنسا حتى خلوت إلى هذه الكتب؛ فكنت أغرق فيها وجه النهار وآخره، وكنت أرفه على نفسى إذا أقبل الليل بشئ من القراءة المريحة. وأرادت الظروف أن تكون هذه القراءة المريحة متصلة بأشياء لا تمس الحياة

الفرنسية من قريب ولا من بعيد ، وإنما هي قراءة تمس الآداب الأوربية غير الفرنسية ، أو تمس الآداب الأمريكية . وقد يكون من الحق أن أعترف بأني قرأت كتاباً فرنسيا كثر الكلام عنه جدا في فرنسا ، وكاد النقاد الفرنسيون يجمعون على الاعجاب به ، ولكنه لم يعجبني ، وأكاد أقول إني ضقت به أكثر مما ارتحت إليه ، وهو بعد هذا لا يمس الحياة الفرنسية في ظاهر الأمر ، وإنما يمس حياة إفريقية الشمالية ، وهو كتاب « الطاعون » للكاتب الفرنسي المشهور ألبير كامو .

وأنا أعلم أن الكاتب أراد به إلى الرمز ؛ فهو يصف الطاعون الذي تخيل أنه ضرب بجرانه على مدينة وهران ، فقطع ما بينها وبين العالم من الأسباب ، واضطرها إلى حياة محصورة كثرت فيها الفتن والمحن والخطوب ، وصرحت فيها نفوس الناس عن مكنونها ، فظهر الضعف الذي ينتهي إلى التهالك ، وظهرت القوة التي تنتهي إلى البطولة ، وظهر الاخلاص الذي ينتهي إلى الايثار ، وظهر الجبن الذي ينتهي إلى الأثرة المنكرة . وخلصت المدينة بعد لأي من هذا العناء البغيض ، واستأنفت حياة عرجاء تحاول أن تستقل وتستقيم .

وأنا أعلم أن الكاتب أراد أن يتخذ وهران وأهلها والطاعون رمزاً لفرنسا وأهلها والحرب ، أو رمزاً للأرض كلها وللحرب ، وأنه إنما أراد أن يصور الانسانية حين تلم بها الخطوب الفادحة ، فتمحص من الناس من تمحص وتمحق منهم من تمحق .

ولست أدري لم لم يعجبني هذا الكتاب مع أن المعنى الذي أراد إليه الكاتب قيم خطير عظيم الشأن . وأكبر الظن أن الأداء هو الذي لم يعجبني ، وأن الحوادث التي شهدناها في الحرب الأخيرة كانت أعظم نكراً وأشد هولا ، وأصدق تصويراً لقوة الانسان وضعفه ، ولايثار الانسان وأثرته ، من هذا الكلام الذي لا يكاد يتجاوز في وصفه وتصويره أيسر ما تكتبه الصحف حين تقص الأخبار . والمهم هو أن هذا الكتاب لم يشعرني حين قرأته بأني كنت أقرأ كتاباً رائعاً يصور الحياة الأوربية الرائعة أثناء الحرب تصويراً يلائمها في الروعة ، وإنما أشعرني بأني كنت أقرأ كتاباً فاتراً يريد أن يصور أشياء لا يلائمها الفتور بحال من الأحوال .

لم أقرأ إذن كثيراً من الكتب الفرنسية أثناء إقامتي في فرنسا ، وإنما قرأت

كتباً إيطالية وأمريكية وروسية ، وأعود فأقول إني لم أكن أعمد إلى هذه القراءة إلا وقتاً قصيراً حين يقبل الليل وبعد أن ننصرف عن العشاء ونخرج للرياضة وقتاً يقصر أو يطول ، ثم نعود فنجتمع إلى قارئ منا يعيننا على انتظار النوم الذي لا يحب أن يطول انتظاره في القرى و إن أحب أن يطول انتظاره في المدن وبنوع خاص في باريس .

وقد عرفت أثناء هذه القراءة القصيرة كاتباً أمريكيا أسود كنت قد سمعت به في باريس في العام الماضي دون أن أقرأ له شيئاً . ثم قرأت له بعد عودتي إلى القاهرة في مجلة « العصور الحديثة » التي يصدرها جان بول سارتر قصة قصيرة رضيت عنها كل الرضا . ثم أتيح لي أثناء هذا الصيف أن أقرأ له كتابين قد كثر عنهما الحديث في فرنسا ، نشر أحدهما متفرقاً في مجلة « العصور الحديثة » وعنوانه : « غلام أسود » *Black Boy* ونشر الآخر جملة وعنوانه « ابن البلد » *Native Son* . وله كتاب ثالث قد نشر في فرنسا ولم أقرأه بعد ، وأرجو أن تتاح لي قراءته قبل أن أعود ، وعنوانه : « أبناء العم توم » . وهذا الكاتب الأمريكي الأسود هو ريتشارد رايت الذي أريد أن أجعل فنه موضوعاً لهذا الحديث .

لم يكد ريتشارد رايت يبلغ الأربعين من عمره وهو على ذلك يقرأ في أوربا وأمريكا جميعاً . وأرجو أن يقرأ في الشرق العربي بعد حين ؛ فما أعرف أن الشرق العربي يحتاج إلى قراءة كما يحتاج إلى قراءة آثار ريتشارد رايت . أما كتابه الأول « غلام أسود » ، فليس إلا ترجمة لحياته منذ عرف نفسه إلى أن أتم السابعة عشرة من عمره . وهو قد عرف نفسه صبيًّا لا يكاد يميز الأشياء ، يعيش بين أب أسود وأم سوداء ، ويعيش معه أخ أصغر منه سنا . والحياة في هذه الأسرة ضيقة ضئيلة ذليلة ، ثم لا تلبث أن تزداد ضيقاً وضآلة وذلا . فقد هجر الأب زوجه وابنيه ، وعاش مع امرأة أخرى سوداء ، وترك هذه الأم البائسة تسعى على رزقها ورزق ابنيها ، تجد في ذلك ما شاء البؤس والذل وفساد النظام الاجتماعي واستعلاء البيض على السود أن تجد من الجهد والمشقة والعناء . وهي حين تسعى على رزقها ورزق ابنيها تترك هذين الصبيين البائسين لأنفسهما أكثر النهار ، فهما يعيشان في الشارع يخالطان أمثالهما من أبناء السود البائسين ويشاركانهم في كل ما يتعرضون له مما يفسد التربية وينحط بالأخلاق

إلى الدرك الأسفل ؛ فهم يعبثون عبثاً مرذولا . وهم يسرقون ويختلسون ، وهم يتعرضون لضروب من الاهانة والازدراء والتغرير والتضليل لا تطاق .

وهذا الصبى ريتشارد رايت نفسه يحدثنا عن وقوفه أمام قهوة من القهوات الوضيعة التى يختلف إليها السود ليشربوا فيها شراباً بغيضاً ، ثم عن استدراج الكبار له حتى يدخل القهوة ، وعن عبثهم به حتى يشرب ما لا يلائم سنه ولا صحته ، وحتى يضطر إلى السكر قبل أن يتجاوز السادسة من عمره ، وحتى يتعلم منهم أبشع اللفظ وأقبح الفعل ، وهم يشجعونه على ذلك ليعبثوا به وليضحكوا من سخفه فى القول والعمل حين يأخذ منه السكر مأخذه . والصبى يحب هذا النوع من الحياة لأنه وحيد ضعيف أولا ، ولأنه جائع بعد ذلك ، ولأن العابثين به يتيحون له شيئاً من طعام ويلهونه عن نفسه وعن جوعه وبؤسه بما يلقون فى جوفه من شراب . والحياة تثقل على أمه فتسلمه إلى ملجأ من ملاجئ اليتامى ، تحاول أن تضمن له شيئاً من التربية والمراقبة والتعليم . ولكن الصبى لا يطيق الحياة فى هذا الملجأ ؛ لأنه لا يطيق فراق أمه ، ولأنه ألف الحياة الفارغة المتسكعة فهو يفر من الملجأ ، وتضطر أمه إلى أن تمسكه فى بيتها دون أن تجد إلى ذلك سبيلا . وتعجز هذه المرأة آخر الأمر عن النهوض وحدها بهذا الثقل الثقيل فتتنقل بابنيها فى مدن القسم الجنوبى من الولايات المتحدة ساعية على رزقها ورزقهما ما وسعها السعى ، فاذا لم تجد إلى الاحتمال سبيلا لجأت بابنيها البائسين إلى أسرتها الحقيرة الفقيرة فعاشت وعاشا بين أمها وأبيها وأختها المعلمة فى مدارس السود . وتحاول أن ترسل الصبى إلى المدرسة التى تعلم فيها أختها ، ولكن الصبى لا يحب المدرسة ولا يحب خالته يضيق بالنظام ويضيق بظلم خالته له ، وما يزال يضيق بخالته وتضيق به خالته حتى يترك المدرسة ويعود إلى حياة التسكع والفراغ . ثم تلم العلة بأمه حتى تثقل ، ويرسل الفتى إلى أحد أخواله ليعيش فى ظله . ولكن الأمور لا تستقيم له فى هذا البيت الجديد ؛ لأنه حر مسرف فى الحرية لا يحب أن يسمع ولا أن يطيع ، وإذا هو يعود إلى بيت الأسرة ليعيش بين أمه المريضة المثقلة ، وجدته البغيضة المتهالكة على الدين ، وجده الساخط الذى انحاز إلى نفسه ولزم حجرته فلا تراه الأسرة إلا قليلا . والصبى يثقل على نفسه ويثقل على أسرته ، والخطوب تتقاذفه والجوع يلح عليه ، وجدته تحاول أن تخضعه لشئ من النظام

فلا تستطيع ، وتحاول أن تميل به نحو الدين فلا تجد منه إلا إباء ونفوراً . وهو على ذلك خال إلى نفسه عاكف عليها ، قد استقر فى قلبه أن كل من حوله من الناس وكل ماحوله من الأشياء عدو له . وأشد ما يؤثر فى نفسه الناشئة ما يرى من استعلاء البيض على السود وظلمهم لهم واستعبادهم إياهم والاستخفاف بأمنهم وسلامتهم وحياتهم نفسها ؛ فليس أيسر على البيض من شتم الرجل الأسود ولكزه ووكزه وقتله لأيسر الأمور وأحقر الهنات . قد استقر فى قلوب البيض أن السود لهم عدو خطر ضعيف ، فيجب أن يستذلوهم وأن يمسكوهم فى الفقر والجوع والهوان والحياة الخسيسة من كل نواحيها . واستقر فى نفوس السود أن البيض لهم عدو قوى ، فيجب أن يكبروهم ويخافوهم ويرهبوا بأسهم ويتنحوا لهم عن الطريق ويخفضوا الأصوات إذا حدثوهم ، ثم لا يحدثوهم إلا بما يصور الخوف والاكبار والاجلال . ولكن الصبى يرى هذا كله ويفهمه حق الفهم ويشعر به أشد الشعور وأدقه دون أن تطمئن نفسه إلى شىء منه ؛ فهو لا يستطيع أن يؤمن بأن بينه وبين غيره من الناس فرقاً سواء أكانوا بيضاً أم سوداً . وهو من أجل ذلك يبغض الناس جميعاً ، ويعكف على نفسه حتى كأنه يعيش فى عالم مقصور عليه . يبغض البيض لظلمهم وكبريائهم ، ويبغض السود لذلهم واستخذائهم . وهو من أجل هذا يعيش عيشة منكرة حقاً : لا يطمئن إلى أهله ولا إلى رفاقه لأنهم سود مستذلون والذلة لا تجد إلى نفسه سبيلا ، ولا يطمئن إلى البيض لأنهم طغاة مستكبرون ، ولم تخضع نفسه للطغيان ولا للاستكبار . وهو من أجل ذلك وبين أجل إصراره على بغض النظام ومباعدة الدين قد فقد عطف أسرته جميعاً إلا عطف هذه الأم المريضة التى تثقل عليها العلة أحياناً وترفه عليها بين حين وحين .

وقد انتهى الأمر بالصبى إلى أن يسعى إلى المدرسة ويأخذ نفسه بنظامها فى كثير جدا من المشقة والعناء . وما أسرع ما يتفوق على رفاقه السود ويمتاز منهم ! وما أسرع مايحب الدرس ! ولكنه جائع عار وبائس يائس ، فلا بد من أن يسعى على رزقه ورزق أمه ، ولابد مع ذلك من أن يمضى فى درسه . وهو من أجل ذلك يخدم البيض أول النهار وآخره ويختلف إلى المدرسة فيما بين ذلك . وخدمته للبيض لاتستقيم ؛ فهو لا يقبل الأوضاع المألوفة بينهم وبين السود ، وهو بطرد مرة ويترك العمل من تلقاء نفسه مرة أخرى . وهو على ذلك

يسعى على رزقه وتعليمه، ويشقى بهذا السعى حتى يتم المرحلة الأولى من مراحل التعليم . والعادة أن المبرز من التلاميذ يلقى خطبة يوم توزيع الاجازات، وهو المبرز فى سنته تلك ، فسيكون إليه إذن إلقاء الخطبة ، وهو يعد خطبته ، ولكن ناظر المدرسة يدعوه ذات يوم ويدفع إليه خطبة أعدها هو ليلقيها التلميذ الممتاز كشأنه مع التلاميذ جميعاً فى كل عام ، غير أن الغلام يرفض خطبة الناظر ويأبى إلا أن يلقى خطبته هو ، والناظر دهش لهذا الاباء ثم ضيق به ثم ساخط عليه ثم منذر للغلام لأنه معرض مستقبله للخطر إن أصر على هذا الاباء. ورفاقه يلحون عليه فى أن يفعل كما فعل المبرزون من قبله وكما سيفعل المبرزون من بعده ، وأهله يلحون عليه كذلك ، ولكنه يأبى ويستمسك بالإباء، ولا يعنيه أن يضيع مستقبله ، ولا يعنيه أن يصرف عنه منصب التعليم فى مدرسة من مدارس السود. فقد ألقى خطبته هو إذن لا خطبة الناظر ، وظفر بشئ قليل من التصفيق وصافحه نفر قليل من رفاقه ، ثم عاد إلى أهله وقد صرف عنه منصب التعليم . وليس له بد من أن يسعى على رزقه ومعونة أسرته ، وهو مع ذلك طامع فى أن يبلغ حظه من التعلم الجامعى . ولكن كيف السبيل إلى هذا التعليم ؟

هو إذن مضطر إلى أن يستأنف خدمة البيض ؛ فهو ينتقل من دار إلى دار ومن متجر إلى متجر، لا يتاح له الاستقرار إلا ريثما يفرض عليه القلق والاضطراب، حتى استيقن آخر الأمر أن لا مقام له فى هذه البيئة التى يعيش فيها ، وأنه مضطر إلى أن يتغرب ليحيا حياة ممكنة محتملة . ولكن كيف السبيل إلى التغرب وليس له حظ من مال ؟ فهو يعمل كثيراً ويكسب قليلا ، وينفق على نفسه وعلى أسرته ما يكسب ، ويجوع دائماً . لا سبيل له إلى أن يغترب إلا إذا سرق . وهو يرد هذا الخاطر عن نفسه ردًّا عنيفاً . ولكن هذا الخاطر يلح عليه إلحاحاً عنيفاً . ويزداد إلحاحه عليه كلما تعرض — وما أكثر ما كان يتعرض — للاهانة والعسف يأتيانه من البيض . وهو ينتهى آخر الأمر إلى أن يسرق : يختلس مسدساً من دار الجيران ، ويختلس نقوداً من دار السينما التى كان يعمل فيها، ثم يأخذ القطار ذات صباح أو ذات مساء فيخرج من هذه المدينة التى يعيش فيها الظلم والذل جميعاً .

ويصل إلى مدينة ممفيس ومعه شئ من مال قد أخفاه فى منطقته. وهو

يريد أن يعمل فى هذه المدينة حتى يجد من المال ما يمكنه من أن يدعو أمه وأخاه ليلحقا به ، ثم يعمل بعد ذلك حتى يجمع من المال ما يمكنه من أن ينتقل معهما إلى شمال الولايات المتحدة حيث يستطيع السود أن يعيشوا دون أن يتعرضوا لما يتعرضون له فى الجنوب من الذلة والهوان .

وقد أتيح له هذا العمل الذى كان يبتغيه ، وأتيح له كسب ملائم ، ولكنه يؤدى فى سبيل ذلك العمل وهذا الكسب جهداً أى جهد ، ويلقى فى سبيلهما عناء أى عناء ؛ فهو محتقر منذ يصبح إلى أن يمسى ، وهو أقل شقاء بما يلقى من هذا الاحتقار منه بما يرى من اطمئنان أمثاله السود إلى هذا الاحتقار واتخاذه سبيلا إلى الكسب ، يتملقون البيض ويمكنونهم من المبالغة فى إذلالهم ليكسبوا قليلا من المال . وربما كان أشد ما أمضه وثقل عليه إسراف البيض فى الاستهزاء بالسود وإغراء بعضهم ببعض حتى يقتتلوا أو يصطرعوا أبشع الاصطراع وهم ينظرون إليهم ويسخرون منهم ويلهون بهم. وقد تعرض هو لبعض ذلك ؛ فما زال سادته الذين كان يعمل عندهم يخوفونه زميلا له أسود ويخوفون منه هذا الزميل ويغرون أحدهما بصاحبه ، ولكنهما قاوما ما وسعهما المقاومة ثم أذعنا آخر الأمر ؛ لأن زميله قبل أن يلاكمه ويأخذ على ذلك أجراً خمسة دولارات . وقد حاول ريتشارد رايت أن يرفض هذه الملاكمة ، ولكن زميله مازال به يرغبه فى الدولارات ويرهبه بأسه ويخيل إليه أن الملاكمة لن تكون إلا ظاهرة مموهة حتى استجاب له ، ثم كانت الملاكمة واجتمع السادة البيض لها كما يجتمع الذين يلعبون باختصام الديكة . ولم تكن الملاكمة خيالية مموهة ، وإنما كانت مرهقة مهلكة أشرفت بهما على الموت .

وفى المصنع الذى كان ريتشارد رايت يعمل فيه كان يعمل إرلندى كاثوليكى وكان رفيقاً بالسود وبرايت خاصة ، وبفضله استطاع رايت أن يستعير بعض القصص من مكتبة المدينة التى كانت وقفاً على البيض . فلم يكد يقرأ فى هذه القصص حتى فتحت له آفاق جديدة لم يكن يقدرها ولا يفترض لها وجوداً ، وإذا هو يصرف إلى القراءة عن كل شىء إلا عن العمل الذى يكسب منه قوته وقوت أسرته ، ويستعين به على اقتصاد ما يتيح له السفر إلى الشمال. وهو يستكشف فى هذه القراءة شيئين : أحدهما هذه الآفاق الجديدة التى كان يجهلها ، آفاق تصوير الحياة ونقدها وتحليلها ، وآفاق هذه الأنواع الكثيرة

المختلفة من الحياة التى يحياها الناس فى أمريكا وفى أوربا ، والتى يصورها كتّاب كثيرون أمريكيون وأوربيون تنقل آثارهم أو يتحدث عنها فيما يقرأ من الكتب . والثانى هذه النفس التى كان يشقى بها والتى لم يستطع قط أن ينلها أو أن يخضعها للذل ، أو أن يتصور أنها أقل من نفوس البيض خطراً أو أهون منها شأناً . استكشف إذن فى قراءته هذه الناس ونفسه . ولم يكن يعدل رضاه عن هذا الاستكشاف إلا تكلفه للاقامة على حياته المألوفة حتى لا يفطن البيض إلى أن شيئاً من سيرته الظاهرة أو الخفية قد تغير ، وحتى لا يحولوا بينه وبين ما يسمو إليه من الهرب بنفسه إلى جو تستطيع أن تنمو فيه نمواً حرا ليس فيه عسف ولا اكراه . وقد أتيح له ذلك آخر الأمر ؛ فهو يختم كتابه الرائع بما كان يدور فى رأسه من الخواطر حين كان القطار يمضى به نحو الشمال . ولم تكن هذه الخواطر تصور سخطاً ولا يأساً ولا جزعاً ، وإنما كانت تصور الرضا والأمل وحب الخير الذى يشمل السود والبيض جميعاً .

وقد لخصت لك هذا الكتاب تلخيصاً لا أقول إنه دقيق ، ولا أقول إنه مقارب ، ولكنه على ذلك يصور أمرين خطيرين ، أحدهما هذا الجهاد العنيف الذى جاهده ريتشارد رايت منذ صباه الأول ليقاوم هذه المؤثرات الهائلة التى أفسدت على ملايين السود فى أمريكا حياتهم واضطرتهم إلى ألوان من الذل والهوان ، أقل ما توصف به أنها لا تلائم كرامة الانسان ، وأنها تكذب هذا الغرور الذى يحمل كثيراً من أمم الغرب على أن تزهى بما أتيح لها من الرقى والتفوق والامتياز فى حياة العقل والشعور . فليس من الحضارة فى شئ وليس من رقى العقل والشعور فى شيء أن يستعلى فريق من الناس على فريق فيستذلوهم ويعنفون بهم أكثر مما يعنفون بالحيوان الأعجمى والآلة المسخرة ، لا لشيء إلا لأنهم بيض ولأن خصومهم سود .

وهذه المؤثرات قد انتهت بالسود فى أمريكا أو بكثرتهم الساحقة إلى نتائجها الطبيعية . طال عليهم الاستذلال فهم أذلاء ، وطال عليهم الاستعباد فهم يحيون حياة العبيد ، وهم من أجل ذلك يغرقون فى الرذائل التى تقتضيها حياة الذل والخسف ؛ فهم يكذبون ويسرقون ويقارفون آثاماً لا تحصى ولا تقدر . وهم يخافون ، ويدفعهم الخوف المتكرر المتصل إلى ضروب من الجبن وهوان النفس ودناءة السيرة لا تكاد تخطر لأحد منا على بال . وهم يتخذون هذه

الحياة المنكرة نظاماً يرضونه ويطمئنون إليه ويتنافسون فيه . فاذا شذ منهم شاذ فامتنع على هذا النظام أو أظهر الامتناع عليه فهم ينكرونه ويقاومونه ، كما ينكره البيض ويقاومونه .

وقد استطاع ريتشارد رايت منذ صباه الأول أن يقاوم هذه المؤثرات ويثبت لهذه المقاومة على ما لقى فى هذا الثبات من خطوب آذت نفسه وجسمه جميعاً . فهو لم يعرف الأمن ولا الرضا ولا اطمئنان القلب فى يوم من أيام صباه ، كما أنه لم يعرف الشبع ولم يأمن غائلة الحر والبرد ولم يفلت من سخر الساخرين. وعبث العابثين يوماً من أيام صباه أيضاً .

أما الأمر الثانى فهو هذه الغفلة التى يعيش فيها العالم المتحضر فى الشرق والغرب بالقياس إلى هذه الدولة الضخمة الفخمة الهائلة التى تريد الآن أن تسود العالم وتوشك أن تبلغ ما تريد . فالناس فى الشرق والغرب يرونها نموذج الحضارة ويتخذونها مثالا للرقى ، وهى مع ذلك ترى ملايين من الناس يسامون أشنع ما يسام الناس من ضروب الذل والخسف والعسف والهوان ، ثم لاتنكر ذلك ولاتغيره ، بل لا تحاول إنكار ذلك ولا تغييره محاولة مجدية . والأمريكيون البيض من أهل الولايات المتحدة قد هاجر آباؤهم من أوربا فراراً بحريتهم من العسف والخسف والهوان . فالاضطهاد فى الدين والرأى هو الذى دفع كثيراً من الأوربيين إلى أن يهجروا وطنهم القديم إلى العالم الجديد ليعيشوا فيه عيشة قوامها العزة والحرية والاحتفاظ بكرامة الانسان . فانظر إليهم كيف يحرزون هذه الخصال لأنفسهم ثم يضنون بها على غيرهم من الناس . وما أنكر وما ينكر أحد أن الأمريكيين قد ألغوا الرق الفردى وجاهدوا فى سبيل إلغائه ، ويلقوا من ذلك مع أوربا ما لاقوا . ولكن من المضحك حقا ، والشر يضحك فى كثير من الأحيان وأبغض الشر ما يضحك — من المضحك حقا أن يلغى بيع الانسان وشراؤه ثم يتاح لفريق من الناس أن يسوموا فريقاً آخر من الناس خطة ليست أقل شرا ولا نكراً من تعريضهم للبيع والشراء . فالأمريكى الأبيض لا يستطيع أن يشترى الأمريكى الأسود أو يبيعه ، ولكنه يستطيع أن يعرضه للجوع والبؤس والمرض ويفرض عليه حياة تضطره إلى اقتراف الجرائم المنكرة ، ويضربه متى شاء ، ويقتله إن شاء أيضاً . وأغرب من هذا كله أن فى الأمريكيين البيض من أهل الولايات المتحدة طموحاً إلى الخير وسموا إلى المثل العليا لا يتكلفون

ذلك ولا يتصنعونه ، وإنما تدفعهم إليه نفوسهم الساذجة ، فهم يدعون إلى الخير والبر والاحسان وإلى السلم والعافية وإلى التعاون والتضامن ، وهم لايترددون في أن يجاهدوا في سبيل ذلك بنفوسهم وأموالهم ، ولكنهم بعد هذا كله ينامون ملء جفونهم ولا يؤرق نومهم الهانئ الهادئ علمهم بأن بضعة عشر مليوناً من السود الذين يشاركونهم في الانسانية والوطن والدين يسامون بينهم سوء العذاب . والأمريكيون البيض هم الذين أذاعوا في الناس أسطورة الحريات الأربع ، ولكنهم لم يستطيعوا أو لم يريدوا إلى الآن أن يكفلوا بعض هذه الحريات الأربع لهؤلاء الملايين الذين يشاركونهم في الانسانية والوطن واللغة والدين . وإنه لمن المضحك حقا أن يحاول الأمريكيون تأمين الناس في الشرق والغرب من العوز والخوف والظلم والعدوان ، ثم لا يحاولون تأمين هؤلاء الملايين الذين يقيمون بينهم من هذه الآفات التي يصبونها عليهم صبًّا حين يسفر النهار وحين يظلم الليل .

وخصلة أخرى ليست أقل روعة مما قدمنا يصورها هذا الكتاب أبرع تصوير وأروعه ، وهي طموح هذا الصبي ، وقدرته على أن يحتفظ بهذا الطموح ، وقدرته على أن يزيد هذا الطموح ، وقدرته على أن يبلغ ما كان يطمح إليه من التفوق والامتياز ، لا بالقياس الى أمثاله السود وحدهم بل بالقياس إلى هؤلاء البيض الذين حاولوا استرقاقه فلم يستطيعوا . على أن ما أتيح لريتشارد رايت من قهر ما قهر من المصاعب وتذليل ما ذلل من العقاب والتخلص من هذه الجرائم والآثام التي كانت تدعوه دعاء ملحا ، لم يتح ولا يمكن أن يتاح لكثير من السود ولا لكثير من البيض إن أحاطت بهم ظروف كالتي تحيط بملايين السود الأمريكيين . ومن هنا تظهر الصلة القوية الرائعة بين الكتابين اللذين أحللهما في هذا الحديث . وأكاد أثق بأن الكتاب الذي فرغت من تحليله يشبه أن يكون مدخلا أو مقدمة للكتاب الآخر الذي أريد أن آخذ في تحليله .

فالكتاب الأول يصور لنا غلاماً قهر ظروف الحياة التي تحيط بالسود في أمريكا . والكتاب الثاني يصور لنا غلاماً قهرته هذه الظروف . فهي واحدة بالقياس إلى الغلامين ، ولكن أحدهما وهو ريتشارد رايت قد تداركته رحمة الله فأتاحت له النبوغ الذي استنقذه من الشر استنقاذاً ، على حين أن الغلام

الآخر وهو بيجر توماس لم تدركه رحمة الله ، وإنما خلت بينه وبين طبيعة الحياة المنكرة التي فرضت على السود الأمريكيين فالتهمه الشر التهاماً .
ولست أدري أخطرت هذه الصلة لريتشارد رايت حين كتب هذين الكتابين أم لا ، ولكني أعلم بعد التجربة أن هذه الصلة موجودة محققة ليس في وجودها شك . فقد رأيت من قرأ الكتاب الثاني فضاق به ونبا عنه وكاد يلحقه بالقصص البوليسية ، فلما قرأ الكتاب الأول فهم الكتاب الثاني على وجهه ورده إلى مكانته الممتازة من الأدب الأمريكي الرفيع . ذلك أن حياة بيجر توماس توشك أن تكون هي الحياة التي صورها ريتشارد رايت لنفسه في كتاب « الغلام الأسود » . فبيجر توماس فتى قد قارب العشرين من عمره ، وهو يعيش أمه السوداء البلهاء أو التي توشك أن تكون بلهاء ومع أخ له أصغر منه سنا وأخت تختلف إلى مدرسة تتعلم فيها الخياطة ، والأربعة يعيشون في غرفة حقيرة متهالكة تروعهم فيها الجرذان ترويعاً شديداً ، وهم يعيشون في هذه الغرفة الحقيرة مختلطين أشنع اختلاط وأبشعه ، حتى إن بعضهم ليضطر إلى أن يدير وجهه إلى الحائط أو إلى النافذة ليستطيع بعضهم الآخر أن يلبس ثيابه .
وهم يعيشون من الاحسان الذي يصيبهم من جاعة من هذه الجماعات التي توزع الخير على البائسين . وهذا الفتى قد نشأ فيما يظهر نشأة مختلطة مفرقة تشبه نشأة ريتشارد رايت ، ولكنه لم يقاوم ظروف السود التي أحاطت به ولم يقهرها ، وإنما عرفها وأحس شرها وضاق بها وخضع لها مع ذلك مع انكاره لها ؛ فهو يسرق ويكذب ويعتدي ، ويرى أن هذا كله شر ، ولكنه يرى أن هذا الشر لابد منه لأنه مظلوم ؛ فهو يسرق الظالمين ويخادعهم ويمكر بهم ويعتدي عليهم ، لايرى بذلك بأساً بشرط أن يفلت من العقاب . وهو من أجل ذلك بارع في الحيلة ماهر في الكيد حتى يبلغ مايريد . وهو قد جمع إلى هذه الخصال المنكرة خصالا أخرى ليست أقل منها نكراً ؛ فهو متبطل متعطل محب للكسل مغرق في الأثرة غنيف بأمه وأخته أبغض العنف وأقبحه .
ونحن نراه في أول القصة متردداً ، قد عرض عليه عمل يتيح له أن يكسب رزقه ورزق أسرته ، فهو لا يدري أيقبل هذا العمل فيصبح سائقاً لرجل من أغنياء البيض أم يرفض هذا العمل فينقطع رزقه ورزق أسرته وتكف الجماعة الخيرة عن معونته بما ترزقه في كل أسبوع . وهو في أثناء هذا التردد ينازع

نفسه وينازع جماعة من رفاقه إلى اقتراف جريمة من هذه الجرائم التى تعودوا أن يقترفوها ، جريمة السطو على رجل من التجار المتوسطين حين يخلو الشارع من المارة وينفرد هذا الرجل فى متجره إذا كانت الساعة الثالثة بعد الظهر . وهؤلاء الفتية قد دبروا جريمتهم واستعدوا لها وكادوا يقدمون عليها ، ولكنهم مشفقون من أن يؤخذوا ، فنفوسهم تقدم لتحجم ثم تحجم لتقدم ، ثم يكون بينهم شىء من الاختلاف فلا تقترف الجريمة وينظر الفتى فاذا النهار قد تقدم ، وإذا المساء قد أقبل ، وإذا الموعد قد أزف للقاء هذا الفتى الأبيض الذى يريد أن يتخذه لسيارته سائقاً . وهو يسعى إلى دار هذا الفتى ، ولا يكاد الباب يفتح له وتلقاه الخادم وتقدمه إلى سيدها حتى تثور فى قلبه عواطف مختلفة أشد الاختلاف ؛ فهو مبغض أشد البغض لهذا الغنى الأبيض ، محتاج أشد الحاجة للعمل عنده . لو أطاع نفسه لهجم على هذا الرجل فاستلبه الحياة استلاباً ، ولكنه لا يطيع نفسه وإنما يطيع حاجته إلى العمل وفقره إلى ما يقيم أوده وأود هؤلاء الثلاثة الذين خلفهم وراءه والذين لا يجدون ماينفقون . وهو يسعى خلف هذا الرجل الذى يقوده إلى مكتبه ، ولكنه يلقى فى طريقه صورة تروعه وتقع من نفسه موقعاً غريباً : إمرأة جميلة عمياء قد لبست البياض وهى تسعى متحسسة من طريقها تصاحب الجدار حتى لا تضع رجلها فى غير موضعها . ويراها صاحب الدار فيرفق بها أشد الرفق ، فهى إذن زوجه وهى سيدة الدار .

ويبلغ الفتى مكتب هذا الرجل الغنى ويأخذ مجلسه ويسمع لسيده الجديد ، فاذا هو يتحدث إليه حديثاً رقيقاً عذباً فيه كثير من العطف ، وإذا هو يعده وعوداً مغرية فسيدفع إليه أجراً حسناً ، وسيكون عمله هيناً يسيراً ، وسينزله من داره منزلا وثيراً ، وسيعينه على أن يتم تعليمه فى مدرسة من مدارس المساء . وهو يسمع هذا كله راضياً به ساخطاً عليه فى وقت واحد : راضياً به لأنه محتاج إليه ، ساخطاً عليه لأنه يأتيه من غنى أبيض . وإنهما لفى ذلك إذ تدخل فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها رشيقة أنيقة عذبة الروح خفيفة الظل حلوة الحديث ، ولا تكاد ترى الفتى حتى تتحدث إليه فى دعابة وتسأله أمتصل هو باحدى النقابات ؟ وقد فهمنا أن هذه الفتاة الخفيفة الذكية الخرقاء مفتونة بحرية السود وبحرية الطبقة العاملة وبالمذهب الشيوعى بوجه عام . وقد انصرفت الفتاة بعد أن ضربت موعداً لهذا الغلام على أن يؤديها فى السيارة إلى الجامعة

حين يقبل الليل . وانصرف الفتى إلى المطبخ ، فلقيته الخادم فأطعمته وسقته وبينت له من أمر سادته أنهم قوم كرام أخيار لا يبطرهم الثراء الضخم ، ثم دلته على غرفته فإذا غرفة مترفة حقا . ولكن صورة الفتاة الحسناء قد ارتسمت فى نفسه وأحاطت بها هالة من البغض المنكر . وهو على كل حال قد أخرج السيارة وانتظر الفتاة حتى أقبلت . ولم يكد يخرج بها من الدار حتى وجهته وجهة غير وجهة الجامعة ، ثم أفضت إليه فى رشاقة وظرف بشيء من سرها وطلبت إليه أن يكتم عليها أمرها ؛ فهى لا تذهب إلى الجامعة وإنما تذهب للقاء صديق . وقد وقفت السيارة أمام دار ضخمة ، ونزلت الفتاة فغابت لحظة ثم عادت ومعها فتى قدمته إلى الغلام فصافحه الفتى ، وأنكر الغلام الأسود هذه المصافحة من فتى أبيض وسيم ، ثم لم يلبث أن أنكر منهما كل شيء ، فهما يتحدثان إليه حديثاً قد برىء من الكلفة . وما يمنعهما من ذلك وهما شيوعيان لا يريان الفرق بين الألوان ولا يريان الفرق بين الطبقات ؟ وهما يريدان أن يتخذا من هذا الغلام الأسود رفيقاً لهما لا يعنيهما أن يكون أسود ولا أن يكون سائقاً لسيارة ، بل هما يألفانه من أجل هاتين الخصلتين . وهما يلحان عليه فى أن يؤديهما إلى مطعم من مطاعم السود ، وأن يختار لهما من هذه المطاعم مطعماً أنيقاً . والفتى يطيع ، ثم يدعوانه إلى أن يشاركهما فى عشائهما ، فيأبى فيلحان فيجيب كارهاً . وقد جلس ثلاثتهم إلى المائدة فطعموا وشربوا وتحدثوا . والغلام الأسود منكر لهذا كله ، مستحى من هذا كله ، يكره أن يراه نظراؤه السود يؤاكل قوماً من الأغنياء البيض . ثم ينصرفون عن المطعم فيمضون للنزهة ويسرف الفتيان على أنفسهما وعلى الغلام الأسود فى الشراب فيشربان ويسقيانه حتى يأخذ السكر منهم جميعاً . وقد تقدم الليل حتى كاد يبلغ ثلثيه، وانصرف الفتى الأبيض قريباً من دار الفتاة بعد أن ودع صاحبته وساقاها شيئاً من الخمر على أنها شربة الوداع . وقد تواعد الفتيان على أن يلتقيا بعد ثلاثة أيام ؛ لأن الفتاة ستسافر من غد فى أول النهار . ويبلغ الغلام الأسود بالفتاة دارها ووقفت السيارة ، ولكن الفتاة لا تستطيع حراكاً قد أخذ السكر منها مأخذاً عظيماً . يعينها الغلام الأسود على أن تخرج من السيارة ، ولكنها لا تستطيع أن ترقى السلم ، فيعينها على ذلك ، ولكنها لا تستطيع أن تدخل الدار لأنها لا تستطيع أن تستقل على قدميها ، فيحملها الغلام الأسود بين ذراعيه

ويبلغ بها غرفتها بعد جهد شديد وقد وضعها على سريرها ، ولكنه ليس أقل منها سكراً ، وقد رأى بينها وبين صاحبها الأبيض ما أثار في نفسه شيئاً من الاغراء . وهو متردد يهم وما يكاد يفعل ، والفتاة لا تعقل ولا تقاوم . ولكن باب الغرفة يفتح في رفق وتدخل منه هذه الصورة البيضاء الشاحبة التي تتقدم متحسسة من طريقها ، وقد امتلأ قلب الغلام الأسود خوفاً وفرقاً يشفق أن تنطق الفتاة فتنبئ بمكانه فتكون الكارثة . وأي كارثة أعظم من أن يؤخذ غلام أسود مع فتاة بيضاء في غرفة نومها ! وهنا يفقد الفتى صوابه وتستأثر به الغريزة غريزة الدفاع عن النفس ، فيأخذ وسادة ويضعها على فم الفتاة حتى لا تنطق ، وهو يضغط على الوسادة والفتاة تضغط بأظافرها على يده ، والأم تدعو ابنتها ، والغلام الأسود يلح في الضغط ، والأظافر تتراخى شيئاً فشيئاً ، ثم تنحى الوسادة وينتقل الفتى من مكانه في رفق ، والأم تدعو ابنتها وقد ألصق الغلام الأسود جسمه بالجدار والأم تسعى متحسسة من طريقها حتى تبلغ السرير فتمس ابنتها وتنحني عليها ، ثم تنصرف محزونة ترى أن ابنتها نائمة ، ولكنها تشم رائحة الخمر فيحزنها أن ابنتها قد أمعنت في السكر . وهي ترجع متحسسة من طريقها حتى تخرج وتغلق الباب من ورائها . ويدنو الفتى من السرير فلا يروعه إلا أن يرى أنه يخلو في هذه الغرفة إلى الموت .

فهؤلاء ثلاثة قد خلا بعضهم إلى بعض : غلام أسود ، وليل حالك ، وموت لا لون له . وقد أخذ عقل الفتى يثوب إليه شيئاً فشيئاً ويثوب معه الجزع والهلع وتثوب معهما الغريزة التي تريد أن تدافع عن نفسها وتفتح للعقل أبواباً مختلفة من الحيل . فما عسى أن يصنع الفتى بهذه الفتاة الميتة ؟ أيتركها ويمضي لوجهه ويلتمس الهرب ؟ ولكن هربه سيثبت عليه الاثم ولن تلبث الشرطة أن تتعقبه وتأخذه . أيتركها ويذهب إلى غرفته لينفق بقية الليل ؟ ولكن أهلها سيجدونها ميتة إذا أصبحوا وسيبحثون ويستقصون وسيكون هو أول من يوجه إليه السؤال . فكيف يجيب ؟ وما عسى أن يقول ؟ وهنا يذكر الفتى أنه سمع الفتاة تتحدث بسفرها مع الصبي ، وتتقدم إليه في أن يقوم مبكراً لينزل حقيبتها وليحملها هي إلى القطار . فما هي إلا أن تخطر له هذه الخاطرة حتى تتفتح له أبواب من الحيل يرى بعضها واضحاً جليا ويتراءى له بعضها الآخر في شيء من الغموض والخفاء . وينظر فاذا الحقيبة بين يديه قد

أعدت لتضع الفتاة فيها ما تحتاج إليه من ثياب ومتاع . وما هي إلا أن يعمد إلى جثة الفتاة فيضعها في الحقيبة ، ويحمل الحقيبة متكلفاً حملها ويسعى متلمساً طريقه مترفقاً في سعيه حتى يبلغ أدنى الدار ، هناك حيث يقوم الموقد الضخم الذي لاتخمد ناره ليلا ولا نهاراً والذي علمته الخادم كيف يغذيه بالفحم حتى لا تخمد ناره ولا تضعف وكيف يزيل منه الرماد إذا كثر فيه الرماد . وما هي إلا أن يفتح باب الموقد ويدفع فيه بجثة الفتاة ، ولكن الموقد لايشتمل على الجسم كله فما زال الرأس خارجاً منه لا سبيل إلى رده إليه . وينظر الفتى فاذا فأس من هذه الفؤوس التي يقطع بها الخشب ،فما هي إلا أن يأخذها ويهوى بها إلى الرأس فيبينه من سائر الجسد ، ثم يضعه في المكان الملائم له من الموقد ثم يغلق باب الموقد وقد أسلم الجثة إلى نار لاتبقى ولا تذر ، ثم يرد أحد شطرى الحقيبة إلى شطرها الآخر ، ثم ينصرف وقد أحكم رأيه إحكاماً . لقد أمرته الفتاة أن ينزل الحقيبة إلى أسفل الدار وأن يغدو مبكراً ليحملها إلى المحطة فلا عليه من أن ينفذ ما صدر إليه من أمر ، فاذا سئل عن الفتاة أجاب بأنه لا يعرف من أمرها أكثر من أنه عاد بها وبصاحبها إلى الدار وصعد معهما ومع صاحبها إلى الغرفة لحمل الحقيبة وأنزلها وأمر أن يترك السيارة أمام السلم لا يردها إلى مكانها . وقد أقبل مع الصبح فلقى الخادم وحمل الحقيبة ، وسئل فأجاب . ولم تنكر الخادم من جوابه شيئاً . فالفتاة نزقة طائشة كثيرة العبث والمجون وكل شيء منها ممكن . ويتقدم النهار حتى يوشك أن يبلغ آخره ، وإذا صاحبة الدار تسأله فيجيبها بمثل ما أجاب به الخادم ، ويسأله صاحب الدار فيعيد عليه نفس الجواب . فاذا كان الغد تلقت الدار دعاء من المحطة إلى أخذ الحقيبة التي تركت في مستودع الودائع ، فعرفت الأسرة أن الفتاة لم تسافر ، وجعلت الظنون تذهب بها كل مذهب . وقد تبينت الأسرة أن الفتاة تركت كثيراً من الثياب التي كانت تريد أن تحملها في سفرها . ومهما يكن من شيء فقد استأثر الخوف بالأبوين جميعاً . ودعى السائق فتشدد في سؤاله الأب وتشدد معه بعض المتجسسين الذين يعملون له في شركاته الضخمة . وكان هذا المتجسس يريد أن يتهم الفتى ، ولكن الأب يدافع عنه ، ويرى أنه فتى مستقيم . وإذن فلتلصق التهمة بهذا الشيوعي الشاب الذي أنفق مع الفتاة ليلته تلك . وقد أخذ هذا الشيوعي

فألقى فى السجن . واستقامت للغلام الأسود أموره حتى طمع فى أكثر مما بلغ .

ويجب أن نلاحظ أن هذا الغلام لم يكد يدفع الخوف عن نفسه ويزيل أثر الجريمة حتى رضى عن كل ما فعل ، وأحس أن الجريمة قد كشفت له عن شخصيته وردت إليه حريته وأتاحت له وجوداً لم يعرفه من قبل ؛ فهو قد قتل فتاة بيضاء وحرق جسمها فى النار ، وروع بها أبويها ، ودفع فتى أبيض بريئاً إلى السجن ، وأخذ ما كانت الفتاة تحمل فى حقيبة يدها من مال ، وهو مع هذا كله مطمئن يذهب ويجىء ويأكل ويشرب وينام . هو إذن حر ، وهو إذن سيد نفسه ، وهو إذن موجود على نحو ما يقول أصحاب الفلسفة الوجودية ، وهو إذن محتمل تبعة كل ما أتى وكل ما يأتى من الأعمال . قد كان شخصيته مغمورة ، وكانت قوته وحيلته ومهارته مغمورة مع هذه الشخصية . فالآن وقد كشفت له الجريمة عن نفسه وعن قدرته وعن حيلته فهو يستطيع أن يصنع أكثر مما صنع وأن يقدم على أكثر مما أقدم عليه . وما يمنعه أن يزوّر كتاباً إلى الأسرة ينبئها فيه بأن الفتاة مخطوفة أسيرة عند خاطفيها ، وبأن من الممكن أن ترد إلى أهلها إذا وضعوا مقداراً من المال فى مكان ما ؟ وما يمنعه إذا وضع هذا المقدار من المال فى المكان الذى اختاره أن يأخذه وينفى به نفسه من الأرض إلى حيث يعيش آمناً حرا مستمتعاً بشخصيته وقوته وذكائه وحيلته ؟ ولكنه فى حاجة إلى شريك يعينه على إتمام هذا الكيد ، وهذا الشريك قريب منه وهو خليلته السوداء التى شاركته فى بعض الجرائم ، والتى وصلت أسبابها بأسبابه فى الخير والشر جميعاً . فهو يسعى إلى هذه الفتاة السوداء ويأخذها بما تعود أن يأخذها به من الحب والعبث والسكر ثم يظهرها على بعض الأمر لا على الأمر كله ، ثم ينبئها بما دبر من حيلة ليحتاز عشرة آلافا من الدولارات . والفتاة تأبى وتلح فى الاباء ، وتخوفه العاقبة . ولكنه يرغبها ويرهبها ويلهيها ويسقيها حتى تظهر له الطاعة ، وإذا هو يكتب الكتاب ويحمله إلى الدار ويلقيه من وراء الباب ، ويسرع إلى غرفته ينتظر فيها الأحداث . وما هى إلا ساعات حتى يرى نفسه فى أدنى الدار أمام الموقد ، وقد أقبلت جماعات الصحفيين الذين يريدون أن يعرفوا تفصيل ما ذاع من أنباء هذه الفتاة . وهم يسألون ويلحون فى السؤال ، والفتى الأسود قائم أمامهم كأنه لا يعرف من الأمر أكثر من أنه رد الفتاة وصاحبها الأبيض إلى الدار حين تقدم الليل ،

وهما ثملان ، والقوم مقتنعون بأن هذه الجريمة الغامضة أثر من آثار الشيوعيين .
ولكن صاحب الدار يقبل فيني هؤلاء الصحفيين بأنه تلقى كتاباً يحدثه بأن ابنته أسيرة ، وبأن عليه أن يفتديها بالمال ، ثم ينبئهم بأنه سيدفع هذه الفدية . ثم يتقدم إليهم في أن يحتاطوا فيما ينشرون في صحفهم حتى لا يفسدوا عليه الأمر ، فهو لا يريد إلا أن يجد ابنته .

وفي أثناء ذلك تقدم الخادم وقد حملت أقداح القهوة إلى الصحفيين وتطلب إلى السائق أن ينظف الموقد ، فقد تراكم فيه الرماد حتى كادت النار أن تخمد ، وكان الغلام الأسود سعيداً لما سمع من حديث صاحب الدار ، فسيوضع المال في المكان المختار إذن ، وستأخذه خليلته السوداء ، وسيلقاها بعد ذلك ويفر معها من هذه الأرض ليس بينه وبين الثراء والحرية إلا ساعة أو بعض ساعة . ولكن هذا الأمر الذي صدر إليه بتنظيف الموقد يملأ قلبه روعاً . فما عسى أن يكون في الموقد؟ وكيف السبيل إلى تنظيفه بمشهد من هذه الجماعة من الصحفيين ؛ وهو يتردد ثم يتثاقل ، ولكن النار قد أخذت تخمد وأخذ الدخان يتكاثف ، ويفسد على الصحفيين قهوتهم ، فيتقدم الفتى ويفتح الموقد ويهم ، ولكن يده لا تطيعه ، وإذا هو واجم لا يصنع أو لا يكاد يصنع شيئاً . فينهض أحد الصحفيين ويأخذ المسحاة من يده ، ويحرك هذا الرماد ثم يحدق فيه ، ثم يدعو زملاءه ثم يأخذون جميعاً في التحديق ، والغلام الأسود يسمع وكأنه لا يسمع ويرى وكأنه لا يرى ، ويرجع أدراجه في رفق كأنما يخلي بين الصحفيين وبين الموقد ، ثم ينسل من الدار ولم يشعر به أحد وقد انهارت آماله كلها انهياراً ، وعاد الخوف إليه كهيئته حين قتل الفتاة وأسلم جثتها إلى النار . فقد استكشف الصحفيون في رماد الموقد عظام ، واستكشفوا الفأس التي أبين به الرأس ، واستكشفوا بعض الحلى الذي كانت الفتاة تحمله . لم يبق للغلام الأسود إلا الهرب . ولكن كيف السبيل إلى الهرب ومن ورائه شريكته تلك التي ستؤخذ وتسأل وترهق حتى تشهد عليه . فليتخفف من هذه الشريكة وقد فعل ، فسعى إليها وأنبأها بأمره كله ، واقتادها من بيتها تحت الليل إلى دار من هذه الدور الخالية التي تنتظر المستأجرين ، وفي هذه الدار خوفها وألهاها وسقاها حتى نامت ، ثم عمد إلى لبنة فما زال يضرب بها رأسها حتى شدخه واستيقن أن الفتاة قد ماتت ، فألقاها من النافذة وسقط جسمها في فناء الدار .

ووجد مع ذلك وسيلة إلى أن يخرج ويشترى صحيفة ويعلم منها أن الشرطة تبحث عنه وتدل عليه بصورته ، وتحاصر أحياء السود ، وتلقى بكثير منهم فى السجون ، وأن الطرق المؤدية إلى المدينة قد أخذت على الخارجين منها والداخلين فيها ، فلن يستطيع من المدينة خروجاً . وهو إذن يحاول أن يستخفى دون أن يخرج من المدينة ودون أن يترك هذه الدور الخالية . ولكن هذه الدور تفتش داراً بعد دار ، وقد دخلت الشرطة الدار التى يختبئ فيها ، فيصعد إلى السطح ، وما تزال الشرطة به تطارده من مكان إلى مكان وهو يطاولها ويراوغها ثم يواجهها بالمسدس ، ولكنه يؤخذ آخر الأمر بعد خطوب عرضها الكاتب أبرع عرض وأروعه . وهو على كل حال قد أخذ . والغريب أنه مشفق من الموت، ولكنه لا يحس ندماً على شئ مما قدمت يداه .

وقد ظهرت براءة الفتى الشيوعى الذى تجنى عليه هذا الغلام الأسود ، فردت إليه حريته ، وأقبل ذات يوم مع محام شيوعى على هذا الغلام فى سجنه ينبئه بأن صديقه المحامى قد تطوع بالدفاع عنه ، وبالدفاع عنه مخلصاً مؤمناً بأنه يدافع عن الحق الذى لا شك فيه .

والمدينة كلها ثائرة تريد رأس هذا المجرم . وليست الثورة مقصورة على البيض الذين وقع الاعتداء على فتاة من فتياتهم ، وإنما السود يشاركون أيضاً فى هذه الثورة ؛ لأن المجرم قد عرضهم لسخط البيض وانتقامهم وأذاهم المتصل ؛ فهم يريدون رأس هذا الفتى الذى أيقظ الشر وقد كان نائماً ، وجر عليهم عذاباً كان قد كف عنهم منذ حين .

وما أريد أن ألخص خير ما فى هذا الكتاب ، وهو تصوير حياة هذا الغلام الأسود فى سجنه ، وموقفه أمام قاضى التحقيق ثم أمام القضاة ، ولا أن ألخص موقف النيابة منه ، ومن القضاء ، ومن المحامى الذى تكلف الدفاع عنه ، ولا أن ألخص موقف الجماعات التى كانت تزدحم حول السجن لتقتل الفتى حين يخرج منه ، أو حول المحكمة لتقتل الفتى حين يصل إليها ، حتى كانت الشرطة تجد فى حمايته من هذه الجماعة أعظم المشقة وأثقل الجهد .

وإنما أكتفى بتلخيص النظرية التى اعتمد عليها المحامى فى الدفاع عن هذا المجرم ؛ فهو لم ينكر الجريمة ، ولم ينكر استحقاق المجرم للموت ، ولكنه طلب إلى القضاة أن يتعمقوا الظروف التى حملت هذا الغلام على اقتراف جريمته أو

جريمته . فهذه الظروف ليست جديدة ولا طارئة ، وإنما هى قديمة وهى متصلة أدق الاتصال وأوثقه بهذه الصلة القائمة بين حياة السود والبيض : قوم يستعلون ويستكبرون ويعسفون ويخسفون ، وقوم آخرون يخضعون لهذا الاستعلاء والاستكبار ، ويذوقون ألوان الذل والهوان ، ويحاولون أن يخرجوا من ذلك إلى شىء من الأمن والدعة ، فيرى البيض فى محاولتهم هذه جموحا وعدواناً ويردونهم إلى حياتهم البغيضة أعنف الرد وأثقله . لقد حاول هذا الفتى أن يخرج من طوره هذا المنكر ، فلم يجد إلى ذلك سبيلا : طمع فى أن يعمل فى الأسطول فعلم أنه لن يعمل فيه إلا خادماً ،وطمع فى أن يعمل فى الجيش فعلم أنه لن يعمل فيه إلا خادماً ، وفكر فى أن يعمل فى السلاح الجوى فعلم أن لا أمل للسود فى هذا السلاح ، وهمّ بأعمال أخرى فرد عنها فى عنف كما رد عن هذه الأعمال ؛ فاضطر إلى حياته تلك الفارغة إلا من الموجدة والحقد وانتهاز الفرصة لاقتراف الاثم .

هو وأمثاله من السود خائفون من البيض يتربصون بهم الدوائر وينتظرون بهم المكروه . والبيض خائفون منهم يمسكونهم فى حياتهم هذه المنكرة ويسرفون عليهم فى الإذلال ، ويرون الشر كل الشر والنكر كل النكر فى كل ما يصدر عنهم من عمل . وما دام الخوف هو أساس الحياة وقوام الصلات بين السود والبيض فلن يمتنع ارتكاب الجرائم ولا اقتراف الآثام . وموت هذا الفتى إن قضى عليه بالموت لن يمنع من أن ينشأ فتيان آخرون أمثاله يملأون قلوب البيض روعاً وجزعاً ، وينتهزون الفرص ليقتلوا ويسرقوا ويملأوا الأرض شرًّا . فاذا لم يكن بد من عقاب هذا الفتى ، فليمسك فى السجن إلى أن يموت ، مع أن عقابه لن يغير من الأمر شيئاً ، وإنما الذى يغير الأمر هو أن تصلح الحياة الأمريكية وتقام الصلات بين الأمريكيين ، مهما تختلف ألوانهم ، على نظام من العدل والمساواة .

وواضح أن القضاة قد سمعوا لهذا الكلام ، وقضوا على الفتى بالموت . وواضح كذلك أن المحامى قد التمس تخفيف العقوبة من الحاكم فلم يظفر بشىء . ولكن أوضح من هذا وذاك أن الكاتب قد استطاع بصدق لهجته من جهة ، وببراعته الفنية من جهة أخرى ، وبدقة تصويره للحقائق من جهة ثالثة ، أن يملأ نفس القارىء بغضاً لهذا المجرم فى الشطر الأول من كتابه ورحمة له ولأمثاله فى الشطر الأخير من كتابه ، وأن ينقلك فى رفق رفيق من منزلة البغض التى ليس بعدها بغض إلى منزلة الرثاء الذى ليس بعده رثاء .

وأنت بعد هذا كله تقرأ هذين الكتابين، فما أسرع ما تنغمس مع الكاتب في الحياة الأمريكية حتى كأنك تحياها مع أصحابها لا إنك تقرأ أنباءها وصورها في كتاب !

أتظنني أسرف حين أثني على هذين الكتابين ، وحين أتمنى على الذين يحسنون الانجليزية ، أن يتيحوا قراءتهما للذين لا يحسنون هذه اللغة من الشرقيين ؟

طه حسين

فيك سور سير ، ٣ سبتمبر ١٩٤٧

فى أفق السياسة العالمية

أسبانيا بعد الحرب

من الظواهر السياسية التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، أن الدول التى لزمت الحيدة فى أثناء الحرب ، قد باءت بعد انتهائها بغضب ومقت شديد من لدن الدول المنتصرة ، حتى إنها إلى الآن لتلقى من المضايقات الدولية والاقتصادية كثيراً مما تعانيه الشعوب المغلوبة نفسها . وإن فى استبعاد السويد وسويسرا وأرلندة وأسبانيا من حظيرة الدول التى اجتمعت فى سان فرنسسكو عام ١٩٤٥ لوضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة لدليلا على الوصمة التى لحقت الدول المحايدة بعد الحرب . وليس غريباً أن يكون هذا نصيب البلاد المحايدة بعد أن أصبحت الحرب ظاهرة عالمية لا يكاد شررها يندلع بين دولتين حتى تعم نارها ويستعر أوارها ، فاذا الجو والماء واليابسة جميعاً ميدان للحرب ، وإذا الحدود بين الدول خطوط وهمية ، والمعاهدات والاتفاقات الدولية قصاصات من الورق بالية . فلا عجب إذن أن تصبح الشعوب فى زمن الحرب ولا عاصم لها من إغارة المغيرين أو غزو الفاتحين سواء أحاربت فى الميدان أم لم تحارب . وما دامت الكشوف العلمية الحديثة قد حولت الحرب من حادث محلى أو قارى إلى ظاهرة كونية قد يتجاوز تأثيرها بفضل الطاقة الذرية كوكب الأرض نفسه ، فما جدوى الحيدة وما قيمتها .

ولم تصب دولة محايدة على أيدى الحلفاء بعد الحرب بمثل ما أصيبت به أسبانيا . فالحلفاء يعتبرون أن نظام الحكم القائم فيها وليد تدخل قوات المحور ، وأنه لولا مساعدة إيطاليا وألمانيا ما استطاع فرنكو أن يخضع الشعب الأسبانى لحكمه . ويؤكدون أن الحيدة التى لزمتها أسبانيا فى الحرب العالمية الثانية لم تكن إلا حيدة موالية للمحور بدليل الفرق الزرقاء التى قدمتها أسبانيا لمحاربة الشيوعية إلى جانب الألمان ، وبدليل ما كانت تلقاه الغواصات والطائرات الألمانية التى كانت تلوذ بالخلجان والموانى الأسبانية من عون وتستر من جانب

السلطات الأسبانية . ولا تزال حكومات الحلفاء تنشر بين آونة وأخرى مستندات مختلفة المصادر تدوركلها حول ما كان سائداً بين فرنكو وهتلر من تفاهم أدى إلى عقد اتفاق بينهما ، فحواه أن ينضم فرنكو إلى جانب المحور فيسمح للقوات الألمانية باختراق أسبانيا إلى شمال إفريقية ، وفى مقابل ذلك تستولى أسبانيا على جبل طارق من بريطانيا ومراكش من فرنسا . ولم يحل دون تنفيذ هذا الاتفاق سوى أن هتلر قد شغل بالميدان الروسى فألهاه ذلك عن متابعة التفكير فى غزو شمال إفريقية . ولو قدر للاتفاق أن ينفذ فى بداية الحرب لتعذر على أمريكا والحلفاء تسيير حملتهم الكبرى على سواحل بلاد المغرب .

لذلك كله لم يدع الحلفاء فرصة تمر دون أن يعلنوا مقتهم لنظام فرنكو ورغبتهم الصادقة فى أن يزول حكمه عن البلاد . ونتج من ذلك أن بقيت أسبانيا بمعزل عن الأمم المتحدة ، وفقدت ما كان لها من مزايا فى ميناء طنجة ، وكاد الروس ينجحون فى ضم اسم فرنكو إلى قائمة مجرمى الحرب .

أما فرنكو فيقول فى الدفاع عن خطته إنه بالتزامه الحيدة قد أسدى خدمة جلى للحلفاء ، وإنه قد تمسك إلى النهاية بحيدته رغم إلحاح المحور وضغطه . وإنه إذا كان الألمان قد أفادوا من حيدة أسبانيا فان الأحرار الفرنسيين قد وجدوا من أسبانيا فى أثناء الاحتلال الألمانى ملجأ وملاذاً لهم . ويكفى دليلا على حسن طوية الحكومة الأسبانية أنها لم تحرك ساكناً عند ما نزلت حملة إفريقية الشمالية على سواحل الأطلنطى والبحر المتوسط على مرأى من السلطات الاسبانية وقريباً من قواعدها .

على أن أمضى سلاح يذود به فرنكو عن نفسه وعن نظامه أمام العالم أنه بانتصاره على الجمهوريين فى أسبانيا قد صان غرب أوربا من طغيان العناصر الشيوعية قبيل الحرب وبعدها ، وأن أسبانيا بفضل نظامها قد أصبحت الحصن والدرع الوحيد فى أوربا الذى قاوم النفوذ الشيوعى . فبينما نرى بلدان وسط أوربا وشرقيها بل فى أجزاء من غربيها أيضاً قد اصطبغت كلها أو معظمها باللون الشيوعى إذا بأسبانيا تقف وحدها ثابتة فى موقفها بمعزل عن الشرق والغرب جميعاً ، وهى إلى ذلك مزهوة باستقلالها راضية عن جهودها فى سبيل درء الخطر الأجنبى عنها .

وأما الشعب الأسبانى نفسه فله رأيه الخاص فيما وصلت إليه حاله . ومن

العسير أن يتبين الباحث رأى الشعب فى أسبانيا أو أن يتفق هذا الشعب على رأى واحد . ذلك لأن فى أسبانيا ثلاث مناطق متباينة لكل منها لغتها وتقاليدها واقتصادياتها الخاصة . ففى الشمال الشرقى منطقة كتالونيا الغنية بتجارتها ومنتجاتها ، وقاعدتها برشلونة أهم موانىء أسبانيا . وفى الشمال منطقة الباسك الشهيرة بمعادنها ومصانعها ، وأهم مراكزها بلباو . وفى هاتين المنطقتين تكثر الحركات العمالية ، والرأى العام فيها ينتمى إلى الأحرار غالباً ، وكانت كتالونيا فى أثناء الثورة الأهلية أقوى حصون الجمهوريين . ثم منطقة السهول الزراعية والمراعى ، وفيها العاصمة مدريد . وكثرة السكان فى هذه المنطقة من المحافظين الذين يقدسون الكنيسة الكاثوليكية ولا يزالون يحسنون الظن بالملكية . وقد ساعد على اختلاف الرأى بين سكان هذه المناطق أن الدستور الأخير الذى أصدرته حكومة الجمهورية قد خول لمنطقتى كتالونيا والباسك حق الاستقلال الذاتى ، وبذلك اتسعت الهوة بين أهل البلاد الواحدة ولم تعد الوحدة السياسية ملحوظة فى أسبانيا كما كانت فى عصر شرلكان وخلفائه .

أما الأحرار فيعتقدون أن الحرب الأهلية فى أسبانيا كانت مقدمة للحرب العالمية الثانية ، وأن على الحلفاء أن يحرروا الشعب الأسبانى من النظام « الفلنجى » الذى أنشأه فرنكو كما حرروا شعوب أوربا الأخرى من النازية والفاشية . فما نشبت الحرب فى رأيهم إلا للقضاء على النظم الدكتاتورية ، وما دامت المبادىء الديمقراطية هى التى انتصرت فى النهاية فلا معنى لابقاء الحلفاء على دولة دكتاتورية قد تصبح بعد قليل عشا تبيض فيه النازية أو الفاشية وتفرخ . وأكثر الأحرار تحمساً الجمهوريون الذين هاجروا من بلادهم على أثر انتصار الوطنيين واستوطنوا فرنسا وجمهوريات أمريكا وأنشأوا لهم فى المنفى حكومة جمهورية أعلنوها فى المكسيك فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ ثم تجمع كثير منهم فى جنوبى فرنسا بعد الحرب وجعلوا يعملون سرا وعلانية لقلب حكومة فرنكو مقتفين فى ذلك أثر جماعات المقاومة من الفرنسيين المعروفين بالماكى **maquis** الذين كانوا يعملون تحت الأرض لمقاومة الألمان فى أثناء فترة الاحتلال . وللجمهوريين قوات مسلحة تقيم على الحدود بين فرنسا وأسبانيا فى انتظار الوقت المناسب لدخول أسبانيا طوعاً أو كرهاً .

ويبلغ عددهم نحــو خمسين ألف رجل من مجموع عدد المهاجرين ، ويقدرون بنصف مليون أسبانى .

وليس الجمهوريون جميعاً من الشيوعيين ، فبينهم كثيرون يؤمنون بالنظم النيابية الديمقراطية وينظرون إلى فرنسا و بريطانيا وأمريكا كمثل عليا يقتدون بها وينسجون على منوالها فى الحكم . ولا عيب فى هذه الجماعة إلا أن أفرادها لطول غيبتهم عن أسبانيا قد فقدوا الاتصال عن كثب بروح الشعب وآرائه وحاجاته ، وعجزوا عن تقدير ما أسداه النظام الحالى للبلاد من استقرار وتنظيم لشؤونه واقتصادياته . أما ما يؤخذ على الجمهوريين من أنهم فى سبيل تحقيق أغراضهم لا يترددون فى التماس المعونة من العناصر الشيوعية الأجنبية فقد يكون صحيحاً ، ولكننا نعتقد أن طبيعة الكبرياء الوطنى عند الأسبان تجعلهم يأبون أن تشد بلادهم إلى عجلة دولة أجنبية أيا كانت .

أما الملكيون فهم إلى نظام فرنكو أقرب منهم إلى النظام الجمهورى ، ولكن الاشتراك فى الهجرة وآلام المنفى ورغبتهم جميعاً فى القضاء على فرنكو — كل ذلك قد قرب مسافة الخلف بين الملكيين والجمهوريين بدرجة شجعت على القول بامكان تآلف الفريقين ضد فرنكو .

والمعروف أن فرنكو لا يعادى الملكية فى أسبانيا ؛ فقد كان من أول أعماله حين تولى السلطة أن أعاد الحقوق المدنية للملك السابق الفونسو الثالث عشر ، وأنه بعد موت الملك كاد الاتفاق يتم بين فرنكو ودون جوان المطالب بالعرش لو لم تقف هيئة الأمم المتحدة موقفها العدائى ضد فرنكو . وقد انتقل الأمير بعد الحرب من سويسرا إلى انجلترا ومنها إلى البرتغال واتخذ له ولأتباعه مقرا قريباً من لشبونة ليرقب منه الحالة عن كثب . وقد أعلن الأمير نهائيا أنه لا يقبل التاج من يد فرنكو ، وأن على فرنكو أن ينزل أولا عن سلطانه حتى يصعد الأمير على عرش آبائه الوراثى . ولكن فرنكو لم يأبه بتمنع دون جوان وهو يعلم أن تاريخ الملكية فى أسبانيا لا يشرف كثيراً ولا يثير بين الشعب من الحماسة ما تثيره انتصارات « الزعيم » . لذلك انتهز فرنكو فرصة احتفال الشعب بالذكرى الثامنة لانتصار الجيوش الوطنيــة فأعلن فى مارس الماضى قانون وراثة العرش الذى يقضى بأن تكون أسبانيا دولة ملكية لها مجلس ملكى مكون من ١٢ عضواً منهم رئيس الأساقفة ورئيس

أركان حرب الجيش ورئيس المحكمة العليا وممثلو النقابات المختلفة . وينص قانون الوراثة على أن فرنكو رئيس الدولة وعليه أن يستشير مجلس المملكة فى تعيين خلفه وفى إعلان الحرب والسلم وفى القوانين التى يرى ردها إلى مجلس الكورتيس أو البرلمان الذى أعاد فرنكو تأليفه منذ سنة ١٩٤٣ . فاذا مات رئيس الدولة أو أصبح غير قادر على الحكم فان مجلس الوصاية يتولى السلطة العليا . ويتكون مجلس الوصاية من رئيس الكورتيس ورئيس الأساقفة ورئيس أركان حرب الجيش . وعلى مجلس الوصاية أن يدعو الوزراء ومجلس المملكة إلى الاجتماع للاتفاق بكثرة الثلثين على مرشح للعرش . واشترط القانون أن يكون المرشح أسبانيا بالغاً من العمر ثلاثين سنة على الأقل كاثوليكيا ومن دم ملكى ، وأن يقسم يمين الولاء لقوانين البلاد ، وأن يحوز ترشيحه ثلثى أصوات مجلس الكورتيس .

ولما وصل هذا القانون إلى علم الأمير دون جوان أبدى اعتراضه وسخطه عليه لسببين : الأول أن الأمير لم يستشر قبل إصداره . والثانى أن الشعب لم يستفت فيه . ولعل أهم ما يدعو إلى اعتراض الملكيين أن القانون قد اشترط أن يقسم المرشح للعرش يمين الولاء للقوانين التى أصدرتها حكومة فرنكو وأن الأمير لا يريد أن تكون عودته إلى العرش متوقفة على رغبة فرنكو ، أو موافقة الكورتيس أو مجلس الوصاية أو غيرها . ومع ذلك فقد وافق الكورتيس على القانون وأجرت الحكومة استفتاء بشأنه ، فكان عدد المقترعين للقانون أكثر من ١٤ مليون ضد نحو ٧٢٢٠٠٠ اقترعوا ضده ولا تزال الدوائر الملكية دائبة الاتصال بالأمير المطالب بالعرش ، وهم يزعمون أن فى قيام حكومة ملكية دستورية خير ضمان لاستقرار البلاد والحد من المنازعات الحزبية التى مزقت وحدة البلاد وعرضتها أخيراً لويلات الحرب الأهلية .

والملكيون والجمهوريون كلاهما يعلقون أهمية كبيرة على معارضة هيئة الأمم المتحدة للحكم الفرنكى ، ويعتقدون أن فرنكو لم يلجأ إلى قانونه الأخير إلا تغطية لمركزه الذى تضعضع وتحرج فى نظر العالم بسبب قرارات هيئة الأمم المتحدة ضده فى العام الماضى . فقد قررت لجنة من مجلس الأمن أن بقاء حكم فرنكو فى أسبانيا من شأنه أن يعرض السلام الدولى للخطر . وعلى ذلك وافقت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة أن تسحب الدول سفراءها ووزراءها

المفوضين من أسبانيا ، ولكنها لم تقرر قطع العلاقات السياسية كما كان قد اقترح أولا . وقد وافقت على هذا القرار ٣٤ دولة ضد ٦ وامتنعت ١٣ دولة عن إعطاء صوتها ، ومن هؤلاء دول الجامعة العربية ، فلقى موقفها ارتياحاً من جانب فرنكو . ويظهر أن الدول العربية قد أرادت بخطتها هذه أن تكسب أسبانيا إلى جانبها ضد سياسة فرنسا فى شمال إفريقية. وقد نفذت الدول التى لها سفراء أو وزراء فى أسبانيا قرار الجمعية العمومية . ولكن القرار قد جرح كبرياء أسبانيا وأعده الأسبان تدخلا مهيناً من جانب الدول فى شؤون أسبانيا الداخلية . وكان رد الفعل الأول للقرار أن قامت فى البلاد مظاهرات حماسية رائعة تعضد فرنكو فى موقفه وتحتج على تدخل الأجانب . وكانت النتيجة أن فرنكو لم يكترث بمعارضة الدول ، فتحداها وسار على خطته التى رسمها لنفسه كما ذكرنا . من ذلك يتضح أن الأسبان بعد ثمان سنوات تحت نظام فرنكو قد أصبحوا يألفون نظامه ويقدرون ما فيه من مزايا الاستقرار والتنظيم الذى شمل جميع مرافق الحياة ، وأنهم صاروا الآن يفضلونه على ما عداه من النظم . فهم قد قاسوا كثيراً تحت نظام الملكية فى الماضى وتحت نظام الجمهورية أخيراً . وهم لا ينسون أن أسبانيا قد فقدت نحو نصف مليون نفس فى الحرب الأهلية الأخيرة ، وأن أى انقلاب آخر سواء أكان ملكيا أم جمهوريا سيفضى حتما إلى قيام حرب أهلية أخرى .ذلك لأنه إذا أعيدت الملكية ثار الشيوعيون وعرضوا البلاد لكارثة وطنية جديدة . وإذا عاد الجمهوريون أضرمت الكنيسة ورجال الجيش نار الثورة وأججوها فى صدور الفلاحين والشعب عامة . والأسبان يعلمون أن النظام الحالى فى بلادهم يقوم على قوة الجيش ، فأى مساس يناله من الداخل أو الخارج لابد أن يؤدى إلى إراقة الدماء . وقد يكونون مقتنعين بضرورة إحداث تغيير فى نظم الحكم ، ولكنهم يأبون أن يجىء التغيير عن طريق الثورة أو العنف فى الوقت الحاضر . ومع اعترافهم بأن الجيش فى أسبانيا هو أساس البلاء وأنه من أهم أسباب الضيق المالى ، فان موقف هيئة الأمم المتحدة من أسبانيا قد جعل الجيش أداة وطنية لا غنى عنها . وإذا أضفنا إلى ذلك أن الحكومة الفرنسية قد أعلنت إغلاق الحدود بينها وبين أسبانيا ، وأن الجمهوريين والارهابيين من الأسبان قد اتخذوا قواعدهم جنوبى فرنسا قرب الحدود ، وأن الحالة على الحدود قد بلغت من التوتر درجة باتت

تنذر بالخطر ، أدركنا معنى احتفاظ فرنكو بجيشه الكبير الذى يقدره بعضهم بثلاثة أرباع مليون رجل يكلفون الحكومة والشعب نفقات طائلة لا قبل لهم باحتمالها طويلا . ومع ذلك يؤثر الأسبان الابقاء على نظامهم الحالى مع اعترافهم بعيوبه ونقائصه . فهم إذ يقارنون حالهم بحال غيرهم من شعوب أوربا يرون أنهم أحسن حالا وأثبت موقفاً من غيرهم وقد بات الأسبان الآن زاهدين فى السياسة عامة وفى السياسة الأوربية خاصة ، وأخذت محاسن أمريكا والمحيط الأطلنطى تجتذب أنظارهم وتسترعى اهتمامهم من جديد أكثر من انجذابهم نحو فرنسا أو انجلترا أو البحر المتوسط . وأكبر الظن أنه إذا حدث انقلاب سياسى فى البلاد فلن تكون قبلة أسبانيا شرقية نحو موسكو ولاأوربية غربية نحو باريس أو لندن ، بل يغلب أن تبقى على حيدتها الحالية أو تولى وجهها شطر بنى جلدتها فى أمريكا .

وستكون مسألة أسبانيا أمام أنظار الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة فى اجتماعها القريب فى منتصف شهر سبتمبر الحالى . وكانت لجنة مجلس الأمن قد أوصت المجلس بأن يتخذ التدابير اللازمة لمعالجة الحالة فى أسبانيا إذا لم تستبدل أسبانيا بحكومة فرنكو حكومة غيرها فى خلال فترة معقولة . ومع أن المجلس لم يقر هذا الاقتراح فان روسيا وفرنسا بصفة خاصة يهمها أن تحل المسألة الأسبانية على وجه ترضاه ويوافق مصلحتها . ولا تزال فرنسا تعتبر أسبانيا امتداداً جغرافيا لبلادها ، وأن أسبانيا تعترض مواصلاتها مع مستعمراتها فى شمال إفريقية براً وبحراً وجواً ، فاذا كانت الحكومة القائمة فى أسبانيا غير موالية لفرنسا تعرضت مصالح فرنسا الاقتصادية والحربية لأعظم الأخطار . ومع أن فرنسا وروسيا تميلان إلى اتخاذ اجراءات مباشرة ضد فرنكو بوساطة هيئة الأمم المتحدة ، فان بريطانيا والولايات المتحدة ومعهما سائر الدول الديمقراطية تكتفى الآن باعلان آرائها ضد نظام فرنكو ، ولكنها لا تريد أن تتبع القول بالعمل وتفضل أن يقوم الشعب الأسبانى باختيار الحكومة التى توافق إرادته فى ظل استفتاء برلمانى صحيح . وقد أعلن مستر بيفن وزير خارجية انجلترا عندما تولت وزارة العمال الحكم منذ سنتين : « أن نظام الحكم فى أسبانيا مسألة تخص الشعب الأسبانى ، وأن أى تعرض من جانب الدول لشؤونها الداخلية لا بد أن يثير الشعب الأسبانى ويجعله يؤيد فرنكو فى موقفه ضد هذا التدخل الأجنبى . »

ووجه الخطر فى مشكلة أسبانيا أن نظام فرنكو يقوم كما ذكرنا على قوة جيش كبير كامل الاستعداد تؤيده كثرة من الشعب الأسبانى المقيم داخل البلاد لا خارجها . وإن أى تدخل مباشر من جانب هيئة الدول المتحدة سيلقى معارضة كالتى تلقاها الهيئة من جانب روسيا من جراء تدخلها فى شؤون البلقان . وأكبر الظن أن الحالة فى شبه جزيرة ايبريا ستبقى موازنة للحالة فى شبه جزيرة البلقان فى طرف أوربا الشرقى ، وستظل الحالة فى المنطقتين على توترها حتى يستبين للعالم قدر هيئة الأمم المتحدة وأثرها فى صيانة الحريات وحفظ السلام العام : فاما أن يكون للهيئة من القوة المادية والاستقلال فى الرأى ومن النفوذ الأدبى ما يرهب القوى الطامع ويشجع الضعيف على الاستنجاد بها ، وإما تخاذل واستسلام من جانب الهيئة لرغبات الدول الكبرى واستهتارها بالأمن الدولى ومظالم الشعوب الصغيرة ، وحينئذ تعود القوة إلى مكانها القديم فوق القانون ولا تتأتى الحلول لمشاكل البلقان وأسبانيا وغيرهما إلا عن طريق السيف والبطش . ومتى أصبحت الكلمة فى العالم الحديث للسيف وللقوة الذرية فقل على المدنية العفاء وعلى الدنيا السلام .

محمد رفعت

الهند بين الوحدة والتقسيم

الهند بلاد فسيحة تناهز فى مساحتها ثلث مساحة أوربا ، وتقارب فى عدد سكانها ٣٥٠ مليون أو نحو سدس العالم كله . ثم إنها بلاد عريقة فى المدنية ؛ لها حضارة قديمة وتراث مخلد فى التاريخ ؛ وبدونها لاتكتمل للشرق صورته المعروفة ؛ فقد مثلت ركناً هاما من أركانه فى الأعصر القديمة والوسيطة ، نبتت فيها بعض العقائد والديانات التى انتشرت نحو الشمال ونحو الشرق ، وانتشرت بالبر والبحر ؛ كما ظهرت فيها بعض ألوان الفكر والفلسفة التى نقلها الشرقيون فى غرب آسيا وشرقها على حد سواء . وهى إلى ذلك كله لا تزال تعتبر قلب الشرق الآسيوى حتى يومنا هذا ؛ احتك عن طريقها العالم الأوربى بالعالم الآسيوى ، احتكاكا تمثل فى التجارة والسياسة ، وفى الحرب والاستعمار ، ثم فى النهضة والكفاح . . . كل ذلك فى صور وأشكال تعاقبت على الزمن منذ عهد الاستكشافات حتى يومنا الحاضر . ولا تزال تلك الصور والأشكال تتجدد أمام أعيننا فى وقت يحاول فيه الغرب أن يصوغ علاقاته بالشرق فى قالب جديد ، ويحاول فيه الشرق أن يعيد بناء بيته ، وأن يرد إلى حياته بعض ما فقدت من استقلال .

ويحاول الباحثون الآن أن يتفهموا ما يجرى فى بلاد الهند من أحداث وتطورات فى الحياة القومية العامة والحياة السياسية بنوع خاص . ويختلف أولئك الباحثون ؛ فمن قائل إن العالم يتجه نحو التكتل ، وإن من الخير للهند وللعالم الشرقى أن تبقى تلك البلاد وحدة متماسكة لتكون نواة لقوة عالمية تحفظ التوازن فى جنوب قارة آسيا ، وتكون دعامة قوية من دعائم الاستقرار والتعادل فى صلات الشرق بالغرب . ومن قائل إن الوحدة فى الهند إذا لم تقم على أساس طبيعى وبشرى مكين فانها لن تكون خيراً مما حاول الانجليز فى عهد استعمارهم أن يفرضوه على سكان تلك البلاد من وحدة ظاهرية لا تمس جوهر الحياة ،

وخير منها أن تقسم الهند إلى أكثر من دولة واحدة ، وأن تأتلف من عدد من الدول المتوسطة ، يستند كل منها إلى كيان طبيعي وبشرى سليم موحد ، ويقوم ما بينها على صلات الجوار والمصالح المادية المتعادلة والمتداخلة ؛ فمثل تلك الدول الهندية المستقلة تكون أقدر على الحياة والكفاح ، وأدنى إلى القوة والتماسك القومي والعنصري من دولة هندية كبرى تسودها الفوضى وتنخر فى عظامها مشاحنات الطوائف والطبقات ، واختلافات المذاهب والعقائد والأديان.

على أن أغلب أصحاب الرأيين فى الوحدة والتقسيم إنما يطرقون الموضوع من ناحيته السياسية ؛ وهى ناحية لها خطرها الكبير ولا شك ؛ ويحاول بعضهم أن يربط بين ما يرمى إليه وبين ما كان للهند فى عهدها الأخير تحت حكم البريطانيين ؛ فيقول أنصار الوحدة إن الهند إذا كانت قد حققت فى عهد الاحتلال والاستعمار وحدتها العامة فى رياسة الدولة وفى سياسة الأمن الداخلى والمواصلات وفى الجيش والدفاع والتجارة الخارجية وغير ذلك فما أحراها أن تتابع ذلك فى عهد الاستقلال ، بعد أن تتلاشى سياسة فرق تسد ، وينزوى أنصارها من عملاء البريطانيين بين الهنود . ويقول أنصار التقسيم إن الهند ما كانت فى يوم من الأيام خلال تاريخها الطويل لتؤلف دولة واحدة موحدة ، وإن كانت قد قامت بها فى بعض الأعصر دول كبرى امتد سلطانها إلى معظم أرجاء شبه الجزيرة . كما يقولون أيضاً إن وجود البريطانيين لم يوحد البلاد إلا من أجل تسخيرها لصالح المستعمر فى التجارة والاستغلال وعن طريق الجيش الامبراطورى الذى تضرب به بريطانيا فى الهند نفسها إن أرادت وفى أقاصى الأرض متى بدرت حاجة إلى ذلك ؛ وما كانت تلك الوحدة التى فرضها البريطانيون على الهند لتمثل الوحدة السياسية القومية بالمعنى المعروف ؛ فالولايات متفرقة ، والامارات المستقلة كثيره ، والطوائف تشجع على أن يناحر بعضها بعضاً ، والطبقات ييسر لبعضها فى أن يطغى على بعض ، والمصالح الشخصية والفردية يساوم أصحابها على حساب المصالح العامة ، والثقافة الهندية تنحى تنحية لتقوم مكانها ثقافة بريطانية لا تتصل بحياة الهنود الأصلية ولا تغذى تراثهم الروحى والعقلى إلا بما يخلق طبقة جديدة قليلة من المتعلمين الذين يرتفع بهم تعليمهم يفرق ما بينهم وبين الحياة الهندية الصميمة . فالوحدة التى يقال إن تقسيم الهند يعتبر تراجعاً عنها إنما هى وحدة زائفة لا تمس حياة الهند

القومية إلا فى القشور . وإذا كان للزيف أن يعيش فى عهد الإحتلال والاستعمار فقد آن لنور الاستقلال الصحيح أن يكشفه ويبدده ؛ وعندئذ يبدو ما تحته من حقائق راسخة ، تستلزم كلها أن يعترف الهنود بأن التقسيم إن كان شرًّا لا بد منه فهو خير من وحدة تحمل فى طياتها بذور الفرقة والشقاق ، بل هو الحل العملى الوحيد لما تواجهه الهند المستقلة من مشكلات .

ومع ذلك فليس هذا مجال المفاضلة بين الرأيين من الناحية السياسية الخالصة . وخير لنا أن نتعمق الأمور ، وأن نحاول أن نرجع ببعض الظاهرات السياسية فى حياة الهند القومية إلى منابتها الطبيعية فى البيئة ، وإلى أصولها الأولى فى التاريخ ؛ فذلك أدنى إلى أن يقربنا من تفهم تلك الظاهرات فى أوضاعها الصحيحة ، ومن الحكم عليها حكما يستند إلى طبيعة الأشياء ومنطق التاريخ أكثر مما يستند إلى الرأى السياسى الخالص الذى لا يبعد أن يأتى متأثراً بنزعة أو ميل أو عاطفة .

وأول ما يسترعى النظر فى بلاد الهند أنها شبه جزيرة تحدها سلسلة شاهقة من الجبال تكاد تحجز ما بينها وبين داخلية القارة إلا فى أبواب قليلة لا سيما من الجهة الشرقية الغربية . ولذلك فقد استطاعت الهند أن تحتفظ بطابعها الخاص وشخصيتها المميزة عما جاورها وتاخمها من أقطار آسيا الداخلية . وفوق ذلك فان شبه الجزيرة الهندية تقع فى وسط آسيا الجنوبية ، ويحدها المحيط الهندى من الجنوب والشرق والغرب ، ولا يوجد فى جنوبها من اليابس غير جزيرة سيلان ؛ وهى بذلك تختلف اختلافاً ظاهراً عن شبهى الجزيرة الأخريين اللتين تمتدان من آسيا وهما شبه جزيرة الهند الصينية والملايو وشبه جزيرة العرب . فالأولى تمتد نحو الجنوب الشرقى وتنتهى إلى عدد كبير من الجزر فى اندونيزيا وما وراءها إلى استراليا وعالم الاقيانوس الهادى . والثانية تمتد نحو الجنوب الغربى وتتصل بافريقية الشمالية من جهة ، كما تكاد تلامس إفريقية الشرقية من جهة أخرى . ولذلك فان شبهى جزيرة الهند الصينية والعرب لم تمثلا منطقتين مغلقتين بالنسبة للهجرات القديمة ؛ وإنما كانتا معبراً وحلقة اتصال بين آسيا والعالم الخارجى ؛ بمعنى أن الهجرات المتتابعة التى اندفعت من آسيا إلى إحدى هاتين المنطقتين فى جنوبها الشرقى وجنوبها الغربى استطاعت أن تتابع سيرها نحو الخارج ؛ وكلما وصلت موجة جديدة من السكان دفعت ما سبقها من الموجات القديمة أمامها حتى

لايبقى منها إلا قلة ضئيلة لاتلبث أن تندمج فى الموجة الجديدة من السكان، أو حتى تخرج الموجة القديمة برمتها من شبه الجزيرة وتخلى السبيل لما يأتى وراءها من موجات . وهكذا لاحظنا أن بعض العناصر السوداء القديمة قد هاجرت من جنوب شرق آسيا إلى الاقيانوس واستراليا أمام ضغط عناصر أحدث منها ؛ كما هاجرت بعض عناصر الملايو أمام ضغط الصينيين من الشمال فى العهد الحديث . وكذلك مرت موجات متتابعة من السلالات القديمة ثم الحامية والسامية عابرة الجزيرة العربية إلى أفريقية الشرقية والشمالية . وذلك كله بخلاف بلاد الهند التى كانت تمثل منطقة مقفلة إلى حد كبير ، « تزاكمت » فيها العناصر لأنها لم تجد لنفسها مخرجاً تسير إليه إذا ما تدافعت موجات الهجرة بعضها فى إثر بعض . وقد ترتب على ذلك أن بقيت السلالات القديمة فى الهند إلى جانب السلالات الحديثة ؛ ولم تستطع تلك السلالات القديمة المستضعفة أن تغادر الهند إلى ما وراءها لأنه لا يوجد وراء الهند وسيلان غير عرض البحار ؛ وكل ما حدث أن انزوت أقدم العناصر وأضعفها فى الجهات البعيدة وغير الصالحة لا سيما عند طرف الهند الجنوبى ، أو انتقلت إلى جزيرة سيلان ، وهى عناصر بعضها أسود أو متأثر بسلالة شبه زنجية قديمة ، وتعرف بعض قبائلها بالفدّا . وإلى الشمال من هؤلاء يوجد الدرافيديون ، وهم سلالة مختلطة أثرت فيها سلالة البحر الأبيض المتوسط أو أحد أفرعها القديمة التى اختلطت فى الهند بعناصر قديمة أيضاً . ويقال إن الدرافيديين وصلوا إلى قلب الهند فى أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد وإن كانت بعض العناصر التى تشبههم قد بلغت شمال الهند قبل ذلك ، ولم تكن موجة الدرافيديين أول الموجات ولا آخراها بالطبع ؛ وإنما سبقتها وتلتها موجات أخرى ؛ وكانت أهم الموجات اللاحقة تلك الموجة الآرية ؛ وأصحابها من الشقر أو ذوى البشرة البيضاء ؛ وهم قد أتوا من سهول آسيا ، وربما كانت لهم أو لبعضهم صلة بسلالات أوربا الشمالية . وقد كان دخول الآريين الأول إلى شمال الهند الغربى حول منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ، واستقروا فى شمال الهند الغربى ، وهاجرت بعض طلائعهم نحو داخلية الهند الشمالية ، واختلطوا بغيرهم من السلالات القديمة بعض الاختلاط ، وإن كانوا قد فضلوا فى بعض الأحيان الاحتفاظ بدمائهم شبه نقية ، والترفع بأنفسهم من الناحية الاجتماعية ، فمثلوا طبقة عليا فى نظام الهند الاجتماعى . وقد تلت الآريين موجات أخرى أسيوية أيضاً،

أتت على الأخص من شمال الهند الغربى ، أى من جهة أفغانستان وتركستان ؛ كما تسربت بعض عناصر المغول إلى الهند من شمالها الشرقى وأثرت فى منطقة أسام وبنغال إلى جانب تسرب بعض المغول والأتراك عن طريق وسط آسيا إلى شمال الهند الغربى ثم شمالها الأوسط إبان القرون الوسطى ، كما هو معروف .

وبالاضافة إلى كل هذه الهجرات دخلت الهند بعض العناصر بالبحر ، وعلى الخصوص بعض الملايو الذين استقروا على السواحل الجنوبية ، وبعض الفرس الذين استقروا على السواحل الغربية ، وبعض عناصر بحر العرب من التجار المختلطين الذين استقروا فى موانى الهند التجارية على السواحل الغربية وبعض السواحل الشمالية والشرقية لشبه الجزيرة .

وقد اتسعت الهند لكل هذه الموجات والهجرات ، ولم يخرج منها إلا عناصر قليلة اتجهت نحو برما أو بعض جزر المحيط الهندى وخلجانه ، أو نحو الملايو والهند الصينية ، ولكنها كانت عناصر قليلة نسبيا ، وكان بعضها من غير الهنود الأصليين أو من العناصر المختلطة التى حملت معها طابعاً من الحضارة الهندية نشرته فى أقصى شرق آسيا . فالهند فى الحقيقة قد قضى موقعها الجغرافى وبعدها عن اليابس فى خارج آسيا أن تصبح إلى حد كبير « محطة نهائية » و « طريقاً مغلقاً » تجمعت فيها عناصر السكان والسلالات منذ أقدم الأعصر ، فطغى بعضها على بعض ، واستضعف بعضها بعضاً . ولم يكن أمام الضعيف فى بلاد الهند إلا أن يخضع للقوى ؛ فالهجرة سبيلها مغلقة والخضوع لا مفر منه . وكان ذلك كله فيما يبدو أساساً لما عرف فى بلاد الهند من نظام الطبقات ؛ ذلك الذى يتمثل فى صورة أكثر وضوحاً عند الأطراف الجنوبية لشبه الجزيرة ، ولو أن بعض الباحثين يرى أنه قد بدأ فى الوسط أو فى الشمال . وهو نظام قضت به طبيعة الهند وظروفها الجغرافية ، كما قضى به تتابع الهجرات وطغيان السلالات بعضها على بعض منذ بضعة آلاف من السنين . وبذلك كله صارت الهند « متحفاً » أو « مخزناً » للسلالات ، ومتحفاً أيضاً للنظم الاجتماعية التى لا يداخل بعضها بعضاً ، ولا تقوم فيها العلاقة بين الطبقات على أساس رأسى ، بحيث يستطيع الفرد أو الجماعة من السكان أن ترقى من أسفل السلم الاجتماعى إلى أعلاه ؛ وإنما هى طبقات أفقية بعضها فوق بعض ، يضغط أعلاها على أسفلها ، ولا يجد أسفلها سبيلا إلى تنسم الحياة كما يفعل من بأعلاه من الطبقات .

وهكذا انتهى العمران البشرى فى الهند بأن «تجمدت» فيه النظم ، وقام المجتمع على أساس الغالب والمغلوب ، والسيد والمسود ، والطاهر والمنبوذ . وليس هذا كله مما ييسر اختلاط السلالات وما يتبعه من اختلاط الثقافات وامتزاجها ، وتوحيد الفكر والروح بين عناصر المجتمع . فامتدت الفوضى إلى ميدان الثقافة والدين ، وتكاثرت فى الهند ألوانهما إلى حد بعيد لا يكاد يتصوره عقل ؛ فهناك من العقائد والأديان ألوان شتى ، وهناك من الآلهة التى تقدس بدرجات متفاوتة وإن لم تعبد كلها ، ما يكاد يساوى عدد الأنفس فى بلاد الهند؛ إذ يقدر بعض الباحثين تلك الآلهة بنحو ٣٣٠ مليون ، وهو رقم لا يكاد يصدق . وهناك من اللغات واللهجات نحو مائة وخمسين أو تزيد ؛ وإذا كانت اللغة الأردية هى الغالبة فى شمال الهند ، فان جنوب الهند يصعب التفاهم فيه بلغة مشتركة غير اللغة الانجليزية ، التى يتعلمها من يريد أن يفهمه أكبر عدد من الناس[١] . وما اختلافات العقائد والثقافات الروحية والفكرية واللغوية والأدبية إلا صورة منعكسة من حياة الهند المعقدة ، والتى يطغى فيها التشعب على التوحيد والتفرقة على الوحدة . ولعل هذا كله أن يكون أساس ما تعانيه الهند من انقسام يمس الحياة القومية فى الصميم ، ولا يمكن إرجاعه كله إلى مجرد أن يكون الاستعمار قد سار على سياسة فرق تسد ، إلا إذا تغاضينا عن الأسس والأصول واكتفينا بالنظر إلى المظاهر والسطحيات .

ومن الطريف أن الهند تختلف من هذه الناحية اختلافاً أساسيا وخطيراً عن بلد كالصين ، حيث السكان أكثر عدداً ، ولكنهم أقوى تماسكاً فى السلالة والثقافة ؛ فكلهم من السلالة المغولية أو العناصر المتأثرة بها ، وكلهم يشاركون فى قدر مشترك من الثقافة ، فتستطيع كثرتهم مثلا أن تقرأ جريدة واحدة وإن اختلفت لهجاتهم من إقليم إلى إقليم ؛ ولا تكاد توجد بينهم طائفية دينية من ذلك

(١) تعتبر اللغة الانجليزية لغة التفاهم العام Lingua franca فى جنوب الهند . والطريف أن دخول هذه اللغة زاد من حدة التفاوت بين الطبقات فى هذا الاقليم : فليس من الميسور تعلمها وإجادتها إلا لأبناء طبقة البراهمان الذين يزيدهم التعليم مقدرة على احتكار وظائف الحكومة وأعمال التجارة وغيرها ، بما يمكن لهم من زيادة التحكم فى الطبقات الدنيا من الشعب . وهكذا زاد التعليم الحديث فى جنوب الهند مدى التفاوت بين الطبقات ، ووضع سلاحاً جديداً فى يد أبناء الطبقات العليا .

النوع الذى يمزق روح الوحدة فى الهند تمزيقاً ؛ وتاريخهم كان على الجملة تاريخ أمة واحدة منذ توحدت إمبراطوريتهم فى القرن الثالث قبل الميلاد . و إذا كانت قد حلت بعض فترات انقطع فيها حبل الوحدة وانقسمت الصين قسمين شمالى وجنوبى ، فقد انتهت تلك الفترات بعودة الوحدة من جديد (١) .

ولكن التفرقة التى تغلغلت فى حياة الهند القومية ترجع إلى عوامل أخرى قد لا تقل عمقاً وقوة عن عوامل الجنس والثقافة والتاريخ ؛ تلك عوامل البيئة الجغرافية ذاتها ، وما اصطلح الجغرافيون على أن يسموه بالتوجيه الجغرافى الاقليمى . فالهند بلاد فسيحة تناهز مساحتها مليونى ميل مربع ؛ وهى إلى ذلك مقسمة بحكم تكوينها الطبيعى إلى عدة أقاليم ، لكل منها ميزاته الطبيعية الظاهرة ، ولا يكاد يجمع بينها إلا أن مناخها من النوع الموسمى الحار ؛ ومع ذلك تتفاوت فيها أنواع ذلك المناخ ؛ فبعض جهات الهند ، كالركن الشمالى الشرقى مثلا ، يسقط بها من الأمطار مالا يسقط فى غيرها من جهات الأرض ، وبعضها الآخر ، كصحراء ثار ، شديد الجفاف قد حرمته الطبيعة نعمة الغيث وما يترتب عليه من حياة . ثم إن الهند يمكن تقسيمها إلى عدد من الأقاليم ذات التوجيه الجغرافى المستقل ، بحيث يصعب الجمع بينها وتوحيدها على أساس جغرافى طبيعى . فالسهل الشمالى مثلا قد تتفق كل أرجائه فى أنها مناطق منخفضة نسبيا ، تحدها الجبال الشاهقة من الشمال ، والجبال المتوسطة الارتفاع والبحار من الجنوب ، ولكن نهر السند يتجه بحوضه نحو بحر العرب ونحو الجنوب الغربى ، على حين يتجه الجنج بحوضه نحو الشرق وخليج بنغالة ، وتفصل بين الحوضين منطقة متوسطة الارتفاع ، اضطر البريطانيون قبل الحرب العالمية الأولى أن ينقلوا إليها عاصمة الهند ليقيموها فى دلهى بدلا من كلكتا ؛ ومع ذلك فقد بقيت دلهى الجديدة عاصمة عسكرية مصطنعة ، ولم تحل محل كلكتا كعاصمة قومية لاقليم الجنج الأدنى ، ولا محل لاهور وكراتشى كعاصمتين للسند الأعلى والأدنى . وفوق ذلك فان حوض السند يتصل فى مشكلاته وتاريخه بأفغانستان وما وراءها من داخلية آسيا

---

(١) من الطريف أيضاً أن نقارن هنا بين المسلمين فى كل من الصين والهند . فهم فى الصين جزء لا يتجزأ من الشعب الصينى ، رغم أنهم يتجمعون فى ولايات معينة كولاية يونان فى الجنوب الغربى . أما فى الهند فالمسلمون بقوا على الزمن يمثلون جماعة قائمة بذاتها ، لها كيانها المستقل كما هو معروف .

الرعوية بل وببعض جهات آسيا الغربية ذات الحضارة العريقة ، على حين ينزوى الجنج الأدنى فى أقصى الهند الشمالية ، ولا تهدد الأخطار حدوده الشمالية الشرقية كما تهدد حدود السند الشمالية الغربية . ولقد تطور السند وحوضه وحضارته فى احتكاك دائم مع رعاة آسيا ، واحتك فى تاريخه الطويل بمدنيات غرب القارة فى الأعصر القديمة وبعض العهد الحديث ، على حين لم يحتك الجنج الأدنى بما وراءه فى الصين إلا احتكاكاً محدوداً ، وبقى على حالته الفطرية حتى انتقلت إليه الحضارة بالتوسع والفتح من السند فى فترات متأخرة نسبيا من التاريخ . ولذلك كله فقد كان من الصعب دواماً أن نوحد بين سهلى هذين النهرين وحوضيهما ، وأن نوجههما وجهة واحدة ؛ لأن الطبيعة مهدت لأحدهما أن يتجه نحو الغرب والجنوب الغربى ، وأجرت مياه الآخر لتتجه نحو الشرق والجنوب الشرقى . وكذلك الحال فى الهند شبه الجزرية جنوب سهل الهند والجنج ، فقد قطعتها التضاريس إلى أقاليم منعزل بعضها من بعض ، فهناك أولا جبال فندبا بين سهل الجنج وهضبة الدكن ، وهى جبال تقل فيها المسالك والممرات وتقل فيها الحيضان والمناطق الصالحة للاستقرار ؛ ولذلك فقد بقيت على الدوام منطقة عزلة ، انزوت إليها بعض العناصر المستضعفة من سكان الهند ، ولم تتوغل المدنية أو المدنيات المتعاقبة إلى قلب هذه المنطقة التى كانت ولا تزال منطقة صعوبة ، ولا تزال تقطنها حتى الآن بعض القبائل التى تقرب فى معيشتها وأحوالها من الفطرة . وفى جنوب تلك الجبال تمتد هضبة الدكن ، وتحصرها من الغرب وتقطعها عن البحر جبال الغات الغربية ، كما تحدها من الشمال الشرقى مرتفعات الغات الشرقية . وتكاد الدكن تكون عالماً قائماً بذاته ، قد لا يشق فيه الاتصال الداخلى ولكن يصعب اتصاله بالخارج وبما حوله من أقاليم الهند شبه الجزرية . ثم إن ساحل الهند الغربى تقوم الجبال العالية خلفه مباشرة ، فتوجهه وتوجه سكانه ناحية البحر ، وتربط حياتهم بمياهه بدلا من أن تربطها بداخلية الهند . وكثير من سكان الساحل أتوا بالبحر كما ذكرنا واستقروا فى موانيه ؛ ومع ذلك لم ترتبط الحياة بين هؤلاء السكان على طول ذلك الساحل الذى تستقل مراقئه بعضها عن بعض ويضيق السهل الساحلى فيه جداً ويتقطع . كما أن سكان القسم الجنوبى من الساحل (الملابار) كانوا يختلفون عن سكان وسطه وشماله . أما ساحل الهند الجنوبية

الشرقية (أو ساحل كروماندل) فقد كانت له ظروف جغرافية مختلفة ؛ فأمطاره دائمة فى الصيف والشتاء ، وحياة أهله مرتبطة بخليج بنغالة وما وراءه، واتجاهه يغاير اتجاه ساحل ملابار ، ولا يكاد أهله يرتبطون بسكان الجهات الداخلية المنزوية فى أقصى أطراف الهند من الجنوب بأكثر مما ترتبط عناصر الملابار ذات النشاط البحرى العظيم بأهل الداخل من العناصر القديمة المستضعفة .

تلك أقاليم الهند أو أقسامها الكبرى من حيث التوجيه الجغرافى . وهناك أقاليم أخرى كثيرة ذات توجيه محلى خالص ، أو ترتبط بخارج الهند أكثر مما ترتبط بداخلها ، كما هى الحال فى منطقة نيبال على سفوح الهلايا وأطرافها وهى تكاد تستقل بذاتها وظروفها عن سهل الجنج الواقع إلى جنوبها ؛ وكما هى الحال عند حدود الهند الشمالية الغربية وهى تتصل بأفغانستان وبعض جهات التبت بمثل ماتتصل بالهند الشمالية . ولكننا نستطيع مما عرضنا له من التكوين الجغرافى لبلاد الهند أن نخرج بأنها بلاد قطعتها الطبيعة إلى مناطق لايكاد يربط بينها جميعاً إلا الموقع الجغرافى العام كشبه جزيرة تقع فى جنوب القارة والسلاسل الجبلية ، ولا مخرج منه لمن دخل إليه إلا أن يكون طموحاً جدا ومن سكان السواحل الذين ترتبط حياتهم بالبحار .ولذلك كله فان الطبيعة ، وقد جمعت فى الهند أشتاتاً من الخلق منذ الأعصر الأولى ، ومهدت لهذه الأشتات من الخيرات والنعم داخل شبه الجزيرة ما يقيم الحياة والحضارة والمدنية وييسر نشأة الثقافة والفكر ، لا سيما فى سهول الهند الشمالية، حيث قامت مدنيات ونشأت فلسفات قديمة قدم التاريخ ، بل تكاد تضارع فى قدمها ماهو معروف من جهات أخرى من غرب آسيا وشرقها ، فان هذه الطبيعة ذاتها لم تمهد السبيل لأن تختلط تلك الأشتات وتمتزج بالدم والروح امتزاجاً تاماً كما حدث فى أقطار آسيا الشرقية والغربية ؛ وإنما بقيت لكل منها شخصيته المميزة ، كما أن الأقاليم التى استقرت فيها تلك العناصر لم يؤلف بينها توجيه جغرافى مشترك ولا متقارب ، وإنما فرقت بينها التوجيهات ، وكادت الوحدة تستحيل ولو أرادها الانسان .

من ذلك كله نستطيع أن نخرج بأن الأمر فى الهند أعمق كثيراً من أن يكون أمر « سياسة » أو فكر سياسى ، وأعقد كثيراً من أن يكتفى فيه بأن نتحدث عن الاستعمار والاحتلال وما أديا إليه من الحلال فى الحياة

السياسية وتأخير للنضج القومى وتخدير للوعى العام . . . بل إنه ليس غريباً أن يكون الفكر السياسى فى الهند صورة منعكسة من الطبيعة ؛ فالشعور الداخلى بالتنافر بين الطبقات من جهة ، والتناحر بين طوائف الأديان والعقائد من جهة ثانية ، ثم الاختلاف الظاهر بين مصالح الأمراء والحاكمين وبين اتجاهات ذوى الفكر الحديث فى الحكم والسياسة من جهة ثالثة ، كل هذه ترجع إلى أسباب أقوى كثيراً وأعمق كثيراً مما يتصور بعض من لايتعمقون الأمور ويكتفون بالنظر إلى السطحيات . والعلة فى بلاد الهند ليست داء يمكن أن يعالج بالآراء والنظريات توخذ عن تجارب بلاد أخرى فى أوربا أو حتى فى جهات آسيا الشرقية أو الغربية ، وإنما هى علة تتصل بالبيئة الجغرافية الهندية ، كما تتصل بتاريخ العمران الجنسى والتطور الثقافى والفكرى والاجتماعى العام فى بلاد الهند . ولا يجوز لنا أن نطبق هنا ما نطبقه على نشأة الأمم الحديثة فى خارج الهند ؛ فنقول إن الهند مصيرها إلى الوحدة الاجتماعية والقومية كما كان مصير بعض الأمم الحديثة فى أوربا كألمانيا على سبيل المثال ، حيث تفرقت الآراء الدينية وتضاربت العقيدتان الكاثوليكية والبرتستانتية ، ثم انتهت الفرقة إلى الوحدة السياسية والقومية آخر الأمر ؛ فالقياس هنا مع الفارق الكبير ؛ إذ الهند فى مساحتها تضارع ثلث قارة أوربا برمتها كما ذكرنا فى صدر هذا المقال . ونحن إن قارناها بغيرها فينبغى أن نقارنها بمجموعة من الدول والأمم الواقعة فى قلب أوربا وفى جنوبها الشرقى لا بأمة واحدة . ثم إن الهند بسكانها تزيد على ثلاثة أرباع سكان القارة الأوربية ؛ وهى بدياناتها وعقائدها ولغاتها وألوان الثقافة والفكر فيها متحف لا نظير له فى بقاع الأرض . ولئن نظرت الهند إلى تاريخها السابق تستوحيه ما يعينها على الاتجاه نحو الوحدة فهى لن تجد فى ذلك التاريخ مثل ما وجد غيرها من أمم الشرق التى نظرت إلى الماضى فبعث فيها روح الوحدة والتماسك . وهى إن نظرت إلى أوربا تحتذيها فلن تجد ماتقيس عليه أو تنقل عنه اللهم إلا إذا رأت أن تسبق إلى ماتسبق إليه أوربا فتأتلف من عدد من « الأمم الهندية المتحدة » ، وهى خطوة صائبة وسديدة ولاشك ، ولكنها تكون أقرب إلى الطفرة منها إلى التدرج الطبيعى فى حياة بلاد تغلغلت فيها التفرقة حتى مست أسس الحياة وقواعدها الأولى .

ليس ينفع إخواننا الهنود إذن أن يندفعوا وراء الرأى السياسي الخالص، فينسبوا كل ما فى مجتمعهم من عيوب إلى فعل المستعمرين وسياستهم فى التفرقة والتشتيت ، وتشجيع التنابذ والتناحر . فعيوب المجتمع الهندى من هذه الناحية تبدو فى ضوء الدراسة الهادئة عيوباً أصيلة تتصل بالبيئة من جهة ، وبحياة السكان وحضارتهم وتاريخهم من جهة أخرى . وغاية ما هناك أن الانجليز وجدوا فى الهند مجالا واسعاً مارسوا فيه سياسة التفرقة ، ومرتعاً خصيباً استنبتوا فيه بذور الشقاق ؛ وكانوا فى ذلك مستعمرين بارعين جعلوا من الهند درة التاج البريطانى الامبراطورى ! وإذا كان هذا صحيحاً — وهو ماتهدينا إليه الدراسة التى تجتنب العاطفة والميل — فلن يكفى لتحقيق الوحدة فى الهند أن يخرج منها الانجليز وأن يجتث منها أذناب الاستعمار ، وإن كان خروج هؤلاء المستعمرين وقطع السبيل على أذنابهم أمراً ضروريا لوقف الداء عند الحد الذى وصل إليه . وخير للهنود أن يدركوا هذه الحقيقة الواقعة ، وأن يكونوا عمليين ، فلا تأخذهم العاطفة ، ولا يثنيهم الاندفاع السياسى عن دراسة بيئتهم ومجتمعهم ، ليخرجوا من هذه الدراسة بما ينير السبيل أمامهم ، ويعينهم على رسم الخطة العملية التى تناسبُ تلك البيئة ، وتتمشى مع تاريخ ذلك المجتمع . وهى خطة يخشى الذين يدرسون الهند دراسة هادئة أنها لن تحقق للمتحمسين للوحدة الشاملة آمالهم العريضة وغاياتهم العاجلة ؛ ولكنها مع ذلك ستمهد السبيل تدريجيا إلى نوع من الاتحاد بين مجموعة صغيرة من الأمم الهندية المتحدة . . . ومن يدرى ! فقد تكون تلك سبيل الهند الطبيعية للخروج من مأزقها الشديد الذى ساقتها إليه الأقدار . . . تلك التى جمعت إلى البيئة المعقدة ، تاريخاً قديماً حافلا بالتفرقة ، وتاريخاً وسيطاً مخضباً بالدماء ، ثم تاريخاً حديثاً قائماً على استغلال الغيوب المتأصلة والضعف القائم استغلالا ما كانت الهند لتستحقه ، وهى بلد المدنية العريقة ، ولؤلؤة الشرق فى التراث الفلسفى والثقافى العام !

ولنا عود لهذا الموضوع فى مقال قادم عن دولة باكستان .

سليمان حزين

الرحلة الى ايطاليا

الليـــــلة الأولى

على البحر

وحيــدٌ على ظهر الســفينة ســاهرُ
وقد لجَّجَتْ فى الغَمْـر ، والليلُ غامرُ (١)

علىَّ ومِن حولىَّ ليــلٌ مُخَيِّمٌ
وتحتى من الأمــواج ليــلٌ مُسـاير

وفى النفس ليلٌ ليس يُلْفَى نظيرُه
ألا شَدَّ ما انثـالت علىَّ الدياجر (٢)

غـريقٌ حـوتنى ظلمــةٌ طىَّ ظلمــةٍ
كأنى إلى الغيب السـحيق مســافر

إلى عــالَم الأشـباح لا أُنْس عنــده
لحىٍّ ، فمـالى الآن قلبىَ صـابر !

لقد طاف بى ذِكرى التى قد عدِمتُها
شريكةُ عيشى غيَّبَتْـهــا المقــابر

---

(١) لججت السفينة فى الغمر ، أى خاضت اللجة فى عرض البحر .
(٢) انثالت عليه ، انصبت عليه من كل وجه .

فطاب لنفسى عند ذلك وَهمُّها
بأنى إلى حيث الحبيبة صائر

ورانت على حسّى المعذّب فَترَةٌ
وأُنسيتُ أنى مُضرَم الصدر واغر (١)

وسُكِّنْتُ حتى ما أحرّك ساكناً
وخُدِّرتُ حتى ليس يهمس خاطر

وأُذهلتُ عن أمرى وذاتى جميعها
وأسْلمتُنى للكون ، والكون قادر

*

ومرّت هنيهاتٌ طوالٌ قصيرةٌ
فما لى بها علمٌ ، ولا أنا ذاكر

فلمّا أطلّ البدر وانساح نورُه
على البحر فاختالت عليه المناظر

تَنبَّهَت الأحلامُ فى النفس بَغْتَةً
وهبّت خِفافاً من كَراها الخواطر

وخُيِّلَ لى أنى عليه وزوجتى
وُقوفاً نناجى موجه ونحاور

---

(١) رانت عليه ، غلبت عليه — فترة الحس ، فتوره .

وقوفاً كعَهْدَيْنا على النيل أرْوَعُ
يلألىء في القَمراء ملآن زاخر

فلا غَرْو أن أرنو إلى البحر هٰهنا
وزوجيَ مسحورَيْن ، والحسنُ ساحر

نراغيه مِلْءَ النـاظرَيْن وموجُه
من البدر فِضّيُّ الحبائك باهر (١)

عليه كمثل الراقصات مُفَضَّضٌ
من الوَشْي خفّاقُ الذلاذل دائر (٢)

يضجّ حشاه راقصاً مترنّماً
كأن حشاه بالعرائس عامر

تَراقصُ كلٌّ أختَها في عُبابه
وقد رُفعت في رقصهنّ العقائر (٣)

فيطغى على قلبي السرور مُضاعَفاً
فقلبيَ من فَرْطِ السرور مُعاقِر (٤)

و يبلغ أنسي بالحياة مَبالغاً
فؤاديَ عنها منذُ أرْملتُ قاصر

(١) حبائك الماء، طرائقه والغضون على صفحته .
(٢) الذلاذل ، جمع ذلذل وهو أسفل الثوب .
(٣) رفع عقيرته ، أي صوته .
(٤) المعاقر ، المدمن شرب الخمر .

لقـــد غَبَّنى حتى نســيت مَذاقَــه
وأنــكرهُ منّى على الــكرْه ناكر (١)

فثُبْتُ إلى نفسى عــلى الفُلْك مسْهَداً
وحيــداً فقــد طاحت بزوجى المقــادر

وعــاودنى وَجْــدى وشــدّ مُخَنَّقى
وغامت على عينى الدموعُ البوادر

وأُذهلتُ عمّــا بين سمعي وناظــرى
كأنْ ليس لى سمعٌ ولا لِيَ ناظر

عبد الرحمن صدقى

---

(١) غبه أى انقطع عنه زمنا .

THE 400th. BIRTHDAY OF CERVANTES

HENRY BAERLEIN

ميجويل سرفانتز*

ذكرى مرور أربعمائة سنة على مولده

[الكاتب سرفانتز من أعظم كتاب العالم بكتابه « دون كيخوت » . وقد أردنا أن يعرفه العالم العربي ويساهم في ذكراه بنشر هذا المقال .]

في ذات مساء في القرن السابع عشر ، كان الملك فيليب الثالث الأسباني يطل من نافذة قصره في مدريد ، فرأى منظراً عجباً : رأى طالباً يسير جيئة وذهاباً إلى جانب النهر ، وهو يقرأ في كتاب ، وبين حين وآخر يضرب رأسه بيده ، وينطلق في قهقهة عالية . فقال الملك : — هذا الرجل إما أنه مجنون وإما أنه يقرأ « دون كيخوت » .

إن شهرة مؤلف ذلك الكتاب كانت متأخرة ، ولكن حياته كانت مليئة بالمفاجآت ؛ وتاريخ ميلاده غير معروف تماماً ، غير أنه عمد في كنيسة قلعة هنارس في ٩ أكتوبر سنة ١٥٤٧ ؛ ولذلك يرجح أنه ولد في الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر ، حيث يقع عيد القديس ميخائيل ، وقد سمى ميخائيل أو ميجويل بالأسبانية تبركاً به . وكان أبوه بيطاراً . وفي سنة ١٥٧٠ انضم إلى الجيش الشهير الذى ألفه دون جوان النمساوى ، وفي السنة التالية ، كان على ظهر السفينة مركويزا في موقعة ليبانتو ، وأصيب بالحمى ، ولكنه أصر على الاشتراك في الموقعة ؛ فأصيب بثلاث قذائف اثنتان في الصدر ، والثالثة في اليد اليسرى ، فشلت للأبد ، ومع ذلك لم يزد في الاشارة إلى هذا الحادث على قوله : « نعمت اليد اليمنى » .

وفي سنتي ١٥٧٢ ، ١٥٧٣ اشترك في وقائع حربية أخرى ، فكان عند

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

احتلال تونس وقام بأعمال الحراسة فى نابولى وپالرمو ، فلما أتم عمله وعاد قاصداً بلاده فى سبتمبر سنة ١٥٧٥ ، حمل معه رسالة من دون جوان إلى فيليب الثانى ، يلتمس فيها القائد ترقية حامل الرسالة ، فكانت هذه الرسالة سبباً فى مصابه ؛ إذ أسر قرصان البربر السفينة التى كان عليها فى مياه مارسيليا ، وبيع فى سوق العبيد ، ووجدت الرسالة معه ، فظن أنه رجل كبير الشأن . ولما ذهب قسان إلى الجزائر لاستخلاص الأسرى ، وقد اشتراه رجل يونانى اعتنق الاسلام اسمه دالى مالى ، عرضا على سيده ثلاثمائة بيزيتا فدية له ؛ فأبى السيد قبول هذا المبلغ ، مع أن أخاه رودريجو عاد مع القسين . ولقد حاول ميجويل الفرار عدة مرات ، وفى إحدى هذه المرات هدده حسن باشا الوالى بالقتل ، ولكنه رأى من مظهر البطولة فيه ما جعله يعدل عن هذا الحكم . وفى سنة ١٥٧٨ حكم عليه بالجلد ألفى جلدة ؛ إذ كتب إلى حاكم وهران يلتمس مساعدته فى الفرار إلى أسبانيا ، على أن الحكم لم ينفذ. وأعيد أخيراً إلى بلاده فى سنة ١٥٨٠ ، بعد أن استطاع أهله أن يجمعوا فيما بينهم فدية كبيرة . وقد نزل إلى أرض بلاده فى بلنسية بصحبة بعض الجنود العائدين . وساروا فى موكب على قرع الطبول ونفخ المزامير ، وكانوا عارى الرءوس فى أسمال بالية ، على حين كان المنادون يبيعون للناس أوراقاً فيها وصف لقصتهم ؛ وقد قام القسوس بطبعها وبيعها لاعانة هؤلاء الجنود . ويظهر أنه لم يصب سرفانتز شئ من هذه الاعانة ؛ فقد ظل مقيما فى بلنسية لايستطيع الرحيل ، وكتب إلى أهله يطلب مالا ليتابع رحلته ، ويشكرهم شكراً جزيلا على التضحيات التى تحملوها من أجله ؛ واقترح أن يلجأوا لأحد الكتاب العموميين كى يضع التماساً يوضح ما أبلاه فى الحرب ، وما وقع له من أسر كى يمنح مكافأة على ذلك . ولكن فيليب الثانى كان فى شغل عنه ببلاد البرتغال التى تولى الكردينال هنرى عرشها لبضعة أشهر ، وكان فى السابعة والسبعين من عمره ومع ذلك التمس من البابا سستو الخامس أن يسمح له بالزواج أملا فى أن يخلف وريثاً . ولكن البابا رفض أن يمنحه حق الزواج ؛ إذ كان على علاقة وثيقة بالبلاط الأسبانى . . .

وعاد سرفانتز أخيراً إلى أهله ليرى أن آماله أصيبت بخيبة كخيبة الملك الكهل .

كان مقدراً عليه أن يعيش عيشة صعبة ؛ وكان يؤنس فى نفسه البراعة فى الكتابة ، فتعاقد على أن يكتب مسرحية أو مسرحيتين فى زمن لم تكن المسرحيات فيه تعود بفائدة مالية . ومع ذلك أقدم على الزواج . ولم يكن مهر زوجته غير حديقة صغيرة وخمس أشجار من العنب وبعض الأثاث المنزلى وأربع خلايا نحل وعشرين دجاجة وديك وبوتقة . ولقد تبين له أخيراً أنه لايستطيع العيش بالأدب ، فذهب إلى إشبيلية حيث عمل فى جمع المؤن للأسطول العظيم المسلح « الأرمادا » . ولقد التمس أن يعين فى مركز بالمستعمرات كجواتيمالا أو فى إدارة الحسابات العامة لمستعمرة غرناطة الجديدة . ومن حسن الحظ أن رفض طلبه ، واضطر للاستمرار فى حياة البؤس بأسبانيا يساعد فى تموين السفن .

لم يكن سرفانتز رجلا يحسن الأعمال ، فسبب له هذا الأمر متاعب كبيرة ؛ فلقد أودع أحد التجار مالا ؛ ووعد التاجر بتسليمه إلى الخزانة الحكومية بمدريد ، ولكنه لم يفعل بل هرب بالمال ، وسجن سرفانتز لهذا السبب . وكان عندئذ فى أشد حالات البؤس ، ولقد عرف السجن فى جهات أخرى مثل أرجاماسيللا ، وهى مدينة حقيرة فى لامانكا إلى الجنوب من مدريد ، وقد أرسل إليها رسولا من رئيس دير لجمع متأخرات الضرائب فى تلك الجهة ، فهجم عليه جماعة من الأشرار واغتصبوا المال ، فوضع سرفانتز على أثر ذلك فى السجن ؛ وهو عمل ظالم . كان ذلك على الراجح بأمر دون رودريجو باتشيكو ، عمدة أرجاماسيللا وبطلها الوحيد . وقد انتقم سرفانتز منه فخلده واتخذه علما باسم دون كيخوت ورفعه فوق جواده روزينانتى .

ولما كنت من المعجبين بسرفانتز فقد رغبت فى الحج إلى أرجاماسيللا وهى تبعد عن طريق السكة الحديدية ، والطريق إليها وعر غير ممهد ، وقد وضع بعضهم معالم للطريق من الحجر المنحوت قبل سنوات ، وهى فى شكل أهرام صغيرة ، وكان منظرها حسناً ولكن الحشائش نمت حولها حتى غطتها ، ويروى أزورين الكاتب الأسبانى أن جيران ارجاماسيللا يقولون إنها قرية موبوءة ؛ إذ أن مياه النهر تغمر أرضها وتؤلف بركاً راكدة تتصاعد منها الأبخرة التى تؤثر فى السكان . ولقد كان فى تلك القرية سنة ١٥٧٥ ستمائة بيت ، فبلغ عدد بيوتها فى سنة ١٩٠٥ سبعمائة واحد عشر بيتاً فقط . وترى

المدينة دائماً نائمة يخيم عليها الهدوء ، والأبواب مقفلة عادة ، والشمس تضرب حوائط دورها البيضاء ، والساحة مهجورة لا يقطعها إلا كاب هزيل بين حين وآخر .

ويخيم الظلام عادة على الكنيسة القابضة ، وقد غطيت النافذة التى ينفذ منها الضوء ليضئ صورة شهيرة بغطاء أسمر . وقصدت راعى الكنيسة وهو شخص عجيب فى شبه غيبوبة ، وطلبت منه أن أرى صورة دون كيخوت، فقال إنى لا أعرف شيئاً عن ذلك، وأنا مثقل بالأعمال مع تقدمى فى السن ، ولكن هنالك الصورة التى تزار !

وكانت هنالك عجوز تمسك غطاء النافذة ، فقال الراعى : « سوف تساعدك فهى تفهم . » ثم خرج وتبعته المرأة ، ولكنها عادت بعد دقائق ومعها علبة كبريت وتسلقت المذبح وأضاءت إحدى الشموع الكبرى ، وأمسكت بها بأصابع مرتعشة ، وصاحت: هذا هو الوجه الذى تعرفه ، وجه « السيدة العذراء » .

ورأيت دون رودريجو باشيكو راكعاً فى الركن اليسارى من الصورة ، ووجهه عصبى ، وعيناه قلقتان ، وعظام وجنتيه بارزة ، ذو لحية مدببة ، وله منظر الفرسان بما يبدو عليه من ألم مع تكبر ، وكأنه خارج من إحدى صور المصور الجريكو .

قالت العجوز وهى تقترب بشمعتها الخطرة : « هذا باشيكو ، ومن وجهه ترى ياسنيور أنه كان مجنوناً . رباه ! ليس هنالك مايعمله الانسان فى جنونه غير الصلاة ! »

وسألتها الطريق إلى مكان السجن ، فصاحبتنى واخترقنا عدة شوارع مرصوفة بالحجر الصلد غير المتساوى ، وكانت الدور حقيرة جدا وقد طليت بالطلاء الأبيض. ويقع السجن فى ركن من أركان أحد هذه الشوارع فى دار عادية، وفى فناء الدار باب قديم ظل قائماً مئات السنين يسد المدخل إلى سجن سرفانتز ، وبعد أن ينزل المرء درجتين أو ثلاثا يجد غرفة مظلمة عارية مستطيلة وأرضها تراب ، هنا كان يرقد سرفانتز ، وعلى الضوء الذى ينفذ إليه من تحت هذا الباب ، كتب الفصول الأولى من كتابه .

وكان وهو يكتب كتابه هذا يفكر بلا ريب فى الماضى : فى ذلك اليوم

من سنة ١٥٩٥ حين نال الجائزة الأولى فى مسابقة الشعر فى سرقسطة ، وقد أقيمت فى عيد القديس هياكنت ؛ وكانت الجائزة عبارة عن ثلاث ملاعق من الفضة . وقبل ذلك بثلاث سنوات اتفق مع رجل اسمه روزاريو على أن يكتب ست مسرحيات نظير مبلغ ٥٠ دوقية ، على ألا يدفع روزاريو أى قسط من المبلغ قبل أن يتبين له أن هذه المسرحيات هى خير ما أخرج فى أسبانيا ! ولم يسفر هذا الاتفاق عن شىء . ولابد أنه فكر فى أيام الأسر فى الجزائر وكيف اشترك فى ثورة أثارها الأسرى الأسبانيون . . . ألم يكن مثله مثل غيره من الغزاة الأسبانيين أمثال كورتيز وبيزارو ؛ أو مثل القديس لويولا ذلك الجندى المغمور الذى تمكن بقليل من الرجال أن يفتح العالم روحيا !

أما قصة « دون كيخوت » فقد ظلت بعض الوقت يتناقلها الكتاب وهى مخطوطة ، ورآها على هذه الصورة لوبى دى يجا الكاتب الخصب الذى ظن وقتا ما أن حلبها من نقد موجه إليه . وهو أول من أشار إلى « دون كيخوت » فى كتبه إذ قال : « ليس بين الشعراء من بلغا فى سوء القصد مبلغ سرفانتز وفى الجنون مبلغه ؛ إذ يهيم بدون كيخوت . »

وقد نشر المؤلف كتابه العظيم لأول مرة فى سنة ١٦٠٥ ولكنه وصفه فى المقدمة بقوله : « ليس فيه من المزايا الا ما يمكن أن ينشأ فى السجن! »

ورسم المؤلف لنفسه صورة إذ يقول عن نفسه : « جسمه ليس بالنحيل ولا بالممتلىء ، وهو لا بالطويل ولا بالقصير ، ينحنى قليلا عند الكتفين ، ويسير على قدميه فى غير خفة . شارباه طويلان وفمه صغير ، ولم يبق له إلا أسنان قليلة فى حالة سيئة ولا تناسب فيها . »

وجد « دون كيخوت » فى وقت قصير إقبالا منعدم النظير ، ولكن بالرغم من شهرة الكتاب ، كان سرفانتز بعد خمسة شهور من نشره فى فاقة شديدة حتى اضطر إلى اقتراض أربعمائة وخمسين ريالا من ناشره .

ولكى نعرف من هو فارس لامنكا يجب أن تكون لدينا صورة كاملة عنه ، ونتخيله منكبا على قراءة كتب البطولة ، ونسمعه يتكلم إلى الأبطال والسحرة ، ونراه يسبح فيما وراء العقل فى عالم من الخيال والمجد ؛ فهو يمتطى جواده العتيق ، وعليه درعه التى علاها الصدأ ، فيقطع الجبال والأودية

باحثاً عن المغامرات الجديرة بسيفه . ونرى كل شئ يتغير أمام خياله الخصب؛ فالسيدات اللاتى ينقذهن من سحر السحرة إن هن إلا نساء عاديات فى طريقهن إلى أعمالهن فيدخل الرعب إلى قلوبهن . والمردة الذين يهجم عليهم فى شجاعة ليسوا إلا طواحين — والطواحين فى لامنكا صغيرة الحجم جدا — وهو يقول لتابعه : « إلزم الهدوء يا صديقى سانشو؛ فان أمور الحرب أكثر من أى شئ آخر عرضة للتغيرات المستمرة . وفضلا عن ذلك أظن بل أعتقد أن الحكيم فريسنو أحال هؤلاء المردة طواحين عامداً لكى يحرمنى مجد التغلب عليهم . » ودون كيخوت شجاع ليس له غرض وهو إنما يحارب من أجل الفضيلة . وإذا كان يبغى أن يقيم ملكاً فذلك لكى يهبه لتابعه الأمين .

قال مونتسكيو : «إن السيد يحافظ على ممتلكاته ، ولكنه لا يحافظ مطلقاً على حياته . » والصفة الكبرى والأولى فى دون كيخوت هى شجاعته التى لاشك فيها . ولقد اشتهر السادة الأسبانيون فى القرن السادس عشر بشجاعتهم حتى نوه بها عدوهم اللدود سير والتر رالى . فهو يقول فى كلامه عن المستكشفين الذين كانوا يبحثون عن أرض الذهب : « لقد مرت عليهم السنوات الطويلة وهم يبحثون فى منطقة ضيقة . ولقد أنفق بعضهم مجهوده وثروته ثم حياته فى البحث عن أرض الذهب دون أن يصل إلى نتيجة ، ولكنهم كانوا لا يعرفون اليأس . » وكان فى دون كيخوت عنصر آخر خير من الشجاعة ، هو شجاعة الرجل المزود بالايمان الروحى حين يحيط به الخطر أو تلم به الحيرة .

وتتجمع فى دون كيخوت كل أنواع الجنون التى وصفها شكسبير — جنون المعتوه والمحب والشاعر . ولقد قال يونامونو الكاتب الأسبانى : « لقد فقد عقله كى يكون لنا مثالا دائماً للسخاء الروحانى ، ولقد قدم لشعبه أكبر تضحية وهى عقله ، فصار خياله مليئاً بمضحكات جميلة . وأعتقد أنه الصدق ما كان جميلا فقط » . وقد توج نفسه بقوة ساعده إمبراطوراً على طرابيزون على الأقل ، فشكا سانشو قائلا: «إلى أية حالة سيئة بلغ عقلك يا سيدى ! » وكان يظهر له جنون سيده فى تركه المال سعيا وراء المجد . فالرجال من أمثال سانشو يعتبرون المعتوه عاقلا إذا كان عقله يحول بينه وبين الغنى !

لقد صب سرفانتز عصارة نفسه فى بطل قصته فى سيل من العطف والفكاهة

فصار رمزاً للانسانية المليئة بالخيال . ومستر بكويك الذى خلقه الكاتب ديكنز هو صورة من هذا النوع ؛ فهو نوع من دون كيخوت إلا أن به تعلقاً بشراب اللبن وجعة الرجاجات . ولقد احتذى ديكنز فى العلاقة بين هذا السيد البسيط الطيب القلب وبين سام ويلر الرجل اليقظ النبيه ما كان من علاقة بين دون كيخوت وتابعه . فبين السيد وتابعه تجد العلاقة السهلة نفسها ، مع تلك النوبات التى يثبت فيها السيد وجوده . ونجد كذلك الكاتب ثيكرى يشير إلى ما وجده فى دون كيخوت من متعة فى رسالة كتبها وهو يستعد للكتابة عن الكولونيل نيوكم ، وهو دون كيخوت آخر .

قال سلفادور دى مدرياجا : « إن دون كيخوت عظيم وهو مسلح من قمة الرأس إلى القدم . ولقد نشأ من نبات أفكار سرفانتز ، وزادت من قدره التجارب والمغامرات بمرور ثلاثمائة عام ، وهو يسير ممتطياً جواده فوق ذلك الميدان المترامى من النفس البشرية » .

وقال سرفانتز فى مقدمة كتابه الخالد : « إننى فى الظاهر والد دون كيخوت ولكنى فى الحقيقة زوج أمه » فهو بالغريزة ، التى هى تاج المواهب للعبقرية الخالقة ، عرف أن دون كيخوت هو ابن الطبيعة لا ابنه هو ؛ وتكهن أنه بمرور العصور سيبلغ عظمة أكبر مما قدرها له زوج أمه . ولقد طال الجدل العقيم فى هذه المسألة ، وهى هل كان سرفانتز يريد أن يمنح أشخاص روايته قيما رمزية ، ولو أنه أراد أن يرمز لمعنويات لأخفق فى إخراج عمل فنى ؛ ولكنه لم يهتم إلا بخلق شخصيات ، وهذا هو السبب فى أنه أبرز للعالم رموزاً دائمة : فكما أن الحجر يلقى على وجه الماء فيحدث دوائر تزداد اتساعاً ، مع أن سقوطه لم ينشأ إلا عن اتباع قوانين الجاذبية ، كذلك المؤلف الذى يستطيع لمس بحر الروح يحدث فيها دوائر أكبر من أن يدركها البصر . فدون كيخوت وسانشو ودون جوان وهاملت وفاوست هم الخمسة العظماء الذين خلقهم خيال الانسان ، وفى كل جيل كان يحاك حول أسمائهم نسيج جديد من الأساطير والآراء والتفاسير والرموز . وهذه مزية المخلوقات الفنية الحية التى تفرض شخصيتها بمجرد حيويتها على عقول الناس .

لقد ذكر الأستاذ هربرت جريرسون ، وهو يكتب فى سنة ١٩٢١ بعد الحرب العالمية الأولى ، أن الكتب التى كانت تجد إقبالا من القراء أثناء

النضال هى الكتب ذات الموضوع الانسانى الخالص لا الفلسفية ولا الدينية ، لا العاطفية ولا المجردة من العاطفة ، بل الكتب الانسانية الممزوجة بشئ من السخرية البسيطة ، وفيها حرارة الاتصال العاطفى لا العطف . وكان كتاب «دون كيخوت» فى طليعة هذه الكتب ؛ ففيه دليل على ما تقترفه الأقدار أحياناً، وفيه ذلك المزيج بين التسلية وحب الانسانية واحترامها ، مما هو خليق بتلك الفترة التى شهدت تضحيات وآلام هائلة . وأضاف الأستاذ جريرسون قائلا : إن قصة دون كيخوت تخفف النقد اللاذع للطبيعة الانسانية بأن تصب عليه نهراً من الفكاهة المستمرة العاطفة . فبطلا القصة وإن كانا مضحكين فهما محبوبان وقريبان إلى القلوب . ومن عادتنا عندما نتكلم عن سرفانتز أن ننسى مؤلفاته الأخرى . ومع ذلك فقد وصف جون ماب حين نقل « القصص المثالية » إلى اللغة الانجليزية هذه القصص فقال : « إنها تحتوى على أنواع من المتعة » . ومع ذلك يجب أن نعترف بأن المتعة مضاعفة لدى قراء «دون كيخوت» .

كان سرفانتز يكتب على مهل: ولقد وعد وعداً غامضاً بتكملة قصة « دون كيخوت » كما نشرها أولا . ولكن هذه التكملة لم تكن لتظهر لولا أن أحد الناس جرؤ على نشر تكملة مزيفة لها . فدفع هذا الأمر سرفانتز إلى الكتابة بالرغم منه ؛ إذ كان وقتئذ فى صحة سيئة ، لابسبب آلام جراحه وحياة الفاقة فحسب ، بل كذلك بسبب إصابته بنوبة من ضغط الدم شديدة ، وعلى ذلك أخرج للعالم الجزء الثانى العظيم من هذه القصة ، حيث نجد الفكاهة أدق وأعمق والأسلوب قد زاد حسناً .

فالفارس الذى كان ضحية فى الجزء الأول للاعتداء وهراوات الخصوم فى مواقف لا عداد لها ، نراه طوال الجزء الثانى لا يتعرض لما يمس كرامته ؛ فى حين أن سانشو يفقد شيئاً من مكر الفلاحين ، ولكنه يكسب كثيراً فى هزله وذكائه ومسلكه . ولقد زاد حب سرفانتز لبطليه ، وهو يكتب بتلك الثقة التى يجدها الكاتب الشهير حين يعمل للمحافظة على شهرته .

ولكنه ، على عكس شكسبير ، لم يبلغه الرخاء فى سنواته الأخيرة من حياته . ويروى دى توريز الذى رخص بنشر الجزء الثانى أنه عندما زار فرنسا فى سنة ١٦١٥ فى صحبة رئيس الأساقفة ، أن الكثيرين من الفرنسيين كانوا يريدون أن يقفوا على دقائق حياة سرفانتز ، فأخبرهم بأنه فى كهولته ، وقد كان،

جنديا ، وهو من أسرة طيبة ، ولكنه فقير . فقال له أحدهم : « لماذا لا تساعد الخزانة العامة مثل هذا الرجل ؟ » فاعترض آخر قائلا : « إذا كان الفقر يرغم سرفانتز على الكتابة فأرجو ألا يعرف الرخاء مطلقاً لأن فقره يغني العالم » .

صار سرفانتز بعد كتابته « لدون كيخوت » من عظماء الكتاب فى كل العصور : لقد قيل إن الأطفال يقلبون أوراق كتابه ، والشبان يقرءونه والرجال يفهمونه ، والشيوخ يمتدحونه — ويقرأه القراء بعدد كبير من اللغات — وقد نقل إلى اللغة الانجليزية إحدى عشرة مرة . ورأيت فى مكتبة خاصة بأفيلا مائة وخمسين طبعة بالأسبانية ، منها طبعة فاخرة طبعت لذكرى مرور ثلاثمائة سنة على ما حدث فى أرجاماسيللا وفى الغرفة نفسها التى سجن فيها وكتب الفصول الأولى من الكتاب .

سأل لويس الرابع عشر أحد رجال بلاطه : هل يعرف اللغة الأسبانية ؟ فأجاب أنه لا يعرفها ، ولكنه يعتقد أن يستطيع فهمها والتحدث بها فى مدة قصيرة جدا . وقد خيل إليه أن الملك يريد تعيينه سفيراً له فى مدريد فأكب على دراسة هذه اللغة بهمة ، فلم تمض بضعة أشهر حتى استطاع أن ينبئ الملك بنجاحه . فصاح لويس : « إنك لرجل سعيد إذ تستطيع الآن أن تقرأ كتاب « دون كيخوت » بلغته وتتذوق سحره وجماله ! . . . » .

كان عقل سرفانتز أكثر نفوذاً من عقل أى كاتب آخر إلى أعماق الشعب الأسبانى ، وكان يعرف دخيلة النفس الأسبانية . ففى كتابه الخالد يرسم بوضوح الفرق البين بين العدالة الأسبانية وبين العدالة اليومية التى تتمثل فى القوانين والمحاكم : يرسم الأولى فى دون كيخوت ، ويرسم الثانية فى سانشو بانزا . فالأحكام التى تأتى فى سياق الكتاب ونراها معتدلة متزنة حكيمة هى التى تصدر عن سانشو بانزا عندما كان حاكماً لجزيرة ، أما أحكام دون كيخوت فتقام على العدالة الأولية ؛ فهو فى حماسته يميل أحياناً إلى جانب وأحياناً إلى الجانب الآخر . وهو يقدم على مغامراته للاحتفاظ بالمثل العليا للعدالة فى العالم ، فعند ما يعثر على أولئك العبيد الذين يشغلون فى السفن ويتحقق لديه أنهم مجرمون يعمل لاطلاق سراحهم !

كان سرفانتز يرى الأسبانيين على حقيقتهم ؛ فهم يضعون لأنفسهم قيمة خاصة ، فلا يرون أنفسهم . وهو يرسم بلاداً أسبانية متعلقة بمثلها العليا التى

لم يبق لها مجال ؛ ولذلك فهى فى الطريق المؤكد للخراب فى سبيل خلاص تلك المثل .

ومن المحتمل جدا أن شكسبير ، عندما اتخذ ستراتفورد مقاماً له فى آخر أيامه وعاش فيها فى رخاء ، قد قرأ ترجمة توماس شلتون لكتاب « التاريخ الممتع للفارس الذكى دون كيخوت » الذى ظهر فى سنة ١٦١٢ ، وقد أهديت هذه الترجمة للورد هيوارد دى والدن الذى صار إيرل أوف سفولك ، وكان يشمل شلتون بعطفه . وكان للادى سفولك راتب سنوى قدره ألف جنيه تتسلمه من النفقات السرية لملك أسبانيا . وقد يكون شلتون شريكاً لها ، وهو لمعرفته اللغة الأسبانية ذو فائدة فى هذا الباب . ولكن يجب أن نغتفر الكثير لهذا الرجل الذى نقل هذا الكتاب إلى اللغة الانجليزية نقلا ممتعاً مما جعله من عيون الأدب الانجليزى .

وكان يوم ٢٣ أبريل سنة ١٦١٦ هو اليوم الذى مات فيه شكسبير الشاعر الانجليزى العظيم ، ومن المصادفات الغريبة أنه كان اليوم الذى مات فيه سرفانتز كاتب أسبانيا العظيم ، وانتهت حياته العاصفة .

ذكرنا فى سياق هذا المقال بعض آراء الكتاب الحديثين فى سرفانتز وفى مؤلفاته . ولنعرض الآن فى تفصيل لقيمة هذا الكاتب فى الفكر الحديث ، وكيف ينظر إليه النقد الحديث . لقد تعرض الناقد الفرنسى مارسيل بتايون فى كتابه « أرازم وأسبانيا » لسرفانتز وأبدى ملاحظات قيمة ، وهذا الناقد الفرنسى هو فى رأى الأستاذ ترند ، من أساتذة جامعة كامبردج ، « أكبر العلماء فى الأدب الأسبانى ممن هم على قيد الحياة » . فهو يرى أن بعض الناقدين أنفقوا وقتهم سدى إذ أرادوا أن يثبتوا أن سرفانتز هو طليعة أحرار الفكر الحديثين ، فى حين أن مؤلفاته التى ألفت عند طغيان الموجة المضادة للاصلاح الدينى تتصل بالأدب الجدلى لعصر النهضة ، وما كان لأرازم من تأثير خفى فى هذا الأدب ، وهو ذلك التأثير الحر الحاد الذكى . ورسم أمريكو كاسترو فى كتابه « تفكير سرفانتز » صورة تجعله قريباً من الذين يغلبون العقل على الدين ، ولكنه كان عميقاً فى دراسته لسرفانتز حتى إنه لاخطر ، على قول بتايون ، من اتخاذه دليلا وإن اختلف معه المرء فى مواضع قليلة . ولقد ظل سرفانتز حتى

نهاية حياته مخلصاً لآراء الشباب وللتفكير الذى ورثه عصر فيليب الثانى من عصر شارل الخامس . ومن الراجح جداً أن سرفانتز كان من تلاميذ اليسوعيين فى أشبيلية بين سنتى ١٥٦٤ ، ١٥٦٥ . ولقيت بذور الأدب التى زرعوها أرضاً خصبة . ويقول بتايون إن أسلوبه فى «دون كيخوت» هو مزيج ذو طابع شخصى قوى ، من رقة بوكاتشيو المزدهرة والترفع الملئ بالسخرية الذى نجده فى أريوستو والايجاز القوى الذى نجده فى خير تقاليد المؤلفين الأسبانيين . فهو يحب تقطيع الكلام المطول ، ونراه مع ذلك ينقل هذه العادة لدون كيخوت الرجل الكثير الأحلام والكلام ؛ ففى قصة «الأرملة المرحة» التى تختار شاباً لم يدخل فى الكهنوت ليكون صديقها بالرغم من نصح رئيسه له ، نراها تقول — وليس فى قولها ما يدل على عداوة لرجال الدين — : « كل ما أطلب أن يعرف من الفلسفة مقدار ما يعرفه أرسطو إن لم يكن أكثر » . ولقد تشرب سرفانتز عناصر الأساطير الشعبية مما يجعل لأسلوبه البساطة التى تسحر القارئ أكثر من الصنعة الكلامية . وهو أكثر من أى كاتب آخر من كتاب عصره يكتب كما لو كان يتكلم ، وينطوى مبدؤه الأخلاقى على العفو والتسليم ؛ فمثلا نجد الزوج الغيور الكهل الذى خانته زوجته الشابة بالرغم من أنه أغلق بابها بثلاثة أقفال يتهم نفسه ويعفو عنها وتسوء حاله بقية حياته .

وكان سرفانتز ورعاً مستنيراً وحذراً . يذكر سرفانتز فى الطبعة الأولى من كتابه أن دون كيخوت مزق طرف قميصه وجعل منه سبحة بأن عقده عدة عقدات ليشيد بذكر العذراء مليون مرة . وفى الطبعة الثانية التى صدرت سنة ١٦٠٥ حور هذا الحادث لجعل سبحته أحسن حالا ، بأن جمع الحبوب وضمها فى سبحة ، على حين اختفت العبارة الخاصة بالعذراء من الكتاب . ويمكن أن يقال إنه لو لم تتأثر أسبانيا بارازم الذى نرى فيه مزيجاً من الحماسة والسخرية لما أخرجت لنا كتاباً مثل « دون كيخوت » .

ويقول بول هازار الفرنسى أيضاً فى رسالته المسماة « دون كيخوت » : إننا قد نجد فى هذا القرن العشرين وهو عصر السرعة مواضع من دون كيخوت مملة بعض الشئ ، ونجد تكرار المغامرات سهلا ويسيراً ، ولكن لا بد أن نعجب بما فى القصة من حياة مستمرة . ويقول فرنسيس جام : « إنى لا أضع أنشودة رولان فى مرتبة أعلى من دون كيخوت » . ولقد نقل دستويفسكى فى قصته «المعتوه»

صورة البطل الأسبانى إلى الحياة المعاصرة . فالأمير ميشكين على ما به من نقص جسدى ومرض وصرع يظل طيب الضمير عنيداً فى طيبته ، فهو لا يعرف السخرية ولا الكبر ولا الأنانية ، وهو يقطع الحياة محتفظاً بصفاء نفسه التى تشبه نفوس الأطفال ؛ ولقد وجدت روسيا فى بعض نواح من « دون كيخوت » شيئاً من نفسها ؛ لذلك تبنته فى رفق .

ومن خير ما قيل عن سرفانتز ما كتبه الأستاذ أنتوستل أستاذ الآداب الأسبانية فى أكسفورد فى كتابه عنه ؛ فهو يقول : إن كتاب « دون كيخوت » لا يختلف عن كتاب أورلندو الساخط لاريوستو إلا فى أنه كتب نثراً ؛ ففيه نفس العطف المشرب بالسخرية على مثل أعلى يستحيل تحقيقه ، وفيه نهر طاغ من الآراء المبتدعة . على أن إريوستو اعتمد على ما فى خياله من جدة وجمال فى حين عالج سرفانتز مسألة هامة هى مسألة الحقيقة ؛ فقد صور أغراضاً وأعمالا رفيعة ترتطم بعالم الحيلة والسوء ، فكشف عن الصفتين السائدتين فى عصره ، حيث نجد الحديد الصدئ تحت قبعة الفرسان . فعقله وعقل بطله يحلقان نحو الكمال الذى يبدو سهل التحقيق فى ضوء العقل والطبيعة ، ولكن بطله يصطدم بحقائق لا يمكن ردها ، وهو نفسه بدلا من أن يجد عوناً من الخزانة العامة (كما ظن الفرنسيون) وجد نفسه ، وقد بلغ الثامنة والستين ، رجلا « كهلا كان جنديا وسيداً عاش فقيراً » .

فهذا المعنى المزدوج الذى يرفع « دون كيخوت » فوق جميع مؤلفات العصر ماعدا «هاملت» ، جعل النقاد الأسبانيين يلحقونه ، بالمظهرين اللذين سيطرا على العصر الذهبى فى أسبانيا ، وهما التفاؤل والرفعة بتأثير إرازم و إنسانيته ، وذلك الانغماس الخادع فى حركة مقاومة الاصلاح الدينى ، ومن تشبيهات أمريكو كاسترو التى تنطبق على هذه النظرة التى لحمتها قيام وجهين مزدوجين للحقيقة طست الحلاق الذى ظنه دون كيخوت غطاء الرأس للفارس ؛ وهو مثال حسن و إن كان مبالغاً فيه . على أن كتاب «دون كيخوت» سيظل قصة من نسج الخيال ليس لها غرض ظاهر إلا القضاء على نوع من الأدب كان سائداً قبل عصره ، فهو إذا كان صورة من عصره فليس عظة لذلك العصر . أجل! إن سرفانتز الشاب تأثر بتعاليم إرازم ، وكان متفائلا بعقيدته ؛ فقد كتب حتى فى وصيته الأخيرة يقول : إن هناك كتباً بديعة كان لا يزال على استعداد لتكملتها ،

ولكنه ظل مديناً طول حياته . وإذا كانت الرجعية الدينية وما أصاب بلاده من خسائر قد حدت من آماله ، فقد قابل الكوارث بشجاعة أصيلة فيه ؛ ولم يكن معلمه الحقيقى هو تغلب الرجعية الدينية أو خسارة الأسطول الأسبانى ، وإنما الذى علمه هو الأيام واضطراب حياته . يقول انتوستل: لم يأت كاتب يهتم بالايضاح مثل سرفانتز ؛ فهو دقيق فى شرح القواعد لكل شئ حتى طريقة الوقوع فى الحب . وكان الكثيرون من أكبر الكتاب بين المعلمين ولكن القليل منهم عالج موضوعات كثيرة مثل سرفانتز الذى كان يعتقد فى تعقل الطبيعة وتعليم الخير ؛ فكان فيه الفيلسوف الاجتماعى والأخلاقى وإن لم يكن له تدريبه وتعليمه .

وقال الأستاذ كير أستاذ الشعر فى جامعة أكسفورد مقارناً بين فيلدنج الكاتب الانجليزى وسرفانتز : إن الأول كان له الثانى من قبل مرشداً ، وعندما رأى فيلدنج أن مؤلفاته تنمو تحت يده إلى شئ أكثر مما كان يظن عرف مصدر هذا . وكان ينوه بفضل سرفانتز عليه . أما سرفانتز فلم يكن يتصل بأحد من قبل حين خرجت مؤلفاته من أصول عقله ، حمله نبوغه إلى أبعد من غرضه الأول وهو التشهير بقصص الفروسية ، ولكنه لم يستطع التخلص من ثقل القواعد الأدبية فى عصره والأساطير الغرامية وغيرها . ويقول كير إن سرفانتز من كتاب الفكاهة ؛ لذلك يستطيع أن يفكر فى أكثر من موضوع فى وقت واحد ؛ والكثيرون من ناقديه ليست لديهم هذه المقدرة ؛ لذلك هم يتبعون خطا واحداً من تفكيره على حين يرمى الكاتب إلى عدة أغراض فى وقت واحد . ولقد رأى هيجل هذا فى سرفانتز فتبين له أن الفروسية التى كان الكاتب يسخر منها ويهزأ بها فى شخص دون كيخوت هى فى الحقيقة صفة من صفاته الثابتة ، وأن القصة التى تنطوى على المبالغات التى كان فى الظاهر يطاردها من العالم إنما خرجت إلى هذا العالم فى ثوب جديد . ونجد مثل هذا التناقض مع التناسق فى قصة من خير القصص التى أخرجت بعد « دون كيخوت » ، وهى قصة « كنيسة نورثانجر » للكاتبة الانجليزية مس أوستن ، وهى أضيق أفقاً من الكتاب الاسبانى وأقرب بلوغاً إلى الكمال؛ فان دون كيخوت، على قول كير، مؤلف عظيم غير معتنى به ؛ لأنه ملئ بالمغامرات وفيه من تنوع الأساليب والأغراض الأدبية ما يجعله فوضى .

ونحن الذين نعيش اليوم — وإن كنا أقل حياة من بطلى سرفانتز الخالدين — نلخص حياته فى القول بأنه رجل سمح ودود يعرض للأحوال الاجتماعية دون أن يوجه النقد إليها . وكان يشعر كل الشعور بالماضى ، ولكنه يعيش فى الحاضر وسيعيش إلى الأبد . وقد يحسن الاختتام بعبارة دون كيخوت فى وداعه : « ليست هنالك عصافير فى هذه السنة فى عش الطيور الذى بنى فى العام الماضى .

نقلها عن الانجليزية ز . ى . ع .

بين الخرائب والأطلال

« لكيلانتى ! . . . »

فى ميدان كرستوف كولومب بميناء برشلونة ، وعلى بعد بضعة أمتار من ساحل البحر الأبيض ، ترى بناء مهدماً من الطراز القوطى العتيق ، تكاد العين تنكر مكانه فى هذا الميدان الجميل ، لولا ما يلوح عليه من آثار مجد قديم . وليست ضخامة البناء هى التى تروعك ، وإنما يروعك منه تفرده وجلاله ، على رغم ما نال منه البلى وأخذ الزمان . . .

قيل لنا : هنا المتحف البحرى Museo Maritimo . وفتح أمامنا بابه الضخم العتيق ، فدخلنا نشق طريقنا بين خرائب وأطلال قدستها أسبانيا الجديدة فتركتها كما هى : بترابها وأنقاضها وأعشابها ، بقية من دار الصناعات القديمة Atarazanas التى كانت هناك ما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر .

ثم ما لبثنا أن رأينا وسط هذه الخرائب ، صالات من أفخم صالات العرض وأحدثها طرازاً وأجملها تنسيقاً ، تقدم لنا نماذج ولوحات وصوراً ، للسفن الأسبانية الأولى وبناتها الخالدين ، وترينا آثارهم التى تركوها ، وتتلو علينا أناشيدهم وأغانيهم .

يحسب الزائر الغريب حين يرى هذا المتحف الحديث بين الخرائب والأطلال فى المبنى العتيق ، أنها صورة واحدة ، تألفت هكذا بمحض المصادفة ، أو لاعتبار مادي من الانتفاع بالمبانى القديمة توفيراً واقتصاداً ، لكنه لا يلبث غير بعيد حتى يدرك أن ما حسبه قد قام بمحض المصادفة أو لاعتبار مادى قريب ، لم يكن سوى اتجاه مقصود مسدد ، لضم الجديد إلى القديم ، وبناء الحاضر على الماضى .

وذلك هو طابع الحضارة الأسبانية اليوم .

ترى مثل هذا الطابع المتميز فى متحف برشلونة ، إذ تسلك إليها طريقاً قديماً ضيقاً ، تقوم على يمينه الكاتدرائية العتيدة التى تبلغ من العمر ستة قرون ، ويقوم على يساره قصر محكمة التفتيش **Palais de l'Inquisition** وإلى جانبه متحف المخطوطات الشهير **Archive de la Couronne d'Aragon** الذى يعد ثانى متحف من نوعه فى العالم ، فليس يفوقه سوى متحف الفاتيكان .

وينتهى بك هذا الطريق الأثرى الذى تحف به المبانى الأثرية ، إلى مبنى جميل حديث الطراز ، تحسبه مسكناً لوجيه من سراة القوم . فى هذا المبنى الجديد ، أطلال مدينة برشلونة القديمة .

تدخل من بابه الأول ، فتستقبلك صالة حديثة للعرض ، بها كل المؤلفات التاريخية عن مدينة برشلونة ، وفيها نماذج من القطع الأثرية المتخلفة من عهودها الأولى . ويمضى بك سرداب طويل منحدر إلى ما تحت البناء ، فاذا أمامك مدينة برشلونة بمقابرها وأطلالها ومعالمها ، فى عهدها الرومانى الأول (٢ ق.م : ٣م) . وإلى جانبها مدينة برشلونة فى عهدها الثانى إلى قبيل العصور الوسطى . هناك ترى الأحجار المتخلفة من خرائب المبانى التى هدمتها غارات البربر . وترى الحمام الرومانى القديم ، كما ترى المواقد والأوانى ، والمناسج والرحى . وقد أحيطت هذه المنطقة الأثرية بجدر واقية متينة ، وأقيمت بينها أعمدة من الفولاذ والأسمنت المسلح ، ثم شيد فوقها ذلك المبنى الحديث ، حيث سجلات المتحف ومكاتب موظفيه .

ودع مدينة برشلونة بمتاحفها وخرائبها ، وامض إلى لريدا ، وسرقسطة ، وبدريد ، تر مثل هذا الطابع سمة حضارتها . وهو يتجلى فى أروع صوره ، فى دير الأسكوريال ثامن عجائب الدنيا . أقيم هذا البناء الشامخ الفخم على أنقاض كنيسة صغيرة للقديس لورنسو **San Lorenzo** راعى الملوك الأسبان ، وكانت الكنيسة تهدمت فى غارة عدائية ، فأقام الملك فيليب الثانى هذا الأثر الخالد فى القرن السادس عشر تحية وترضية ، وقرباناً وذكرى . وشيد فيه جناحاً ملكياً ما يزال حتى اليوم محتفظاً ببهائه القديم ، وأثاثه الأول ، ولوحاته الرائعة التى تغطى جدرانه جميعاً . بل ما يزال حتى اليوم مبقياً على الفراش الذى لفظ فيه الملك فيليب آخر أنفاسه .

ويرى الأسبان أن الاسكوريال ، يمثل الروح الاسبانية فى بساطتها وقوتها ، واستقامتها وخلودها واعتزازها بقديمها . وهم لذلك يحرصون على أن يمضوا بضيوفهم إليه . وقد استقبلوا فيه قبيل رحلتنا ، السنيورا إيفا بيرون عقيلة رئيس جمهورية الأرجنتين .

ثم دع الأسكوريال بعظمته وبهائه ، واقصد إلى طليطلة على بعد سبعين ميلا من العاصمة ، وهناك التمس قصرها التاريخى الخالد **Alcazar de Toledo** على الربوة العالية التى تلتف حولها المدينة وتحف بها فى تقديس وإعزاز . قف على باب القصر المهدم برهة ، وطأطئ الرأس مهابة وإجلالا ، ثم اتبع الدليل وهو ينتقل بك بين الأطلال ، حيث أقامت أسبانيا أمجد وأحدث متاحفها القومية .

شيده شارلكان فى عهده الزاهر ، ثم صار إلى أكاديمية حربية حتى قامت الحرب الأهلية المعروفة ، فرأى فيه الأسبان حصناً منيعاً ، لاذ به جمع من البيوتات الكبيرة ، وأووا إليه بأرواحهم ، صفر الأيدى من الزاد والعتاد . . .

وأحاط الأعداء الحمر بالحصن محاصرين ، ولبثوا مقيمين على الحصار اثنين وسبعين يوماً ، وأهل الحصن ثابتون صابرون ، يحتملون من مرارة الهجوم وعنف الحصار ، مثل الذى يكابدون من قسوة الجوع وحرقة الظمأ . . .

ثم حانت لحظة حاسمة : من تلك اللحظات التى يقف التاريخ فيها مترقباً ينتظر كلمة واحدة ليوجه سير الأحداث ، ويقرر مصاير الشعوب . ظفر الأعداء بفرانسوا ، ابن الجنرال موسكاردى رأس المدافعين عن الحصن . وكان فرانسوا شابا يافعاً ، مات أخ له فى الحرب من قبل .

والتمس قائد الأعداء خصمه فى « التليفون » منذراً إياه بقتل ولده إن لم يسلم الحصن فى عشر دقائق . ثم بدا له فى تلك اللحظة أن يدع فرانسوا يخاطب أباه ، تأييداً لما ادعاه من ظفره به . وإثارة لعاطفة الأبوة فى القائد الشيخ .

وأصغى الزمن إلى الشاب وهو يقول لأبيه :

— أموت يا أبى ، وتعيش أسبانيا . وداعاً .

وهناك فى هذا القصر المهدم ، ترى صورة الشاب الشهيد فى قاعة القائد ، وتقرأ الحديث التاريخى مسجلا فى لوحة علقت إلى جانب « التليفون » الذى صار أثراً قوميا . فاذا تركت القاعة ، ألفيت فى صدر الممر أمامها ، تمثالا

لموسكاردى القائد ، شامخ الرأس ، بادى العزم ، مهيب السمات . وينتهى بك الممر إلى « غرفة الشهداء » حيث ينتظرك مشهد رائع رهيب لا ينسى .

« لا تبك على هؤلاء الذين ماتوا من أجل الوطن . »

هذا هو نشيد الفداء ، يلقاك حين تلج الباب ، منقوشاً على الصخر ، يتوج هامات الشهداء . . .

ثم هذه هى أسماؤهم ، محفورة فى لوحات رخامية متراصة ، جنوداً وضباطاً قد جمعهم الجهاد القومى المشترك ، وسوت بينهم الميتة المجيدة التى ختمت حياتهم جميعاً فى ميدان واحد .

وتطل هذه اللوحات على قبر يتوسط القاعة : قبر بسيط خال ، أعد لموسكاردى البطل ، بين صفوف جنوده الخالدين .

ويقودك الدليل بين خرائب القصر ليريك قاعة أخرى تحت الأرض . إنها « غرفة الحياة » حيث ترى كل ما أبقى الحصار الطويل الناهك لأهل القصر من ذخائر ومؤن ، تركتها أسبانيا فى مكانها ، تتلو على الأجيال الخالفة ، آية الشجاعة ، ونشيد البطولة ، وقصة الفداء . . .

هنا حفنة من القمح لا تزن رطلا ، وكسرات من خبز قديد لا تشبع طفلا ، وقارورتان من اليودوفورم والكحول ، وثلاث علب صغيرة فيها بقية ضئيلة من المساحيق والعقاقير . . .

وهناك . . . واجهة زجاجية ، تحفظ ما كان فى القصر يوم أنقذ ، من أسلحة وذخائر . وأخرى بها الكوز الصفيح الذى كانوا يشربون به ، والأوعية البسيطة التى اخترعتها لهم الحاجة وصنعها الاضطرار .

أما صدر القاعة ففيه الفرن الذى ألفوه مما لديهم من متاع ، و «الموتوسيكل» الذى حوروه إلى طاحونة للقمح وآلة لرفع الماء !

بهذا الأسلوب تمجد أسبانيا شهداءها ، وتقدس ذكرياتها ، وتحيى أمسها .

إنها لم ترفع أنقاض القصر القديم ولم تنسف خرائبه ، وإنما اعتزت بكل ما بقى منه ، وأقامت على أطلاله متحفها القومى الحديث ، ومدرستها الوطنية الأولى . . .

وذلك هو أسلوبها المختار : تراه هنا فى طليطلة ، كما رأيته هناك فى برشلونة وسرقسطة والاسكوريال ، وكما ستراه بعد فى غرناطة ، حيث أقيم معهد الدراسات

العربية فى قصر قديم لأحد أمراء العرب بمحلة البيازين **Albaïcin** ، وكما سوف يراه حيثما توجهت وأنى ذهبت .

إنه طابع الحضارة الأسبانية : اعتزاز مؤثر بالتراث القديم ، وإصرار عجيب على الجمع بين الحضارتين الموروثة والمكتسبة ، وقدرة نادرة على مزجهما معاً ، وصوغهما صياغة قومية فى مهارة تدعو إلى التقدير .

ولعلك لا تخطئ هذا الأسلوب هناك فى اللغة وفى الفن ، كما لم تخطئه فى المعالم الأخرى للحضارة الأسبانية . فالطابع المتميز للفن الأسبانى ، هو تلك الروح الشرقية التى تأتلف بالأسلوب الغربى فى التعبير والأداء . وقد جمع هذا الفن عناصر واضحة من الشرق والغرب ، من القديم والجديد ، من الاسلام والمسيحية ، كما احتفظت اللغة الأسبانية بكثير من مفردات العربية وأساليبها فى البناء .

ولقد دهشت لهذا أول ما رأيته ؛ إذ كنت أحسب أن الأسبان يبرءون من الشرق والعرب ، ويحاربون كل ما هو شرق عربى ، وعذرتهم فى هذا ، فما كنا نفعل سواه لو أنا مكانهم . لكن الغريب أنهم لم يعودوا يحاولون أن يقطعوا من تاريخهم هذه القرون الثمانية التى عاشها العرب هناك سادة وملوكاً ، أو يفصلوا من دمائهم العنصر العربى الذى سيط بالدم الأسبانى الأول ، واستحال بعد ذلك أن يتزايلا .

هم لا يحاولون ذلك ، أو لعلهم قد حاولوه فلم يستطيعوه ؛ فقد دخل العرب فى تاريخهم وفى دمائهم ، وتركوا أثرهم الخالد على أرضهم ، وخلفوا طابعهم الخاص فى فنهم وحضارتهم . والأسبان يعترفون بذلك فيقررون : « أن الغزو العربى قد ترك فى الاقليم أعمق الآثار . . . ولقد كانت هناك فترات اتصل فيها المسلمون بالمسيحيين وعاشوا فى صداقة وألفة ، فامتزجت العناصر العربية بالأسبانية امتزاجاً ترك أثره الواضح فى الفن والعادات المسيحية ، بحيث أصبح اسم (أسبانى) يطلق على المزارع المسلم فى عهد خليفة قرطبة ، كما يطلق على الفارس المسيحى من قسطيلة أو ليون . (١) »

كما يقررون فى مكان آخر « أن أهم خصائص الطابع الأسبانى ، هو ذلك الجو الشرقى الذى يسوده . فروح الشرق قد تعمقت فى صميم كل ما هو أسبانى ،

---

(١) *Spain*, p. 18

والاختلاط المستمر بالعرب قروناً ، ترك على أرض أسبانيا ، كما ترك فى روحها ، آثاره الواضحة الصريحة ؛ وهذا هو مايميز أسبانيا ويجعلها ذات طابع فريد بين بقية الأمم الأوربية الأخرى .

« One of the most typical peculiarities of Spain is its eastern atmosphere. The spirit of the East has soaked down into the inner essence of that which is Spain. A continuous association of centuries with Arabs has left in the land as in the soul of Spain visible traces. It is this what makes Spain unique among the rest of European nations. » (1)

وترى هذا الطابع الفريد — حيث العنصران حاضران ماثلان — فى الكنائس ، مثل كنيسة سان ميجويل فى ليون ، وسانت ناريا فى سانتندر ، كما تلمس الايحاء الشرقى واضحاً فى أكثر الكنائس الريفية . ولعل دير Guadalope أجمل مثال لذلك الطراز الجميل الذى يعشقه الأسبان . كذلك ترى مثل هذا الطابع فى الحصون مثل ترويل ، وسانتا كلارا ، وكوكا ؛ وفى قصر اشبيلية Alcazar de Séville بوجه خاص .

وإذا تركت المبانى ، ألفيت الطابع نفسه سائداً فى الصناعات الفنية الدقيقة ، حيث يعترف الأسبان بالأثر العربى القوى فيها ، وبخاصة فى العاج والنسيج والأسلحة والجلود ، والأسقف الخشبية .

والظاهرة العامة التى تلفت السائح الأجنبى اليوم اعتراف الأسبان بكل ما هو قديم ، لا يحول دون ذلك حائل من سياسة أو دين . فأسبانيا الجمهورية التى أنزلت الفونس الثالث عشر عن عرشه وأخرجته من وطنه ، احتفظت بتابوت فارغ بين قبور ملوك أسبانيا ، لتنقل إليه رفات ملكها الذى تركته يموت فى المنفى غريباً ، كما احتفظت لأمه بقبرها مع الملكات الأمهات فى المقبرة الملكية بالاسكوريال .

وأسبانيا المسيحية الكاثولوكية المتعصبة التى حاربت الاسلام فى إفريقية وأوربا ، لم تستطع أن تتجاهل الاعتراف بعظمة الخلفاء المسلمين الذين حكموها ، بل وضعتهم فى أماكنهم بين أعلام الأسبان . وهذا هو الكاتب

---

(١) *Spain*, pp. 18-20

الأسبانى المعاصر(١) ماريانو توماس Mariano Tomàs يؤلف كتاباً عن الخليفة عبد الرحمن الثالث ، حلقة فى السلسلة التى يكتبها عن مشهورى الأسبان *Espanolas Famoses* .

وفى الاسكوريال ، حيث الدير الأسبانى الأول ، وحيث الكاثوليكية المتعصبة تسود الجو وتسيطر على المكان ، ترى فى مكتبته الشهيرة هناك ، كنوز التراث العربى من المخطوطات النادرة ، قد أبقى عليها الأسبان واحتفظوا بها فى حرص بالغ . هناك ترى مصحفنا الكريم فى وسط بهو المعرض الفخم ، مع كتابهم المقدس جنباً إلى جنب ، حين كان ينتظر من أمثال هؤلاء المتعصبين الذين أقاموا دولتهم المسيحية على أنقاض الدولة الاسلامية إثر صراع طويل دام ، أن يحرقوا كل أثر للعرب ، وأن يمزقوا قرآنهم كما فعلوا بمن ظفروا بهم من المسلمين . ولكن الأسبان الذين دفعهم الحقد والتعصب إلى مطاردة المسلمين و إذاقتهم فنون التعذيب وألوان النكال ، قد أدركهم الرشد فأبقوا على آثار العرب وكتبهم ، وتركوها تأخذ مكانها بين تراثهم الغالى . وهكذا ترى فى أسبانيا الحديثة قصر محكمة التفتيش قائماً فى مكانه إلى جانب كاتدرائية برشلونة ، كما ترى قصر الحمراء فى مكانه بغرناطة ، شاهداً على الحضارة العربية الزاهرة ، وصورة من المجد الاسلامى الأندلسى ، وكما ترى نفائس المخطوطات العربية فى مكتبة دير الاسكوريال . وفى القسم العربى بالمكتبة الأهلية فى مدريد .

أكان الأمر عليهم سهلا هيناً ؟ إن آثار العرب هناك تجيب عن هذا السؤال بما لا تزال تحمل من ندوب الصراع الرهيب الذى عاناه القوم ، مترددين بين محو كل ما هو عربى إسلامى ، وبين الابقاء على ما صار قطعة من حياتهم وجزءاً من ماضيهم . فأنت تلمح مافعل بهم التعصب الحاقد فى تلك الصلبان التى أضافوها إلى مثل أبواب مسجد قرطبة الشهير ، وفى المآذن التى جعلوها أبراجاً للنواقيس ، وفى المساجد التى حولوها إلى كنائس

---

(١) طبع هذا الكتاب عام ١٩٤٧ ، وماريانو كاتب أديب شاعر ، ظهر له ديوانان ، وخمس مسرحيات ، وسبع عشرة قصة ، وست تراجم لأعلام الأسبان .

أو أعادوها إليها كما يقولون ، وفى الصور المسيحية التى ملأوا بها جدران المصلى فى طليطلة ، وفى . . . وفى . . . وفى . . .

ولقد كنا لنشهد هذا فنمسك عبراتنا تجملا ومداراة ، ونطوى جوانحنا على الهم ، وتتجاذبنا عوالم شتى نتنقل فيها بين هذه العواطف المجهدة ، وبين عواطف أخرى أرحب مدى وأوسع مجالا . . . هنالك حيث كنا نأمل للانسانية حظا من سعة الأفق يقيها مثل هذا الصراع الدامى المجهد ، ويريحها من ذلك العناء فى المحو والاثبات ، ويجعلها تنتفع بتعاون الأجيال المتتابعة فى التعمير والبناء ، ويوفى بها على شئ من السماحة يعفيها من مرارة الحقد وإجهاد التعصب ، ويحمى لها تراثها على مر الأجيال .

تجاذبتنا هذه العوالم المتباينة ونحن نطوف بمشاهد الحضارة الاسلامية فى أسبانيا ، حيث كانت أطياف الملوك والأمراء من العرب تحيط بنا ، ورؤى مجدهم الذاهب تتراءى لنا ، وأشباح ماضيهم تتبعنا وتأخذ علينا كل سبيل .

أى مجد قد راح . . .
وأى تاريخ قد طوى . . .
وأى عز قد اندثر !

ولكن . . . أحقا قد ضاع كل هذا واندثر ؟

أما فى حساب هذه الأمة أو تلك فنعم ، وأما فى حساب الانسانية فهو باق باق ، خالد خالد ، شخصت معالمه فى بناء الحضارة فلا تخفى . . . وسجلت آثاره فى تقدم البشرية فلا يمحى . . .

ولئن كان الأسبان قد أبقوا عليه بالأمس فخراً بما ظفروا ، ومباهاة بما نالوا ، وذكرى لما كان ، فانه اليوم يقوم بما للانسانية من حق فى حماية ماضيها ، وبما لها من أمل فى رقى غدها . . .

بهذا يقوم هذا الماضى فى حراسة الانسانية ، تتكئ عليه اليوم أمة تقوم بنصيبها فى الحضارة مهما يكن تعصبها الفردى أو شعورها الذاتى . . .

فلله ما أسدى أصحاب ذلك الماضى المجيد للانسانية العليا ، والمدنية السامية .

بنت الشاطىء

النفس الأندلسية فى كتابات ثرفانتز

لا يعرف القلب الأسبانى من لم يعرف ثرفانتز ، ولا يعرف ثرفانتز من لم يعرف قيمة التراث الاسلامى فى الأرض الأسبانية ومداه . ذلك أن ثرفانتز كاد أن يجمع فى نفسه نفوس الأسبان جميعاً ، وكاد أن يجمع فى كتاباته كل ما كتب الله لأهل هذا البلد العظيم فى ماضيهم ومستقبلهم ؛ فما من شخص يلقاك فى هذه البلاد أو يطالعك فى صحائف تاريخها إلا وجدت له فى كتابات ثرفانتز شبيهاً يذكرك به ، وما من خصلة تلمحها فى أسبانى إلا وجدت هذا الرجل قد فطن إليها وأثبتها وعرضها فى شتى حالاتها عرضاً يكاد يغنيك عن التماسها فيمن ترى من الأحياء .

ثم إنك لو أقبلت تقرأ هذا الرجل بعد إلمام — ولو يسيراً — بما كان الأسبان عليه أيام كانوا مسلمين ، وبما كانوا عليه أيام كانوا بين الاسلام والنصرانية ، وبما بقى فى نفوسهم من الآثار حين دخلوا النصرانية ، فانك تجد فيما تقرأ لذة لا تكاد تعدلها لذة . فهذا الدون كيخوته تتتبع مغامراته وتقرأ أوصافه ، فيشوقك كل ما تقرأ ، ويستهويك مايبدو له من رأى وما يملأ نفسه من شعور ، ولكنك تنكر منه حماسة تبلغ به حد الغفلة ، وتنكر منه سذاجة لا تتفق مع مايقال لك من أنه ظل يدمن القراءة حتى « جف دماغه » كما يقول ثرفانتز ، وأنت تنكر منه أن ينهض للأمر العظيم ويمضى يجاهد فى سبيله حتى يجهد نفسه ويجهدك معه ، ثم هو يعود بعد ذلك دون أن يحقق من الأمر العظيم شيئاً . أنت تعجب بهذا كله وتنكر هذا كله ، وتحسب أن فى ذلك تضارباً لا يستقيم فى شخصية واحدة ، ولكنك إذا ذكرت أن الذهن الذى رسم هذا الشخص الطريف لم يكن أسبانيا صرفاً ولا أوربيا صرفاً ، وإنما خالطته عناصر شرقية بعضها عربى وبعضها غير عربى ، بعضها وليد الطبع الأسبانى الأصيل وبعضها بقايا بعيدة خلفها هؤلاء العرب ومن

أقبل معهم من المسلمين وما خلفوه فى النفس الأسبانية من خصال لاتذهب مع الأيام .

فكيخوته إذا نهض لأمر ملأه الحماس له قوة فمضى وقد آلى على نفسه ألا يسكن له جنب حتى يقضيه ، ثم هو لا يكاد يبلغ من هذا الأمر جانباً حتى يصرفه هذا الجانب عما بقى . وهو فى هذا يشبه بعض أجداده من المسلمين فى بلادهم : ينهضون للقاء العدو ويقسمون ألا يستريح لهم جنب حتى لا يبقوا له أثراً ، وما هو إلا أن يبلغوا بعض النصر حتى يأذنوا لجنوبهم أن تستريح ، وتصرفهم الراحة عن مواصلة المسير فيعودون لكى يحتفلوا بما أدركوا من نصر ، تاركين العدو ينهض خلفهم من جديد كأنهم لم يبلغوا منه شيئاً . وأنت تجد الدون كيخوته يحب المديح فيسرف فى هذا الحب ، يسمع الناس يصفونه بما ليس فيه ويحس أنهم يسخرون منه ومع هذا يطرب لهذا المديح ويستزيده وربما استغنى به عن السعى والاجتهاد ، فيذكرك هذا ببعض أجداده من المسلمين الأسبان الذين كانوا يطربون للمديح ويستزيدون منه وهم لا يشكون فى أنه كذب صرف ، ويصرفهم هذا المديح عن العمل العظيم أو العمل المفيد . ما قرأت فصلا من الدون كيخوته إلا قفزت إلى نفسى صورة المعتمد بن عباد ، فهذا رجل كان يحلم بالسيادة كما كان يحلم بها كيخوته ، ويسعى لها حتى استكمل أدواتها كما استكمل كيخوته أدوات الفروسية ، ولم تكن أدوات المعتمد بأصلح للغرض الذى رمى اليه من أدوات كيخوته للأمر الذى طلب . فهذا المعتمد يحلم بجمع الجزيرة كلها تحت لوائه ، فتبلغ به الحال ألا يكون له أكثر من بضع مئات من المقاتلين معظمهم من المرتزقة المأجورين أو من شذاذ الآفاق الذين لا يعول عليهم فى مطلب كبير أو صغير . وهكذا نجد كيخوته يتخذ لنفسه سيفاً كليلا ويلفق لنفسه لباس فارس مفكك قد يربط بعض أجزائه ببعض بقطعة من ليف ، ويحمى رأسه ببيضة لا يمسها حد سيفه حتى تتبدد شعاعاً .

وهذا المعتمد يقسم ليغزون قرطبة ، وينشد الأشعار يتغنى بما سيأتى من الفتح الذى لم يسبقه إليه أحد ، ثم لا يكاد جيشه يقربها حتى يبرز له الأعداء فيبددوه ، ويعود إليه الجيش ممزقا مفرقا ، فلا يمنعه ذلك من أن يجلس للشعراء ويستطيب ما يحدثونه به مما أوتيت « جحافله » من النصر المبين .

وكذلك كان كيخوته يتحدث الناس أمامه بما يلاقى المساكين الذين يقدر لهم الحظ السيء العمل فى الأسطول ، فيقسم ليخلصنهم ، ويمتطى صهوة جواده لا تكاد الأرض تسعه من فرط التوفز والحماسة ، ويمضى حتى إذا لقى رجال الحكومة اشتبك معهم ، فهزموه وآذوه ، ثم يعود دون أن يخلص أحداً أو ينقذ مظلوماً ، فلا يمنعه ذلك من التحدث بما أتى من أعمال الشجاعة ومن إنصاف المساكين . . .

وهكذا : ما مررت بشيء فى كيخوته إلا ذكرت مثيله فى المعتمد ، تذكرنى الدسبكية بدولتينيه ، وتذكرنى أفراسه التى يتحدث عنها بروسينانت ، وتذكرنى نفحات كرمه فى المال بنفحات كيخوته فى الخيال ، ولو قد أوتى مال المعتمد لأعطى ، ولكنه كان فقيراً معسراً . وما تصورت المعتمد فى منفاه فى أغمات إلا طفرت إلى ذهنى صورة كيخوته راقداً على سريره ينتظر الموت فى ظلال الإخفاق كما كان المعتمد يتمنى الموت فى ظلال الأسر .

ولم يكن المعتمد فريداً فى بابه ، ولا بالوحيد الذى لا مثيل له بين معاصريه أو أسلافه ، فقد اشترك واياهم فى الإسراف فى التمنى والاسراف فى النشاط ، وفى الاكتفاء بالخيال والبعد عن الواقع . وهذه خصلة ظهرت عند المسلمين الأسبان خلال القرن الثالث الهجرى ، وشاعت بينهم خلال القرن الرابع وما تلاه . وما هكذا كان المسلمون فى أسبانيا خلال القرن الثانى الهجرى ، لأنهم كانوا ما زالوا عرباً . وهذه الخصلة وغيرها نتجت عن امتزاجهم بالأيبريين من أهل البلاد ، وتأصلت بعد ذلك فى الخلق الأسبانى ولازمته حتى اليوم ، لا تكاد تجد منهم أحداً إلا لمست فيه هذا النزوع وهذا التوفز . ثم إنك لا تعدم بعد ذلك أن تجد منه القعود عند منتصف الطريق ، والعودة من المرحلة الطويلة بالقليل أو بلا شيء . ولست أذهب بك بعيداً ، فهذا هو الشعب الأسبانى النصرانى كله يهم فينشئ دولة تكاد تسع الدنيا ، ويمضى يملأ الدنيا دوياً حتى يشغلها بنفسه زماناً ، ولا تكفيه أوربا فيعبر المحيط إلى عالم جديد ينشئه ، ثم هو يعود آخر الأمر إلى وطنه يجر أذيال الخيبة ، ويغلق بابه على نفسه ، ويلقى سلاحه ، ويقبع فى عقر جزيرته لم يصب من جهده غير الاجهاد والحرمان .

أليس هذا كيخوته ؟ . . .

أليس هذا المعتمد؟ . . .

أليس هذا رمزاً لحيوات ملايين الأسبان النصارى مثل كيخوته؟

أليس هذا رمزاً لحيوات ملايين من الأسبان المسلمين مثل المعتمد؟

بلى! فلن تدرك الجمال فى صورة هذا الفارس العتيد إلا إذا عرفت أنه يصور النفس الأسبانية فى صميمها ولبابها، ولن تدرك جمال هذه النفس الأسبانية إلا إذا ذكرت أسلافها المسلمين وما خلفوه فى طبعهم من أسرار.

ولعل صاحبنا سانشو بانزا أن يكون أوفق لتقرير ما قلناه من صاحبه وأستاذه السيد كيخوته.

فسانشو رجل عاقل يمثل الواقع ولا يريد أن يعدوه، وهو حصيف يفهم من الأمور مالا يفهمه أستاذه، وهو يحاول جهده أن يصرف الأستاذ عن خياله فيخفق فيما يريد، ولكنه لا ييأس من دركه مراده، فيمضى مع صاحبه ويلقى بنفسه فى المهالك معه لأنه يحبه ويعجب به ولا يطيق أن يتركه، فاذا مضى معه ردحاً أخذ يتأثر به وأخذ يتخلى شيئاً فشيئاً عن الواقع الضيق الذى كان يلتزمه أول الأمر، ثم إذا به يحلق فى الخيال مع صاحبه، ثم يسرف فى التحليق حتى لنجد كيخوته ينصحه ويحاول أن يصرفه عن هذا العبث الذى يكاد يهلك نفسه فيه. ولكنه لا يستطيع أن يجرى مع الخيال شأواً بعيداً؛ لأن مسكة من العقل بقيت فيه، فهى ترده عن الاسترسال فيما تعلقت به نفسه، وهكذا « يقعد فى منتصف الطريق فلا هو أقام على فلسفته وعقله ولا هو أصبح مغامراً مخاطراً . . . » ذلك هو الرجل الأسبانى العادى فى بعض نواحى نفسه.

فمعظم الأسبان فلاسفة عقلاء، لا تكاد تحدث أحدهم حتى تجد فى نفسه من الحكمة والعقل والفلسفة الخاصة ما يعجبك ويجعلك تحسب أن هذا الرجل أسعد الناس بما وعى فى صدره من الحكمة؛ ولكنك لا تكاد تمضى معه قليلا حتى تتبين أن العقل والحكمة والرزانة والاتزان ليست وحدها دستور حياته بل تلمس فيه أيضا أحيانا ميلا إلى المخاطرة واسترسالا مع الخيال يذكرك بالسيد كيخوته. فاذا صبرت بعد ذلك على صحبته يسيراً تبينت أن حياته كلها مشطورة بين العقل والخفة والواقع والخيال؛ فهو نصف فيلسوف ونصف مغامر، هو نصف كيخوته ونصف سانشو، هو فى مجموعه أشبه الأشياء بهذه

القطعة الفريدة التى صاغتها يد ثرفانتز فى هذا القالب البديع الذى لا يصدر إلا عن قلم إسبانى لا يختلف هو فى نفسه عن كيخوته أو سانشو . ألم يكن ثرفانتز حكيما فيلسوفاً ؟ ألم يكن قارئا كاتباً قد وعى من الكتب فى صدره وخط من الكتب بيده ما لم يدانه فيه إلا القليل من بنى الزمان ؟ فما الذى دفعه إلى المخاطرة وركوب الأهوال والوقوع فى الأسر وتحويل حياته إلى هذه الأوديسية الفريدة فى بابها . . . ؟ ثم ألم يعد بعد هذا كله إلى بلاده ويستقر به الحال ويأخذ فى أسباب حياة هادئة لا بأس عليها . . . فما الذى دفعه إلى المخاطرة مرة أخرى وقد كانت له عن ذلك مندوحة ؟ لعلنا لا نفهم ذلك على وجهه إلا إذا ذكرنا أن الرجل كان فى نفسه مزاجاً من كيخوته وسانشو : من التخيل البالغ فيه والحكمة البالغة ، من القلب العامر المتوفز والرأس العامر الملئ . . .

ثم ما سر إعجاب الأسبان كلهم بهذا الكتاب ؟ كيف تلقفوه ساعة وصل إلى أيديهم واستغنوا به عما كانوا يتداولونه بين أيديهم فى ذلك الزمان من كتب المخاطرات والمغامرات ؟ كيف انصرفوا دفعة واحدة عن الاعجاب بأبطال من طراز برناردو دل كاربيو وأماديس دى جاولا أولئك الذين كانوا يتسامرون بأخبارهم لا يكادون يعدلون بها شيئاً غيرها ؟ بل كيف انقلبوا عليهم فجعلوا يسخرون منهم وممن يقرؤهم . . . ؟ الجواب على ذلك يسير : فهؤلاء أبطال لا يشبهون الأسبانى إلا فى جانب واحد ، إنهم جميعاً مغامرون فحسب ، مغامرون يواتيهم الحظ ويساعفهم المقدار فيمضون من نصر لنصر ومن مجد لمجد لا يكاد الدهر يخونهم أبداً . . . أما كيخوته فرجل سيئ الحظ على رغم ما وضع الله فى قلبه من حسن النية وثبات القلب والصبر على المكاره : لا يكاد يطلب أمراً حتى يبدأ الدهر يعاديه كأنه له بالمرصاد ، فيتركه يمضى فى شأنه ، حتى إذا نال منه الاجهاد وكاد يوفى على غايته حال بينه وبين مطلبه . ويعاود الرجل السعى ويعاود الدهر عبثه . وهكذا تمضى حياته على هذه الوتيرة المجهدة المتعبة . ذلك هو ما يميز السيد كيخوته من غيره من الأبطال ، وهذا ما يقربه من النفس الأسبانية ؛ لأن كل أسبانى لا يشك فى أن الدهر عليه فى كل حين ، وأنه لولا المقادير لأدرك من الفوز أضعاف ما يبلغ غيره ، لأنه لا يشك فى أنه من خير أبناء الزمان ، بل أحسن أبناء الزمان جملة .

ثم أين هذه السخرية الحلوة التى تشيع فى حياة كيخوته كلها ؟ أين هى

فى حياة بطل مثل برناردو دل الكاربيو يمضى فى مغامرات كلها عبث وهو مع ذلك يظن أنه أكثر أهل الأرض جدا ، ولا يكاد يدرك نصراً بسيطا حتى يأخذ يفخر بنفسه ويعجب بها كأن الله لم يخلق غيره؟ بل أين هى فى حياة رجل كالسيد القمبيطور صاغه مؤرخوه على نحو لا يكاد يصدقه أحد : فهو خير كله عدل كله تضحية كله إخلاص كله . . . ؟ أليس ذلك ثقيلا على النفس لا يكاد يحبه إلا الذى يقرأ أخباره وهو مصمم مبدئيا أن يحبه ويعجب به على أى حال؟ فأين هذا من كيخوته الذى يسخر من نفسه ويلومها ويدل الناس على نواحى الضعف منها وكأنه يريد أن يزهدهم فى شخصه وفى أعماله؟ أين برناردو دل كاربيو ، وأماديس دى جاولا والسيد القمبيطور من هـذا الرجل الذى يزهد فى إعجاب الناس لأنه يعرف قدر الناس؟ أين هؤلاء جميعاً من هذا الانسان الحى بحسناته وسيئاته ، بجماله وقبحه ، بتوفيقه وإخفاقه؟ أين هيئاتهم المختلفة من هيئته الصادقة التى تمس القلوب لأنها صادقة؟

وهل عرفت أسبانيا لا يسخر؟ هل عرفت أسبانيا لا تكاد تحدثه عن شئ إلا بدأ يسخر به ويمضى فى السخرية حتى تكاد تحسبه لا يحب شيئاً ولا يعطف على شئ؟ أليست السخرية هى الجانب المميز لمعظم كتابهم من ثرفانتز إلى أورتيبى أى جاست؟ ألا تلمح هذه السخرية حتى عند رساميهم من أمثال موريليو؟ ألست تجد فيما صور من غلمان الشوارع وفقراء المدن لوناً من السخرية بأترابه الرسامين الذين حصروا جهدهم كله على الجوانب الجميلة الزاهية من الحياة؟ الحق أن السخرية تكون جانباً هاما من جوانب النفس الأسبانية ، بل هى أحب جوانبها إلينا لأنها فى الواقع جماع ما أودع الله قلوب الأسبان من حكمة وفلسفة . . . .

ثم عد بنا قليلا إلى أصول هذا المزاج الساخر الذى لا يكاد يدع شيئاً دون أن يركبه بالسخر فى كل حين ، وتعال نبحث عن بعض أصولها عند الأسبان المسلمين : إنك لا تكاد تقلب كتاباً من كتبهم إلا وجدته فياضاً بما يدل على أن السخر كان طبعاً مركباً فى هؤلاء الناس ، بل يخيل لمن يقرأ أخبارهم أن حياتهم كانت سخراً متصلا بأنفسهم وبغيرهم من الناس ، فما من عيب يرونه فى هيئة أحد إلا اتخذوه موضعاً للسخر لا يفرقون فى ذلك بين صغير وكبير : فهذا قاض قصير القامة قصير العنق يلقبونه بالقبعة ، وهذا قائد اشتهر بالبخل

يسمونه البطرشك أى الحجر اليابس Pietra Seca ، وهذا قاض مسرف فى السذاجة حتى يتهم بالغفلة ، يأمر غلامه أن يتناول من المتخاصمين أوراقاً فيها أسماؤهم ثم يناديهم واحداً واحداً ، فيحتال بعض الناس فيدسون على الغلام أوراقاً فيها عيسى ابن مريم ويونس بن متى ، ولا يفطن القاضى لذلك ، فيجعل غلامه ينادى هذين الاسمين ، فيبرز له رجل يقول وهو يضحك : « ما هذا يا مولانا . . . إن ظهورهما من أشراط الساعة ! . . . » وتضحك قرطبة كلها من غفلة هذا الشيخ المسكين . وهذا القاضى سليمان بن أسود يخيف أهل قرطبة بشدته وحزمه ، فلا يمنع ذلك الناس من أن يضعوا تحت الحصير الذى يجلس عليه فى مجلس القضاء شيئاً من ورق البلوط الجاف ، ولا يكاد الشيخ يدوسه حتى يتكسر ، ويمد يده يتحسس فاذا بورق البلوط ، فيعرف أن أهل قرطبة يسخرون بأصله لأنه كان من فحص البلوط . وهذا هو الأمير عبد الله — أمير شيخ عاقل حازم ، يسخر من وزيره سليمان بن وانسوس ، فيقول له : أقعد يا بربرى ! ويضحك الناس ويألم الوزير ويغضب لأن الأمير يعيره بأصله . وهذا ابن ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد يمازح صاحبه القلفاط الشاعر ، فيسخر منه سخراً يغضبه ، وينتهى الأمر بأن يتخاصم الرجلان خصاماً يفرق بينهما حتى الموت . وهذا الوزير سليمان بن وانسوس يتحدث عن صاحبه الوزير ابن جهور فى مجلس الأمير عبد الله فيقول :

جاء الحمار — حمار المرج — محتشياً   مما أفاد من الأموال والطرف
خلى لبيرة قد أودت مساكنها   بقبح سيرته والعنف والسرق
فاحمل على العير حملا يستقل به   واترك له سبباً للتبن والعلف

وهذا الوزير أحمد بن عبد الملك يذهب ليزور صاحبه الوزير عبد الملك ابن جهور فيتأخر فى الاذن له ، فيكتب على بابه :

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا   إليك ولا قلب إليك مشوق
ولكننا زرنا بضعف عقولنا   حماراً تولى برّنا بعقوق

ويمضى . وهذا الخليفة الناصر نفسه يغرى بعض جلسائه ببعض ليسخر

منهم كلهم وليشبع فى نفسه ونفوسهم النهم إلى السخرية اللاذعة التى قد تصل إلى حد الإيلام . . . وغير ذلك كثير بل كثير جداً .

كان الأندلسى إذن رجلا ساخراً ، لا يعجبه شئ ولا يكاد لسانه يعفى شيئاً . ولم يكن الأسبان كذلك قبل أن يعرفوا العرب ويختلطوا بهم ، فهذه كتابات أدباء الأسبان اللاتين من أمثال سنكا وكنتليان ومارشيال ولوكاين وفلوروس لا نكاد نجد فيها للدعابه أو للسخر أثراً ، فما هو إلا أن اختلط الأسبان بالعرب وامتزجوا بهم وبمن معهم من المسلمين حتى ظهرت فيهم هذه الخصلة ولازمتهم حتى صارت خصلة تكاد تميزهم من غيرهم من الشعوب . . .

لهذا أعجبهم ثرفانتز، ولهذا أحبوا كيخوته وسانشو بانزا وخينيته وكورتاديليا وغيرهم من الأشخاص الساخرة التى صقلتها يد هذا الفنان المبدع وجعلتها رمزاً للسخر الدائم من كل ما فى الحياة . . .

ليس عبثاً أن نجد ثرفانتز يسند بعض أخباره إلى رجل اسمه هامت بننخلى يترجمه المستعربون حامد بن النجيلى أو ابن النجيلى . وليس يعنينا هنا أن نحقق هذا الشخص ، فنحن لن نبلغ من التحقيق شيئاً ذا غناء ، ولكن الذى لاشك فيه أن ثرفانتز كان يكتب وهو متأثر تأثراً مباشراً عميقاً بالنفس الأندلسية وما خلفته فى نفوس من تلاها من أجيال الأسبان . ذلك هو موضع الصدق والجمال فى كتاباته ، وهو ما يفرده بمقام خاص ممتاز بين كتاب الأسبان ، بل بين الكتاب أجمعين .

حسين مؤنس

داروين والتفكير الجديد

« أنت لا تعنى إلا بالصيد والكلاب ، وإمساك الجرذان ، وسوف تكون عاراً على نفسك وعلى عائلتك . »

هذه هي الكلمات التي تلقاها داروين من أبيه في وقت كان يلوح لأى إنسان يتأمل داروين أنها صحيحة ، وأن هذا الشاب قد خاب الخيبة التامة . فقد تسكع في دراسات مختلفة ، ولكنه لم يستقر على واحدة منها . فقد التحق بكلية الدين ثم تركها ، والتحق بكلية الطب ثم تركها . وفي غضون ذلك كان يلعب ، أو على الأقل كان يبدو كأنه يلعب . يخرج إلى الحقول ويجمع النباتات ، ويصيد الحشرات ويقارن بين النباتات . ويفكر تفكيراً سرياً كأنه يتآمر على الكون كله ، كي يغيره أو يغير البصيرة البشرية فيه .

والآن بعد أكثر من مائة سنة من هذه الكلمات القاسية التي قالها أبوه عنه لا يعدّ داروين عاراً على عائلته بل هو فخر أمته يتباهى به التاريخ الانجليزي . وبعد نحو خمسين سنة من هذا التوبيخ الأبوى تأمل داروين حياته الماضية ، ومبلغ ما أتمه من الخدمة في التوجيه الذهني للعالم فقال : « أظن أن أبي قد قسا عليّ بعض القسوة » .

ومات داروين في عام ١٨٨٢ بعد كفاح ثقافي طويل . ونحن الآن بعد وفاته بخمس وستين سنة ، نستطيع أن نقول إنه كسبنا فهماً جديداً للطبيعة والكون والانسان ، وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل . فان كتابه « أصل الأنواع » الذى أخرجه في عام ١٨٥٩ حمل إلى القراء شيئين : أولها معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع في الحيوان والنبات ، وأنها جميعها ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة . وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف في الطبيعة ، وأن الانسان والحيوان والنبات في تغير مستمر .

ونحن الآن لا نبالى الحقائق أو المعارف التى شرحها داروين . ولكننا قد اتجهنا الوجهة التى عينها لنا . فنحن نفكر فى التطور ، ونفكر متطورين ، وأصبح التطور حقيقة علمية نقيسها بالمليمتر والمليجرام فى الحيوان والنبات . كما أصبح أيضاً مذهباً دينيا ، أو مبدأ أخلاقيا عند المثقفين ، وانفسح به التاريخ البشرى آفاقاً إلى ملايين السنين ، بل مئات الملايين خلف البشر و بعد البشر .

لقد قيل إن جاليل حط الانسان من عليائه ، حين أعلن أن الأرض ليست مركز الكون ، وأنها كوكب صغير يدور حول الشمس . ولعل الشمس أيضا نجم صغير لا يختلف من ملايين النجوم التى نراها كل ليلة فى السماء . ولكن داروين رفع الانسان إلى هذه العلياء من جديد ، وأثبت انه لم يكن عالياً فسقط ، وإنما هو كان ساقطاً يعيش على حضيض الطبيعة حيواناً كسائر الحيوانات والحشرات ، ثم ارتفع . وبهذه الكرامة الجديدة انتقل من أسر القدر ، وأحس أنه تاج التطور ، وأن له الحق فى تدبير هذا العالم ، وفى تعيين السلالات القادمة ، بل ماذا أقول ؟ فى إيجاد الأنواع البشرية الجديدة .

ومع ذلك لا أعتقد أن داروين نفسه ، كان يقدر الطاقة الكامنة فى نظريته . ولا ينتقص هذا من عظمته ، فان تفكيرنا الشخصى يسير بقوات اجتماعية ، لا نكاد نبصر بها أو نتعمق أصولها . ذلك أننا نفكر بحوافز من العواطف التى نكتسبها من المجتمع ، بما يفرضه علينا من القيم والاوزان ، وما يرسمه لنا من المطامع والآمال . والمجتمع يطالبنا باستجابات مختلفة تستحيل فى كياننا النفسى إلى عادات عاطفية لا نستطيع الخروج منها ؛ فنفكر فى منهج خاص هو ثمرة هذا التوجيه الاجتماعى الذى لا نحسه لأنه لا يرتفع إلى وجداننا وتعقلنا .

ولذلك نستطيع أن نقول إن نظرية داروين وجدت الحافز الأول على التفكير فيها من المجتمع الذى عاش فيه داروين . ذلك أن داروين قضى إلى زهرة حياته إلى نضج الشباب وإيناع الكهولة فيما بين ١٨٣٠ و ١٨٦٠ . وكان عمره وقتئذ بين العشرين والخمسين ، وكانت انجلترا فى تلك السنين ترغى وتزبد بالحركة الصناعية الجديدة ؛ فالمصانع تحتشد بالعمال من الرجال والنساء

والصبيان ، والثروات تنمو ، والمزاحمة على أقصاها ، وإنجيل النجاح يدرس ، ويعبد والسياسة تخدم الاقتصاد وتضرب الأمم النائية وتؤسس الأسواق فى المستعمرات وأصبحت انجلترا سيدة البحار لأنها احتاجت إلى أكبر أسطول يحمى مستعمراتها وأسواقها التى تباع فيها مصنوعاتها الفائضة .

وعاش داروين فى تنازع البقاء هذا الذى لا يفتر فى لنكشير وغير لنكشير من الأقاليم الصناعية فى انجلترا .

وفى تلك السنين أيضاً قرأ كتاباً أحبه وتعلق به لأنه وجد فى نفسه الاستجابة لنظرياته بما تكون له من عواطف أحدثها الوسط الصناعى الانجليزى ، هو كتاب القسيس مالتوس عن السكان . فان هذا القسيس كان من المحافظين الانجليز الذين يكرهون العامة ، ولا يرون فيهم سوى غوغاء . فلما انفجرت الثورة الفرنسية واستولى بها الشعب على حقوق السادة من الملوك والعظماء ثم أعلن رجالها مبادئ الاخاء والمساواة والحرية ، فكر مالتوس كثيراً بحافز من عواطفه المحافظة ، فأخرج كتابه عن السكان . وكان المغزى الذى قصد إليه أن هذه الآمال فى الاخاء والمساواة والحرية لن تتحقق لأن الدنيا لا تكفى الناس الذين يتوالدون على نظام تضاعفى ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ الخ . ولكن المحصولات لا تنتج إلا على نظام حسابى ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ الخ . فاذا عاش الناس بلا مرض أو حرب أو حرمان لم تكفهم المحصولات . وإذن فالمرض والحرب والحرمان رحمة بالناس أو ضرورة لهم . وتأمل داروين هذا الكتاب الذى ألفه مالتوس عن المجتمع البشرى فساءل : لمَ لا ينطبق هذا الكلام على المجتمع النباتى والحيوانى فى الطبيعة ؟ فان الطعام لا يكفى جميع الأحياء التى تتوالد أو تتكاثر بالألوف ، فهى يجب ، كى تعيش ، أن يزاحم بعضها بعضاً ، فتكون الحرب بينها أى تنازع البقاء ، كما فى لنكشير ومصانعها تماماً .

وفى ١٨٣١ أنفذت الحكومة البريطانية سفينة البيجل كى تطوف حول العالم وتسبر الأعماق وتدرس الشواطئ وتقيس الأبعاد . ولكن لماذا عمدت الحكومة البريطانية وحدها دون سائر الحكومات إلى الاهتمام بهذا الموضوع ؟ ما هى العاطفة الحافزة إلى هذه الدراسة التى لم تفكر فيها ألمانيا أو روسيا أو إيطاليا ؟

العاطفة الحافزة اجتماعية أيضاً . وذلك أن الحكومة البريطانية فى تلك السنين كانت تخدم الصناعة البريطانية ، لأن السياسة على الدوام تسير خلف

الاقتصاد . وكانت أسواق العالم وقفاً على المصنوعات الانجليزية ؛ لأن الحركة الصناعية الانجليزية سبقت الحركات الأخرى فى جميع الأمم . فمن هنا كان الاهتمام بالبحار والملاحة والأقطار النائية . ومن هنا أيضاً كانت الفرصة لداروين فى أن يلتحق بالسفينة « بيجل » كى يدرس الحيوان والنبات .

ولم يكن داروين جديداً فى هذا البحث : أصل الأنواع ؛ فان لامارك الفرنسى سبقه إليه ، وهو صاحب القول بأن عنق الزرافة قد طال لأنها بالمرانة التى ورثت جيلا بعد الجيل قد اشرأبت وسعت للوصول إلى الغصون العليا فى الأشجار . فكأن ما يكسبه الحيوان بجهده من صفات يورث جيلا بعد جيل . بل إن جد داروين قد بحث هذا الموضوع . فكانت النظرية « فى الهواء » تحتاج إلى من يرتب أصولها وفروعها ويعلل مظاهرها .

كان داروين شابا فى الثالثة والعشرين حين شرع فى رحلته على البيجل . فلما وصل إلى أمريكا الجنوبية ، وجد حيوانها ونباتها يختلفان عما هما فى القارات القديمة . ثم لما وصل إلى الجزر المنعزلة غرب أمريكا الجنوبية وجد أن انعزال الجزيرة يؤدى إلى انعزال الحيوان . فتكون له أشكاله التى ينفرد بها من الأشكال العامة على القارات .

وإلى هنا يكاد يتوهم القارئ أنه ليس هناك أى فضل لداروين فى تعليل النظرية . فقد سبقه إليها جده كما سبقه إليها لامارك الفرنسى . ثم هناك الظروف الأخرى : مالتوس وقلة الانتاج الغذائى إزاء تضاعف السكان ، ثم تنازع البقاء وبقاء الأصلح وفناء الضعيف فى المزاحمة العنيفة فى لانكشير حيث الحركة الصناعية فى عنفوانها .

ولكن لا ! لأننا مع التسليم بأن الوسط الاجتماعى أو البيئة الثقافية ، فى أوسع معانيها ، حين تشمل المعيشة والاتجاه والعادات والعواطف ، هى الحافز للتفكير ، فاننا مع ذلك يجب ألا نغفل الشخصية ؛ إذ لو لم يكن داروين ذكيا لما فكر فى هذا الموضوع الخطير ، ولما جعله هدفه فى الحياة .

لقد قال داروين عن نفسه : « إن الحقائق تضطرنى إلى الاعتراف بأن عقلى لم يخلق للتفكير . »

وقد ظلم داروين نفسه بهذه الكلمات . ولكن الحقيقة أنه لم يعرف نفسه . لأن الواقع أنه لا يقول هذه الكلمات إلا رجل مفكر قد أسرف فى التفكير وعنى

العناية الكبرى بغربلة الحقائق من المعارف ، وعرف الصعوبة الكبرى فى هذا الجهد . ولو أنه لم يكن يجهد كما قال هذه الكلمات إذ أنها ما كانت لتخطر فى باله .

الحقيقة الواضحة من حياة داروين أنه احترف التفكير ، وأنه كان مريضاً أو متمرضاً فى نفسه حزازة قديمة هى جرح الكرامة ، هذا الجرح الذى أحدثه أبوه وعيره فيه كما نرى مثلا من وصف أبيه له بأنه سوف يكون عاراً لعائلته . فقد كان لا ينام فى الليل إلا بعد أرق الساعات . وكان فى هذه الساعات يفكر ويؤلف . فاذا جاء النهار كتب كلماته القليلة ، ثم يبقى سائر نهاره مريضاً . ومرضه هو هذا المرض النفسى الذى يخترعه النيوروزى ويعيش به ويستقر عليه ، كأنه يقول : طلبتم منى النجاح والتفوق ، وكيف أستطيع هذا وأنا مريض ؟

مرض يصون الكرامة المجروحة (أنت عار لعائلتك) وفى الوقت نفسه يهيئ الفرصة للتفكير فى حضانة ليلية يسميها الأصحاء أرقاً . ولو أن داروين نجح وصار قسيساً أو طبيباً كما كان يشتهى أبوه لكسب العالم قسيساً أو طبيباً يمارس حرفته ويكسب منها . ولكن العالم كان يخسر عندئذ هذه العبقرية المريضة التى زعزعت الثقافة من أساسها ، بل زلزتها وعينت أهدافاً جديدة للانسان .

كان داروين يكرر كلمة مألوفة بين أصدقائه هى « معدتى الملعونة » والترجمة السيكلوجية لهذه الكلمة هى : أريد أن أقعد وأتكاسل وأفكر ولا يساعدنى على هذه الحال إلا معدة ملعونة تزكينى وتسوغ لى الكسل والتفكير والتأليف .

وهذا الكسل من أعجب صفات داروين ، وهو صفة المريض النيوروزى الذى يكره النشاط ويرفض المعالجة لأى عمل لأنه يخشى النقص . أى لأنه يخشى أن يقصر عن التمام . فقد بقى داروين نحو ثلاثين سنة وهو يفكر فى التطور ، ولكنه لا يخرج كتاباً عنه ولا يكتب مقالا . ثم حدث حادث أزعجه فانتفض منه ، هو أن ولاس كان فى بعض الجزر التى تقع فى الجنوب الشرقى من آسيا يجمع الأزهار والحشرات ويحنطها ويبعث بها إلى الجمعيات العلمية . وكان مشغولا بالموضوع نفسه أى التطور ، وكان يعرف أن داروين مشغول به أيضاً . فأرسل إليه رسالة علمية يشرح فيها رأيه فى هذا الموضوع . وصعق داروين إذ وجد أن ولاس قد سبقه إلى تعليل التطور بأن الطعام قليل فى الطبيعة ، وأن التوالد كثير بين أنواع الحيوان والنبات ، فلا بد أن يكون

هناك تزاحم أى مسابقة من أجل الطعام . وفى هذا التزاحم أو المسابقة لا يبقى غير الأقوى الأصلح للبقاء .

وسارع داروين إلى إبلاغ الهيئات العلمية فى انجلترا عن رسالة ولاس . وشرع هو أيضاً يؤلف كتابه « أصل الأنواع » . ونستطيع أن نتخيل داروين فى حزنه ونزاهته معاً . ولكن وولاس بعد ذلك بسنين اعترف بأن العالم كسب ولم يخسر بتزعم داروين لهذه النظرية ؛ لأنه كان أوفى منه معرفة وأنصع بياناً وأدق منطقاً .

وأخرج داروين كتابه « أصل الأنواع » فى ١٨٥٩ فتغيرت الرؤية والرؤيا البشريتان .

وكثير من النظريات التى غيرت التفكير البشرى تبدو غاية فى السهولة والبساطة ، حتى ليتساءل الناس : كيف جهل السالفون هذه النظرية على وضوحها ؟

فان داروين يتحدث عن الحمام والكلاب وغيرها مما يربيه الناس ، وكيف استطاعوا أن يخلقوا العشرات والمئات من السلالات الجديدة . وما استطاعه الانسان فى مئات السنين القليلة قد استطاعته ، وأكثر منه ، الطبيعة فى ملايين السنين الماضية ، حتى أخرجت الأنواع فضلا عن السلالات . فهناك فى الغابات والبحار والجبال والسهول إنتاج محدود من الطعام ، ولكن هناك توالداً يتضاعف بين الحيوان والنبات ، ولا يمكن أن يكفى الطعام هذه الملايين بل ملايين الملايين من النبات والطعام . فلا بد إذن من أن تتنازع الأفراد لأجل البقاء أى لأجل الحصول على الطعام . وقد يكون السبب للتفوق فى هذا التنازع ثم البقاء خفيا ، هو كما فى النفس الأخير فى صراع يدوم الساعات . أو فى القدرة على الجوع أو العطش ، أو فى طرق الحماية للنسل ، أو فى القدرة على التطفل ، أو فى الجراءة والبطش .

وما دام كل فرد يولد مختلفاً عن الآخر فى الحيوان والنبات ، فان هذا الاختلاف ينطوى بلا شك على ميزة أو عجز . فهو يساعده فى الحال الأولى على البقاء والانتصار فى معركة الحياة . وهو يهيئ له الهزيمة فى الحال الثانية . ولا نعرف الأسباب لهذا الاختلاف ، ولكننا نشاهده ونسلم به . ولذلك لا بد أن يستمر التغير جيلا بعد جيل . فاذا تراكمت التغيرات أحدثت السلالات

الجديدة ، وإذا زاد الاختلاف بين السلالات ظهرت الأنواع الجديدة .

وعلى هذا يجب أن نسلم بأن الأحياء ، نباتاً وحيواناً ، ليست الآن كما كانت قبل مليون أو مائة مليون سنة ؛ لأنها دائمة التغير والتطور . وليس الاستقرار والثبات طبيعة الاحياء ؛ لأن التغير والتطور هما طبيعتها . ولنستطيع أن نستنتج أنه ما دام لنا تاريخ ماض فى التطور فسوف يكون لنا تاريخ قادم أيضاً تتغير فيه الأحياء .

وهذا هو المغزى الخطير الذى انتهى إليه قراء داروين ، وهو أن الحياة فى بوتقة لم تتجمد قط ، وأن البوتقة لا تزال تصهر وتخرج عناصرها ومركباتها . وهذا هو التوجيه الجديد الذى سدد داروين عقولنا إليه . ونحن فى بداية هذا التوجيه الذى يخشى كثير منا مغزاه لأنه يحمل فى طياته مشروعات بشرية خطيرة .

لقد عالج داروين تطور الأحياء ، وحاول تعليل التطور ونجح إلى حد ما فى هذا التعليل ، ولكنه لم ينجح كل النجاح . وذلك لأن عواطفه الاجتماعية التى اكتسبها من المزاحمة الصناعية التجارية فى لنكشير ، ومن كفاح الامبراطورية لخطف الأسواق وإذلال الأمم ، هذه العواطف هى التى حملته على أن يكبر من شأن التنازع ، تنازع البقاء ، وحال بينه وبين رؤية التعاون فى الطبيعة . لأن الواقع أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع .

ونحن نعرف الآن كثيراً أى أكثر مما كان يعرف داروين . ولكن لداروين فضل التوجيه وتعيين الخطط للبحث ، وأنه زودنا برؤيا بشرية جديدة . فقد نقلت نظرية التطور من الأحياء فى الطبيعة إلى الناس فى المجتمع ، وصار من المألوف أن نجد دراسات منظمة عن الأخلاق والأديان وفق النظرية التطورية ما كنا لنراها لولا داروين . وانبسطت للبشر آمال فى المستقبل ، وتغير معنى الارتقاء البشرى لأننا نقلنا هذا المعنى من وسط الانسان إلى الانسان نفسه . بل أصبح التطور فنا نمارسه فى إيجاد سلالات جديدة من القطن أو القمح أو الفاكهة . وقد اجترأ هتلر وأعوانه على أن يفكروا فى سلالات بشرية جديدة .

سلامه موسى

SYMBOLE ET ORNEMENT

HILDE ZALOSCER

رمز وزخرفة*

يختلف الفن الاسلامى اختلافاً بينا عن الفن الغربى . فالفن الغربى يهتم بتصوير الانسان ، ولكن الفن الاسلامى لايجنح إلىتقليد الأوضاع الانسانية. فما رسم الانسان قط فى الفن الاسلامى الخالص ، والأحوال النادرة التى اتخذ فيها الفن الاسلامي الانسان موضوعاً له ، كما حدث فى فارس وفى الهند ، تجد الأثر الأجنبى يبدو بارزاً ملموساً .

فالفن الاسلامى الخالص ، عربياً كان أو تركياً ، يرفض رفضاً باتا اتخاذ التصوير الانسانى موضوعاً له . والعرب والترك متفقون على أنه ليس من غايات الفن أن يقلد ماهو موجود فى العالم الحقيقى أو أن ينقله . وهكذا كان فن التصوير الذى يحاكى الطبيعة ، غير معروف فىالعالم الشرقى . فموضوع الفن الاسلامى هو موضوع تجريدى لا وجود له فى العالم الحقيقى .

وأحسب أن سبب ذلك ليس، كما افترض بعضهم، نهى الدين عن تصوير الانسان . فهذا النهى إنما هو استجابة لفكرة سائدة لدى العرب ، استجابة لفكرة التجريد . والدين فى الشرق لا يرى الانسان فى قمة الخليقة . والفلسفة الشرقية ليست فلسفة إنسانية صرفة . فالشرقيون يؤمنون بقانون علوى يسيطر على مصاير الكون ، والانسان خاضع له خضوع بقية المخلوقات . وفى هذا الاطار المحدد توضع الحرية الانسانية .

وهكذا كان هذا الفن « اللاتصويرى » فنًا زخرفيا . فعلى الجدران وعلى الأثاث وعلى المنسوجات ، ترى العديد من الرسوم ذات الخطوط المنحنية أو المستقيمة ، وذات اللون الواحد والألوان الكثيرة ، وهى تبدو فى الظاهر لا معنى لها ولا غرض ، اللهم إلا تجميل هذه الأشياء وجعلها أكثر

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

جاذبية . وقد اعتدنا أن نطلق على مثل هذه الرسوم ، التى لا تزيد فى وظيفة الشئ ، زخرفة أو حلية . والمفهوم أن هذه الرسوم تزين الأشياء وتخفى إلى حد ما أغراضها العملية والنفعية . ولكن من الواضح أن الشئ هو الأساس، وأن هذه الحلية زائدة تضاف إليه . وهكذا كانت الزخرفة شيئاً ثانوياً فى سلم الفنون . فهى معتبرة فنا صغيراً مهملا بالنسبة إلى التصوير أو النحت، وهما فرعان مستقلان قائمان بذاتهما .

ولكن أحسب أن هذا التعريف للزخرفة يقوم على فهم خاطئ وعلى تفسير خاطئ للدور الذى تلعبه . وربما كان هذا التعريف صحيحاً إلى حد ما بالنسبة للزخرفة فى الفن الغربى ، ولكنه رغم ذلك تعريف ناقص لاينطبق إلا على الزخرفة المنحطة . ومن الصعب أن نصدق أن الزخرفة لم ترم من أول الأمر إلا إلى تزيين سطح شئ من الأشياء وتحليته .

ولكن إذا رفضنا أن نعترف بأن غرض الزخرفة ، لم يكن الزينة فحسب ، فما هو يا ترى المعنى العميق لتلك الظاهرة ؟ وإلى أى جانب خفى من جوانب النشاط العقلى ترجع هذه الظاهرة؟ وأية حاجة ماسة دعت إلى إيجاد هذه الأشكال ؟

ليس من الهين الاجابة على تلك الأسئلة . وما أبعدنا اليوم عن الانسان الأول الذى زين آنيته بعلامات جعلتها أكثر جمالا فى عيوننا .

وربما استطعنا بشئ من التحليل أن نجد المعنى الخفى للزخرفة وأن نعرف قيمتها الأولى .

إن العوامل والدوافع التى خلقت الزخرفة ليست متنوعة أو كثيرة كما يبدو لأول وهلة . من السهل أن نستخلص قاعدتين : فمن ناحية نجد الزخرفة المجردة، وهى زخرفة دوافعها وموضوعاتها مبتكرة ومشتقة من الخيال ولا أساس لها فى العالم الخارجى . ومن ناحية أخرى نجد الزخرفة التقليدية أو التصويرية وهى التى تتخذ من الزهور أو الحيوانات أساساً لها . وهذا النوع الأخير هو النوع المفضل لدى الغربيين . لأنه يتفق والعقلية التقليدية السائدة فى الفن الغربى ، على حين أن الزخرفة المجردة التى لا تسمح بأى تقرب أو تقليد للطبيعة هى النوع المفضل فى الشرق . وهذان النوعان مظهران لعقليتين مختلفتين ، وربما كانتا حالتين متتابعتين فى تاريخ التطور الفكرى الانسانى.

والزخرفة التقليدية تخاطبنا بعدد محدود من الكلمات ، كلمات لم تكد تتغير

منذ آلاف السنين . فالحيوانات والنباتات التى ترسم لم تكد تتغير . فلماذا بقيت هذه الحيوانات والنباتات منذ اليونان والرومان إلى يومنا هذا هى هى لم يتغير منها إلا الشكل أو الطراز؟ ولم اختيرت هذه الأنواع ولم يختر غيرها ؟ أهى مصادفة عمياء تلك التى حافظت على نفس الحيوانات والنباتات أم هو غرض محدد مقصود؟ أيدرى الفنان ذلك أم هو يسير ولا خيرة له فى طريق مهد له ؟ هذا الثبات الفريد فى اختيار تلك الأنواع يدعونا إلى الاعتقاد بأنها لم تختر هكذا مصادفة دون غرض مقصود . ويبدو أنها مستقرة فى خيال الانسان لسبب لا ندريه ، مستقرة فى ضمير الانسان وثابتة فيه بحيث لم يستطع الزمن أن يهدمها . ويبدو أنها تراث عصر بعيد فى القدم ، وميراث تطور خلال العصور ، فصار عملا آليًا انعكاسيا لادخل للارادة فيه un réflexe automatique . وربما كانت هذه الأشكال الرشيقة التى فقدت الآن كل معناها ما خلا جمالها ، ربما كانت تعنى فى الأصل شيئاً خفياً أصبحنا لا ندريه .

ونحن المحدثين ، نرى هذه الأشكال محققة لغرضها — فى رأينا — وهو التجميل والتحلية . فالزخرفة لهو يجدر ألا تعوقه أية رغبة جدية . ولكن هذا الثبات فى اختيار النباتات والحيوانات كوسيلة وحيدة للزخرفة ، يبقى شيئاً عجيباً محيراً . ولو أننا دققنا الفحص أكثر من ذلك لوجدنا أن هذه الحيوانات والنباتات لا تمثل دائماً بطريقة ساذجة بسيطة . ففى الفنون الزخرفية للحضارات الشرقية القديمة ، وخاصة فى بلاد ما بين النهرين ، نجد نفس هذه الأنواع من الحيوانات والنباتات . ولكن طريقة الجمع بينها ، والتفسير المعطى لها مختلفان تمام الاختلاف عما نراه فى مثلها اليوم . لأن العلاقات بين الحيوانات هى صراع دموى مخيف كما يبدو فى صور العقبان والتنين التى تخلق جوا من الفزع والرعب . ذلك لأن تلك الصور ليست زخرفة فحسب ، ولكنها تبدو فياضة بحياة غريبة ، وتولد فى نفوسنا الشك فى أن الغرض منها هو الزينة فحسب ، ولاسيما أن بعض موضوعاتها ، وخاصة المفزعة ، تتكرر بشكل خانق . فنرى مصارع الوحوش ومناظر الصيد تتكرر على جدران القصور وعلى المنسوجات وعلى الأوانى الخزفية . ونرى موضوع الفارس الواقف بشكل جامد ، يقذف بسهمه أحد الحيوانات ، نرى هذا الموضوع فى الزخرفة منذ العصر البابلى ثم

عند الفرس حيث نقله هؤلاء إلى الفن الاسلامى ، ونجد أيضاً منظر حيوانين يتصارعان صراعا قاتلا . وتتغير طرز الرسم وتتعدد ، ولكن الموضوع الرئيسى يبقى ثابتاً لايتغير؛ فهو دائماً حيوان مفترس يهاجم آخر أضعف منه : أسد يهاجم حصاناً ، نمر يهاجم جملا ، فهد يمسك حماراً أو وعلا وكلاهما يجاهد ليتخلص منه ، نسر يختطف تيساً بريا أو يحمل بين مخالبه ثعباناً ، كل هؤلاء الخصوم الخرافيون الذين انتقلوا إلى أقاصيصنا وحكاياتنا ، موجودون على الآثار القديمة يحيون عليها حياتهم الخالدة .

ولنذكر من الموضوعات التى يتحد فيها عنصر حيوانى بعنصر نباتى ، موضوع نبات يحيط به من جانبيه حيوانان ، وهو موضوع كثير الورود ، وقد حدد معناه الدينى منذ عهد بعيد .

ولكن يجدر بنا ألا نخلط بين مناظر الصيد ومصارع الوحوش ، وبين شبيهاتها فى الفن الغربى . فمناظر الصيد فى الفن الغربى هى تصوير لصيد حقيقى يحاول فيه الفنان أن يصور لحظة معينة فى حياة بعض الحيوانات أو يحاول أن يرسم الدور الأسطورى لصيد ما . فالفنان الغربى لا يطمع إلا فى تثبيت لحظة من لحظات الحياة ، وفى رسم صيد معين بكل حركاته وتفاصيله . ولكن الفنان الشرقى على عكس ذلك ، يأخذ من كل مناظر الصيد معنى معيناً عميقاً ويجعل منه رمزاً خالداً لفكرة ما ، ويمثل لنا هذا الرمز فى رسمه وهو يستشعر القوة الهائلة التى يمثلها مثل هذا الرسم . وهذا الفهم للفن لايجعل الفنان يفكر فى أى تقليدللطبيعة ، وإنما هو على العكس يحاول جهدما يستطيع أن يجرد الأوضاع الانسانية ، ويخلق منها شيئاً لا يمت إلى العالم الواقعى بسبب . وهكذا يتخذ الفن الشرقى من منظر تمثيلى حى موضوعاً له ، ولكنه يحوله إلى رمز بحيث لايكون تمثيل الحياة غرضاً . كما أن هذه المناظر لاتعالج كلوحات خاصة إذ هى لا ترسم بمفردها مطلقاً ، وكأنها توضع فى إطار من دوائر ومربعات تتكرر على الشئ المزين تكراراً لا نهائياً فى كل الجهات ، كأنها زهرة زاحفة لا تقف عند حد. وتأليف هذه الزخرفة ، يسمح بتكرارها تكراراً ثابتاً مما يعطيها قيمة زخرفية ، ولكنه يحرمها فى نفس الوقت الطابع الشخصى الذى يميز كل عمل فنى . فحادث الصيد أو الصراع الحيوانى قد جرد مما فيه من شخصية ، وانتزعه التكرار من جوه الحقيقى وأخضعه لقانون تجريدى . وربما استطعنا أن نشبه هذه الظاهرة

بالتكرار الذى نراه فى الشعر ، تكرار بيت أو أبيات فى آخر كل مقطوعة . على أنه يبدو لنا أن هذا التكرار فى الشعر يرجع فى الأصل إلى تأثير السحر حين كانت تكرر الدعوة مرات عدة ، ليوثق بينها وبين معناها حتى تستجاب . ثم تغير التكرار مع الزمن ففقد الغرض العملى الذى أوحى فى الأصل بانشائه وبقى التكرار كأن لا غرض له .

وهكذا الحال فى الزخرفة . فان هذا التعارض بين الموضوع الذى يستثير الرحمة أو الفزع ، وبين هذا الوضع الصلب يجعلنا نحسب أن المسألة هنا أيضا ليست مسألة جلية فحسب ؛ فان هذه الرسوم تخلق جوًّا من القلق، يبدو عجيباً وخانقاً فى نفس الوقت ، فكأنه جو من السحر ما زلنا إلى الآن رغم كل شئ نتأثر به . ولكن هذا الشعور الغامض الذى تبعثه فينا هذه الزخارف يجد تفسيره فى الدراسات والبحوث الحديثة .

فعلم الاجتماع وعلم دراسة الأساطير المقارنة ، قد ألقيا ضوءاً كاشفاً على كثير من المشاكل الفنية ؛ فأصبح كثير من القيم الفنية ، يدرس فى علم الصور المنقوشة iconographie ومن الواضح أن العمل الفنى نشاط عقلى قائم بذاته، ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن العمل الفنى يشترك من نواح كثيرة فى حياة الانسان النفسية والحيوية . وهناك روابط اقتصادية ودينية تربط الانسان بالأرض وتثبته حين يحاول عقله أن يثب ويحلق فى أجواء علوية . وكلما رجعنا القهقرى فى العصور الخالية ، وجدنا هذه الروابط تزداد تشابكاً حتى تتحد فى مظهر واحد معقد تعقيداً لا يمكن النفاذ فيه .

ولم يبق هناك شك اليوم فى أن الفن « الحيوانى » عند قبائل الاستبس بأوراسيا ، إنما هو مظهر فنى ودينى فى الوقت نفسه لحضارة كانت ما تزال فى حالة الطوطمية Totémisme . وهكذا يكون لكل هذه الموضوعات الزخرفية التى سحرت مستكشفيها من رجال الآثار ، قيمة غير قيمتها الفنية ، فهى ليست حلية وليست زخرفة وليست فنًّا صغيراً ، بل هى تعبير عن الشعور الدينى لخالقيها ، تعبير عن الرغبات الغامضة لتلك الشعوب . فهذه الرموز والتعاويذ والاشارات السحرية التى تزين سطوح الأشياء كانت فى الماضى جزءاً من حياة الناس تقيهم عاديات الدهر ومصائبه .

ثم إننا نجد فى هذه الزخارف معنى جديداً لم ندركه من قبل. (ولنلاحظ أن

الصيد الذي بقي إلى اليوم حيا قد تغيرت أغراضه عما كانت عليه فى الحضارات القديمة ، فهو اليوم لهو وتزجية فراغ ، ولكنه كان فى الزمن الخالى من المراسم المقدسة .)

وهذه الفائدة السحرية سببها إيمان الانسان الأول بأن الصورة ، والشيء أو الاسم والشيء ليسا إلا كلا واحداً . فاذا عرف الانسان اسم الإله فكأنه استولى على الإله نفسه (وهذا أمر كثيراً ما نجده فى المعتقدات القديمة وفى الأدب الشعبي القديم . فنرى مثلا شخصاً يجاهد ليعرف الاسم الحقيقى لأحد الأرواح ليستطيع تسخيره .) وهكذا كان تحريم الأديان الشرقية جميعاً لتصوير الإله أو لذكر اسمه الحقيقى يتفق مع إيمان الشرقيين بقوة الكلام أو الصورة . فهذه الزخارف ليست هى إذن زينة لا معنى لها ، وإنما هى صور سحرية قادرة على خلق عالم بأجمعه . وهى ليست أغصاناً من الزينة الرشيقة تملؤها الزهور والحيوانات ، وإنما هى أرواح شريرة على المرء أن يتقيها .

ونستطيع فى هذا الضوء إذن أن نفهم معنى تلك الزخرفة بموضوعاتها من حيوان أو نبات . إنها بقية ماض بعيد ، بقية مليئة بالأفكار وبالقوى الغامضة أتت لتحتمى فى عالم اليوم العقلى حيث طرأ عليها تحول خطير . وإنا لواجدون فى بعض الأساطير الحية اليوم ما يشهد بذلك المعنى القديم وما يؤكد اتصال تلك الصور بحياة الانسان . فاليك مثلا : ثعبان الجنة ، وحمامة العذراء ، وكبش ابراهيم ، والمسيح حين يرمز إليه بسمكة . وهكذا الحال فى لعبة «الريشة الطائرة» فهى بالقياس إلى أطفالنا تسلية بريئة ، ولكنها فى الصين رمز ومنبئ له قدره وأهميته ، انتقل عابراً العصور والبلدان ، ففقد معناه الأصلى الحقيقى . وهكذا صارت تلك الرموز حلية وزخرفة فحسب .

وقد قلد السحر ، كما لاحظ فوسيون Focillon ، عقد الثعبان فاخترع بذلك عقد الزخرفة . ولم يبق هناك شك اليوم فى أن أصل تلك الاشارات هو الوقاية من الشرور والأمراض . ولكن الاشارة تتغير وتستحيل إلى شكل لا علاقة له بالأصل . وهكذا نرى أن الأشكال العادية البسيطة المعتبرة زخرفة خالصة تخفى أصلها الرمزى الذى اندثر تحت طبقات متراكمة من حضارات لا علاقة لها بالمعتقدات الأولى التى أنشأتها . وهكذا يرتفع لنا النقاب عن الزخرفة التصويرية ، حيوانية كانت أو نباتية . ولكن أيعنى هذا أن الزخرفة

المجردة تخفى هى أيضاً قيمة أخرى غير قيمتها الجمالية ؟ هل لهذه الخطوط المتموجة المنزلقة المتعانقة أو المصطدمة ، هل لها هى أيضاً رسالة أخرى غير التى نراها بعيوننا ؟ أهى أيضاً رموز خفية لرسالة لم نستطع بعد حل ألغازها ؟ ولكن التفكير فى هذه الزخرفة ، إنما هو تفكير فى قوة التجريد **l'abstraction** وفى منابع الخيال التى لا نهاية لها .

إن العنصر الرئيسى بل العنصر الوحيد فى الزخرفة الاسلامية هو الخط . سواء أكان خطاً منحنياً فى العصر العربى ، أو خطا مستقيما هندسيا فى العصر التركى . فهذه الأشكال المجردة لا تثير فى عقولنا أى علاقة بينها وبين أوضاع الحياة ، وتبدو لنا كأنها لا معنى لها . فحياتها خاصة بها ، لا علاقة لها بحياة الانسان . فكأنها « شفرة » زخرفية قامت على قوانين مجهولة لنا . فأى شئ أبعد عن الحياة من تلك النزوات الهندسية التى هى أساس الزخرفة الاسلامية ؟ إنها جزء من العالم المجرد ، كونتها عقليات رياضية وأنشئت على أساس حسابى . ولكنا نلمح فى هذا الاطار الصاب الذى يحتويها نوعاً من الحرارة المتدفقة التى تكثر من الأشكال ، كأن روحاً عبقريا يطوى الخطوط ويحللها ثم يكوّن منها ذلك التيه الذى لا مخرج منه . إن الزخرفة الاسلامية كالعمارة الاسلامية تحاول أن تؤدى معنى الخلود ومعنى اللانهاية . فالجامع العربى يأخذ عن الصحراء فضاءها اللانهائى ويؤديه بتعدد الأعمدة ، والقبة المستديرة فى الجامع التركى تؤدى معنى الفضاء المطلق ، والزخرفة الاسلامية هى حلم اللانهاية .

ولنلاحظ أن تصميم الزخرفة الاسلامية يحاكى بساطاً يمتد امتداداً لا نهائيا فى جميع الجهات ويتكرر تكرراً دائماً ، ولكن هناك إطاراً صلباً يفرض عليها حدوداً لا تتعداها كأنه قوة خارجية تكبح جماحها . وفى كل زخرفة إسلامية نلقى هذا التعارض بين حلية يمكن أن تمتد إلى مالانهاية وبين إطار يفرض عليها سلطته القاسية وحدوده المحددة .

وهناك قيمة رمزية للدور الذى يلعبه هذا الاطار ؛ فان الموضوع الزخرفى يبدو كأن أطرافه قد قطعت بسبب هذا الاطار .

وهكذا نجد للزخرفة المجردة التى نلقاها فى الفن الاسلامى معنى عميقاً كذلك الذى نجده فى الزخرفة التصويرية ؛ فهى مليئة بروحية فياضة تربى على الرمزية

البسيطة وتعلو على الزينة السطحية . ولقد حاولنا أن نحس ذلك المعنى الروحى مع أننا لن نستطيع أن نحيا فى ذلك الشعور الدينى الذى كان يحدو من خلقوها . ولكن تجارب الفن الحديث ، وقد عادت إلى المنابع الأولى للالهام الفنى ، أتاحت لنا أن نستشعر شيئاً من قيمة الزخرفة المجردة ، وهى قيمة لم نكن نحسها قبل اليوم . ولقد فهمنا الآن أن اليد التى تخط أوضاعاً وخطوطاً بحركة سريعة أو بطيئة ، والتى ترسم متاهات لا يمكن النفوذ منها ، إنما هى يد حساسة مترجمة كأنها جهاز السسموجراف sismographe ، يد تترجم عن أخفى الهزات النفسية ، وعما يعتورها من انقلابات واضطرابات . وهذه الاشارات الفنية تجعل ذلك الفوران النفسى بادياً للعيان . وهى تجمع كل ما يأتى من أعماق الحياة ، ومن المشاعر والثورات النفسية ، إن الزخرفة كالحلم تقع فى الجانب غير الواعى من عقلنا . إنها تأتى رأساً من المناطق المظلمة فى النفس الانسانية ، تلك المناطق التى لا سيطرة لنا عليها . (وربما أمكن فى المستقبل أن ينشأ على أساس الزخرفة والحلم والكتابة الأتوماتيكية ، علماً يصور النفس الانسانية psychographie فالزخرفة الشرقية هى أول أبجدية ، وأول إشارات ترجمت عن الفكر الانسانى . فبهذه الخطوط المنحنية والمنعطفة ، ظهر لأول مرة ما يعبر عن آلام الانسان وآماله .

وهكذا حاولنا أن نفهم منابع الزخرفة وأصولها ، مستعينين فى ذلك بالعلوم التى تتاخمها . ولقد فسرها الناس تفسيراً يتفق مع حضارتنا الحديثة المادية . ولكن هذه الأشكال الجميلة ليست إلا القالب الذى وعى الرموز البعيدة التى اختفت من عالمنا . ولقد ساهم فيها الانسان كما ساهم فى كل الفنون الأخرى بكل نفسه . وإن ما نستشعره اليوم فى هذه الرسوم من جمال ليس إلا تذكرة ضعيفة نائية لما سحرت به الزخرفة عقول الأقدمين . وإن رشاقة هذه الخطوط ليست إلا ذكرى غامضة ، للعواطف العنيفة التى كانت تضطرم فى نفوس القدامى .

فالزخرفة الاسلامية بما فيها من تجريد كلى تشهد على قلق الانسان وسط الكون . وما الزخرفة العربية الرشيقة وأشكالها الهندسية التى تستوحى قواعدها من قواعد الرياضة ، إلا تكرار للموضوع الرئيسى ، ألا وهو الرغبة فى حل معادلة اللانهاية .

هيامبه ذالوشر

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

رسائل الزهاوى[1]

قدمت إليك منها بالعددين الماضيين يا صاحبى ما يسمح به المجال ، وهى بما تحمل بين ثناياها من طرافة وجدة محببتين تفسحان لها مكاناً بارزاً بين أدبنا العربى الحديث ، جديرة بالدرس والتمحيص والوقوف أمامها طويلا للتملى بلونها الجميل .

أجل . . . فهذا لون من ألوان الأدب الجديد — أدب الرسائل — استحدثناه ، أو بعبارة أخرى نبشنا دفائنه وأحيينا مواته ، ذلك لأن اللغة العربية لم تحظ بهذا اللون الجميل اللهم إلا فى النادر القليل ، بعكس اللغات الأجنبية فانها مشحونة بهذا الضرب الرفيع بنماذجه الرائعة وأنماطه العذاب .

لقد استطعت أن أجعل من الزهاوى مترجماً لنفسه يصوِّر حياته بقلمه بما لا يدع مجالا للشك والريبة فى هذه الحياة العجيبة الخصيبة التى ظلت تكافح وتناضل فى سبيل اللغة والوطن حتى آخر نسمة منها .

وحياة الزهاوى بقلمه — كحياة كل بطل بقلمه — لا تترك لمتخرص أو ملفق ثغرة ينفذ منها إذا ما تحدث عن صاحبها التاريخ فى يوم ما . والتاريخ هو ذلك المنصف العادل الذى يقدم لنا فى أمانة وإخلاص حياة الرجال وسير الأبطال ويكشف للناس ما علق بها من زيف أو باطل ، وما أحاط بها من سموق وجمال .

وجدير بنا اليوم أن نتأمل حياة الزهاوى ونترسم خطاها ، ذلك لأن صاحبها قد خرج إلى الناس من برجه العاجى وصومعته الفكرية وكافح فى سبيل رسالته كما يكافح الأبطال الصناديد ، ولم تلن الحادثات قناته أو يفت العدو أو المرض فى عضده وكثيراً ماطوَّف فى الأقطار والأمصار جرياً وراء إعلان شأن وطنه والنهوض بنهضته المرموقة ليبلغ بها حد الكمال فى جرأة عجيبة ، وصراحة

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٥ (ديسمبر ١٩٤٦) وعدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

قاسية وشجاعة نادرة دون أن يدخر شبابه أو يرحم شيخوخته الواهنة .

وهو فى ذلك كله مثال الوطنية الصادقة والثقافة الشاملة والعبقرية الخالصة والشاعرية الفذة الثائرة على الأوضاع البالية والتقاليد العتيقة التى طالما ثبّطت هذا الشرق — المهيض الجناح — عن النهوض بأعبائه الجسام طوال تلك الأحقاب القاتمة السود .

واليوم أقدم إليك رسالة أخرى تحمل معها خلاصة التحقيقات التى دارت بينى وبين ذلك الرجل العظيم ، فقد راعيت فى تحقيقاتى معه — بادئ ذى بدء — أن أكوّن مقالا مقتصداً فى أسئلتى إياه حتى لا أبعث الملل فى نفسه من ناحية ومن ناحية أخرى كيما أصل إلى مفتاح شخصية — سيكلوجيا — فى هدوء واطمئنان وأستطيع أن أصور حياته على ضوء هذه التحقيقات وأذكر لك اليوم بعض الأسئلة :

« ما تاريخ ميلادكم » و « ما البيئة التى ولدتم فيها ؟ وهل بها خلق الأدب فيكم ؟ وهل ساعدت رسالتكم على الظهور » و « ما حوادث الطفولة ونوادرها ؟ » و« ماهو الجانب المرح منها والجانب العالى أيضاً ؟ » و« ماهى المدارس التى تعلمتم فيها ؟ » و « ما هو تاريخ الحب عندكم ؟ » و « إلى أى مدى أثر على أدبكم ؟ » و « ما هى المدارس الأدبية التى تأثرتم بها ؟ »

ولما أن نشرت الشطر الأول من ترجمة حياته واطمأن الرجل إلىّ أخذت ألقى عليه بعض هذه الأسئلة :

« ماهو الاصلاح الذى تنشدونه كيما ينهض الشرق العربى ؟ » ، « ما هى أحب المذاهب الفلسفية لديكم » ، « ما هى الكتب الحديثة التى يفتقر إليها الشرق العربى » ، « ما هى أهم رحلاتكم وتاريخها » ، « ما هو المركب الخشن الذى تعمدتم ركوبه فى حياتكم » ، « وما هى أحب الكتب الاسلامية لديكم » « ما هى أحب النظم الاجتماعية إليكم » ، « هل فشلت الديموقراطية » ، « ما هو المثل الأعلى للفتاة الشرقية » . . . « كيف تربى الجيل الحديث » . . . « لو وليتم الحكم على جزيرة تسود أهلها الفطرة والسذاجة فما هى القوانين التى تقن إليهم » ، « كيف تداوى البطالة » ، « هل الحرب ضرورة لابد منها » « إذا جلست إليكم كتلميذ يود الاستفادة فماذا تنصحون به إلىّ ؟ »

إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة التي تفصح عن سريرة الرجل ومدى ما استحوذ عليه من معتقدات ، وما يضمره بين جوانحه من آمال وآ لام .

لا تحسبن يا صاحبي أن هذه الأسئلة بمفردها وأجوبتها وحدها تفتح باب الشخصية للكاتب الذى يريد أن يصل إلى مغاليق شخصيته التي يتوافر على دراستها . . . كلا بل لا بد له من تحقيقاته الخاصة التي تساعده على خفايا شخصيته ، واستكناه أسرار بيئاته التي سرب في منعرج دروبها ، وما أطبق على صوره من خفاء وظلام .

ماذا تريد من وراء حياة كحياة الزهاوى ؟ . . . وهو قد قضاها فى خدمة وطنه العزيز ولغة الضاد الخالدة ، بجهاده السياسى والاجتماعى وبآثاره العلمية والفلسفية التى نحرص عليها ونستطيع أن نقدمها إلى العالم بكل اعتزاز وفخار . رحمه الله لقد كان فى جميع أدوار حياته مثال العالم الجم المتواضع والوطنى الأمين .

إى وربى إنه أدى رسالته ، وعمل ما يعمله الرجال لأوطانهم ، ولمثل ذلك فليعمل العاملون .

أحمد محمد عيشى

صديقى المحترم

ما كان ينبغى لك أن تشغل أوقاتك الثمينة بتأليف كتاب تسميه باسمى فأنا لست ذلك الشاعر أو الفيلسوف الذى تكتب باسمه الكتب وأنا لم أجب على أسئلتك السابقة إلا لالحاحك الأول أن تنشر ترجمة حياتى فحسب فعسى أن ترجع عن رأيك فتريح نفسك وتريحنى .

وقد ترددت طويلا فى أن أجيب على أسئلتك هذه الأخيرة ولكنى رأيت أخيراً أن أجيب على بعضها وأتغافل عن البعض لأنه يحتاج إلى إجهاد الفكر وأنا شيخ قد نهكته الأمراض وقد أغمى علىّ قبل أيام فى سوق المكاتب فحملونى فى عربة إلى دارى وأنا لا أعى .

أما الايصالات فأنا فى شغل عنها بنفسى ، ولا أحسب أن مثل هذا الكتاب

يروج فى العراق ، وقد كلمت « محمود افندى حلمى » صاحب المكتبة العصرية ببغداد عن جمع الاشتركات فيه ، فأجاب إنى ذاهب إلى مصر وربما تقابلت فيها مع الأستاذ أحمد محمد عيش ، فاتفقنا بيننا على بيعه أو جمع الاشتراكات فيه ، وإذا لم يقابلك فى مصر فهو راجع بعد شهر تقريباً إلى بغداد فيحسن أن تكاتبه فى شأنه ، وليس فى تلاميذى من يمكن أن أوعز إليه أن يقوم بأمر هذا الكتاب .

وإذا صممتم على نشره فأرجو أن تحذفوا منه ما يؤيد أعدائى فى طعنهم بدينى فانك لا تدرى أن مثل هذا قد يودى بحياتى . ولم يكتب إلى أحد عنك شيئاً ، إنما أرى نفسى على وشك الرحيل ولا يهمنى الموت ولكن يهمنى أن يتألم أقاربى وأهل بيتى بعد موتى بما يشيع عنى من زندقة وإلحاد ، فان التفكر فى هذا وحده يزعجنى وأنا أريد أن أحيا أيامى الأخيرة فى راحة وأموت من غير ضوضاء ، ويسرنى أن أسمعك تقول لى قد رجعت عن تأليف الكتاب أو نشره فأكون لك من الشاكرين .

جميل صدقى الزهاوى

بغداد فى ١٢ تموز سنة ١٩٣٣

أجوبتى عن أسئلتك

١ و ٢ — ترى قصة « امرأة الجندى » منظومة فى ديوانى الذى نشر فى مصر قبل أكثر من ثمانى سنين « ديوان الزهاوى » وقد أرسلت إليك نسخة منه .

أحرج ساعاتى هو لما سجننى السلطان عبد الحميد وأرجعنى إلى بلادى مخفوراً ذليلا جزاء اتفاقى مع الترك الأحرار فى طلب الدستور قبل ٣٦ سنة تقريباً ، وكذلك يوم هاج الشعب العراقى علىّ قبل ٢٣ سنة لمقالة شديدة لى نشرها « المؤيد » فى مصر فى الدفاع عن المرأة حتى أنى قبعت فى دارى أسبوعاً ولم أخرج منها خوف اغتيال الشعب الحارد لى وعزلنى يومئذ والى بغداد « ناظم باشا » من وظيفتى فى مدرسة الحقوق ببغداد ، وأحب ساعاتى إلىّ الساعات التى كنت أقرأ فيها الجرائد السورية والمصرية كلمات التقدير لكتاباتى وقصائدى ويوم جاءنى — وأنا أستاذ للفلسفة فى جامعة الاستانة — نفر من كبار الناقدين من أساتذة الجامعة يبلغوننى رسمياً أن محاضرتى التى ألقيتها قد كسبت الأولية ، وقد كانت

وزارة المعارف قد اختارت ثلاثة من أساتذة الجامعة (أنا كنت أحدهم) لالقاء محاضرات فى الفلسفة على جمهور من تلاميذ الجامعة وغيرهم من الأساتذة والمنتمين إلى العلوم .

٣ — تارة أقصد بليلى العراق وأخرى الحقيقة وفى بعض الأحوال الفتاة التى كنت أحبها فى الأستانة « راحيل » .

٤ — شعرى الذى سيطر عليه الحب بضع قصائد تراها فى ديوان الزهاوى ، واللباب والأوشال وسأرسل إليك بعضها .

٥ — ليس فى نيتى الآن وضع أغنية على أثر سماعى أم كلثوم .

٦ — العلم والأدب جناحان للرقى يطير بهما الشعوب فلا أفضل العلم على الأدب إلا قليلا .

٧ — النزعية الشرقية أقرب من النزعة الانسانية إلى أبناء الشرق ولكنى أنقاد إلى الثانية أكثر من الأولى . أما سؤالك أيهما أجدى لنا فأقول الأجدى لنا هو النزعة الشرقية ما دمنا لم نبلغ من الحضارة الدرجة الرفيعة .

٨ و ٩ و ١٠ — طاغور شاعر متصوف له دقة الخيال وهو يعرف كيف يهز أوتار قارئيه ، أما العقاد فهو من كبار الكتاب وقد يجيد النظم ككبار الشعراء وأما الرصافى فهو كما قال فيه العقاد « ماضيه خير من حاضره » وعلى كل حال هو خير الجماعة الذين ينظمون الشعر فى العراق ، وأما الشعراء فى الشرق العربى فالحقيقة أن لا شعراء فيه ، فهم مقلدون إما للغربيين أو لقدماء شعراء العرب وهم على درجات .

١١ — لا علم لى بدرجة أهلية المستشرقين للمجمع اللغوى المصرى غير أنى أفضل لهذا المجمع الأدباء المتساهلين على غيرهم لا اللغويين الجامدين.

١٢ — وجدت أكثر النقد مبنياً على الأغراض أو الجهل وحبذا النقد إن كان نزيها . أما النقد الحاقد فضرره تثبيط العزائم فى الشباب الناهض

ملأوا صدور الصحف حقدا   والحقد قد سمّوه نقداً

١٣ — نظرية الشتاين النسبية .

الشتاين فتح باباً جديداً فى الفلسفة جعل العلماء يفكرون فيها تعليلا لغوامض الكون على أن أكثر قضاياها لا يرضى المنطق ، وإن أرضى الرياضيات على

زعمه . أما كون النور فى قرب الاجرام يسير فى خط منحن عليها فصحيح ، ولكنى لا أرى أن السبب هو انحناء طريقه من الفضاء بل هو كون النور الكترونات قد انبثقت من الجسم المنير والالكترونات أبسط أجزاء المادة ، ولما كانت المادة تنجذب إلى المادة فلا بدع إذا انجذبت الالكترونات مثلها ، ولكن المادة بطيئة الحركة فمقاومتها لجاذبية الأجرام قليلة إلا على أبعاد تقل فيها قوة الجذب وأما الالكترونات فسريعة جداً السرعة فمقاومتها لها كثيرة ، ولذلك يرى الراصد أن الانحداب الذى يسير فيه النور فى خارج الذرات أقل بكثير من الانحداب الذى تسير فيه المادة .

نعم ، تسير الالكترونات حول نواة الذرة فى دوائر ضيقة ولكن سيرها سريع جداً ، فلو تباطأت لسقطت عليها ولو كبر حجمها أو كثر ثقلها لسقطت أيضاً عليها ، وانحناء دوائر حركتها بالنسبة إلى صغرها ليست أكثر احديداباً بالنسبة إلى كبر السيارات التى تدور حول الشمس .

ولو أثبت الرصد أن النور فى كل سيره ضمن الفضاء يسير فى خط متساوى الانحناء لثبتت دعواه ، ولكن الرصد لم يثبت إلا انحناءه فى حركته عند مامر من فوق الشمس ، وهذا يدل على أنه انقاد لجاذبيتها لا أكثر من ذلك .

المكان والزمان

وانشتاين يحسب أن الفضاء خاصة من خواص الجسم ثم يدعى أنه عدم محض ، والمشاهد أن الفضاء يقاس بالمتر والأقدام ويطول ويقصر بين سديم وآخر وشمس وأخرى ، والشمس وسياراتها على التفاوت فكيف يقاس العدم ، فكان الواجب أن تتصل السدم والشموس والسيارات ، وأن يصل النور إلينا من « الشعرى » مثلا ومن الشمس فى وقت واحد لأن الفضاء عدم والواقع خلاف ذلك وإذا كان الفضاء عدماً فهل ينحنى العدم أم يدعى الشتاين أن ليس بين سديم وآخر مثله فراغ .

أنا أرى أن الأجسام (المادة) ليست بذات أبعاد بل الأبعاد هى للفضاء تلبسها المادة ، فاذا تحركت إلى جهة نزعت أبعادها وراءها ولبست منه أبعاداً مثل أبعادها التى نزعتها ، وهذا دليل أوردته فى كتاب الكائنات على أن المادة فى أصلها قوة .

ولا يمكننا أن نتصور الأبعاد فى الجسم على غير هذه الصورة ، فاذا ثبت أن الفضاء موجود كما قدمنا ، وأنه ذو أبعاد وأن الجسم له أبعاد خاصة به وقعنا فى مشكل لا خلاص منه لأنه إذا حركنا الجسم من مكان إلى مكان آخر نتساءل عن أبعاد المكان الثانى أين ذهبت فهل تداخلت أبعاد الجسم والفضاء أم هل انعدمت أبعاد أحدهما ؟

وانشتاين يرى الزمان بعداً رابعاً للأجسام ، وقد يقول بعدمه كالمكان ولا أدرى لماذا يتصور كون الزمان بعداً رابعاً للأجسام ، ألمجرد كون الجسم المتحرك لا يخلو من زمان ، إذن نستطيع إن نقول أن الحركة بعد خامس للأجسام لأنها لا تخلو منها ، وأن الجاذبية بعد سادس لها لأنها لا تخلو منها .

وأرى فى أن كل حركة الأجسام تتخللها السكنات ، وهذه السكنات تقاس ، فاذا أسرعت الحركة قلت السكنات ، فقل زمان الحركة، وإذا أبطأت كثر زمان الحركة لكثرة السكنات ، فالزمان هو مقدار السكون لا مقدار الحركة كما يظن ، والحركة قوة كالنور والحرارة الكهربائية ، فكما أن النور ينفصل عن الجسم النير فى صورة وحدات تتخللها فواصل كذلك الحركة فى المتحرك تكون فى صورة وحدات تتخللها سكنات ، فهى لا بد لها من زمان .

ويقول انشتاين إن الأجسام موزعة بالتساوى فى الفضاء مع أن الأرصاد القوية تعلمنا أن الفضاء بين سديم وآخر خلو من الأجرام ومادة الشمس فى مركز نظامنا أكثر من مادة كل سيارة حولها ، ولا أدرى لماذا يجب أن نسلم بأن الحيز المادى لا يمكن أن يمتد بلا نهاية كما يدعى انشتاين فأى صعوبة فى تصورنا الفضاء لا يتناهى والأجرام منتشرة هنا وهنالك فيه إلى غير النهاية ، وهذا لا يستلزم أن يكون الحيز المادى جرماً واحداً لا يتناهى بل الذى لا يتناهى منه هو عدد الأجرام . ولعل الفضاء هو الأثير المنشىء للمادة ، ولا يكون الأثير فرضاً بل هو شىء يقاس وعليه فالفضاء أم الكون .

الدفع عوض الجذب

يدعى انشتاين أن سبب الجاذبية هو أن الأجسام تشع حولها جواً مغناطيسياً وهذا الجو المغناطيسى هو الذى يدفع المادة إلى المادة وإنما يقع الحجر على الأرض ، لأن الأرض تشع حولها جواً مغناطيسياً ، وهذا الجو يدفع الحجر إلى

الأرض مستقلا من الأرض فالأرض لا تجذب الحجر بل الجو الذى أحدثته الأرض تدفعه .

وأنا أول من أنكر الجاذبية وأقام مقامها الدفع ، فقد كتبت فى ذلك عدة مقالات نشرها لى المقتطف الأغر قبل ٤٠ سنة تقريباً ، ثم نشرت شيئاً من نظريتى هذه فى كتابى الكائنات المطبوع فى مطبعة المقتطف فى سنة ١٨٩٦ ، ثم عدلتها فى رسالتى « الجاذبية وتعليلها » وقد نشرت فى بغداد سنة ١٩١٠ ، ثم فصلتها فى رسالتى « المجمل مما أرى » .

وخلاصة ما ارتأيته فى هذا الباب هى أن الحركة لا تتم إلا بدفع القوة ، والقوة هى الأثير ، فالحركة هى نتيجة دفع الأثير ، ولما كانت الكترونات المادة فى حركة سريعة فانها تستهلك الأثير بنسبة كثافة المادة ، فتختل موازنة الأثير فى داخل المادة وخارجها فيجرى الأثير من المحيط إلى ذرات المادة سداً لهذا الخلل وهو فى جريانه هذا يدفع كل مادة فى طريقه إلى المراكز الكبرى ، وكلما زادت كثافة الجرم فان جريان الأثير إليه وبعبارة الدفع إليه يكون أقوى وأشد وكلما قرب الجريان من الجرم كان الدفع أقوى .

المد والجزر

من المعلوم لعلماء الفلك أن المد والجزر لا يكونان منفردين ، بل هما مزدوجان فاذا كان فى نصف الكرة الشمالى من الأرض مدٌّ قابله فى نصف الكرة الجنوبى مدٌّ مثله وفى وقت حدوثه وكذلك الجزر ، فالمد والجزر مزدوجان فى كل وقت .

ومد القمر أكبر من مد الشمس لبعد الثانية ، وهناك مدان عظيمان يحدثان عند اقتران القمر والشمس أو استقباله .

تعليل المدين المتقابلين بحسب ناموس الجذب

يعلل العلماء المدّ بأن القمر مثلا يجذب مياه البحر خمسة أقدام ، ويجذب كتلة الأرض تحت قدمين ونصفاً ، فيعلو الماء من وجه البحر إلى جهة القمر مقدار قدمين ونصف ، وتفارق الأرض المياه فى الجهة الثانية المقابلة للجهة الأولى مقدار قدمين ونصف فيكون فى الجهتين المتقابلتين من البحر مدان متقابلان متساويان سواء كان المد بسبب القمر وحده أو الشمس وحدها أو القمر والشمس

عند الاقتران أو القمر والشمس عند الاستقبال ، والجزر انحسار المياه بعد انتقال القمر فى فلكه .

وأنت إذا أنعمت النظر وجدت أن هذا التعليل فاسد من وجوه ، الأول أن القمر لو كان يجذب كتلة الأرض إلى نفسه فى كل لحظة من سيره مقدار قدمين ونصف قدم فكم بالأحرى أن تجذب الأرض القمر إلى نفسها ، ولما كان هذا التجاذب من الطرفين مستمدين وجب أن يكون القمر قد سقط على الأرض منذ أكثر من مليار سنة .

الثانى أن القمر الذى يجذب المياه فوق وجه البحر فى كل لحظة مقدار خمسة أقدام و يجذب كتلة الأرض تحت المياه مقدار قدمين ونصف ، لماذا لا يجذب المياه وراء كتلة الأرض لا قليلا ولا كثيراً وهى متصلة بها . بل لماذا لا تجذب الأرض إلى نفسها المياه فى الطرف المقابل لطرف القمر وهى أكبر من القمر كثيراً وأقرب إلى هذه المياه لاتصالها بها ، فلا يكون المدان متساويين بل لا يكون مد فى ذاك الطرف .

والثالث أن القمر عند الاستقبال إذا جذب إلى نفسه كتلة الأرض قدمين ونصفاً فان الشمس فى الجهة الثانية تجذب الكتلة هذه إلى نفسها مقدار قدم واحد ، فلا يتساوى المدان .

تعليل المدين المتقابلين بناموس الدفع

المادة فى نظرى تدفع المادة لا تجذبها والأثير يدفع المادة إلى المادة ، والأثير هو الكهربائية فى أبسط صورها ، وإنما تدفع المادة إلى المادة بأثيرها ، والأثير محيط بالأرض ضاغط عليه بالتساوى كل نقطة كأنه غلاف له ، وثقل الأجسام على الأرض نتيجة هذا الضغط ، فاذا ضغطت كهربائية القمر (وهى سالبة تخالف كهربائية الأرض الموجبة) على وجه البحر من ناحية لم تؤثر فيه لأن الماء موصل تام لها بل تؤثر فى كتلة الأرض تحت الماء ، وإذ كانت لا تستطيع أن تبعدها فهى تقعرها أو تبسطها فى المكان المقابل للقمر فتختل موازنة الماء فى ذلك المكان من وجه كرة الأرض فيجرى من الأطراف إليه لاعادة الموازنة ، وهذا هو المد فى الوجه القريب من الأرض . وأما المد المقارن لهذا المد فى الوجه المقابل فسببه أن ضغط كهربائية القمر على

الأرض ينتقل من وجه الأرض إلى مركزها فالوجه الثانى ولما كانت الأرض مضغوطة بالأثير فهو حاجز يمسك الأرض من الابتعاد بقوة القمر الضعيفة ونتيجة منع الأثير هذا لابتعاد الأرض أنها تنقعر أو تنبسط فى الوجه الثانى كما فى الوجه الأول وبقدره ، فتختل موازنة الماء ويجرى من الأطراف إلى النقطة المنقعرة إعادة للموازنة كما فى الأول فيتكون مدان متقابلان على وجه البحر فى جانبى الكرة الأرضية .

وأقرب مثال للمدين المتقابلين هو أن تضع ليمونة مدورة على سطح ثابت وتضغط على وجهها الفوقانى بكفك ، فان ضغط الكف لا يبعد الليمونة بل يبسط وجهها تحت كفك ويبسط الوجه البعيد بقدر بسطه الوجه القريب .

١٤ — اعتقد أن للذرات عمراً كما للخلايا فى جسد الحيوان ، فهى إذا تفتت فى ناحية من المادة تتألف فى ناحية أخرى ؛ فالمادة تنحل ، ولكن لا تنعدم الكتروناتها و بروتوناتها ، فليس بصحيح قول بعضهم إن المادة تفنى ، فان المادة ليست غير هذه الالكترونات ، وهذه تنتقل ولاتفنى ، وتفتت الذرة هذا يؤيد رأيى فى وحدة الوجود وهو ماصرحت به فى أماكن متعددة من كتابى «الكائنات» .

١٥ — الكونتم .

اوجد نظرية « الكونتم » ماكس بلانك الألمانى لتفسير صعوبات لم تتوجه بغيرها ، وهذه النظرية تتلخص فى أن أمواج النور والحرارة وغيرها من أنواع الاشعاع ليست متواصلة بل متقطعة ، فالجسم النير يطلق أمواجاً ثم يقف ثم يطلق ، وهكذا فتنطلق هذه لقذائف وبينها فواصل ويسمى كل من وحدات النور هذه « كونتم » .

ولم أقرأ شيئاً يبين علة تقطع حبل الاشعاع فى صورة وحدات ، ولكنى أرجحه فان الطاقة هى الالكترون المنفصل عن الذرة المهتاجة وكل الكترون وحدة مستقلة .

١٦ — أرى أن الأشعة الكونية هى الكترونات و بروتونات تأتى من السدم أو الشموس التى هى أضعاف شمسنا ذات حرارة هى أشد من حرارتها كثيراً ، فهذه هى أسرع من البرتونات والالكترونات فى مواد أرضنا أو نظامنا فهى تأتى من كل ناحية من السماء وتخرق الأرض والمواد المعدنية أكثر كثيراً مما تخرقه أشعة إكس وغيرها وربما كانت هذه الأشعة هى السبب للدفع الذى نسميه جاذبية .

١٧ — إذا ضعفت المادية من ناحية فهى تقوى من نواحى أخر ، والسبب هو تقدم العلوم المادية والحضارة الغربية قائمة على هذا التقدم . أما العلوم الروحية ، وعلوم ماوراء الطبيعة فقد أخذت تتقهقر أمام جيش هذه الاكتشافات.

يستدل بعضهم على أن تقهقر المادية بانهدام المادة ورجوعها إلى الاشعاع وهذا لا يمس المادية ؛ فالماديون كانوا يعتقدون أن ذرات المادة لا تنعدم ، وأنها أصغر ما فى المادة ، واليوم ظهر أن الذرة تنحل وأن أصغر ما فى المادة هو الالكترون فماذا خسر الماديون .

١٨ و١٩ و٢٠ — لا أعتقد بروح مستقل عن المادة (الجسم) ولا أرى له تعليلا علمياً ، وإذا كان هناك روح فهو الحياة فيكون الروح مؤلفاً من حياة الملايين من خلايا الجسد ، وليست الأعمال الروحانية التى يقوم بها بعض الروحانيين من العلم فى شئ وقد ظهر خداع كثير من الوسطاء ، إما باعترافهم أو بملاحظة لجان علمية تراقبهم ، وقد انخدع بهم بعض كبار العلماء ولا غرو فان الذى يختص بعلم فيبرع فيه قد يكون بليداً فى غير ذاك العلم .

٢١ — لم أفهم شيئاً من سؤالك هذا لالتباس الخط .

٢٢ — ما للمسلمين فلسفة خاصة ، بل كل ما هنالك اتباع لأرسطاليس وتأييد لأقواله أو الأخذ به كأنه وحى منزل وأحب الكتب الاسلامية إلىّ هو القرآن .

٢٣ — أثرت آراء المعتزلة فى بعض المسائل على آرائى .

٢٤ — والمذهب القوى فى رأيى هو مذهب دارون فى النشوء والارتقاء وقد تبعته ولم يتبعه فى العراق أحد غيرى قبلى ، وقد شاع فيه بسببى .

٢٥ — أتمسك بنظريتى « الناموس الدورى » ونظريتى « الدفع عوض الجذب » ولنظريتى أن السيارات حول الشمس سوف تكبر بمرور الزمن وتبتعد تدريجاً عن الشمس حتى تكون شموساً وأن المشترى قد بدأ يكون شمساً فهو أكبر السيارات ، وقد ذاب سطحه لشدة حرارته ، وسوف تكون أقماره سيارات لها . وقد كانت شمسنا فى القديم الأقدم سيارة حول شمس أكبر منها فنمت بطول الزمن بسبب ما كان يقع عليها من الغبار الجوى والنيازك والرجم وبما كانت تمتصه من الأثير الذى يجرى إلى المادة رداً للموازنة كما شرحته قبلا وابتعدت عن الشمس التى كانت تدور حولها حتى صارت شمساً مضيئة بذاتها

لكثرة ما ينعكس الأثير من باطنها بعد جريانه الشديد إليه ، وهناك شموس كانت سيارات حول الشمس التى كانت شمسنا سيارة لها ، فنمون وابتعدن عن تلك الشمس حتى صرن شموساً مثل شمسنا ، أو أكبر منها . وأما الشمس الأصلية فقد سميتها « شمس الشموس » كما فصلت ذلك فى كتاب الكائنات وقد ثبت لعلماء الفلك أن شمس نظامنا متحركة ضمن الحجرة فى فلك واسع جداً جداً فأعلل هذه الحركة بدورانها حول شمس الشموس .

٢٦ — الشرق يفتقر إلى الكتب الحديثة العلمية و إطلاق الحرية الفكرية للناس .

٢٧ — نصلح الفلاح باشراكه لصاحب الملك بشروط إن أخل بها بطلت شركته .

٢٨ — ما فى العراق نهضة أدبية تشبع ، ولا أدباء غير حفنة مبعثرة فى مقدمتهم صديقى الأستاذ الكبير فهمى بك المدرس .

٢٩ — حاولت فى كبرى أن أتعلم الانكليزية فمنعتنى انشغالاتى الفلسفية عن الممارسة .

٣٠ — كان والدى يتقن الفارسية ويحب شعر الخيام والفردوسى فعلمنى إياها وصرت أنظم فيها ، أما اللغة التركية فكانت اللغة الرسمية فتعلمتها لنيل المناصب .

٣١ و ٣٢ — إقامتى فى مصر لم تزد على أربعة أشهر ونصف شهر ، وقد كنت متألماً فى بغداد من جراء ما لحقنى من حيف فصممت الاقامة فى مصر ولكنى لم أستطع الاقامة طويلا لغلاء المعيشة المتوسطة فيها ، ولشدة التعصب يومئذ فى بعض أهلها ، وقد كانت تنشر القصائد لى يومئذ جريدة الأهرام والمقطم والسياسة .

٣٣ — جوانب الشباب المرحة هى فى ركوب الأخطار لنيل الأوطار وقد كنت فى شبابى من أقوى الشبان وأسرعهم فى العدو وأبطأهم فى المكث تحت الماء إذا تسابقنا فيه ، وأكثرهم نشاطاً .

٣٤ — لو لم أكن شاعراً أو فيلسوفاً اخترت أن أكون محامياً .

٣٦ — والعمل الصعب الذى تعمدت أن أركبه هو مقاومة الاستبداد فى زمن السلطان عبد الحميد الجبار .

٣٧ — لا سبيل لأن يعيش المرء هنيئاً مادام تنازع البقاء سنة لا تبديل لها وقد يأتى الهناء فى فترات قصيرة .

٣٨ — لم تعجبنى الروايات العربية ، كما أعجبتنى الروايات المترجمة إلى العربية ، وقد أعجبتنى فى شبابى رواية البؤساء لهوجو مترجمة إلى التركية فى مجلدين ضخمين ، وقد تعجبنى روايات ريدر هجرد لما فيها من سعة الخيال .

٣٩ — أحب شخصية محمد لأنه من أكبر المصلحين ، وأحب كوبرنيك لأنه أول من أثبت أن الأرض تدور حول الشمس ، وأحب داروِن لأنه عرفنا ما هو أصل البشر ، واكتشف نواميس النشوء والارتقاء ، وأحب نيجه الألمانى لجرائته فى القول والكتابة .

٤٠ — الثقافة التى يجب أن يحصل عليها الشاعر الفحل والروائى القدير والأديب الفنان ، هى معرفة علم النفس والجرأة فى القول .

٤١ — أحب الحكومات إلىّ هى البلشفية أو الفاشستية .

٤٢ — أود الاقامة فى مصر لو كانت ماليّتى تساعدنى.

٤٣ — الفتاة التركية هى المثل الأعلى لثقافة الفتاة الشرقية .

٤٤ — تصلح الحياة بالعلم والأخلاق فقط .

٤٥ و٤٦ — فشلت الدمقراطية ، وما الثورات فى كثير من البلاد إلا أدلة على هذا الفشل ، ولما كانت البلشفية والفاشستية لم تفشلا بعد ، فكثير من الناس يميل إلى أحدهما .

٤٧ — ما نجحت القصة الشرقية إلا قليلا .

٤٨ — كان شوقى شاعر مصر كما لكل قطر شاعر .

٤٩ و٥٠ — لا يصح الحكم على أن فلاناً هو الفنان الأول فى الشرق دون غيره ، فان الشرق أكبر من مصر وأكبر من العراق . وقد يكون فى العربية من يستحق جائزة نوبل ، ولكن قليلا ما يفضل الغربى الشرقى على أخيه وربما كان السبب ضعف الترجمة أو اختلاف النزعات .

قلدت أهل الغرب فى الشعر ناس   وإذا الشعر أنفه مجدوع
ما دروا أن الشعر فى كل أرض   هو من نفس أهلها منزوع

٥١ — لا يعلم الأطفال كالامهات إذا كن متعلمات .

٥٢ — لو كنت رزقت أولاداً لسعيت أن أجعلهم مثلى كما سعى أبى أن يجعلنى مثله.

٥٣ — عددت لك فى جوابى عن العدد ٣٩ من أعظمهم من رجال الغرب وأما فى الشرق فانى أعظم والدى ووالدتى لأنهما كانا سبباً لحياتى .

٥٤ — أدرس التاريخ بالاحاطة والتحليل والتجرد عن الهوى .

٥٥ — رحلت فى سنة ١٨٩٦ إلى الاستانة قصد أن أتعرف بكبار أدبائها فتعرفت بشاعر الترك توفيق فكرت وصفا بك وعصمت باك وسامح بك والدكتور رضا توفيق .

ورحلت منها موظفاً إلى اليمن بارادة سلطانية فى سنة ١٨٩٧ وبعد رجوعى من اليمن إلى العاصمة نظمت قصيدتى فى عبد الحميد فسجننى ثم أرسلنى مخفوراً إلى بلدى براتب شهرى قدره ١٥ جنيه ثم عدت فى عهد الدستور إليها فتعينت أستاذاً للفلسفة فى جامعتها ثم مرضت فرجعت إلى بلادى أستاذاً للقانون المدنى فى مدرسة الحقوق ثم عدت إليها نائباً عن بغداد وكنت قد شاهدت بيروت فى بعض أسفارى هذه ثم سافرت فى سنة ١٩٢٤ إلى سورية فمصر ثم رجعت إلى بغداد بعد ستة أشهر ونصف .

٥٦ و ٥٧ — الشعر رسالة الطبيعة على لسان أحد بنيها إلى أبنائها وإذا لم تكن منزهة عن الأوهام والمبالغات ، فهى غير صادقة والشعر إذا لم يصدر عن الشعور لا يؤثر فى الشعور ، وآيته أن يهز نفوس سامعية .

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس خليقاً أن يقال له شعر والشاعر حامل هذه الرسالة ، والعالم من تعلم علوم عصره أو من اختص بأحدها ، والفيلسوف من يضع أقرب النظريات لتعليل الحوادث التى لم يفسرها العلم والأديب أعلم من الشاعر والكاتب .

٥٨ و ٥٩ — المثل الأعلى للزعماء السياسيين هو مصطفى كمال وغاندى والبهلوى فى الشرق ، وكان « لنين » أكبر زعيم فى الغرب .

٦٠ — أحب عبقرية مصطفى كمال كما أحب نبوغ موسولينى وهتلر .

٦١ — لو كنت دكتاتوراً على الشرق فان أول عمل أقوم به هو أن أحمل كل فرد من الناس فتيلا محرقاً فى عقبه ليثور فيتمرد على العادات القديمة البالية المثبطة للعزائم .

إنها العادات لا يخلعها غير ذاك المارق المنطلق
قد تلقاها تراثاً سيئاً أحمق عن أحمق عن أحمق

٦٢ — وإن توليت الحكم على جزيرة يسود أهلها الفطرة والسذاجة أسن لهم قوانين تناسب سذاجتهم ، فاذا تقدموا قليلا غيرت القوانين إلى ما يلائم حالتهم الثانية وهكذا أصعد بالقوانين وفق صعودهم حتى أجعلهم فى مصاف الأمم الراقية ، ولا أحشو فى التعليم رؤسهم بالخرافات والأوهام ، وأعاقب من يكذب ، وأترك الحرية فى القول والعمل لكل أحد ما لم يتعد حرية غيره .

٦٣ — تاريخ شلل الأصابع فى رجلى اليسرى هو قبل ٢٠ سنة ، وسببه داء فى النخاع الشوكى وأثر ذلك أنى لا أستطيع أن أمشى على رجلىّ مسافة ربع ميل إلا إذا استندت على ذراع أحدهم وإلا كبوت على وجهى .

٦٤ و ٦٥ — نسمع حكم الشعب إذا قوى وتهذب وتعلم ، ونرفض حكمه إذا كان جاهلا لا يعرف خيره من شره فنسوقه كما يسوق الراعى غنمه .

٦٦ — أداوى البطالة كما يداويها البلشفيون فى روسيا ، وأعالج الأزمات كما يعالجها الغازى مصطفى كمال وموسولينى والبهلوى .

٦٧ — ليس طريق السلام معبداً لتسلكه الساسة ، فالواجب تعبيده أولا بل لا طريق إلى السلام ما دام فى البشر أقوياء وضعفاء .

النواميس قضت أن لا يعيش الضعفاء
إن من كان ضعيفا أكلته الأقوياء

٦٨ — الحرب ضرورة لا بد منها لاختلاف المصالح فى الأمم كما فى الأفراد .

أمة من سلالة القرد جاءت تهتدى بالحجا من الآجام
طلبوا منها فى الحياة سلاما وهى لم يعلُ شأنها بسلام
إنها أحرزت سياستها بالبطش أنى توجهت والخصام
الترقى إذا افتكرت مليا فى خلاف الشعوب لا فى الوئام

٦٩ — تهذب الغرائز البشرية بالانتخاب الطبيعى ، وهذا الانتخاب بطيئ فالأنفع هو الانتخاب الصناعى بطناً بعد بطن .

٧٠ — أخذت سيطرة الأديان تضعف شيئاً فشيئاً وستزول بعد عدة قرون .

٧١ و ٧٢ — أحب ديانة التجرد من قيود الأديان والمنتظر أن يرق البشر إلى درجة أن لا يحتاج إلى إصلاح دينى . وما الله إلا ما يتصوره البشر أقوى من كل قوىّ ، وهذا عرشه فى أدمغة المؤمنين .

الذوق الفنى عند إدموند بيرك

لم يكن بيرك فيلسوفاً بالمعنى الاصطلاحى لهذه الكلمة ، ولكنه كان خطيباً ومفكراً سياسيًّا من طراز رفيع . ولقد غلبت عليه صفته الخطابية السياسية حتى أوشك المؤرخون ألا يذكروا له سوى كتبه فى السياسة ، ومواقفه فى البرلمان ، وهو يتدفق بلاغة ، ويهاجم الحكومة الإنجليزية فى سياستها إزاء الهند ، وإزاء الثورة الفرنسية ، وإزاء المستعمرات البريطانية فى نصف العالم الغربى ، تلك المستعمرات التى هبت فى وجه بريطانيا فيما بعد ، وأصبح منها ما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية .

هم يذكرون له تلك المواقف ويعرضون للمجلدات الضخمة التى خلفها بيرك ذخيرة للنثر الإنجليزى ، ولكنهم قلما يذكرون هذا البحث الفريد الذى كتبه فى إبان شبابه ، والذى وضع به أساس فلسفة الجمال فى تاريخ الفكر الإنجليزى ، والذى فتن به عملاق الفلسفة الحديثة ايمانويل كنت ، فهمّ بأن يترجمه إلى الألمانية لولا أنه أطال التفكير حتى وافته المنية قبل أن يخرج عزمه من حيز القول إلى حيز الفعل .

ولقد كتب بيرك هذا البحث وهو فى هدأة من هدآت النفس التى تجنح فيها إلى التأمل ، وتعرض فيها للمدركات الحسية ، وتحاول أن تستقرى منها قوانين عامة تفسر بها ظاهرة من ظواهر الوجود . كتبه وهو يتنفس الجو العقلى الإنجليزى المتوارث الذى ينفر نفوراً شديداً من المنطق النظرى ، ويعرض عما استطاع عما وراء الطبيعة ، ويجعل من المادة وانعكاساتها الذهنية مجال البحث والتفكير .

إن من الناس من ينكر وجود ذوق عام ، ويقرر أن الذوق مسألة شخصية نسبية ، وأن ليس لها ضابط ولا معيار . ومنهم من يذهب مع القائلين بأن الذوق العام موجود ، ولكنه شئ ليس فى الكتب ، أى هو شئ يمكن إدراكه

بالممارسة والاختبار . فما هو الذوق ؟ وما أصوله فى النفس البشرية ؟ وما هى عناصره وضوابطه العقلية التجريبية ؟ . . .

إن الذوق هو الملكة العقلية التى نحكم بها على قيم الفنون الجميلة ومنتجات الخيال . وهذه الملكة العقلية تعود بجذورها إلى الحواس التى ندرك بها ما يحيط بنا من العالم الخارجى ، والتى هى السبيل الوحيد عند بيرك وعند عامة المفكرين الإنجليز ، للمعرفة الإنسانية .

الحواس إذن هى أساس الذوق الفنى . ونحن إذا تأملنا هذه الحواس وجدنا تكوينها العضوى يكاد يكون متماثلا عند الناس كافة ، ومن ثم كان إدراكها للمحسات يكاد يكون متماثلا ، فالناس يتفقون على أن هذا نور وذلك ظلام ، وأن هذا حلو وذلك مر ، وقل مثل ذلك فى الضخم والهزيل ، والصلب واللين ، والساخن والبارد .

وإذا كان تأثر الحواس متقارباً فكل ما ينجم عنه من ألم ولذة متقارب كذلك . وإنك لترى البشر يتفقون على أن الصاب مر وأن الشهد حلو ، ولا يختلفون على ما تحدثه هذه المؤثرات الحسية من لذة وألم ، بل إنهم يجمعون على وصف الحلاوة بأنها لاذة والمرارة بأنها كريهة . نعم ، إن هناك أسباباً كثيرة تسبب انحرافاً عن استطابة المطعومات الطبيعية اللاذة والإقبال على مذوقات كريهة بذاتها ؛ فقد يفضل امرؤ بحكم العادة طعم التبغ على طعم السكر ، ونكهة الخل على نكهة اللبن ، ولكن هذا لا يغير الحكم على الصفتين الأصيلتين لهذين المطعومين ما دام هذا المرء يحس أن التبغ ليس حلواً ، وما دام يعلم أن العادة وحدها هى التى مهدت الذوق لتلك اللذات الدخيلة . وإنك لن تجد امرأً يقول إن للتبغ طعم السكر ، أو أنه لا يستطيع التمييز بين الخل واللبن ، أو أن للتبغ والخل حلاوة وأن اللبن مر والسكر حامض . ولقد يصف لك صديق فاكهة جديدة فلا يقول لك : إن لها شذاً كأريج التبغ ، أو يصف لك زهرة نادرة فلا يقول : إن لها عطراً كعبير الثوم؛ لأنه يعلم أن استطابة التبغ والثوم إنما هى لذة شاذة أو مكتسبة . ولقد نتج عن الخلط بين اللذات السليقية والملذات المكتسبة أن قال أناس بأن الذوق ليس له ضابط ولا معيار . والواقع أن الذوق يصعب وضع قاعدة له عند إصدار الأحكام الدقيقة على مدركات الحواس ، أى إن الإنسان لا يستطيع أن يجيب إجابة دقيقة صحيحة عن أثر مطعوم ما فى ذوق شخص معين ،

ولكننا نستطيع ولا ريب أن نناقش الأشياء اللاذة بطبيعتها والأشياء المنفرة للحواس بطبيعتها ، ونستطيع أن نميز بينها وبين ما ينتج اللذة الشاذة أو المكتسبة إذا بحثنا عن العادات والتغرضات والتوعكات التى ألمت بصاحبها .

وكما يتفق الناس فى المدركات المطعومة يتفقون فى تذوق مدركات البصر ؛ فإن لذة الضوء أبلغ من لذة الظلام ، وإن الربيع المزهر المشرق ليبعث فى نفس الناظر نشاطاً وأريحية لا يجدهما فى الشتاء العبوس ، وإنك لتعرض حيواناً أو طائراً أو نباتاً على قوم كثير فيجمعون على استحسانه أو على استقباحه ، ولو أنهم قد يختلفون فى درجة ذلك الاستحسان وهذا الاستقباح .

وعلى هذا الاستقراء نرى الأساس واحداً فى لذة الحواس ، جميعاً فننتقل من مرحلة الحواس إلى مرحلة الخيال .

إن للعقل الانسانى قوة فعالة تحتفظ بصور المحسوسات فى الذهن على نفس النسق والترتيب الذى وصلت به إلى الذهن عن طريق الحواس ، أو بتركيب هذه الصور على هيئة جديدة ونسق جديد ، وهذه القوة تسمى الخيال ، وهى عاجزة كل العجز عن الابتكار المطلق والاستحداث من العدم ، وكل قدرتها أن تنوع وتنسق ما تتسلمه من الحواس .

والخيال هو مراح اللذة الفسيح ، وميدان الآلام والمخاوف ، ومثوى جميع ما يتصل باللذة والألم من عواطف . وما دامت اللذة الخيالية تحدث من صور المدركات اللاذة ، والألم الخيالى يحدث من صور المدركات المؤلمة ، فان كل مؤثر طبيعى خارجى يؤثر فى أخيلة الناس أثراً متقارباً أو متشابهاً ، على نفس القاعدة التى تلتذ بها الحواس أو تتألم من المؤثرات الخارجية . وينتج من هذا أن هناك اتفاقاً أو تقارباً فى الأخيلة البشرية يساوق اتفاق الناس أو تقاربهم فى الاحساس .

واللذة والألم الخياليان إما أن يكون سببهما مؤثراً طبيعياً خارجياً أو إدراك الشبه بين صورة خيالية وصورة حقيقية واقعية ، وليس للخيال مصدر لاذ أو مؤلم سوى هذين ، وهما يوجدان على درجة متقاربة عند البشر جميعاً . وقد لاحظ لوك أن سرعة البديهة ، وهى خاصية خيالية ، تنتج من القدرة على تتبع وجوه الشبه ، وأن النقد العقلى يعتمد أكثر ما يعتمد على تعرف المفارقات ومواطن الخلاف : واستدل على ذلك بأنك قد ترى شيئين مختلفين فلا يتأثر خيالك لأن الاختلاف بين الأشياء هو عين ما تتوقع . أما إذا رأيت شيئين متشابهين فقد

يأخذك الاهتمام ويتمشى إليك السرور . والخيال يجنح بطبعه لجمع التشابهات لأن فى جمعها إضافة وثروة ونماء ، أما مراقبة الفروق فليس فيها تحديد ولا إضافة ، ولكنها عمل مضجر متعب ، إذ أثمر لذة فهى لذة سلبية عوجاء . ولما كانت اللذة أو الألم الخياليان الناتجان عن المؤثرات الخارجية فى الحواس وعن إدراك الشبه بين الصور الخيالية والصور الواقعية ، لما كانت تلك اللذة وهذا الألم عملية سليقية ؛ طبيعية فاننا نرى الشعوب البدائية الفطيرة تميز على غيرها فى التشبيهات وتأتى منها بالمعجب المطرب على رغم عجزها عن تمييز الأفكار وتنسيقها ، ونرى شعراءهم لا يعنون بالحقائق بل تأخذهم المماثلة العامة بين الأشياء فيرسمونها بألوان صارخة زاهية .

وإذا كانت لذة إدراك المشابهة هى أهم ما يسترعى الخيال فان أكثر الناس إذن يتساوون فى هذا المجال ، ولا يفرق بينهم إلا وفرة نصيب بعضهم من إدراك التماثل والمشابهة ، وهذا أمر يتفاوت بتفاوت التجربة والملاحظة . ومن هذا التفاوت ينتج ما يسميه بعض المفكرين تنافراً فى الأذواق ولا تنافر هناك.

إن الرجل الساذج يبتهج ويبهت إذا رأى أى تمثال لانسان ، لا لشئ إلا لأنه يرى شيئاً شبيهاً بالبشر ، وهو يستغرق فى هذه المشابهة حتى إنه لا يتنبه إلى ما قد يكون بالتمثال من قصور . فاذا تعلم ذلك الرجل وزادت تجربته ورأى ذلك التمثال بعينه فانه قد يزدريه ويعجب بتمثال أدق من الأول صنعاً ، فيخيل إلينا أن ذوقه قد تغير ، والواقع أن ما أعجب به فى الحالتين واحد ألا وهو المماثلة بين التمثال والإنسان .

ولقد زعموا أن إسكافاً شهد لوحة نابغة تمثل ملكا على عرشه ، فأعجب بها وتملكه الطرب ، ولكنه أرشد الرسام إلى خطأ فى رسم حذاء الملك ، وكان هذا الخطأ قد فات ملاحظة الفنان العبقرى ، فلم يكن هذا اتهاماً لذوقه ، وإنما هو مجرد قصور فى علمه بصناعة الأحذية . ومن هذا نرى أن هذين الرجلين وإن تفاوتا فى العلم قد اتفقا على لذة ناجمة عن المشابهة بين الصورة والأصل . ولا ريب فى أنه يمكننا تقدير الفارق بين لذتيهما إذا علمنا مبلغ تجربة كليهما ، تلك التجربة التى تعين على إدراك المشابهة . وعلى هذا يكون الذوق عاماً فى أصله ثم يحدث بعض التفاوت الذى لا يعجزنا أن ندرك مبعثه وأسبابه .

إن الرجل الدارج ليقرأ ملحمة شعبية فتتملكه النشوة ولا يفطن لما يصادفه

من الإحالات المنطقية والاساءة إلى الفضيلة وامتهان الحقائق الجغرافية . وليس السبب فى هذا الخطأ هو ضعف خياله ، و إنما السبب هو ضعف المعرفة بالمنطق وعلم تقويم البلدان .

إن أصول الذوق واحدة عند الناس جميعاً مادام الذوق من خصوصيات الخيال وليس بينهم من فارق فى وسائط التأثر ولا أسبابه . ولكن هناك فارقاً فى درجة التأثر ينشأ من سببين جوهريين : تفوق فى الحساسية الطبيعية ، أو إمعان فى العناية والانتباه . فلو أنك قدمت خواناً من الرخام إلى رجلين فلمساه بأيديهما لأدركا أنه ناعم واتفقا على الحكم بنعومته ، فاذا قدمت لها خواناً أكثر نعومة فانهما قد يتفقان على أن الخوانين ناعمان ، ولكنهما قد يختلفان فى أيهما أشد نعومة . فالتفاوت فى الذوق إذن يبدو حين يصل الأمر إلى الموازنة والمضاهاة ، أى فى أمور تتعلق بالكيف أكثر مما تتعلق بالكم . وهنا نتلفت لنبحث عن الحكم الذى يفصل فى الأمر عند الاختلاف ، فنجد العقل على أهبة الاستعداد .

ويأتى دور الأحكام العقلية بعدم إدراك اللذة الحسية واللذة الخيالية . فاذا أتى دورها انصبت على صلات تلك اللذات بعضها ببعض ، وكانت هى الفيصل الذى يقدر الانحرافات التى تعرّض لها الذوق العام الذى أوشك أن يعد عند بعض المفكرين أذواقاً أشتاتاً .

فعلة الذوق الفاسد خلل فى الحكم العقلى . وهذا الخلل قد ينجم عن وهن فى الفهم والتمييز ، وقد ينشأ عن قصور فى الخبرة والممارسة . وعلى الرغم من أن هذه العوامل تنبت خلافاً فى الحكم يتناول كل مسائل الفهم والادراك ، فانها لا تدعونا إلى إهدار أصول المنطق ، ومن ثم لا تدعونا إلى إنكار الأصول الذوقية العامة . ولعل الدليل الأكبر على وجود الأصول الذوقية العامة أنك ترى البشر أقرب إجماعاً على استحسان جمال الطبيعة منهم على خطأ الفلسفة الأفلاطونية أو صوابها .

محمد عبد العزيز اسماعيل

حيرة الفكر فى معنى الحياة

من المشاهد فى الأزمنة الحديثة أنه كلما أبدت الحروب نواجذها ، واستعر أوارها ، جرّت فى أذيالها خراباً شاملا ، ودماراً كاملا ، وتغيرت الأوضاع وتبدلت الأفكار وتشتتت الأذهان ، وحارت الألباب ، ويئست النفوس من بلوغ السكينة والاستقرار ، وصاح ذوو العقول الراجحة صيحة هلع ووجل من تقدم الاختراعات العلمية ، تقدماً يشفقون من أن يودى بتراث المدنية التليد فى عالم الفكر الرفيع والفن الجميل . ولا غرو أن الحروب الحديثة بلغت شأواً من الفتك والتدمير لم يكن ليدور بمخيلة الأوائل السالفين ، وأن ما يقاسيه البشر من ويلات القنابل الصاروخية والذرية أشد هولا مما تصوره دانتى فى جحيمه . من ثم نرى النفوس عقب كل حرب ثائرة على الأوضاع التى سبقتها ، حانقة على القيم التى اعتنقتها ، مهيأة لانقلاب عام ، معدة لتقويض دعائم مقاييس وأوزان خالها أفلست إفلاساً تاما وقادتها إلى الهاوية والهلاك . فينشط حينئذ الباحثون يقدحون زناد فكرهم عساهم يهتدون إلى إزالة الأنقاض الدارسة و إقامة أسس جديدة تعين المرء على إدراك شئ مما أُغلق عليه فهمه من أسرار الكون الغامضة ، وألغاز الحياة المتناقضة . وثمة فئة من الفلاسفة والكتاب يلمسون عبث أى كفاح أو جهاد فيسلسون القياد لليأس والقنوط ويتذرعون بالأجل المحتوم ليبينوا أن الوجود مآله الفناء ، والانسان مصيره العفاء ، ولا يرون مسوغاً للعمل ، ولا يقفون على معنى للحياة ، فيؤثرون الخلاص من الواقع متى وجدوا للخلاص سبيلا . ولعل خير وسيلة للخلاص أن يكبّوا على تأليف كتب أو نشر مقالات يصبون فيها جام غضبهم وحنقهم محاولين إقناع قرائهم بسخف الحياة وتجردها من أي معنى . وهم لا ينفكون ينفثون حسرتهم ويبثون لوعتهم ، كأن فى إفراغها على القرطاس ما يهدئ روعهم أو يخفف همهم ، حتى تلقى أفكارهم بعض الحظوة أو تقع موقعاً حسناً لدى بعض النفوس ، فيرتاح بالهم وتطمئن سريرتهم .

ومن المشاهدات الغريبة تهافت الجماهير فى أوربا بعد أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها على اعتناق مبادئ سلبية هادمة لا سبيل معها إلى مواصلة أسباب الحياة والاشادة بآراء بعض الكتاب الذين يتزعمون مدرسة التشاؤم ويؤلفون نوعاً من الأدب القاتم العنيف لا يدع للمرء بصيصاً من الأمل يستعين به على تحمل همومه وأرزائه . وكلما زادت عوامل القلق والجزع والتذمر بين الشباب زاد إقبالهم على ذلك الأدب اليائس المضطرب، أدب العدم والفناء ، واضمحلت لديهم عوامل الجلد الذى يعين على البقاء . ولعل رواج ذلك الأدب القلق يرجع إلى أنه يتقن تصوير الحيرة والجزع والضجر الذى يحس به الشباب إحساساً عميقاً ، أو لأنه يمعن فى تحليل الروح الثائرة النافرة التى لا تجد اللذة إلا فى الخوض فى أعماق نفسها وغوص الخنجر فى الجرح محاولة أن تكشف فى قاعها شيئاً من الجمال الذى حرمته فى الحياة الواقعة . وقديماً قال نيتشه : « إن الامعان فى الألم يصبح مصدراً للذة.» .

نعم ! لقد انقضى زمن نظرية « الفن للفن »وهى وليدة عصر الوفرة والبذخ والترف الذى ساد أوربا خلال القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين ، وترك الكاتب أو الشاعر برجه العاجى ونزل إلى معترك الحياة اليومية يخوض غمارها ويدافع فيها عما يراه حقا . ولذا رأينا فى العصر الحالى كثيرين من الكتاب النابهين والشعراء النابغين يتناولون فى الصحف والكتب والمجلات مسائل سياسية واجتماعية يدلون فيها بآرائهم ويسوقون حججهم ، بل رأينا بعض الكتاب وقد أرادوا أن يؤلفوا بين الجهاد النظرى المثالى وبين الجهاد الفعلى الواقعى ، يطرحون جانباً راحتهم وطمأنينتهم ويقحمون أنفسهم فى حروب تضطرم نارها بعيداً عنهم ، دفاعاً عن فكرة أو مبدأ اجتماعى ، فيبذلون دماءهم ويجودون بأرواحهم على مذبح عقائدهم . وقديماً لقى الشاعر الانجليزى العظيم لورد بيرون حتفه حين تطوع فى حرب استقلال اليونان . وقريباً حمل الروائى الفرنسى مالرو السلاح واستل سيفه فى معركة نائية عنه إذ انخرط فى سلك الجيش الشيوعى إبان الحرب الأهلية فى الصين ، كما نزح أرنست همنجواى عن بلده الهادئ فى أمريكا ، وحارب فى صفوف الجيش الجمهورى إبان الحرب الأهلية فى أسبانيا .

بيد أن اندماج الكاتب فى الحياة العادية ونزوحه عن برجه العاجى

لم يعودا على الانسانية فى كثير من الأحيان بنفع كبير، بل ربما أصابها من جراء ذلك ضرر عظيم . فقد شغل بعض الكتاب أنفسهم بقليل أو كثير مما يشغل بهعامة الناس أنفسهم، واضطربوا معهم فيما يضطربون فيه من جد أو لهو، فباء كثير منهم بالخيبة والحسرة، وكأنهم بعد أن خبروا ما يدعي أعمالا جليلة، لمسوا ما تحويه هذه الأعمال من فراغ ، ووقفوا على ما تخفيه من سخف أجوف وقالوا إن الانسان عدم ولايمكنه أن يتمخض إلا عن العدم، فهو فان وأعماله كلها متسمة بطابع الفناء .

وإنى اليوم أرغب فى عرض كتابين لكاتب فرنسي ممتاز تناول فى جميع مؤلفاته ومسرحياته التى أنشأها فكرة واحدة سيطرت على ذهنه وحواسه سيطرة تامة ، ألا وهى فكرة العدم وسخف الحياة التى أشرت إليها فى مقدمة هذا البحث . أما ذلك الكاتب فهو ألبير كامو **Albert Camus** وهو شاب نشأ وترعرع فى شمال إفريقية بدأ نجمه يتألق فى سماء الأدب خلال عام ١٩٤٢ إذ نشر مقالات وبحوثاً فى عدة مجلات أدبية وصحف سياسية فى مدينة الجزائر استرعت اهتمام الأدباء والجمهور على السواء . ثم رحل إلى فرنسا وقت تحريرها وساهم بقلمه فى صحيفة يومية من كبريات صحف باريس هى جريدة « كومبا » *Combat* (الكفاح) وأول ما استلفت الأنظار من كتبه الأدبية قصة سماها « الغريب » وبحث سماه « أسطورة سيزيف » وهما الكتابان اللذان نويت التحدث عنهما فى هذا المقام . وعلاوة على ذلك ألف ألبير كامو مسرحيتين إحداهما تدعى «الالتباس» *Le malentendu* والأخرى «كاليجولا»[1] *Caligula* وقد مثلت كلتاهما على أهم مسارح باريس (الأخيرة على مسرح **Hébertot** منذ عامين) ونالتا نجاحاً باهراً رغم أنهما قصتان يدور فيهما الحوار حول مسائل فلسفية عويصة الفهم يتعذر على المتفرج العادى إدراكها ، إذ تمتان إلى ذلك النوع من المسرحيات التحليلية التى يكون مدارها تفسير حالة نفسية أو تسويغ عمل يبدو عجيباً من الوجهة السيكولوجية وهو ما اصطلح عليه الفرنسيون بلفظ **pièce à thèse** .

---

(١) وقد نقل هذه المسرحية إلى العربية الأستاذ رمسيس يونان (دار الكتاب العربى أبريل سنة ١٩٤٧) .

ويلاحظ أن كامو اختار قالب القصة أو المسرحية ليسوق إلى القارئ نظرياته الفلسفية ، وليبرهن على صدق آرائه وصحة أفكاره ، وهى هى لم تتغير سواء فى القصة أو المسرحية ؛ فالفكرة الانشائية واحدة والعامل النفسى واحد خلال مختلف مؤلفاته ، وحتى الألفاظ تكاد تكون واحدة فى بعض المواقف التى يتناول سردها . لذا يشعر القارئ عند مطالعة أكثر من كتاب لهذا الكاتب أنه لا يسعه صد سحر حججه الدامغة الراسخة ومنطقه القوى العنيد ولا سيما أن أسلوبه نقى رقيق ينساب فى عذوبة خلابة لا تصنع فيه ولا تنميق .

وأبدأ الآن بعرض قصته « الغريب » ثم أردفها ببحثه الفلسفى « أسطورة سيزيف » .

الغريب *L'étranger* **(N.R.F.)**

يروى لنا ألبير كامو قصة شاب فوجئ يوماً بنبأ وفاة أمه ، فسافر متثاقلا إلى البلد الذى كانت تقضى فيه آخر أيامها بين رهط من الشيوخ فى ملجأ للعجزة ، ثم سار فى موكب الجنازة متباطئاً منهوكا كأن الأمر لا يعنيه فى شئ ، وكأن العربة التى كانت تتهادى أمامه فى مشيتها ، لا تنقل رفات أمه إلى مثواها الأخير . وبعد أداء المراسم المعهودة عاد أدراجه تواً إلى مدينته حيث قابل صديقته مارى ورافقها إلى دار السينما لمشاهدة رواية مضحكة . وفى ذات يوم دعاه جاره ريموند إلى قضاء يوم على شاطئ البحر للتمتع بأشعة الشمس الدافئة وللسباحة فى مياه البحر الصافية ، فلبى الدعوة ، واستصحب معه صديقته مارى . وبينا هو يسير مع رفيقه بمحاذاة الشاطئ إذ هجم بعض الأعراب على ريموند واعتدوا عليه ، وطعنوه بمدية فسالت منه دماء غزيرة ، وكان أحد هؤلاء الأعراب وهو أخ فتاة عربية اتخذها ريموند خليلة له قد بيّت النية على الانتقام لشرف أخته ، وقد أتيحت له يومئذ فرصة تنفيذ خطته الأثيمة . وبعد أن قام الراوى بتضميد جرح صديقه تركه فى صحبة بعض الرفاق واستأنف السير وحده بغية الرياضة والتسلية ، إلى أن وصل إلى بقعة منعزلة حيث فوجئ برؤية الأعرابى الذى اعتدى على صديقه ، مستلقياً على الأرض ، وما إن لمحه الأعرابى حتى وقف منتصباً ، ووضع يده فى جيبه كأنه يتفقد شيئاً ، فوقف الراوى أمامه

دون حراك ، وأشعة الشمس المحرقة مسلطة على عينيه تكاد تبهر بصره وتعميه وجبينه يتصبب عرقاً ، والعرق ينحدر رويداً رويداً إلى مآقيه حتى يلسع جفونه وناظريه ؛ فتقدم خطوة إلى الأمام كى يتقى الحر اللاذع ، فما كان من الأعرابى إلا أن أخرج من جيبه مدية وفتحها ، فانعكست أشعة الشمس على الصلب فلمع السلاح لمعاناً ذهبيا حتى لقد خيل إلى المسكين فى ذهوله أنه أصيب بطعنة فى جبينه ، فبدرت منه حركة عصبية آلية ، وأخرج مسدساً وأفرغ منه رصاصة أردت خصمه قتيلا ثم طفق يطلق عليه أربع رصاصات أخرى وهو جثة هامدة غير واع ما فعل ولا مدرك ما أتى .

والجزء الثانى من هذه القصة خاص بمحاكمة القاتل . وأهم ما يلفت نظر القارئ من بدء القصة إلى نهايتها جمود شاذ وبرود عجيب يتملكان الراوى خلال كل حركاته وسكناته ، وكأنه شارد تائه غائب خالى الوجدان لا يعى شيئاً مما يحدث له ولا يعبأ بأى شئ يقع تحت بصره أو سمعه ، فكل شئ لديه سواء . أما موقفه أثناء محاكمته فلا يختلف فى كثير أو قليل عن مواقفه السلبية السابقة إزاء كل ما يضطرب حوله من أحداث أو أفعال ، فلا يعدو موقفه وهو فى قفص الاتهام موقف المتفرج إلى مسرحية لا تعنيه من قريب أو بعيد كأنه غريب هائم وطئت قدماه أرضاً لا يفقه لغة أهلها أو تقاليدهم . وهو رغم جموده الصادق مالك وعيه ، حاد البصيرة ، نافذ النظرات ، لا تفوته شاردة أو واردة من تفاصيل الاجراءات القضائية المعقدة التى يلهو بها قوم يبدون له كممثلين يقومون بأدوارهم فيحكمون أداءها . وهو لم يذرف دمعة واحدة كما لم تجد عيناه بعبرة واحدة خلال تشييعه أمه إلى اللحد ، لا يشعر بأى ندم على إثمه الشنيع ولا يؤنبه ضميره ولا يحس بضعف أو خور أو يأس رغم طول إقامته فى السجن ، وإنما قضى عليه أن يستمع إلى مرافعات النيابة العامة والدفاع ولا يرى سبيلا للخلاص من المهزلة التى تحاك حوله إلا عند إسدال الستار والنطق بالحكم . وأخيراً يصدر الحكم بادانته وإعدامه بقطع رأسه على المقصلة . وحينئذ يبدأ المسكين يتمسك بأهداب أمل واه ضعيف وهو قبول الطعن المقدم منه لتخفيف العقاب . وبافتئت خواطر متناقضة ونوازع متشعبة تختلج قلبه وتجوب مشاعره وهو قابع فى جحر سجنه يحاول إقناع نفسه بتفاهة الحياة الدنيا وسخفها مردداً ان الحياة أمر غير مستساغ وأن الموت آت لا ريب فيه ؛ فليس ثمة فرق بين

أن يموت الانسان فى الثلاثين أو السبعين من عمره ، وهو فى آن واحد يشرد ذهنه إلى احتمال العفو عنه فيشعر فى سويداء نفسه بفرح عميق يسعى إليه سعياً حتى يغمره فلا يألو جهداً فى كبت هذا الاحساس المتدفق وكتمه حتى لا تصرعه خيبة الأمل .

وأخيراً علم المسكين أن قد حم قضاء لاراد له ، ودخل عليه فى غياهب سجنه قس يزجي إليه النصح والارشاد ويهيئ روحه لمقابلة بارئها ، فاستشاط غضباً وثار كالبركان وأمسك بتلابيب رجل الدين وطفق يهزأ بنصحه ويسخر من عقيدته الراسخة وإيمانه الوطيد .

وفى الحوار الختامى بين السجين ورجل الدين زبدة فلسفة البير كامو . لذا لايسعنى إلا أن أنقل بعض هذا الحوار لدلالته الواضحة على أفكار المؤلف :

سأل القس : « أيبلغ تعلقك بالحياة هذا الحد ؟ ألم يجل بخاطرك مرة أن تصبو إلى حياة أخرى ؟ » . فأجابه السجين : « أنه يتمنى حياة أخرى ولكن مناه لن تعدو التمنى ، كما يتمنى الانسان أن يكون ذا جاه أو ذا فم جميل أو بارعاً فى السباحة » . فأردف القس : « وكيف تتخيل الحياة الأخرى ؟ » فأجابه فورا : «حياة أكون فيها قادراً على ذكر هذه الحياة». فربت القس على كتفه وقال : « إنى معك يا بنى وسوف أصلي من أجلك » . وهنا ثارت ثائرة المحكوم عليه وسب رجل الدين وهزه وشرع يحدث نفسه فى حدة وحنق : « إن هذا القس يبدو واثقاً بما يزعم رغم أنى غير واثق أنه حى إذ هو يعيش كالأموات ، أما أنا فيبدو أن يدى فارغتان ولكنى واثق بنفسى ، واثق بكل شئ ، متأكد من حياتى ومن موتى الدانى القريب . إن هذه الثقة تتملكنى كما أملكها . إنى أملك على الأقل حقيقة واقعة وهى موتى . إنى قضيت حياتى على نمط معين وقد كان فى إمكانى أن أحياها على نمط آخر . قد صنعت هذا ولم أصنع ذاك ، وماذا بعد ؟ النهاية واحدة ، لا شئ ، ليس لأى شئ أهمية ، لقد بات يهمس فى أذنى خلال كل حياتى السخيفة وسواس يسوى فى نظرى بين كل شئ . وما شأنى بوفاة الآخرين ! إنى لا أبالى بحب أم أو بحياة أخرى ، لا أبالى بمآلات أختار بينها ما دام أن مآلا واحداً سوف يختارنى أنا كما يختار معى الملايين من الناس . » وظل المسكين يسترسل فى تلك الصيحات التى كانت تدوى بين

ضلوعه إلى أن خمدت ثورته . وعندما أيقن أن نفسه تخلت عن الأمل وأن الأمل تلاشى أمامه ، رنا بنظره إلى أديم السماء الصافى تتألق فيه النجوم والرموز وشعر أن الطبيعة تشاطره ركوده وأنها تردد صدى جموده ، وحينئذ ذاق طعم السعادة وعرف أن السعادة لم تزايله بعد .

تعرض علينا هذه القصة وضعاً غريباً يلائم تمام الملاءمة أوضاع المذهب الوجودى existentialisme الذي يتزعمه فى العصر الحاضر الفيلسوف الفرنسى الشهير جان بول سارتر . أبان لنا كامو كيف أن السخف L'absurde قد يكون ماثلا فى عمل واحد ، فيسيطر هذا العمل الفرد على مصير حياة بأسرها ويحيدها عن مجراها ؛ إذ أن قتل الأعرابى على يد بطل القصة وهو الراوى أتى نتيجة حتمية لسلسلة من المصادفات . وينسجم هذا الرأى مع قول سارتر فى قصته المسرحية *Huis-Clos* أن الانسان يحمل طوال حياته وزر عمل واحد ، وأنه يحمل مدى العمر وطأة عمل مفرد أتاه ، ولا يحكم على الإنسان إلا عمله ولو كان عملا واحداً منعزلا ؛ إذ العمل يُعَرِّف الإنسان ، والانسان إنما هو عمله .

ويمتاز بطل قصة كامو بجموده وفتوره إزاء كل شئ ، فسيان لديه أن يقدم على الزواج وأن يحجم عنه ، أن يدان وألا يدان ، أن يشتغل فى باريس وأن يشتغل فى الجزائر ؛ فهو يشعر أنه غريب عن المجتمع وتقاليده ، بعيد عن دعائمه وعاداته ، لادخل له بسننه وقواعده ، ويرى الحياة سخيفة لامعنى لها ، لاتنطبق على شئ ولاتنسجم مع شئ . يدرك أن العيش عبث والاسترسال فيه لهو وعبث ، وأن الانسان يتخبط فى دياجير حالكة لا سبيل معها إلى الخلاص ، كما يتخبط هباء رأس السجين على جدران سجنه الشامخة . ولن يفوتنى أن ألمع إلى الشبه العظيم بين قصة كامو « الغريب » وقصة كفكا « المحاكمة » *Le Procès* إذ تكاد وقائع القصتين تكون مماثلة ؛ فقد لحظ كفكا سخف الحياة وعبثها كما لمسها كامو ، وإنما وجد كفكا منفذاً للنجاة فى الايمان بحياة أبدية ، ولو أنه إيمان غامض حائر ، كما سبقه إلى الاعتصام بالخلود الفيلسوف كير كيجارد على حين طرح كامو جانباً هذه الفكرة ووجد العزاء فى حل آخر أسوقه الآن عند ولوج كتابه الثانى . . .

أسطورة سيزيف (.Le mythe de Sisyphe (N.R.F

يأتى الانسان كل يوم بأعمال معينة فى مواقيت محددة ، فهو يستيقظ من نومه فى الصباح ثم يختلف إلى مكتبه أو مصنعه أو حقله ، ثم يتناول طعام الغداء ثم يعود إلى عمله أو ينصرف إلى ملهى ، ثم يؤوب إلى بيته فيتناول طعام العشاء ، ثم يأوى إلى مضجعه حتى يأخذ الكرى بمعاقد أجفانه ، وهكذا دواليك طوال أيام الأسبوع وطوال الشهور وطوال السنين . ويظل يسترسل فى حياة على هذه الوتيرة حتى تلوح الحياة فى نظره مجرد عادة يستمر فى اتباعها دون وعى إلى أن يقف الموت رجاها . ولكن قد يحدث للانسان ولو مرة أن ينهض وسط هذا الدوران الصاخب والاضطراب الدائب ليسأل نفسه لاهثاً متعباً : « لم هذا وما الفائدة من الحياة وما معناها ؟ » فيحس بحيرة شديدة تذهله وخور فجائى يقعده . وفى هذه اللحظة يفيق من سباته وينعم النظر فى حياته ويمحص عواملها ويفحص الدوافع التى تحفزه إلى تجرع الغصص فى سبيل المحافظة على وجود وإطالة أيام لا يلحظ فارقاً بين أمسها وغدها ، فيبين له سخف الحياة وعبثها الهازل ، ويطغى عليه جزع وحنق ، ويذعن للسأم والقلق . وهو لا يشهد إذ يجيل الطرف حوله إلا أجلا محتوماً ومصيراً معلوماً لا راد له ولا منفذ منه ، يرى الناس أجمعين يموتون كما تموت السائمة الحقيرة ، يرى كل المخلوقات تتلاشى وتختفى فى قاع هوة حالكة سحيقة ، يرى كل شئ يستحث الخطى مهرولا نحو الزوال والعفاء ، وحينئذ يحس بمرارة ويأس يحزّان فى نفسه ويشعر بلهيب نار متقدة تتلظى فى أعماق قلبه ، فينقم ويتبرم ويحتد ويسائل حائراً تائها شارداً « لماذا ؟ » تلك هى الحال التى يسميها ألبير كامو « الوعى بالعبث » La conscience de l'absurde وهى مرحلة تلازمها حال أخرى هى الهياج الداخلى ؛ إذ أن الشعور بالسخف ينطوى حتما على الثورة عليه .

وثمة نتيجة هامة يرتبها كامو على هذا الشعور بالعبث ، وهى « الاقدام على الانتحار » . فاذا ما اقتنع الانسان بسخف الحياة وجب عليه أن يساير المنطق حتى النهاية ، فيؤثر الفناء العاجل على حياة تجردت فى رأيه من أى معنى وخلت من أية حقيقة، تآمرت على أن تطوّح به بعد فترة إن طويلة وإن وجيزة

إلى فناء أكيد لا مفر منه . ولما كان الموت الحقيقة الوحيدة التى يلمسها الانسان فلماذا لا يريح نفسه من عناء وشقاء لا طائل تحتهما ويحصل على الخلاص فى الفناء ؟

وقديماً ألقى هملت هذا السؤال عينه فى كلمته المأثورة « البقاء أو الفناء »؟ To be, or not to be? وهذه الصرخة تتردد فى جنبات كل إنسان أدرك أنه لن يبلغ نفسه أبداً ، وأنه عاجز عن فهم الحياة وكنهها .

هناك رد واحد على هذا السؤال ، كما أن هناك دافعاً واحداً يحفز الانسان على احتمال المشقات وتجشم الصعاب ، وهو الأمل أى الايمان بحياة أخرى سرمدية تبدأ عندما تنفض النفس عنها غبار الحياة الأولى الوقتية ، وتبدو للمرء كأنها تكملة أزلية للحياة الأرضية . ولكن كامو لا يؤمن أو هو لا يكتفى باجابة يجهل دعائمها ولا يستطيع التحقق منها فيتشكك فيها ولا يقبلها دليلا ينهض على إثبات عكس مايزعم بل إنه يصر على أن تلك الاجابة هروب من السؤال ؛ إذ السؤال حسب وضعه هو الآتى : هل يستطيع الإنسان مواصلة السير فى حياة مجردة من احتمال استئنافها ، وهل له أن يعيش بلا أمل ودون رجاء ؟ . . .

هناك نتيجة ثانية رتبها كامو على الشعور بالعبث وهى بلوغ « الحرية » . وليس يقصد بالحرية معناها الدارج المألوف ، وإنما يرمى بهذا اللفظ إلى فكرة أخرى أبينها بايجاز فى الشرح الآتى :

كلما وضع الانسان نصب عينيه هدفاً يبلغه أو ضالة ينشدها أوغل فى السعى إلى تحقيقها وألفى للحياة معنى ، ولكن ثمة من يختلج فى نفسه إحساس عميق بعبث السعى وعدم جدواه ، وتسابق كل شئ نحو العدم والفناء . يقول كامو إن شعور الانسان بعدمه يحرره ويفك أغلاله ، حتى إذا ما أتى بعمل فى حياته العادية لم يعره بالاً ولم يعبأ به لعلمه بمصيره المحتوم ، وحينئذ تجنح نفسه إلى الفكاك من كل قيد شاعرة أنها حرة طليقة لا تأبه بظاهر أى شئ ولا تكلف بحطام أى شئ . فاذا ما انطلقت النفس على هذا المنوال أحست بخلو وفضاء وبلغت حالا من الحرية تؤهلها لتذوق راحة تعمها وتغمرها . وقد كشف لنا الروائى الروسى الشهير دستويفسكى النقاب عن نفسية أحد أبطال قصته *Les possédés* يدعى كيريلوف قاده تفكيره ومنطقه بعد أن عجز عن

إدراك سر الخلود إلى بلوغ هذه الحرية التى يحدثنا عنها كامو . يقول كيريالوف فى أحد مواقفه : « إذا ما استبعدت الله من ضميرى أصبحت إلهاً ، وقد بحثت خلال ثلاث سنوات عن خواص تألهى فألفيتها الاستقلال » . وهو يعنى بصيرورته إلهاً أنه حر طليق على الأرض غير مسخر لخدمة خالق سرمدى ، كما أن الفيلسوف نيتشه وصل فى تفكيره إلى هذا القول بعينه إذ ذكر أنه مادام الانسان يعترف بوجود الله نسب إليه سبحانه وتعالى كل شئ وأقر بعجزه عن مقاومة مشيئته على حين أنه إذا أنكر وجود الله تأله الانسان واعتقد أن كل شئ يدين بالخضوع له وحده . وقد أسلفنا القول عرضاً أن الفيلسوف الدانمركى كيركجارد **Kierkegaard** أدى به تحليله وتمحيصه إلى الوقوف أيضاً على عبث الحياة وزيفها ، لكنه رغم ذلك لم يغرق فى لجة اليأس ، وإنما طفا ونجا من الشعور بالعدم لاعتصامه بإيمان راسخ ثابت لا يتزعزع فى حين غاص آخرون مثل نيتشه ودستويفسكى وكامو وسارتر فى دياجير الشك المدلهمة .

وأخيراً استنبط كامو من إدراك الانسان سخف الحياة نتيجة ثالثة ضرورية يتمخض عنها منطقه كما ينبعث الدخان من النار وهى « الجموح » **La passion** وتفسيرها أن الانسان لا يملك من الحياة إلا ما منحه على الأرض ، فخليق به إذاً أن يعمد إلى التمتع بما تترك له منها إلى أقصى حدود التمتع ، وجدير به أن يحاول التملص من حدودها الضيقة وآفاقها القصيرة ، فيسعى إلى تنويع حياته ويركن إلى تجديد عيشه . وبما أنه لا قبل له بمد حياته عن طريق الطول إذ هو لا يسيطر على عمره فعليه أن يملأها من ناحية العمق . وضرب مثلا على ذلك دون جوان العاشق المعروف وبطل القصص الأسبانية القديمة ، وقد اشتهر بعدد لا يحصى من المغامرات النسوية ، وكان دون جوان يجدد نفسه مع كل امرأة تقع فريسة فى حبال غرامه ، ويدأب على الجرى وراء المغامرات دون أن يعتريه ملل أو كلل ، ويكن لكل امرأة جديدة حبا جامحاً وعاطفة صادقة ، لاينال من جموحه وصدقه تكرار حوادثه الغرامية . كما يضرب مثل الممثل المسرحى إذ يعيش كل ليلة متدثراً شخصية تختلف عن شخصية الدور الذى لعبه فى أمسه ، فتتراكم عليه هذه الشخصيات المتعددة المتنوعة المتنافرة وتطغى عليه حتى تصطبغ بها سليقته وتتلون بها طبيعته ولا سيما أن الممثل إذا أجاد تمثيل دوره تقمص شخصية البطل الماثل أمامه وانتحل صفاته وقلد

حركاته إلى أن يندمج فيه إندماج الماء بالراح . وكم من لاعب مسرحى يأتى دون وعى فى حياته العادية بحركات هاملت عندما يهم يتناول الكأس . ولاغرو إن الطبيعة المصطنعة المتكلفة تؤثر تأثيراً خفياً عظيماً فى الطبيعة الأصلية . كذلك الفنان أو الكاتب ، فانه يخلق لنفسه حياة جديدة كلما تفتق عن ذهنه أو خياله عمل فنى وكأنه يبعث بقدر ما يخلق .

وصفوة القول أن كامو يرى فى الجموح وفى سعى الانسان لتجديد نفسه وإن أخفق السعى أحياناً احتجاجاً على مصيره المحدود وهياجاً على أفقه الضيق ومآله المحتوم ألا وهو الفناء والعفاء .

الآن وقد ظهرت فلسفة ألبير كامو جلية للعيان ، يحق لنا أن نسأله عن حظ الانسان على الأرض إذا ما وضح له عبث الحياة ولم يعتصم بحبل الايمان الصادق سيما بعد أن حرمه كامو فسحة الأمل الذى يحدو إلى المثابرة والجلد ولم يدع له سبيلا للنجاة إلا الانتحار أى الفناء . من المشاهد أن من يعمد إلى الانتحار ممن يوقن عن حس ووعى بسخف الحياة وعبث أهدافها نفر قليل جدا لا يؤبه بعددهم ، أفلا يوجد إذاً لدى الانسان المنطقى سبب آخر سوى غريزة البقاء يحفزه على مواصلة السير فى دروب الحياة الشائكة الوعرة ؟ ألا يتخلل يأس الانسان من حظه بصيص من الأمل ؟ ألا تتسلل بارقة أمل خلال جحافل الظلام الدامس ؟ ألا يرتئى كامو سوى حلين : الانتحار أو الرضا بعيش فاتر جامد ممل ممض لا طعم له ولا لذة تجعله سائغاً ؟ يسوق لنا كامو فى هذا المضمار قصة أسطورة يونانية قديمة خلعها عنواناً على بحثه يرى فيها الرد الشافى .

زعم الإغريق فى أساطيرهم الغابرة أن سيزيف Sisyphe ابن أيول Eole وملك كورنثيا كان رجلا عاتياً جباراً قاسياً مولعاً بالسلب والنهب ، فغضبت لحاله الآلهة وحكمت عليه بعد مماته بغية التكفير عن أوزاره بأن يظل مدى الأبد فى جهنم يدحرج صخرة ثقيلة حتى يثبتها فوق قمة جبل ، وكان سيزيف كلما بلغ بحمله ذروة الجبل الشاهق يرى الصخرة تهوى من عل وتثوى فى الحضيض ، فيدلف وراءها إلى أسفل ويعيد الكرة حتى يصل بها إلى القمة من جديد فتسقط الصخرة مرة أخرى ، وهكذا دواليك لا يدرك غايته أبداً ، وهو رغم ذلك يعيد سيرته الأولى المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة دون

أن يعتريه وهن أو فتور . وقد رمت الآلهة بهذا العقاب الغريب إلى الامعان فى تعذيبه وإيلامه ظنًّا منها أن ليس ثمة جزاء أشد قسوة وردعاً من أداء عمل لا طائل تحته ولا جدوى منه ولا رجاء فيه . لذلك غدا سيزيف مضرب الأمثال عند ذكر عمل سخيف لا يشف إلا عن العبث . ومن أجل ذلك انتشل كامو شخصية سيزيف من جهنم الذى يهيم فى لظاها وعرضه علينا حتى يكون ماثلا أمامنا نتعزى بمصيره ونتجلد بصبره .

وقد تبادرت إلى كامو فكرة رائعة عند تحليله معنى هذه الأسطورة وعنّ له خاطر رائق إذ يقول إن ما يعنى ببحثه ويثير اهتمامه هو تلك الفترة التى تمر على سيزيف وهو عائد أدراجه من عل إلى أسفل ليحمل الصخرة مرة أخرى وهو عالم أنها مصدر شقائه وعذابه . خلال هذه الفترة يجد المسكين مجالا للتنفس ولإنعام النظر فى حظه العاثر ، وخلالها يثوب إليه وعيه ويفيق من ذهوله . فى هذه اللحظة بالذات عندما يغادر القمة ويهم بالنزول يظهر لنا جليا أن سيزيف قهر حظه وتغلب عليه وبات سيده وغدا أشد صلابة من جلمود صخره الذى يرزح تحت حمله كما ينوء المرء فى الحياة تحت عبء عمل متكرر لا مناص منه ، يبدو سيزيف فى هذه الآونة فاقد الأمل لا يستمسك بأهداب منًى كاذبة ، وإنما يعلم علم اليقين أن جهده ضائع ، ويدرك تمام الادراك أن مايبذله ذاهب سدى ، ولكنه رغم ذلك لا يفتأ يعكف على أداء سخرته وهو يصارع حظه إلى أن يصرعه ، وهو يصرع حظه لأنه يحتقره ويزدريه .

وإذا نحن أسلسنا القياد لكامو ساقنا فى ركابه إلى أبعد من هذا الحد فى عالم التصور والخيال ، فهو يردف زاعماً أن سيزيف قد ينتهى به الطواف إلى جنى لذة من شقائه وتحويل عصارة عرقه إلى شئ يشبه المناعة لشعوره أنه قابض على زمام حظه مسخر صخرته العاتية ملكا له ومتاعاً .

ويختم كامو كتابه قائلا : « إن الكفاح لبلوغ الذرى يكفى فى حد ذاته لملء قلب الانسان وإفعامه ، ومن ثم يكون حقيقاً بنا أن نتخيل سيزيف سعيداً » . وهو يرمى بهذا إلى أن الكفاح فى ذاته خير من النتيجة ، والسعى نفسه أكرم وألذ من الاكتفاء .

ويخيل إلىّ أن الكاتب أغفل أمراً هامًّا أو على الأحرى شيد نظريته على افتراض لا يسيغه المنطق السليم ، إذ أنه جابهنا دون جدال أو نقاش

بفرض لم يكلف نفسه مؤونة تفسيره أو دعمه ؛ فهو يفاجئنا بقوله : إن سيزيف يثوب إليه وعيه فى اللحظة التى ينأى فيها عن القمة ، وأنه يشرع فى دحرجة صخرته من جديد وهو مدرك عبث عمله وسخف جهده . ويبدو لى أنه لو صح هذا القول خلال المائة مرة أو الألف مرة الأولى فهو لا يصح إلى النهاية ، وأن سيزيف وهو يدفع الصخرة المرة أثر المرة ولا يلمح أمامه إلا الحجر ، سوف يجمد حسه ويخبو وعيه وتتحجر نفسه فيصير آلة تأتى بحركات معينة فى فترات متقطعة دون وعى أو حس . فاذا صح هذا الاعتراض انهار صرح منطق كامو من أساسه .

كما أن اكتفاءه بلذة الكفاح فى ذاته قول مشكوك فيه أيضاً إذ يفوق طاقة البشر . فاذا أيقن الانسان العادى أنه لن يبلغ هدفاً أو بعضاً من الأهداف التى يذوق الأمرّين فى سبيل بلوغها ، وإذا حرمناه أيضاً حافز الأمل ، ضاق ذرعا بالعمل ورغب عنه واستحوذ عليه اليأس والقنوط . نعم ! يعلم الانسان أن كل شىء مآله العدم والفناء ، وأنه طيف عابر على وجه البسيطة ، ولكن ألا يحق له أن يذكر الحديث الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » .

وما فائدة الحنق على سخف الحياة والتبرم بعبثها ؟ وما الجدوى من الهياج على حقيقتها المريرة وواقعها الأليم ؟ وأنّى للعقل البشرى أن يلج أسرارها أو يحل ألغازها ؟ أليس الأفضل أن يكف الانسان عن سبر غور نفسه فى كل لحظة ، وأن يحجم عن تحليل نوازعه ويقلع عن تمحيص خواطره وتشريح روحه ؟ ألا يعد الهرب من الواقع نصراً عليه فى بعض الأحوال ؟ ولئن شق علينا فهم كنه الحياة ومعناها ألا يحق لنا أن نهرع إلى مُثل عليا نسعى إلى إدراكها أو نلقى أنفسنا بين أحضان فن رفيع كالشعر أو الموسيقى أو التصوير عساه يسبح بنا فى أعالٍ تنسينا الهموم والكروب ؟ أليس الأنفع أن نغض الطرف فلا نبلبل عقولنا بصوغ سؤال عقيم يتكفل الموت وحده بالاجابة عنه ؟ أرى معنى الحياة مرتبطاً بمعنى الموت . فالموت إذ يطوى الحياة يكشف معناها ، ومن ظلماته ينبلج نور الحقيقة ، كما ينبثق من الليل البهيم الفجر المضىء المشرق .

فؤاد وصفى أبو الذهب

من هنا وهناك

فى جبـــال سويسرا

لم تسر بنا أقدارنا هونا ، وقـد تتريث بنا فى مطلع الفجر حيناً فتسمعنا نشيد الحياة الجميل . ثم يجدُّ الجد فتستحثنا فى راحة الليل وفى هجـير الحرور ، وتنذر الذين يصبرون أو يتمهلون بالتخلف والحرمان ، وتبشر الجادين والمتوثبين ، بما نهضوا له من ثمر ، وقد نشق على نفوسنا فتشكو :

مُعَاوِى إنَّـنَـا بَشَرٌ فأسْجِحْ
فلَسْنا بالجبالِ وَلاَ الحدِيدَا

وليس أظلم لنفوسنا من أن تدعوها الحياة ، فيكبحها واجب أو يثقلها ثقل من أثقال الفكر ؛ فان حياتنا جزء لا يتجزأ من دورة الفلك ، وهى تشتهى ألا تجاوب دعاء الكون . . . فمن عاش متخفياً عن الشمس التى بزغت لبهجته وحياته ، ومن سهر متجافياً عن النوم الذى أقبل به الليل لنضوجه وصفائه ، ومن تصامّت أذناه عن سمع الربيع ، ومن غضّ الطرف عما شاع فى آفاق هذا الكون من جمال، عاش ظالماً لنفسه ، ولم يُغْن شيئاً .

وربما كانت سبل العيش فى كل مكان ميزاناً لما آمن به الناس من دين وخير ، وترى الذين تدبروا خلق السموات والأرض ، قد آنسوا جمالا وإلـهاً ، وترى الذين انطووا على أنفسهم قد آنسوا فى حياة الانسان أغواراً وكنوزاً من الجمال وبحثوا فى أنفسهم عما أولتهم الطبيعة من جمال وكمال ، وعسى أن يكون مثل الله الأعلى أن ينظر الناس فى خلق أنفسهم وفى خلق السموات والأرض جميعاً حتى يبلغوا ما آتاهم الله من نعيم الحيـاة ، ولا يلقوا سدًّا بين أنفسهم وبين ما فى قلب الحياة من دين، وجمال وخير .

ولم يجز نفسى جزاءً أطيبُ من أن تخرج حيناً من كل قيد ، فلا يكون لعمل ولا لأمل عليها من سبيل ، وأن تستلقى فى رأس جبل فى أحضان الطبيعة والحياة ، وأن تجد بين ذراعى الطبيعة والحياة رفقاً كرفق الأمومة ، وسلاماً يخالج أعماق ضميرى ، وأن يشتمل على صفاء لا يثيره صوت ولا فكر ، وأن أنسى الزمان والمكان من حولى .

وسماء وادى انجادين فى سويسرا إذا صحّ النهار زرقاء ناعمة رفيقه ، ليس فى صفحتها أثر لشئ فى ناحية من النواحى ، سوى قرص الشمس الوضاء الذى ينفذ ببياضه الساطع فى رءوس الصخر ، وفى مروج المراعى الخضر ، ويجعل ظلال شجر الغابات بين ظل سهل ، وبياض يسير ، ولا يذهب بآثار الفجر مرة واحدة بل يبقى حتى ضحى النهار على ندى الصبح وصقيع الليل ، وتنظر فى عين الشمس فلا يرد شعاعها عينيك ، وكأنها بزغت لكل كائن فرد ، وجاءت للكون جميعاً .

وسلام الطبيعة فى ضحى النهار كسلام الفتاة الجميلة السعيدة فى مطلع ربيعها ، والتى لا يتعجلها حرمان وحاجة ، فهى نؤوم الضحى ، وهى تبدل ثياب الليل هوناً ، وهى تغنى فان نظرت إليها عين بشّت لها وابتسمت .

سرت إليها بحبى وعصاى لا أسمع إلا خطوى ويقظة ما يطنّ فيها من الهوام ، وما يتجاوب فيها من الطير وما يجرى فيها من السيل ، واستسلمت من وادٍ ذى ذرع إلى صخور وادٍ غير ذى ذرع ، ومضيت حتى صرت ظلاً كظل ما حولى من الصخر ، وحياة ساكنة كحياة ما حولى من الشجر ، ووليت وجهى مصعداً إلى رءوس صخر محترق كلون التراب . . . وبينا أنظر كل شئ حولى قد ملأت حياتى بنسيم وضياء وصمت ووقفت متهادناً قد مددت عصاى وراء عنقى ، وأسندت لطرفيها يدى كأننى راع ، وثبت من باطن الصخر النائى العالى ظباء كلون البقر كانت آمنة ناعمة بضحى الشمس ، فاستوحشت من ظل إنسان . . . ووقفت كبراها تنظر ما أدبر وتنتظر أن يعجل صغارها فتتوارى فى ثنايا الصخر ، ثم ولت فراراً بعدهن . . . لم أصب بعدهن متاعاً أجمل من أن أمضى نأرق إلى حيث اختارت الظباء فهن أعلم دليل بأجمل موضع فى الجبل ، فسكنت حيث سكنت ساعة من نهار انطوت على نعيم كنعيم الخلود .

ولم أجد للسعادة سبيلاً سوى الحياة ؛ فما يغل الحياة من عقم وركود وذل وإعياء وضيم مانع للسعادة والحياة جميعاً . وما يرسل ينابيع الحياة فى النفس كالشباب والحب . وفى النبت كالربيع والزهر ، وفى الصخر كالنسيم والغيث ، مرسلٌ للسعادة والحياة جميعاً ، وحيثما نبض قلبٌ بالحياة ، تفجرت من حوله آيات بينات من متاع الحياة والجمال . . . ويوم نمشى فى الأرض أحياءً سعداءَ طلقاءَ ، تتزود أرواحنا بهمة النحلة التى ترتشف من

أعطاف الزهور، شهى الحياة . . . فمن عسى أن تجد نفس فى مواطن الظباء . . .

استقبلت هذه الصخور صخورٌ مثلها من جانب الطود الأيمن بنى فى عنقها منزل أبيض عالٍ لن أبرح هذا الجبل حتى أسمو إليه . . . وما أدرى أتهجرنى ظباؤه . . . بينى وبين هذا المنزل العالى دارٌ لفنان وقفت فيها وسط النهار حتى رفع ما بينى وبين الفنان من غربة . . . ثم كاشفته أننى جئت هذا الجبل لأعلم ما يتعلمه بنات الأغنياء من السويسريين والأجانب فى معهد الجبل ، فصمت حيناً كدأبهم إذا أجابوا ، ثم نفذ خلال هذا الصمت صوت امرأته العجوز كالوتر الدقيق الرفيق تغنى أغنية ألمانية :

صَبِيَّتى ياصَبِيَّة

أنتِ غَايَةٌ فى الجمَالِ

ثم قالت :

ويْحى عليك وويحى منك يا رجُلُ

فابتسمت وقلت لها : « لا عليك ! فقد كبرت ثم شببتُ عن الهوى . »

فأشارت بيدها إلى نفسها وقالت : « أنا جميلة . » ثم إلى رجلها وقالت : « هو أجمل منى . » ، ثم إلىّ وقالت : « وأنت أحسننا جميعاً . »

ثم انطلقت إلى المنزل الأبيض العالى ، فلقينى مديره بأدبٍ أصيل لا تكلف فيه ، ومضى بين إلى قاعة عريضة مدورة قامت سقفها على عمد بيض ودارت نوافذها فى جبهة البيت ففاضت ببياض النهار الناصع ، وأشرفت على مروج خضر ، وأسلمت البصر إلى جبال التيرول القائمة بين النمسا وسويسرا.

فى هذه القاعة يسمر الفتيات ويغنين ويرقصن ويعزفن ويمثان ، وعن يمين هذه القاعة غرفٌ تنامُ فيها الفتيات ، وعن يسارها حجراتٌ يتعلمن فيها ما يعلم هذا المعهدُ من معرفة، فينمى فى الفتاة ملكة المعرفة وملكات الفنون والرياضة ، وتعيش كأنها فى أسرة تأكل مما يأكل معلموها وتصطفيهم ويصطفونها وتنمو بينهم مودة وثقة ، وتتعود الجهر بما تجدُ ، ولا تدبر فكراً فى الخفاء ، وتتعلم فى هذا المعهد الأعزل ألا تؤمن بالله المال وحده وتؤمن بالصدق والوفاء والبساطة ، وتشرف على النظام والطعام وترتب فراشها مرة كل أسبوع .

كلما بيّنَ لى مدير هذا المعهد جانباً من معهده راعتنى نظافته ، وما ملأ حجراته من سلام وحب ، وأعلمنى أن ذلك المعهد قد بناه أهل القرى المتناثرة فى أحضان الوادى ، وجاءته فتيات من كل مكان لينشأن فى ذلك المحيط الجميل

الذى أحاطت به الطبيعة وحدها من كل مكان . . . وبينا ألقى بصرى معجباً بما أرى أقبلت فتاة بثياب الرياضة القصيرة وكانت بضّة غضيض الطرف تفيض منها الحياة ، وابتسمت تحي مديرها وتحيينى . . . ثم سرت وراء مديرها أتنقل من أثر إلى أثر حتى أقبل ، ففتح باباً مغلقاً ، فاذا نحن بين يدى هذه الفتاة الجميلة ، فمددت إليها يمينى ثم خاطبتها بالفرنسية،فتلوت عنى بدلال جميل ، وهزت يمينها الرطبة تردُّ عن نفسها حرجها ألا تفهم لغتى . فأسعفتها بما أعرف من لغتها وقلت لها أأنت هنا سعيدة ؟ فشرعت فى عينى نظراً ليس فيه سوى قلب إنسانى وقالت نعم،نعم. وبادلتها ما انطوت عليه نفسى من إنسانية وخير وقلت لها قولاجميلا، ثم مددت لها يمينى أستودعها فضغطت على يمينى حتى سرت نفسها فى نفسى .

ويسرى النعيم والسعادة بين الناس بالحياة والحب مثلما يسرى بينهم الشقاء والعلل بالبغضاء والمرض فكيف يولد الحب وترعى حرمات الحياة بين الناس :

« مَنْ أبوهُ ومنْ أمهُ »

« ذلك شأنٌ غير يسير ، ولكنى أنبؤك بنبئه : يوم ولدت أفروديت حفلت الآلهة حفلا ، وكان من بينهم عروة ابن الحكمة ، فلما حضر العشاء قدمت امرأة فقيرة تسأل المحتفلين إحساناً لأن المائدة كانت ذات خير عميم ، ثم جلست لدى الباب ، فثمل عروة بنكتار (لأن النبيذ لم يكن معروفاً يومئذ) ، وخرج إلى حديقة زيوس فأثقله السكر فنام . فسولت للفقر نفسها وحاجتها أن تنسل غلاماً من عروة ، فضاجعته وحملت منه الحب ، فشبَّ الحب مولى وتابعاً لأفروديت لأنه ولد يوم عيد مولدها ، وأوتى قلباً توّاقاً إلى الجمال ، وكانت أفروديت ذات جمال . »

أراد أفلاطون أن يبين أن الانسان فقير إلى الجمال والحكمة ، وأنه لا يبلغهما إلا بالحب الذى يقف عروة بيننا وبين ما فى أنفسنا ، وبيننا وبين ما فى العالم من جمال ، فجاء بالحب من أمٍّ سائلة فقيرة . ولو نظر إلى ما يقوم بين الناس من سعادة وعدل لرأى للحب أمًّا عزيزة غنية وهى الانسانية. فان نمى الناس فلا تنمو ذئابهم وحملوا فى قلوبهم الايمان بالانسانية وحرمات الحياة تنمى من حولهم العدل والاحسان . وجاء العدل والاحسان بالحب والمؤاساة .

علي حافظ

شهرية المسرح

الموسم المسرحى القـــادم

ما كادت الحرب تضع أوزارها حتى أسرعت إدارة الأوبرا الملكية إلى استدعاء الفرق الأجنبية للتمثيل على مسرحها وتقديم ما حرمه الجمهور المصرى المثقف من فن رفيع أثناء سنوات الحرب الصاخبة ، فقدمت لنا فى موسم ١٩٤٦ فرقة جان هرفيه برنامجاً هو مزيج من المسرحيات الجدية والمسرحيات الهزلية منها القديم ومنها المستحدث . ولكن هذه الفرقة بالرغم من برنامجها المتنوع لم تروظمأ جمهورنا إلى مشاهدة آيات المسرح الفرنسى ولا إلى الاستمتاع بالتمثيل الرفيع ؛ إذ لم يكن فى الفرقة إلا ممثلان اثنان يجيدان التمثيل . وجاء الموسم الماضى حافلاً يحقق رغبات جمهورنا . فاختيار المسرحيات كان موفقاً ؛ وذلك بفضل من أشرفوا على اختيار هذه المسرحيات. غير أن الاتقان لم يكن حليف الأداء دائما . لقد أجاد أفرادها فى بعض المسرحيات مثل « موعد سنليس » و « حمار بوريدان » و « سأحيا حياة حب عظيم » وأخطأتهم الاجادة فى « لن تقع حرب طروادة » و « تارتيف » و « النفور » . ومع ذلك كان مستوى الفرقة من حيث الأداء والتمثيل والاخراج أرفع شأناً من الفرقة السابقة التى لم تعطنا صورة صادقة عن نهضة المسرح الفرنسى وتقدمه فى السنوات الأخيرة .

وكانت تعمل أيضاً فى الموسم الماضى فرقة إيطالية للغناء المسرحى أى الأوبرا . وقد تكلم الأستاذ حسن محمود باسهاب عن هذا الموسم الغنائى والتمثيلى الذى لم يمثل الفن الموسيقى الايطالى الحديث فى خير مظهره . لقد كان البرنامج حافلا بأسماء كبيرة مثل فردى وروسينى ودونتزيتى ، غير أنه لم يختر لهؤلاء الموسيقيين خير مواهبهم ، بل روعى فى اختيار الروايات ذوق الجمهور . والويل للفن إذا راعى ذوق الجمهور ! ولم يكن اختيار العناصر فى الفرقة الغنائية موفقاً كل التوفيق ، فثمة تفاوت بين أعضائها فى الأداء .

ولم تكن العناصر الخيرة تزيد على ثلاثة أو أربعة .

ومع ذلك صادف الموسم التمثيلى والغنائى فى العام الماضى نجاحاً كبيراً بفضل ما بذله أعضاء هاتين الفرقتين من مجهود فى أدائهم و إخراجهم وتمثيلهم . ونسينا ما وقعتا فيه من هنات بفضل أفرادهما مثل جان مارشا وميشيل ألفا وجاك فرنسوا من الفرقة الفرنسية ، وجينو بيكى وياليرا فيتالى مارينى وأنتونيو أنالورو من الفرقة الايطالية .

وقد يكون هذا النجاح مما شجع إدارة مسرح الأوبرا الملكية على إعداد برنامج حافل للموسم القادم ، برنامج طريف متنوع، روعى فى اختياره لا ذوق الجمهور فحسب و إنما روعى كذلك تمثيل الفن المسرحى فى جميع نواحيه : فمن رقص إلى تمثيل إلى غناء ، وعهد فى إخراجه إلى فرق ذات شأن فى بلادها إن لم يكن فى العالم بأسره.

يبدأ الموسم بفرقة مرقص الشانزيليزيه ، وهى فرقة مكونة من شبان فرنسيين يعملون تحت إشراف رولان بيتيه ، وهو شاب لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره . وقد حازت الفرقة نجاحاً كبيراً فى باريس حيث بدأت عملها ثم فى لندن حيث ظفروا بفوز عظيم . ويقال إن رولان بيتيه قد أحسن اختيار فرقته وتنسيق برنامجها . فاستعراضات هذه الفرقة ما هى إلا مسرحيات استبدلت بالحوار الموسيقى والايماءات . فكل استعراض له قصته جدية كانت أو هزلية ، وقد تكون رمزية . فهذا الشاب فى استعراض « الغداء على العشب » ما هو إلا رمز لروح المغامرة، وقد تكون خرافية مثل « غراميات جوبيتر » أو « الغابة » . ومن مميزات هذه الفرقة أنها تقدم رقصاتها على ألغام أشهر الموسيقيين الخالدين مثل موزار أوتشايكوفسكى أو باخ أو الموسيقيين المعاصرين مثل جاك إيبير وهنرى سوجيه ، وأنها تعتمد فى استعراضاتها على نصوص شعراء مثل كوكتو و بريفير . وستظل هذه الفرقة تعمل على مسرح الأوبرا الملكية من ٢٥ ديسمبر إلى ٥ يناير .

وفى ١٠ يناير سنة ١٩٤٨ تبدأ فرقة الأوبرا الايطالية نشاطها فى القاهرة . وقد اطلعت على البرنامج وأسماء المغنيين ، فلم أر اختلافاً كبيراً عن الموسم الماضى . فالملحنون لم يتغيروا؛ فثمة روايات من فردى وبوتشينى

وجيورداني ودونيتزيتي . ولم أعثر على أسماء جديدة إلا اسم ماسنيه . وكنا نتمنى على المشرفين على إعداد برامج هذا الموسم أن يراعوا فيها التنويع؛ لأن مهمتهم هي أن يطلعوا الجمهور المصري على ألوان مختلفة من الفن الغنائي المسرحي . فكان من الواجب عليهم أن يختاروا أسماء أخرى من الألمانيين أو الفرنسيين أو أن يتجنبوا الأسماء التي احتوتها برامج السنة الماضية ما تيسر لهم ذلك . أما عن الممثلين فالجمهور سيعلم بسرور أن جينو بيكي سيعود إلى الظهور في القاهرة في الروايات الآتية : *Thaïs* و *Otello* و *Un Ballo in Maschera* . ولست أدرى لما استدعيت ماريا كانيليا مع أن نجاحها الحالي عند الجمهور لا يرتكز إلا على ماضيها المجيد .

وبعد أن ينتهي الموسم الايطالي يبتدئ الموسم الفرنسي المسرحي . وقد أسدت إدارة الأوبرا الملكية يدا لا تنسى إلى الجمهور المصري باستدعاء لويس جوفيه وفرقته لاحياء هذا الموسم ؛ فهذه خدمة جليلة لعشاق الفن الخالص الذين لم تتح لهم الظروف أن يذهبوا إلى باريس لمشاهدة لويس جوفيه يعمل على مسرح الأتينيه .

ويعد هذا المسرح في فرنسا في المرتبة الأولى لما يقدم فيه من مسرحيات هي آيات أدبية وفنية في وقت واحد . ومن المعروف أن لويس جوفيه هو الممثل الوحيد الذي كان يختصه جيرودو بمسرحياته ؛ فكان الاثنان يتعاونان كل في ميدانه : فجان جيرودو يكتب ولويس جوفيه يحقق . وهناك مسرحيات أخرى اختص بها هذا الممثل الفذ مثل « نوك أو انتصار الطب » لجول رومان ؛ فجوفيه هو الذي خلق هذه الرواية . وأكبر الظن أن هذه المسرحية لم تمثل في باريس إلا على مسرحه .

ومهمة جوفيه لا تقتصر على التمثيل وحده بل هي في الحقيقة إيجاد نشاط فكري وأدبي بوساطة المسرح ؛ وبذلك قد أوجد هو وأعوانه حركة تطور واسعة في ميدان الفن المسرحي .

والجمهور المصري قد شاهد هذا الممثل في أكثر من شريط سينمائي، فقد أتاحت لنا السينما أن نرى فنه كممثل ، وحسبنا أن نذكر فيلمه الأخير «شبح» *Le Revenant* الذي عرض علينا في يونيو الماضي لنتبين مزايا هذا الفن السامي . وجوفيه يلتزم دائماً الهدوء والرزانة في أداء أدواره ، ولا يلجأ مطلقاً إلى المغالاة ، وهو قادر على التعبير

عن أعنف الشعور بإيماءة بسيطة أو بنظرة من عينيه الحيتين .

ويجمع جوفيه حوله فرقة من الفنانين يساعدونه على تحقيق مهمته وهو الارتقاء بالفن إلى أعلى درجات السمو . فهو يعهد إلى كريستيان بيرار بوضع تصميم ملابس المثلين وبتشييد المناظر اللازمة لمسرحياته — وكريستيان بيرار فى فرنسا فنان ذائع الصيت ، كبير الشأن ، عليّ القدر — وإلى موسيقيين معاصرين ذوى غناء مثل أندريه سوجيه وفيتوريو ريتّى لوضع ألحان لمسرحياته .

واختيار المسرحيات للموسم التمثيلى الفرنسى اختيار موفق كل التوفيق . سنشهد مسرحيتين لجيرودو ، هما «أوندين» و «لابولون دى مارساك» ، واثنتين لموليير هما « مدرسة الزوجات» و «دون جوان» ، ومسرحية للافونتين هى « الكأس المسحورة » وأخرى لجول رومان هى « نوك أو انتصار الطب » الخ .

وهذا البرنامج لا يشمل إلا مسرحيات لها مكانتها فى الأدب الفرنسى الكلاسيكى أو المعاصر ، فكل منا يعرف موليير ومسرحه الخالد ، وكل منا إن لم يكن شهد مسرحيات جيرودو فقد قرأها ، وكل منا يعرف جول رومان قصصيا وكاتبا مسرحيا .

ومجمل القول أن الموسم التمثيلى القادم يشهد أن المشرفين على إعداده لا يألون جهداً لكى يجمعوا بين تسلية الجمهور وتثقيفه فى وقت واحد ، فهم قد جمعوا فى برنامجهم بين الرقص والتمثيل الغنائى والتمثيل المسرحى . وهذه فنون ثلاثة لا نستمتع بها فى مصر إلا بحضور الفرق الأجنبية . ونحن نحمد لادارة الأوبرا هذا المجهود الذى يرمى خاصة إلى إنعاش الحياة الفكرية والفنية فى مصر ، والذى يجعلنا على اتصال دائم بالحياة الفكرية والفنية فى الغرب . فالمسرح يساعد أكثر من الكتب على تنمية هذه الاتصالات العقلية لأنه قبل كل شئ أداة لهو وتسلية .

رشدى عادل

شهرية السينما

شارلى تشـــابلن وطريقته

كتب مستر روبرت لويس بحثاً طريفاً عن شارلى تشابلن رأينـا أنه يحسن أن يطلع عليه القراء . قال : قص علىّ شارلى تشـابلن ذات مرة قصة عن جده الذى كان إسكافيـا . فقـد كان شارلى يرى الشيخ عنـدما يشعر أحياناً بضيق نفسى ، قد اتخـذ مكانه أمام منضدة عمله ، ثم أمسك بسكين ويقطعة من الجلد ، ويدأ فى صنع حذاء ؛ فلا يزال يعمل نهاره ، وليله إن وجد حاجة لذلك ، إلى أن يتم الحذاء كله ، ثم يقف رافعاً هـذا الحـذاء الذى هو من صنعـه ، وقد عادت إلى نفسه طمأنينتها ، وكأنه يقول : « لقد صنعت هذا ! هذا الحذاء ولا يمكن أحداً أن يأخـذ منى هذا العمل الذى أنشأته فأنا الآن راض » .

فشارلى يشعر دائماً أن من المصادر الكبرى لعدم رضا النفس الانسانية ، أن الـكثير من الأعمـال ، حتى أعمال بعض رجال الفن ، قد تجزأت إلى أجزاء كثيرة مختلفـة ؛ فلا تقع التبعة فى العمل بأكمله على عاتق شخص واحد ، ولا يشعر أحـد بالرضا للوصول إلى نتيجة حسنة . ولقد عبر عن هذا الاحسـاس فى شريطـه « الأزمان الحديثة » . ولست أعلم كيف يعمـل لحل هذه المشكلة بالنسبة للعـالم ، ولـكنه وجد لها حلا بالنسبة لنفسه .

فشارلى عنـدما يعمل فى إخراج شريط سينمائى نراه يعمل حتى يتم الحذاء كله . ولقد نلت من عهد قريب شرف القيام بدور فى آخر شريط له ، واسمه « مسيو نردو » . وتمتعت فضلا عن ذلك بميزة أخرى ، هى أنى راقبت هـذا الشريط منذ ابتدأ ، وهو مجرد موضوع كتابى ، إلى أن مر بفترة أعـداد الأدوار ، ثم بفترة الاخراج . فاذا كنت أعبر عن تقدير كبير لهذا الرجل العظيم الذى لا ينتهى نبوغه ، فقـد اتهم بأنى متملق . فقد صار من العادات الحديثة فى عالم الملاهى اليوم أن أى مظهر للتأثر يعد تملقاً . ولـكنى أريد أن أقيد ملاحظاتى عن الطريقة التى يعمل بها

شارلى ، ولماذا أنا أعتقد أنه نابغة ، ولماذا أعتقد فوق ذلك أن الأشرطة التي يخرجها عظيمة.

لقد دون شارلى أولا موضوع قصة مسيو فردو بنفسه ؛ وظل يعمل مدى سنتين فى كتابة تفصيلاتها ؛ فكان يضع الحوار ويصحح ويضيف و يمحو . وفى آخر تلك الفترة أخذ يمرن بعض الممثلين على الأدوار ، وهو فى الوقت نفسه يحاول تحسين القصة . ثم أخذ يضع رسوماً للاثنين وخمسين منظراً من مناظر القصة ، مما أدهش الصناع الذين كانوا يعملون معه . وفى الوقت نفسه كان يكتب الموسيقى المناسبة للشريط ، وكان كذلك يختار الأدوار والملابس ، ويعد برامج العمل ويدير القسم الادارى .

وفى داخل الاستوديو نرى شارلى يبدى نشاطاً لا مثيل له ، وتحمساً لا يلبث أن يعدى الحاضرين . فهو أول من يحضر فى الصباح ، مرتديا ملابس دوره ،وواضعاً الأصباغ الملائمة. وبينما هو فى انتظار حضور الآخرين ، نراه يصعد إلى المساند الخشبية ،ويشير برفع ما لا ضرورة له ، إلى أن يصل إلى ما يبتغى .فاذا جاء المثلون أدار المنظر ، ويحل مساعده فى مكانه ، على حين يذهب الممثل المدير إلى الآلة المصورة ليرى منها المنظر . ويقبل المصورون دائماً مقترحاته فى شأن الاضاءة والزوايا وغيرها،لأنها تنطوى دائماً على خيال غزير وحسن تصرف .

وفى أول يوم كنا نمثل فيه رفضت أن أشارك شارلى فى غدائه؛ فهو لا يأكل فى الظهر إلا واحدة من الطماطم.أما أنا فعبرت الشارع وتناولت غداء يناسب معدتى التى تقبل على الأكل كعهد الناس . ثم عدت بعد عشرين دقيقة فرأيت شارلى قد هضم الطماطم الذى أكله، وجلس على البيانو يؤلف موسيقى ريفية لمنظر صغير،نراه فيه يقطع الورود من أشجارها . فجلست، وظل هو يعزف من الألحان التى تخصص لكل آلة فى الأوركسترا بقدر ما يستطيع على البيانو ؛ ثم كان يغنى أو يشير إلى العازفين لآلات النفخ التى لا يستطيع عزف أدوارها بما يفعلون . ثم ينتقل إلى التقاط المناظر بعد الظهر . ولكنه قبل ذلك يرى ما صنع من أشرطة فى اليوم السابق ويفحصها بعناية ، وربما يعيد المنظر لكى يكون الشريط خيراً مما كان . وإذا كان هنالك بعض الوقت لملء الآلة المصورة بالأشرطة ، وهذا ما لا يفعله شارلى ، فانه يأخذ فى تسلية الحضور ببعض الرقصات أو التقليدات ، كأن يقلد

شرلوك هولمز تقليداً فكاهيا .

وتشابلن كمدير عظيم جدا . ولقد تحدث إلىّ عن تمثيل الدور الذى أقوم به ، وهو دور موريس الطبيب البيطرى للقرية ، وصديق مسيو فردو ، فلم يفسر لى الدور بأكثر من قوله : « هو نوع من الناس الثقلاء الذين إذا ماتكلموا ظنوا أنهم يحاضرون. » ولم أسمع شارلى يقول مرة : « يجب أن تقول العبارة هكذا . » أو « قلها بأسرع من ذلك أو بأقل سرعة. » أو غير ذلك من التفاهات الخارجية التى يهتم بها الممثلون عادة .

وليس معنى ذلك أن طريقته فى الادارة تسير على وتيرة واحدة ؛ فقد رأيته مع أحد الهواة يريه كل حركة ، وكل نبرة فى الصوت ، لأنه اختار هذا الشخص لا لمقدرته التمثيلية ، وإنما لصفة خاصة أرادها شارلى ورآها فيه . فى تلك اللحظة يعلم أن أسرع طريقة للوصول إلى نتيجة فى تلك الحالة هى التقليد . وعندما رأيته يوجه طفلا عمره خمس سنوات ، تبينت لماذا كان شريطه المسمى « الطفل » عجيباً . فهو يجعل من العمل لعبة للطفل ، فيطل برأسه فجأة من وراء الآلة المصورة على الطفل ، ويأتى أنواعاً من الحركات لكى يظل الطفل طبيعيا .

أجل ! إن شارلى يصنع الحذاء بأكمله ، فيكون المجموع وحدة فنية ، لأن جميع الأجزاء تأتى من مصدر واحد ؛ وكل قرار لم يكن نتيجة تأثير وقتى ، بل نتيجة لعلاقته بالفكرة الأساسية . ولقد رأيت شارلى ذات يوم يمر وهو يرفع أعقاب السجائر لكى يكون المسرح نظيفاً ، ففكرت ولماذا لا يفعل؟ فليس شئ صغيراً لديه ، إذ لا شئ كبير عليه .

شريط مسيو فردو

ظهر لشارلى تشابلن شريط حديث لم يجد من الاهتمام الكبير ما تجده أشرطته ، فكتب مستر هرمان ايزاكس ينتقده قائلا :

لست أعلم ما هو وجه الخطأ فى شريط «مسيو فردو». لقد كان فى هذا الشريط الأخير الذى أخرجه شارلى تشابلن شجاعة وخيال ، وفيه عنصر الهزل على ألطف صورة ، وفيه مشاعر عميقة ، كما يشعر بها فنان مرهف الحس نحو آلام العالم ، وعليم بالطرق والوسائل التى يعرب بها عن عدم

رضاه . لقد وضع شارلى تشابلن كل قلبه، والكثير من رأس ماله ، فى شريط «مسيو فردو »، وظل يعمل فى كتابة القصة مدى ثلاث سنوات، ويضع أدق التفصيلات على الورق دون أن يترك شيئاً للمصادفة .

ولكن هذه المصادفة قد حدثت . وبالرغم مما فى قصة «مسيو فردو » من المواقف المتعة ، فانها أخفقت فى الوصول إلى النجاح الكامل ، فما هو السبب؟

إن بطل تشابلن كاتب فى مصرف تعطل عن العمل ، فأخذ يقتل بعض النساء العجائز اللاتى يتصل بهن ، وذلك لكى يستطيع الانفاق على زوجة مريضة وطفل . وهو على ما اتخذه من مهنة غير مشروعة يمثل كل فضائل الطبقات المتوسطة ؛ فلا هو يدخن ولا يشرب الخمر ، ولا يستلذ برحلاته إلى فراش النساء الأخريات . وإذا كان يعيش فى عالم تحيا فيه الجرائم الكبرى وراء قناع من الفضائل الصغيرة ، فهو يظل عدة سنوات قبل أن تكتشف جرائمه . فاذا قبض عليه وقدم للمحاكمة ، دافع عن نفسه بما فى الأخلاق التى ترى زمن الحرب من متناقضات ، وهو يقول : « ألم يشجع العالم ذلك الذى يقتل بالجملة ؟ إننى إلى جانب الذين يقتلون بالجملة لا أعد إلا هاوياً . . . فقتل شخص واحد يجعل من القاتل مجرماً شريراً ، وقتل الملايين يجعل من القاتل بطلا فكأن العدد يحيطه بالقداسة . » ولاتتأثر المحكمة بهذا الدفاع ، ويساق مسيو فردو ليلقى حتفه .

فالمخرج الهزلى قد وصف قصته فى شريط هو سلسلة من الحركات التنوعية التى تدور حول فكرة القتل. فضحايا هذا القاتل للنساء كالقصة الأصلية من الحياة التى أوحت إليه موضوعه ، وهى قصة لندرو المجرم الفرنسى الذى كان يقتل النساء اللاتى يتصل بهن . هؤلاء الضحايا منتشرات فى سائر أنحاء فرنسا ، فهو يتنقل فى أسفاره حائراً بينهن لكى يجد الفرصة الملائمة ، مع زياراته القصيرة التى يقيم فيها بين أسفاره فى أحضان أسرته ، مما ينوع فى الحوادث الماثلة التى يحدث فيها القتل. ومن أبدع المواقف الهزلية فى هذا الشريط موقفه مع امرأة قوية — مارتا ريه — التى تأبى أن تقتل . وفى هذا الموقف راحة قليلة حين يجرى الاثنان أحدهما وراء الآخر، وكل يحاول بأسلوبه الفكه أن يغلب الآخر .

والواقع أن هذا الكاتب الطريد ،

الذى يتخذ عمل القتل وتوزيع الفوائد التى يجنيها ، محتفظاً فى ذلك بكل الوقار الذى كان يلازم عمله السابق، كان مادة كبيرة للضحك . وهذا ضرب من الافصاح بالاشارة ، التى يتفوق فيها تشابلن ، وهو يسدد ضرباته التى تضحك الجمهور بدقة الصانع الماهر ؛ وبذلك تجد النظارة يشعرون بمتعة التفرج عليه والتأثر بعمله .

على أنه بالرغم من كل ما فى فكرة القصة من ظرف و بريق ، وما فيها من مواقف هزلية ، لم يبلغ شريط «مسيو فردو» الدرجة المعروفة فى النجاح . وليس السبب فى ذلك ، كما يقول البعض، هو كثرة ما فيها من موضوع أخلاقى ، بل لعل السبب هو عدم الوصول بهذا الموضوع الأخلاقى إلى غايته . ولقد أبدى شارلى تشابلن المغزى الذى يرمى إليه فى عبارة قصيرة فى الفصول الأخيرة ، حين يتكلم فردو بالنيابة عن مؤلفه . ولكن هذا المغزى لا يبدو واضحاً فى رسم شخصية فردو نفسه ؛ فلم يتضح هل القاتل شخصية هزلية ، أو هو رجل صغير دفعته الأقدار فى تيار الأخلاق المعقد فى زمنه ، أو هو رجل حانق على المجتمع الذى لفظه ؛ فهذا الغموض لابد من جلائه . فاننا إذا كنا نضحك لفعال رجل هو عادة كريه ، كما هو شأن القاتل ، فيجب أن نعرف نوع الضحك الذى يثار فى نفوسنا : أهو ضحك أطلقت فيه النفس على شجيتها ، أم هو ضحك ممزوج بالدموع ، أم هو ضحك تشوبه السخرية ؟

مثل هذه المشكلة لم تعرض من قبل فى الأشرطة الكبيرة التى وضعها تشابلن فى الماضى ، وإن كانت تحتوى على الكثير من روح الاحتجاج، كما نرى فى هذا الشريط . ثم إن فكرة تشابلن عن الرجل الشرير كانت واضحة ، بحيث كانت احتجاجاته على عدم المساواة تبدو بارزة من شخصية الشرير نفسه ؛ فكنا نحس باخلاص ذلك المهرج فى سراويله الواسعة ، ونضحك من حركاته فى حين نؤمن بمشاعره ، ونمزج الدموع بضحكاتنا . أما مسيو فردو فلا نحس معه بشئ من الثبات ، بل هو على العكس يتركنا فى حيرة غير راضين .

مستقبل الاشتراكية

تهتم المجلات البارزة بالبحث فى الفرق بين الشيوعية والاشتراكية وبين الرأسمالية . ولقد نشرت مجلة « بارتيزان » الأمريكية الشهرية عدة بحوث فى مستقبل الاشتراكية لجماعة من الكتاب المعروفين . وكان البحث الأخير الذى اطلعنا عليه هو للكاتب الأمريكى آرثر شلزنجر وهو مدرس للتاريخ فى جامعة هارفرد ، ومؤلف كتاب صدر أخيراً ونال شهرة كبيرة عن عصر جاكسون . وهو يقول إن التجربة السوفييتية قد وضعت الجدل الذى قام منذ قرن حول الرأسمالية والاشتراكية فى ضوء جديد . فقبل الحرب العالمية الأولى كان الذين يحملون على الاشتراكية يتهمونها بعدم الكفاية ؛ والذين يحملون على الرأسمالية يتهمونها بمجافاتها لقواعد الأخلاق . ومعنى هذا أنهم يسلمون بأن الاشتراكية صالحة فى المبدأ ولكنها غير صالحة فى العمل . والرأسمالية صالحة فى العمل ولكنها غير صالحة فى المبدأ ، ونجد بعد الحرب الثانية إتجاهاً نحو عكس هذه الفكرة . فهنالك ميل إلى القول بعدم كفاية الرأسمالية، ولكنها تسوغ لأنها الخط الذى تقوم عليه الحرية والديمقراطية . وهنالك ميل للقول بأن الكفاية فى الادارة الاشتراكية تؤدى بالضرورة إلى طرد الحرية . فأى النظامين أدى إلى أن يصير العامل مجرد آلة ، وقيد من حياة الطبقة العاملة ، وقضى على الحرية الشخصية والسياسية ؟

فى رأى الكاتب أن الكثير من النقد الذى يوجه إلى الاشتراكية والرأسمالية ، هو نقائص ليست قائمة بسبب نظام خاص للملكية بل بسبب النظام الصناعى وما يتبع الحالة الصناعية مهما يكن نظام الملكية . فالصناعة والحكومة هما طرفا الشر الأساسيان . فالكبرياء والجشع ولذة القوة ولذة الإخضاع ، هى الأسباب الأساسية لمتاعب العالم .

فالتنظيم من شأنه أن يضعف المسئولية الأخلاقية للشخص ، وكلما اتسع التنظيم وزاد تعقداً صار أداة

يتخذها الانسان المحافظ على الأخلاق، ليشبع من رغبته الطبيعية فى أن يأتى أعمالا لا تتفق مع الأخلاق .

ولذلك إذا نظرنا من هذه الوجهة، وجدنا أن الدولة الاشتراكية هى أسوأ من الدولة الرأسمالية ، لأنها أكثر سيطرة على مجهودات الفرد ، كما أنها لا حد لها فى قوتها . فالتنظيم مما يفسد الأمور ، والتنظيم الاجماعى مما يفسدها إفساداً إجماعياً . وتسوّغ الدولة الاشتراكية وجودها بحجة أن حصر السلطة ضرورى للخير . ولكنها لم تحل قط هذه المسألة وهى أن تركز السلطة لفعل الخير ، قد يؤدى إلى استعمالها للضرر ؛ لاسيما إذا أزيلت جميع المصاعب فى استعمالها . ومما يؤخذ على الاشتراكية السوفييتية بنوع خاص أنها وليدة العنف ، والعنف يولد أحقادا واعتداءات ، تؤدى إلى قلب الأحقاد العادية فى الهيئة الاجتماعية ، إلى ان تتخذ أشكالا مشوهة قبيحة . ومن الصعب ترك عادة العنف لاسيما إذا ظهر نجاحها فى الماضى . فالنخبة التى قامت بالثورة تعتقد دائماً ، اعتقاداً قائماً على التجربة ، أن التخلص من المعارضة أسهل لديها باطلاق النار منه بالمجادلة والاقناع .

ويرى الكاتب أنه لا الشيوعية بما فيها من استعداد ، ولا الرأسمالية بما فيها من عدم ثبات ، ولا الفاشية بما تقتبسه من الاثنتين ، تستطيع أن تجد حلا موفقاً لمشكلة المعيشة فى العالم الصناعى الحديث وفى الدولة الحديثة . فهل هنالك احتمال آخر ؟ وهل هنالك مستقبل لاشتراكية حرة غير شيوعية؟ وإذا بعدنا عن مجال السياسة الحاضر وتياراته ، فان الجواب الذى يبدو لنا هو أنه ما من سبب يحول دون وجود نظام اشتراكى ديمقراطى .

فاذا أريد للاشتراكية أن تحافظ على الديمقراطية فيجب أن تنشأ خطوة فخطوة ، بطريقة لا تقضى على العادات والقانون والثقة المتبادلة ؛ وهى التى تقوم عليها الحقوق الفردية . أى يكون التحول تدريجياً ويكون برلمانيا ، وتحترم فيه الحريات المدنية وما يفرضه القانون. ومثل هذه الاشتراكية بالطريقة التى ذكرت تبدو خيالية فى أعين أولئك المحبين للمواقف المسرحية من أشياع عقيدة لنين . ولكن روى أن ستالين نفسه قد أنبأ هارولد لاسكى حديثاً بأنه يظن أن ذلك مستطاع .

وكان أنصار فكرة الانقلاب الثورى فيما مضى ، يعارضون الفكرة التدريجية ، زاعمين أن الطبقات الحاكمة الرأسمالية تؤثر الالتجاء للعنف على

النزول عن المزايا التى تتمتع بها . ولكن الماركسيين فى هذه المسألة ، كما فعلوا فى مسائل أخرى ، قد غالوا فى الشجاعة السياسية للرأسماليين وفى إرادتهم . والواقع أن التجربة البريطانية تبعث ضوءاً على هذا الموضوع .فالرأسماليون فى تلك الدولة لم يحاولوا الاشتباك فى نضال من أجل حقوقهم . ثم إنه من المستطاع أن تتقدم الولايات المتحدة تدريجياً فى طريق الاشتراكية ، بوضع قوانين على المثال الذى سلكه الرئيس روزفلت . فالاشتراكية إذن يمكن أن تسير سيراً عملياًبتطبيقها تطبيقاً تدريجياً ؛ على أن يكون هذا التقدم التدريجى مما يحفظ النظام والقانون ، ومما يضمن حداً خاصا من الحرية ، فتوجد نظم حقيقية لتحقيق الديمقراطية . ولا يقوم بهذا العمل فى أثناء التحول رجال الطبقة العاملة ، وإنما يقوم به المحامون وأصحاب الأعمال وزعماء العمل والسياسيون ورجال الفكر .

ولكن المسألة ليست من البساطة كما تبدو فى ظاهرها . فهنالك عوامل كثيرة تعترض سبيل هذا التطور . ويمكن مناقشة هذه العوامل تحت ثلاث مسائل : أولها الرغبة فى القضاء على الرأسماليين ، وثانيها خيانة رجال الفكر ، وثالثها الروح المعارضة للثورة فى الاتحاد السوفييتى .

ويناقش الكاتب هذه المسائل الثلاث فيقول : إن الرأسماليين كانوا دائماً أكبر المنظمين للإنتاج ، وكانوا فى هذا العمل أكبر مستغلين للطبقات الفقيرة . ولكن ثقتهم فى أنفسهم وذكاؤهم وإقدامهم تتضاءل باصرار كلما بعدوا عن المصنع أو المصرف . فهم قد أنشأوا نخبة ميزتها المال ولا نخبة تتمتع بمزايا خاصة ؛ فهم ليسوا طبقة حاكمة نافعة فى مجال السياسة ، وهم رجال عمل فى مساوماتهم لا رجال حرب . وهم يبحثون عن السلامة قبل أن يبحثوا عن الشرف . وهم يفكرون بوصف أنهم طبقة لا أمة . ولما كانت قوتهم قائمة على استمرار تبادل قطع من الورق فانهم يخشون كل ما يغير من النظم الاقتصادية التى اصطلح عليها الجماعة . فهذه الطبقة تنقصها الغريزة والنشاط والشجاعة للحكم . ولعل ما حدث فى بريطانيا سنة ١٩٤٠ مما يتخذ مثالا لهذه الحالة . فان تشمبرلن كان يمثل عواطف رجال الأعمال من رغبة فى الهدوء وكراهية للعنف وخوف من الانقلاب الاجتماعى . ولكن غرائز تشرشل تمثل أرستقراطية إمبراطورية شجاعة نشيطة تحتقر التجارة بعض

الشيء ، قوتها لا تقوم على المال بل على الأرض والتقاليد والشعور بالوطنية .

فنرى إذن أن رجال المال محتاجون دائماً إلى حماية طبقات غير طبقتهم ؛ فهم على قول شمبتر « غير قادرين على أن يقودوا أمة فحسب ، بل هم غير قادرين أيضاً على الدفاع عن مصالح طبقتهم . و يمكن إجمال هذا بالقول إنهم يحتاجون إلى رئيس » . وفى انجلترا على الأقل رأينا طبقة المال تسلم أمورها إلى حكومة أرستقراطية كالحكومة السابقة ، أو حكومة عمال كالحكومة الحاضرة مما يدل على أن هذه الطبقة عاجزة عن القيام بالحكم .

وفيما يتعلق برجال الفكر فان هؤلاء ينادون دائماً بالحرية ، ولكنهم لايعملون شيئاً . فهم فى الواقع يجرون وراء أحلام غير محققة ، وهم بذلك يفقدون وضوحهم ومنطقهم .واصرارهم على وقائع الأمور . وقد أخذ رجال الفكر يزيدون انغماساً فيما يثبت أساطيرهم وبذلك لم يجعلوا من طبقتهم من يتولى الزعامة .

فاذا قلنا إن عدم رغبة الرأسماليين فى الحياة وخيانة رجال الفكر ، مما يقف عقبة فى طريق الانتقال إلى الاشتراكية انتقالا هادئاً ، فان هنالك عقبة حقيقية يبدو فيها العزم والاصرار والذكاء ، وهى الدور الذى يقوم به الاتحاد السوفييتى . فهذا الاتحاد يرى بوضوح أن الرجعيين ليسوا هم ألد أعداء الشيوعية ، لأن طيش هؤلاء هو الذى سيؤدى إلى انحلال جماعتهم . ولكن العدو الحقيقى هو الديمقراطى الأصيل الذى يعمل لحل مشاكل العطلة بين العمال ومشاكل الفقر ، دون أن يستعبد الطبقات الفقيرة ودون أن يقيم حكومة يجعل منها شرطة على الناس.

فكانت موسكو تعرف أن بريطانيا لا تنافسها فى النضال من أجل أوربا مادام تشرشل متولياً زمام السلطة . ولكن انتصار حزب العمال فى سنة ١٩٤٥ مما بعث الأمل فى جميع شعوب أوربا الذين كانوا لايزالون أحراراً فى التعبير السياسى . فكأن فى هذا الحكم القائم فى انجلترا وسيلة للحصول على المزايا الاقتصادية التى توجد فى روسيا ، مع مزية الحرية السياسية . ولذلك أخذت روسيا توجه هجوماً كبيراً على الأحزاب الاشتراكية ، ووضعت سياسة من شأنها الضرب على النقط الضعيفة الاستراتيجية والمالية للامبراطورية البريطانية الآخذة فى الانهيار .

فما هى أغراض الحملة السوفييتية على الغرب ؟ لقد صدق شمبتر حين

قال : « إن الصعوبة فى روسيا ليست ناشئة من أنها اشتراكية بل من أنها روسيا . » فلو أن روسيا كانت تحت حكم القياصرة وعملت على تقدم الصناعة كما هى الآن ، لكانت تعمل للاتساع كما تعمل روسيا السوفييتية . ولكنها تكون عاجزة عن مضاعفة قوتها الوطنية بالسلاح السياسى الهائل وهو الشيوعية .

هذا هو الفارق . فروسيا القيصرية كان يمكن معالجتها كألمانيا الامبراطورية ، إذ تكون أغراضها محدودة بمقاومة الأمم الأخرى . ولكن النازية أمدت ألمانيا بسلاح مثالى قوى . والشيوعية أقوى كثيراً من النازية ؛ إذ أن فكرتها قابلة للتصدير . فباعتبار أنها عقيدة اجتماعية ، يمكن أن تنفذ إلى أبعد ركن من أركان العالم ، وتجد أنصاراً حيثما وجد الظلم وانتشرت الفاقة .

فالأغراض الوطنية لروسيا محدودة ؛ ولكن الأغراض الدولية للشيوعية غير محدودة .

فما هو واجب الولايات المتحدة الآن أمام هذا الخطر ؟ إن أمامها مثالا لما يجب ألا يتبع ، فى سياسة بريطانيا التى سار عليها تشمبرلن . عندما رأى تهديد ألمانيا لبلاده ، وهى حملة الاسترضاء . فالولايات المتحدة اليوم فى مثل ذلك الموقف تماماً ؛ على أن فى موقعها الجغرافى ما يسوغ أن تكون أكثر احتمالا لروسيا من بريطانيا بالقياس إلى ألمانيا فى ذلك الزمن . فالمشكلة التى يجب أن تعمل الولايات المتحدة لحلها هى أن تنظم توازن القوى فى العالم بحيث إذا عرضت قيادة السوفييت العامة فى أية لحظة مسألة الحرب على بساط البحث ، اضطرت إلى أن تقرر عدم الالتجاء إليها ؛ لأن الحرب العامة فيها مغامرة حربية كبرى لبلادها . وفى الوقت ذاته يجب ألا تتأثر الولايات المتحدة برغبة البعض فى القيام بحرب على السوفييت ؛ وألا تسمح للرجعيين فى الدول القائمة بين هاتين الدولتين الهامتين الكبيرتين باذكاء نار الحرب دفاعاً عن امتيازاتهم ؛ ولتذكر أن الفاشية قد اختفت ولكنها لم تمت نهائيا .

ويجب على الولايات المتحدة أن تمسك الميزان بين الاستعداد الكامل لدفع أى هجوم سوفييتى بعد حد خاص ، وبين العزم الكامل بألا تسمح داخل هذا الحد برغبات عدائية نحو السوفييت . وسنرى أنه إذا ترك الوقت للاتحاد السوفييتى ، فلابد أن تهدأ حدته .

معهـــد دولى للمسرح

نشرت مجلة المسرح والفنـــون الأمريكية فى عدد يوليه ما يأتى :

اجتمع بباريس فى الأسبوع الأخير من شهر يوليه ، خبراء المسرح من جميع الأمم ، للنظر فى إنشاء معهـــد دولى للمسرح . وهذه الخطوة الموفقة الهامة فى عالم المسرح ، قد تمت بنـاء على مقترحات التعاون الثقافى الدولى لهيئة الأمم المتحدة فى الصيف الماضى ، حين بذل المندوبون الانجليز والكنديون مجهوداً أدى إلى اعتبار المسرح جزءاً من برنامج الفنون والآداب وصار على قدم المساواة بالموسيقى والآداب والفنون الجميلة . ولما كانت بعض الأمم لم توقع على ميثاق للتعاون الثقافى لهيئة الأمم المتحدة ، فقد تقرر أن خير الوسائل هو إنشاء معهد دولى للمسرح ، تشرف بوساطته هيئة دولية حقا على المسرح . ويبدأ هذا المعهد نشاطه بعد انتهـاء اجتماعات باريس ، وسيكون برياسة اثنين هما مستر بريستلى ومسيو لوى جوفيه .

ولقد مثل المسرح الأمريكى رسميا بمندوبين وبعض الملاحظين ، كما فعلت الدول الأخرى . وكان المندوبان اللذان دعاهما مستر جوليان هاكسلى ومستر بريستلى ومسيو جوفيه ، هما ليليان هلمان التى مثلت رواياتها فى جميع أنحاء العـالم مما جعلتها شخصية دولية هامة ، وروزموند جلدر وهى المندوبة التى عينها المسرح الوطنى الأمريكى والأكاديمية الأمريكية ، وهى تعمل سكرتيرة للأكاديمية ورئيسة لتحرير مجلة المسرح ، وهى المجلة التى ظلت تخدم فكرة المسرح الدولى فى الثلاثين سنة الأخيرة . وقد عهد إلى المندوبين أن يعملا لتأليف جمعية عالمية بين رجال المسرح من فنانين وصناع ، تكون قادرة على وضع برنامج إنشائى ثابت يؤدى إلى زيادة التفاهم العالمى .

ظهر حديثاً

أبى شوقى للأستاذ حسين شوقى (مكتبة النهضة)

هذا الكتاب على صغره من أظرف الكتب التى ظهرت فى الأشهر الأخيرة ؛ فهو كتاب وضعه الأديب الأستاذ حسين شوقى الذى عرفه القراء فى قصصه الصغيرة التى تنشر بين حين وآخر فى أمهات المجلات الأدبيـــة ، ويقصته الطريفة «يوميات فتاة عصرية» التى نشرتها له دار المعارف . ومن هذه القصص تعلم طريقته وأسلوبه فى عرض موضوعه ، أما المترجم له فهو والده المرحوم أحمد بك شوقى شـاعر العرب فى القرن العشرين . فالكتاب بموضوعه وأسلوبه جدير بأن يجـــد مكاناً هاما فى عالم الأدب العربى ، لا سيما أن الابن لم يقصد من هــذه الذكريات أن يشيد بمكانة أبيه ؛ فان هذه المكانة من الأدب الحـــديث معروفة ، وهى تكبر على مر الزمن .

لقد تبوأ شوقى مكان الصدارة فى الشعر العربى فى حياته ، وكان يظن الناس وقتئذ أنه أكبر الشعراء الأحياء، ولكنهم كانوا يظنـون أن الشعر العربى لا يلبث حتى يجد منافساً لشوقى ؛ وأنه إذا كان أكبر رجال جيله فانه مع تطور الزمن والأذواق لا بد أن يظهر شعراء يتخذون طرقاً وأساليب جديدة فى الشعر ، بحيث لا يلبث هذا الشاعر الكبير أن يصير جزءاً من تاريخ الشعر ..

ولكن ظهر الآن وبعد مرور خمسة عشر عاماً على وفاته أن شوقى من أولئك الشعراء الذين إذا ظهر منهم فى تاريخ أمتهم على طول هــذا التاريخ واحد أو اثنان ، فهى أمة غنية بالشعر ، يجب أن تكون موضع الغبطة من الأمم الأخرى .

فلقد ووری شوقى الثرى منـــذ خمسة عشر عاماً ، فلم يملأ فراغه أحد ولم يدانيه أحد . وليس ذلك فحسب بل إنك إذا وجدت فى العالم العربى اليوم شعراً ، فان شوقى مصدره ومنبعه ، و إذا وجدت شعر العالم العربى قد اتخذ طرائق جديدة فان شوقى مصدر ذلك ومنبعه .

وبعد هذا الكلام قد تنتظر أن تجد فى هذا الكتاب الصغير ملحمـــة تتغنى بفضائل ذلك الأب على الشعر

العربى ، أو تجد فيه تمثالا حجريا مقاماً على قاعدة ضخمة لاظهار مجد هـذا الأب ، ولـكنك لن تجد شيئاً من ذلك ، فمحال أن تجد فى ابن لشوقى من قلة الذوق الفنى ما يدفعه إلى أن يكتب كتاباً للاشادة بمجد أبيه . وأبناء هذا الشاعر لا بد أنهم يعلمون تمام العلم أن شوقى فى مجده ليس ملـكاً لهم ، بل هو ملك للملايين من أبناء العرب الذين قرءوا وسيقرءون دواوينه والذين قرءوا وسيقرءون مسرحياته المنظومة على مر السنين وتعاقب الأجيال ، وإنما الرجل الذى كانوا يملكونه هو ذلك الأب العطوف الذى لم يكن ليستطيع أن يتجرد من روح الشعر ، والبعد عن واقع الأمور فى معاملته لهم وعطفه عليهم .

وهذه هى الصورة التى أراد الأستاذ حسين شوقى ، بذكرياته ، ويقصص داره ومعيشته ، ونفيه إلى الأندلس وعودته ، ثم سنوات حياته الأخيرة ومماته ، أن يهديها لنا . ولم يهدها سلسلة من التاريخ ولـكن أهداها سلسلة من القصص كتبها فى أسلوبه الخاص الطريف الذى يجعل له بين كتاب القصة الحديثة صفة خاصة ؛ فهو أسلوب لا تجد جماله فى عبـارات فخمة ضخمة ، ولا تجد جماله فى مجرد البساطة العارية ، وإنما تجد هذا الجمال فى إيجازه وفى نوع من التـكسر فيـه يدنيه كثيراً من أساليب كبـار الـكاتبات لا الـكتاب . وهو أسلوب تجده ملائماً كل الملاءمة للموضوعات التى يختارها الأستاذ حسين شوقى ؛ فهـو ملائم لتلك القصة التى كتبها على لسان فتاة عصرية ، وهو ملائم لهذه الذكريات عن أبيه التى روى فيهـا قصصاً لا تدل على المجد والعظمة ، وعلى ما كان فيه شوقى من أبهة العيش ، وإنما تدل على عطف الأب الشديد المتعلق بأبنائه ، والشاعر المرهف الحس الذى يزن الأمور بميزان الخيال أكثر مما يزنها بميزان العدل والواقع ، والسيد المترف الذى لا يهتم للمال بل يهتم لأن يكون كل ما حوله جميلا وسعيداً .

مصر والسيادة على السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى (دار الفكر العربى)

لعل مؤلف هذا الكتاب القيم بموضوعه لم يكن موفقاً فى اختيار اسمه إذا نظرنا إليه من الوجهة السياسية البحتة ؛ فان كلمة « السيادة » كريهة لدى المصريين وأبناء السودان سواء . وشعوب الأرض قاطبة لم تعد لتحتمل

أى نوع من سيادة أجنبية أو غير أجنبية عليها ، وإذا كان العالم الجديث قد أنشأ تلك الهيئات الدولية جاداً فى إنشائها ويريد لها حقا النجاح ، فيجب أن تمحى تلك الكلمة نهائياً من العرف القائم من الدول ، كما يجب أن يبعد حق الفتح من القانون الدولى ، فلا يعد سبباً بعد ذلك لترتيب حقوق لدولة على دولة .

ولعل الدول الاستعمارية الكبرى قد شعرت تماماً بهذه الكراهية الكمينة فى صدور بعض الأمم ، والظاهرة فى صيحات الأمم التى أخذت تتحرر ؛ لذلك بدأت تبحث عن وضع آخر . ونرجو مخلصين أن تنتبه الأمم الصغيرة إلى هذا الوضع فلا تقبله ولا تقره ، كما نرجو أن تنتبه الهيئات الدولية التى فرض أنها أنشئت لحماية دول من مطامع دول أخرى فلا تقره ، وهذا الوضع هو الذى أسموه المشاركة .

قد تكون هذه المشاركة فى الكل أو فى جزء من الحقوق التى هى من حق الدولة المستقلة — وهى تتم بمعاهدات قد تكون برضا الطرفين فى الظاهر ، ولكنها فى الباطن تخفى نوعاً مقنّعاً من تلك السيادة الكريهة التى عرفتها الأمم فى القرن التاسع عشر .

لم يكن هذا المؤلف إذن موفقــاً فى اختيار عنوانه إذا نظرنا إليه من الوجهة السياسية ، ولكن النظر إليه من هذه الوجهة بعيد كل البعد عما قصد إليه المؤلف . والحقيقة أن المؤلف قصد إلى ما قاله فى صراحة فى أول كتابه من أنه يقصد « الوقوف على حقيقة ناحية واحدة من تلك العلاقات فى فترة معينة » . فهو يرغب فى أن يطلعنا على تاريخ العلاقة منذ « الفتح المصرى لبلاد السودان فى أوائل القرن التاسع عشر إلى أن عقد الوفاق الثنائى المشهور بين مصر وبريطانيا فى آخر القرن نفسه » .

فالكتاب إذن مجرد بحث تاريخى لفترة معينة من باحث تاريخى لا علاقة له بالسياسة . وهو فى هذا المجال إنما يبحث موضوعاً تخصص له واشتهر بالبحث فيه . فقد اهتم الدكتور محمد فؤاد شكرى منذ زمن طويل بدراســة السودان ، واطلع على وثائق كثيرة منشورة وغير منشورة ، وقطع سنين طوالا فى التوفر على هذا البحث حتى صار عمدة فى تاريخ السودان والرجل الذى يمكن أن يرجع إليه فى هذا الباب .

وسيجد القارئ فى هذا الكتاب القيم الذى هو خير ما ألف فى الشهور الأخيرة فى التاريخ علماً غزيراً عن هذه الفترة من التاريخ ، ولذة ومتعة فى قراءة هذا الكتاب .

ميزانية الدولة العراقية للأستاذ أحمد عبد الباقى (مكتبة المثنى ببغداد)

هذا الكتاب بحث قيم بموضوعه ومادته . أما الموضوع فهو اقتصادى مالى لأنه يتعلق بميزانية الدولة العراقية وتحضيرها وتحليلها ، ومثل هذه البحوث فى عالم الكتاب العربى قليل . فبينما تجد المطابع العربية تخرج الآلاف من الكتب الأدبية ، إذا بك لا تجد أمام هذه الآلاف التى تصدر فى كل سنة غير عشرات من الكتب التى تبحث فى أمور اجتماعية ، والتى تبحث من هذه العشرة فى الأمور المالية والاقتصادية أقل من القليل . ذلك لأننا فى هذا الشرق لم نعتد المباحث المتعبة المضنية ، ونعدل عنها إلى مباحث الأدب التى يستطيع كل إنسان أن يضرب فيها بسهم ، أصاب أو أخطأ ، فلا يحاسبه أحد . أما المسائل الاقتصادية فانها تحتاج للاقدام عليها إلى دراسة طويلة جافة ، ثم إلى بحث وبحث مستمر ، ثم إلى تأليف دقيق ، يرجع فيه المؤلف فى كل سطر إلى مرجع ، ليتحقق من أنه لم يأت بزلة ؛ لأن الزلل فى هذا الموضوع غير مستساغ ولا مغفور.

لذلك كان اهتمامنا بهذا الكتاب كبيرا وسرورنا له عظيما ، لا سيما أنه عالج مسألة غامضة لدينا نحن أبناء هذا القطر المصرى العربى. فليس من السهل أن نجد مؤلفاً موطأً نستقى منه المعلومات الصحيحة عن الميزانية العراقية ، وبذلك نقف على حياة ذلك القطر الشقيق الاقتصادية من أيسر سبيل .

والأستاذ الذى ألف هذا الكتاب عليم بموضوعه ، لا لأننا نعرف علمه من قبل ، بل لأننا استطعنا أن نتبين فضله من خلال المادة الغزيرة التى أبداها فى بحثه . ومثل هذا الكتاب لا يفيد المطلع المثقف فحسب ، بل هو مفيد كذلك للباحث فى حالة العراق الاجتماعية وفى تاريخها الحديث . وفى اعتقادنا أنه من أهم المراجع التى يمكن الرجوع إليها فى هذا الباب .

وإنا لنرجو أن يزيد عدد الكاتبين والباحثين فى هذه الموضوعات الصعبة على غير المختصين ؛ فان الاقتصاد هو الآن عصب الحياة فى الأمم الناهضة .

فن الحياة تأليف أندريه موروا وترجمة عبد المجيد أبوالنجا

من ذا الذى لا يعرف أندريه موروا ! لقد أصبح اسمه معروفاً بما نقل له من كتب إلى اللغة العربية أكثر مما نقل لغيره من الكتاب الفرنسيين الذين قد يفوقونه فى حسن الأسلوب أو فى عمق التفكير . ولكن لأندريه موروا مزية لا يكاد كاتب من الكتاب المعاصرين يجاريه فيها . فهو على بساطة أسلوبه رجل أخاذ ، يعرف كيف يستولى على فؤاد القارئ ، وكيف يعرض موضوعاته . ولقد صار أكبر كاتب فرنسى يعرف كيف يترجم للشخصيات ، عظيمة كانت أو غير عظيمة . وتلك موهبة خاصة ليس أساسها المقدرة القصصية ولاالاطلاع التاريخى ، وإنما هو مزاج من بين هذين الأمرين ، يضاف إليه اهتمام بالشخصية التى يصورها بعد الاطلاع على كل آثارها ، واتصال روحى بها على بعد الزمن ، بحيث تبدو له كأنها تسير فى مسرح الحياة .

غير أنه فى هذا الكتاب يتخذ وجهة أخرى هى وجهة الترجمة لنفسه . فهل نجح فى هذه الترجمة ؟ إنه يترجم لنفسه بأن يزعم أنه يعلمنا فن الحياة ، فهو يبدأ بفن التفكير ثم فن الحب ثم فن العمل ثم فن الرياسة ثم فن الشيخوخة ، أى إنه يضرب على أوتار آلة حياة كاملة من وترها الصغير إلى وترها الغليظ حين تأخذ الحياة فى الأفول . وهو يزعم أنه رجل جرب الحياة . والحق أنه جرب الحياة فعلا ؛ فلقد عرف أثناء الحرب العالمية الأخيرة الهجرة والبعد عن الوطن والمعيشة فى أرض غريبة ، وكان لا يدرى أيعود يوماً ما إلى بلاده أم يفضى ما بقى من الحياة فى تلك الأرض . وموروا ، كما نرى من تراجمه ، رجل مرهف الشعور. وهو فى هذا الكتاب الذى ارتدى فيه ثوب الحكمة لا يزال نراه الرجل المرهف الحس الأديب أكثر مما نراه واعظاً . وقد لا نقتبس كثيراً ولا نستفيد كثيراً من هذا الكتاب . ولكن مما لا ريب فيه أننا سنجد فيه متعة وسنقضى فى قراءته ساعات لذيذة .

فلقد أسدى إذن الأستاذ عبدالمجيد أبو النجا يداً بنقله هذا الكتاب إلى اللغة العربية .

محمود

في مجلات الشرق

من سوريا

الحديث عدد ٧و٨ (يوليو ـ أغسطس)

في السياسة — في هذا العدد من مجلة « الحديث » التي تظهر في حلب مقال للأستاذ محمد زين حسن عنوانه «حركات التحرير في أندونيسيا». وهذا المقال كتب بمناسبة الحرب الدائرة بين هولندة وأندونيسيا . ابتدأ الكاتب بعرض تاريخي لحركة التحرير التي قام بها الأندونيسيون منذ أوائل القرن التاسع عشر حين أعلن الهولنديون سيادتهم على البلاد ، ذاكراً أسماء الأبطال الذي خلدهم هذا الصراع العنيف الذي دام أكثر من مائة سنة . ولم يتعرض الكاتب لدراسة المعارك التي نشبت بين كل من الطرفين فحسب بل درس أيضاً الصراع السياسي الذي قام بين شعبي أندونيسيا وهولندا ، فذكر الأحزاب التي تكونت وما أصاب كلا منها من انتصار في الميدان السياسي ، وكيف قابل المحتلون هذا الكفاح بالقسوة البالغة والعنف . ثم يذكر ترجمة قصيرة للزعيمين الأندونيسيين الدكتور أحمد سوكارنو ومحمد حتى وما كان لهما من جهاد في سبيل استقلال وطنهما . وأخيراً يتكلم عن أندونيسيا أثناء الاحتلال الياباني ثم عن إعلان استقلال البلاد حين استسلمت اليابان . ولكنه لم يذكر شيئاً عن النزاع الأخير الذي نشأ بين الشعبين ولا عن احتكامهما إلى مجلس الأمن ، بل ينهي مقاله بكلمات مليئة بالتفاؤل لم تحققها الروح الاستعمارية السائدة عند الشعب الهولندي .

في الأدب — وليس في المجلة دراسة أدبية بالمعنى الصحيح ، ولكن ثمة قصة تمت إلى الأدب بأكثر من سبب وهي «الأميرة جميلة الحمدانية» بقلم الأستاذ سعيد الدبوهجي، كما يوجد أيضاً ملخص لقصص غربية نذكر منها « الرجل الذي قتل ظلا » للكاتب الأمريكي الأسود ريتشارد رايت ، و « امرأة كتبت التاريخ بقلبها »

للكاتب الانجليزى رالف أوبنهايم . بشر فارس لقصيدة « ينبوع دم » ولا أريد أن أختم هذا العرض من بودلير التى نشرتها المجلة فى دون أن أذكر ترجمة الدكتور هذا العدد .

من لبنان

الأديب عدد ٩ (سبتمبر ١٩٤٧)

فى الأدب — اقرأ فى هذا العدد من مجلة « الأديب » مقالا بقلم عدنان الذهبي ، وهو فى الحقيقة مقدمة لمسرحية ألفها كاتب المقال وأسماها « نشيد الأنشاد » . وعنوان المقال يجذب من القراء من يميل إلى دراسة المذاهب المختلفة فى الأدب والفن وهو « فى تعريف الرمزية » . ولن أتعرض فى تلخيصى إلا للجزء الأول من المقال ، وهو الذى يبحث فيه الكاتب عن معنى الرمزية فى حدود الميدان البلاغى فحسب .

يقول الكاتب إن الرمز هو : « شيء محسوس معتبر كاشارة إلى شيء معنوى لا يقع تحت الحواس . وهذا الاعتبار قائم على وجود مشابهة بين الشيئين قد أحست بها مخيلة الرامز » . وبعد أن ذكر لنا أمثالا عن الرمز أخذ يحاول أن يسوغ استعمال الرمز فى الأدب ، فيقول : إننا مضطرون إلى الرمز لأن هناك عوائق سيكولوجية وأخلاقية واجتماعية تعوقنا عن التعبير المباشر ، ولأنه لا بد لنا فى الفن من التأثير فى الآخرين . وهذا التأثير لا يأتى إلا عن طريق إثارة المخيلة بالصور والتشبيهات .

ثم ينتقل الكاتب إلى نوع خاص من الرمزية ، وهو رمزية النعوت الحسية وأصول استعمالها . وهو فى هذا الجزء يكتفى بالرجوع إلى آراء جورج دوما عن الرمزية . ثم يتكلم عن الشعور بالرمز أى كيف يشعر الرامزون برموزهم قبل أن يعبروا عنها ، ويدرس الكاتب هذه النقطة ويوفيها حقها حتى يصل إلى الأسلوب الرمزى . وهو لهذا يدرس أعماق نفوس الشعراء الرمزيين ليتبين فيها الحالة التى تجعلهم لا ينطقون إلا رامزين . وهو فى بحثه هذا لا يرمى إلا إلى أن يتبين كيف ينشأ الأسلوب الرمزى مجرداً من كل أدب

ومن كل عصر؛ لأنه يقصد البحث عن الرمزية في الميدان البلاغي فحسب. ثم يحلل الأسلوب الرمزي فيقول إن الشاعر الرمزي يرى أن كل شيء في الطبيعة رمز، وهو حين يريد أن يعبر عما يرى يلجأ إلى أسلوب خاص له أدواته البلاغية الخاصة «وهي كل هذه التشبيهات والاستعارات والرموز المتلاحقة» في البيت الواحد أو في القصيدة كلها. ويضيف: «على الشاعر أيضاً أن يوفر لأسلوبه هذا قيما موسيقية تساعده على تلقين ما يريد تلقينه». وهذه الوسيلة الموسيقية إنما تساعد القارئ، على أن يتلقن بالموسيقى والرموز معاً ما خلف الرموز. وبعد أن عرض الكاتب الأساليب الرمزية المختلفة يدرس في إيجاز المسرحية الرمزية فيقول: «إنها أسلوب أدبي يرمي بأدواته التعبيرية الخاصة إلى تصوير حالات معنوية — عاطفية كانت أو فكرية — فيها من القوة ما يجعلها تعيش على شكل أشخاص يحسون ويتكلمون.» وهكذا يختم الكاتب بحثه عن معنى الرمزية وينتقل بالحديث إلى مسرحيته.

في الفلسفة — وفي العدد نفسه بحوث أخرى قيمة تتناول النواحي المختلفة للنشاط الفكري، نذكر منها هذا البحث الموجز «القيم الأخلاقية بين سقراط ونيتشه» بقلم أنطون حمصي. والمقال ما هو إلا «محاولة في فهم نقاط التلاقي والتضاد في الفلسفتين». ويقسم الكاتب بحثه إلى أجزاء كل منها له عنوانه، فيعين بذلك القارئ على استيعاب آرائه. يحدثنا أولا عن الأخلاقية السقراطية، ثم يدرس نظرة سقراط للفن وهي نظرة عدائية على حد قول الكاتب. ويتبع في دراسة نيتشه المنهج الذي اتبعه في دراسة سقراط، فيدرس الأخلاقية عند نيتشه ثم نظرته إلى الفن. وأخيراً لا يجد إلا نقطة تلاق في الفلسفتين وهي مهاجمة حكم الشعب واحتقار الطبقة الشعبية. أما نقط الخلاف فهي عديدة، منها تحبيذ نيتشه للأوتوقراطية وإيمانه بالفرد الممتاز، في حين أن سقراط يهاجم الحكم الأرستوقراطي. أما موضع الخلاف الأساسي فهو أن سقراط كان متفائلا يؤمن أن اللذة هي الخير المطلق، على حين كان نيتشه يؤمن بالقوة وإرادة القوة وبأن الحياة تقوم على الألم.

صوت المرأة عدد ٨و٩ (غسطس ١٩٤٧)

إلى جانب المقالات الخاصة بالمرأة يمكنك أن تقرأ فى هذا العدد مقالات عدة بقلم سيدات وآنسات لبنانيات تدل على أن النهضة النسوية فى لبنان أصبحت ذات شأن . ومن هذه المقالات أذكر بحثين للآنسة ماغى زعيتر الأشقر ، أحدهما عن « شوبان » والآخر عن « فاجنر » وهما بحثان جديران بالقراءة والاهتمام وخاصة لمن لم يتسع له الوقت من قراء العربية ليطلع على حياة الفنانين الغربيين ومعرفة مميزات فنيهما .

فى الاجتماع — وأذكر أيضاً كلمة للسيدة إميلى فارس ابراهيم عنوانها : « معزوفة بالية » وهى معزوفة مكان المرأة فى المجتمع والحد من نشاطها فى الحياة العامة . وهى تعجب أن ثمة أناساً لايفتأون يرددون هذه المعزوفة فى حين أن العالم بأسره قد أباح للمرأة أن تدخل ميدان السياسة والأدب والفن وجعل لها مكاناً ذا شأن فى المجتمع . ثم تطلب الكاتبة من الكتاب والمفكرين إيجاد حل للتوفيق بين « مهام المرأة البيتية ، ومهامها الاجتماعية باعتبارها عنصراً فعالا فى جهاز الأمة » . وهى تطالب أن يعترف للمرأة بحقوقها السياسية ، وأن يعم التعليم فى لبنان ويصبح إجباريا حتى لا تتهم المرأة بالجهل وتقصى عن الحياة العامة .

من العراق

الجزيرة عدد ١٦ (أغسطس ١٩٤٧)

فى الأدب — والعدد السادس عشر من مجلة « الجزيرة » خاص بالقصة. ويصدر المحرر هذا العدد بكلمة جاء فيها : « فن القصص ، ذلك النوع الظريف فى أدب العرب لما تكتمل نواحيه اكتمالا يؤهله لبلوغ القمة بين بقية فنون الأدب ، ولكنه آخذ بسبب قوى من حيوية الاقتباس ومتطلع برغبة محققة إلى بلوغ الغاية . » وقد يكون المحرر على حق فيما قاله عن القصة فى الأدب العربى . ولكن هل هو على حق أيضاً إذ يحبذ الاقتباس ؟

ويبتدئ هذا العدد بمقال عنوانه « القصة فى الأدب العربى » بقلم الأستاذ غانم الدباغ يقول فى مستهله: إن القصة قديمة قدم الانسان ، وإن أول صورة أنتجها الابداع الفكرى كانت فى شكل قصة خالدة ، وهى حياة آدم وحواء ، وقصة الطوفان الخ ، ثم يستعرض القصة فى الأدب العربى فى مختلف العصور فيقول إن القصة كانت موجودة فى الجاهلية ولكن على شكل خاص . فما قصائد عنترة وامرئ القيس إلا قصص ، وإن القصة وجدت بعد ذلك فى القرآن الكريم مجالا أوسع واتجهت إلى نوع من التوجيه الخلقى والتهذيب الدينى . وما أشرف العصر الأموى على الانتهاء حتى أخذت القصة مجرى أقرب إلى الاستقلال ؛ ففى ذلك العهد اشتهرت قصص « مجنون ليلى » و « ليلى الأخيلية » و « قيس ولبنى » الخ . وجاء العصر العباسى مزدهراً بالترجمة ، فنقلت إلى العربية قصص مثل « كليلة ودمنة » . . . وألفت على نمطها قصص أخرى . وهكذا يتتبع كاتب المقال القصة فى جميع العصور دارساً الأنواع المختلفة للقصة العربية الخالصة حتى وصل إلى عصرنا هذا الذى تأثر فيه القصصيون بالتيارات الغربية فعالجوا القصة كما يعالجها الغربيون . وختم مقاله بذكر بعض أسماء مثل حافظ ابراهيم ومحمد حسين هيكل وطه حسين والعقاد وتيمور وتوفيق الحكيم .

ونلفت نظر القراء إلى استفتاء قامت به المجلة ترمى إلى استطلاع آراء بعض الأدباء . والاستفتاء مكون من سؤالين :

١ — ما رأيكم فى القصة العربية عامة والعراقية على الخصوص ؟

٢ — هل توجد قصة عراقية ؟ من هو القاص الأول ؟

ثم يلى المقالات تسع قصص منها مسرحية وقصة مترجمة . ونحن نحمد لمحرر « الجزيرة » هذا الاتجاه لما فيه من فائدة للقراء وتلوين فى أسلوب إصدار المجلات .

فى مجلات الغرب

من فرنسا

ريفى دى بارى Revue de Paris (عدد أغسطس ١٩٤٧)

فى المقال الافتتاحى من هذه المجلة تكلم مسيو بول رينو عن الحالة السياسية الدولية والحالة الداخلية فى فرنسا . ومن رأيه أن شهر يوليو أسفر عن جلاء الحالة ، وإن كانت الأزمة لا تزال مستحكمة . فلقد تولدت فى عالم السياسة الدولية كتلة الشرق بين الدول الأوربية ، كما وضحت كتلة الغرب . وكانت تشيكوسلوفاكيا تظن أنها تستطيع القيام بدور الاتصال بين الشرق والغرب ، فاذا بها تؤمر فتطيع ، واضطرت لأن تعلن انضمامها إلى مجموعة الدول الشرقية ، فيما يتعلق بمشروع مارشال ؛ وهكذا كان الانفصال كاملا ! ويرى مسيو رينو أن حكومة السوفييت هى العاملة على هذا الانفصال . ويسائل لماذا وقفت هذا الموقف مما سمى مشروع مارشال؟ وهو فى رأيه ليس بمشروع ، لأنه دعا الأمم الأوربية إلى الاتفاق وأن يقدموا له مشروعاً . وهو يدافع عن فكرة الكتلة الغربية ويرى فى مساعيها فائدة لخدمة أوربا .

وهو يبحث عن موقف الحكومة الفرنسية فى الداخل ، وما يمكن أن تلقاه من معارضة الشيوعيين فيما يتعلق بمشروعاتها الاقتصادية . ويرى أن خلاص فرنسا يتم فى اليوم الذى يظهر فيه الفرنسيون ما لهم من صفات العمل والاجتهاد المثمر .

وفى هذا العدد مجموعة من رسائل طريفة لم تنشر من قبل ، كتبها بلزاك الكاتب الفرنسى الشهير للكونتيسة هالسكا البولونية ، وهى صديقته التى تزوج منها فيما بعد . وفى هذه الرسائل يشير إلى حالته المالية ، وكيف كان يعمل على تنظيم داره حتى تصير صالحة لسكنى تلك الحبيبة التى كان يود الاقتران بها .

وفى العدد قسم أول من قصة طويلة لأرمان هوج اسمها « الحادث » وهى تبدأ بمغامرة عجيبة وقعت لبطل

القصة ؛ ولا يمكن تبين نهايتها من هذا القسم بل يقرؤها القارئ في شوق وتطلع .

وفي العدد بحث شائق للباحث الاجتماعي مجويل كوفاروبياس عن الحب في جزيرة بالى من الجزر الأندونيسية ، وهو يهم جميع الذين يريدون أن يقفوا على أخلاق الشعوب وعاداتها .

وقد تابعت المجلة نشر مذكرات ليوناردو سيموني التي كتبها أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، وهو ملحق بسفارة إيطاليا في برلين . وهي تلقى ضوءاً على تطورات الأحوال في ألمانيا أثناء الحملة الروسية ، وما كان يشعر به الايطاليون من ذعر وعدم ثقة نحو حلفائهم .

وقد استعرض الكاتب رينيه بوى الحالة في تركيا وحياتها السياسية ، لا سيما في السنوات الأخيرة ، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية .

بارو *Paru* (عدد أغسطس ١٩٤٧)

في هذا العدد مقال للكاتب باترى عن الفن والحرية عند مسيو كايوا . وهو ينتقد اتجاه مسيو روجيه كايوا في الفن ، بمناسبة بحوث نشرها أخيراً ، ويريد فيها أن يكون الفن خاضعاً للهيئات الفنية في الدولة ، ويجب ألا يكون حراً مطلقاً يتبع خيال الفنان وأهواءه .

ويتكلم الكاتب أندريه بوران عن الأديب دلتي ، وهو يقتبس منه حديثاً عن نظرته وموقفه من الأدب.

ولقد كتب الأديب باترى نقداً قيما لقصة البير كامو الأخيرة المسماة « الطاعون » .

وفي هذه المجلة التي تنقد الكتب الأخيرة عشرات من البحوث عن الكتب التي ظهرت أخيراً في الآداب والعلوم ، نذكر منها النقد الخاص بكتاب لستيفن زفايج الكاتب النمساوي نقل أخيراً إلى اللغة الفرنسية وهو عن موقف كستليون ومقاومته لكالفن. كما أن فيها بحثاً عن كتابين وضعا عن تاريخ الأمة الأمريكية : أحدهما لأندريه موروا، والآخر لجان كانو .

كاييه دى سيد Cahiers du Sud عدد ٢٨٣ (سنة ١٩٤٧)

هذه المجلة التى تصدر فى جنوب فرنسا ، ومركزها مرسيليا ، قد اشتهرت فى عالم الأدب الفرنسي . وفى هذا العدد نشرت طائفة من الشعر البرتغالى مترجمة بأقلام الأدباء الفرنسيين . وقد أتت بالأصل والترجمة متقابلين حتى يمكن الموازنة بينهما . ولا ريب فى أن الشعر ، أكثر من النثر ، يفقد كثيراً فى نقله من لغة إلى أخرى ؛ ووجود الأصل إلى جانب الترجمة مما يساعد الذين يعرفون قليلا من اللغة الأصلية ، فى أن يتذوقوا هذا الشعر دون أن يجدوا عقبة فى الرجوع إلى الترجمة .

وفى هذا العدد مقال هام عن الرجل المدنى لدى جان جاك روسو كتبه برنار جروت هويزن الكاتب الأوكرانى .

وكتب كريستيان بونس مقدمة لترجمته لهاملت، وفيها يزعم أن مترجمي هاملت ، أو مترجمى شكسبير بوجه عام ، لم يوفقوا لأنهم لم يخرجوا الجانب الحقيقى منه وهو جانب البراعة فى تصوير المأساة ؛ لأن المترجمين الفرنسيين إما يتخذون الأسلوب الكلاسيكى ، فى نقل بدائع هذاالشاعر الانجليزى العظيم إلى لغتهم ، وإما يتبعون الأسلوب الرومانتيكى ؛ وفى كلتا الحالتين لم يأتوا بروح الأصل . ونشرت المجلة فصلا من ترجمته لهاملت وهو يزعم فيها أنه أقرب إلى الأصل .

وكتب ليونيللو فيومى مقالا عن النساء الشاعرات فى الأدب الايطالى، وتكلم بنوع خاص عن الشاعرة أدانجرى التى توفيت فى السنة الماضية . ثم عن الشاعرة التى ظهرت حديثاً ، مدام فرناندا ريجاليافاسى ، التى نشرت أخيراً عدة مجموعات من أشعارها .

ومن المقالات الطريفة فى هذا العدد وصف لمحطة ايون بباريس، وهى المحطة التى يصل بها زائرو الجنوب إلى العاصمة الفرنسية .

لموند Le Monde (عدد أغسطس ١٩٤٧)

بحث الكاتب افينول احتمالات الموقف الدولى فى أوربا بعد مؤتمر موسكو .

وتكلم جنرال نيسل عن هنرى الرابع والوحدة الفرنسية .

وبحث جال ديكو في المسألة الصينية وكيف أن الصين تبحث عن وحدتها، ولكن مما يؤسف له أن مجهوداتها تذهب هباء بسبب الحرب الأهلية. وهو يقول إن السواد الأعظم من أهل الصين يرغبون في استتباب السلم؛ وفي رأيه أن ذلك لا يكون إلا إذا تم الاتفاق بين واشنطون وموسكو؛ فتنافس هاتين الدولتين العظيمتين هو الذي يذكي نار الخلاف بين أهل الصين .

وقد نشرت السيدة هنرييت سيلارييه مذكراتها عن بودابست في سنة ١٩٣٩ .

وفي العدد مقال قيم لبوتيكير فيه ذكريات عن ألفونس دوديه .

من انجلترا

العالم اليوم *World Today* (عددا يوليه وأغسطس ١٩٤٧)

استعرضت المجلة في مقالها الافتتاحي حوادث العالم في ذاك الشهر. فتكلمت عن الأزمة المجرية التي أدت إلى فرار رئيس الحكومة السابق مسيو ناجي، ثم خضوع حكومة المجر لنفوذ اليساريين، وبالأحرى للحكومة السوفييتية. واستعرضت المشكلة الاقتصادية الألمانية، وما كان لاقتراح مارشال من تأثير فيها. وفي رأي المجلة أنه لا يمكن الحكم على الأمور الآن، بل الواجب المسارعة إلى تخفيف المجاعة في ألمانيا قبل أن ينتظر منها أي مجهود اقتصادي، ولقد أثبتت الأحوال ذلك في النصف الثاني من يونيه حين اضطرت المصانع في جهة كولونيا إلى التوقف عن العمل لأن ثمانية عشر ألفاً من عمالها كانوا أضعف من أن يستمروا في العمل بسبب جوعهم. كما استعرضت المجلة الحالة في الهند وتقسيمها إلى دولتين وما ينتظر من موقف الامارات الهندية.

وفي هذا العدد بحث عن الحدود في منطقة المحيط المتجمد الشمالي والدفاع عن هذه المنطقة، وما تعمله الولايات المتحدة للدفاع عن تلك الجهات، وما ترى فيها من أهمية حربية، وإن كانت تلك الجهات لا تعد ذات شأن كبير؛ إذ لا يخشى أن يكون الاحتكاك فيها بين الروس والأمريكيين مؤدياً للحرب .

وبحثت المجلة أيضاً موقف نقابات العمال في فرنسا وعلاقتها بإحياء البلاد . وهي ترى أنه بالرغم من الصعوبات الكثيرة التي تعترض فرنسا والاضراب والتهديد بها ، فان العمال الفرنسيين أبدوا بوجه عام تعقلا وشعوراً بالتبعات ، ورغبة شديدة في النهوض ببلادهم . ولولا هذا الشعور لقامت في فرنسا حركة إضراب شاملة، تشل حياتها الاقتصادية ، وهو ما لم يقع في تلك البلاد .

وفي مقال آخر بحث عن التطورات السياسية في النرويج وما ينتظر لتلك البلاد من تقدم .

وفيها بحثان هامان : أحدهما عن جزر المحيط الهادى التي وضعت في عهدة أمريكا ، والآخر عن مشاكل السفن في العالم .

واستعرضت المجلة في عدد أغسطس سنة ١٩٤٧ في أخبارها الشهرية موقف فرنسا من مشروع الجنرال مارشال ، بعد أن رفضت روسيا الاشتراك في المؤتمر الخاص به ؛ فان فرنسا كانت حتى ذلك الوقت تحتفظ بالتوازن بين شرق أوربا وغربها ؛ وتعمل لأن تكون علاقاتها حسنة مع الطرفين ، ولكنها انحازت أخيراً انحيازاً ظاهراً إلى الكتلة الغربية . والشيوعيون الفرنسيون أنفسهم لم يظهروا معارضة فعالة لهذا المشروع .

وكان الموضوع الثاني لشهرية المجلة قانون الاستقلال الهندى وتقسيم الهند إلى دولتين ، والنص بصفة خاصة على أن هاتين الدولتين مستقلتان ، مما يشعر برفع السيطرة الخارجية عنهما .

وعرضت الشهرية أيضاً لمشروع معاهدة الصلح مع اليابان ، واهتمام أمريكا وبريطانيا بهذا الصلح .

وتكلمت المجلة عن مشروع مارشال وما ينتظر منه لأوربا ، وفيها أيضاً بحث عن أزمة الدولار في أوربا وما ينتظر له من تطور .

وفي العدد مقال عن الصعوبات الاقتصادية التي تعانيها المجر فيما بعد الحرب . كما أن بها بحثاً طويلا عن الجزر الواقعة في جنوب اليابان ، وهي جزر أوكنياوا ولوشو ، وما سيكون شكلها بعد الصلح مع اليابان ، وهل ستبقى في يد الولايات المتحدة على اعتبار أنها موقع استراتيجي ، أو تضم إلى إحدى الدولتين اللتين كانتا تتنازعان السيادة عليها ، وهما الصين واليابان . كما تكلمت المجلة على أعمال إدارة التعمير والانشاء الدولية.

هوريزن Horizon (عددا يوليه وأغسطس ١٩٤٧)

يكاد هذا العدد يكون خاصا بالأدباء المعروفين من أسرة ستويل . ففيه بحث طويل كتبه كنيث كلارك عن تطور أسلوب الآنسة ايديث ستويل فى العهد الأخير ، وهو بحث قيم،قارن فيه الكاتب بين أسلوبها السابق فى الشعر ، وأسلوبها الذى تطور فى الأيام الأخيرة . كما أن السير أوزبرت ستويل نشر قسما من مذكراته ، يختص بعلاقته بأبيه تحت اسم «أب وابن» .

وفى العدد ثلاث قصائد لستيفن سبندر وداى لويس واديث ستويل . وفيه درس عميق لمارتن تيرنل عن الكاتب الفرنسى ستندال ؛ وهو أحد البحوث التى تنشر منذ زمن فى هذه المجلة تحت عنوان « القصاصون الذين يجمعون بين القصص والفلسفة » . ولم يتم هذا البحث فى هذا العدد ، وينتظر إتمامه فى العدد القادم .

إبتدأ عدد أغسطس سنة ١٩٤٧ من هذه المجلة بقطعة اكتشفت أخيراً لستندال الكاتب الفرنسى الشهير ، وفيها أحلامه وأمانيه .

وفى العدد بحث قيم للكاتب أرنولد توينبى عن روسيا وميراثها البيزنطى .

ووصف ادموند ولسون صيف سنة ١٩٤٥ وقد أمضاه بمدينة روما الخالدة .

وفى هذا العدد تكملة للمقال الهام الذى كتبه مارتن تيرنل عن ستندال ، وهى تتمة ما جاء فى العدد الماضى .

وتابع رينيه لايبوفتز بحثه عن التجديد والتقليد فى الموسيقى الحديثة ، وهو المقال الثالث الذى نشره فى هذا الموضوع من المجلة . والبحث فى المقال الحالى خاص بموسيقى ألبان بيرج .

ناشنال ريفيو National Review (عدد أغسطس ١٩٤٧)

فى حديث الشهر من هذه المجلة الانجليزية ذات النزعة المحافظة كلام عن رفض الروس مشروع مارشال . ومن الطبيعى أن تحمل هذه المجلة على الروس ، وتتكلم عن وجوب تنمية موارد الامبراطورية ، وأن ذلك خير من النظر إلى إعانة تأتى من أمريكا . وقد انتقدت فى هذا الحديث الشهرى

عدم دعوة أسبانيا إلى اجتماع الدول الأوربية . وعالج الكاتب مسائل جديدة داخلية فى هذا المقال الشهرى، أراد أن يثبت فى معالجتها أن حكومة العمال تسير بالبلاد الانجليزية من سيئ إلى أسوأ .

وفى العدد مقال بعنوان تصدير الديمقراطية إلى ألمانيا . يقول كاتبه إن الحلفاء — وهو يعنى البريطانيين والأمريكيين — مع اهتمامهم باطعام القسم الذى يحتلونه من ألمانيا ، لم يهملوا العناية بادخال الروح الديمقراطية فى ألمانيا . ولذلك ساعدوا على إنشاء أحزاب سياسية ، وأعادوا بعض الكتب والموسيقى والأفلام التى كانت محرمة فى عهد النازى . ومع ذلك فان الألمان لا يتنسمون نسيم الحرية ؛ لأن الأمريكان والانجليز يتدخلون فى الحياة اليومية ، ويستعملون طرق الجستابو . ولذلك نجد الألمان يحذرون الاشتراك فى الأحزاب السياسية . ويرى الألمانى من واجبه أن يبتعد عن كل مظهر من مظاهر الاشتراك مع هذه الأحزاب .

وقد وازن أحد الكتاب بين التجنيد الاجبارى للجيش الانجليزى والتطوع ، وهو يرى أن انجلترا أقدمت على حربين عظيمتين وكانت عند بدء كل حرب غير مستعدة لها . وهو يرى أنه قد حان الوقت لأن تنتبه انجلترا لهذا الخطر .

وفى العدد بحوث أخرى عدة جديرة بالقراءة .

من أمريكا

ناشنال جيوجرافيك مجازين National Geographic Magazine

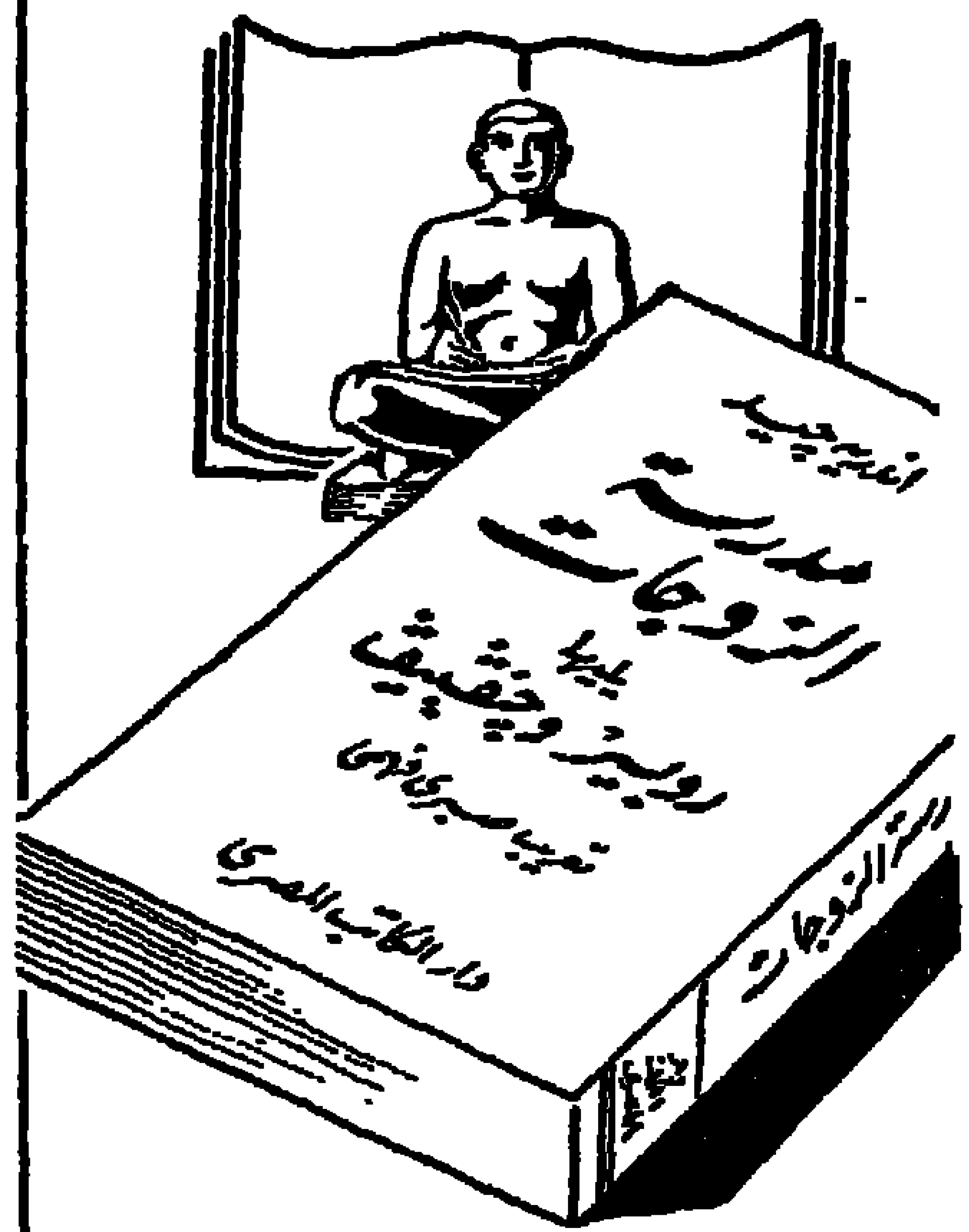
(عدد أغسطس ١٩٤٧)

تحتوى هذه المجلة التى تبلغ الغاية فى الطباعة الأنيقة ، وفى الصور الجميلة الملونة وغير الملونة ، على وصف لأراضى نفاجو بأمريكا ، والنهر الذى يخترقها وهو المعروف باسم نهر الصحراء . وقد وصفت هذه الرحلة وصفاً شائقاً مصحوباً بصور عدة ملونة وغير ملونة ، وقد كتب هذا الوصف مستر ألفريد بيلى . كما أن فى العدد مقالا عن المناطق الصخرية فى جهات يوتا حيث تتخذ الصخور مناظر غريبة ، رسمت لها صور عدة بالألوان . وفيه أيضاً وصف لجهات

خليج بليموث بأمريكا والأرض المحيطة به ، وهى منطقة نزل فيها أول المهاجرين البريطانيين ، الذين فروا إلى تلك البلاد واستوطنوا الأرض الأمريكية .

وكتب مستر هارولد ادجرتون مقالا عن الطيور الأمريكية المعروفة باسم همنجبيردز . وفيه صور بديعة بالألوان أخذت للطائر فى طيرانه . كما أن فى العدد مقالا قيما عن مناظر فنلندا فيما بعد الحرب . ويصف الكاتب ما تعانيه بعض مناطق تلك البلاد من فاقة ، وما يبديه سكانها من شعور نحو أمريكا التى توالى إرسال الاعانات إليهم عن طريق الصليب الأحمر الأمريكى .

فنرى من مجموعة هذه المقالات أن العدد حافل وإن كان فى اتجاهه يهم الامريكيين أكثر مما يهم أبناء البلاد الأخرى .



مدرسة الزوجات

يليها روبير و جنفييف

تأليف أندريه جيد

تعريب صبرى فهمى

فتاة فى نشوة الحب

ثم زوج فى يقظة العقل تتهم زوجها

دفاع الزوج عن نفسه

حكم الابنة على والديها

٣١٢ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)

الباب الضيق

تأليف أندريه جيد

تعريب نزيه الحكيم

مع رسالة من أندريه جيد الى المترجم

ورد طه حسين الى أندريه جيد

« ترجمة كتبي الى لغتكم ؟ . . . الى أى قارىء يمكن أن تساق ؟ وأى الرغبات يمكن أن تلبي ؟ ذلك أن واحدة من الخصائص الجوهرية فى العالم المسلم فيما بدا لى ، أنه وهو الانسانى الروح يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة . أمخطىء أنا ؟ »

أندريه جيد

« لم تخطىء أنت ، وإنما دفعت الى الخطأ . لقد خالطت كثيراً من المسلمين ولكنك لم تخالط الاسلام . . . فلو قد تعمقوا الدين تعمقاً دقيقاً لأظهروك على ما يثير القرآن من مسائل وما يعرض لها من جواب . »

طه حسين

[من مقدمة كتاب « الباب الضيق »]

١٤٦ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٢ مليما)



ليون دوديه

كليمنصو وحياته العاصفة

تعريب حسن محمود

طبعة مزينة بالصور

وصفحة ملونة تبين كيف كان هذا الزعيم يعد خطبه

٣٥ والبريد ٢٤ مليما



مِن حَولنا

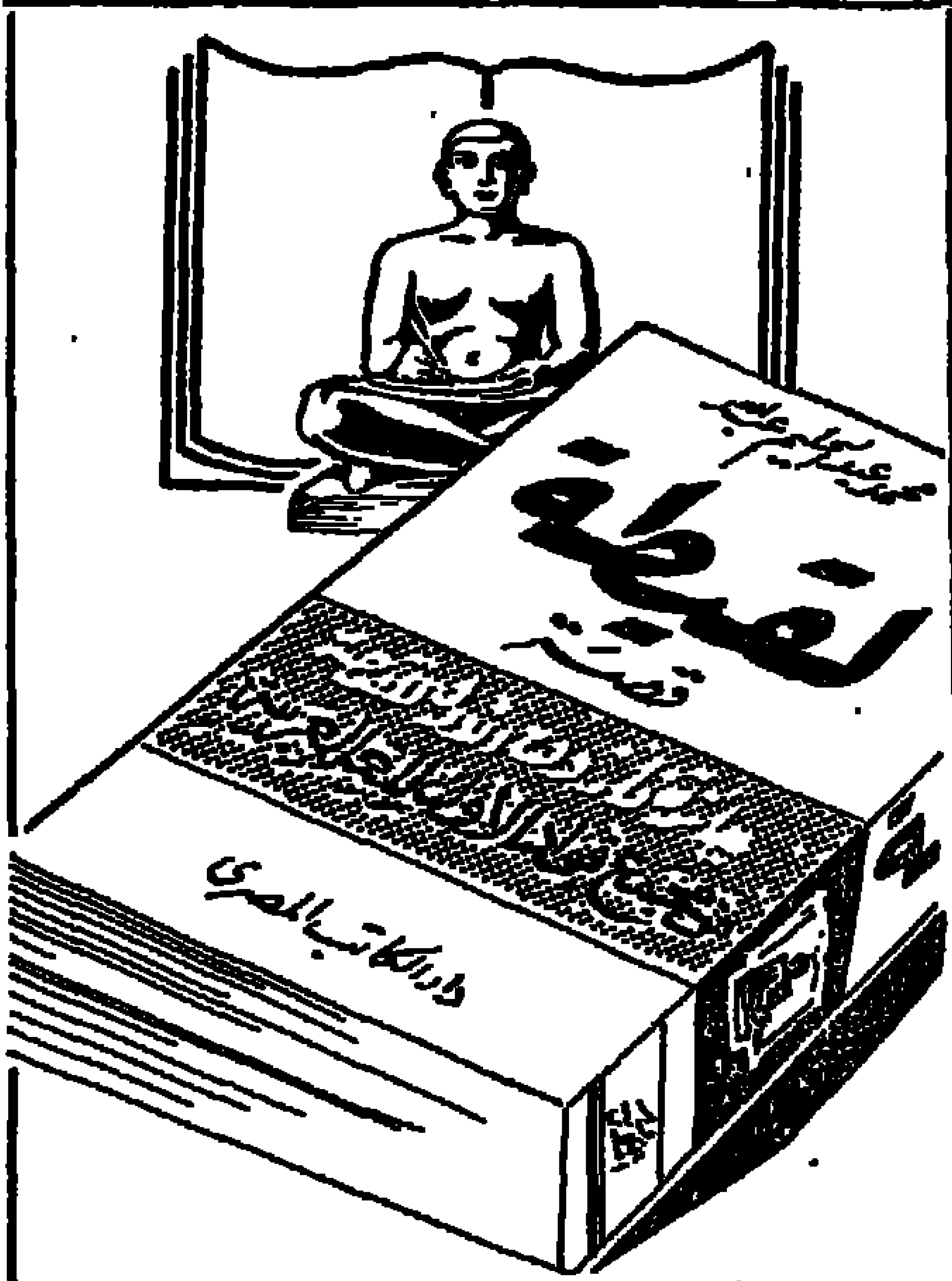
قصص مصرية

تاليف محمد سعيد العريان

جيل من الناس فى أفراحه وآلامه ، يرى كل قارئ فى مرآته صورة من نفسه ، أو صورة من حوله ، فى إطار قصصى رائع فى بيانه وفى فنه .

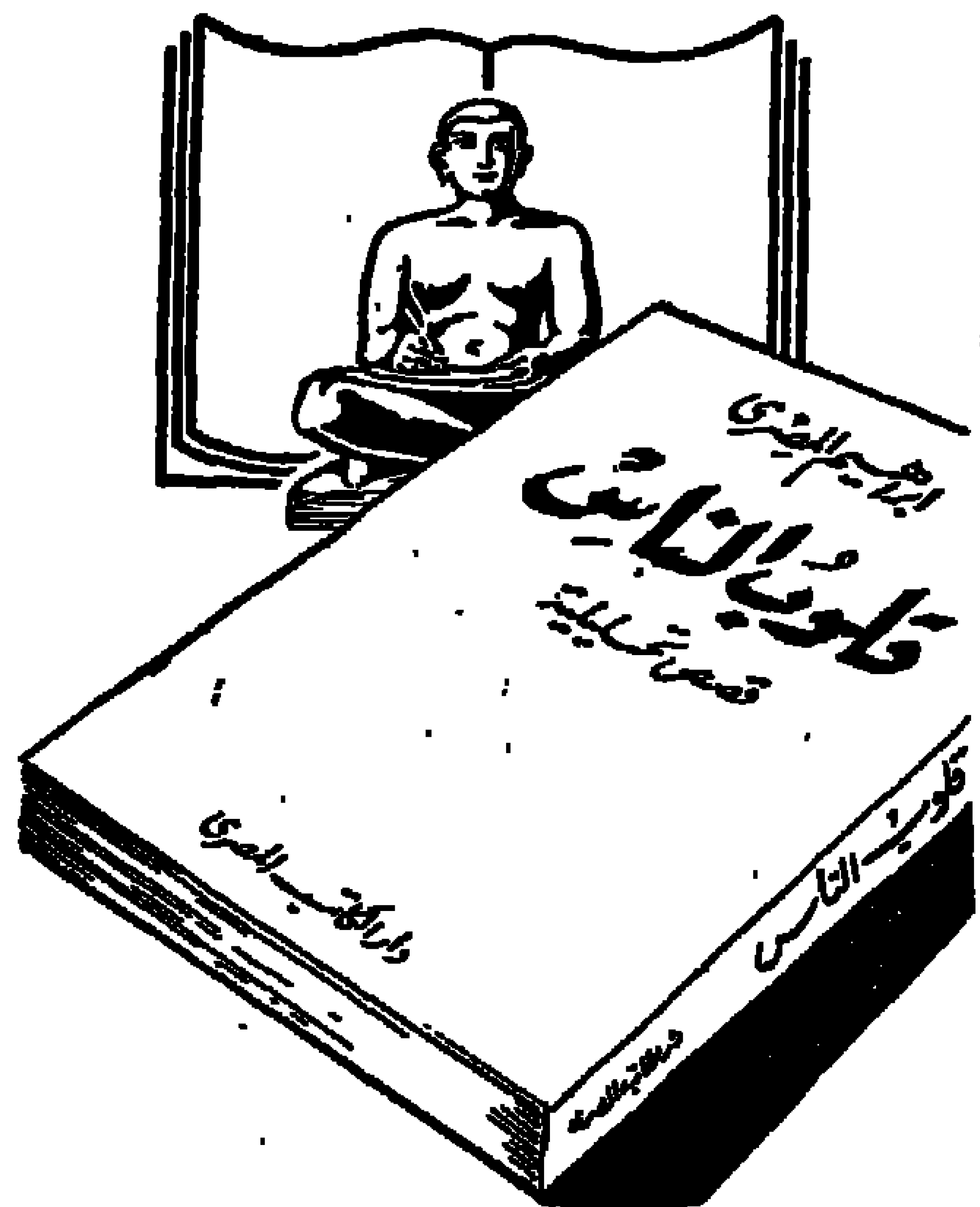
٢٦٠ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٠ مليما)



٢٥٠ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)



١٤٤ صفحة

الثمن ١٥ قرشاً (البريد ١٨ مليما)

قلوب الناس

قصص تحليلية

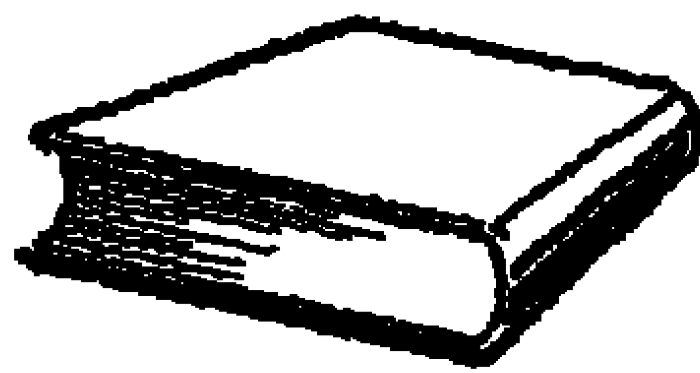
تأليف إبراهيم المصرى

قصص جديدة للكاتب المعروف

إبراهيم المصرى

يصور فيها بيئتنا المصرية الحديثة

فى أسلوبه السهل الجذاب



مجلد ٦ — عدد ٢٣ أغسطس ١٩٤٧

فولتير

زديج

أو القضاء

ترجمة طه حسين



الكاتب المصري
مجلة أدبية شهرية
رئيس التحرير : طه حسين
الثمن بمصر : ١٠ قروش

تحت الطبع

سافونارولا

قصة الراهب الثائر والمصلح الديني والسياسي والاجتماعي

للدكتور حسن عثمان

الضحك

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

تعريب سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم

غانية أطلنطا

قصة رائعة للكاتب الفرنسي بيير بنوا عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب رشدي كامل

عقدة الأفاعي

قصة تحليلية لفرنسوا مورياك عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب نزيه الحكيم

قصة رجل مجهول

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

تعريب محمود الشنيطي

مجلد ٦ — عدد ٢٤ سبتمبر ١٩٤٧

هيروشيما



الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

الثمن بمصر ١٠ قروش

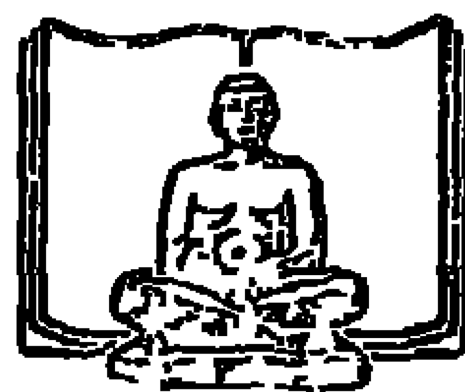
مجلد ٧ — عدد ٢٦

نوفمبر ١٩٤٧

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

مجلد ٦ — عدد ٢٣ أغسطس ١٩٤٧

ڤولتير

زديج

أو القضاء

ترجمة طه حسين



الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

الثمن بمصر : ١٠ قروش

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصرى

ذو الحجـة ١٣٦٦  نوفمـبر ١٩٤٧

السـنة الثالثـة — مجلد ٧ — عدد ٢٦

فى الأدب الفرنسى

جان بول سارتر والسينما

تساءل الكاتب الفرنسى المعروف جان بول سارتر عن الأدب ما هو وماذا ينبغى أن يكون ؟ ودفعه هذا التساؤل إلى أن يضع كتاباً فيما لم يظهر بعد فى مجلد ، ولكنه لنشر تفاريق فى مجلة « العصور الحديثة » ، وقد عرضنا لهذا البحث بشئ من النقد المفصل ، فى عدد يونيو الماضى من هذه المجلة . والفكرة التى دار حولها هذا الكتاب القيم هى مقدار ما يكون بين الأديب وبين قرائه من الاتصال من جهة ، ومقدار ما ينبغى أن يحتمل الأديب من تبعة بحكم هذا الاتصال بينه وبين القراء ، ومشاركته لهم فيما يعرض من المشكلات التى تأتلف منها الحياة الاجتماعية مهما تكن طبيعة هذه المشكلات ، ومن دون تفريق بين ما يتصل منها بالسياسة أو بالنظام الاجتماعى ، أو بأى لون من هذه الألوان التى تؤثر فى حياة الناس ، والتى يجب على الأديب أن يشارك فيها ، ويحتمل نصيبه من تبعاتها ، كما يجب على الأدب أن يصورها ويصور المشاركة فيها ويصور الوسائل المختلفة لتدبيرها والخروج من ضائقتها واستكشاف ما يمكن استكشافه من الحلول لأزماتها مهما تختلف فى الطبيعة والصورة والأثر . وهذه الفكرة هى ما يسميه جان بول سارتر التزام الأدب ، وهى ليست أكثر من أن الأديب يجب أن يعيش مع معاصريه فيشقى بشقائهم ويسعد بسعادتهم ، ويواجه مشكلات الحياة كما يواجهونها ، ويصور هذا كله

فى أدبه تصويراً دقيقاً خصباً مجدياً ، دون أن ينفصل عن حياة معاصريه ، أو يعتزلهم ليعيش فى برجه العاجى ، وينتج فى هذا البرج أدباً لا يتصل بآلام الناس وآمالهم ، وبما يعرض لهم من بؤس ونعيم .

وقد استعرض جان بول سارتر فى كتابه هذا تاريخ الأدب الفرنسى فى عصوره المختلفة ، وبين مقدار ما كان بين الأدباء وقرائهم من الصلات والاشتراك فى احتمال التبعات على اختلاف العصور وتباين الظروف . ووصل من هذا الاستعراض إلى نتائج رائعة فى تاريخ الأدب الفرنسى ليس هنا موضع الحديث عنها . ولكنه لاحظ أن تطور الحياة الحديثة ، ولا سيما فى القرن التاسع عشر وفى أوائل هذا القرن ، قد انتهى بالأدب إلى أن يكون لوناً من ألوان الترف يترفع عن الحياة اليومية العاملة ليعنى بألوان من هذه الحياة الفنية المترفة التى لا تتاح إلا لطبقات ضيقة من الناس . ثم حاول أن يرسم للأديب المعاصر ، ولنفسه وأصحابه بنوع خاص ، برنامجا يحققون به الاتصال بينهم وبين قرائهم ، ويشاركونهم به فى مواجهة ما تمتلئ به الحياة المعاصرة من المشكلات التى تزداد عنفاً وتعقداً من يوم إلى يوم . وقد اضطره هذا إلى أن يستقصى مشكلات الحياة الاجتماعية فى هذه الأيام ، وينتقد المذاهب السياسية الاجتماعية التى تحاول حل هذه المشكلات ، ويختار لنفسه ولأصحابه طريقاً وسطاً بين مذهب الشيوعيين الذين يلغون حرية الفرد ، ومذهب البورجوازيين الذين يبيحون هذه الحرية لفريق من الناس دون فريق . وأراد أن يصل إلى نوع من النظام يكفل للفرد حريته كاملة ، ويكفل للجماعة عدلا شاملا ، ويكفل للأديب حريته الكاملة فى التفكير والتصوير والتعبير دون أن يخضع لما تفرضه الأحزاب على أعضائها من قيود وأغلال تضطرهم إلى أن يفكروا ويصوروا ويعبروا كما يريد نظام الحزب ، لا كما تريد حرية الفرد ولا كما تريد طبيعة الأشياء وحقائق الحياة .

وقد استعرض جان بول سارتر وسائل الاتصال بين الأديب المنتج والجمهور المستهلك ، فلاحظ كما يلاحظ غيره من الناس أن العصر الحديث قد ابتكر لهذا الاتصال وسائل لم تكن معروفة من قبل ، وأن هذه الوسائل قد طغت وأسرفت فى الطغيان على الوسائل القديمة . فالصحف والمجلات أكثر

اتصالا بالجماعات وتغلغلا بين طبقاتها من الكتب . والراديو أكثر اتصالا بالجماعات وتغلغلا بين طبقاتها من الصحف والمجلات فضلا عن الكتب . والسينما أكثر دعاء وأشد استهواء للجماعات على اختلاف طبقاتها من التمثيل .

وإذن فما ينبغى للأديب الذى يقدر الحياة الاجتماعية ويشارك فيها وفى احتمال تبعاتها أن يهمل هذه الوسائل المستحدثة ، ويفرغ لاستخدام الوسائل القديمة التى لم تفقد قيمتها وخطرها ، ولا ينتظر أن تفقد قيمتها وخطرها ، ولكنها لا تستطيع أن تظفر من الشيوع والشمول والتغلغل فى الطبقات المختلفة المتفاوتة بمثل ما تظفر به الوسائل المستحدثة . فستؤلف الكتب ، وسيقرؤها القراء ، وستنشأ المسرحيات وسيشهدها النظارة ، ولكن الصحف والراديو والسينما ستكون أكثر انتشاراً وأشد اتصالا بالجماعات وأعظم تغلغلا فى طبقاتها من الكتب والمسرحيات .

وقد لاحظ جان بول سارتر فى شئ من الدعابة أن بمسرحية قصيرة من مسرحياته حظر تمثيلها فى بريطانيا العظمى . ولكنها أذيعت فى الراديو البريطانى ، فكانت النتيجة أن الذين استمعوا لها من الانجليز كانوا أكثر مرات كثيرة من الذين كان يمكن أن يشهدوها فى ملعب التمثيل . على أن الرقابة البريطانية قد فطنت آخر الأمر لهذه الملاحظة ، فأباحت عرض هذه القصة فى الملاعب . والمهم هو أن جان بول سارتر يريد بلا ريب أن يساير الحياة الحديثة ، وأن يتصل بقرائه أو بمستهلكيه من طريق الوسائل المختلفة التى تستحدث لهذا الاتصال . وقد سلك هو هذه الطريق ؛ فهو يؤلف الكتب على اختلافها ، يؤلف الكتب التى يقصد بها إلى الخاصة ليتحدث إليهم فى الفلسفة الوجودية أو فى هذا الموضوع أو ذاك من موضوعات الدراسة الأدبية . ويؤلف الكتب التى يتجه فيها إلى الجماعات الضخمة ليذيع فيها ما يريد أن يذيعه من تصوره للمشكلات وتصويره لها ومذهبه فى حلها ، يسلك فى ذلك طريق القصص الطويل والقصير .

وهو يصدر مجلته ليتجه فيها مع أعوانه إلى جماعات من القراء قد تؤثر الدراسات الميسرة ، التى لاتنحرف مع ذلك عن مناهج البحث الدقيق ، على الكتب الفلسفية الجافة وعلى القصص السهل اليسير . ثم هو بعد ذلك ينشئ المسرحيات التى يتجه فيها إلى جماعات تحب أن تأتيها متعة المعرفة

والفن لا من طريق القراءة وحدها ، ولكن من طريق القراءة والنظر لحركات الممثلين والاستماع لهم حين يتحاورون . ثم هو لا يكره أن يتحدث إلى المستمعين في الراديو أو ينشئ لهم من الآثار ما يتلى عليهم من طريق الراديو ليستمعوا له غير مقبلين عليه كل الاقبال ، ولا متوفرين له كل التوفر ، ولا معرضين عنه كل الاعراض .

ولم يبق من هذه الوسائل المستحدثة إلا السينما ؛ فقد حاول جان بول سارتر أن يتخذ هذه الوسيلة ليتصل بالجماعات الضخمة المتباينة في البلاد المختلفة المتنائية في وقت واحد . وواضح جدا أن الكتاب والصحيفة والمجلة لا تقرؤها الجماهير مجتمعة ؛ وإنما يخلو فيها القارئ إلى نفسه وإلى الأديب الذي يقرأ كتابه أو مقاله في الصحيفة أو فصله في المجلة . وواضح كذلك أن المسرحية لا تعرض في غير ملعب واحد في المدينة الواحدة ، ولا يشهدها من أجل ذلك إلا جمهور من النظارة مهما يكن ضخما فهو محدود . والذين يمثلون المسرحية أو ينشئون أدوارها ، كما يقول أصحاب التمثيل ، مضطرون إذا نجحت المسرحية أن ينفقوا في تمثيلها الأشهر ليشهده أكبر عدد ممكن من النظارة ، وأن يتنقلوا بها بعد ذلك في كثير من المدن ، بل في كثير من البلاد ، ليظهروا عليها أضخم عدد ممكن من الناس ، وفي ذلك من الجهد والمشقة والعسر ما فيه ثم هو بعد ذلك لا يبلغ من إذاعة المسرحية ما يريد صاحبها ، وما يريد ممثلوها ، وما يريد الناس أنفسهم . أما السينما فهو يملك من وسائل التيسير ما لا تملكه الكتب ولا الصحف ولا الراديو ولا التمثيل . فالقصة الواحدة إذ أعدت للعرض تستطيع بعد إعدادها أن تغزو الأرض كلها في وقت واحد ، وأن تشهدها جماعات النظارة في جميع أقطار الأرض في غير مشقة يحتملها الكاتب أو المخرج أو الممثل ، شأنها في ذلك شأن الكتاب المطبوع ، ولكنها تتحدث إلى الجماعات حين يتحدث الكتاب إلى الفرد . ثم هي تتحدث إلى الجماعات من طريق العين ومن طريق الأذن حين يتحدث الكتاب من طريق العين وحدها أو من طريق الأذن وحدها . ثم هي تستعين على الحديث من طريق العين والأذن بأشياء لا يستطيع الكتاب أن يستعين بها لأنه لا يستطيع أن يحققها . ففيها الحركة ، وفيها اختلاف المناظر ، وفيها ما تمتاز به المناظر من الروعة والقدرة على التأثير المباشر من طريق الأشياء نفسها ، لا من طريق

الألفاظ التي تدل عليها بالرمز الذى يخطئ حينا ويصيب حيناً آخر .

وقد تصحبها الموسيقى فتستأثر بملكات النظارة كلها . فالأديب الذى لا يرى الأدب ترفا ولا فكاهة ولا تلهية ، وإنما يراه جدا من الجد ، يراه مشاركة في الحياة ونهوضاً بأعبائها واحتمالا لتبعاتها ، لا ينبغى له أن يهمل السينما كما لا ينبغى له أن يهمل أية وسيلة تمكنه من أن يتصل بالجماعات ويؤثر فيها فيوجهها إلى ما يريد أن يوجهها إليه ، ويصدها عما يريد أن يصدها عنه ، ويغريها بما يحب أن يغريها به ، ويزهدها فيما يحب أن يزهدها فيه . والأديب من بعد ذلك أو من قبل ذلك مضطر إلى أن يصطنع هذه الوسائل ليحمى نفسه من الفناء ، وليحمى نفوس الجماعات من الفساد . فهذه الوسائل المستحدثة قد وجدت وأصبحت من ضروريات الحياة الحديثة . فليس من سبيل إلى إلغاء الصحف ، ولا إلى إسكات الراديو ، ولا إلى تحريم السينما . فالأديب بين اثنتين : إما أن يغزو هذه الوسائل ويتخذها أدوات لاذاعة الأدب وما يحمل إلى النفوس من خير ورشد وإصلاح ، وإما أن يهمل هذه الوسائل فيقضى على أدبه بالتزام الحدود التى لا يتجاوزها الكتاب ، ويعرّض نفوس الجماعات لشر عظيم تحمله إليها الصحف والراديو والسينما التى ستكون أداة لقوم ليس لهم حظ من أدب ولا من فلسفة ولا من فن ولا من فقه بالحياة ومشكلاتها ، وإنما همهم كله أن يلهو الجماعات بما يذيعون فيها من سخف رخيص ، وأن يستزلوا الجماعات بما ينشرون فيها من دعوة إلى أشياء لعلها لا تلائم ذوقاً ولا منفعة ولا رقيا ولا ميلا إلى الاصلاح . والخلاصة أن الأديب إذا آمن بأنه فرد من الجماعة التى يعيش فيها ، يشاركها فى حياتها ، ويتضامن معها فى النهوض باعباء هذه الحياة ، ويحتمل معها تبعات الجهاد مهما تختلف ، فليس له بد من أن يصطنع كل هذه الوسائل ، قديمها وحديثها ، وما يمكن أن يستحدث منها فى مستقبل الأيام ، ليحقق اتصاله بالجماعات ، ويحقق اتصال الجماعات به .

وكما أن الأديب لا ينبغى أن يعتزل فى برجه العاجى وأن يوحى منه إلى الجماعات كتباً أو فصولا لا تتصل بحياتها اتصالا مباشراً ، وإنما ينبغى أن يعيش مع الناس فى الأرض ويشتق كتبه من نفوسهم ، فهو كذلك لا ينبغى أن يعتزل فى برجه العاجى ليوحى إلى الناس قصصاً تعرض عليهم

فى السينما ، دون أن تكون هذه القصص مشتقة من حياتهم ، مصورة أدق تصوير وأصدقه لما يجدون من ألم ولذة ، وما يحسون من أمل و يأس ، وما يثور فى قلوبهم من عاطفة وشعور . فليست الحياة لهواً ولا لعباً ، وإنما الحياة جهاد ، يحتاج الناس فى أثنائه إلى شئ من اللهو وفنون من التسلية ، ليستعينوا بذلك على احتمال الحياة والمضى فى جهادهم فى غير سأم أو ملل أو فتور . وإذن فيجب أن يلتزم السينما كما يلتزم الأدب ، أى يجب أن يعرض السينما على النظارة حياتهم ، وما يملؤها من المشكلات وما يمكن أن يواجهوا به هذه المشكلات من حزم وعزم ، ومن رفق وأناة ، ومن صبر واحتمال ، ومن حيلة وتصرف ، وما يمكن أن يجدوا لهذه المشكلات من حلول تريحهم منها ليستقبلوا غيرها . فحياة الناس لم تخل ولا يمكن أن تخلو من المشكلات ، ولا سيما حين يكون لهؤلاء الناس حظ من رقى العقل ، وذكاء القلب ، ودقة الحس ، وقوة الضمير .

وقد حاول جان بول سارتر ، اصطناع السينما لاذاعة أدبه أول ما حاول بعرض قصته تلك القصيرة التى حظرت فى بريطانيا العظمى وأذيعت فى الراديو ، وهى القصة التى عنوانها : *Huis Clos* ، والتى أستطيع أن أسميها من « وراء السور » . فالقصة تعرض أمر نفر من الناس دفعوا بعد الموت إلى الجحيم ، وضرب من دونهم بسور ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب . وليس فى جحيمهم هذا الذى دفعوا إليه ، نار تتلظى ، ولا سعير تصهر فيه الجلود وتذاب فيه الأجسام ، بل ليس فيه ألم مادى ما ، وإنما هم مدفعون إلى حجرة من الحجرات التى ألفوها فى حياتهم الدنيا ، وهم مكرهون على أن يقيموا فى هذه الحجرة إلى آخر الأبد ، إن كان للأبد آخر . وهم يصلون متتابعين إلى حجرتهم هذه ، لا يعرفون أنهم موتى ، وإنما يخيل إلى كل واحد منهم أنه قد أقبل على فندق من الفنادق ، وقاده الخادم إلى حجرة من حجراته . فهم يتفقدون فى هذه الحجرة مرافقهم التى ألفوها فى الحياة الدنيا ، وهم يتبينون شيئاً فشيئاً أنهم قد ماتوا ، وأنهم يلقون فى هذه الحجرة جزاء ما قدموا بين أيديهم من الأعمال . وليس هذا الجزاء ألما ماديا ، كما قدمت ، وإنما هو ألم معنوى يتبينون إحساسهم له شيئاً فشيئاً . يتبينون ذلك حين يتعرف بعضهم إلى بعض ، وحين يذكر كل واحد منهم

لنفسه أولا ولرفاقه بعد ذلك ، ما قدم من أعمال منكرة وما اقترف من آثام استحق عليها العقاب ، ثم حين يكون بينهم الاختلاف والتناكر ، وحين يستبين كل واحد منهم أنه لا يستطيع أن يعاشر رفاقه راضياً عن عشرتهم ، ولا يستطيع أن يفلت من هذه المعاشرة ؛ فهو مكره إذن على معاشرة لا يطيقها ولا يطمئن إليها ، ولا يستطيع أن يخلص منها إلا إذا عكف على نفسه وأهمل طائعاً أو كارهاً من حوله من الرفاق . وسواء أراد أو لم يرد ، فهو يرى هؤلاء الرفاق و يتأذى بمنظرهم ، وهو يسمعهم و يتأذى بما يسمع منهم ، وهو يحاول أن يفر منهم إلى نفسه ، فلا يرى في نفسه إلا نكرا . وهو لا يستطيع أن ينسى هذا النكر الذي يراه في نفسه ؛ لأن أعماله كلها تعرض عليه وآثامه كلها تمر أمامه من وراء هذه الأسوار ؛ فيتحدث عنها فيؤذيه حديثه ويؤذي رفاقه ، و يسكت عنها فيؤذيه سكوته و يؤذي رفاقه ؛ لأن كل واحد منهم في حاجة إلى أن يشغل نفسه عن نفسه ، ولأن كل واحد منهم يؤذيه أن يشغل نفسه عن نفسه ، كما يؤذيه ما يحاول من الفراغ لنفسه والانصراف إليها عمن حوله من الناس . فكل واحد منهم إذن إنما يحمل جحيمه في نفسه ، وليست جهنم شيئاً منفصلا عن الانسان ، وإنما هي شيء مستقر في ضميره حيا وميتاً . وكل ما في الأمر أن الانسان في حياته الأولى قد يخدع ضميره ، أو يخدع عن ضميره ، بما يكسب من عمل ، و بمن يعاشر من الناس ، و بما يعرض له من المشكلات التي يشغله بعضها عن بعض ، وبمن اللذات التي قد تشغله عن آلامه وقتاً يقصر أو يطول . فأما بعد الموت فليس يشغله عن نفسه شيء ، وليس يصرفه عن آلامه وآثامه شيء . وهو يعلم حق العلم أنه موقوف على هذه الآلام والآثام ، وأن هذه الآلام والآثام موقوفة عليه أبد الآباد أو أبد الآبدين . وقد يخطر لك أن هذه الفكرة الفلسفية المجردة قد تكون في نفسها قيمة عظيمة الخطر بعيدة الأثر في نفس الذين يظهرون عليها من النظارة حين يشهدون التمثيل أو من القراء حين يقرءون القصة . ولكنك تسأل : كيف عرضت هذه الفكرة على المسرح ، وعلى الشاشة البيضاء ، كما يقول أصحاب السينما ؟ وهذا بالطبع حديث لا أريد أن أقف عنده الآن ، وقد ألم به في مقال آخر حين أعرض لمسرحيات جان بول سارتر . وإنما يكفي أن تعلم أن التمثيل إنما يقوم على ما يكون بين هؤلاء

النفر حين يلتقون من حوار فيه العسر واليسر ، وفيه العنف واللين ، وفيه الخلاف والوفاق . وكله منته آخر الأمر إلى العجز واليأس اللذين ينتهيان بأصحابهما إلى الجنون ، إلا أن الموتى لا يصيبهم الجنون . فأما السينما فانه يصور هذا كله ويؤديه أداء حسناً ، ولكنه يعرض مع هذا كله تلك الآلام والآثام التي اقترفها هؤلاء النفر في حياتهم الأولى ، والتي يتحدث بها بعضهم إلى بعض في ملعب التمثيل ، فلا تظهر النظارة عليها إلا من طريق اللفظ الذي تسمعه الأذن . فأما في السينما فيظهر النظارة عليها من طريق العين لأنها تمر أمامهم مراً كلما عرض لها أصحابها في الحديث .

وكأن نجاح هذه القصة في السينما قد أغرى الكاتب إغراء شديدا بأن يعنى بالسينما من حيث هو سينما ، فلا يعيره قصة كتبت للملعب ، وإنما يمنحه قصصاً تكتب له خاصة .

ومن الكتاب الفرنسيين الممتازين من حاول وما زال يحاول هذا الفن السينمائي الخالص فيظفر بكثير من النجاح والتوفيق . والناس كلهم يذكرون روائع جان كوكتو ومارسيل بانيول . ولكن هذين الكاتبين وغيرهما لا يتجاوزون بآثارهم محاولة التوفيق بين السينما والفن ؛ فليس يعنيهم أن يذيعوا فكرة فلسفية أو أدبية ما ، وإنما يعنيهم أن يمتعوا النظارة بالسينما كما تعودوا أن يمتعوهم بالتمثيل . فأما جان بول سارتر ، فهو لا يكره أن يمتع النظارة ولكنه لا يكتفي بامتاعهم ، وهو لا يكره أن يعظ النظارة ولكنه لا يكتفي بوعظهم ، وإنما يحاول فوق الامتاع والوعظ أن يعرض عليهم مشكلات عنيفة ، بعضها يعرض للانسان من حيث هو إنسان يفكر في حياته ومصيره تفكيراً فلسفيا ، وبعضها يعرض له من حيث هو إنسان يدبر حياته تدبيراً سياسيا واجتماعياً ، فيلقى في هذا كله ما يلقى من المصاعب والعقاب .

وقد كتب جان بول سارتر للسينما قصتين إلى الآن ، عرضت إحداهما في كان ولم تعرض على الجمهور بعد ، ونشرت الثانية في مجلة من مجلات السينما ، ولست أعلم أن المخرجين قد هموا باخراجها بعد . فأما القصة التي أخرجت وعرضت بالفعل فعنوانها الفرنسي *Les jeux sont faits*. وتستطيع أن تترجم هذا العنوان بهذه الكلمة العربية : « لقد تمت اللعبة » ، كما تستطيع أن تترجمه بكلمة واحدة ، وهي « هيهات » . وهذا

العنوان الفرنسي ليس إلا الجملة التي ينطق بها محرك « الروليت » في أندية القمار قبل أن يحرك هذه الأداة ، وبعد أن يضع اللاعبون ما يضعون من النقد على ما يختارون من الأرقام . وإذا نطق صاحب الأداة بهذه الجملة فهو إنما ينبه اللاعبين إلى أن أحدهم لا يستطيع أن يختار رقما غير الرقم الذي اختاره ، ولا يستطيع أن يسترد النقد الذي وضعه على هذا الرقم ؛ فقد تمت اللعبة ولم يبق إلا أن تجرى الكرة وتختار اللاعبين أو تختار من اللاعبين صاحب الرقم الذي أتيح له الكسب . فاذا قلت تمت اللعبة ، أو قلت هيهات، أو قلت سبق السيف العذل، أو قلت لاسبيل إلى استدراك ما فات، فقد أديت المعنى الفلسفي الذي قصد إليه الكاتب حين أنشأ قصته .

ويقول النقاد الذين شهدوا عرض هذه القصة في مدينة كان إنها لم تظفر بشيء من النجاح ، ثم يختلفون بعد ذلك في مصدر هذا الاخفاق ؛ فبعضهم يحمل تبعته على جان بول سارتر لأنه كلف السينما ما لا يطيق ، وعرض على النظارة مشاهد لا يحبون أن يروها ولم يتعودوا أن يروها، وكلفهم أن يخادعوا أنفسهم خداعاً عظيما قوامه التحكم الخالص ليفرقوا بين أشخاص ومشاهد لم يألفوا التفريق بينها . وبعضهم يحمل تبعة هذا الاخفاق على المخرجين والمثلين لأنهم لم يحسنوا الاخراج والعرض والتمثيل . ومن الحقق أني لن أحاول القضاء بين هؤلاء المختصمين ؛ فلست من السينما في شيء ، وليس السينما مني في شيء . ولكن من المحقق أيضاً أني قرأت هذه القصة التي أذيعت في الناس تمهيداً لعرضها عليهم ، وقرأتها ثلاث مرات ، فلم تزدني قراءتها إلا إعجاباً بها ورضا عنها لا لما فيها من آراء فلسفية فحسب ، ولا لما لها من قيمة أدبية فنية فحسب ، ولكن لهاتين الخصلتين جميعاً ولخصلة ثالثة ، وهي طريقة العرض التي يقتضيها السينما والتي تدفع الكاتب والقارئ جميعاً إلى شيء من النشاط والحركة والتنقل السريع المفاجئ من بيئة إلى بيئة ، ومن طور إلى طور ، بل من عالم إلى عالم كما سترى .

وليس يعنيني أن تظفر هذه القصة بالنجاح على الشاشة البيضاء أو لا تظفر به ، وإنما الذي يعنيني أنا قبل كل شيء هو أن هذا اللون من الكتابة القصصية يمكن أن يقصد إليه الكاتب في نفسه ، سواء عرض على النظارة أو لم يعرض ، فهو في نفسه فن طريف حي خصب يستطيع أن يكون

أداة قيمة جداً لابلاغ ما يريد الأدباء أن يبلغوه إلى قرائهم من طريق الكتاب . ولا عليهم بعد ذلك أن يستغله السينما فينجح في استغلاله أو يخفق ، ولا عليه ألا يستغله السينما أصلا . وقد أستطيع أن أضرب لك مثلا مقارباً ؛ فالأدب التمثيلي القديم اليوناني واللاتيني ممتع حين تقرؤه ، خالد بحكم هذا الامتاع ، وقليل منه يمكن أن يمثل في الملاعب ويظفر برضا النظارة ، ولكن أكثره قد فقد هذه الخصلة ، وأصبح ممتعا بقراءته ليس غير .

وقد يستطيع الممثلون المعاصرون أن يعرضوا على النظارة « أنتيجون » ، أو « أوديب » ، أو الكنز من آثار سوفوكل . ولكني أشك أعظم الشك في أنهم يستطيعون أن يعرضوا على النظارة « فيلوكتيت » أو « إياس » . من آثار هذا الشاعر نفسه ، وأن يظفروا بشيء من إعجاب النظارة المحدثين . وكل رجل مثقف يجد المتاع كل المتاع في قراءة هاتين القصتين ، بل قد حاول أندريه جيد في كثير من التوفيق أن يجدد قصة « فيلوكتيت » ، كما جدد قصة « أوديب » ، وكما جدد كتّاب آخرون قصصاً أخرى لسوفوكل وغيره من القدماء . فالكتاب الذين يستعيرون من السينما طريقته في العرض والحركة والتنقل السريع يجددون في الأدب تجديداً خطيراً ، ويفتحون للأدباء آفاقاً واسعة سواء وفق المخرجون أم لم يوفقوا في إخراج ما يكتبون .

والذين قرءوا « طريق الحرية » ، أو ما ظهر من « طريق الحرية » ، لجان بول سارتر ، يلاحظون أنه لم يصل إلى هذا اللون من الفن فجاءة ولا عن إرادة وتعمد . وإنما وصل إليه شيئاً فشيئاً من طريق التطور الفني الرفيق ، تأثر في ذلك ببعض الكتاب الأمريكيين ، وتأثر فيه بالسينما ، وتأثر فيه بالحياة الحديثة نفسها . فهو في طريق الحرية قاص ، ولكنه لا يقص أحداثه كما تعود الكتاب أن يفعلوا ، وإنما هو أمام أشخاص كثيرين جدا مختلفين أشد الاختلاف ، يعيشون في أقطار متنائية متباعدة ، وتحدث لكل واحد منهم ألوان مختلفة من الأحداث ، كلها متأثر بذلك الروع الذي ملأ الأرض قبيل الحرب العالمية الثانية . وهو يلقي إليك أطرافاً من هذه الأحداث في شيء يشبه أن يكون فوضى ، ولكنه قد نظم أدق تنظيم وأمتنه . فهو يحدثك عن رجل مروع في هذه المدينة من مدن تشيكوسلوفاكيا ، ثم يثب بك إلى مدينة ميونيخ حيث الاستعداد للقاء هتلر وتشمبرلين ، ثم أنت في باريس

فى ناد من أندية اللهو ، ثم أنت فى باريس فى غرفة خاصة حيث يتناجى عاشقان . وهو كذلك يتنقل بك فى أقطار أوربا ، وربما نقلك إلى إفريقية ، وربما عبر بك البحر بين مراكش وفرنسا . وأنت لا تستقر فى مكان من هذه الأماكن إلا ريثما ينقلك منه إلى مكان آخر . ولكنه على كل حال مغرق فى هذا الروع الذى ملأ الأرض قبيل الحرب ، مفكر فى الحرب ، مستحضر لها ولأهوالها ، شاهد لآياتها وبوادرها ، متأثر بعد ذلك بما لكل قصة من هذه القصص الكثيرة المختلفة المختلطة من عبرة تتصل بالسياسة أو بالخلق أو بالفلسفة أو بنظام الاجتماع . فهو لا يقص عليك الأحداث ، وإنما يعرضها عليك عرضاً ، قد استعار للكتابة فن السينما فى العرض ، فأتقن الكتابة والعرض جميعاً ، بحيث يمكن أن يعرض هذان الجزءان اللذان ظهرا من كتابه عرضاً سينمائياً فى غير مشقة ولا عناء .

فلا غرابة إذن فى أن يستقبل الكتابة الأدبية الفلسفية للسينما ، ولا غرابة كذلك فى أن يجد الفنيون مشقة فى الاخراج ، ويجد النظارة عسراً فى الفهم والاستمتاع .

والقصة التى نحن بازائها ، تعتمد على شخصين اثنين ، هما البطلان ، ومن حولها أشخاص كثيرون ، لكل منهم مكانه وأثره . وهذان الشخصان رجل وامرأة . فأما الرجل فهو بيير دومين وهو عامل ممتاز بين زملائه ، قد أسس مع جماعة من رفاقه جماعة الحرية التى تنظم مقاومة الطاغية منذ أعوام ، وهى تستعد للثورة من غد . وأما المرأة فهى إيف شارلييه ، وهى بالطبع جميلة رائعة الجمال ، غنية واسعة الغنى ، تشغل مع زوجها فى الطبقة الممتازة مكاناً رفيعاً . فاذا بدأت القصة ، فإيف هذه مريضة تراها فى سريرها مكدودة ، وقد أقبل زوجها مترفقاً ، فدنا منها وتبين أنها لم تحس مقدمه لأنها مغرقة فى النوم . ثم يعرض عليك منظر غرفة حقيرة فى بيت متواضع ، وقد اجتمع رؤساء العمال حول رئيسهم بيير ، وقرروا بعد مناقشة أن تبدأ الثورة من غد . ثم نترك هذه الغرفة ، ونرى بيير فى الشارع يركب دراجته ، ويدنو منه غلام يعتذر من بعض الخطأ ، ونفهم أنه قد وشى بالجماعة إلى الشرطة بعد أن عذبته الشرطة عذاباً شديداً ، ونفهم كذلك أن بيير لا يريد أن يعفو عنه ، وإنما يزدريه أشد الازدراء ، فيمتلىء قلب

الفتى حفيظة وموجدة وخزياً ، ثم نرى بيير قد وصل إلى مكان خارج المدينة حيث تعمل طوائف من العمال والفتى يتبعه ، حتى إذا بلغ قريباً من أصحابه أطلق الفتى عليه مسدسه فخر صريعاً . وأقبل العمال من كل صوب حين سمعوا انطلاق المسدس . ثم نعود إلى الغرفة التي تمرض فيها إيف ، فنرى زوجها قد انحنى ينظر في وجهها ، حتى إذا استيقن أنها نائمة استخرج من جيبه زجاجة صغيرة وصب منها قطرات في قدح من الماء قد وضع إلى جانب السرير ، ثم انسل إلى الصالون حيث كانت تنتظره لوست أخت امرأته ، وهي فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، مشفقة أشد الاشفاق على أختها ، فلا تكاد تسأله عن حالها حتى يهيئها للنبأ الخطير ، والفتاة جزعة أشد الجزع ، ولكن الرجل يهدئ من روعها في رفق ، ونفهم أنه يتملقها ويريد أن يخيل إليها شيئاً يشبه الحب .

ثم نعود إلى خارج المدينة فنرى بيير صريعاً قد أحاط به العمال ، وقد أقبلت فرقة من الجند فالعمال يتحرشون بها ، ويريدون أن يرجموها بالحجارة ، والجند يتهيأون لاطلاق النار . ثم نعود إلى الغرفة التي تمرض فيها إيف فنراها قد أفاقت من نومها وأخذت القدح وشربت ما فيها ، ثم نهضت متثاقلة فسعت إلى الصالون ودعت زوجها ، ثم عادت إلى سريرها وجعلت تحذر زوجها في صوت خافت متهالك من أن يعرض لأختها بشر ، وتنبئه بأنها ستبرأ وستحمي أختها منه ، وبأنه لم يتزوجها إلا رغبة في ثروتها ، وبأنه الآن يطمع في ثروة أختها . وزوجها يسمع لها غير حافل ولا مكترث ، ثم لا تلبث أن تموت . ونعود إلى خارج المدينة فنرى العمال مزدحمين حول الصريع يتأهبون لرشق الجند بما في أيديهم من حجارة وحديد ، ويأبون أن يفسحوا لهم الطريق ، والجند يريدون إطلاق النار . ولكن بيير ينهض من مصرعه ويتخطى جثته التي لا تزال في مكانها ، وينصح للعمال بأن يتفرقوا ملحاً عليهم أشد الالحاح ، ولكن أحداً من العمال لا يسمع صوته ولا يرى شخصه . فاذا استيأس منهم رفع كتفيه ومضى لوجهه . ونعود إلى غرفة المريضة التي صرعها الموت ، فنراها قد نهضت وجعلت تسعى من الغرفة حتى تبلغ الصالون ، فترى أختها الفتاة منتحبة قد وضعت رأسها على كتف الزوج الذي جعل يهدئها ويواسيها متلطفاً مترفقاً متحبباً أيضاً ، وهي تقف أمامهما فلا يريانها

وتتحدث إليهما فلا يسمعانها ، حتى إذا استيأست منهما تركتهما ومضت نحو الباب ، فتلقى الخادم فى طريقها فتتحدث إليها ، ولكن الخادم لا تراها ولا تسمعها ، وهى تمر أمام المرآة فتنظر إليها ، ولكن المرآة لاترد إليها صورتها ، وهى تنظر فترى المرآة ترد صورة الخادم ولا ترد صورتها هى ، فتنطلق . ونحن فى الشارع نرى حركة الناس وازدحامهم واضطرابهم فيما يضطربون فيه، ونرى فى الوقت نفسه بيير يسعى فى بعض الطريق وإيف تسعى فى بعض الطريق أيضا ، وكلاهما يرى الناس ويسمع منهم ، ويحاول أن يعرض لهم فلا يراه أحد ، وأن يتحدث إليهم فلا يسمع منه أحد . وكلاهما يمضى فى طريقه يسأل عن شارع بعينه لأنه على موعد فى هذا الشارع ، ولكنه يسأل فى غير طائل ؛ فالناس لا يرونه ولا يسمعونه ولا يجيبونه . وكلاهما يسعى مع ذلك حتى يصل إلى زقاق ضيق غريب قد كتب عليه اسم الشارع الذى يسأل عنه . وكلاهما يدخل فى هذا الزقاق ، فاذا جماعة من الناس قد وقفت أمام باب مغلق فى أقصى الزقاق ؛ وهذا الباب يفتح بين حين وآخر فيدخل منه أحد هؤلاء الناس ، ثم يغلق حيناً ثم يفتح ليدخل منه شخص آخر . ويلاحظ بيير وإيف أنهما يريان هؤلاء الناس ويسمعان منهم ، وأن هؤلاء الناس يرونهما ويسمعون منهما . والباب يفتح فيدخل بيير ، وإذا هو فى حجرة ضيقة يمضى فيها حتى يبلغ أقصاها ، فإذا سيدة نصف قد جلست أمام مائدة وعلى المائدة دفتر ضخم . فاذا انتهى بيير إلى هذه السيدة سألها فى أدب أهى تنتظره ؟ فتنبئه السيدة بأنها تنتظره ، ثم تنبئه باسمه وتاريخ مولده . ولا يكاد يدهش لذلك حتى تنبئه بأنه قد مات مقتولا ، ثم تطلب منه إمضاءه على الدفتر ، فاذا فعل أذنت له فى الانطلاق ، ولكن على أن يخرج من باب غير الباب الذى دخل منه . فاذا سألها إلى أين أذهب وماذا يجب أن أعمل ؟ أنبأته بأن الموتى أحرار يذهبون إلى حيث يشاءون ويعملون مايشاءون . وتجرى القصة نفسها لايف بعد حين ، فتعلم من السيدة أنها قد ماتت مسمومة ، وتمضى على الدفتر ، وتمضى حرة تذهب إلى حيث تشاء وتعمل ما تشاء لأن الموتى أحرار بعد أن يوقعوا بأسمائهم فى سجل الأموات .

ولست أقص عليك تفصيل ما يعرض لهذين الميتين بعد خروجهما من هذه الحجرة وانطلاقهما فى المدينة يريان الأحياء ويسمعانهم ، ولكن الأحياء

لا يرونهما ولا يسمعونهما . ويلقيان الموتى فنونا وأشكالا ، منهم المحدثون ومنهم الذين بعد عهدهم بالموت . وهما يستطيعان أن يتحدثا إلى الموتى ، وأن يسمعا منهم ، وأن يتندرا معهم بالأحياء وما يعملون . لا أقص عليك ما يعرض لها من خطوب ؛ فذلك شئ يطول ، وإنما أسجل شيئين اثنين : أحدهما أن بيير يذهب مع دليل له من الموتى إلى قصر الطاغية ، فيدخل القصر وينسل إلى غرفة الطاغية ، فيراه متبذلا متهيئا لاتخاذ ثيابه الرسمية . ويتناول طعامه ومن حوله موتى كثيرون ، كلهم مبغض له ساخط عليه يريد أن يصيبه بالمكروه ، ولكنه لا يبلغ مما يريد شيئاً لأن الموتى لا يبلغون مما يريدون شيئاً . وقد أنبأهم بيير بأن الطاغية سيموت من غد حين تشب الثورة التى دبرها ، والموتى لا يصدقونه ، ولكنه يلح حتى يوشك أن يقنع بعضهم بصدق ما يقول . ولكن رئيس الشرطة يدخل فينبئ الطاغية بأن زعيم الثورة قد قتل ، ويغضب الطاغية لذلك غضباً شديداً ؛ فهو قد كان أعد للثورة جيشاً ضخماً وقرر أن يسحقها سحقاً وأن يريح نفسه منها عشر سنين على الأقل . وإذن فقد استيقن بيير بأن الثورة ستسحق ، وأن الطاغية لن يفاجأ ، والموتى يضحكون منه ويحاولون تعزيته ، ولكنه يمضى مغضباً لا يلوى على شئ ، حتى يبلغ الغرفة التى كان يأتمر فيها مع أصحابه ، فيراهم ويسمعهم ، ويعلم أن مصرعه قد بلغهم . ويحاول أن يتحدث إليهم ليردهم عن الثورة ويحملهم على تأجيلها ، ولكنهم لا يرونه ولا يسمعون منه ، فينصرف عنهم يائساً مستيقناً بوقوع الكارثة من غد .

هذا أحد الأمرين . أما الأمر الثانى فهو أن بيير يلقى إيف فينظر إليها ويدنو منها ويكون بينه وبينها حديث ثم شئ يشبه الألفة . وهما يذهبان معاً إلى إحدى الحدائق ، وإلى ناد من أندية اللهو فى هذه الحديقة تغشاه الطبقة الممتازة من أصحاب إيف . وهما يريان ويسمعان ، ولكن أحداً لا يراهما ولا يسمعهما . وقد استحالت ألفتهما إلى تعاطف ، ثم إلى شئ يشبه الحب ، وهما يتراقصان ، ولكنهما لا يجدان لذة الرقص لأن الموتى لا يجدون لذة لشئ . وكلاهما يود لو بذل نفسه ثمناً للحظة قصيرة ينفقها مع صاحبه كما ينفق الأحياء أوقاتهم حين يكون بينهم الحب . ولكن كليهما يحس كأنه مدعو إلى موعد ، فينطلقان حتى يبلغا تلك السيدة التى تسجل الموتى ، فتنبئهما بأنها

كانت تنتظرهما ، وبأنها قد علمت أن كليهما يظن أن قد غلط به فى الحياة ، وأن كلا منهما قد خلق لصاحبه ، وأن المادة الأربعين بعد المائة من القانون تقضى فى مثل هذه الحال بتصحيح الخطأ ورد الحياة إليهما أربعاً وعشرين ساعة . فاذا استطاعا أن يستأنفا منها حياة قوامها الحب الصحيح مدت لها أسباب الحياة ، وإلا عادا إلى الموت . وهما يزعمان لهذه السيدة أن قد غلط بهما وأن كلا منهما قد خلق لصاحبه فترد إليهما الحياة . ويودعان الموتى الذين يتمنون لها الخير ، ومنهم من يكلفهما بعض الأعمال فى عالم الدنيا .

ثم نعود إلى خارج المدينة فاذا جثة بيير فى مكانها ، وإذا العمال من حولها يتأهبون لرشق الجند بالحجارة ، والجند يتهيأون لاطلاق النار . فقد حدثت كل هذه الأحداث على كثرتها فى لحظة قصيرة ؛ لأن الزمن لا حساب له بالقياس إلى الموتى . وقد جلس بيير بعد أن ردت إليه الحياة ، وتحدث إلى العمال فاستيقن أنهم يرونه ويسمعونه ؛ وآية ذلك أنهم أطاعوه وتفرقوا . ولكنه ينهض فى شئ من ذهول ويعمد إلى دراجته فيركبها ويعود إلى المدينة . وقد أرسل العمال من ورائه أحدهم ليتبعه ويعينه إن احتاج إلى شيء من عون .

ونعود إلى الغرفة التى ماتت فيها إيف ، فنراها على سريرها وقد جثت أختها منتحبة إلى جانب السرير . ولكن إيف تتحرك ثم تتكلم ثم تنهض . وقد حدثت كل هذه الأحداث فى أقصر لحظة ممكنة ؛ لأن الزمن لا قيمة له بالقياس إلى الموتى . وقد ابتهجت أختها الفتاة حين رأتها تفيق ،وسقط فى يد الزوج فخرج يلتمس لها الطبيب . وجعلت إيف تتحدث إلى أختها محذرة لها من هذا الزوج الخائن الذى يخدعها ليظفر بثروتها ، والفتاة تدافع عن هذا الزوج لأنها لم ترمنه إلا خيراً . ونحن أمام الدار التى تسكنها وهى دار أنيقة فخمة قد أقبل عليها بيير ، حتى إذا بلغها نزل عن سيارته ودخل وسأل البواب عن الطابق الذى تسكنه إيف شارلبييه ، فيدله عليه مزدرياً له ، ويأمره بأن يرق إليه من سلم الخدم . ثم نرى الخادم قد أقبلت تنبئ سيدتها بمكان هذا العامل ، وبأنه يريد أن يلقاها ، وبأنه ينتظر فى المطبخ . فتذكر إيف كل ما حدث لها أثناء الموت وتأذن لبيير . فاذا أقبل راعه ما فى هذه الدار من ترف لم ير مثله قط ، وهو على كل حال يلقى صاحبته ويتحدث إليها ويدعوها إلى أن ترافقه ؛ وهى تتردد شيئاً ، ثم تذكر ما زعمت لمسجلة الموتى ، فتهم أن تخرج ، ولكن

الزوج يقبل ، فيراها وقد ظهر تفوقه على امرأته . فقد رآها فى غرفتها مع رجل غريب من غير طبقتها ، ورأى بينهما صلات لا تكون إلا بين العاشقين . فهو يريد أن يطردها ، ولكنها تخرج مع رفيقها وفى نفسها شئ من حب ، وفى نفسها كثير من حسرة وخوف على أختها . وها يستأنفان فى الشارع كل ما حدث لها أثناء الموت ، فيسعيان إلى الحديقة ، وإلى النادى . ويريان أصحاب إيف ويسمعانهم ، ولكن أصحاب إيف يرونهما هذه المرة وينكرون مكانهما ويسخرون منهما . وها يشقيان بذلك شقاء مختلفاً مصدره استخذاء المرأة من رفيقها العامل الوضيع أمام هذه الطبقة الممتازة ، واستخذاء الرجل من ضعة هيئته ومما بينه وبين صاحبته من الفرق الهائل فى الطبقة وفى الفقر والغنى . ولكنهما كليهما حريصان مع ذلك على أن يستأنفا حياة قوامها الحب ؛ فقد أعطيا بذلك عهداً فى دار الموتى ؛ فهما يعرضان عن كل ما يلقاها من المصاعب ، وها يتراقصان فى نفس المكان الذى تراقصا فيه ميتين ، ولكنهما يجدان لذة الرقص فى هذه المرة ، ويكادان ينعمان بهذه اللذة لولا هذه البيئة التى تنغص عليهما كل شئ . وقد وقع الشر بين بيير وبين رجل من هذه البيئة ، وأقبل جندى يريد أن يعنف ببيير ، فتظهر إيف بطاقتها للجندى ، ويعلم بيير لأول مرة أن زوجها يشغل منصباً خطيراً فى الشرطة فينصرف عنها هارباً . ألم ينفق حياته كلها فى مقاومة هذه الشرطة والكيد لها ؟ فالنظام الاجتماعى كله ، والنظام السياسى كله ، والنظام الاقتصادى كله ، يحول بينه وبين هذه المرأة التى زعمت أنها خلقت له ، والتى زعم أنه خلق لها . ولكن إيف تدركه وما تزال به حتى ترده إلى بعض الهدوء ، ثم يتعاونان على إنفاذ ما أوصاها به بعض الموتى فيقرب ذلك بينهما شيئاً ما . ثم يذهبان إلى دار بيير ويفترقان حين يبلغانها . يريد بيير أن تستأنس صاحبته إلى هذه الدار وحدها من جهة ، وأن يسرع إلى أصحابه فينبههم إلى الخطر الذى ينتظرهم من جهة أخرى ، فأما هى فتصعد إلى الغرفة التى يعيش فيها بيير ، وتجد شيئاً من الحرج فى الاطمئنان إليها والاستقرار فيها ، ولكنها مع ذلك تذعن لما ليس منه بد فتأخذ فى إصلاح الغرفة . وأما هو فيذهب إلى أصحابه ، فاذا لقيهم أنكروه أشد الانكار ، لأنهم عرفوا دخوله دار هذا الموظف الكبير من موظفى الشرطة وخروجه مع امرأته . ثم لم يكتفوا بالشك

فيـه ، و إنما اتهموه بالتجسس عليهم بأنه قد أفضى بأمرهم كله إلى حكومة الطاغية . وقد انصرف عنهم يائساً منهم ، وعاد إلى صاحبته حزيناً كئيباً ؛ فهى تواسيه وتسليه وترفق به وتذكره الحب وما أعطيا من عهـد وما ضرب لها من موعد سينتهى إذا كان الغد . وهما كذلك إذ يأتى أحد العمال فينبئ بيير بأن أصحابه قد ائتمروا به ليقتلوه ، و يحثه على الهرب بأنهم قادمون لإنفاذ ما أزمعوا . والعامل ينصرف وبيير ينبئ صاحبته بأنه مقتول بعد حين ويأبى الهرب . وهذه أقدام يسمع وقعها ، و إذا العاشقان يعتنقان والباب يطرق ثم يطرق ، ثم ينصرف الطارقون فلا يشك العـاشقان فى أن النصر قد كتب لحبهما ، وفى أن الموت قد صرف عنهما لينعما بهذا الحب السعيد .

فاذا أصبحا من الغد فهما راضيان بعض الرضا لا كله ، لا يشك أحدهما فى أنه يحب صاحبه . ولكن بيير يذكر الثورة التى ستسحق بعد حين وأصحابه الذين سيمحقون محقاً ، و يريد أن يبذل آخر جهد لينقذ الثورة من الاخفاق ، وينقذ أصحابه من الموت . و إيف تذكر أختها التى توشك أن تكون فريسة لهذا الرجل الذى لا يحبها و إنما يحب ثروتها ، وهى تريد أن تبذل آخر جهد ممكن لأنقاذها . وهما مع ذلك يحاولان أن يستمسكا بالحب والحياة ، ولكنهما يفترقان على أن يلتقيا بعـد ساعة قبـل أن يحين الموعد الذى ضرب لها فى دار الموتى .

فأما هى فلا تكاد تدخل دارها حتى ترى أختها وزوجها قد جلسا إلى طعامهما جلسة لا تخلو من ريبة ، فتخرج المسدس وتأمرهما ألا يتحركا حتى تقص على أختها خيانة زوجها ، ثم تأمرها بأن تستخرج من مكتب زوجها رسائل الحب التى تثبت خيانته . وأما بيير فقد ذهب إلى أصحابه فى نفس ذلك الوقت وقد اجتمع إليهم زعماء العمال ، وقد أخـذ أصحابه ينكرونه ، وأخـذ هو يدافع عن نفسه حتى اطمأنت إليـه الجماعة بعد لأى وهمت أن تؤجل الثورة . ولكن الثورة قد بدأت فى مواضع كثيرة ، وهم يتداولون فيما ينبغى أن يتخذوا من قرار لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . وقد دنا الموعد الذى ضرب لبيير وصاحبته فى دار الموتى ؛ فهو يسرع إلى التليفون لينبئ صاحبته بأنه لا يستطيع فراق زملائه ، وهو يحاورها حواراً شديداً فى التليفون لسمعه نحن ، والوقت يمضى و يمضى . وقد أقبل الجند فحاصروا المجتمعين ، وتطلق رصاصة

فيخر لها بيير صريعاً والجند يقتحمون الدار ويقهرون من فيها . ثم نرى بيير يتخطى جثته ويمضى لا يراه أحد ولا يسمعه أحد . ثم نراه بعد ذلك وقد لقى إيف ميتين وكلاهما يتحدث إلى صاحبه كأنهما قد خلعا عن أنفسهما وعن الحب ، وبأن التجربة قد أخفقت ، وبأنهما قد عادا إلى الموت لأن بيير لم يتمن الحياة إلا لينقذ الثورة وأصحابه ، ولأن إيف لم تتمن الحياة إلا لتنقذ أختها من زوجها الخائن الأثيم . وقد أخفقا جميعاً ، فلم يستطع بيير أن ينقذ الثورة ولم تستطع إيف أن تنقذ أختها . ويلقاهما أحد الموتى فيسألهما دهشاً : ألم تنجحا فيما حاولتما ؟ فيجيبه بيير : كلا ياسيدى لقد تمت اللعبة ، فليس لأحد اللاعبين أن يختار . ويلقاهما مع ذلك ميتان آخران فتى وفتاة يخيل إليهما أن كلا منهما قد خلق لصاحبه ، وأنه قد غلط بهما فى الحياة الأولى ، وأنهما يستطيعان إن أتيح لهما الانتفاع بالمادة الأربعين بعد المائة أن يستأنفا حياة سعيدة قوامها الحب ، فيشير عليهما بيير وإيف بأن يحاولا ، فمن يدرى لعلهما أن يظفرا بما لم يتح لهما الظفر به .

وكذلك تنتهى هذه القصة التى لم أرسم لك منها إلا أيسر ما فيها ، وهى على ذلك تصور لك ما قصد إليه جان بول سارتر من عرض هذه الظروف القاسية المحتومة التى يفرضها النظام الاجتماعى والسياسى والتى تفرق بين الناس تفريقاً محتوماً لا سبيل إلى التخلص منه إلا إذا تغير النظام السياسى والاجتماعى ، وزالت هذه الفروق التى تجعل من الناس أقوياء وضعفاء وفقراء وأغنياء ، لاسبيل إلى أن يلتقوا ولا إلى أن ينعموا بالحياة مادامت قائمة . فهم يجدون المساواة إذا ماتوا ويطمحون إليها مخلصين ويودون لو ردوا إلى الحياة ليحققوها ، ولكنهم لا يستطيعون تحقيقها إذا ردوا إلى الحياة ؛ لأن اليد الواحدة لاتستطيع التصفيق ولأن النظام السياسى والاجتماعى لا تغيره إرادة فرد أفراد ، وإنما تغيره إرادة إجماعية لا تتحقق إلا بالتطور . ومن يدرى ! لعل التطور لا يكفى لتحقيقها ، ولعلها تحتاج لشئ أشد عنفاً من التطور وهو الثورة .

وليس هنا موضع الحديث عما يمكن أن يكون بين هذا التفكير الفلسفى وبين الفلسفة الوجودية من تقارب أو تباعد ، وإنما الشئ الذى ليس فيه شك هو أن هذا النحو من التفكير ملائم لما أشرت إليه آنفاً من رأى

الكاتب في بحثه عن الصلة بين الأديب وبين الجماعات . فجان بول سارتر يريد أن يجعل المساواة بين الناس حقيقة واقعة تريدها الجماعة كلها ولا يريدها الأفراد متفرقين . وأحسبك توافقني على أنه قد صور من ذلك ما أراد تصويره، فبلغ من هذا التصوير ما أحب .

أما القصة الثانية فعنوانها « الأنوف المستعارة » وهي تدور بالفعل حول أنوف مستعارة يخفي بها أصحابها أنوفهم التي ركبها الله في وجوههم . والقصة فكاهة ، ولكنها فكاهة مرة تضحك ولكن من حماقة الانسان وسخفه وضعفه وتعلقه بالمنافع العاجلة وانقياده للوهم واستسلامه للسلطان . وإن كان ضعيفاً لا يعتمد على قوة تسنده أو تجعله مصدراً للخوف .

فأنت حين تبدأ القصة في دهليز من دهاليز القصر الملكي في مورافيا ، وهذا الدهليز قذر مهمل قد ضربت عليه العنكبوت بنسجها ، ورجل قائم على سلم يحاول أن يرد إلى سقف الدهليز وجدرانه نظافتها ويزيل عنها نسج العنكبوت . ثم تعرض عليك صورة أخرى ترى فيها حجرة العرش وقد اجتمعت فيها حاشية الملك ووجوه الدولة وفي موقدها نار ضئيلة تخمد شيئاً فشيئاً . ولكنك تلاحظ على كل من ترى في القصر من رجال ونساء ومن سادة وخدم أنهم يحملون في وجوههم أنوفاً ضخمة مسرفة في الضخامة تجعل هذه الوجوه قبيحة مضحكة . ثم يقبل الملك والملكة فتنهض الحاشية ، ويحاول الملك أن يجلس على عرشه فاذا هو مضطرب لا يثبت قد قصرت بعض قوائمه ، فيضطر بعض الحجاب إلى أن يتموا هذه القوائم القصيرة بقطع من الخشب يزجونها بينها وبين الأرض ، حتى إذا ثبت عرش الملك واستطاع أن يجلس جرت القصة نفسها لعرش الملكة . وقد أخذ الملك يتحدث إلى وجوه دولته ، فيعلن إليهم أن ابنه الأمير أندريه سيقترن بالأميرة أجات بنت ملك القوقاز ، وأن هذه الأميرة في طريقها الآن إلى عاصمة مورافيا ومعها حاشيتها وتتبعها عربات ضخمة قد ملئت ذهباً ، وستمتلئ خزائن مورافيا ، وسيجعل الله لهذه الدولة الضخمة الفقيرة يسراً بعد عسر وغنى بعد فقر وفرجاً بعد حرج . ثم يشير الملك إلى صورة مغطاة قد علقت إلى أحد الجدران فيرفع عنها غطاؤها ، وتظهر الأميرة من ورائه رائعة الجمال ، بارعة الحسن ليس فيها إلا عيب واحد وهو أن أنفها طبيعي جميل . فاذا نبه الملك إلى ذلك دعا رسام القصر فأمره بأن يصلح هذا الأنف . فيقبل الرسام

على الصورة يضخم أنفها ويفخمه ويسبغ عليه من القبح ما تمتاز به الأنوف في مملكة سورافيا . هنالك يرضى الملك ورجال الدولة عن الصورة، ويدعى الأمير الشاب ليراها ، فاذا أقبل نظر إلى الصورة في تكره واشمئزاز ثم انصرف عنها معرضاً يظهر الاذعان للقضاء المحتوم أكثر مما يظهر الشوق إلى خطبه التي شغفت قلبه حبا . وفي أثناء هذا كله يلاحظ الملك أن خدم القصر قد تركوا أعمالهم وأبوا أن يستجيبوا له إذا دعا. فاذا سأل عن ذلك أنبأه وزير العمل بأن خدم القصر قد قرروا الاضراب إذا تمت الساعة الحادية عشرة؛ لأنهم لم يقبضوا أجورهم منذ ستة أشهر ، وقد حاولت الحكومة إقناعهم بأن زواج الأمير سيملأ الخزائن ذهباً وسيقبضون رواتبهم ومكافآت أخرى ، ولكنهم لم يحفلوا بهذه الوعود. هنالك يعلن الملك أن لا بد مما ليس منه بد، وأن رجال القصر كلهم ومعهم وجوه الدولة يجب أن يتناوبوا فيما بينهم أعمال الخدم . ثم ينهض الملك نفسه فيقدم الأسوة الصالحة ويأخذ في ترتيب الحجرة ، ويضطر وجوه الدولة إلى أن يصنعوا صنيعه ، فهم ينقلون الأثاث القديم الموروث ليضعوا مكانه أثاثاً جديداً أنيقاً قد استعاره الملك من أعضاء حاشيته . وربما كان من المضحك أن نلاحظ أن الملك في أثناء حديثه إلى وجوه دولته يرى سيدة تصطك أسنانها من البرد ، فاذا نهاها عن ذلك حاولت أن تملك نفسها ولكنها لا تستطيع ، فيأمرها الملك بالخروج ويمضي في حديثه ، ولكنه يسمع أسناناً أخرى تصطك، فيهم أن يغضب ، ولكنه ينظر فاذا الملكة هي التي تصطك أسنانها من البرد . هنالك يأذن بالنهوض وضرب الأرض بالأرجل طلباً لبعض الدفء . وكذلك ينهض هو وتنهض معه حاشيته ويأخذون في طرق الأرض بأرجلهم ، حتى إذا ظفروا ببعض الدفء ، عادوا إلى مقاعدهم ومضى الملك في حديثه .

ثم يعرض علينا المطبخ ، وقد أخذ رجال ونساء من وجوه الدولة يعملون فيه ، يهيئون الوليمة التي ستدعى إليها الأميرة إذا كان المساء ، وهم يختصمون فيما بينهم خصومات مضحكة تدل كلها على أنهم محنقون من هذا العمل الذي اضطروا إليه والذي ولا يحبونه لا يحسنونه ولا يعملونه في قصورهم ، وإنما هو فقر الدولة قد اضطرهم إلى هذا الهوان ؛ لأن هذا الزواج سيجلب للدولة مالا كثيراً فيعود أمرها إلى اليسر والثراء ، ولكنهم على ذلك قد

ضاقوا بالملك وابنه وبهذه الحياة المنكرة التى تفرض عليهم وعلى الشعب . فهذه الأنوف الضخمة الفخمة البشعة ، إنما فرض عليهم وعلى الشعب كله حملها ؛ لأن الأمير قد ولد كبير الأنف بشعه ، فأراد الملك ألا يحس الأمير أنه منفرد بهذه البشاعة ممتاز بهذا القبح ، فشرع قانوناً يفرض على الشعب كله أن يتخذ الأنوف الضخام . ومضى الشعب على هذه السنة المنكرة حتى ألفها وحتى أصبحت الأنوف الطبيعية عورة يجب أن تستر ، وحتى تهالك الناس على التماس هذه الأنوف الطبيعية ، يختلسون النظر بها خفية ومن وراء الحجب ، ويتحدثون عن أماكن اللهو التى يمكن أن يغشوها وأن ينفقوا فيها النفقات الضخمة ليروا أنفاً طبيعيا جميلا ، وليستطيعوا مسه ، فاما تقبيله فشئ لا يتاح إلا للذين ينفقون فى سبيله أضخم النفقات .

وللملك أخ ضيق بهذه الحياة ، طامع فى العرش ، يدبر ثورة يخلع بها أخاه ويطرد بها ابن أخيه ، ويرق بها إلى الملك ، ويزيل عن الناس أنوفهم هذه المستعارة ، ويبيح لأنوفهم الطبيعية أن تظهر للهواء والنور وتستمتع بحرتها كاملة . وهو يتحدث فى المطبخ إلى أعوانه من وجوه الدولة بما دبر من هذه الثورة ، فيقرونه على خطته ، ويتفقون على إفساد هذه الخطة ، ومنع هذا الزواج ، وعلى أن وسيلتهم إلى ذلك ستكون إفساد الوليمة أولا ، فسيقدم إلى المدعوين أقبح طعام وأردأه ، وستكون الخدمة منكرة مخالفة للمراسم والتقاليد ، وسيتعمدون حين يدورون بالصحاف والشراب على المدعوين أن يسيئوا الخدمة ، فيضبوا النبيذ والمرق على ثيابهم الجميلة وعلى أكتاف السيدات العارية ، ثم سيفسدون على الضيف نومهم ، فيضعون الضفادع فى الأسرة ، حتى إذا كان الغد واحتشد الأشراف والشعب لامضاء عقد الزواج صدرت إشارة ، فألقى كل إنسان أنفه الصناعى ، وأظهر الأشراف جميعاً أنوفهم الطبيعية وأعلنت الثورة ، ورأى الأمير أنه وحده صاحب الأنف الضخم القبيح . وهم يتفقون على هذا كله ، وقد استمع الأمير لبعضه أثناء سروره أمام المطبخ فابتهج له ؛ لأنه كاره لهذا الزواج ، يريد ألا يتم .

ثم يعرض علينا مقدم الأميرة ، وقد خرج الملك لاستقبالها فى بعض الطريق ؛ فلم يكد يتلقاها ويتحدث إليها ويظهر لها صورة الأمير حتى تراع الفتاة حين ترى هذا الأنف ، وحين تعلم أن الأنوف كلها فى سورافيا على هذا النحو من

البشاعة . ويزداد جزعها حين يعرض عليها الملك أنفاً صناعيا تخفى به أنفها الصغير الجميل . وهي تثور وتمتنع وتحاول أن ترفض هذا الزواج ، ولكن وزير أبيها يذكرها بأنه الزواج أو الدير ، فتذعن كارهة ، وتضع أنفها الصناعي كما يضع رجال حاشيتها ووصائفها أنوفهم الصناعية . وتصل إلى القصر وهي تتمنى ألا يتم هذا الزواج بشرط ألا تكون هي مصدر هذا الاخفاق حتى لا تضطر إلى الدير . وقد احتاط أبوها الملك واحتاطت معه دولة القوقاز لهذا النكر الذي ستدفع إليه الفتاة ، فألحق بحاشيتها ضابط رشيق وسيم ليكون في خدمتها وليعزيها عن حياتها تلك المنكرة . وقد أخذ هذا الضابط يتقرب إليها ، وأخذت هي تطمئن إلى دعابته ، ولكنها ربما فكرت في أن تهرب مع هذا الضابط إلى حيث يعيشان عيشة الحب والسعادة بعيدين عن هذه الأنوف الكبار . وقد بلغت الأميرة القصر واستقبلها الأمير استقبالا فاتراً متكلفاً ، أنكر أنفها ، وأنكرت أنفه ، وتمنى كلاهما ألا يتم هذا الزواج . ثم كانت الوليمة ، وأقبل الخدم وهم من وجوه الدولة ، فقدموا أردأ طعام وخدموا أسوأ خدمة ، وهم بعضهم أن يصب النبيذ على الأميرة فيتقيه الأمير بيده ، وهم آخر أن يميل قنديله ليسقط على كتف الأميرة الشمع المذاب ، فيضع الأمير يده على كتفها ليتلقى هذا الشمع ، وتذعر الأميرة لذلك فتلطمه ، ويوشك الأمر أن يفسد لولا أن الوزير يرمق الفتاة فتذكر الدير ، ولولا أن الرضع تمس الأمير فيذكر حاجة الدولة إلى المال .

وتمضي السهرة على شر حال . وتمر الأميرة بالمطبخ مستخفية حين يتقدم الليل فتسمع الأشراف وهم يتخذون قراراتهم الأخيرة لاتمام الثورة ، فتبتهج بهذه القرارات ، وتنضم إلى المؤتمرين ؛ لأنها لاتريد أن يتم الزواج ، ولأنها لن تحتمل تبعة الاخفاق إذا كانت الثورة . ولكن وزير أبيها مختبئ كما كانت مختبئة ، وهو يسمع لما سمعت له ويندس بين المؤتمرين ، حتى إذا أجمعوا أمرهم أعلن إليهم أنه مكلف أن يزوج الأميرة من وارث العرش في موارفيا كائناً من يكون ، فاما أن يقبل أخو الملك ، أن يتخذ الأميرة لنفسه زوجاً ، وإما أن يفضح هذه الثورة قبل وقوعها . هنالك يتقدم أخو الملك معلناً اغتباطه بهذا الزواج ، ويسقط في يد الأميرة ، فهي بين اثنتين : إما أن تتزوج الأمير الشاب وأنفه الكبير ، وإما أن تتزوج الأمير الشيخ وسنه التي تشرف به

على الهرم والفناء . فان لم تقبل هذا ولا ذاك ، فهو الدير . وهى مقتنعة بأن ليس لها بد من الهرب ، فهى تأمر الضابط بأن يهيئ لها وسائل الفرار، والضابط كاره لذلك ، فهو لم يرسل ليحتمل تبعات الحب الحر ، وإنما أرسل ليكون خليلا لولية العهد ، ثم خليلا للملكة حين يرقى زوجها الأمير إلى العرش . ولكنه مع ذلك يظهر الطاعة ويسرع إلى الوزير فيظهره على جلية الأمر ويطالب إليه أن يحتاط لمنعهما من الهرب . وقد خلت الأميرة إلى نفسها آخر الليل فى غرفة من غرفات القصر . ولم تكد تدخل هذه الغرفة حتى رأت جماعة من التماثيل قد وضعت لها أنوف ضخام . وهى ثائرة فتضرب أنوف هذه التماثيل حتى تسقط وتنزع أنفها الصناعى وتمعن فى البكاء . ويمر الأمير فيسمع نحيبها فيدخل الغرفة ، ولا يكاد ينظر إلى الفتاة ويرى أنفها الطبيعى الصغير الجميل ، حتى يأخذه دهش أى دهش ، وإذا هو ينزع أنفه المستعار . وترى الفتاة فيه شاباً أنيقاً وسيما ، وهو يعطف على الأميرة عطفاً لا حد له ، فقد عرف أنها مثله قد ابتليت بأنف صغير ، وأنها تخفى مثله هذه الآفة بأنفها الصناعى ، فهو يحبها لأنها شريكته فى هذه المحنة ، فأنوف الناس كلهم كبار إلا أنفه هو . وهو من أجل ذلك مضطر إلى أن يتخذ هذا الأنف الصناعى ليخفى به عاهته . وتحاول الأميرة أن تقنعه بأن أنوف الناس كلهم صغار ولكنه لا يقتنع . والمهم هو أنه أحبها لأن لها أنفاً صغيراً كأنفه الذى كان يخفيه . وهى تحبه لأن له أنفاً طبعياً كأنوف غيره من الناس . ويقبل الضابط وقد هيأ للهرب كل شئ ، ولكنها تعلن إليه أنها لن تقبل . ثم نرى الجمع قد احتشد من غد لامضاء عقد الزواج ، ونرى عرش الملك مضطرباً كما رأيناه من قبل ، ونراه يسند بقطع الخشب ، ونرى المائدة التى سيمضى عليها العقد مضطربة قد قصرت قوائمها ، فما تزال تسند بقطع الخشب والمجلدات الضخام حتى تستقر وقد ارتفعت فلم يحتج الملك أن يجلس ليمضى العقد ، وإنما هو يمضيه قائماً متطاولا . ثم تصدر الاشارة التى اتفق عليها فتلقى الأنوف الصناعية كلها ويظهر الناس بأنوفهم الطبيعية الصغار . ويطالب أخو الملك إلى الأمير الشاب أن يعتزل ولاية العهد ؛ فما ينبغى لملك سورافيا أن يكون مشوه الخلق . وما ينبغى أن يملك على هذه الأرض من أكره الشعب فى سبيله عشرين عاماً على حمل هذه الأنوف المستعارة البشعة . هنالك يلقى الأمير أنفه الصناعى

ويظهر كما خلقه الله شابا وسيما جميل الأنف ، فيضطرب الناس و يميلون إليه . ولكن أخا الملك يعلن أن هذا الفتى ليس ولى العهد ؛ فقد ولد ولى العهد كبير الأنف ، وأثبت الأطباء ذلك وصدر القانون بحمل الأنوف الكبار من أجل ذلك. والملك نفسه دهش فهو يعلم أن ابنه ولد كبير الأنف ، ولكن المرضع تعلن الحقيقة ، وهى أن ابن الملك قد مات بعد ولادته بأشهر قليلة ، وأن أمه الملكة التي ماتت منذ عشر سنين قد اتخذت مكان ابنها طفلا صغيراً ، واتخذت له هذا الأنف الصناعي ، فعلت ذلك كله حبا للملك و إشفاقاً عليه أن تنتقل ولاية العهد من ذريته ، فيورثه ذلك حزناً عظيما . وقد نهضت الأميرة فألقت أنفها الصناعي،وأعلنت أنها لن تتزوج إلا هذا الفتى ، وأنها إن صرفت عنه فستؤثرالدير . هنالك يتجه الملك إلى الشعب والأشراف سائلا ماذا تريدون ؟ أتريدون ملكاً من الأسرة المالكة ، أم تريدون ذهب القوقاز؟ فيتلقى الجواب الاجماعي بأن الشعب يريد مال القوقاز . ويعلن الملك أنه تبنى هذا الفتى فأصبح أميراً شرعياً وليا للعهد.

وكذلك تنتهي هذه القصة ، وقد عرضت عليك خلاصتها موجزة ، ولم أعرض عليك شيئاً من خصائصها الفنية التي تتصل بالاخراج والعرض ، وتلائم السينما بوجه عام . وقد رأيت ما في هذه القصة من مغزى سياسي واجتماعي وخلقي ، ورأيت أن جان بول سارتر قد استطاع أن يذيع في القصة الأولى من طريق الجد آراء فلسفية هي بعينها التي تؤلف فيها الكتب وتكتب فيها الفصول وتنشأ فيها المسرحيات ، واستطاع في القصة الثانية أن يذيع من طريق الفكاهة آراء فلسفية ليست أقل خطراً من الآراء التي أذاعها في القصة الأولى من طريق الجد ؛ فجد السينما وهزله كجد التمثيل وهزله ، وكجد الكتاب والمقالة وهزلها يمكن أن يكونا وسيلة من وسائل التصوير والتعبير التي تحقق الصلة المنتجة المجدية بين الجماعة وبين الأديب .

طه حسين

أحمد لطفى السيد

والدعـوة إلى أرسـطو

لم يكن عفواً أن يكون الداعية الأكبر إلى أرسطو فى مصر الحديثة ، هو أحمد لطفى السيد ، بل لم يكن بد من أن يكون الأمر كذلك . ولا أريد بالدعوة مجرد العناية بمؤلفات أرسطو ونقلها إلى العربيـة ؛ فالكثيرون ممن ليس لهم كبير حظ من الفلسفة يستطيعون ذلك ، ومن مؤرخى الفلسفة من تفرغ لدراسة بعض الفلاسفة دراسة عميقة وافية ، دون أن تعد هذه الدراسة دعوة إلى طريقة معينة أو نظام خاص من التفكير ، إنما تعد الدعوة ناجحة حين يكون القائم بها أقرب ما يكون طبيعـة وتفكيراً إلى من يدعو إليه ، ولابد أن يكون بين الداعى إلى أرسطو و بين هذا الفيلسوف من التشابه فى التفكير والتقارب فى الروح ما يجعل فلسفته حية قوية لا مجرد موضوع دراسة تاريخية .

والارسطاطاليون قليلون فى العصر الحاضر . ومن حسن حظ مصر أن وجد فيها فى أول نشأتها الحديثة أرسطاطالى من الطراز الأول . ووجوده فى هذا الطور من حياتنا الفكرية حادث هام فى تاريخ الحياة الفكرية فى مصر ؛ لأنه جعل من فلسفة أرسطو أساساً من أسس التفكير الحديث فى مصر ، فوجهنا بذلك وجهة معينة على أسس متينة كنا فى أشد الحاجة إليها ما دمنا سائرين فى طريق المدنية الغربية التى أساسها الفلسفة اليونانية مهما تشعبت بها المذاهب بعد ذلك .

وأوجه التشابه بين الداعى والمدعو إليه ظاهرة فى أمور كثيرة ؛ فكلاهما معلم ، وكلاهما شديد العناية بالكليات عناية فائقة ، وكلاهما مرهف الحس من ناحية المنطق البحت يدرك الخطأ فى التفكير بطبيعته الصافية ، وينقص كلا منهما العناية بالتفاصيل والطريقـة التحليلية وادراك ما للمنطق البحت من حدود كثيراً ما تقصر به عن إدراك الحقـائق العلمية . ومن سوء حظ

الارسطاطاليين جميعاً منذ عهد أرسطو أنه ترك فلسفة كاملة ليس بعدها زيادة لمستزيد ، فأصبحوا لا يستطيعون إلا أن يرددوا حكمته ويعيدوا علينا قوله . ولم يكن ذلك لينقص من قدرهم ؛ فهم ارستقراطية معينة بين المفكرين وسيظلون طبقة معينة ما بقى للتفكير الانسانى قيمة .

وأخص صفات أرسطو ما أدركه العرب لأول وهلة حين لقبوه بالمعلم الأول . ولا شك أنه علم الانسانية كلها كيف يكون التفكير الصحيح ، وهى صفة تختلف كثيراً عن صفة العلم . وقد يكون الرجل من أكبر العلماء دون أن تكون له صفة المعلم ، إنما المعلم من يهديك بالاشارة الخفيفة والكلمة السامية إلى آفاق جديدة من التفكير . ولست أعلم أحداً فى مصر له هذه الصفة واضحة قوية كما رأيتها فى لطفى السيد ، وواضح أن ذلك رأى تلاميذه جميعاً . وإنى وإن كنت أحدث مريديه عهداً به قد شعرت بقوة أثره كعلم منذ أول مرة لقيته : وهو لا يغنيه من الأمور، إلا ما يستطيع به أن يكون قضية عامة واضحة ، ثم يلقيها إليك فى قول مختصر فيصيب من نفسك ما لا يصيبه الشرح الطويل .

أما العناية بالكليات فهى أيضاً من أخص صفات التفكير الأرسطاطالى ، وهى مصدر قوته وهى أيضاً سر ضعفه . فالكليات عند أرسطو حقائق ثابتة، وهى عنده أعز منالا من أن تطعن فى صحتها وقائع معينة . وهذا النوع من التفكير يختلف اختلافا تاما عن التفكير العلمى الحديث الذى تكفى فيه مسألة واحدة لهدم أقوى النظريات العامة . وهذا الايمان بالكليات واضح كل الوضوح فى تفكير لطفى السيد ، وهو مغرم برد كل شئ يعرض له إلى قضية عامة ثابتة ، وهو أصدق من عرفت حكما على الأمور على أن تكون المقدمات والوقائع التى تعرض عليه كاملة غير منقوصة ولا مشوهة ، فان لم تكن كذلك لم نأمن عليه من الخطأ . ولا يرى أن من عمله أن يحقق وقائع معينة ولا أن يطبق الكليات على الواقع ، فهو يرى أن يترك ذلك لتلاميذه يبلغ كل منهم من الصواب ما تؤهله له طبيعته . والناس يخطئون حين يظنون أن هذه العقلية تعنى بالنظريات ، وقد سمعت محدثاً للطفى السيد يصفه بذلك . ومع أن لطفى باشا لم ينكر عليه قوله إلا أنى أعتقد أن محدثه أخطأ وأن الوصف الحقيقى له هو أنه رجل كليات عامة ، وذلك من أوضح صفات الأرسطاطالية .

وقد اختار لطفى السيد من كتب أرسطو كتبه فى الأخلاق والسياسة

والاجتماع ، وهى أبقاها على الزمن ، وأقربها إلى تفكيرنا الحديث ، وليس الأمر كذلك فى كتبه العلمية ، فقد فقدت كل قيمتها إلا التاريخية وإن ظلت من خير الأمثلة على قوة النطق البحت وضعفه وحدوده ، وكيف يخطئ حتى فى يد أرسطو نفسه ، والنهضة العلمية فى أوربا كانت كلها ثورة على تعاليم أرسطو . والذين يدرسون تاريخ العلم إبان النهضة يدهشه ما اضطر إليه العلماء من الجهد العنيف فى سبيل القضاء على نظرياته العلمية . ومن أمثلة ذلك رأيه فى الحركة ، فقد قسمها إلى حركة طبيعية وقسرية ؛ وأن الحركة الطبيعة تذهب بالأجسام إلى أصلها الأول ، فالحجر يسقط لأنه يعود إلى أصله الأول وهو الأرض ، والدخان يصعد لأنه يعود إلى أصله وهو الهواء . وقد كان هم علماء إيطاليا أن يتضافروا على القضاء على هذه النظرية الخلابة ، التى يكاد يكون صدقها من البديهيات قبل أن يستطيعوا إقامة نظريات جديدة فى الحركة والجاذبية ، وكذلك كان شأن أكثر المشاكل العلمية فى ذلك العهد . ومع أن أكثر النظريات الحديثة إنما كانت نتيجة الثورة على أرسطو فان ذلك لا ينقص من قيمة فلسفته ، على أنها مرانة ذهنية بديعة فضلا عن دلالتها على ما كان للرجل من قوة ذهنية خالصة لم يبلغها إنسان قبله أو بعده . وفلسفة أرسطو كلها تنقصها المرونة فهو لم يتصور التطور . ثم إن منطقه على أهميته فى تنسيق الفكر لا يؤدى وحده إلى معرفة طبائع الأشياء . فأبسط قضاياه : كل يونانى إنسان ، سقراط يونانى فهو إنسان ، قضية لا غبار عليها ولكنها لا تصل بنا إلى حقائق علمية . فلو حاولنا مثلا أن نعرف طبيعة الميكروبات فنقول كل حى متحرك بنفسه حيوان والميكروبات حية تتحرك بنفسها فهى حيوانات ، لم يكن ذلك صحيحاً من ناحية الواقع ، وإن كان صحيحاً من ناحية المنطق .

على أنه مع الاعتراف بحدود الفلسفة الأرسطاطالية فلا سبيل إلى نكران قيمتها فى تقويم التفكير الانسانى ، ونحن سعداء إن وجد منا من يدعو إليه دعوة ناجحة موفقة ، وأن تصبح فلسفته وطريقته فى التفكير من الأسس التى تقوم عليها نهضتنا الحديثة ، ونحن مدينون فى ذلك لأحمد لطفى السيد فهو أقرب المصريين إلى طبيعة هذا التفكير وأشدهم إيماناً به وأقدرهم عليه .

على أن بعض الناس سيتساءلون هل نحن فى حاجة إلى أرسطو فى عصرنا

هذا بعد أن سارت الفلسفة بعده أشواطاً جعلت العودة إليه نوعاً من اللذة التاريخية دون أن يكون لدراسته ضرورة ملحة . الرأى عندى أن مصر وقد أخذت كل علمها الحديث عن التفكير الغربى لابد لها إن أرادت أن تصل من هذه المدنية الغربية إلى غايتها أن يقوم تفكيرها على ما قامت عليه هذه . ولا شك أن الفلسفة اليونانية أساس من أسس المدنية الغربية ، وسيظل التفكير الغربى فى مصر مستعاراً ما لم يتطور تاريخ الفكر عندنا على غرار تطوره فى أوربا .

ويتبين أثر التفكير اليونانى فى تكوين المدنية الغربية حين تقارن بينها وبين المدنيات الأخرى .

الفلسفة فى الشرق الأقصى قامت على أسس أخلاقية خالصة ، وكان قوامها التمييز بين الحسن والقبيح ، ومدار بحثها ما يليق وما لايليق ، ومن ذلك نشأت تعاليم كونفوشيوس .

والفلسفة الهندية قامت على بحث الفرق بين الدوام والزوال ، وكان قوامها البحث فى القيم الأبدية والقيم المؤقتة ، ومدار بحثها البقاء والعدم وتناسخ الأرواح والنيرفانا وغير ذلك من تعاليم البراهمة .

أما الفلسفة اليونانية فقد قامت على التمييز بين الخطأ والصواب ، ومدار بحثها البرهان العقلى وهو ما لم تعن به الفلسفات الأخرى .

والذين يظنون أنهم يستطيعون أن يلموا بالعلم الغربى بدراسة أحدث مظاهره دون أن يلموا بالعهد اليونانى القديم يخطئون خطأ كبيراً . وقد يكون الأوربى الحديث أبعد ما يكون عن كل رأى من آراء أرسطو ولكن تكوينه العقلى قائم على التفكير اليونانى . ومهما قدم العهد بهذا التفكير فقد بقى منه فى أوربا الشئ الكثير ، وأهم ما بقى منه تقديس التفكير المستقيم ، والحاجة إلى البرهان ، والاتفاق على قواعد يتميز بها الخطأ والصواب .

على أننا لن نقف عند أرسطو طويلا بل يجب أن نخطو الخطوة التالية فى تطور حياتنا الفكرية على الطريقة الغربية ، وسيتم ذلك حين يقوم بيننا من يدعو إلى ديكارت على طريقة لطفى السيد إلى أرسطو . ولن يكون ذلك بمجرد نقل مؤلفاته إلى العربية . وانما يكون بقيام رجل فيه روح التفكير التحليلى والايمان به والاستعداد الخاص له ، وأن تكون دعوته إلى طريقة ديكارت بأن

يكون مثلا حيا لهذه الطريقة يحمل الناس عليها . ولعل بيننا من فيه من الصفات العقلية ما يؤهله للقيام بهذا الواجب ، بل إنى أكاد أسميه ولو عنى بهذه الدعوة لأدى لبلاده خدمة كبرى .

حاولت فى هذه الكلمة القصيرة أن أوضح قيمة دعوة لطفى باشا إلى أرسطو ومقدار خدمته للتفكير فى مصر. ولو لم يكن له أثر بيننا إلا هذا لعددته من أكبر الخدمات الوطنية التى تبقى على الزمن والتى لا تعد الخدمات الأخرى بجانبها شيئاً مذكوراً . ومهما ظن الناس أن قيمة البلاد إنما تكون بغناها وسعادتها فان القياس الأول لمدنية أية أمة إنما يقاس بمقدار نموها العقلى وسيظل لطفى السيد فى تاريخ الفكر فى مصر عاملا من أكبر العوامل فى توجيهه اتجاهاً صحيحاً .

محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب

فى أفق السياسة العالمية

فى هيئة الأمم المتحدة

لم يكد ينقضي عامان على انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وإنشاء هيئة الأمم المتحدة ، حتى بدأت سحب الخلاف تتجمع وتتلبد بين الدول الكبرى ، وبات جو العلاقات الدولية ينذر بأخطر العواصف وأشد الأنواء . وكان الناس يتوقعون بعدما عانوه من أرزاء الحرب الأخيرة وويلاتها ، أن يكون السلام الذى يعقبها أدنى إلى تحقيق المبادئ الانسانية العامة ، التى طالما نادى بها ساسة الحلفاء فى أثناء الحربين العالميتين وضمنوها عهودهم ومواثيقهم ، فيعيش الناس فى أوطانهم أحراراً آمنين ، محررين من خوف الحرب والعدوان ، فاذا هم اليوم يواجهون فى ظلال السلم المزيف حالة أشد وقعاً على أعصابهم وأسوأ أثراً فى علاقاتهم واقتصادياتهم من حالة الحرب نفسها . والناس فى دهشتهم وحيرتهم مختلفون فى تفسير ما أصابهم من خيبة وابتئاس ، كل يحاول تأويله بحسب ما يعتنق من مبادئ وآراء سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية .

ومع ذلك فليست هذه أول مرة فى الأزمنة الحديثة يخرج فيها العالم من حرب عامة ، منهوك القوى ، مصدع البنيان ؛ فقد اجتاحت أوربا الحروب النابليونية مدة خمسة عشر عاماً تقريباً ووسعت ميادين الحرب العالمية الأولى معظم قارة أوربا ، وبلاد الشرق الأوسط ، وجهات من الشرق الأقصى ، وجميعها اكتوت بنارها أكثر من أربع سنوات ، ولكن السلام الذى أعقب كلا من الحربين لم يتعرض لخطر الانتكاس والانتقاض السريع كما تعرض له السلم هذه المرة .

فبعد الحروب النابليونية عقد الحلفاء مؤتمر فينا ، وأعلنوا للملأ عزمهم على تقرير سلام دائم بين الدول يكون أساسه توازن القوى وقمع الثورات . واتفقت الدول الكبرى فيما بينها على أن يجتمع مندوبون عنها فى أماكن ومواعيد يتفق عليها لاتخاذ الوسائل التى تصون التسويات الاقليمية التى

أبرموها ، وتكفل لشعوب أوربا سعادتها واستقرار السلام فى ربوعها . وقد كان المقصود طبعاً من سعادة الشعوب واستقرار السلم ، القضاء على الحركات الثورية التى قد تقوم ضد الملوك فتنغص على الناس حياتهم ، كما فعلت الثورة الفرنسية فى فرنسا وأوربا . وقد نجح المؤتمر الأوربى أو الكنسرت Concert فى تحقيق هذه الأغراض رغم الخلاف الأيديولوجى أو المذهبى ، الذى كان يفرق إذ ذاك بين روسيا ومعها النمسا و بروسيا ، وبين انجلترا ومعها فرنسا . فقد كانت حكومات الفريق الأول أوتقراطية رجعية ، وأما حكومتا الفريق الثانى فكانتا أميل إلى اتباع المبادئ الديمقراطية النيابية فى حكمهما . ومع ذلك فقد ساد الجميع اعتقاد واحد بضرورة حفظ السلام بين الدول ومقاومة الثورات بصفة عامة أينما كانت . وكان اتفاق الدول على هذا الأساس وبدرجات متفاوتة كافياً لايجاد نوع من التعاون استطاعوا به أن يصونوا السلام فى أوربا مدة طويلة ، وحالوا بوساطته دون وقوع حرب أوربية كبرى من سنة ١٨١٥ إلى ١٨٥٢ ، حين قامت حرب القرم ، واشتبكت فيها انجلترا وفرنسا وتركيا وبيدمنت من جهة وروسيا من جهة أخرى .

وكذلك كانت الحال عقب الحرب العالمية الأولى أدعى إلى صيانة الأمن والسلام العام بين الدول منها فى أيامنا هذه . فقد تمخضت تلك الحرب عن أكبر وأهم مؤسسة عالمية ابتدعها العقل البشرى لتعاون الدول وحفظ السلام بينها ، تلك هى عصبة الأمم التى أمدها الحلفاء فى أول أمرها بسلطانهم وأحاطوها باهتمامهم ، حتى نمت قوتها وعظم خطرها واستمع العالم إلى كلمتها ؛ إلى أن طغت على أوربا موجة الدكتاتورية ، وذعر مجلس العصبة من خيال الحرب العامة ، فجبنت العصبة وضعفت ، وما زالت الأسقام تتناوبها والصدمات تتوالى عليها من كل جانب حتى أدركتها الوفاة الطبيعية بقيام الحرب الأخيرة بعد انقضاء عشرين عاماً على صلح فرساى .

ولم يكن الوفاق شاملا صفوف الحلفاء فى الحرب الأخيرة لا فى الخطط الحربية ولا فى المبادئ السياسية والاقتصادية ، ولكنهم كانوا جميعاً يخشون الروح الحربية فى ألمانيا ، وطغيان النازية فى أوربا ؛ فكان هذا الخوف من أقوى العوامل التى ساعدت على تماسك الحلفاء فى أثناء الحرب ؛ حتى إذا ما انتهت بانتصار الحلفاء وزالت النازية وكادت تزول معها ألمانيا من

الوجود ، وجد الحلفاء أنفسهم في مواجهة بعضهم بعضاً ، وقد تداعت الأسوار والحصون والحدود التي كانت للعدو المشترك ، وجاءت جحافل النصر فدمرتها تدميراً . لقد كان قيام ألمانيا ورغبة الجميع في القضاء على طغيانها هو العامل المشترك الذي أحكم الصلات بين اتحاد السوفييت والدول الغربية ؛ وكان من سوء حظ الحلفاء أنهم لم يستبقوا بعد الحرب ظلا لألمانيا كما فعلوا في الحرب العالمية الأولى . ولذلك فانه لما ذهبت ألمانيا ذهب معها عامل الوفاق ، وبقى الفريقان مجردين من أي نوع من أنواع المشاركة ، حتى ليخيل لنا أن هيئة الأمم المتحدة التي أنتجتها جهود الحلفاء المشتركة قبيل انتهاء الحرب قد جاءت عفواً ومن غير إيمان صحيح برسالتها ، وكانت بذلك أشبه شئ في التاريخ بالمحالفة المقدسة التي أعقبت الحروب النابليونية ، وجادت بها قريحة إسكندر الأول عاهل روسيا ، فوقعها الحلفاء آنئذ ساخرين ؛ وسرعان ما ظهر للناس أن الوثيقة لم تكن حلفاً صحيحاً ، وليس لها من القداسة أكثر من اسمها .

لذلك كان هذا العقم المبكر الذي أصاب هيئة الأمم المتحدة فشل حركة مجلس الأمن فيها وكدس المشكلات بعضها فوق بعض على عاتق جمعيتها العمومية دون أن تصل إلى حل لها ، وجلها مسائل لم تجد طريقها إلى المجلس أو الجمعية إلا لخطورتها واحتمال تهديدها للأمن الدولي والسلام العام .

وعسير علينا أن نعتقد أن أسباب هذا العقم كامنة في حق « الفيتو » أو حق الاعتراض الذي اختصت به الدول الخمس الكبرى ؛ فقد كان إجماع الآراء شرطاً محتما لسريان قرارات مجلس عصبة الأمم ، ومع ذلك عاشت العصبة وخدمت قضية السلام العام سنين طويلة . ولا نظن أن اشتراك روسيا والولايات المتحدة في هيئة الأمم منذ تكوينها واحتضان أمريكا للهيئة في بلادها من شأنه أن يشل حركتها أو يوغر صدر روسيا عليها . بل إننا على العكس نرى في اشتراك جميع الدول الكبرى والصغرى في الهيئة وفي حدب أمريكا عليها ، خير ضمان لنجاحها على مر السنين . غير أننا قد نلمح سبب عقم الهيئة في اختلاف المذاهب السياسية التي تدين بها حكومات الحلفاء ، ويختلفون من أجلها ذلك الاختلاف الأساسي الذي كاد يجعل التفاهم بينها مستحيلا . ومع ذلك ما أيسر أن نرى حكومات الكتلتين الشرقية والغربية كلاًّ منها تباهى بأن نظام الحكم فيها إنما هو النظام الديمقراطي الصحيح ، وأنه في غيرها من

حكومات الفريق الآخر إنما هو الفاشية أو النازية بعينها . ولا يعقل بطبيعة الحال أن تحمل معنى الديمقراطية ذلك التناقض الصارخ الذى لا تنى الدول عن ترديده لا فى منتدياتها وصحفها فحسب بل كذلك فى ساحات هيئة الأمم المتحدة نفسها . ولو أنعمنا النظر لرأينا سبب هذا التناقض واضحاً فيما يؤول به الفريقان معنى الديمقراطية التى يتشدقان بها .

فدول الكتلة الشرقية تفسر الديمقراطية تفسيراً اقتصاديا اجتماعيا ، وترى أنه ما دامت موارد الثروة فيها ملكاً للدولة ، والتجارة الخارجة احتكاراً بيدها ، وما دام الانتاج فيها موزعاً على الفلاحين والعمال دون أى تعطل ، فماذا يهم بعد ذلك أن تكون الحريات محدودة والسلطات السياسية جميعاً بيد الحزب الذى يسيطر على كل شئ فى الدولة ؟ وأما الدول الغربية فتفسر الديمقراطية تفسيراً سياسيا ، وتقول إن النظام الديمقراطى الصحيح يتمثل فى الحكم النيابى أو البرلمانى الذى يتيح لكل فرد حق إعطاء صوته فى الانتخابات ، ويضمن لهم جميعاً احترام الفردية والملكية وحرية الاعتقاد الدينى والصحافة والكتابة والخطابة فى حدود القانون العام ؛ ولا يضير الديمقراطية مع ذلك أن تكون الصناعات والأعمال العامة بأيدى أصحاب رءوس الأموال ، وأن يكون العمال تابعين لهم فى الحدود التى تقررها الدولة لحماية مصالحهم . من ذلك يتضح أن الفريقين محقان فيما يدعيانه ؛ فحكومات الكتلة الشرقية ، ديمقراطية من الوجهة الاقتصادية . وحكومات الكتلة الغربية ، ديمقراطية من الوجهة السياسية . وإذا كانت حكومات الفريق الثانى تعمل جاهدة ، كما فى بريطانيا ، لتأميم موارد الثروة فيها وتحقيق تفسير الديمقراطية بوجهتيها السياسية والاقتصادية معاً ، فان حكومة اتحاد السوفييت لا تؤمن فى الوقت الحاضر إلا بالوجهة التى طبقتها فى بلادها ، ولا يكفيها أن تنحصر جهودها فى دائرة الكتلة الشرقية وحدها ، بل إنها لتعمل حثيثاً على كسب شعوب العالم كله إلى صفوفها .

وسياسيو الفريقين على علم تام بهذه الحقائق وتلك الخطط ما ظهر منها وما استتر ، ولكنهم جميعاً يتغابون ويتظاهرون ليمثلوا أمام العالم أدوار البطولة فى البراءة والتضحية . وهم بتمثيلهم هذا إنما يحاولون أن يخفوا مثالبهم ، وأن يتستروا على أعراض مرض الاستعمار الخبيث الذى يصيب الدول الطامعة إذا

ما استشعرت القوة على البطش والقهر . وقد كانت العلة قبل الحرب الأخيرة محصورة فى بريطانيا وحدها ، وفى فرنسا إلى درجة ما ، ولكن ما كادت الحرب تنتهى حتى بدت أعراض المرض صارخة على وجه روسيا والولايات المتحدة ، وأصبحت القوى الثلاث تتنازع فيما بينها السيطرة والتفوق فى العالم . ولم يبق شك إذن فى أن أسباب المنافسة والانقسام لا ترجع إلى الخلاف الأيديولوجى أو المذهبى كما يبدو لأول وهلة ، وإنما توجد أسبابها كامنة فى شهوة الاستعمار التى تسلطت على الدول الكبرى ، ولا سبيل إلى تراجع إحداها عن تحقيق أغراضها إلا « بالحرب » . وقد كشفوا أخيراً عن نوع جديد من الحرب هو الحرب « الجامدة » أو « الباردة » التى لا تسيل فيها الدماء ، ولا يتطلب نشوبها قطع العلاقات أو سحب السفراء . وهذه هى الحرب التى لم يألفها العالم من قبل ، والتى تغانيها الشعوب الآن فى داخل هيئة الأمم المتحدة .

وإليك زيارة خاطفة لبعض ميادين الحرب « الجامدة » الجديدة ولنبدأ بالبلقان :

١ — تطورت الحال فى البلقان على أثر عودة الملكية إلى اليونان فى العام الماضى ، وباتت اليونان تعانى منذ ذلك الوقت أوجاع حرب أهلية جديدة من تلك الحروب التى ما برحت تنتاب هذه البلاد بين آونة وأخرى . فقد أبان استفتاء الشعب فى سبتمبر سنة ١٩٤٦ أن نحو ١,١٧٠,٠٠٠ نفس قد اقترعوا فى صف الملك ، ونحو ٥٢٣,٠٠٠ قد أعطوا أصواتهم ضد الملكية . ومن هذا العدد الضخم فرت آلاف عدة عابرة الحدود إلى دول البلقان المجاورة ، وهى بلغاريا وألبانيا ويوغسلافيا . وفى هذه البلاد عامة وفى يوغسلافيا بصفة خاصة أخذ الاغريق الجمهوريون يتثقفون بالثقافة الشيوعية ، ويتدربون حربيا ، حتى إذا كمل إعدادهم تسربوا إلى داخل حدود اليونان ولاذوا بجبالها ووهادها يعتصمون فيها ، ومنها يكرون ويفرون ويشنون حرب العصابات على قوات الحكومة وأهل القرى الواقعة فى دائرة نفوذهم . وقد تقدمت اليونان فى خلال هذا العام تشكو إلى مجلس الأمن من أن بلغاريا وألبانيا ويوغسلافيا تتآمر عليها وتتربص بها الدوائر ، وأنها تيسر للعصابات عبر الحدود وإثارة الفتن والقلاقل بين سكانها الآمنين ، مما يعرض السلام فى البلقان وخارجه لخطر محقق . وقد ألف المجلس لجنة دولية لبحث الشكوى ، وتقدمت اللجنة

بمقترحاتها للمجلس ، وكان أهمها تعيين مندوب أو لجنة صغيرة شبه دائمة لمراقبة الحدود بين اليونان وجيرانها نيابة عن هيئة الأمم . فاعترضت دول البلقان الثلاث على افتيات الهيئة على سيادتها وتدخلها فى شؤون تعدها من صميم اختصاصها ، ووقف المندوب الروسى ينفى تهمة الاعتداء عن دول البلقان ، ويقرر أن حرب العصابات فى اليونان ، إنما هى مظهر من مظاهر الحرب الأهلية التى منيت بها اليونان ، وأن السبب الرئيسى لاشتعال هذه الحرب واستمرارها إنما يرجع إلى بقاء القوات الانجليزية محتلة البلاد ، وإعلان مبدأ ترومان الجديد الذى يقضى بتقديم المساعدة لكل من اليونان وتركيا ، وعلى ذلك تشجعت العناصر الرجعية فى اليونان ، وأصرت على البطش بالعناصر الديمقراطية الحرة فيها . لذلك احتدم الخلاف بين الدول الشرقية والدول الغربية . وكلما اتخذ المجلس قراراً لحل المسألة ، رفع المندوب الروسى يده بالاعتراض . لذلك قرر المجلس آخر الأمر عرض الموضوع على الجمعية العمومية لهيئة الأمم التى انعقدت فى ١٦ سبتمبر الماضى . وقد نظرت اللجنة السياسية فى موضوع الخلاف واتخذت أخيراً قراراً بأكثرية ٣٦ صوتاً ضد ٦ أصوات ، وامتناع عشر دول عن التصويت ، وينص القرار على ما يأتى :

« بعد أن أخذت اللجنة السياسية علماً بالتقرير الذى وضعته لجنة التحقيق الدولية ، واتضح منه بأغلبية الأصوات أن بلغاريا وألبانيا ويوغسلافيا قد منحت مساعدتها وتأييدها للعصابات الثائرة التى تقاتل ضد الحكومة اليونانية ، فان اللجنة تدعو ألبانيا وبلغاريا ويوغسلافيا إلى الكف عن تقديم أية مساعدة فى المستقبل لهذه العصابات » . وكذلك وافقت اللجنة على تأليف لجنة خاصة لمراقبة الحالة بالبلقان ، واحتفظ فيها بمقعدين لروسيا وبولندة ، ولكن مندوبى الدولتين أعلنا انسحابهما من اللجنة ، وعاد الاشكال إلى ما كان عليه .

وليس أدل على هبوط قيمة مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة فى نظر الدول من الخطاب الذى أرسله أعضاء اللجنة البلقانية فى شهر يوليو الماضى ينبئون فيه المجلس بأن حكومتى يوغسلافيا وألبانيا قد منعتاهم من مباشرة التحقيق فى بلادهما ، وأن بلغاريا اشترطت عليهم شروطاً لم يسعهم سوى رفضها . وأخيراً قال الأعضاء بالنص : « إن هذه الدول قد أظهرت احتقارها وامتهانها للسلطات التى خولها مجلس الأمن للجنة . »

٢ — وهناك مسألة العضوية فى مجلس الأمن وفى هيئة الأمم . أما فى مجلس الأمن فقد خلت ثلاثة أماكن بدلا من البرازيل واستراليا وبولندة . ففازت بثلثى الأصوات فى الهيئة كل من كندا وأرجنتينا . وتلتهما أكرانيا والهند بأقل من ثلثى الأصوات ، فأعيد الاقتراع بينهما مرات عدة ، ولكن انقسام الرأى بين الكتلتين قد حال دون فوز إحداهما ، ولا يزال الموقف معلقاً إلى الآن . وأما عن مسألة عضوية هيئةالأمم ، فقد كان الواجب أن ترحب الهيئة باستقبال الدول المستقلة التى لا تزال واقفة بالأبواب ، ومنها الدول التى عقد الحلفاء معها أخيراً معاهدات الصلح . ولكن انقسام الدول الكبرى فيما بينها لم يسمح إلا بقبول اليمن والباكستان ، وتركت فى الدهليز دول لها خطرها وأهميتها مثل إرلندة والبرتغال و إيطاليا وفنلندة .

وكان السبب فى هذا التعنت أنه لما تقدمت ألبانيا لقبولها عضواً بالهيئة أيدت روسيا طلبها على أساس أن ألبانيا قد حاربت إلى جانب الحلفاء فى الحرب الأخيرة ضد قوات المحور ، غير أن الدول الغربية عارضت فى قبولها بسبب التهم الموجهة اليها من اليونان ، ولتشددها أمام بريطانيا فى قضية الألغام التى كانت مبثوثة فى خليج كورفو واصطدمت بها فى العام الماضى سفينتان انجليزيتان ، فدمرت السفينتان وراح ضحية الحادث عدد من البحارة الانجليز . فلما اقترع المجلس ضد قبول ألبانيا جاء الرد سريعاً من روسيا ؛ إذ اعترضت على قبول إرلندة والبرتغال وشرق الأردن حين قرر المجلس قبولها . وكانت حجة المندوب الروسى فى الاعتراض أن استقلال شرق الأردن ناقص ، وأن إرلندة والبرتغال لم تشتركا فى الحرب ضد قوات المحور ، وأضاف المندوب إلى اعتراضه قوله إنه يكفى سبباً لرفض قبول هذه الدول أن حكومة اتحاد السوفييت لم تر من المناسب أن تتبادل معها التمثيل السياسى ، لأنها لا تستوفى الصفات التى تؤهلها لأن تكون أعضاء فى هيئة الأمم . ولا تعارض روسيا فى قبول إيطاليا وفنلندة إذا قبلت الدول الغربية بلغاريا وألبانيا . وهكذا تنحدر الاجراءات الخاصة بتطبيق ميثاق هيئة الأمم المتحدة إلى دزك المساومة والمقايضة!

٣ — أما مسألة أندونيسيا ، فقد ظهر فيها ضعف مجلس الأمن ظهوراً أكثر وضوحاً . ذلك أنه لم يكد المجلس يقرر مطالبة الفريقين المتحاربين بوقف

القتال ، ويعلن الطرفان قبولها توسط المجلس ، حتى عادت الأنباء تؤيد استئناف القتال بين الجانبين ، ولا تزال الجمهورية الأندونيسية تطالب المجلس بوقف القوات الهولندية عند مراكزها الأولى ، ولكن بدون جدوى . ولا تزال اللجنة الثلاثية التي ألفها المجلس من أستراليا وأمريكا وبلجيكا في طريقها إلى أندونيسيا لحسم النزاع بين المتحاربين .

وهذا الموقف السلبي من جانب مجلس الأمن يذكرنا بموقف مخالف له تماماً وقفه مجلس عصبة الأمم في سنة ١٩٢٥ . ذلك أنه حدث في أكتوبر من ذلك العام أن توترت العلاقات بين اليونان وبلغاريا كما هي متوترة الآن ، ولكن بفارق واحد ، هو أن الإغريق كانوا هم المعتدين إذ اخترقوا حدود بلغاريا ، وحدثت بينهم وبين البلقان مناوشات كادت تفضي إلى نشوب الحرب بين الشعبين ، فسارعت بلغاريا إلى مجلس العصبة تشكو من اعتداء اليونان ، وكان رئيس المجلس إذ ذاك السياسي الفرنسي الشهير مسيو بريان Briand وزير خارجية فرنسا ؛ فما إن وصلته أنباء الحادث حتى اتصل شخصياً بالحكومتين تلفونياً ، وطلب إليهما باسم العصبة وقف الاستعداد للحرب فوراً وسحب قوات كل من الحكومتين إلى داخل حدودها ، ثم دعا المجلس إلى الانعقاد في باريس في مدى ثلاثة أيام من تاريخ وصول الشكوى ، وقرر المجلس أن تسحب اليونان قواتها في مدى أربع وعشرين ساعة ، وكلف الملحقين العسكريين لدول الحلفاء تنفيذ أوامر المجلس بدقة والسهر على مراقبة الحالة . وقد وصلت الأوامر إلى الجيش اليوناني بالارتداد قبل أن يتهيأ للهجوم ببضع ساعات .

حدث هذا كله لأن الدول كانت تحدوها جميعاً الرغبة الأكيدة في صيانة السلم ونشر ألويته في جميع البلاد على السواء ، ولأن أعضاء المجلس كانوا يقدسون رسالتهم ويعتقدون أنهم حين يتكلمون كانوا ينطقون بلسان الشعوب بل بلسان الإنسانية جمعاء ؛ فكان إذا تكلم بريان الفرنسي أو تشمبرلن أو رمزي مكدونلد أو هندرسون الانجليزي اهتز لكلماتهم العالم أجمع . أما اليوم فماذا نرى ؟ إننا لا نرى قادة ينطقون بلسان الإنسانية فينصت لهم العالم ، بل نرى مندوبي الدول في الهيئة مجرد ممثلين سياسيين لحكوماتهم يقتضيهم واجبهم أن يدافعوا عن مصالح حكوماتهم وكفى . أما رسالتهم العامة

ودفاعهم عن الحقوق والحريات وقيامهم كحراس للأمن والسلام فى ربوع العالم جميعاً ، فأمور قد تتشدق بها ألسنتهم ، ولكنها لا تنطوى عليها قلوبهم . وسيبقى مصير هيئة الأمم المتحدة معلقاً فى الميزان لا نقض لها ولا إبرام فى المشكلات الدولية ، حتى يستقر رأى الدول الكبرى فيما بينها ، فاما إيمان صحيح بالميثاق وبرسالة الهيئة ، وإما حرب « جامدة » كالتى نعانيها الآن تعقبها بعد أمد طويل أو قصير حرب ذرية لا تبقى ولا تذر .

محمد رفعت

دولة باكستان

فى مقال سابق تحدثنا عن الهند بين الوحدة والتقسيم [1] ، وذكرنا أن التفرقة فى حياة الهند لا ترجع إلى فعل المستعمرين وحده ، وإنما هى ترتبط بعوامل أعمق كثيراً مما يبدو فى ظاهر الأمر ؛ فهى تتصل بطبيعة البلاد الهندية وانقسامها أقساماً متباينة من حيث التوجيه الجغرافى ؛ وهى تتصل بتاريخ الهند العمرانى والاجتماعى والثقافى ، ذلك التاريخ الطويل الحافل بعوامل الخلف والتفرقة بين السلالات والجماعات والطوائف والديانات واللغات وغير ذلك ، مما يصعب معه الجمع بين سكان الهند فى أمة واحدة . وغاية ما حدث فى تاريخ الهند الحديث أن الانجليز وجدوا فى تلك البلاد مجالا واسعاً مارسوا فيه سياسة التفرقة ، وحقلا خصباً استنبتوا فيه بذور الشقاق ، فكانوا مستعمرين مهرة عرفوا كيف يفيدون من الهند كميدان للاستعمار ، ووجهوا أسباب الشقاق إلى ما يخدم أغراض المستعمرين ، ولا يمهد السبيل إلى تقارب أو تساند بين جماعات الشعب وطوائفه فى تلك البلاد ، بل لا ينير السبيل أمام الهنود علهم أن يهتدوا إلى لون من ألوان الاتحاد السياسى بين أجزاء الهند ، اتحاداً لا يبعد أن يعوض تلك البلاد عن بعض ما فوتت عليها الظروف من وحدة قومية شاملة .

ونود فى هذا المقال أن نتتبع نشأة دولة باكستان ، إحدى الدولتين الكبريين اللتين انتهى إليهما تقسيم الهند ؛ وأن نحاول أن نكشف عما تستند إليه تلك الدولة الاسلامية من مقومات فى الطبيعة والتاريخ والاقتصاد والتكوين البشرى والاجتماعى ، كما نتتبع ما ينبغى أن تقوم عليه صلات تلك الدولة ببقية الهند ، بما فى ذلك الهند المتحدة أو هند باكستان ، والامارات الهندية

(١) الكاتب المصرى عدد ٢٥ (أكتوبر ١٩٤٧) .

الكثيرة التى قد ينتهى بها الأمر إلى أن تختار الاستقلال على الاندماج فى إحدى دولتى الهند الكبيرتين .

وقد يكون من المفيد فى هذا المقام أن نرجع إلى التاريخ ، علَّه أن يلقى شيئاً من الضوء على ما وراء فكرة الباكستان ودولتها الاسلامية فى الهند . ولقد دخل المسلمون أول ما دخلوا إلى الهند فى عهد الدولة الأموية ، فالدولة العباسية ؛ ولكن أولى الغزوات الواسعة النطاق إنما جاءت أيام فتوح محمود الغزنوى فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، حين قامت للمسلمين دولة فى شمال غرب الهند ؛ ثم اتسع نفوذ المسلمين ونطاق ملكهم ، حتى بسطوا نفوذهم على بعض جهات بنغالة فى شمال الهند الشرقى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ؛ وصحب ذلك انتشار الاسلام بين الهنود الأصليين . وكذلك امتدت سيطرة الحكام المسلمين إلى بعض جهات الهند الوسطى فى جوجرات والدكن وغيرهما ؛ وظهرت للمسلمين فى الهند دولة قوية فى القرون الوسطى ، لا سيا أيام المغول (موجال) ؛ وبقيت تلك الدولة قائمة حتى عام ١٨٥٧ ، عندما قضى عليها الانجليز ؛ فكانت آخر دولة هندية قاومت المستعمرين قبل أن يبسطوا سيطرتهم الكاملة على الهند ... ولا يزال المسلمون يذكرون أنه كانت لهم دولة قائمة فى بلاد الهند قبل تسعين سنة .

و إلى جانب ذلك فان قصة استقرار الاسلام وانتشاره فى الهند لا تخلو من طرافة ، وهى ولا شك تفيد فى تفهم فكرة الباكستان وردها إلى أصولها الأولى فى الدين والاجتماع والسياسة . فالاسلام يختلف عن غيره من أديان فى أنه كثيراً ما يجمع بين أمور الدنيا وأمور الدين . وهو فى الهند بالذات قد احتفظ بصفته هذه إلى حد بعيد ، لا سيا فى الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من شبه الجزيرة ، حيث اتصل انتشار الدين بتوسع سلطة الحاكمين من المسلمين . ومع ذلك فلم تكن تلك قصة انتشار الاسلام فى الهند كلها ؛ فهناك أمثلة معروفة تبرز أن دخول طوائف كبيرة من الهنود فى الاسلام لم يترتب على قهر أو قسر ، وإنما جاء نتيجة للنظام الاجتماعى والدينى السائد بين الهنادك ، وما انبنى عليه من وجود طوائف منبوذة ، وجدت فى اعتناق الاسلام مخرجاً مما هى فيه ، ووسيلة لأن ترفع مستواها الانسانى والاجتماعى بأن تدخل فى زمرة المسلمين الذين يتساوون فى العقيدة . وأغلب الظن أن انتشار الاسلام فى بلاد البنغال

جاء عن هذه السبيل ، فتخلصت به طوائف كثيرة كان البراهمة والمنادك يضعونها بحكم العقيدة فى مستوى اجتماعى حضيض . ويبدو أن هذه العناصر تعصبت للاسلام بعد أن اعتنقته أكثر مما تعصب له المسلمون الأصليون من الغزاة ؛ بل لعلها أن تكون قد ورثت فى دمائها روحاً هى أقرب إلى التشفى منها إلى التسامح الذى كان ينبغى أن يهديها إليه دينها الجديد . وقد يجد علماء النفس ، إنّ هم تعمقوا دراسة أسباب الشحناء والتنابذ بين طوائف الهند من المسلمين والمنادك ، أن روح الانتقام والتناحر قد تكون أقوى بين الهنود فى المناطق التى كان انتشار الاسلام فيها على حساب الديانات المحليـة وبين طبقات المنبوذين وأشباههم منها فى المناطق التى جاء المسلمون فيها كمجرد غزاة فرضوا سلطانهم على الأهالى ولم ينشروا عقيدتهم بين المنبوذين منهم . وقد يكون خير مثال لذلك ما نراه من قلة المشاحنات الطائفية فى إمارة حيدر آباد ، حيث الطبقة الحاكمة من المسلمين والغالبية المحكومة من المنادك ، وذلك كله بخلاف الحال فى مناطق البنغال حيث التشاحن والتناحر لا يزال على أشده .

وهناك منطقة أخرى انتشر فيها الاسلام ، وكثر التناحر بين المسلمين وغيرهم ، هى منطقة البنجاب ، وبعض جهات الشمال الغربى . ولكن التناحر هنا يمكن رده إلى عامل آخر غير ما نراه فى البنغال ؛ ذلك أن الاسلام فى البنغال لم يجد ديانة واحدة قوية متماسكة تستطيع أن تقف فى طريقه ، فاكتسح المنطقة اكتساحاً فى خلال خمسة قرون أو ستة بعد القرن الثانى عشر الميلادى . أما فى شمال الهند الغربى فان العقائد البراهمية كانت قد انتصرت على الديانة البوذية قبل وصول الاسلام ؛ فلما جاء المسلمون وجدوا أمامهم ديانة قوية منتصرة ، وحياة روحية أبعد ما تكون عن الانحلال ؛ وبذلك كان على الاسلام أن يكافح من أجل المحافظة على كيانه وسلطانه ، حتى ليقال إن البنجاب لم تتحول إلى الاسلام فى نطاق واسع إلا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وذلك رغم قربها من موطن الاسلام ، ورغم وقوعها فى طريق الغزاة من المسلمين . ولا تزال فى هذه المنطقة ، وفى شمال الهند الغربى أقليات قوية من غير المسلمين ؛ ففى مقاطعة البنجاب لا يزيد المسلمون على ٥٧ ٪ من السكان ، والباقون من المنادك والسيخ . بل إن

إمارة كشمير ذاتها ، وبها كثرة من المسلمين تبلغ السبعين فى المائة ، لا يزال يحكمها أسراء من غير المسلمين .

وإلى جانب ذلك كله فان هناك مناطق بالهند جاء انتشار الاسلام إليها عن طريق آخر غير طريق الفتح أو الاعتناق تخلصاً من بعض الأوضاع الاجتماعية الهندية ؛ ففى غرب الهند وجنوبها ، وعلى ساحل ملابار بصفة خاصة ، جاء انتشار الاسلام عن طريق التجارة . فقد بدأ التجار العرب والفرس يستقرون على الساحل وفى بعض موانيه ابتداء من القرن الثامن الميلادى ؛ وكانت علاقة التجار المسلمين هناك حسنة ووثيقة بالحكام الهنادك ؛ فانتشر الاسلام عن طريق المخالطة والتبشير . ولولا وصول البرتغاليين بعد عهد الاكتشافات لشمل الاسلام نسبة عظمى من سكان ساحل ملابار .

من كل هذا يتبين أن انتشار الاسلام بين الهنود ، وفى مختلف أرجاء الهند كان ظاهرة معقدة ، اختلفت الدوافع إليها من إقليم إلى إقليم . ولعل فى ذلك ما يزيد من تعقد الأحوال فى الهند ؛ بل لعل فيه ما يعكس صورة من اختلاط الأمور فى هذا العالم الهندى ، حيث تتعدد الأوضاع وتتغاير الصور وتختلف الأسباب والمظاهر ، حتى فى حالة الديانة الواحدة ، كما هى الحال بين المسلمين .

فاذا ما انتقلنا بعد هذه العجالة التاريخية إلى دولة باكستان ونشأة فكرتها أو بعث فكرة الدولة الاسلامية الحديثة فى الهند ، فاننا نلحظ أموراً جوهرية : أولها أن هذه الفكرة إنما نبتت فى إقليم شمال الهند الغربى ، وهو الوطن الروحى والعسكرى الأول بالنسبة للاسلام فى الهند ، بل هو الاقليم الذى احتك فيه الاسلام كما ذكرنا بعقائد هندية قوية مزدهرة ، فاشتبك بها فى صراع قوى لم تكن له فيه الغلبة إلا بعد كفاح طويل . ثم إن هذا الاقليم فى الوقت ذاته كان مدخلا قديماً لعناصر متتابعة جاءت إلى الهند من داخلية آسيا فى موجات متتالية ، لم تكن موجة المسلمين إلا أخراها . ولذلك فقد عاشت فى هذا القسم من الهند سلالات كثيرة من ذرية الفاتحين ؛ وهؤلاء دخلوا فى الاسلام ، أو دخلت كثرتهم فيه ، بالتدريج ؛ فأصبح المسلمون هنا ذوى تكوين جنسى ميزهم على غيرهم من سكان شمال الهند الشرقى مثلا ، حيث انزوت العناصر المستضعفة أمام موجات الغزاة ؛ أو من سكان جنوب الهند ، حيث طوردت أضعف العناصر وأقدمها وأبعدها عن التجديد والاحتكاك الثقافى بالعالم

الخارجى . لذلك كله لم يكن غريباً أن تنبعث فكرة باكستان كرسالة دينية وسياسية فى هذا الاقليم الشمالى الغربى من أقاليم الهند . . . بل قد يكون انبعاثها فى هذا الاقليم قبل غيره دليلا من دلائل القوة التى أخرجت الفكرة من حيز الخيال إلى حيز الممكن ؛ ثم لم تلبث أن جعلت منها حقيقة واقعة ، فى وقت لم يكن فيه كثير من الناس يعتقدون إمكان تحقق فكرة باكستان على هذا النحو السريع !

وثانى هذه الأمور التى يجب أن نلحظها هو أن فكرة باكستان ، كغيرها من الأفكار التى تظهر فى بلاد عريقة فى المدنية وحافلة بأحداث التاريخ كبلاد الهند ، إنما سبقت تحقيقها مرحلة من الفكر والفلسفة السياسية لدى نفر من مفكرى المسلمين فى الهند . فهى لم تنشأ كحركة شعبية ، وإنما بدأت كفكرة فلسفية سياسية ، لبى الشعب المنادى بها لأنها مست حياته الروحية وحركت مشاعره العاطفية ، فاستجاب لها كما تستجيب الشعوب لما يهديها إليه قادة الفكر . وقد استندت فكرة باكستان كما نعرفها أول ما استندت إليه إلى فلسفة الشاعر الهندى محمد إقبال ؛ فقد أصدر فى خلال الحرب العالمية الأولى ديواناً يقوم الشعر فيه على فلسفة القوة ، وبعث بذلك فى نفوس المسلمين من الهنود رغبة ملحة فى أن يستعيدوا مجدهم الفائت وقوتهم الضائعة ، ودفعهم إلى أن يؤمنوا بأنه لا سبيل إلى تحقيق الأحلام إلا إذا استيقظ النائم وسعى القائم ، وخرج الناس من حيز الفكر إلى حيز العمل . . . والعمل القوى الفعال ! ثم تبع إقبال الزعيم رحمت على ، فأعرب بطريقة أوضح عن آمال المسلمين فى الهند وأمانيهم ، وقال فى عام ١٩٣٣ بضرورة إنشاء دولة إسلامية كبرى تسمى « باكستان » وتتألف من ولايات خمس فى شمال الهند الغربى هى بنجاب والولاية الشمالية الغربية (ويسمى سكانها أفغان) وكشمير (وهى إمارة) والسند وبلوخستان [١] . كما يجوز أن تنشأ على نمطها أو أن تنضم إليها دولة « بانجسلام » وهى بنغالة وأسام ودولة « عثمانستان » وهى حيدر آباد والدكن ؛ ومع ذلك فان آراء رحمت على كان ينقصها التبلور والتحديد العملى من بعض

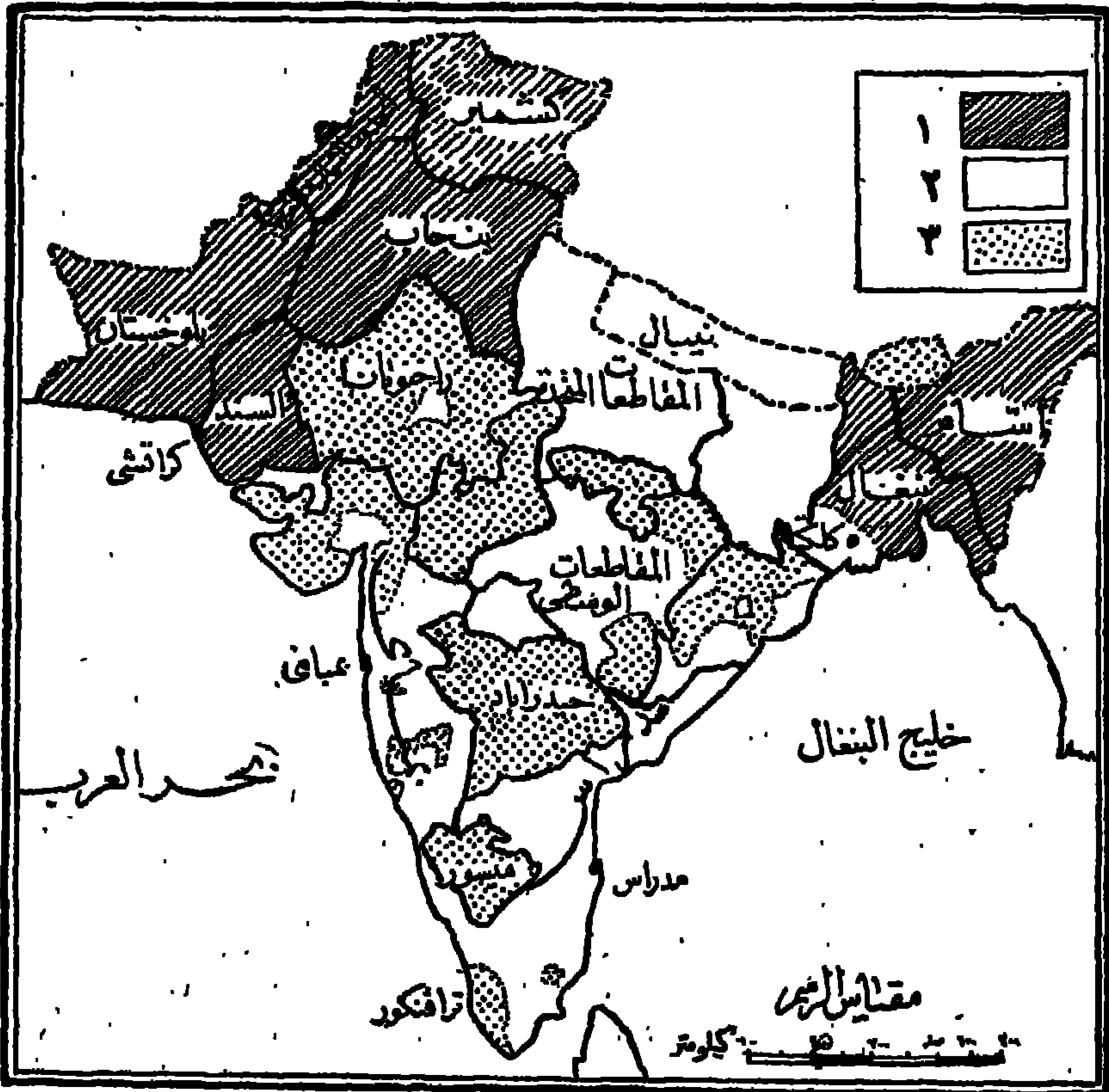
(١) إذا أخذنا الأحرف الأولى من أسماء بنجاب وافغان وكشمير وسند والأحرف الثلاثة الأخيرة من بلوخستان خرجنا بلفظ « پاكستان » . ومن الطريف أن هذا اللفظ يعنى باللغة الأوردية والفارسية « أرض الطاهرين » .

الوجوه ؛ فهو مثلا قد حاول أن يقرن ولو من بعيد بين المناطق التى تكون كثرتها من المسلمين ، كما هى حال باكستان وشرق البنغال وأسام ، وتلك التى تحكمها أقلية إسلامية ولكن كثرة أهلها من الهنادك ، مثل إمارة حيدر آباد ولذلك كله بدت آراؤه بعيدة المرام عن بعض المفكرين من المسلمين ؛ بل إن المسلمين فى جملتهم بقوا فترة من الزمن يزاوجون بين جهودهم وأمانيهم وبين جهود بقية الهنادك وأمانيهم فى مدافعة الانجليز ؛ وجاء وقت اتفقت فيه الرابطة الاسلامية ، وهى تمثل كثرة المسلمين ، مع حزب المؤتمر ، وكثرته من الهنادك . . . اتفقا على الكفاح المشترك ضد الانجليز ، والمطالبة باستقلال الهند عامة ، دون نظر إلى تقسيمها على أساس طائفى أو سياسى . حتى إذا ما جاء دستور الهند فى عام ١٩٣٥ ، وضع على أساس ديمقراطى فى ظاهره ، ولكنه ينتهى آخر الأمر بأن يبقى المسلمون فى الهند قلة تتحكم فيها كثرة دائمة من الهنادك . فالمسلمون وإن كانوا فى الهند كلها يزيدون على التسعين مليوناً ، فان الهنادك بمختلف طوائفهم يزيدون على ثلاثة أمثال ذلك العدد . فاذا فرض أن استقلت الهند الموحدة بأمورها فسيبقى المسلمون على الدوام قلة فى المجالس النيابية ، وفى الحكومة المركزية . وإن كانت لهم الكثرة فى بعض الحكومات المحلية ، وحتى إذا اقتصر الاستقلال على الهند البريطانية دون الامارات فسيكون مجموع المسلمين فى الولايات أقل من ثمانين مليوناً يقابلهم أكثر من مائتى مليون من غير المسلمين (١) ؛ وفى ذلك ما يهدد كيانهم ، ويبدلهم من استبداد الطغاة من الانجليز تحكم الكثرة الساحقة من الهنادك . لذلك كله لاح الخلاف بين الرابطة الاسلامية وحزب المؤتمر منذ عام ١٩٣٥ ؛ ثم ازدادت فى عام ١٩٣٧ عندما شرع فى تطبيق قانون استقلال ولايات الهند البريطانية . ثم جاءت الحرب فاختفى الخلاف ، ولكن ليعود فيظهر ويتجدد فى عام ١٩٤٠ ، عندما أعلنت الرابطة الاسلامية فى مؤتمر لاهور عزمها على الاستمساك إلى النهاية بميثاق باكستان ، على أن تشمل المناطق التى تقطنها كثرة من المسلمين فى شمال الهند الغربى وشمالها الشرقى . وما زالت الرابطة بزعامة رئيسها محمد على

(١) كان مقدراً أن يكون للمسلمين ٨٠ نائباً فى الجمعية التأسيسية الأخيرة من مجموع أعضائها ويبلغون ٣٨٩ عضواً . ولذلك قاطعت الرابطة الاسلامية تلك الجمعية .

جنة تكافح وتناضل حتى فازت باقرار ميثاقها ، وتقسيم الهند البريطانية إلى باكستان واتحاد الهند أو هندستان على نحو ما هو معروف . وتم ذلك رسميا عندما تخلت بريطانيا عن سلطاتها المحلية إلى الدولتين الجديدتين فى ١٥ أغسطس من هذا العام .

وينبغى أن يكون ملحوظاً أن مشروع التقسيم الجديد (راجع الخريطة) لا يشمل الهند كلها ؛ وإنما يشمل ما يعرف باسم الهند البريطانية ، وهى الخاضعة للحكم البريطانى المباشر . أما « إمارات » الهند (ولكل منها أمير يتمتع بالحكم الاسمى على الأقل) فقد تركتها بريطانيا عن قصد حرة تختار بين



خريطة تبين تقسيم الهند على النحو الآتى :

(١) باكستان [بما فيها إمارة كشمير] . — (٢) ولايات اتحاد الهند أو هندستان [وينتظر أن تنضم إليها بعض الامارات] . — (٣) الامارات الهندية ذات الاستقلال الاسمى ، ولها الحق فى الانضمام إلى إحدى الدولتين الهنديتين أو الاحتفاظ باستقلالها .

الانضمام إلى إحدى الدولتين الهنديتين أو الاحتفاظ باستقلالها والارتباط ببريطانيا بمعاهدة إن هى أرادت ذلك . . . وعدد الامارات فى الهند كبير ، ولكن من بينها عدد قليل من الامارات الكبرى ذات الشأن ؛ ومنها إمارة كشمير وهى قد اتحدت مع باكستان ، وإمارة حيدر آباد وقد اختار حاكمها المسلم أن يبقى على الحياد فيحتفظ باستقلاله ، ثم ولايات كبيرة أخرى مثل ترافنكور وغيرها ، مما لا ينتظر أن يبت فى أمره إلا بعد حين .

وباكستان فى صورتها الجديدة تشمل منطقتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى . تقع الأولى فى شمال الهند الغربى ؛ وتقع الثانية فى شمالها الشرقى . وتأتلف الأولى من ولايات بنجاب وسكانها نحو ٢٨ مليوناً (ما عدا ستة ملايين فى بعض الامارات الملحقة بها) ، والسند وسكانها ٤½ ملايين ، والحدود الشمالية الغربية وسكانها ٣ ملايين ، وبلوخستان وسكانها مليون واحد ، ثم إمارة كشمير وسكانها ٤ ملايين ؛ فمجموع السكان أكثر من أربعين مليوناً تبلغ نسبة المسلمين بينهم ٧٠٪ على وجه التقريب . ولكن هذه النسبة تختلف من مكان إلى مكان ؛ فهى تبلغ ٩٠٪ فى ولاية الحدود الشمالية الغربية . وتكاد تبلغ ذلك فى بعض جهات كشمير وبلوخستان ؛ ولكنها تقل فى البنجاب ذاتها إلى ٥٧٪ (يقابلهم ٢٧٪ من الهنادك فى تلك الولاية) . على أن هذه النسب كلها عرضة للتغيير لا سيما مقاطعة البنجاب ، حيث يحتمل أن تؤدى هجرة السكان وتبادلهم ، أو اقتطاع بعض أطراف تلك المقاطعة الشرقية إلى تغيير فى نسب طوائف السكان بعضهم إلى بعض .

أما باكستان الشرقية فتأتلف من بنغالة وأسام ؛ ولكنها لا تشمل المقاطعتين شمولا تاما . ففى بنغالة الغربية لا توجد كثرة من المسلمين ، فضلا عن أن كثرة سكان كلكتا ذاتها من غير المسلمين . ولذلك تقرر ألا تدخل تلك المدينة العظيمة ضمن باكستان ؛ وإنما اقتصر على المناطق التى تقطنها كثرة من المسلمين . ويقدر سكان باكستان الشرقية بنحو خمسة وأربعين مليوناً ، تناهز نسبة المسلمين بينهم السبعين فى المائة . فاذا ما ضممنا باكستان الشرقية إلى باكستان الغربية أصبحت جملة سكان الدولة الجديدة أكثر من ثمانين مليوناً ، بينهم نحو الستين مليوناً من المسلمين .

فدولة باكستان إذن يمكن اعتبارها — من حيث عدد السكان — دولة

كبرى . وقد كانت حجة المسلمين دائماً أنهم وإن كانوا يمثلون أقلية فى داخل الهند كلها ، فان عددهم الكبير ، وما يحتلونه من مساحة واسعة تبلغ زهاء نصف المليون من الأميال المربعة (هى مساحة شطرى باكستان) ، كل ذلك مما يسوغ قيام دولة قائمة بذاتها . وتلك ولا شك حجة لها قيمتها ووزنها ، لا سيما أننا نجد من تاريخ الاسلام والمسلمين فى الهند ما يسوغ احتفاظهم بكيانهم السياسي والقومى الخاص . وفوق ذلك فان دولة باكستان ستكون بتكوينها الجديد أكبر دولة إسلامية فى الشرق كله . ولا شك أن قيامها سيضيف قوة هائلة إلى ما يمكن أن يكون للعالم الاسلامى من شأن فى المستقبل . ومع ذلك كله فلا ينبغى أن تعمينا هذه الناحية عن استجلاء ما يكتنف قيام الدولة الجديدة من صعوبات ، بعضها طارئ سيزول مع الزمن ، وبعضها أصيل لا بد أن يبقى على الأيام . وخير لنا أن نواجه الحقائق كما هى ، وأن نكشف عن الصعوبات فى وضعها الصحيح من أن نغض الطرف عما هنالك من عقبات ونقائص .

وأولى هذه العقبات والنقائص ، وربما كانت أهمها ، أن دولة باكستان تنقسم قسمين منشطرين أحدهما فى الغرب والآخر فى الشرق ، وتفصل بينهما مساحة كبيرة من أرض هندستان والامارات الهندية المستقلة . وسيترتب على ذلك مشكلات كثيرة ، هى أظهر من أن تحتاج إلى تبيان ، وليس أقلها مشكلات الاتصال الاقتصادى والدفاع العسكرى ضد أخطار ، بعضها خارجى ، وبعضها الآخر ربما أتى يوماً من داخل الهند ذاتها . وستبقى باكستان منشطرة شطرين ليس بينهما « ممر » أو « دهليز » هندى ، ولا اتصال مباشر إلا بالبحر حول الهند كلها . وقد تكون باكستان قوية متماسكة من حيث المبدأ والفكرة والروح والعصبية ، ولكن جيشها وأسطولها سيبقيان على الدوام فى معسكرين متباعدين ، كما أن مواصلاتها ستبقى فى اتجاهين مختلفين ؛ ولن يكون لها مركز اقتصادى موحد ، بل إن تكوينها الاقتصادى ذاته سيكون بعيداً عن الكمال ؛ فهى غنية بمواردها وحاصلاتها الزراعية من القمح فى الغرب والأرز والقنب فى الشرق ، ولكنها أفقر من هندستان فى موارد القوة من الفحم ومساقط المياه وأدوات الصناعة الحديثة ، مما يتركز فى السواحل الغربية عند بمباى أو فى منطقة أوريسا عند جنوب البنغال الغربى . وفضلا عن ذلك فان إقليم بنغالة ذاته قد اقتطعت عاصمته وسوقه الكبرى كلكتا ، فأضيفت إلى اتحاد الهند (هندستان)

على حين بقيت أراضيه الشرقية ومزارعه الواسعة ضمن باكستان . فهذه المشكلات الاقتصادية المتنوعة تضاعف ولا شك من آثار المشكلة العسكرية فى الدفاع عن بلد مشطور كباكستان .

وستواجه باكستان نوعاً ثالثاً من المشكلات (غير المشكلات الاقتصادية والعسكرية) هو مشكل الأقليات . فالمسلمون فى باكستان لا يمثلون أكثر من سبعين فى المائة ، وبقية السكان من الهنادك والسيخ وغيرهم . ولا يمكن أن نتصور أن يكون من الميسور نقل السكان وتبادلهم بين هندستان وباكستان بحيث نخرج من الأخيرة غير المسلمين ، وننقل إليها بقية المسلمين من الهند . فالمصالح الاقتصادية والظروف المادية قد لا تجعل ذلك كله فى حيز الامكان إلا بقدر محدود . بل إننا قد رأينا أن بالهند جهات بها كثرة هندوكية تحكمها طبقة مسلمة ، وجهات أخرى بها كثرة مسلمة تحكمها طبقة من الهنادك . ولقد جربت عملية نقل السكان وتبادلهم فى نطاق ضيق ، فى حدود مئات الآلاف ، فى بعض جهات أوربا (بين اليونان وتركيا مثلا) ؛ ولكن التبادل فى نطاق عشرات الملايين ، كما هو مطلوب فى الهند ، أمر أخطر كثيراً وأصعب كثيراً ، لا سيا فى بلد تسود فيه الحزازات والمشاحنات ، ويصعب فيه الاتصال ويشق التنظيم . وقد لا تطول التجربة باخواننا الهنود فى كل من باكستان وهندستان قبل أن يستبينوا أن تبادل السكان فى الهند ليس مما يمكن تحقيقه إلا فى نطاق محدود ، وأن الصالح المتبادل يقضى بأن تحسن الأغلبية معاملة الأقلية بدلا من أن تحاول التخلص منها . . . والمستقبل وحده ، وما قد يأتى من دروس ، كفيل بأن يبرز لأبناء الهند حكمة التكافل وقيمة التكامل بين الأغلبية والأقلية فى كيان الأمم ! .

ونستطيع أن ندرك ضرورة التعاون بين الدولتين الحديثتين وما يقع بينهما من إمارات مستقلة إذا ما تذكرنا مرة أخرى (راجع الخريطة) أن مشروع التقسيم الجديد لا يقسم الهند إلى دولتين اثنتين ؛ وإنما يترك المجال أمام عدد كبيرمن الامارات لتعلن استقلالها إن هى أرادت ذلك ، ولترتبط ببريطانيا ارتباطا اقتصاديا أو عسكرياً قد يهدد من قريب أو بعيد ، ما حصلت عليه الهند من ميزة الاستقلال . وقد يكون خروج الانجليز من الهند أمراً نهائيا ؛ ولكنه قد يكون موقوتاً إلى حين ، أو إلى أن يجد البريطانيون ما يسوغ التدخل ولو على

نحو غير مباشر ، وفى صورة جديدة تختلف عن تدخلهم السابق . ولكننا حتى إن افترضنا أحسن الفروض فلن نستطيع أن نستبعد من الحساب أن باكستان ستشعر دائماً أنها دولة كبيرة فى حد ذاتها ، ولكنها على كل حال أصغر كثيراً من هندستان التى قد يبلغ عدد سكانها فى النهاية ما يقرب من ثلاثة أمثال عدد سكان باكستان . وليس عدد السكان كل شئ فى حياة الأمم بالطبع ، ولكنه قد يكون عامل إغراء بالضعف ؛ وقد تلتمس باكستان أن تستعيض عن ذلك باكتساب شعور بقية المسلمين فى هندستان إلى جانب إخوانهم فى باكستان ؛ إذ قد تحاول الاستعاضة عنه بما يضفى المسلمون فى غرب آسيا وجنوبها الشرقى على الدولة الناشئة من شعور بالعطف . ولكن الخير فى رأينا أن يكون رجال باكستان عمليين إلى القدر الذى تفرضه ظروف دولتهم الجديدة ، وما يكتنف قيامها من صعوبات لا يزالون من معالجتها فى أول الطريق وعند أسفل الدرج . وليس من شك فى أن من الخير للهند بشطريها أو أشطرها العديدة ألا تؤدى القسمة السياسية إلى قسمة فى الميول والاتجاهات الدولية ، ولا إلى إغراق فى المنازعات الطائفية التى تفتح الطريق إلى المنازعات الدولية . بل خير للهند فى مجموعها وللشرق فى جملته أن يحتفظ أبناء الهند جميعاً بنوع من الوحدة فى الغاية السياسية التى ترمى إلى التحرر من الماضى القريب ومن أعقاب الاستعمار ، فيدركوا أن تقسيم الهند إن كان مما يتسق مع مقتضيات البيئة الطبيعية ، ويتفق وتقاليد التاريخ البشرى ، كما يرضى نزعة العصبية الدينية والقومية فى تلك البلاد ، فان مصالح المادة تقتضى أن تحتفظ أجزاء الهند بنوع من الرباط فيما بينها ؛ فيقوم فى الهند على الزمن اتحاد أمم هندية ، قد لا نستطيع أن نرسم معالمه الآن ، ولكنه يكون وقاء لبلاد الهند من أن تتنازعها عوامل التمزق ، فتضيع ريح أهلها من الهنادك والمسلمين ، ولا يفيد من ذلك غير أولئك الذين يعرفون كيف يفيدون من الظروف !

الهند بلاد فسيحة - كما ذكرنا فى مطلع مقالنا السابق ، تناهز مساحتها ثلث أوربا ، ويقارب عدد سكانها سكان تلك القارة ، ثم إنها بلاد عريقة فى المدنية ، بدونها لا تكتمل للشرق صورته المعروفة . ولقد كانت رغم انقساماتها الكثيرة مركزاً عظيما من مراكز الثقافة البشرية ، ومهداً عريقاً من مهاد

الفكر الفلسفى ؛ نبتت فيها بعض العقائد والديانات التى انتشرت نحو الشمال ونحو الشرق ، والتى حمل أنصارها رسالتهم إلى العالم الخارجى بالبر والبحر ، كما ظهرت فيها بعض ألوان الفكر والفلسفة التى نقل عنها الشرقيون فى غرب آسيا وشرقها على حد سواء . وهى إلى ذلك كله تعتبر قلب الشرق الآسيوى إلى يومنا هذا . وإنه لمن خير الانسانية جميعاً أن تحتفظ تلك البلاد العريقة بطابعها الهندى وبمكانتها التاريخية ، فلا تحول الانقسامات والحزازات وما قد تجر إليه من تناحر واضطراب دون أن تبقى الهند وحضارتها على الزمن ، ودون أن يستطيع أبناؤها — على مختلف طوائفهم — أن يساهموا فى حياة البشر وفكرهم فى قابل الأيام بمثل ما ساهم به أسلافهم فى ماضيهم الحافل العتيد .

سليمان حزين

المدينة الخالدة

سلامٌ على روما عروسِ الحواضر ... بما وَرِثتْ طولَ القرون الغوابرِ

طوافى هنا لا فى المكان وإنما ... بجوف زمانٍ ذاهبِ الغور داهر

هنا حيثما انْساقَتْ خُطاى معالمٌ ... تحدِّث عن ماضٍ من المجد دابر

خرائبُ تَسْتَعدى الجلالَ على البلى ... وتَزْهى بمطموسٍ من الفن داثر (١)

جواثمُ إلا أنهـا فى جُثومها ... تَنُصُّ جبيناً مُشْمَخَناً غيرَ صاغر (٢)

بقـايا أساطينٍ فُرادى مُنيفـةٌ ... جِلادٌ على الأيام غيرُ خوائر (٣)

تُطل على الأنقاض حول نِصابها ... وكل العـلا فى نِقْضها المتناثر (٤)

لهـا روعةٌ فى النفس تُشعر أنها ... محاريبُ ربٍّ أو قصورُ قياصر

بيوتُ عباداتٍ ودورُ سيادةٍ ... ببابهمـا ذلت جبـاهُ الجبـابر

لقـد دثرتْ ، لم يحْمِ ربٌّ بنـاءه ... فأهْوى وما لاقى مُقيلاً لعـاثر

سوى معبدِ الأرباب جمْعاً كأنما ... أفاد القوى من سرِّها المتضافر (٥)

عظيمٌ من البنيان كالطود راسخٌ ... يخِفُّ من التَّنْسيق خفَّةَ طائر

له قبَّةٌ رَوْحـاءُ ينفـذ أوْجُها ... إلى القبة الكبرى بتـدبير ساحر

وَثَمَّةَ ألطـافٌ وآثار نَعْمةٍ ... شواهدُ عيشٍ رافهِ الظل ناضر

وأطـلالُ حَمَّامٍ عَفَت عَرَصاته ... وكانت عِباقاً بالطُّيوب العواطر (٦)

وجَفَّت حِياضٌ فيه كانت رَوِيَّةً ... يُساق إليها الماءُ فوق القناطر (٧)

كم ازدحمتْ أحواضُه وأريكُـه ... بأبنـاء روما المترفين السـوادر

وثمة بين الرَّبْوَتَيْن بَلاقعٌ ... هى السُّوق كانت ندوة للتشاور (٨)

ذكرنا عليها رأىَ شَيْخٍ مُحَنَّكٍ ... وقولَ خطيبٍ ذى شَقاشِقَ هادرَ

وكانت حِمى رأيٍ ومَرْقى بلاغةٍ ... ورمزاً لحق الشعب عند الأباطر

وأجداثُ أقْيالٍ تهيّبها البلى ... وَسَبْيٌ مِسلاّتٍ جلائب جائر (٩)
وصِنْوٌ لأهرام الفراعين يقتدى ... بمصر ، ولكن فى قوام البحاتِر (١٠)
وأســوارُ آطامٍ وشُمٌّ معاقلٍ ... تَدَرَّعُ للعادى بصبرٍ مُصابر
وأعمدةٌ قد كان تمثالُ ربّها ... على رأسها سَحْبان تلك المنابر (١١)
وأقواسُ نصرٍ خلّدت جنباتها ... على الصخر ما أملى رواةُ البشائر (١٢)
لكم مرت الأجنادُ تحت عقودها ... خِفافاً بأعلام النسور الكواسر
كتائبُ جرّارٍ يَصِيلُ سلاحُها ... وترفع بالإنشاد هوج العقائر
مردّدةً الأبواقِ تعلن نصرَها ... وثَمّ هتاف الشعب ملءُ الحناجر
وفى الصدر منها مَركَبُ النصر عالياً ... كبرجٍ من الأبريز أفْرهَ سائر (١٣)
تجرّه الأفراسُ من كلّ مُحْضِر ... لدى السبق ، هملاجٍ لدى العرض خاطر (١٤)
تجلّى عليه ذو جبينٍ مكلّلٍ ... له فوق عرش العاج جِلسةُ ظافر
يروع بوجهٍ أحمر الصبغ مشرقٍ ... يُخال سناه وهج شمس الهواجر
وحُلّتُه من أرجوانٍ وعسجدٍ ... وزينتُه من دُمْلُجٍ وأساور
وبين يديه يَعرض النصرُ سوقَه ... غنائمَ حربٍ فى العجال التواقِر (١٥)
وتمشى حفاةً فى السلاسل رُسَّفاً ... أساراه مثلَ الهَدْى صوب المجازر (١٦)
مواكب تجتاب المدينة كلها ... تطوف نواحيها طواف مُفاخِر
وتفضى — وللشكران عُقْبى مطافها — ... إلى معبدٍ فى ذروة الطود كابر (١٧)
وما أنس لا أنس الملاعب شادها ... عواهلُ روما نزهةً للخواطر (١٨)
ونزهتهم فيها صراعُ عبيدهم ... وإعتاق أسراهم بجزّ المناحر
وطرحُ النصارى للسباع تشفياً ... لأرباب روما من تمرّد ثائر
ملاعبُ قد دكّ الزمانُ صروحها ... أوائلها قيد البلى كالأواخر
سوى ملعبٍ أبلى الليالى مناعةً ... وشَقّ على أرحائهنّ الدوائر (١٩)
تعالى طباقاً آزجٌ فوق آزج ... يزاحمن أبراج النجوم الزواهر (٢٠)
قد انفسحت أقطارُه وتحلقت ... مقاصيرُه ترعى عرين القساور
إذا بثت القمراءُ فيه ظلالها ... ورفّت به أنفاسُ هوج زوافر

تخال به أبناء روما وغيدها ... مهللة تلهو بدامى المناظر
ولكن دوراً قد رعى الدهر عهدها ... وإن عُطّلت فيها عتاق المشاعر
علتها يد الانسان بالمقْت والقِلى ... وجبّ اختلافُ الدّين عقد الأواصر
سباها الألى ارتادوا الدياميس مفزعاً ... وباتوا وموتاهم ببطن مغاور (٢١)
وغادرها الدين الجديد لربه ... وبيعاته الكبرى رُكامَ محاجر (٢٢)
كنائسُ قامت للمسيح مقامها ... وتاهت بقُبّاتٍ لها ومنائر (٢٣)
وجدّت فنونٌ طبّق الأرض طيبها ... تجلّى بها فنّ الثقات العباقر (٢٤)
فيا رُبَّ حيّ صوّروه تخاله ... وأنفاسُه كالحيّ ملء المحاجر
يُزاد من التّجسيم فضل ضلاعةٍ ... وروعة تأثيرٍ وفتنة فاخر
فأعجب بأطياف الأساطير حيّةً ... على سقف محرابٍ هنالك غائر (٢٥)
ويومٍ عصيبٍ للحساب كأنه ... حقيقةُ حسٍ لاخداع نواظر (٢٦)
وشِبْهٍ لموسى لا محالة ناطق ... بتمثاله ، بادى الجلالة آمر (٢٧)
شديدِ القُوى وافى الشطاطِ مؤزّبٍ ... له بأسُ جبّارٍ وبِنْيةُ حادر
وحقّ كليم الله فى الطّور أن يُرَى ... —بما دُكّ منه الطورُ— صُلْبَ المكاسر
عجائبُ فنٍّ قد أتيح لربّه ... —على فضل هذى— فضلُ بانٍ وشاعر
لقد جمعوا أطراف كلّ صناعةٍ ... وأوتوا على التكوين قدرةَ قادر
شخوصُ تماثيلٍ وبِدْعُ زخارفٍ ... وإعجازُ تصويرٍ وسحرُ عمائر
على كل ميدانٍ وفى كل مفرقٍ ... تقوم الدُّمى فى حفْلها المتكاثر
وتنثر هُولاتُ الفساقيّ ماءها ... بتصْليحٍ مُفْتنٍّ وصنعة ماهر (٢٨)
أضافوا إلى غُرِّ الأعاصر عصرهم ... وعصرهم فى الفن زيْنُ الأعاصر
كذا أنت يا روما جماعُ ذخائر ... وتاريخُ أكوانٍ وسِفْرُ مآثر
كذا أنت أمٌّ للحضارات تنطوى ... حضارةُ ماضٍ فى حضارة حاضر (٢٩)
وردتك مشتاقاً إلى الفن ظامئاً ... وعدتُ على شوقٍ بنغْبة طائر
سِجلّك مسجورٌ وفنُّك باذخٌ ... عميقٌ ؛ فما توفيك زوْرةُ زائر
تلبّثتُ لو أنى وزوجى هٰهنا ... ولكن زوجى فى عقالِ المقابر

ضجيعة أرضٍ طاول النجم مجدُها — وأنتِ جنينٌ في غيوب المقادر (٣٠)
لقد طفتُ يا روما ربوعك موحداً — فياحسنَها لو كان زوجي مجاوري
أراني على الأطلال أطول وقفةً — وأمعن تسريحاً لفكري وناظري
أراعي إلى قدس المعابد أصبحت — مدارج أقدامٍ ومجرى حوافر
وأربابُها صرعى التماثيل ضيَّعٌ — وكانت ترجَّى في الخطوب الكبائر
وأحنو على آي الجمال تناثرت — حصًى أو بقايا في ضمان الجبائر
رسومك يا روما القديمة عِبرةٌ — لأرمل ملتاع الجوانح عابر
مصارعُ مجدٍ شامخ الشأو نادر — ومدفنُ حسن معجز الصنع باهر
تأسيتُ يا روما بهذي جميعها — وإن تك أوثاناً بمحراب كافر
تأسيت بالأرباب لاقت حتوفها — ولم تنجُ من سهم الردى المتواتر
تأسيت يا روما ولو بعض ساعة — فلستُ على رغم الهوى بمكابر

عبد الرحمن صدقي

---

(١) تستعديه : تستعين به وتستنصره .
(٢) تنص : ترفع .
(٣) الأساطين : الأعمدة .
(٤) نصابها : أي قاعدتها التي تقوم عليها .
(٥) معبد الأرباب جماً : البانثيون Pantheon ومعناه كما تقدم « معبد جميع الآلهة » . وكان بناؤه بأمر الامبراطور الروماني أجريبا في أواخر العهد الوثني ولا يزال حتى اليوم موفور الكيان تام الأركان .
(٦) كثرت هذه الحمامات في عهد الأباطرة وأشهرها حمامات كاراكالا .
(٧) قناطر الماء : قنوات فوق حنايا يساق عليها الماء إلى المدينة من العيون الدافقة في التلال القريبة . ويبلغ ارتفاع بعض هذه القناطر نحو مائة قدم ويزيد طولها على ستين ألف متر .
(٨) الربوتان هما ربوة البالاتين وربوة الكابتول (من التلال السبعة التي تقوم عليها مدينة روما) وكانت بينهما السوق العامة الرومانية وهي مركز الحياة الاجتماعية والسياسية قديماً . وقد استجد الأباطرة بعدها اسواقاً مثلها ، وكان آخر هذه الأسواق سوق تراجان بين ربوة الكابتول وربوة الكويرينال .

(٩) تذكر من الأجداث ضريح أدريان وهو أسطوانى الشكل على قاعدة مربعة وكان بناؤه بأمر الامبراطور سنة ١٣٥ قبل الميلاد ليكون مدفناً له ولمن يخلفه ، ويعرف الضريح الآن باسم صرح سان أنجلو Castel Sant' Angelo . والمسلات التى سباها الرومان هى المسلات المصرية التى نقلها أباطرتهم إلى روما وهى قطعة واحدة من الصوان ، ومنها المسلة القائمة فى ميدان الشعب وارتفاعها فوق الثلاثة والعشرين متراً ، وكذلك المسلة القائمة فى ميدان كنيسة بطرس وارتفاعها أربعة وعشرون متراً . وكانت هذه وتلك قائمتين بمعبد الشمس فى هليوبوليس . وفى روما مسلات أخرى من صنع الرومان محاكاة للمسلة المصرية ولكنها دونها ولا تبلغ فى الارتفاع مبالغها .

(١٠) الهرم المشار إليه هرم كايوس تشتيوس Caius Cestius من الرؤساء الرومان وكانت وفاته سنة ٤٣ قبل الميلاد ولا يزيد ارتفاع هذا الهرم على ٣٧ متراً وهو بناية من الآجر يكسوها الرخام .

(١١) من هذه الأعمدة عمود الامبراطور تراجان وعمود الامبراطور مارك أوريل ، وكلاهما أقيم تذكاراً لما أحرزه هذا وذاك من النصر على الأعداء ، وكان على قمة كل عمود تمثال صاحبه . فلما صارت الغلبة للمسيحية جعل البابا مكان تراجان ومارك أوريل الامبراطورين تمثالى بطرس وبولس القديسين .

(١٢) أشهر أقواس النصر أقواس تيتوس وسيفير وقسطنطين وعليها جميعاً نقوش تمثل انتصاراتهم .

(١٣) الابريز : الذهب الخالص . الأفره : البين الفراهة وهى خفة الحركة .

(١٤) المحضر : الشديد الجرى . الهملاج : الحسن السير فى سرعة وبخترة .

(١٥) عجال : جمع عجلة وهى التى تحمل عليها الأثقال . مواقر : جمع موقر وموقرة أى مثقلة .

١٦) الهدى : ما أهدى إلى الحرم من النعم لنحره . وكان الأسرى يقتلون فى مطبق تحت المعبد عقب انتهاء الموكب .

(١٧) هو معبد على صخرة الكابتول ويعرف بمعبد جوبيتر الكابتولى حامى روما .

(١٨) كثرت هذه الملاعب فى الدولة الرومانية ، وهى أميل إلى الشكل الاهليلجى منها إلى الاستدارة . وللملعب ساحة تسمى بالعرين Arena حولها المدرجات . وأهم ما كان يعرض فى العرين صراع المجالدين Gladiator فيما بين بعضهم وبعض أو فيما بينهم وبين السباع .

(١٩) هو الملعب الفلافى المعروف بالكولوسيوم Colosseum وقد شرع فى بنائه الامبراطور فسبازيان فى سنة ٧٢ ميلادية ، وأتمه خلفه تيتوس وافتتحه عام ٨٠ . ويتسع هذا الملعب لنحو خمسين ألف من النظارة ولا تزال معالمه قائمة .

(٢٠) الآزج : جمع أزج وهو البيت يبنى طولا .

(٢١) الدياميس : جمع ديماس وهو الحفير تحت الأرض . والدياميس فى روما كثيرة ، وهى سراديب اتخذها النصارى مدافن لموتاهم ، وكانوا يوغلون فى حفرها أطباقاً تحت أطباق لغلاء الأرض عليهم فى ذلك الحين ، وكانوا يحفرون فى جانبى كل سرداب لحود الموتى . ولما

كان الرومان يرعون حرمة الموتى فقد التجأ النصارى إلى هذه الدياميس أثناء اضطهادهم في القرن الثالث الميلادي لاحياء دينهم في غياباتها .

(٢٢) الدين الجديد أي النصرانية . البيعات جمع بيعة وهي الكنيسة .

(٢٣) الكنائس في روما لا يحصيها العد ، ولا غرو فهي كرسي البابوية والعاصمة الكبرى المسيحية . وأعظم هذه الكنائس كنيسة القديس بطرس ، وتعد قبتها أعظم ما أخرجه فن العمارة في عهد التجديد وهي من تدبير الفنان الأشهر ميكائيل أنجلو ، ولعل أجل ما في الكنيسة تمثال الورع للفنان نفسه .

(٢٤) من هذه الفنون الجديدة التصوير بالزيت ويمتاز بسرعة جفافه . وقد جعلوا في مبدأ أمرهم يصورون بالزيت على لوحات الخشب (ومن ثمة تسميتهم الصورة باللوحة) ثم عدلوا إلى القماش . وكان التصوير قبل ذلك بالألوان المحلولة في الماء أو في مح البيض أو في الشمع ، ويعرف التصوير القديم بالتصوير الطرى Affresco لأنه لا يكون إلا على سطح مجصص لم يجف طلاؤه بعد . ويضاف إلى ذلك عناية المتأخرين بدراسة نظرية المنظور الهندسي ومراعاتها في التصوير .

(٢٥) ذلك المحراب أمر ببنائه البابا سستو الرابع Sisto IV ويعرف بالمحراب السستيني Cappella Sistina وعلى سقفه تهاويل لميكائيل أنجلو تمثل روائعها أساطير من التوراة من سفر التكوين .

(٢٦) صورة يوم الحساب الأخير على جدار المذبح في صدر المحراب من تصوير الفنان نفسه وقد استوحاها من أوصاف دانتي أعظم شعراء الطليان للجحيم في الكوميديا الالهية .

(٢٧) هذا التمثال من صنع الفنان نفسه وهو موجود بكنيسة القديس بطرس المكبل بالحديد San Pietro in Vincoli .

(٢٨) الهولات جمع هولة : كل ما كان غريب الخلقة . وهي تشير هنا إلى ما يزين الفساقي من تماثيل غريبة الخلقة كالحيلان (نصفه إنسان ونصفه سمك) وكأفراس الماء وجراذين الماء وغيرها من الحيوانات الخرافية وآلهة البحر في الأساطير الوثنية .

(٢٩) كانت لايطاليا زعامة الحضارة مرتين : أولاهما قبل المسيحية في العهد الروماني القديم ، والأخرى بعدها في عصر النهضة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

(٣٠) إشارة إلى مصر وحضارتها أقدم الحضارات

كليوباترا من أعف نساء عصرها

« إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه
شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب
من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »
قرآن كريم

بعد وفاة العاهل العظيم الاسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م. تمزقت أوصال إمبراطوريته ، وقسمت بين عظماء رجال دولته وقواده ، وقد كانت مصر من نصيب بطليموس أحد قواده الذى اشتهر بالقوة وسداد الرأى مما ساعده على تأسيس دولة عظيمة فى مصر أعادت لها بعض مجدها الغابر . وقد سار على نهجه بعض أخلافه المباشرين ، إلى أن قطعت مصر فى فتوحها شوطاً بعيداً حتى أصبحت أقوى دولة فى العالم مدة فترة وجيزة . غير أن فتوة ملوك هذه الأسرة لم تلبث أن تسرب إليها الوهن ، ودبت فيها عوامل الانحلال والترف والخلاعة مما قرب أجل أفول نجمهم وضياع ملكهم جملة على يد فاتحين أقوياء . فلا غرابة إذاً أن نرى عند تولية كليوباترا السادسة وأخيها بطليموس الثانى عشر ملك البلاد عام ٥١ ق.م. أن سلطان هذه الأسرة أصبح على شفا جرف هار ، وأن نهايتها صارت محتومة . وقد كان بطليموس الملقب بالزمار والد كليوباترا يحس بدنو أجل دولته قبل وفاته ؛ لذلك أوصى فى وثيقة مختومة حفظت فى مأمن فى حيازة الجمهورية الرومانية أن يخلفه على عرش البلاد ابنته كليوباترا بالاشتراك مع أكبر أخواتها جرياً على تقاليد هذه الأسرة الموروثة . وقد كان أخوها الذى سمى فيما بعد بطليموس الثانى عشر حدثاً فى العاشرة من عمره . غير أن هذه الوصية لم ترق عندما أعلنت فى نظر كليوباترا ، ولكنها لم تحاول أن تخفى ما يجيش فى صدرها من طموح للاستئثار بعرش البلاد دون شريك لها . بيد أن الأحوال الداخلية لم تكن مهيأة لتحقيق مطمحها ؛ إذ كان لهذا الملك الطفل أنصار

أشداء يرون أن توليته العرش واجبة . ونخص بالذكر منهم الخصى بثنتس الذى كان صاحب القول الفصل فى البلاط ، ويساعده على ذلك قائد الجيش أخلاس . ثم مربى بطليموس نفسه ثيودوتس . فلما أحس هذا الثالوث بأطماع كليوباترا أخذوا يدبرون لكبح جماحها والحد من طموحها حتى نجحوا فى إثارة شعور أهل الاسكندرية بالتألب عليها . ولما لم تجد لنفسها نصيراً قويا أمام هؤلاء الثوار أزمعت الفرار إلى سوريا حيث جندت جيشاً هناك وسارت به لمحاربة جيش أخيها فى مصر ، فاعترضها جيش أخيها على الحدود الشرقية عند بلزيوم وحال دون تقدمها داخل البلاد .

وفى خلال تلك الفترة الرهيبة من تاريخ البلاد كانت الحروب الأهلية فى الجمهورية الرومانية قائمة على قدم وساق بين يليوس قيصر و بمبى . وقد انتهت بهزيمة الأخير فى مصر وقتله بالقرب من بلزيوم على يد أتباع بطليموس الثانى عشر أخى كليوباترا . وفى هذه الفترة كان يليوس قيصر قد حضر إلى الاسكندرية مقتفياً أثر بمبى . ولما كان قيصر يعد نفسه ممثل الجمهورية الرومانية التى وضع بطليموس الزمار فى حيازتها وصيته عن اعتلاء عرش مصر ، فانه ادعى لنفسه حق طلب كليوباترا وأخيها للحضور أمامه ، وأجبرهما على تسريح جيشيهما والخضوع لما يقضى به هو فى هذا النزاع القائم على ولاية عرش مصر . فلبى بطليموس نداء قيصر وعاد إلى الاسكندرية دون أن يسرح جيشه الذى تركه مرابطاً فى بلزيوم ليعوق عودة كليوباترا إلى مصر .

أما كليوباترا فكانت على يقين من أنها ستقتل على يد أنصار أخيها إذا هى حضرت جهاراً إلى قيصر ، فعقدت العزم أن تجعل قيصر يصغى إلى روايتها فى ذلك النزاع ؛ لذلك عادت سرا على متن سفينة إلى الاسكندرية لا يرافقها إلا تابع واحد وثقت بإخلاصه لها . فلما وصلت إلى مقر الملك احتالت فى الوصول إلى حجرة قيصر فى قصره ، فأمرت أن تلف فى بساط ناعم حمله تابعها الأمين على كتفه ، واقتحم به أبواب القصر موهماً الحراس أنه قد جاء يحمل هدية لقيصر ، وقد أفلح التدبير . ولم تكد عين قيصر تقع عليها حتى أسره جمال تلك الملكة الفتية ، وأعجبته مغامرتها وجرأتها المنقطعة النظير . وقد كان قيصر صاحب شهرة ذائعة فى استهواء النساء ، والميل

اليهن ، فانحاز إلى جانبها وأهذ يناصرها ، ومن ثم بدأت القصة الغرامية المشهورة بين قيصر وكليوباترا. وتدل الآثار المصرية أنه قد تزوج بها على حسب التقاليد الفرعونية . وبعد ولادة ابنهما قيصرون تبعت كليوباترا زوجها قيصر إلى روما حيث مكثت بها إلى أن قتل زوجها عام ٤٤ ق.م. وعندئذ لم تر بدا من العودة إلى مصر على جناح السرعة .

وقد كان موت قيصر سبباً فى قيام حرب أهلية أخرى فى روما ؛ إذ طالب أنطونيو وأكتافيان بدم قيصر من قتلته بروتس وكاسيوس ومن اشترك معهما . ومن الغريب أن كليوباترا قد لزمت الحياد خلال هذا الشجار الذى نشب فى روما فلم تمد يد المساعدة لأحد الفريقين . ولكن أنطونيو عندما تغلب على أعدائه وأصبح المسيطر على كل الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية ، لم يغفر لكليوباترا حيادها . ولذلك دعاها للحضور بين يديه فى طرسوس لتسوغ موقف الحياد الذى التزمته أثناء حروبه انتقاماً لزوجها قيصر .

على أنه كان فى مقدور كليوباترا أن تعصى أمره ، وبذلك كان عليها أن تتحمل ما سيحيق ببلادها من خراب ، وما ينالها هى نفسها من مذلة وهوان ، فآثرت أن تذهب إليه بجيش أعظم خطراً وأشد بأساً من جحافله يجعله يضع سلاحه أمامها صاغراً مستضعفاً مهزوماً ، فسارت إليه وفى وجهها ولسانها وعقلها تلك الأسلحة الفتاكة التى وهبتها لها الطبيعة . وكأن الشاعر العربى قد عناهما بقوله :

ويغزانا بقامة ويعـــين فذى سيافة وذى طعانه

استطت كليوباترا متن سفينة زينتها بأفخم أثاث ، وحلتها بأبهى الرياش ، وجلست فى وسطها على عرش فى صورة أفروديت ربة الجمال تحيط بها الجوارى الكنس فى صور ملائكة البحر ، فسارت بها السفينة حتى وصلت إلى طرسوس. وقد كانت أول أحبولة نصبتها لأنطونيو وأول سهم رمت به فى صميمه أن دعته إلى وليمة على ظهر سفينتها ، فكان انتصارها فى هذا الحفل مبيناً حاسما ، وأصبحت منذ تلك اللحظة معبودة أنطونيو وهدف حياته ومعقد آماله . ولم يلبث بعد هذه المقابلة إلا قليلا حتى أصبح لها زوجاً شرعيا . وبذلك نجحت كليوباترا فى درء الخطر عن الكنانة . وعلى هذه الصورة ابتدأت قصة أنطونيو وكليوباترا تلك

القصة العالمية التى غطت على قصتها مع قيصر ، وقد ختمت بموتهما فى أحضان الحب الزوجى الطاهر عام ٣٠ ق.م ، بعد هزيمتهما فى موقعة اكتيوم . ولم نجد فيما وصل إلينا من الوثائق التاريخية التى عثرنا عليها حتى الآن أن اسم كليوباترا قد قرن باسم أى رجل آخر غير اسمى قيصر وأنطونيو ، وقد تزوجت بهما على التوالى كما وضحنا .

والواقع أنها قد عاشت مع كل منهما عيشة زوج عفيفة طاهرة الذيل مخلصة حتى مماتها .

والآن نسائل : كيف حدث أن سميت باسم المومس الملكية والخليعة الشرقية التى عاشت عيشة الفسق والفجور؟

مكانة كيلوباترا فى التاريخ

اعتاد الكتاب القدامى والمحدثون على السواء أن يصوروا لنا كليوباترا بصورة امرأة شرقية فاتنة نزاعة للشهوات ، ذات سمرة جميلة تفوق النمر فى قسوتها ، وتختال فى حلل ملكية مصرية ذات بهاء ونضرة . وكذلك مثلوها فى صورة امرأة تحكمت فيها شهوتها البهيمية ، لا تؤثر أحداً على نفسها ، تتخطف الرجال وتودى بحياتهم بعد أن تقضى منهم وطرها . وقصوا علينا أنها لوثت شرف رجلين شريفين من أعلام رجال روما وقادتهما للهلاك ، وهما قيصر وأنطونيو .

والواقع أننا عندما ننخل البراهين التاريخية التى ادعاها أولئك الكتاب فان هذه الصورة المزعجة التى مثلت لنا فيها كليوباترا لا تلبث أن تتضاءل وتتلاشى وتذهب جفاء ، ولا يمكث لنا منها إلا صورة أخرى تختلف اختلافاً بيناً عن التى رسمها أولئك الكتاب ذوو الأهواء .

فأول افتراء على كليوباترا أنها كانت امرأة مصرية لحما ودماً . والواقع أنه لم تجر فى عروقها نقطة واحدة من الدم المصرى ، بل هى من نسل أسرة شريفة من مقدونيا ؛ فهى إذاً مقدونية المنبت ، إغريقية الأصل .

وليس لدينا وصف مفصل عن منظرها ، ولكن إذا قسناها بأترابها من بنات جنسها فلا بد أنها كانت ذات بشرة بيضاء ، ويحتمل أنها كانت زرقاء

العينين ، ذهبية الشعر . ويستنبط من ملامح الرأس الموجود بالمتحف البريطانى — إذا كان حقيقة هو رأسها كما يقال — أنها كانت ذات شخصية تمتاز بالرقة والتهذيب ، لا تنم عن جمال فاتن ولكنها وديعة خلابة.. ويقص علينا بلوتارخ الذى استقى معلوماته عنها من طبيبها الخاص أولمبياس أن جمالها فى ذاته لم يكن خارقاً للمألوف إلى حد أن يجتذب نظر من يشاهدها . وفى اعتقاده أن أوكتافيا زوج أنطونيو التى أصبحت فيا بعد منافسة لكليوباترا كانت أجمل المرأتين . والواقع أن هذا كان رأى كل من شاهدها ؛ فقد قال عنها ديوكاسيوس ؛ « لقد كان من أسباب المتعة والنعيم أن تراها أو تستمع إلى حديثها ، فقد كان لها سحر تغزو به القلوب التى غالبت نفوذ كل حب بقوة وبأس شديد حتى تلك القلوب التى أطفأت فيها الشيخوخة نار الحب وحولتها ثلجاً . »

قلنا إنها قد حملت إلى قيصر ملفوفة فى بساط على كتف مخلص من خلصائها . ولا شك أن ذلك يشعر بأنها كانت امرأة صغيرة الجسم رشيقته ، وهذا ما ينم عنه رأسها الذى سبق أن أشرنا إليه إن كان ينسب إليها حقيقة .

ويقال إن موسيقى صوتها الخلاب كان أمضى أسلحتها فتكاً وإغراء . ويروى لنا بلوتارخ : « أن من نادمها كان يفتنه سحرها الذى لا يقاوم ، وأن صورتها وحديثها يأخذان بمجامع القلوب ، وأن شخصيتها الفذة كانت تنبعث فى كل تصرفاتها ، وكل تلك الميزات كانت تحدث فى نفس جليسها حرارة لاذعة لا تنبعث من سواها . » ويقول عنها ديوكاسيوس : « إن سحر حديثها كان يستعبد كل من استمع إليها . »

أما عن مزاجها فالظاهر أنها كانت ميالة إلى المرح سريعة الاندفاع ، مغرمة بالمجتمع البهج ، هذا إلى ميلها إلى الفكاهة والمداعبة البريئة . غير أنها عند ما يدعو داعى الجد تظهر مظهر الملك يكسوها جلاله وتحفها عظمته . وقد ذكر عنها كل من المؤرخين بلينى وكسيوس أنها كانت مستخفة بالناس متكبرة ، ولكن هذا رأى عدوين ؛ إذ قد تفسر هذه الكبرياء من جانب كليوباترا بأنها عند ما كانت فى روما كان لزاماً عليها أن تحفظ كرامتها فى بلد تحس من أهله العداء لها ، فتظهر من الكبرياء ما يحفظ قيمتها وشخصيتها .

والأمر الذى يسترعى النظر فى حياة كليوباترا أنها قبل أن تتصل بقيصر الذى كان سبباً فى عداوة الرومان لها لم تسمع عنها كلمة سوء تمس شرفها رغم

ما كان لها من أعداء ألداء فى ميدانى المجتمع والسياسة . وقد كانت تعيش فى الاسكندرية ذلك البلد الذى كان غوغاؤه مغرمين بهجاء الشخصيات البارزة فيه عندما كان يظهر فى خلقهم أى مغمز للنقد والتجريح .

وأخيراً كانت كليوباترا تعد بالنسبة إلى عصرها امرأة نالت من الثقافة حظا وافراً . والواقع أن معظم أسلافها من البطالمة كان من هواة الفنون والمشجعين لها ، وقد سارت كليوباترا على نهج أسلافها . هذا فضلا عن أنها قد وصلت بذكائها إلى حذق عدة لغات ؛ لذا لم تكن فى غالب الأحيان فى حاجة إلى مترجم عند مخاطبتها الأجانب . يضاف إلى ذلك أنها كانت الوحيدة بين أفراد أسرتها التى تعلمت اللغة المصرية القديمة ، كما كانت مولعة بالسياسة وفنون الحكم . ولا غرابة فى ذلك ؛ فقد كان حلم حياتها ومعقد آمالها أن يمتد سلطان بلدها الضيق وتصبح إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف .

والشائع عن كليوباترا أنها قد دبرت إيقاع يليوس قيصر العظيم فى أحابيلها ، وهو الذى يقول عنه أعداؤها إنه بطل شريف ، وإنه لم يكن له حول ولا طول أمام سحرها الخبيث . بيد أننا إذا نظرنا فى الأمر بالعين المجردة من العاطفة والتحيز وجدنا أن قيصراً هذا كان له فى صباه سمعة تخدش الآذان إلى حد بعيد ؛ فقد كان وهو أمرد يلقب فى عاصمة ملكه بلقب ملكة روما . ولما اكتهل انقلب إلى زير نساء ، وناهض الملك الضليل فى اصطياد النساء وإغرائهن ، حتى لقد كان جنوده أنفسهم يتغنون علانية بأغان خلقية شائنة عن فتوح قائدهم فى مضمار الحب . ولا نزاع فى أن شهرته كانت معروفة تمام المعرفة لكليوباترا الفتية التى كان يحتمل جدا أنها كانت طوال شبابها بريئة طاهرة الذيل ، ولكن ذلك لا يمنع أنها كانت لا تجهل الحياة وما تنطوى عليها من مغامرات قد تفلح وقد تخيب . ولهذا اعتمدت كليوباترا على صدق كل ما قيل عن قيصر ، وجازفت لاجتذاب هذا الدكتاتور العظيم إلى جانبها ليكون لها معيناً ونصيراً للوصول إلى مآربها ، فاستعملت الحيلة الجريئة التى ذكرناها لتصل إلى حجرته الخاصة . ولقد أفلحت كل تدابيرها ؛ إذ نرى قيصر بعد مقابلتها قد انضم إلى جانبها ، ومن ثم أصبحت كليوباترا فى أعين الرومان حظية قيصر وحسب ، ولكن فى مصر التى كانت تجرى فيها كل الحوادث كان الأمر على العكس من ذلك ؛ لأنه منذ

العهد الفرعونى كان من الجائز أن يتزوج رجل عظيم لا يجرى فى عروقه الدم الملكى بوريثة الملك المصرية ، وبذلك يصبح ملكاً شرعيا على البلاد يرثه أولاده من بعده . وهذا نفس ما حدث مع قيصر وكليوباترا ؛ فقد تزوجا ، وأصبح ابنهما قيصرون الوريث لعرش رع الذى كان يعتبر أول ملك حكم مصر فى العهود السحيقة . ولذلك كان يعد زواج كليوباترا من قيصر فى عين الشعب المصرى وفى عينها زواجاً شرعيا ، وأن ابنهما قيصرون هو وارث عرش مصر بعدهما . ولكن الأمر فى روما حيث تبعت كليوباترا قيصراً كان على نقيض ذلك ، إذ كانت تعتبر حظية قيصر وأن ابنها ابن سفاح . وقد كان الشعب الرومانى بما جبل عليه من كبرياء وغطرسة يحتقر كليوباترا لأنها شرقية مع أنها ليست شرقية المنبت كما أسلفنا .

ولما كان هذا الشعب يخشى أن يتخذها قيصر زوجته الشرعية لم يأل جهداً فى نشر كل رذيلة وفرية عنها بما يلطخ سمعتها ، كما كانوا يقذفونها بكل ما يجرح شرفها ويدنس عرضها .

على أن الرومان أنفسهم فى ذلك العهد كانوا أكثر الناس خلاعة وفسقاً ومجوناً وعصياناً ؛ فكان نساؤهم ورجالهم يتورطون فى مناكب الفجور وينغمسون فى ضلال الفسق ، تلك الأمور كانت تعتبر شعارهم السائد . ولهذا كان قواد الرومان من علية القوم فى الواقع آخر من يشير بأصبع الاحتقار إلى كليوباترا. ومع كل هذه الضجة وهذا الصياح ضد هذه الملكة لم يكن هناك مثقال ذرة من الحق يبرهن أن كليوباترا خلال حياتها مع قيصر قد انحرفت عن الصراط السوى فى معاملتها له ، بل كانت مثال المرأة المخلصة لزوجها ، الرءوم على طفلها . والمرجح أن قيصراً لو امتد به الأجل لتزوج من كليوباترا وفقاً للشريعة الرومانية ، وذلك ليوطد بهذه الرابطة التى كان ينتظر من ورائها فى المستقبل فرصة الاستفادة من زوجة مطيعة طموح ، ومن مصر السلسة القياد ليثب إلى تكوين إمبراطورية شرقية تكون الهند آخر حدودها . ولا نزاع أن كليوباترا التى كانت تتقد فى نفسها نار أطماع زوجها رأت من جانبها ما تخيلته من الامبراطورية الموحدة الشاسعة الأرجاء تحت سلطان مصر وروما معاً ، وأن تلك الامبراطورية ستصير إرثاً عظيما لولدها المحبوب .

والواقع أنه حتى على أثر مأساة قيصر وفرار كليوباترا إلى مصر على عجل

لم تجد ألسنة الهجاء كلمة نابية تعيب سلوكها أو تدنس اسمها خلال الفترة التي انقضت بين هربها ومقابلتها لأنطونيو. على أنه لابد من الاعتراف هنا أن كليوباترا قد دبرت نصب أحابيلها لصيد أنطونيو؛ ومع كل ذلك فان مقاصدها لم تكن مقاصد امرأة تقودها شهوتها؛ إذ كانت ترقب عن كثب سير الحروب الداخلية التي نشبت بين أنطونيو وأكتافيان، وبين بروتس وكاسيس. ولكنها على غير المنتظر لازمت خطة الحياد أثناء هذا الشجار الذى لم يكن لمصر فيه علاقة مباشرة، وكانت كليوباترا تعلم ما عليه روما من قوة وبطش، وتحس بالعواقب الوخيمة التي ربما أصابت بلادها إذا هي انحازت إلى جانب الفريق الذى تدور الدائرة عليه. هذا مع علمها أن الحرب قامت من أجل زوجها المقتول.

ولما وضعت الحرب أوزارها طلب إليها أنطونيو أن تبرر أمامه موقفها الذى اتخذته حياله في هذه الحروب. ولما كانت هي تعلم وقتئذ أن مصر ضعيفة الشوكة لا تجرؤ على مقابلة العدوان بمثله لجأت إلى استعمال الحيلة لتخلص مصر من هذا المأزق الحرج، وبخاصة بعد أن عرفت الكثير من مزاج أنطونيو وطباعه، وما اشتهر به من معاقرته الخمر، وغرامه بالنساء، وحبه الغناء. هذا فضلا عن أنها كانت في الوقت نفسه قد حاكت في خيالها من جديد مشروع إمبراطورية شرقية تتحكم في العالم أجمع. ولا بد أن نلحظ من جهة أخرى أن روما كانت تنتظر الفرصة المواتية لوجود سبب أو وسيلة لاعلان الحرب على مصر للاستيلاء عليها وضمها لممتلكاتها، وبخاصة أن مصر كانت تعد في تلك الآونة مخزن غلال العالم، كما كانت كليوباترا لكل تلك العوامل تعد نجاحها في الاستيلاء على قلب أنطونيو خلاصاً لبلادها مما يضمره لها الغيب.

وكان أنطونيو رجلا يختلف اختلافاً بيناً عن قيصر في مشاربه وأخلاقه؛ إذ كان ألين منه مغمزاً، ولكن ربما كان أكثر منه عاطفة في حبه. والظاهر أنه كان رغم اكتهاله طفلا في خلاقه. حقا أنه كان شجاعاً جسوراً موالياً لأصدقائه، سهل القياد إلى حد أنه كان معبوداً من شعبه وجنده على السواء، ولكن كان ينقصه مضاء عزيمة قيصر.

وحين وقفت كليوباترا على حقيقة أخلاقه دبرت أول مقابلة له في طرسوس الواقعة على آسيا الصغرى، فكانت موقعة فاصلة في تاريخ حياتها. وتمت

المقابلة على ما رسمت ووقع أنطونيو فى أسر غرامها . وتدل شواهد الأحوال أن كليوباترا من جانبها قد ولهت بحب هذا الرجل الرومانى المشرق الطلعة؛ فكانت نتيجة تلك المقابلة انتصاراً عظيما لمآربها وهزيمة ساحقة لقلبها .

تبع أنطونيو كليوباترا فى عودتها إلى مصر، وحدثت أحداث ، لم تزوج منها على الشريعة المصرية ؛ غير أن هذا الزواج لم تعترف به روما إذ كان له زوج شرعية بها ، وهى أخت أكتافيان وقد بقى أنطونيو مع كليوباترا فى مصر . ولا نزاع فى أن حياة الزوجين فى الاسكندرية كانت حياة ملؤها البهجة والسرور ، وشعارها المآدب الفخمة والنزه المرخصة . ومع هذه الحياة الطافحة بأنواع المسرات لم تسمع كلمة سوء فاه بها أحد تخدش سمعتها أو تثلم شرفها ، ولم يقرن اسمها بشخص آخر . وفى الحق أنها كانت المثل الأعلى للزوجية كما كانت أماً رءوماً لأطفالها الأربع الذين أنجبتهم من أنطونيو . وفى الوقت الذى أعلن فيه رسميا قيصرون بن قيصر وريثاً لعرش مصر كان أطفالها الأربعة الآخرون قد نصب كل منهم ملكاً على إقليم من أملاك روما المترامية الأطراف . أما كليوباترا نفسها فقد لقبت ملكة الملوك .

وعلى الرغم من ذكاء أنطونيو وحب الشعب له فانه لم يكن بالرجل الذى فى مقدوره أن يؤسس إمبراطورية تشمل العالم كله ؛ إذ كان على ما يظهر كلما تقدمت به السن فقد من إقدامه وجرأته . وقد انتهى به الأمر إلى أن أصبح رجلا مخموراً لا يفيق من سكره . وفى نهاية الأمر اتسع خرق العداوة بينه وبين روما ، وبخاصة عندما طلق أخت أكتافيان مما أدى إلى حروب داخلية ، ومن ثم أخذ نجم أنطونيو يأفل . ولا بد أن تكون كليوباترا قد أحست وقتئذ بالخطر الداهم ، وشعرت أن الدائرة لا محالة ستدور عليها فى نهاية الأمر ، لا سيما أن أنطونيو قد أصبح مثله كمثل يراعة هشة لا يمكن الاعتماد عليه ، ولو كانت كليوباترا حقيقة من طراز المرأة المراوغة الخداعة ، كما وصفها أعداؤها ، لنبذت أنطونيو وتركته فريسة أعدائه عندما أحست بأول إشارة تنذر بسوء المنقلب ، ولنصبت حبائلها لتوقع فيها أوكتافيان الذى أخذ نجمه يتلألأ ويلمع . والواقع أننا نجدها وقتئذ تابعة مخلصة وفية لأنطونيو إلى أن لفظ النفس الأخير ثم إنها بعد ذلك أظهرت عليه الحزن والجزع بقلب كسير ملؤه الوفاء إلى أن لحقت به فى مثواها الأخير بعد موته بفترة وجيزة .

ويعتبر المؤرخون اغتيالها نفسها ، الذى كان على ما يرجح بنهشة ثعبان ، نهاية مشرفة نالت الاعجاب التام حتى من أوكتافيان نفسه ألد أعدائها ، حتى لقد نفذ إجلالا لها آخر وصيـة أوصت بها ، فشيعها بكل مراسيم الملك إلى جوار زوجها الوفى أنطونيو .

ومما سبق نرى أنه حينما ندرس حقائق التاريخ عن حياة هذه الملكة درساً محايداً فانها تظهر أمامنا فى صورة الزوج الطاهرة الذيل لـكل من زوجيها على التوالى ، وأنها كانت أمـًا حنوناً لأبنائها الخمسة . على أن القليل الذى كتب مدحاً فيها قد سطرته أقلام كتاب محايدين ، أما ما كيل عليها من ذم وتجريح فقد خطه يراع أعدائها السياسيين المنافسين لها ، ولا سيما أهل روما الذين كانوا يمقتونها كل المقت لما كان لها من نفوذ على أعاظم حكامهم ، وهم الذين كانوا لا يطيقون أن يخضع كبرياؤهم وتعصبهم حتى لتصور أنهم يحكمون بملـكة شرقية .

ولم يبق أمامنا من التهم التى وصمت بها «كليوباترا» إلا تهمة القسوة والغلظة .

حقا أنها كانت ذات إقدام ، ولـكن أين البراهين التى يدلى بها على أنها كانت قاسية القلب غليظة الطبع ؟

وأول تهمة شنعـاء لصقت بها هى قتل أختها أرسنوى بتحريضها ؛ ولـكن أرسنوى هذه كانت أول من أعلن العصيان وشق عصا الطاعة على كليوباترا وقيصر . ولما أخمد هذا العصيان وقبض على أرسنوى ، استعرضت فى شوارع روما مكبلة بالسلاسل والأغلال فى ركاب قيصر عندما دخل عاصمة الملك مظفراً . ولقد كان المتبع عند الرومان أن أمثال أرسنوى من الأسرى الملـكيين ينفذ حكم القتل فيهم بعد احتفال عرض الفاتح المظفر ، غير أنه قد عفى عن هذه الأميرة وصرح لها أن تعود وتلازم إحدى المعابد المصرية . ولـكن لم تنقطع عن تدبير الثورات والمكايد ضد الملك ، فقتلت بأمر من أنطونيو وبتحريض من كليوباترا .

وكذلك اتهمت بأنها دست السم لأخيها الاصغر وشريكها الأسمى الذى كان يحمل لقب بطليموس الرابع عشر ، وهو الذى رافقها فى زيارتها المنكودة إلى روما ، ويقال إنها دست السم له بعد عودتها من روما بقليل ؛ غير أنه ليس

لدينا شعاع من الحقيقة يثبت ذلك ، بل المظنون أن هنا الصبي قد وافاه أجله دون اغتيال .

حقا أن كليوباترا قد أمرت بقتل بعض من أودعوا السجن لأنهم تآمروا على اغتيالها وأثاروا الفتن والقلاقل فى ملكها . وإذا فرضنا أنها أمرت حقيقة بقتل أرسنوى التى كانت تسعى لاغتيالها وانتزاع ملكها ؛ فانها لم تكن أسوأ أخلاقاً من الملكة اليصابات الطيبة عاهلة انجلترا التى سجنت أختها مارى ثم قتلتها . ومع ذلك فانها لم تتهم مطلقا بحب سفك الدماء لذاته بسبب هذا الحادث .

وكذلك سجل عليها التاريخ ، كذباً كان أو صدقاً ، أنها عند ما كانت تبحث عن سم ناجع يقضى على حياتها دون آلام قد أجرت تجارب تلك السموم على مجرمين حكم عليهم بالقتل . والواقع أن هذه الطريقة لا تتفق مع المبادئ الخلقية الحديثة التى تفضل إجراء التجارب الطبية على الحيوان الضعيف الذى لم يجن إثماً ولم يقترف ذنباً ، ولكن العصر الذى عاشت فيه كليوباترا كان ينظر إلى هذه الأشياء بنظر مختلف ؛ إذ كان لا بد للمجرم المحكوم عليه بالقتل أن يموت بحال من الأحوال . لهذا كانت طريقة هذا القتل فى نظر عصرها ليست بذات بال ، ولكنها كانت على أعظم جانب من الأهمية لكليوباترا التى كانت تبحث عن طريقة تخلصها من الحياة التى أصبحت لا تحتمل بعد موت زوجها بطريقة لا تعانى بها آلاماً . هذا ولم يعز إليها ارتكاب جرائم قسوة غير ما ذكرنا إذا كان ذلك صحيحاً . على أنه من جهة أخرى كانت كليوباترا تعيش فى عصر يتشدق فيه الجم الغفير من المتعلمين بعدم وجود آلهة ، أما هى فكانت على جانب عظيم من التقى ، تعتقد اعتقاداً راسخاً بتوحيد الألوهية والملكية ؛ إذ يقال عنها إنها كانت فى مناسبات عدة ترتدى ملابس الالاهة إزيس لتمثلها على الأرض ؛ فكانت بذلك تمثل الحقوق الالهية الموروثة ، ولكنها لم تقتصد مطلقا أن تمثل القوة الالهية ؛ لأن الفراعنة القدامى كانوا يعتقدون دائماً أنهم يتقمصون صورة رع إله الشمس على الأرض ، ولذلك ظهرت كليوباترا عندما مثلت هذا الدور المصرى القديم فى نظر شعبها أنها تمثل على مسرح أو تلعب دوراً خارقاً للمعتاد .

ويمكن أن نقرر هنا أنه من المحتمل جدا أن كليوباترا لم تكن ترتدى

الملابس المصرية الحقيقية إلا فى مثل هذه المناسبات ؛ لأن اللباس الاغريقى كان الزى المتبع بين الطبقات العليا من المجتمع . وأخيراً يجب على المؤرخ عندما يفحص أخلاق أشخاص عاشوا فى الماضى أن يزنهم بميزان العصر الذى عاشوا فيه ، وأن يحكم عليهم بحسب المستوى الاجتماعى الذى عاشوا فيه لا بمستوى عصره . فاذا وضعنا كليوباترا فى كفة الميزان بالنسبة لأخلاق عصرها فانها تظهر أمامنا المثل الأعلى فى الطهر والعفاف ، فلم تعدُ أن كانت زوجاً مخلصة وأمًّا رءوماً ، وإذا قسناها بغيرها ممن سبقوها ، وهم أولئك الأشخاص الذين قست قلوبهم ، وتحجرت ضمائرهم ، وارتكبوا من الآثام ما يدمى القلوب دون أن يوجه إليهم لوم أو تجريح ، فانها تعد ملكاً طاهراً بريئة من كل قسوة . على أننا لو حكمنا عليها بميزان عصرنا ، وإن كان حكماً خاطئاً من الوجهة التاريخية ونجحنا من الوجهة الخلقية ، فانا سنجدها امرأة ألقى بها القدر وسط فتن عاصفة وأعاصير مهلكة ، ولم تعد أن شقت طريق الخلاص لنفسها بحزم وضبط نفس واحتشام ، وفى نهاية المطاف لاقت حتفها تحفها أبهة الملك وجلاله مما أرغمنا على الاعجاب بها كما أرغم ألد أعدائها أكتافيان الرومانى على إجلالها حتى نفذ آخر وصية أوصت بها .

هذه هى كليوباترا ملكة الملوك فى كفة الميزان كما حدثنا التاريخ المنصف لا كما تحدث عنها أعداؤها الذين خبثوا ووضعوا ،فكان حكمهم زيفاً وضلالا . « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . »

سليم حسن

فى الرحلة إلى النجف الأشرف

كنت خلال إقامتى ببغداد أتردد على دار معالى رضا الشبيبى ، فألتقى هناك أحياناً بسيد من سادات النجف هو السيد صالح شمسة وهو من أهل بيت من أقدم البيوتات وأعرقها فى النجف ، وبه ينزل سمو الوصى المعظم عند زيارته لذلك القطر الشريف . فكان يصف لى ما يمتاز به النجفيون من القدرة على ارتجال الشعر والكلف بالأدب والرواية ، وحرصهم على تخريج أولادهم بالاطلاع والقراءة ، وإغرائهم بالمطارحة وتحصيل العلوم العربية . ثم أخبرنى بمثل ذلك صديقى السيد حسين بستانة وأكد لى أنه لا بد من زيارة النجف وكربلاء والتفرج بمطالعة ما فى تلك المشاهد المقدسة من الآثار والنفائس والتيمن بقضاء الواجب من زيارة على والحسين عليهما السلام . وبعد ظهر يوم من أيام الخميس جاءنى ذلك الصديق وقال اليوم نفاجئ أهل النجف بالزيارة . ولا يسعنى أن أنسى ما ناطه ذلك الصديق الوفى بعنقى من الفضل ؛ فقد فرض حولى نطاقاً من عنايته لم يدعنى أفلت من مكرمة يسديها دائماً إلىّ بطيب نفس ووفاء لم أر مثله إلا له . وهو أحد طائفة من مثقفى البغداديين الذى تخرجوا فى دار العلوم العالية ، وما يزالون يحتفظون بهذه الذكريات الغالية لتلك الأيام التى أقاموها بمصر . ومما يستحق الذكر أنهم جميعاً ينهضون اليوم بأعباء جسام فى المصالح المختلفة بالحكومة العراقية .

خرجت مع ذلك الصديق فى طريقنا إلى النجف ، فمررنا بعد قليل ببعض روافد الفرات وهو يتدفق بالماء وعلى جانبيه زروع وبساتين ونخيل وبقاع أخرى جرداء بلاقع ، فذكرنى ذلك بما يرى فى مصر أيام فيضان النيل وما يذهب من مائه فى البحر ، وفى واديه صحارى قاحلة لا يعد ما يزرع بجانبها شيئاً يذكر . وذلك بالضرورة دليل على عجز العراق ومصر إلى الآن عن اتخاذ سياسة مائية يحتفظان معها على الأقل بنصيب مما يذهب من هذا

الغدق السائح هباء . ثم انتهينا بعد قليل إلى مدينة الحلة ، وهى من المدن القديمة فى حواضر العراق ، وإن كانت لا تزيد فى عمرانها عن بعض مراكز القطر المصرى ، فنزلنا بدار السيد خير المنداوى ، وهو من رجال الحلة وهو شاعر أديب من الشعراء الذين لايفشون أشعارهم ، فقضينا فى ضيافته ليلة خصنا منه ومن بنيه الغرانيق الثلاثة مالا قبل لنا بشكرهم عليه من التكرمة والحفاوة .
وفى صباح اليوم التالى تفرجنا بأطلال بابل ورأينا بقايا القصر الملكى القديم لبخت نصر ، ثم عدنا فتغدينا على مائدة السيد المنداوى مع جماعة من كرام الحليين . وبعد انقضاء فترة من الحديث والمؤانسة خرجنا إلى النجف فبلغناها بعد نحو ساعتين تقريباً ، ونزلنا بدار السيد غياث بحر العلوم ، وهو شاب مهذب من رجال المحاماة يتمتع بجانب وافر من الدماثة ورقة الحاشية . ثم دعينا لزيارة جماعة الرابطة الأدبية ، وهى تشبه عندنا هذه الجماعة الناشئة التى تسمى بجماعة أدباء العروبة . غير أن الرابطة النجفية تمتاز بالجد فى العمل على تنمية المواهب المطبوعة التى لا يبعد أن تكون أثراً من آثار الوراثة المنحدرة من أصلاب بعيدة العهد لأولئك الأوائل من الشعراء المتقدمين ؛ فهم ينظمون الشعر على مناهج القدماء ويتشبهون بهم فى إحياء الديباجة العربية والعبارات المختارة . وإذا كان شاعر العراق اليوم ، وهو السيد مهدى الجواهرى كما علمت ، نجفى الأصل ، فقد حق لأهل هذه المدينة أن يتطاولوا على الناس فانه على ما أعتقد يستحق أن يدعى أشعر شعراء العربية فى هذا الوقت غير مدافع . وقد استمعنا فى هذه الرابطة إلى عدة من الخطب والأشعار تدور كلها حول الاعجاب بمصر والمباهاة بما بلغته من التقدم والمدنية ، وتتضمن مع ذلك شيئاً كثيراً من الحفاوة بنا ووصفنا بما لا نبلغه من التقدير والتكرمة تفضلا منهم وحسن ضيافة . وسنذكر من هذه القصائد والخطب ها هنا قصيدة واحدة مراعاة للاختصار ، وهى للشاعر الكبير السيد الحبوبى . قال حفظه الله فى مطلعها :

فتى النيل والنيل زاكى الثمر ... أذقتنا الجنى أدباً مبتكر
وأنشد هنا شعرك العبقرى ... وخذ بمعانيه تلك الزمر
وروّقه خمراً كما يرتجى ، ... وأرسله نثراً كما ينتظر

وما شئت فاسحر به السامعين   فما كل من قال شعراً سحر
فتى النيل طف ساعة بالفرا   ت تجد في مطافك أسمى العبر
تأمل ملياً وسل ما ترى   لتلك المعالي هنا من أثر
متى ردت الفتح والفاتحين   أكف الليالي وأيدي الغير
وكيف استباحت عرين الأسود   ذئاب وقد حكم القدر

ثم يقول :

فتى النيل أحبب بها ليلة   يلذ وإياك فيها السمر
تحدث وعطر فضاء الندى   بأطيب مما تذيع الزهر
وخبر أنبلغ ما نشتهى   فقد ينعش السامعين الخبر
أتصدق في مصر أحلامنا   بضم العروبة في مؤتمر

وهي قصيدة طويلة مفرغة في مثل هذه السلاسة والرقة . وبعد انتهاء هذه الحفلة الأدبية عدنا إلى دار مضيفنا ، وهناك أقبل مشايخ النجف ولفيف من أدباء الرابطة وغيرهم ، فقضينا جانباً من الليل في سمر ومجاذبة طيبة . وفي الصباح زرنا دار منتدى النشر ، وهي جماعة أدبية أخرى تعنى مع نزعتها الأدبية بالبحوث العلمية المختلفة وتعمل لدراسة الكتب القديمة ، ويتخرج في أروقتها الطلاب بتحصيل معظم العلوم الاسلامية . وهذه الجماعات الأدبية على تعدد أسمائها تتعاون جميعاً على حماية اللغة الفصيحة والأدب المهذب من أن تنال منهما عجمة المتشاعرين والمتعاطين للأدب من غير أهله ممن لا يخلو منهم قطر من الأقطار العربية . ويتفاءل المخلصون لهذه الجماعات الأدبية أن تكون نواة صالحة لبناء جامعة كبرى في النجف الأشرف تقوم بتنظيم الدراسات الأدبية وتزويد مدارس الفلسفة الاسلامية ومذاهب الفقهاء بالمباحث الصحيحة من خلاصة العرفان المأثور للأئمة المجتهدين من أهل هذه المدينة وغيرهم من علماء العراق .

ولأدباء النجف طابع تغلب فيه النزعة الديلية ، ولهم صحف ومجلات يعد في طليعتها مجلتا « الاعتدال » و «البيان » لصاحبيهما الأستاذ البلاغي و الخاقاني وكلاهما من الكتاب البارزين، وهما يخدمان النهضة الأدبية والعلمية ويضحيان في سبيلها بالقلم والمال .

ولقد كان يرافقنا فى كل انتقالاتنا السيد هاشم رزين حاكم النجف ، وهو رجل كريم الخلق جهير ضاحك الثغر صحبنا فى الصباح الثانى إلى روضة الامام أبى الحسن على بن أبى طالب . وبعد أن طفنا بهذه الحضرة العلوية وقضينا نسكنا منها غدنا إلى خزائن النفائس والمجوهرات الخاصة بهذه السدة الشريفة؛ فرأينا ما يبهر الأبصار ويحير العقول من الستائر المنسوجة باللؤلؤ والجوهر وغيرها من نفائس الأحجار ، وهن أربع ستائر لا أظن أن أحداً ولا هيئة من الناس تستطيع تقويمها بالمال الآن ، ثم رأينا غيرها من الستائر المنسوجة بالماس على شكل الكمثراة والقنديل الضخم المصنوع من صفائح الذهب المحلاة بألوان من الأحجار الكريمة . وبعد أن قضينا من ذلك وطراً عدنا فطفنا حول هذه الأضرحة المتزينة بالقباب الموشاة بالذهب . ثم قضينا سائر اليوم فى تزاور ومطالعة ، وخرجنا مودعين من أهل النجف إلى كربلاء ، بعد أن تغدينا ومعنا جماعة الرابطة والأساتذة المصريون وغيرهم فى دار السيد صالح شمسة ولقينا من حفاوته ما أعجزنا عن الكلام . فبتنا ليلتنا بدار السيد حسين سادن مقام العباس بن على رضى الله عنهما ، ثم تناولنا طعام الغداء على مائدة سعادة المتصرف السيد طاهر القيس الذى حشد للقائنا وأفاض فى الحفاوة بنا بما لا يحيط به الوصف ، واستمعنا عنده إلى أناشيد الشاعر اليعقوبى وهو يترنم بشعره وأشعار غيره بألغام وإيقاع مطرب شجى كما كان يفعل حافظ ابراهيم رحمه الله . ثم عرجنا فى طريقنا على مدينة الكوفة ، فتشرفنا بزيارة جماعة من أئمة الشيعة ومجتهديهم ، نذكر منهم السيد الزنجانى والإمام كاشف الغطاء والجزائرى وغيرهم . ثم عدنا بعد ذلك إلى بغداد . وقد تركت هذه الرحلة فى نفسى من الأثر ما حفزنى إلى أن أنوه بها على صفحات « الكاتب المصرى » الذى رأيت له بالعراق عشاقاً كثيرين من كرام القراء . ويجمل بى أن أختم هذه الكلمة بذكر قصيدتى التى ألقيتها فى دار الرابطة الأدبية بالنجف إتماماً للفائدة . وهذه هى القصيدة :

أمن بغداد أزمعت الركابا وخليت المنازل والصحابا
وأنت بغيدها كلف تمنى لو انك قد لبست بها الشبابا
وأنك كنت لا تقنى حياء ولا تخشى على فند عتابا
لأبكار زهاها الحسن حتى خلعن له من الدل النقابا

يرحن سوائساً ويفحن عطراً   وما ضمخن من عطر ثيابا
يساقطن الحديث كأن سلكاً   نثرن به لآلئه الرطابا
وإنك إذ ترجيها لوعد   لكاظمآن إذ يرجو السرابا
وإن لبست عباءتها وأرخت   مآزرها وآثرت الحجابا
تريك إذا انثنت للحنين كفاً   تزين من أناملها الخضابا
وجيداً حاليا ورضاب ثغر   تذم لطعمه الشهد المذابا
وصدراً فيه رمان صغار   يطلن بمهجة الصب العذابا
تسائلنى وأنت بها عليم   كأنك لست معموداً مصابا
أجِدّك هل بعثت لها رسولا   فصدّق عن دخيلتها الجوابا
وهل أخفيت شجوك عن مليم   تهانف حينما شهدت وغابا
وهل أرسلت من زفرات قلب   تعلقها على مقة ... وثابا
وأقصر عنه باطله ... وماذا   يرجى المرء إن فوداه شابا
وليس له على الستين عذر   إذا قالوا : تغازل أو تصابى
فعدّ عن الصبا والغيد واطلب   إلى الأشياخ فى النجف الرغابا
ففى النجف الأغر أروم صدق   تربعت الأباطح ... والهضابا
عشقت لهم ولم أرهم خلالا   حلا صفو الزمان بها وطابا
متى ما تأت منتجعاً حماهم   تر الأخصاب والكرم اللبابا
لقيت لديهم أهلى وساغت   إلى قلبى مودتهم شرابا
وهل أنا إن أكن أنمى لمصر   لغير نجارهم أرضى انتسابا
عجبت لمادح لهم بشعر   ولا يخشى لقائلهم معابا
وإن ينظم وليدهم قريضا   أراك السحر والعجب العجابا
غرائب منهم يطلعن نجدا   ويزحمن الكواكب والسحابا
أولئك هم حماة الضاد تعزى   عروقهم لأكرمها نصابا
وأصلبها على الضراء عودا   وأثقبها إذا قدحت شهابا
وأوفاها إذا حلفت بعهد   وأطولها إذا انتسبت رقابا
وكيف وفيهم بشوى علىّ   بنوا من فوق مرقده قبابا
وقدماً كان للبطحاء شيخا   وكان لقبة الاسلام بابا
نجىّ رسالة ... وخدين وحى   إذا ضلت حلومهم أصابا

وإن شهد القبائل نار حرب مجلجة فوارسها غضابا
أخاض غمارها جرداً عتاقا وأشعل نارها أسلا وغابا
فما كأبي الحسين شهاب حرب إذا الأستار أبرزت الكعابا
وليس كشله إن شئت هدياً ولا إن شئت في الأخرى ثوابا
ولا كبنيه للدنيا حليًّا ومرحمة إذا الحدثان نابا
متى تحلل بساحتهم تجدها فسيحات جوانبها رحابا
وإن شيمت بوارقهم لغيث تحدَّر من سحائبه وصابا
هم خير الأئمة من قريش وأزكاهم وأطهرهم إهابا
حباهم ربهم حلماً وعلماً ونزَّل في مديحهم الكتابا
وحببهم إلى الثقلين طرا وزادهم لسدته اقترابا
فمن يك سائلا عنهم فإني أنبئه إذا احتكم الصوابا
فلن تلقى لهم أبداً ضريبا إذا الداعي لمكرمة أهابا
مصابيح على الأفواه تتلى مدائحهم مرتلة عذابا
وما دعي الاله بهم لأمر تعذر نيله ... إلا استجابا

محمد هاشم عطية

الفردوس المفقود

نعيمكِ لو تعلمين امّحى — كما يمحى الطلل الدارس
سَفته الرياح لدى عصفها — وداس معالمه الدائسُ
أطوف بأرجاء هذا الخراب — أقبّل أنقاضه الخالدهْ
وأسجدُ فوق مهيل التراب — لأندب جنتيَ البائدهْ

ترسّمت أمس بقايا خطاكِ — على ضفة النّهر ، هل تذكرين ؟
هناك التقينا وكان الربيعُ — وكنت كأزهاره تبسمين
هناك رأيتك عارية ... — وقد غار من طهرك الياسمين
فمجّدت فى عريك العبقرى — جمالَ السماء ، جمالَ الفنون
هناك عرفتُك حالمةً — ويا لجمالك إذ تحلمين ! ...
تذوب السموات فى مقلتيك — سناً غافياً بين ظل الجفون
وتعشَى الفراشات حول البهاء — يرفّ على طهر ذاك الجبين
هناك رأيتُك راقصةً ... — ويا روعة الفنّ إذ ترقصين
تميسُ الغصون ويمشى الحَمَام — يقلّد خطوكِ إذ تخطرين
يجُنّ جنون طيور المروجِ — فتعزف نشوى ، بديعَ اللحون

ترسمت أمس بقايا خطاكِ — ولكن عفتْ تحت خطو السّنين
فماذا رأيت ؟ بقايا هشيمٍ — بقايا جذوع ، وصلصال طين
وماذا سمعتُ ؟ ... صفير الريا — حِ تعوى وراء الرّبى والحزون
وفتشت عن حالمات الضفاف — رواها من النهر ماء معين
فلا النهر ينساب حلماً وديعاً — ويحكى فتونك إذ تنظرين
يقبّل فى خلسةٍ قدميكِ — وفتنة عريك إذ تسبحين
ولا العشب خضراء تكسو الضفاف — ولا الظلّ ينشرُه الزيزفون ...
ولا النور يرقص فوق اللجين — لجيْن الحياض ، لجين العيون ...

وناديتُ باسـمك ذات الشمال وناديتُ باسـمك ذات اليمين
فرجّع صوتى هـذا العراء . . . وعاد إلىَّ صـداه الحزين
فأيقنتُ أنك لا تسـمعين وأيقنت أنك لا تـذكرين
وأيقنت أنـكِ يا جنّتى مضـيت إلى حيث لا ترجعين
وأغمضت عينى فى غفـوةٍ كما كنتِ يا جنّتى تفـعلين
فأبصرتُ طيفـكِ فى عالمٍ بعيد . . . بعيد . . . تحدَّى الظنون
وراء الشعور ، وراء الخيال ، وراء الحيـاة ، وراء المنون
وسـاءلتُه عنـك هل تذكرين ربيـع السَّـعادة جمَّ الفتون
إذِ الخـلد قيثارة فى يديك وأنت بأوتارهـا تلعبـين
إذِ الكون مملكة للجمالِ . . . وأنت على عرشـها تحكمين
وعـرس الطبيعـة ما ينقضى وعيـد الوجود إلى غير حين

ولكنَّ طيفـكَ فى صمتِـهِ . . . تلاشى وطـار إلى عليّـين
فأيقنتُ أنـك لا تسـمعين وأيقنت أنك لا تـذكرين
وأجهَشتُ مختنقاً بالنحيب وبالصَّمتِ من بعد طول الأنين

نعيمـك لو تعلمـين ، امَّحى كما يمَّحي الطَّللُ الدَّارسُ
سفته الرياح لدى عصفِها وداس مَعَالمَهُ الدائسُ
أطوف بأرجاء هـذا الخراب أقبِّـل أنقاضه الخالدَهْ . . .
وأسجد فوق مهيل التراب لأندب جنتيَ البائده . . .

هناك فى الغاب فى مسْـ ـرَحِ الهوى والتصابى
هنـاك حيث قضينا — معاً — ربيع الشباب
وقفتُ حيرانَ أشكو إلى الجنادل ما بى
سألتُ عنـك صخور الـ ـوَادى وشم الهضاب
سألت عنـك بقايا الـ ـجذوع والأعشـاب
فكان عصفُ الرياح الـ ـهوجاءِ كلَّ جوابى
عَفَتْ رُسُـوم هوانا والذكرياتِ العذابِ

لم يبق من كوثر الحب غير لمثع السّراب
لم يبق من سامقِ الدّو حِ غير قفر يباب
لم يبق من وارف الظل غير ظل السحاب
لم يبق من باغمِ الطير غير طير الخراب
وقفتُ حيران أشكو إلى الجنادل ما بى
وقلت : يا نفس شتّا نَ بين غاب وغاب

ترسّمتُ أمسِ بقايا خطاكِ إلى الغاب ، مَسرح حلمى الجميل
هنالك التقينا — ألا تذكرين ؟ وكان الربيعُ ، وكان الأصيل
وكنّا وحيدين بين الظلال نميل مع الحب حيث يميل
طليقين لولا رباط الهوى وسدّ العفاف تحدى السيول
هنالك على العشب ، بين الزنا بق ، تحت الخمائل خلفَ الحقول
غفَونا على نغمات الهزار وهبّ النّسيم ، النّسيم العليل
وساد الظلام ، وساد الهدوء ولفّك جُنح الدّجى والذهول
فقبّلت فى لهفة شفتيكِ لأرشف ترياقك السّلسبيل
فما أطفأت شفتاك الغليل بل اشتدّ من شفتيك الغليل
وها أنذا أتقفّى خطاكِ ولكن أضل سَواءَ السّبيل

ترسّمتُ أمس ، بقايا خطاكِ إلى الغاب مَسرح حبّى العجيب
هنالكَ التقينا ، ألا تذكرين ؟ وكان الربيعُ وكان المغيب
وكنا وحيدين بين الظلالِ وقد نام فى وكْره العندليب

حدانى القلب ، أوّاهُ ! إلى مَسرحِ أحلامى
إلى الغاب الذى قضّيتُ فيه ربيع أيامى

هناك عرفت معنى الحب مغنى وحيه السّامى
هنالك كنتِ يا فردو س ينبوعاً لالهامى

هناك ضفرتِ إكليلاً من النسرين والوردِ
وتوّجتِ جنون الشهـ وة الحمراء من وجدى

هناك شربتُ من أنفا سكِ الحرَّى ومن ثغركْ
رحيقَ الحب من شفتيكِ واللوعةَ من صدركْ

وقبَّلتُ على نهديكِ رمز الشهوة الحمرا
وينبوع الحياة الحق والمعجزة الكبرى

هناك سجدت مشدوهاً لروعة جسمك العارى
وغنَّيتُ فنون الحبِّ صداحاً بمزمارى

هنالك عربَدَ القلب هناك تألَّه الحبُّ
هناك تعانقَ المشهودُ فى جسمك ، والغيبُ
هناك نسيتُ ما الرضوانُ ما اللَّعنات تنصبُّ
وما الفردوس ، ما نعماه ، ما كوثره العذبُ

وقلت كفانى جنَّةً جسمك العارى
إذا كنتِ ناراً فلأكُنْ حطبَ النارِ
وإن لم تكونى آيةَ المبدع البارى
فما تحت هذى الشَّمس آىٌ لمحتار !

نعيمك ، لو تعلمين ، امَّحى كما يمَّحى الطَّلل الدَّارسُ
سفته الرياح لدى عصفها وداسَ معالمَهُ الدَّائسُ
أطوفُ بأرجاء هذا الخرابِ أقبِّل أنقاضه الخالدَهْ
وأسجد فوق مهيل الترابِ لأندب جنَّتىَ البائدهْ

[باريز] ادريس الجائى

LA CRISE ACTUELLE DE L'ART

HILDE ZALOSCER

الأزمة الراهنة للفن *

من الحقائق المؤكدة أن حضارتنا اليوم فى منعطف من التطور شبيه بذلك الذى كانت فيه عند انهيار الحضارة القديمة وقيام المسيحية . وإذا نظرنا من بعيد إلى ذلك المنعطف ، بدا لنا كأنه قطع فاصل بين الماضى والحاضر ، فاذا اقتربنا منه وأنعمنا النظر ألفيناه تدرجاً بطيئاً ولكنه على كل حال واضح بين .

وهذا المنعطف يعنى تجديداً من كل النواحى ، وقيام مقاييس وقيم جديدة لم تعهد من قبل . فكل نواحى الحياة ، مادية كانت أو روحية ، تتبدل وتتكيف أو تختفى فتمهد السبيل لحضارة جديدة وتعمل على خلق نوع جديد من البشر هو ما نسميه الرجل الحديث . وهذه الولادة مؤلمة ككل ولادة .

فنحن نحيا إذن فى أزمة . وكلنا سمعنا هذه الكلمة تكرر فى السنوات الأخيرة حتى امحى ما تعيه من عمق وألم ، ذلك لأن المقصود بالحياة فى أزمة هو أننا نعيش فى عصر يضحى فيه بالفرد فى سبيل الأجيال القادمة .

وقد خطمت تلك الأزمة حياتنا الاقتصادية والسياسية والعلمية والفنية ؛ فأمست القيم القديمة محل تغيير وإعادة فى كل مكان ، وأخذ الفهم الجديد يرتسم أمامنا فى كل مكان . غير أنه يخيل إلينا أن الأزمة فى نطاق الفن أحد وأبرز ، وربما أعاننا تحليلها على التنبؤ بشىء مما يخبئه الغد ذلك إذا كان التاريخ معلماً وهادياً كما قيل لنا مراراً وتكراراً .

وأزمة الفن مزدوجة ، فهى ملموسة من ناحية فى الفن نفسه ، وهى واضحة

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

من ناحية أخرى فى علاقته بالجمهور ، فنحن نعرف بتجاربنا الشخصية أو بالملاحظة موقف الجمهور من الفن الحديث ؛ ففى أول الأمر عدم فهم للفن ، ثم رفض بات له ، ثم احتجاج يشوبه السخط ، وأخيراً عداء ظاهر[1]. غير أنه يبدو لنا أن موقف الجمهور هذا لا يختلف عما فعلته الجماهير فيما مضى . فلم يحدث قط أن فهمت الجماهير عملا أدبياً ما فهماً تاماً عميقاً ، فالجماهير بعيدة عن تعمق الأعمال الفكرية ، ولكن النزاع يبدو فى أيامنا أحدّ والاحتجاج من جانب الجماهير أشدّ ؛ وذلك راجع إلى أسباب عميقة .

ولكن ، لِمَ اتسعت الهوّة فى أيامنا بين الفنان والجمهور ؟ وما هى تلك الأسباب العميقة التى لم تدع بين الجمهور والفنان أية وشيجة واضحة بحيث فرض الفنانون على أنفسهم أن ينشئوا أعمالهم لصفوة من الناس محدودة العدد حتى تفهم أعمالهم ؟

يبدو لنا أن ذلك راجع من بعض الوجوه إلى أن الفنان ، وهو تلك الآلة الحساسة الدقيقة ، يسبق أغلبية الجماهير . أو بالأصح أنه يبحث فى حماسة عن الغد الجديد على حين تحيا الجماهير سعيدة فى يومها ، وهو ليس فى الحق إلا أمس الدابر . ونستطيع أن نقول أكثر من ذلك : فالجماهير لا تبقى فى أمسها فحسب ، وإنما تتعلق به وتريد أن تحفظه سليما ، ولا ترضى به بديلا . فالروح المحافظ فى أى عصر هو ذلك الذى يخشى كل تجديد ، ذلك الذى يرضى بما هو كائن ، فهو يفضل الحقيقة المؤكدة العادية على أى مخاطر جديدة فكرية ، فالجمهور إذن هو جمهور الأمس ، فهو حينما يقترب اليوم من عمل خلقته اليوم عقلية مفكرة مجددة ، عقلية فى الطليعة ، ويحكم على ذلك العمل بذوق تكوّن فى جو عقلى آخر ، ويقيسه بمقاييس غير صالحة ، فكأنه يحاول قياس ارتفاع برج ما مستعملا فى ذلك عدداً من الكيلومترات .

ولكن كيف كان ذلك الأمس ، وما هى تلك المقاييس غير الصالحة التى يطبقها جمهور متأخر على الفن فى أيامنا ؟

(١) كان معرض بيكاسو ـ ماتيس Picasso-Matisse الذى أقيم عام ١٩٤٦ فى لندن كاشفا للحقيقة . وقد قامت الجرائد بمناسبته بنوع من الاستفتاءات فطلبت من الجمهور رأيه فكان الجمهور بالاجماع معاديا إذ اعتبر الأعمال المعروضة ، كأنها دعابات سمجة .

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال ، يجدر بنا أن ننظر إلى سؤال آخر أعظم عمقاً ، سؤال له علاقة بصميم الفن ذاته ؛ ذلك لأننا نحسب أن الأزمة الراهنة ، وذلك الموقف الذى يقفه الجمهور أو ذلك العداء الذى خلقه عدم الفهم — إنما يعود إلى أزمة كائنة فيما يقصد بالفن فى أيامنا، وهو فى الواقع يعود إلى طبيعة الفن ذاته وإلى جذوره الخفية . فقد نسينا بتقادم العهد أن أصل الفن وسبب وجوده لا يعودان إلى مسألة تتعلق بالجمال ، وإنما يرجعان إلى أصل أعمق من ذلك . فلقد تفرع الفن من الدين أو بالأصح كان الفن والدين فى أول الأمر وحدة لا تنفصم عراها ، فلم يكن السحر والرقص والفن التمثيلى والنحت والنقش إلا تعبيراً عن الشعور الدينى للانسان،وكانت تلك الفنون متحدة فى مظهر مقدس واحد . وأثناء تطور الفن أخذ ينفصل عن الدين حتى تحرر تماماً من وصايته وانفصلت فروعه المختلفة . بيد أنه رغم انفصالها بقى الفن والدين متصلين اتصالا وثيقاً ، وبقى الفن الأوربى حتى آخر القرن الثامن عشر فى خدمة الكنيسة . وإننا نعبر فى لغتنا الحديثة عن ذلك فنقول : إن الفن كان ملتزماً engagé . فالكنيسة هى التى تملك الزمام وتعين الموضوع بل تحدد أحياناً الانشاء والألوان [1] ولم يكن لفكرة حرية الفنان وجود حينذاك . ولكن لم يكن لتقدير الجمهور وجود كذلك ! فلم يكن يطلب من الجمهور رأيه ولا تقديره ، بل كان العمل الفنى الذى يعمل من أجل مكان مقدس ككنيسة أو معبد ، إنما يستخدم ليقدسه الجمهور لا ليثير سروره أو متعته ؛ فالعمل الفنى باعتباره عملا فنياً ليس إلا فكرة حديثة؛ وعلم الجمال ليس إلا نتيجة استقلال الفن . وفى اللحظات القصار التى انفصل فيها التصوير مثلا عن الدين ، كما حدث فى العصر الكلاسيكى للفن الاغريقى ، أو كما حدث فى هولندا البروتستانتية ، نرى أنه قد قام من المشاكل ما يشبه مشاكل اليوم ، ولكن تلك الأشياء ليست إلا أحوالا شاذة سرعان ما زالت ، فلم يفقد الفن عمده الطبيعية والأساسية إلا عندما انهارت الكنيسة بصفتها قوة روحية وسياسية ؛ فمنذ ذلك الحين أمسى وجود الفن

---

(١) وجد فى كتاب آثوس *Livre saint d'Athos* الذى عثر عليه منذ مدة وصفات دقيقة لصناع الفسيفساء يبين لهم كيف يؤلفون ويكونون ألوانهم .

—وبصفة خاصة الفنون التشكيلية Arts Plastiques — معضلة كبيرة ، وقد كان من المحتمل أن يختفى الفن أيضاً عندما اضمحل الدين بصفته قوة روحية أو سياسية ، إذ لم يعد هناك مسوغ لوجوده .

بيد أن الفن كالدين لم يختف ولكنه تطور وتكيف وفقاً للظروف الجديدة . فبعد أن كان الدين قوة رسمية صار مسألة شخصية ، ولكنه ما برح قوة يحسب حسابها . وهكذا صار أمر الفن . ومما يثير الاهتمام حقاً أن ندرس كيف تم ذلك التحول والتكيف فى الفن ، وأن نعرف دور الفن والفنان فى الجماعة خلال القرن التاسع عشر ؛ فان كل الأفكار قد نضت عنها ثوبها القديم فبدت جديدة .

كان الفنان قبل ذلك مرتبطاً بالجماعة التى يعيش فيها أشد ارتباط ، فاذا به يرى تلك الوشائج قد انقطعت مرة واحدة ؛ كان الفنان فما مضى عاملا يخضع لتقاليد خاصة وعضواً فى نقابة تعين له الطريق وتصعد به نحو الكمال ، فاذا به يمسى لجأة الممثل الفريد لصفوة من الناس هم الأرستقراطية الجديدة التى تمتاز وتتميز بانعزالها فى برجها العاجى ؛ ذلك لأن العصر هو الذى رأى الفنان يبدأ فى بناء برجه العاجى ، بناه أول الأمر ليرضى كبرياءه ، ثم بناه تعبيراً عن غضبه وسخطه . وقد آن الأوان لنهدم هذا البرج العاجى .

فالفنان فى القرن التاسع عشر هو رجل وحيد غير مفهوم . وهو يملك بين يديه كل التطور الفنى خلال العصور ، وكل المعارف والأسرار التى أورثها المعلمون تلاميذهم ؛ ولديه كل الوسائل الفنية ، ولكنه قد فقد وعيه الروحى ، فقد العقيدة المشتركة التى كان يتقاسمها هو وإخوانه ويعبر عنها تعبيراً واضحاً ملموساً .

ففى بدء القرن التاسع عشر ، كان العماد الروحى يعوز الفنون التشكيلية ، فهل معنى ذلك أن الفن قد انتهى ، وأننا نشهد احتضار الفن كما قال إيلى فور ؟ (١) بيد أن الفن قد وجد قوة جديدة قادرة على إحيائه .

والواقع أن القرن التاسع عشر — خلافاً لما كان يظن — قد رأى ازدهاراً فنياً عظيماً ، وبلغ التصوير فيه قمة لا يمكن الارتقاء إليها ، فأزال بذلك المخاوف التى تنبأ بها البعض .

---

(١) إيلى فور ، احتضار الفن ، وحب الفن *L'agonie de l'art, amour de l'art,* Juin 1931.

ومن الطريف والمفيد أن نرى تلك القوة الروحية الجديدة التي حلت محل العقيدة الدينية والتي بقيت حتى أيامنا تلهم الفن وتغذيه .

للثقافة فى القرن التاسع عشر طابع خاص ؛ ففى خلال هذا القرن بدا مظهر عقلى جديد وأخذ يبرز ويزداد وضوحاً ، ذلك هو ثقافة الطبقة الشعبية التى تقدمت وخلقت فلسفة لنفسها واتجاهاً خاصاً بها وفناً لها ؛ وهذه الفلسفة هى الفلسفة المادية التى تؤمن بالتطور وتصطبغ بالرومانطيقية ؛ ذلك أن الاختراعات الكبرى والمكتشفات العلمية قد ساعدت على وجود تلك المادية التى اتجهت اتجاهاً يلائم مطالب طبقة بورجوازية سليمة غنية راغبة أشد الرغبة فى الحياة وفى التمتع بما فيها ؛ وهذه الرغبة فى التمتع لا يشوبها أى تشكك ، وهى مختلفة أشد الاختلاف عن تلك الحاجة إلى التمتع التى نجدها فى آخر القرن **Fin du siècle** والتى يشوبها شعور عميق بالمصير المؤلم للانسان .

وكان على الفن أن يجلب المتعة لهذا الجمهور ، الذى لم يكن قد أصيب بعد بالتفكير المؤلم . وهكذا سينشئ الفنان لأول مرة أعمالا لجمهور تحدد ذوقه ؛ ذلك لأنه حتى لو كانت فكرة الجمهور غائبة عن ضمير الفنان حين ينشئ عمله ، فان هذا العمل نفسه قد أنشئ للجمهور ؛ أضف إلى ذلك أن الفنان قد بقى متصلا بعصره ومتأثراً به مهما بلغت عبقريته . وهكذا كان الفن فى القرن التاسع عشر المثل الحى لتلك الثقافة المادية العقلية . ولا يصح أن ننسى أننا نجد أساساً علمياً خالصاً فى المذهب الانطباعى **L'impressionnisme** . فالفنون التشكيلية فى القرن التاسع عشر بما تعيه من مذهب طبيعى وعلمى ، تمثل اللحظة الوحيدة (فى تاريخ الثقافة الأوربية) التى تجرد فيها الفن من كل مؤثر دينى أو روحى ، مكتفياً بأن ينقل بأمانة بعض جوانب الحياة . ولنستطيع أن نقول إنه إذا كان المذهب الانطباعى قد وصل إلى تلك القمة التى ارتقاها سيزان **Cézanne** فان ذلك لا يرجع إلى آرائه وإنما على العكس قد بلغ ذلك الاتقان رغم تلك الآراء بفضل عدد من أعاظم المصورين . ولكن ذلك لا ينفى أن المذهب الانطباعى فى أساسه مذهب غير روحى ، مثله كمثل مذهب الفوفزم **Fauvisme** الذى سيدع هو أيضاً القيم الروحية للعمل الفنى حين يعلن أن ما كان يدعوه الانطباعيون « جانبا من الحياة » يجب أن يكون فى الواقع « متعة للعيون ! » . وإذا كان الفن

الانطباعي ذا جانبين هما التفكير العلمي من ناحية ، وإرضاء الحواس من ناحية أخرى ، فان مذهب الفوفزم Fauvisme يحاول جهد ما يستطيع أن يرضي طبقة قد أصابها الانحلال فعلا . ومثل هذا المذهب لا يمكن أن يعيش فهو ينطفئ بذهاب منشئيه ؛ حتى بين ذلك الجيل نجد خوارج على هذا الفن من بينهم ثلاثة يسيرون باحثين عن عقيدة جديدة ؛ فقد هرب جوجان Gauguin من هـذه الجماعة العقيمة يحذوه الأمل فى أن يجد لدى البدائيين المنابع الحقيقية للالهام الفنى ؛ واستوحى فان جوج Van Gogh المشاعر الدينية فى تصاويره ، لحبه لله وخشوعه نحو الحياة ينبعان من منابع المسيحية الأولى ؛ وإننا لواجدون لدى فان جوج ما يشعرنا شعوراً ملموساً بتلك العلاقة العميقة الخفية بين الشعور الديني والعمل الفني ؛ فالضرورة الدينية لديه هي التي تولد الضرورة الفنية . والفنان رسول قبل أن يكون فناناً .

وثالث هؤلاء الخوارج هو سيزان Cézanne . وإن مأساة الفن فى القرن التاسع عشر — كما قد وصفناها — تبلغ لديه أحدّ أطوارها ؛ ولكن سيزان قد استطاع بمجهود فوق طاقة البشر أن ينقذ التصوير مستخدماً طرائقه الخاصة ومستعيناً بالوسائل التصويرية دون أن يلجأ إلى العواطف البدائية ، ولا إلى الحماسة الدينية .

ولقد استطاع هذا الفنان الفريد ، بمجهوداته الخارقة أن ينفخ الروح فى الوسائل التصويرية ، وأن يجعل من المذهب الانطباعي شيئاً متيناً ثابتاً ؛ وهكذا استبعد من التصوير الناحية التي ترمى إلى المتعة ، ولن تجد لوحة أشد خشونة وأشد عرياً من لوحاته ! واختفى كذلك كل ما يذكر بالإنسان وجوه وحباته وحرارته الحيوانية ، واختفت الميزات التي أحبها الانطباعيون واستبدل بها سيزان عالماً لا تضيئه الشمس ، وجوًّا خارجا عن نطاق الانسان ، تجد فيه الأشياء تسبح من عالم لا زمن فيه . عالم رجع إلى عناصره وعبر عنه رجل لم يعد يذكر حاله كانسان . وهكذا سار سيزان فى طريق إنشاء عالم جديد اشتقت قواعده من صميم القواعد التصويرية ، ودفع تلك القواعد إلى أقصى ما يستطيعه فخلق عالماً مجرداً .

وهذا العمل العظيم — بما بذل فيه من جهد وما أدى إليه من نجاح —

قد مهد إحدى الطرق ، التي سيسير فيها الباحثون عن فن جديد ، وعن تعبير فني جديد ؛ ذلك لأن الطرق ستتشعب ابتداء من هذه اللحظة ؛ ويجب أن نذكر هنا أن العمل الفني يتبع من حيث قيمه عالمين : العالم الحسي والعالم العاطفي .

والقيم الشكلية هي اللون والسطح والخط والفراغ والتكوين ، وهي التي تستشعرها حواسنا . والقيم الروحية والتجريدية هي : الشيء الذي يعيه العمل الفني ، والموضوع والمعنى والعاطفة ، التي يحملها وينقلها إلينا .

ولكن الانطباعيين يذهبون — كما سبق أن قلنا — باحثين وراء القيم الحسية ، وتحليل الأساليب الانطباعية المختلفة قد أبان لنا أنها تشمل عناصر ما قد أتى بعدها من أساليب ، وهذه العناصر وإن كانت قد حدثت مصادفة تحمل معنى جديدا وتصبح عاملا مهماً في الأسلوب الجديد [1] وإن الفن الانطباعي ، وهو فن طبيعي ، قد بالغ في إبراز ألوان الضوء حتى أدى ذلك إلى إلغاء الحجم ، ثم إلى فناء الحقيقة الموضوعية ، وسيحل محل الحقيقة الموضوعية الرؤية المؤقتة التي يقيدها الضوء في لحظة معينة فيحيل صورة الشيء إلى مجموعة من البقع الملونة تراها عيوننا ، وسيكون لتحطيم الحقيقة الموضوعية نتائج خطيرة . الحق أن فناء الحجم في الفن الانطباعي يرمى إلى أن يكون التصوير أقرب إلى الطبيعة ، وهذا التحطيم لا يبدو واضحاً ؛ ذلك لأننا نستطيع بفضل تجاربنا أن نعيد بناء الشيء — دون وعى منا — مستعينين بهذه البقع الملونة ، غير أنه ما أسرع أن يتطور الفن فيهمل إعادة بناء صورة الشيء ولا يبقى إلا تحطيم الحجم . وقام سيزان بخطوة أخرى ؛ ذلك أنه إذا أهملت فكرة أداء جانب من الحياة كما يبدو في لحظة معينة خاصة ، وقصر الاهتمام على خلق عالم جديد ، فانه يسمح في هذه الحالة بالسير إلى أبعد من ذلك وإبتكار أنواع جديدة يتطلبها الفن الطبيعي المقلد ، فكما أن الشيء ذاته قد صار أمراً ثانوياً ، فان الفراغ المحيط به — والذى كان يرسم على أساس قواعد المنظور — قد أصابه هو أيضاً تغيير في الوضع . فاختفى نهائياً من التصوير تقليد حجم الشيء . ومن العبث معاودة الكلام عن تشويه شكل

(١) وهكذا كان الطور الأخير للفن القوطى ممهداً لمذهب التوافق الذى ظهر فى عصر النهضة l'Horizontalisme de la Renaissance وهذا المذهب بدوره قد مهد فى أخريات أيامه لظهور الاتجاه الزخرفى فى المذهب الشاذ Baroque .

المنظور لدى سيزان ، فان عدة دراسات وافية (١) قد أوصلت تلك الأبحاث إلى درجة بعيدة من العمق ، ، وقورن فى تلك الدراسات بين الدافع الحقيقى وبين ما أداه الفنان ، وقورن بين المنظر الطبيعى الواحد لدى سيزلى Sisley ولدى سيزان ليكتشف الغرض الذى رمى إليه الفنان بهذا التشويه المقصود . وعرفنا أخيراً تلك الضرورة القاهرة التى يضحى الفنان فى سبيلها بحقيقة المظاهر التى تبدو لعيوننا .

وإن معجزة سيزان لتبدو فى بحثه بعناد وإصرار عن قيم تصويرية جديدة انتهت بأن كونت نظاماً تجريدياً . وهكذا نرى فى الفن الانطباعى هذه الصفة الخاصة التى أصبحت أساس الفن الحديث ؛ ذلك لأن تحطيم الحجم وإهمال المنظور هو التمهيد لرفض الفن الطبيعى كلية ، أى هو التمهيد للنظرية الجديدة فى الفن اليوم ؛ فكل محاولات الفن الحديث تتركز فى خلق عالم جديد تحل فيه رؤية نفاذة داخلية ، وحقيقة عليا محل الحقيقة المادية الملموسة . وهكذا كان تحطيم الحجم الخطوة الأولى فى تحطيم النظرة الفنية القديمة تحطيما كلياً ؛ ذلك لأنه مهما اختلفت اتجاهات الفن الحديث وتعددت مظاهره ، فان هناك عاملا مشتركاً لم يهمل فيه قط ، ألا وهو إهمال المذهب الطبيعى ورفض تقليد الحقيقة الخارجية رفضاً باتاً .

ويجب أن نعترف بأن مثل هذا الاتجاه المحدد الواضح لا بد أن يكون استجابة لضرورات العصر ، وإلا فكيف يمكن تفسير أن كل الحركات الفنية فى عصرنا تتجه نحو فن تكون الأشياء فيه نقط بدء تتحول إلى عناصر مجردة .

بيد أنه يجدر بنا أن نعود إلى دراسة الموقف الفنى فى آخر القرن التاسع عشر ، فقد رأينا إحدى المدارس تتخذ من أبحاث سيزان نقطة بدء وتحاول جاهدة أن تصل إلى تأدية الشكل الخالص . وقد كان السطح التصويرى la surface picturale هو الشىء الأساسى لديها ، أما القيم الشكلية فتوجد وفقاً لذلك السطح . (وسيهاجم أتباع مذهب الفوفزم Fauvisme اللون والخط ، فى حين سيحطم أتباع المذهب التكعيبى Cubisme الحجم والفراغ) . وقد حاولت جماعة أخرى من

(١) Fritz Novotny, *Cezanne und das Ende der wissenschaftlichen Perspective*, Vienne. Erle Loron, *Cezanne's Composition*, New-York.

الفنانين الشبان الذين يميلون إلى مذهب فان جوج Van Gogh أن تنهض بالتصوير من ناحيته الروحية ، أدخلت فيه الأبحاث النفسية وتحليل النفس والأبحاث الدينية بل والسياسية . وهكذا اتصل الفن بعوامل خارجة عن نطاق الفن وأخذ يعبر عنها ، واستبدل بعالم المظاهر عالم النفس وعالم الانسانية ، وحاول أن يجد فى النفس الانسانية ما يربطها بالجماعة البشرية ؛ وهكذا يعود الفن إلى منابع الالهام الأولى . وإذا كانت الآلام الغامضة لدى الانسان الأول قد خلقت الفن حين أبرزت الرؤى الداخلية والظلام الداخلى الكامن فى أعماق النفس البشرية بدون وعى من الفنان ، فان الفنان الحديث حين ينطوى على نفسه ، وحين ينظر فى حنايا ضميره فانه يعود إلى نفس المنابع الأولى الغامضة . وتحليل عقله الكامن وأحلامه وأفعاله غير الارادية ونواحى نشاطه المتعددة تكشف له عالماً مجهولاً لم يكتشف بعد .

فالمذاهب الحديثة كالمذهب التعبيرى Expressionnisme والسوريالزم والأورفزم Orphisme ترمى كلها إلى غرض واحد — وإن اختلفت طرائقها — ذلك هو التعبير المباشر عن العواطف ، والسير مع الملهمات دون إخضاعها لأى إشراف ، وتصوير الأحلام التى تكشف عن رغبات ومخاوف غامضة . فليس الأمر إذن فى الفن الحديث أمر تصوير العالم الخارجى وتملق الحواس وإمتاع الأعصاب . والتصوير الحديث فى المذهبين التعبيرى Expressionniste والسوريالست Surréaliste هو بحث مؤلم عن سر الحياة وسر الانسان . وربما اتهم هذا الفن بأنه وثيقة واعتراف أكثر مما هو عمل فنى . ولكن ذلك لا ينفى أنه تعبير صادق عن عاطفة عنيفة .

وهكذا نعود إلى مشكلتنا الأولى : الخلاف بين الفنان والجمهور فى أيامنا . فلنذكر أن الفن الذى نشأ فى عصرنا هو فن مختلف تماماً عن فن الأمس ، وأن الجمهور الذى لم يتثقف بعد ما زال مخلصاً لتعاليم الفن الذى انقضى عهده ، فتراه يريد أن يرى فى اللوحة صورة صادقة لعالم يستطيع معرفته ، وهو يريد من ناحية أخرى أن يجد فى الفن راحة من العناء ، وهو يبحث فيه عما يروق له ويمتعه .

فالقول بأن الفن الحديث فن مغلق منطو على نفسه ، وأنه فى مجموعه غير مفهوم ، هو قول صحيح إلى حد ما ؟ فالعمل الفنى الحديث يقوم على أساس مبدأ اعتنقه الفنان ، ولذلك فهو موجه إلى صفوة من المفكرين ، وغالباً ما يكون

العمل الفني نتيجة مذهب فلسفى ، أو توضيحاً لذلك المذهب. لقد دخلت الآداب المعاصرة فى دور اتصال وثيق مع الفلسفة ، ومع عدد آخر من العلوم . وأعمال سارتر Sartre الأدبية دليل على ذلك . ولا يمكننا إذن أن نأخذ على كتب كافكا Kafka وجويس Joyce وفولكنر Faoulkner وتوماس مان T. Mann أنها سهلة الفهم ، وهى جميعاً مشبعة برسالة فلسفية ، وما العمل الأدبى إلا تصوير فنى لتلك الفلسفة ، وهكذا سيكون هذا الاتحاد بين الفن والفلسفة بديلا من ذلك الاتحاد فى الماضى بين الفن والدين .

ولم تعد فكرة الفن للفن التى نشأت من اتجاه خاص نحو الحياة فى القرن التاسع عشر تلائم المطالب الروحية فى زمننا . ومهما اتهم الفن المعاصر بأنه فن منطو على نفسه ، فلا يجدر أن ننسى أنه قد نزل من برجه العاجى وامتزج بمشاكل الحياة ومطالبها واختلط بالناس ؛ والطرق عديدة منها السياسى والدينى ولكن الفنان فى كل عمل من أعماله يحمل رسالة ما ، وسواء أكان كاتباً أو مصوراً فانه فنان ملتزم engagé ، وأمامنا مثل مالرو Malraux وبيكاسو Picasso وهكذا يشتغل الفن بأنواع من النشاط مستقرة فى صميم الحياة .

وإننا نحسب أن الفن إذا أراد أن يعيش ، وإذا كان للفن فى جماعة الغد وظيفة يؤديها وحاجة يستجيب لها ، فان عليه أن يجد عقيدة له ، عقيدة يشترك فيها الجمهور والفنان كما كان الحال فى بدء الأمر ؛ وسيلتقى عندئذ الجمهور والفنان وتسد الهوة التى تفرق اليوم بينهما . وإذا كان إيلى فور Elie Faure مخطئاً ، وإذا كان التصوير المعاصر ما زال حياً لم يبلغ دور الاحتضار ، وإذا كان هذا الفرع من فروع الفن لن يسقط كما تنبأ هذا الناقد القدير — فان هذا سيعود إلى صميم الفن نفسه ، وإلى ما يعيدك إلى المباحث الأسلوبية أو الجمالية كائنة ما تكون تلك المباحث . إذا أراد الفن ألا يفنى فلا بد له من أن يمتزج بالفكر وبالحياة ، وهكذا تستطيع الفنون التشكيلية أن تستعيد قوتها خالقة بذلك نظرية فنية جديدة ، ولو أننا نأسف على الفن الخالص الذى عرفته الانسانية بالأمس .

هيلنير ذالوشر

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

من هنا وهنالك

الكنانة فى الأدب الحضرمى

أوشكت الأيام أن تتلاحق بثقل عبئها على كاهل السيد ابن شهاب كضريبة يجب أن يؤديها للزعامة الاصلاحية التى نهض بالدعوة إليها فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى .

ومناهضة المصلحين أمر طبيعى ما فتئ التاريخ يحدثنا بذلك طيلة العصور الماضية . ولم تقف هذه المناهضة يوما ما فى سبيل مجرى حرارة الدعوة الاصلاحية ما دام أنها صادرة عن عقيدة متأصلة فى النفس وإيمان بسمو المبدأ والغاية . وبمقدار احتمال الأذى فى حدود الطاقة الانسانية تركز الزعامة تثبيتها فى التاريخ فيتحدث عنها حديث من يستحق الخلود . وهكذا كان شأن التاريخ الحضرمى ليكتب صفحة الخلود عن ابن شهاب .

ومهما قيل من اعتذار فى حق المناوئين من ضعف فى الفكر ، أو ثقل على النفوس لانتهاج منهج لا يتمشى مع ما ورثوه من تقاليد وعادات وميول ومشارب ، وإن تكن فى حد ذاتها بعيدة عن سماحة الشريعة الاسلامية بمقدار اقترابها من الجبت والطاغوت ، أو كانت مناوءتهم للاصلاح ناشئة عن حسد متأصل فى النفوس حيث أتيح للسيد ابن شهاب ما لم يتح لأحد منهم من سمو الفكرة التى كان يدعو إليها بحرارة الوجدان الصادق وقوة اليقين مع معرفة بانتهاج السبل الداعمة للاصلاح القومى وتشييد بنيانه .

ليكن هذا أو ذاك فان المناهضة للاصلاح القومى هى التى طوحت بابن شهاب للهجرة عن حضرموت فى سنة ١٣٠٢ هـ وهو فى عهد اقتراب من الكهولة ونضوج تفكيرها . ولا غرو فقد ساءت العلاقات الودية ما بينه وبين مناوئيه ، وهم من ذوى الحل والابرام والنقض ، وأصبحت الاقامة فى الوطن العزيز غير مستساغة ولا محتملة . فقد كادت الأحوال تتطور إلى ما لا يرتضيه ذوو الشهامة والنخوة ، ولا يجدر بمثله أن يلوذ بالصبر والاحتمال إلا إذا فرضنا عليه احتمال نير العبودية والذل والخنوع مما لا يتفق مع سمو مكانته وسمو مبادئه

وهى فى غاية من الكمال والرفعة . قال :

يأبى الأبى الذل لو عين الحيا
ة بدارها لم يلق من روادها

إذاً فلم يبق أمامه غير سبيل إلى اقتحام الهجرة . ولا نخال قوله :

لكن بلوغ المرء أقصى غاية
فى العز مقصور على إبعادها

أو :

تلك السبيل إلى الفخار فان ترد
إدراكه فدع الربوع وعادها

ألا تعلة نفس شديدة الاهتمام بالوطن العزيز متفانية فى محبته أشد التفانى ، ولكنها فى يقظة الثورة الفكرية والنفسية (١) :

رحمك الله ابن شهاب ! لقد عهدناك من سراوة الخلق بمكان عظيم ، وما زلت كذلك رغم قولك :

. . . .
فدع الربوع وعادها

وإن تناءيت بهذا القول عن مكانة الزعامة التى تسمو بالسماحة وبسعة الصدر إلى ثورة النفس الجامحة التى لا تفكر فى العواقب بمقدار ما تجيش به مما يخفف لوعتها المتأججة ، ولعل لها فى ذلك بعض التعلة .

وإذا تجردنا من العاطفة التاريخية السياسية رغم النكبة التى حلت بالوطن من جراء مناوءة المصلحين المتناهية للسيد ابن شهاب وغيره فيما بعد ، فان هذه النكبة من الناحية الأدبية كانت سبب فتح عظيم لتجلى عبقرية ابن شهاب الشعرية ، واستفاضة أدبه فى اتساع أفقى عظيم لم نعهده فى أدبه من قبل .

فقد جاشت نفسه بالشعر فى أفق أسمى وخصوبة فياضة ، وما كاد يغادر حضرموت حتى ودعها بقصيدة غراء مطلعها (٢) :

ودع سعاد وألق حبل قيادها
واصدر على ظمأ لدى ميرادها
واربأ بنفسك أن تغازلها وإن
منحتك حبا من صميم فؤادها
أنهاك لا لقلى ولا لسآمة
أو تسأم الحسناء فى أبرادها
لكن بلوغ المرء أقصى غاية
فى العز مقصور على إبعادها
وقبل أن تنأى به الأيام بعداً

---

(١) أنظر من كتابنا «الشهاب العلوى» أثر الهجرة فى نفس ابن شهاب .
(٢) أنظر ديوانه صفحة ١٣٠ .

عن الوطن فاضت قريحته بقصيدة أخرى أجاب بها على رسالة بعثها إليه ابن عمه السيد محمد بن عيدروس بن شهاب من تريم ، وهو إذ ذاك فى المكلا[1] نجتزئ منها بهذه الأبيات. قال :

ولكن نفتني عن حماها يد النوى
لأرض بها مثلي يطول اغتمامه
إذا ما سرت عن ذلك الحي نسمة
يهيج بقلبي وجده وغرامه
ولم يرق بعد البين عن بانة النقا
جعلت فداها مدمعي وانسجامه
فيا نفس صبراً هكذا يصنع الهوى
بمن كان فى أيدي الحسان زمامه
ولا تقنطي مهما تمادى بك الجفا
فجور الهوى حال محال دوامه
وها أنا قد آنست من جانب الحمى
وميض بروق لايزال ابتسامه
رموزاً بذكر العاسرية من أخ
أديب صفا عما يشين رغامه
أعز ذوى القربى علىّ قرابة
وخير أخ يرعى لدىّ ذمامه

فإن ما فى هذه الأبيات من معان لا تتفق مع الروح الوثابة التي تتجلى فى قوله من القصيدة الأولى :

أنى تنال لغير أروع ماجد
متبدل عن غيها برشادها
ماضي العزيمة غير هياب صبو
ر النفس بيات على مرصادها
يسدى ويلحم فى مناسج فكره
أبرادها ويجيد قدح زنادها
تلك السبيل إلى الفخار فان ترد
إدراكه فدع الربوع وعادها
وارحل فان العجز شر مصاحب
مجلا وطأ فى السير شوك قتادها
واخطب عذارى المجد فى آفاقها
واشهد مواسمها على ميعادها
وجب المشارق والمغارب واسع فى
أغوارها واركب صها أنجادها
فنفائس الياقوت تؤخذ من معا
دنها وتشرى من يدى نقادها

هذه الروح الوثابة التي صور فيها ابن شهاب روح الأروع الماجد ، الذي يجيد قدح زناد الفكر وهو غير هياب ولا وجل شأن ذوى الصرامة والشجاعة الباسلة على حد قول الشاعر :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه
ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه
ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

(١) المكلا : أشهر موانى حضرموت اليوم .

لا تتفق مع هذه الأبيات التى تصور خمود النفس، والضعف الشديد فى ظاهر الأمر ، ولكنها فى حقيقة التمثيل الروحى من صميم روح ابن شهاب الوادعة . فقد كانت روحه الطاهرة بمكان عظيم من الوداعة والطيبة ولكن فى يقظة ، ومن سعة الصدر وأريحية القلب فى غير مذلة ولا لؤم .

هكذا كانت نفسية ابن شهاب جياشة بالشعر فى كل مرحلة تطؤها قدماه ، وبلغت منه الخصوبة مبلغاً عظيما حينما استضاء بنور الكنانة فتغنى بالشعر غناء يفيدنا من الناحية التاريخية الأدبية بمقدار ما يضئ لنا السبيل فى أثر المجزة فى نفس ابن شهاب .

كيف كان الادب فى مصر ؟

وما دمنا بصدد استجلاء أدب ابن شهاب حين زيارته لمصر سنة ١٣٠٣ ه ، فلا مناص إذاً من القول :

إن الأدب فى مصر فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى لم يكن يتبوأ المكانة التى تتدفق بها ينابيعه الآن ، وإنما كان فى عهد طلائع النهضة الأدبية ، وما زالت عقابيل الماضى تحد من نشاطه ؛ إذ ليس من السهل الاجتياز بمؤثرات القرون الوسطى الأدبية من غير أن يصاب الأدب ولو برذاذ منها يحد من نشاطه دون المضى به إلى الارتواء من المنبع الأعلى الذى ازدهرت به الحضارة الاسلامية فى عصورها الأولى .

وهذا شئ واضح لا يكلفنا سوى ارتياد أدب أعلام النهضة المصرية . وكان من أعلامها يومئذ عبد الله فكرى المتوفى سنة ١٨٨٩ م ، وعبد الله نديم المتوفى سنة ١٨٩٦ م ، وعلى الليثى المتوفى سنة ١٨٩٦م ، ومحمد عثمان جلال المتوفى سنة ١٨٩٨م ، والبارودى المتوفى سنة ١٩٠٤ م .

ولا نخال ان ابن شهاب وهو من المكانة العلمية العظيمة بله الشاعرية إلا توثقت به المعرفة بهؤلاء الأعلام الكبار وغيرهم معرفة الاتصال المباشر أو على الأقل استعراض أدبهم ، رغم أن مقدمة ديوانه لم تشر إلا إلى زيارته لمصر سنة ١٣٠٣ ه فقط . وقد كنا نود أن نفهم كيف كان مقامه بمصر .

فمن غير المعقول أن يتسنى له الاتصال بالخديوى توفيق باشا من غير أن يتهيأ له الاندماج والاتصال بصفوة الطبقة الممتازة من رجال عصره فى حين يقول :

فسنام أى الأرض أذهب منزلى
ولى الندامى الغر من أمجادها

وليس هـذا القـول بكثير على ابن شهاب ؛ فمقامه العلمي يخول له ذلك ، وما الأدب إلا إحدى السمات التي يتصف بها . وتاريخ حياته شاهد بذلك ، وفي مضامين كتاب « الشهاب العلوي » ما يجلو الحقيقة ويقيم البرهان على صدق قوله .

ونعود إلى النشاط الأدبي بمصر . فلئن أخـذت النهضة الأدبيـة تنزع بالحيـاة الشعرية نحـو التجـديد ، واستضاء الأدب بقوة الأسر والجاذبية وحسن الصياغة والفحولة كما نراه في شعر البارودي وغيره ، فان هـذه النزعة لم تتخل عن آثار الماضي القريب أو البعيـد أصلا . وقد بقيت لها منه بعض الوشائج التي تمتّ إليها بصلة وثيقة أو غير وثيقة .

بل لم تزل الكثرة من مواضيع الشعر كما كانت من قبل إلا عند بعض ذوي الشاعرية الكبيرة فقد تأثرت نوعاً ما بحياة العصر .

أما النسيب فما زال يحتل المكانة العالية لدى الشعراء كأنه الجسر الذي يوطد الصلات بالمديح . وهيهات أن ينكر ما للنسيب من مكانة في الشعر . وإنما النسيب الذي تلتهب به العواطف وتجيش به النفوس بعـد أن تحفزها دواعيه الخاصة .

وفوق هـذا فقـد كان الأدب أرستقراطي النزعة أو على الأقل فان أدب ابن شهاب من هـذا القبيل .

فان هواء مصر نفحه بسبع عشرة قصيدة ، منها ستة عشرة قصيـدة قالها مدحاً في الخديوي توفيق باشا . وقال القصيدة السابعة عشرة مرثية في زوجته المتوفاة بحضرموت وقد بلغه نعيها وهو بمصر .

ولعل في المضي إلى استعراض أدبه وهو بمصر ما يضيء لنا السبيل إلى التعرف عليه ، رغم أننا لا نعرف شيئاً عن الأسباب التي جعلته يحجم عن تقديم قصائده للخديوي توفيق كما نص على ذلك ديوانه . وما نخال إلا أنه وقد عارض بها الأرتقيات كان يؤمل أن تتاح له الفرصة فيكملها ٢٨ قصيدة حسب الحروف الهجائية ، ثم يقدمها دفعة واحدة ، وبهذا تظهر قوة معجزته الشعرية لأنه في وسط شاعر عظيم :

ماذا في معارضة الارتقيات
من صفاتها الشاعرية ؟

ناهيـك بأدب يسمو به قائله لاقتعاد الذروة العليـا بين أعلام الأدب والشعر أن يكون حرا طليقاً من كل قيد أورثته لنا عصور التاريخ القريبة أو البعيدة ما عدا ما لا يستقيم

الأدب بدون التمسك به من حسن الصياغة وقوة الأسر والديباجة العربية المتينة ، إلى ما يتصل بذلك من المعانى التى تجيش بها النفس بعد اكتمال اختمارها كما هو شأن كثير من الشعراء المبرزين .

ولئن تم لابن شهاب فى معارضة الأرتقيات حسن الصياغة والديباجة العربية كما أسلست له الشاعرية قيادها حيناً وأفاضت عليه بعض معانيها العظيمة ووافاه القريض بما يعد من آيات الوصف ، فان لالتزامه طريقة العسف الشائعة فى عصره ما حد من شاعريته كثيراً .

ولو تغنى بالشعر كما تقتضيه الطبيعة والسجية كما تغنى به فى قصيدتيه (١) :

لذى سلم والبان لولاك لم أهوى
ولاازددت من سلع وجيزانه شجوى

والتى يقول فيها :

يصبحهم من صحبه بفوارس
يرون مذاق الموت إن جالدوا حلوى
يخوضون لج الهول علماً بأن من
نجا من حتوف الحرب تقتله الأدوا

أو (٢) :

دعتك ـ لك البشرى ـ إلى عرشها أسما

. . . .

وكلا القصيدتين من يقظة الشاعرية بعد الهجرة من حضرموت ، لكان لنا من أدبه منبع لا يغيض ، ولوافته المعانى الفياضة بما لا دعته إليه الضرورة القاهرة .

وعلى كل فان وظيفتنا دراسة أدبه لا التحكم عليه فى الاختيار . قال :

جد بالمعتقة التى لم تمزج
واجل الدجى بشعاعها المتأجج
جنى بها صهباء صب عصيرها
فى الكوب آدم قبل يوم المخرج
جرت الارادة أنها من ذلك الـ
ـعهد القديم تصان عن متزوج
جريالا احترقت بحدة طبعها
فكأنها لم تغل أو لم تنضج
جاء الأوان فقم لفض ختامها
واشف النفوس بنفحها المتأرج
جدد بها الأفراح إن سميرنا
لتناول الأقداح ذات الهودج
جام يدور ومزهر نسلو به
وزهور ورد غضة وبنفسج

---

(١) ديوانه صفحة ١٨ .
(٢) ديوانه صفحة ٦٥ وسنعرض لدراستهما فى موضع آخر .

جمعت لدينا اللذتان بمجلس ... صهباء صافية وربة دملج
جن الدجى فجلا ضياء جبينها ... وسنا الطلى جنح الظلام المدلج
جمحت إليها النفس لما عاينت ... منها مشوب فكاهة بتغنج
جنحت إلىّ وكأسها فى كفها ... ورنت مسلمة بطرف أدعج
جاذبتها ملح الهوى وبثثتها ... شكوى الغرام وحره المتوهج
جزعت لما علمت به من حالتى ... وتأوهت لنحول جسم مزعج
جذبت لتجبر صدع قلبي لفسها ... نحوى فبت بطول ليلتها شجى
جادت بما أهوى وجاد الدهر من ... لقيا العزيز بما أروم وأرتجى
جم المفاخر صاحب السيف المهـ ... ـند واليراع وخير كل متوج
جلت مكارم نجل اسماعيل عن ... تشبيه خالص تبرها بالبهرج
جالى قتام المعضلات إذا دهت ... بثواقب الرأى السديد الأبلج
جز حول ساحته الفسيحة تغن عن ... كل الملوك وباب رأفته لج
جود الملوك بمقتضى شهواتهم ... ولجوده البـاب الذى لم يرتج
جهراً يقال لمن يحاول منهم ... علياه هذا غير عشك فادرج
جاءت به الأيام فردا كاملا ... وبمثله أم العلا لم تنتج
جاز السماك ترقيا وعلى سرى ... فلك اقتناء المجد غير معرج
جرّت به مصر ذيول فخارها ... وغدت مدائنها ملاذ الملتجى
جور النوائب آيس ممن غدا ... فى سوحها المأنوس يذهب أو يجى
جلبابه زرد الحديد لدى الوغى ... والمستقر صها بنات الأعوج(١)
جمعت لنصرته الجيوش فهم له ... كالأوس فى غزواته والخزرج
جولان خيلهم يذكرنا إذا ... زفرت لظى حرب فوارس مذحج
جزمت عواملهم رقاب عدوهم ... حتى ينيب إلى قويم المنهج

على عبود العلوى

---

(١) فى هامش الديوان ما نصه :
الزرد : الدرع . والصها بضم أوله جمع صهوة : مقعد الراكب ، وبنات الأعوج : خيل من نسل الأعوج فرس مشهور .

البـــحيرة

من سار فى الأرض مهلا تحدثت إليه الأرض بشئ من أسرارها . ومن مشى فى الأرض قويا فتيا جاويتـــه منازل فى الأرض بأجمل ما يرى وما يسمع ، ويشهد فى يقظة الصحو ما تأتى به الأحلام من صور عابرة خاطفة ، وأخرى تمر به متمهلة كمر السحاب ، وهى تلازمه وتتجرد عنه كلما تجاوزها من سفر إلى سفر . وفى حياة الانسان خاصة أن تمر به الحياة فلا تأتى بجديد ، وإن سار فى الأرض جاءته كل لفتة بجديد . وفى بعض ما يشهد صور لم يترقبها فتأتى بما لم تسر إليـــه أحلامه من صور الحياة .

وهو يتزود بظلال فى الضحى ونسيم فى الآصال ، وسلام فى العشى ، وهو يمضى « أخاً سفر جواب أرض ، تقاذفت به فلوات» ، وتتلطف آثار حياته فيفنى فى بعض الأرض بلفتة مطرقة إلى نبع أو نور ، ويصغى لأبعد ما يرسل فى الليل نبح كلابها ، ويتزود « من شميم عرار نجد ، فما بعد العشية من عرار» . وتتلطف آثار حياته حين تقلع به سفينة من الأرض التى يحب فيملأ عينيه بآخر ما يبصر من لونها قبل أن تتوارى فى حجاب الفضاء ، ويصغى إلى ما يتجاوب بينه وبينها من فكرة ، وتتلطف آثار حياته فتتجرد من كل غشاوة وترتد إلى نبعها الأصيل الذى نبعت منه آمالها وعزماتها ، ويهز قلبه طرب حين تنفذ آثار الطرب إلى أصول حياته ، ويمضى فلا يكون إلا فكرة ، والفكرة أشد نفاذاً من النسيم وأبعد بصيرة من كل شئ .

ولا يبلغ شئ جمال الفكرة التى تلقاك حيث تكون بآثار الذين زودوا حياتك بالحياة وبالخير . . . فى جانب من باطن الوادى قرية مصرية تحمل منها الفكرة كلما جاء ضياء النهار . وحيـــاة الآمنين من شيوخهـــا وهم يغدون إلى الصلاة بما بقى فى نفوسهم من قوة ، ومنهم من آمن بالخير إيماناً مطلقاً حتى يستطيع أن يعطى بيمينه ما تجهله شماله ، وأن يعيش بينه وبين الله بارا تقيا ، ويعيش بينـــه وبين الناس « أباً لمن لا أب له وأما لمن لا أم له » . ويفشى السلام بين الناس .

ويعيش هذا الشيخ فى طيات الفكرة ثم يمضى فلا يكون إلا ظلا ، وتأتى الفكرة بالظل حين لا يكون إلا أثراً نبيلا عزيزاً من آثار الانسانية

التى رعت نباتنا صغيراً ووقته بنفسها أن تأتى عليه عادية من العوادى .

وتسمع الفكرة تحية الرائحات والغاديات من النساء وكثير منهن قد أسى ظلالا فى طى الفكرة ، وكثير منهن يستطيع أن يلقى الله بمثل ما لقيته المصرية الأولى « رب إنى لم أبرح سبيلك منذ ولدت إلى أن عرضت عليك ؛ فقد عشت بارة بوالدى وفية لرجلى ، محبوبة من الناس أجمعين ، لم أعط عن رياء وإنما كسوت العارى وأطعمت الجائع فى عام الجدب وواسيت الناس جميعاً بقلبى » .

وتأتى الفكرة بأقران يغدون وراء دوابهم إلى زروعهم ، ويروح آحادهم وفى أيمانهم نبات تتبعه صغار ألعانهم، وإن منع عن هذه القرية ويل ، فليس يشغلها إلا صلاة وزرع . . .

ثم يصح نهار وتطيب نفس ويقبل صحو بحياة وقوة ، فتتبع الفكرة آثار الأحلام التى تزين آفاق حياتنا حتى تكون لزوماً وتنشر هذه الآفاق ثم تزول ، ولا تكون الصحراء فاتنة حتى تشرف من آفاق الرمال على ماء . وما بال الناس إذا التقوا فى ركب، سأل كل صاحبه عن محط رحاله ، فكأنما يريدون أن يشهدوا آفاق الأحلام التى شدوا إليها رحالهم . . . هنالك أفق من وراء ليل ونهار يجمع ما يجمع ثم نسرى إليه .

وكذلك ثبتت الفكرة السعيدة من آثار الانسانية العزيزة النبيلة وتشرف فى آفاق أحلامها على ما تشتهى من آثار الانسانية النبيلة العزيزة وكأنها لا ترى غاية للخير أجمل من أن ترد لنفوس محبوبة أجمل آثار حياتها . وما نشهد فى الأرض من آيات الجمال أبعد أثراً فى إظهار نفوسنا من المرآة التى لا تكشف إلا ظاهراً ، وتبصر فى جانب البحيرة عالماً من الذكر والأحلام لا تكشفه المرآة وهو أشد أثراً فى حياتنا من أى شئ ، وهو أعز أثراً على حياتنا من أى شئ .

وأجمل آثار الجبال أن يستثير ما سكن من جمال الذكر ويرسل ما عز من جمال الأحلام . وترى الشمس إذا غربت رقت سطوتها عن مروج الجبل ، وانبعث من رقتها نسيم عليل ينطلق فى كل شئ انطلاق الطفل الذى ينهض فرحاً ثم يتعثر فى نهوضه . وتتماوج فى الأبصار طبقات ممتزجة من خضرة المرعى وبياض الضياء ، وتتمهل الشمس عند أقصى قمة ليبلغ كل قصى مأمنه . ونجد فى حياة النسيم ما يجد الفتى القوى الذى يثب سعيداً

إلى حياة الذين سعدوا به وبحياته ، وحينئذ تقبل الفكرة بآثار عزيزة من من آثار الانسانية وكأنما تتهافت عليك وتحف بك وتنهض بنهوضك وتصحبك سعيدة حتى تبلغ مأمنك . وتسارع إليك هذه الآثار لتعصمك من زلل وترعاك من أذى ، وتبدل حرجك فتجعله يسيراً ، وتعز وحدتك فتجعلك كثيراً ، وهى التى تترقب ثمار آمالك وجمال حياتك وما تشتهى أعماق نفسك من رجاء . . . وحيثما أقامت هذه الآثار ارتد كل شئ سعيداً ، وسمت إنسانيتها حتى صغر بجانبها كل جمال فى الأرض ، وصخور إيتاك — كما يقول شاتوبريان — كانت أعز على تلياك من كل جنة فى الأرض .

وتمضى وحيداً فى وهاد يتدفق فى أعماقها نهر وتتلوى سبلها وتتقارب جوانبها العاتية . . . ويخترق ظلها الكثيف ما تيسر من بياض الشمس . . . حتى تكون وسط النهار فى أعلى الوادى ، فتتسع رحابه وتمتلئ أحضانه بدافق حياة الشمس ، فيلقى ضياء الشمس الناعم الرحيم مروج خضر لينة ، يسارع فيها نهر كالقناة بماء قد تلون بخضرة الجبال وزرقة السماء فتراه حيا مزهراً . . . وتميل إليك الغاديات والرائحات بمرح الحياة والشباب ، ويسرى فى كل نسمة نعيم ورضا فتتلفت من بين يديك ثم ترتد فتتلفت من ورائك لتمسك عليك ما أدركت من جمال ، ثم تبلغ بنشوة الحياة ثلاث بحيرات عند قرية سانت موريتز قد تغنى بها نيتشه حتى سميت إحداها باسمه . ويكسو صحاف هذه البحيرات الوادعة الخضر سلام عميق وحياة . فان نشرت قلاع فوقها أيقنت أنها جمعت قلبين حبيبين أقبلا من أقصى الأرض ؛ لأن للحب معابد حيث تجلو الطبيعة جمال الحياة وحينئذ لا تكون الحياة زماناً وكفى ، وحينئذ تنهض الفكرة فلا تكون إلا حلماً جميلا عزيزاً من أحلام الحياة .

وبحيرة لوكارنو ذات جمال وجلال ، وهى تمتد بين سويسرا وإيطاليا بسلام وأمن . . . وكأن الطبيعة والانسان قد صارا شريكين فى آثار الحياة ، كلاهما ذو قلب جميل وتسرى فيهما نسمات من الانسانية والفن ، فلا يعجلان لشئ ولا يفزعهما الزمان فى شئ ، ولا يشرق القمر من رأس الجبل حتى تسبقه رسل من ضياء تبدد ما تستطيع من ظلام الليل ، وتسمع فى سكون الليل من طرف البحيرة كلاباً تنبح نبحاً غير مضطرب فيتماوج

نبحها فى فضاء البحيرة ثم يتلاشى ، ويقبل على جفنيك نوم ناعم فتسمع بين النوم واليقظة فتى خرج بقاربه فى ضياء القمر ليجاوب الطبيعة بغناء يطرب له كل سمع .

وأجمل من كل ما أبدعت الطبيعة من جمال أن ترى حول هذه البحيرات والجبال أمة من الناس قد حققت صورا رائعة من صور العدل .

وقد يبلغ جمال العدل إشراق النهار وسيل الأصيل كما يقول أرسطو ، فلا ترى فيهم سائلا ولا محروماً ولا أميا ولا مريضاً يجرر تعاسته فى الطريق العام . وهم أول أمة سنت قانوناً لحماية اليتيم ورعاية الكهول ، ولا تخاف بينهم من سارق أو معتد ، ولا تستشعر احتقاراً ولا علوا ، ويسرت للانسان عزته وكرامته ، فحيثما تجد سائلا أو محروماً فاعلم أن من وراء ما ترى سارقين ومجرمين . وليس ينهض العدل نصيراً وظهيراً للضعفاء وحدهم ولكنه يحمى الأقوياء بأعز ما يحمى به الضعفاء . فالانسانية جزء متماسك متكامل يشد بعضه بعضاً . ومن يجهر بسعادته بين الاستياء ويقوته بين المرضى فقد تجرد من كل شعور بالمروءة والانسانية . ومن أصدق حديثاً عن العدالة من سولون مشرع أثينا :

« إن مدينتنا لن تبيد بقضاء من قضاء الله ولا بحكم من أحكام الآلهة السعيدة الخالدة ؛ فان الله حرسها « بيلاس أثينيه » التى تبسط من فوقها يديها من كبد السماء . . . وهى الإلاهة من أب ذى بأس ، ولها قلب كبير عال . . . وإنما يريد أن يهلك المدينة المجيدة أبناؤها أنفسهم حين يذهب رشدهم ويستمعون لغواية المال . . . : ويريد أن يذهب بها أيضاً قادتها حين يستهويهم البغى ، فلا يلقون من طغيانهم وشططهم سوى عذاب أليم . . . فلا هم يعلمون أن يدفعوا عن أنفسهم غائلة الكبرياء ، ولا هم يجعلون سعادتهم فى سلام ما قسم لهم ، وهم يمسون أولى مال بما يسارعون إليه من آثام وظلم ، ولا يعفون عن مال المعابد ولا يتنزهون عن مال الدولة ، وهم يستبقون أيهم أكبر نهباً وسلباً . ولا هم ينظرون إلى عرش العدالة السامى التى تمهل ساكنة وهى تطلع على ما كان وما هو كائن ثم تنزل ساعة لتضرب على أيدى الظالمين . فيمس المدينة جميعاً بعدها قرح لا نجاة منه ، فتقع تحت أقدام العبودية الظالمة ، وتوقظ فيها فتنة التحزب وتسعر فيها نار الحرب بين العشيرة والأهل

وتأكل الفتنة والحرب شباباً كثيراً في زهرة الحياة المحبوبة ، ويسارع أعداء هذه المدينة العزيزة فينهكون قوتها في مواقع غالية على الذين ظلموا .

وتدور هذه الشرور على أبناء الأمة فيفر من وجهها طوائف من الفقراء إلى بلاد غريبة ليسقطوا فيها في أكبال العار والخزى .

وهكذا يلج بلاء الوطن على كل امرئ في داره ، فتأبى حتى أبواب الدار الداخلة أن ترده ، ويثب إلى البروج الشاهقة ، ويدرك كل امرئ ولو هرب في أعماق حجرته .

« وذلك الذى دعتنى نفسى أن أعلمه الأثينيين — كلما ساء العدل في المدينة جاءها بلاء كبير وشر . والعدل يزين كل شئ بجمال ووئام ، ويغل الظالم بأغلال وأكبال ، ويذلل كل وعر ، ويمحو الجشع ويقضى على البغى ، ويوبس زهور الشطط النابتة ، ويقوم عوج الأحكام ويمحو آثار الكبرياء والتعالى ، ويذهب بريح الشقاق ، وينزع أحقاد الخصام الأليم ، ويعيش في ظلاله كل امرئ في وئام ووفاء . »

علي حافظ

CHRONIQUES PHILOSOPHIQUES

DIDIER ANZIEU

شهرية الفلسفة*

لا يمكنك أن تتصور أو تدرك موقف الفلسفة المعاصرة الا على صورة أزمة من الأزمات . فالفيلسوف لم يعد يعرف ما هو عليه بل ما هو فاعله ، وقد طغى الوجود عنده على الفكر . ويجتاز العالم بأسره اليوم تجربة ديكارت ؛ فقد مل قراءة جميع الكتب وارتياد كل البلاد ، وأخذ يشك فى الآراء جميعها والمعارف كلها ، وزعزع الفروق الاجتماعية ، وانطلق يبحث فى صفاء ذهن مجرد من الأمل عن نقطة ثابتة يستطيع أن يحول منها مجرى الكون ، وأن يخضع لها نظام أفكاره .

إن الفلسفة تجتاز أزمة محكمة ؛ فأسس المنطق بدأت أزمتها على أثر تقدم العلوم واستكشاف نظريات الهندسة غير الاقليدية ونظرية إنشتين . أما أسس الجمال فقد عرفت الأزمة منذ تسرب مذهب السيريالزم إلى الفنون . وأخيراً أدى التحليل الذى قام به ماركس وفرويد على التوالى لعمليات الحياة الجماعية والفردية اللاشعورية ، إلى فقد علم الأخلاق آخر أركانه الثابتة . وقد أفزعت هذه الأزمة الأخيرة التى تولى نيتشه الحديث عنها قلوب الفلاسفة ، حتى إنهم لزموا الصمت حيالها ؛ ونجدهم فى فرنسا قد تواروا خلف ثلاثة من الأدباء هم : أندريه جيد ، وأندريه مالرو ، والبير كامو .

بل إن هناك ما يهدد وجود الفلسفة نفسه . وهل كان من الممكن أن يحدث غير ذلك ؟ فكل مرة يكون الإنسان فيها موضوع سؤال ، تكون الفلسفة هى أيضاً موضوع سؤال . ما مصيرها ؟ وما مصيره ؟ إنها مشكلة واحدة . والفلسفة كثيراً ما استشهدت بالناس ، أما الآن فالانسان هو الذى يستشهد بالفلسفة . إن هذا الاستعراض الفلسفى يرمى إلى تقديم الأدلة والاستشهادات . وقد روعى فى اختيار موضوعاته أن تكون متصلة بهذا الموضوع المركزى : استمرار الانسان أو تحوله ؟

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

بيان حالة علم النفس المعاصر

كان طالب الفلسفة قبل الحرب شديد الكلف بعلم ما بعد الطبيعة . وكان يعتبر مسألة طبيعة الأفكار وطبيعة الحكم مسألة جوهرية . وكان يدعي أيضاً أنه يرى العالم على صورة خاصة يريد أن ينقلها إلى غيره . وكان أستاذه فى ذلك أحد اثنين برنشفيج أو برجسون . وكان يرى أن فضيلة التنزه عن الغرض تتفق خير الاتفاق مع المجادلات الفلسفية وحدها ، حتى لقد كان يفخر عند ما يصبح أستاذا بأنه لم يعلم أحداً شيئاً كان ذا فائدة فى الحياة العملية .

وعلى أثر نشوب الحرب وما ينجم عنها بلا شك من عودة إلى كل ما هو إنسانى ، ظهر مثل أعلى آخر للفيلسوف ألا وهو السيكولوجى العملى ، Le psychologue concret ، فنجد عدداً متزايدا من الشبان يقبلون على دراسة الطب والفلسفة معاً ، أو هم يريدون على الأقل أن يتلقوا ثقافة سيكولوجية تربوية . فهم يشعرون فعلا بحاجتهم أولا إلى الطرق الفنية التى تضمن لهم النجاح فى ممارسة مهنتهم ، وبحاجتهم ثانياً إلى الدقة العقلية التى تجعل من الفلسفة علما صحيحاً . وأساتذتهم فى ذلك هم الأطباء النفسانيون وعلماء التحليل النفسانى أمثال جانيه وفالون ولافورج ولاجاش وجوليت بوتونييه ويباجيه ولاكان . فتراهم ينظمون الاجتماعات مع أطباء الامتياز فى المستشفيات السيكياتريه ، ويطلعون على طرق التوجيه المهنى .

ما معنى مثل هذا التطور ؟ إن الفلسفة آخذة شيئاً فشيئاً فى الابتعاد عن دراسة الكون والروح أو الله ، واتجهت إلى دراسة الانسان أى إلى الانتروبولوجيا . لقد ورثنا بدون شك عن الحكمة القديمة القاعدة الذهبية القائلة : « اعرف نفسك بنفسك » . ولكن هذه القاعدة التى أملتها أغراض خلقية ، بقيت نظرية مجردة . والقاعدة الجديدة لعلم النفس الحديث هى معرفة الغير معرفة محسوسة Concrete وقد دلت البحوث الأخيرة على أن الطفل الصغير يشعر بوجود الغير قبل أن يشعر بوجوده هو نفسه . والظاهرة الأساسية فى الحياة البشرية هى أن وجودنا حادث بين أشخاص آخرين ، ومن ثم نشأت النظرية الوجودية لجان بول سارتر .

كانت الفلسفات السابقة جميعها فلسفات عزلة تقريبا ، وكانت دراسة الميتافيزيقا مقصورة على طبقة خاصة . أما علم النفس الحديث فيريد أن يكون كالحضارة الصناعية ووسائل النقل فيها ، فى متناول الجميع . فهو يهتم بالطفل وبالرجل البدائى ، وبالمصاب بمرض عقلى وبالعاقل ، وهو ينفذ إلى كل البيئات وكل الأعمار وكل الأجناس . أليست معرفة الغير خير وسيلة للفرد لكى يندمج فى أسرته ومصنعه ووطنه ؟ فالفيلسوف الحديث لا يحلم فى أن يكون عالماً فى المنطق أو شاعراً ، بل فى أن يصبح طبيباً ، طبيب العقول والجماعات .

إن أزمة علم النفس الحالية تطغى على كل ما عداها من أزمات ! إن تعلما خلقيا صحيحاً لا يكون مثلا مستطاعاً إلا إذا درست طبيعة الانسان. وقد بدأت هذه الأزمة منذ عشرين عاماً على أثر ظهور كتاب بوليتزر Politzer « نقد أسس علم النفس » *Critique des fondements de la psychologie* الذى لم يظهر منه إلا جزء واحد من ثلاثة الأجزاء التى أعلن عنها . وكانت فكرة علم النفس العملى تسيطر على بوليتزر بقوة إلى درجة أنه عدل عن بحوثه التى كانت لا تزال لنظرية ليناضل وسط الحزب الشيوعى . وقد نشبت منازعات مذهبية بينه وبين ذلك الحزب قبل الحرب مباشرة ، وأخيراً قتله الألمان لنشاطه فى المقاومة السرية أثناء الاحتلال . وكان بوليتزر أول من كشف وسط فيض طرق علم النفس الجديدة ، عن الطرق الثلاث التى تعتبر أكثر الطرق إدراكا للحقيقة وأعظمها مستقبلا ألا وهى : التحليل النفسانى ، وعلم النفس الشكلى ، وعلم النفس السلوكى .

ومنذ ذلك الوقت صادف علم النفس الشكلى (ويسمى بالألمانية Gestalttheorie) أعظم نجاح ، وأدى إلى ظهور سلسلة من أهم المؤلفات للاستاذ بول جيوم ، حتى أصبحت كراسى الكليات ومعامل البحوث مقصورة عليه . فبفضل فكرة « الشكل » أى الكل أو المجموع أدت هذه الطريقة خدمة جليلة وذلك باقصاء علم النفس الميتافيزيقى التقليدى الذى كان ينسب حياة العقل إلى ذرات ذهنية تشبه فى تركيبها وتجمعها المركبات الكيميائية . إن « الكل » يحتوى على أكثر مما يحتوى عليه أى جزء من الأجزاء ، ذلك هو جوهر نظرية Gestalttheorie . إن القطعة

الموسيقية شيء ونغماتها المتعاقبة شيء آخر، وكل نغمة داخلة في القطعة أكثر منها لو كانت وحدها ؛ فالنغمة تتغير بتأثير النغمات التي تسبقها والتي تعقبها ، فهي تساهم في مجموع القطعة الموسيقية. والادراك كذلك هو نظرة إجمالية كلية ، لا نظرة إلى التفاصيل متراصة تحت المجال البصري . ولا تدرك أول ما تدرك العناصر غير المنتظمة بل الصور الشبيهة بالأشكال الهندسية الأولية . ويقوى الادراك وينمو بنظم الأشكال الأولية داخل بناء Structuation تزيد دقته شيئاً فشيئاً . كذلك الغريزة والعادة والذاكرة والتفكير واللغة كلها منظمات إجمالية لأفعال وذكريات وأفكار ، تتميز بالتحامها وتداخلها ، إنها إطارات تكيف ما تحيط به . وعلى ذلك يكون الذكاء هو القدرة على الترتيب والتصنيف . فالكل يسبق دائما الأجزاء .

والصعوبات التي تلقاها تلك النظرية خاصة بطبيعة هذه « الأشكال » هل هي منشآت Structures طبيعية ناتجة عن الأشياء ذاتها ، أم هي بالعكس نتيجة نشاط العقل ويجب اعتبارها قوى توازنية ؟ إن المشكلة على جانب كبير من الأهمية . فالاتجاه في الحالة الأولى اتجاه مادي ويكفي أن تطبق على الانسان نتائج الاختبارات التي تجرى على القرود والجرذان . وفي الحالة الثانية يكون الاتجاه روحياً وتقف نظرية Gestalttheorie عند حد الأوتوماتسم أي الآلية الذاتية. وعلم النفس الحديث لا يخرج عن إحدى اثنتين : المادية أو الروحية .

وميزة علم النفس السلوكي Behaviorism أنه ينتصر من غير ما تردد للحل الأول . وقد عرّف الأمريكي واتسون قاعدة هذا الحل ، وهي أن النشاط الانساني كله ناتج عن الخصائص العامة للخلية الحية . وهو يحدد دراسة هذا النشاط بدراسة أنواع السلوك التي تظهره ، متجاهلا النظرية القائلة بأن هناك ظواهر خفية عن الشعور تتفق مع أنواع السلوك هذه . وقد استنتج الروسي بافلوف من ذلك منهجا عاما يفسر به السلوك ابتداء من الفعل المنعكس المكيف Reflexe conditionné ، فهو يرى أن حياة العقل تتكون من مقاومة الأفعال المنعكسة البدائية وضدها أو تحويلها إلى موضوعات جديدة . وما نمو الحياة العقلية إلا تجمع وتنوع هذه الأفعال المنعكسة .

إن هذه النظرية تتضمن منهجا ممتازا وتشمل فرضا فيه مجازفة : أما

المنهج فهو أن تراقب الغير وهو يعمل بدلا من أن تحلل ذاتك ، إن فى ذلك خير وسيلة لمعرفة الانسان . أما الغرض فهو أن تشبه أرقى وجوه النشاط العقلى بطرق تربوية dressage أولية . ألم يجر بافلوف اختباراته كلها تقريبا على الكلاب ؟

لهذا السبب نرى أن التحليل النفسانى هو وحده بين الطرق الثلاث لعلم النفس الحديث الذى يقربنا حقيقة من عالم المحسوس . وقد أفرد له بوليتزر الجزء الأول والوحيد من مؤلفه . ومنذ فرويد أخذ التحليل النفسانى ينمو نموا مطردا سريعاً جعل منه علما قائما بذاته يضم عددا كبيرا من المذاهب ومجموعة من المناهج . إنه علم لأنه يدرس عادة بتحليل تعليمي didactique ، ولأنه استكشف مجموعة من الحقائق المتماسكة كالميل الجنسى عند الأطفال وعقدة أوديب ورمزية الأحلام والعادات الشعبية folklores ومنشأ الأمراض étiolgie وعلاج الأمراض العصبية névroses . غير أن الناحية المشتركة بين هذا العلم والعلوم الأخرى هى صحة نتائجه فقط . إن الروح التى يتطلبها من العالم تختلف كل الاختلاف عن غيرها . فبدلا من أن تتلاشى شخصية المحلل خلف الحقيقة نجده يخوض بشخصيته كلها فى سبيل الكشف عن هذه الحقيقة . وهو أبعد من يقيم بينه وبين الأشياء حاجزاً من الاغفال وعدم الاكتراث ، بل يكون الاتصال مع الغير وجها لوجه ، فنجد الاثنين الطبيب والمريض يكونان مجموعة من القوى الفاقدة الاتزان ، ومجموعة من الاتصالات الخفية يحاول الطبيب بها أن يطهر المريض من شياطينه الداخلية ومن خطاياه محملا نفسه وزرها بطريقة رمزية ، ويجد المريض فيها قوة المثل العليا التى كان يتصورها ، فيعكسها على الطبيب .

فالمحلل والمريض أشبه بشخصيتى مأساة يحاول كل منهما فيها أن يقرر مصير الآخر . والعلاج هو نوع من المغامرة تنتهي بأن يكسب المريض الذى خلت مشاكله الخاصة صداقة معالجه وأن يحتفظ بها ؛ أما المريض الذى يفضل على مجهود العلاج التواطؤ مع دائه ذاته ، فهو يحول على الطبيب البغض الذى يشعر به نحو نفسه . فمن هذه الوجهة يعتبر التحليل النفسانى أثراً فنيا أكثر منه علما ، وهو بذلك يؤيد كل التأييد رأى القائلين بأن علم النفس الحقيقى كان يشاهد لا فى آثار الفلاسفة بل فى القصص

والتمثيليات وفى ما كان يلهم به قادة الجماهير . وإذا لم يكن علم النفس قد أفاد حتى الآن شيئا ، فقد أتيح له اليوم كسائر العلوم الأخرى مجال التطبيقات العملية ، وقد استطاع بوساطة التحليل النفسى أن يسترد قدرته الخاصة ويحدث أثره المرجو فيسلم للعلم آخر ما امتنع عليه من حصون ، ألا وهو القلب البشرى .

وأول نقطة ملحوظة فى هذا التقدم الأخير للتحليل النفسى هو التوسيع الذى أدخله فرويد نفسه على نظريات أيام الشباب . والكتاب الذى ظهر منذ عام لجولييت بوتونييه وعنوانه «القلق الشديد» *L'Angoisse* يعتبر كشفاً فى هذا الباب بالنسبة لجمهور المثقفين . فهو يتضمن صورة كاملة للغرائز ، رسمها فرويد قبل موته بأيام ولم تكد تنتشر . كان فرويد فى أول أمره يرجع حياة العقل اللاشعورية كلها إلى مظاهر الغريزة الجنسية فحسب أو إلى محاولات استخفائها أو التعويض عنها ، بل قد اكتشف أيضاً أن هذه الغريزة تستقر فى الفم ثم فى الشرج قبل أن تتركز فى الأعضاء التناسلية . والانحرافات الجنسية التى يروى التاريخ والأدب أمثلة شهيرة عنها ترجع إلى نمو الغريزة الجنسية نموا ناقصاً وتثبيتها عند مرحلة الطفولة . وقد حملت دراسة حالات النرجسية — أو عشق الذات — فرويد على التفكير فى الناحية الأخرى من الغريزة الجنسية ، وهى ليست سوى غريزة حب البقاء . كما اتضح أخيراً أن القلق الشديد وفقدان التوازن ، والمغالاة فى التهجم أو فى النكوص ، هى إحساسات لا يمكن أن يخلو منها الحب érotisme . فكان لا بد أن يهتدى فرويد إلى الحقيقة الواقعة وهى أن الانسان يحمل فى نفسه من الحقد بمقدار ما يحمل من الحب ، وأن روح التدمير مستقرة فيه . إن غريزة الموت وغريزة الحياة لتسكنانه وكلتاهما مزدوجة التأثير ، فتارة تتجهان نحو الغير وطوراً تنحصران فى الشخص ذاته . فغريزة الحياة هى حب بالنسبة للغير وبقاء بالنسبة للذات . وغريزة الموت تتحول من البغض إلى القتل فى الحالة الأولى ، ومن سأم الحياة إلى الانتحار فى الحالة الثانية . وتفسر الشخصية عندئذ بالنزاع بين الاتجاهين . ألا تنحصر قصة أى إنسان فى حياته وموته ؟ أو ليست قصة الانسانية ، كما رآها الفيلسوف اليونانى ديمقريط منذ خمسة وعشرين قرنا هى قصة النزاع بين الصداقة والعداوة ؟ إن اختلال

التوازن النفسى لا يكون حتما نتيجة انحراف جنسى . فالعنف ضرورى لتكوين الرجل ، غير أن الحب يجب أن يتغلب على العنف . إن الغرائز لا تمحوها تربية صالحة ؛ فبعضها تظل كامنة إلى أن يأتى يوم تنفجر فيه ، غير أن التربية تخضع تلك الغرائز لغرائز أخرى . ونحن نجد فرويد يفعل كما فعل أفلاطون فيما مضى ، نراه يحشد القوى ليثير من جديد معركة إيروس وثاناتوس . فالفيلسوف الحق مثل الطبيب الحق ، يريد كلاهما أن يشفى الانسانية من الموت .

إن البغض الآن أهم موضوع يدرسه علماء التحليل النفسانى . وقد أفرغ له باروك مدير المستشفيات النفسانية بمدينة شارنتون كتاباً له ظهر حديثاً عنوانه « انفعالات البغض والاجرام » *Réactions de haine et de culpabilité* ويرمى هذا الكتاب بطريقة غريبة إلى إقامة الدليل التجريبى على وجود الضمير الخلقى Conscience morale وقيمته . فكثير من المرضى يرجع مرضهم إلى غلطة شخصية قد تكون أحياناً وهمية صرفة ، يكفى أن يشعر الضمير أنه خالف نفسه . وإذا كان المذنب لا يتمثل غلطته كما يجب ليجعل منها غلطة غير ذات ضرر ، وإذا كان يحدث نفسه أن ليته لم يرتكب هذه الغلطة مع معرفته بأنه مرتكبها ، وإذا كان يود أن يعمل ألا يكون ماضيه ما كان ، فهو يتحول من مأزق خلقى ليقع فى حصار نفسى obsession ، ويشتد مقته شيئاً فشيئاً وينصبّ إما على نفسه وإما على الآخرين ، وفى الحالة الأولى يعذب نفسه مبالغاً فى تعذيبها ، ويصبح سارقاً أو قاتلا ليعاقب ذاته بهذا التدهور الخلقى ، ثم ينتهى به الأمر إلى الانتحار ، وفى الحالة الثانية يحمل الآخرين تبعة خطئه وحقده ، ويرى العالم كله شريراً ويعتبر نفسه مضطهداً فيعزم على رد الشر بالشر ثم يتردى فى أعنف حالات الجنون . وهكذا يُسبغ الطب النفسانى معنى جديداً على العقيدة القديمة التى كانت تعتبر الجنون عقاباً من الآلهة .

وأعظم ناحية من نواحى التقدم فى التحليل النفسانى تشاهد فى هذه الطريقة . فالطريقة التحليلية تكاد تختفى كلية لتحل محلها الطرق التأليفية synthétiques . فعملا بالطريقة الأولى يكفى المريض أن يستعيد ذكريات طفولته التى كان يحرص أشد الحرص على إخفائها ، وأن يلاحظ أن اختلاله

النفسي مرتبط بواحدة منها . غير أن الوقوف على أسباب المرض قلما يساعد المريض على التخلص من عادات تأصلت فيه مدة طويلة . إن مجرد استيقاظ الوعي لا يغير حياة شخص ولا يرده إلى الحالة الطبيعية . لابد أولا أن يعطى القدرة على الحياة . إن التحليل النفسانى داخل غرفة الطبيب لا يساعد المريض على أن يتكيف التكييف الصالح مع بيئته الحقيقية . أما الطرق التأليفية فهى ترمى بالعكس إلى إعادة تكييف المريض Réadaptation مع بيئته ، مستغنية فى حالة الضرورة عن اطلاع المريض على أسباب مرضه . إذا كانت الصحة العقلية أو المرض العقلى نوعاً من توازن قوى واختلالها ، فواجب الطبيب أن يقر النظام بين هذه القوى . وخير وسيلة ناجعة هى التأثير بوساطة أحلام اليقظة الموجهة على الصور العقلية images mentales التى تعتبر رموزاً لتلك القوى : صورة الأب والأم ، صورة جسد المريض نفسه ، صورة الرجل الأمثل والمرأة المثلى ، صورة الطاغية ، صورة زوج الأب الخ . . . وقد أطلق ديزواى Desoille على هذه الطريقة اسم حلم اليقظة rêve éveillé وعرضها في مؤلفاته . وهو يحقق بذلك آراء عالمى الطب النفسانى السويسريين يونج وبودوان اللذين كانا يقولان بأن الصور مراكز نشاط وأنها توجد على النمط نفسه عند كل البشر . فمن يملك زمام مخيلته يملك زمام إرادته . وكان ذلك فاتحة عهد جديد للنقد الأدبى فيما هو خاص بالشعراء . بدأه باشلار Bachelard بكتابه عن اوتريامون Lautréamont ومارى بونابارت بكتابها عن بو ، وبودوان بكتابه عن هوجو .

ليس فى الفلسفة إلا أزمة واحدة وإن تعددت مظاهرها ، ولكنها أزمة من نوع جديد ؛ فليس الأمر كما ألفنا أمر حضارة تنهار وأخرى تقوم على أنقاضها بل حضارة واحدة تسود العالم اليوم . والمشكلة أن نعرف هل شكل هذه الحضارة الذى لا مفر منه كفيل بالبقاء . والمشكلة الخاصة التى يواجهها علم النفس هى أن يهيئ الإنسان للتكيف مع الآلات ووسائل الانتقال وأدوات التعامل بالأوراق المالية instruments fiduciaires ، ونظام الحياة وكل ما أبدعه هو بنفسه . إن الانسان يحيا الآن حياة صبى الساحر الذى فتح على نفسه ثغرة لم يستطع أن يسدها ، وأصبح لا سلطان له على الأشياء . وإن الضرورة لتدعو الانسان اليوم إلى استعادة زمام الحضارة

والاتيان بما يحقق تقدماً جديداً .

يدرس البير كامو فى قصته الأخيرة نفسية سكان مدينة اجتاحها الطاعون ، ثم يسائل نفسه عن خير موقف يجب اتخاذه . من السهل أن يكون المرء تقيا فى عصور الرخاء والرفاهية ، أما الصعوبة فتنشأ عند ما يحاول المرء أن يقيم على ورعه وتقواه فى النوائب والشدائد . فالحل الوحيد هو مقاومة البلاء أشد مقاومة ولو كان هذا البلاء عقابا من السماء أو فترة محتومة من سير الأمور . وإذا كان العالم مصابا كما هو اليوم ، فلا بد للفيلسوف أن يضل إذا ابتعد عن علم النفس المحسوس ؛ فمن حقه أن يكون الطبيب المعالج لهذا المرض .

انقلاب داخل المسيحية : فلسفة الأب تيلار دى شاردان

لم تعد المسيحية تلك الفلسفة الصوفية التى كانت تفصل الانسان فصلا تاما إلى جزأين غير متجانسين : الروح والجسد ، محملة هذا الأخير عبء كل الخطايا واللعنات ، مبشرة الأول بالخلاص والنعمة والمجد . لم يعد الانسان هذا الإله المغضوب عليه الذى سقط من السماء ليعيش منفيا على أرض غريبة . ولم يعد المسيحى يقف نفسه على حياة التأمل ، بل أصبح له وباسم الدين نفسه أن يجارى العصر فى حركته واضطرابه ، وأن يكون فى طليعة التقدم المادى والنهوض السياسى . إنه يشعر بتمسكه بالأرض التى خرج منها شيئاً فشيئا . فهو يَعد العدة ليتيح للانسانية أن تجتاز مرحلة جديدة من مراحل التطور البيولوجى ، ويجعل من الممكن La parousie أو عودة السيد المسيح إلى ملكه ثانية ، كما تنبأت بذلك الكتب المقدسة .

والأب تيلار هو الذى يريد أن يحقق هذا التكيف الضرورى للمسيحية مع العالم الحديث . وهو فى مراجعه واستشهاداته عالم لا رجل لاهوت . والأب تيلار مدير البحوث فى مركز البحث العلمى القومى Centre Nationale de la Recherche Scientifique وهو مدير المعمل فى مدرسة الدراسات العليا بباريس Ecole des Hautes Etudes à Paris ، والمستشار الجيولوجى للحكومة الصينية ، وهو غير ذلك أعظم عالم بيولوجى فى فرنسا . إن رحلاته الكشفية فى الصحراء الغربية وفى الحبشة وفى منغوليا —

حيث استكشف بقايا الانسان الذى عاش قبل التاريخ فى الصين — ساعدته على تكوين نظرية متينة بعد أن جمع كل الوثائق الخاصة بأصل الانسان ، ثم وسع هذه النظرية شأن كل عالم واستخرج منها نظاماً شاملا للكون يتضمن فى الوقت نفسه مستقبل الانسان وماضى النجوم . وهو لم ينشر حتى الآن شيئاً رسميا ؛ فالذين يحيطون بالبابا يكادون يعتبرونه خارجاً على الدين . ومع ذلك فكتاباته المكتوبة بالآلة الكاتبة يقوم على أساسها التعليم فى المدارس الأكليريكية الفرنسية . وهو منذ عام ينشر فى مجلة « بسيشى » *Psyché* سلسلة مقالات عن بحوثه العلمية والفلسفية .

« الاحساس بالأرض » *Le sens de la terre* . إن هذا العنوان العزيز على الأب تيلار يحمل معنى كبيراً . إن للمسيحى بطبيعة الحال مقدرة على إدراك الواقع le sens du réel ، بل إن نفراً متعاقباً من الأنبياء المفكرين يبدأ من أشعياء حتى بسكال ، حاولوا أن يجعلوا الانسان يعرض عن كل ما ليس إدراكا للواقع . غير أن المسيحى مدرك أيضاً للتطور البيولوجى ، ومن هنا فقط يستمد قوته .

لقد دخل الانسان فى طور الصناعة والاجتماع socialisation . ولا تدل هذه الظاهرة على جبروت gigantisme الانسان أو رغبته فى أن يحيا حياة طفيلية ، إنما لها معنى بيولوجى بعيد الأثر . إن السير العام للكون يعرف بنمو الحياة أى بارتفاع قوة الوعى montée de la conscience ، ويؤكد الأب تيلار أنه استكشف القانون البيولوجى الأساسى وهو قانون الإختلاط والوعى Loi de complexité et de conscience . إن الوعى أو الشعور كان دائما موجوداً وهو خاصة عامة ملازمة للأشياء ، غير أنه لا يأخذ فى التأثر إلا عند درجة محدودة . والحياة قد كتب لها أن تعارض المادة ، وهى تنمو بقدر ما تتعقد المادة وتختلط . وانتظام الكائنات الحية انتظاماً آخذاً فى النمو يقابله ظهور الوعى عند الأفراد ونضوجه ، حتى ليمكننا أن نتمثل الكائن الحى مرموزاً إليه باهليج ellipse له بؤرتان إحداهما للوعى والأخرى للاختلاط ، وكلاهما ينمو مع الآخر . ذلك هو القانون الأساسى . وهكذا انسلخت الحياة شيئاً فشيئاً عن الأرض وانفصل الوعى عن الحياة .

وقد بلغت البؤرتان أقصاها فى

الانسان . هل فى الامكان أن يكون هناك ما هو أشد تعقيداً من الانسان ؟ نعم الظاهرة الجماعية Le phénomène social.

ليست الانسانية كومة مجمعة agrégat ولكنها وحدة بنائية تختلف عن الأنواع الأخرى بأنها غير مفرقة أو متباعدة . إن الانسانية كلها تحمل صفات الانسان الفرد الذى هو كائن دماغى يدوى cérébro-manuel : فيده هى فى الوقت نفسه الآلة ووسيلة النقل التى تحدث اتصالا على الفور بين ملايين الأدمغة . ودماغه هو النفسية الكونية psychisme cosmique الناتجة عن تلك العملية ، والانسانية هى أيضاً إهليج ، له بؤرة تنظم فنى organisation technique وبؤرة وعى: وكثرة الطرق الفنية الحاضرة أبعد من أن تكون مصطنعة ، إنما هى استطراد للطبيعة ، بل هى أرق من الطبيعة .

هل وصلت هاتان البؤرتان إلى حدهما ؟ إن المقدرة التى يكتسبها الانسان على الطبيعة لا تكاد تكون محدودة ، فهو يعرف كيف يفصل الذرات ، ويستطيع أن يؤثر فى الكروموزومات Chromosomes التى تحمل الوراثة ، ثم هو يتعقب خفايا اللاشعور بوساطة التحليل النفسانى .. ففى استطاعة الانسانية اليوم أن يحول البؤرة الأولى إلى بؤرة تعقيد واختلاط . فيتدخل عندئذ قانون الارتباط ويحدث ارتفاعا فى النفسية البشرية psychisme humain وهذه الأخيرة على أية حال بدأت تزداد من حيث الكمية والنوع والقوة . وكان التطور قد بلغ مع الانسان أعلى ما يستطيع بلوغه ، فهو الآن يتخذ من الانسان نقطة ابتداء وفى الوقت ذاته ينعكس على نفسه كما لا حظ هكسلى . كانت الحياة حتى اليوم ترتفع متحسسة مترددة ، أما الآن فليس فى إمكانها أن تسير على غير هدى . لابد للانسان أن يضع نصب عينيه هدفا يتجه إليه . ومن هنا تتضح الحاجة إلى مذهب أو فلسفة idéologie وقد سدت الماركسية هذه الحاجة ولكن بطريقة غير وافية ؛ إذ أنها لم تر إلا بؤرة واحدة من الاهليج. فهى تعتبر المجموع المنتظم كل شئ وبذلك تظل مادية . أما المذهب الحقيقى فسيكون روحيا ، ومعنى ذلك أن البؤرة الروحية يجب أن تقود التنظيم الآلى . وهذا المذهب هو المذهب المسيحى . ففى سر التجسد incarnation تقدم لنا المسيحية مركزا إلهيا غاص جزء منه فى العالم ، وعلى

البشر أن يعملوا حتى يطفو المسيح تماماً .

تلك هى أهم النقط فى فلسفة الأب تيلار دى شاردان الذى يعتبر المسيحية فلسفة رقى لا فلسفة يأس ، والذى يرى أن حب الله لا يمنع الثقة بالانسان . ويمكننا أن نلخص هذه الفلسفة بقولنا إن الانسان إذا ملك زمام العالم ملك زمام نفسه . ويجب على المسيحية أن تظهر فى موقف المسيطر المتسلط على المادة . فالوسائل الآلية قد تخلص الانسان بمقدار ما يخلصه تواضعه ، ويكفيه أن يشعر أنه سعى وجاهد حتى النهاية .

ماذا نقول عن مدى تأثير هذه النظرية ؟ إنها لم تعرف بعد إلا فى وسط محدود من الأساتذة والعلماء والأطباء ورجال القانون والسياسة ، الذين اطلعوا عليها عن طريق محاضرات الأب تيلار التى كثر عددها هذا الشتاء فى باريس . وقد استقبلت آراؤه استقبالا رائعا إلا من جماعة الوجوديين أمثال جبرييل مارسيل الذين يحبذون التجربة الداخلية expérience intérieure ويلعنون الحضارة ووسائلها الآلية .

يجب أن نذكر أيضاً ثلاث وقائع فى عالم المسيحية ، تؤكد ما كان للأب تيلار دى شاردان من أثر توجيهى . فمنذ عامين أخذت هيئة كاثوليكية تضم رجال الفكر الفرنسيين وتنتمى إلى اتحاد دولى ، تدرس مشاكل الوجودية فى العلم والحضارة ، كما شرع الأطباء الكاثوليكيون ينشرون منذ الوقت نفسه « كراسات لاينك » *Cahiers Laënnec* وقد خصوها بمسائل الفروض الطبية Déontologie médicale كالاجهاض والتلقيح الصناعى l'insémination والتخلص من المصابين بداء عضال l'euthanasie الخ : إن هذه العودة إلى تعليم أخلاقى محسوس Morale concrète من الأهمية بمكان ؛ لأنها حدثت فى الوقت الذى تمتحن فيه أسس الأخلاق بأزمة شديدة . ثم تكونت أخيراً جماعة الشيوعيين المسيحيين وأصدروا نشرة لتكون أداة اتصال ، يديرها مندوز رئيس التحرير السابق « الشهادة المسيحية » *Témoignage chrétien* وتعتبر هذه الجماعة آخر بادرة لانقلاب مسيحى محتمل الوقوع .

دنيه أنزيو

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

شهرية السينما

حول السينما المصرية

نشرت مجلة « ليكران فرانسيه » *l'Ecran Français* التى تصدر فى باريس مقالا عن السينما المصرية تحت هذا العنوان : « الأفلام المصرية : جرائم ، اغتصاب ، رقص ، غناء » . وقد آثرت أن أتحدث عن هذا المقال لما فيه من حقائق حيناً وأخطاء وتضليل أحيانا . يبدو لمن يقرأ العنوان أن كاتب المقال على إلمام تام بمجال السينما المصرية لأنه تمكن أن يميز إنتاجنا السينمائى بأربع كلمات . فملخص قصص أفلامنا هو خقا : جرائم ، اغتصاب ، رقص ، غناء .

ويبتدئ الكاتب مقاله بوصف منظر فى أحد ستوديوهات القاهرة : فيحدثنا عن زهور بالية وتماثيل متربة تدل على ذوق غير سليم واضطراب لا حد له بين الممثلين والمصورين والمخرجين ؛ ثم عن الفتاة الأولى وقد علت وجهها المساحيق فى مزاج غريب ، وعن الأثاث البالى الذى يشمله النظر .

وقد يكون كاتب المقال على حق حينما يتحدث عن تماثيل تدل على ذوق غير سليم ، أو عن الممثلة الأولى التى لطخت وجهها بالمساحيق . فالذوق فى أفلامنا إن لم يكن معدوما تماماً ، فهو لا يجد إلى الترف سبيلا . أما عن الماكياج فهو لا يزال بدائيا جدا . فممثلونا حتى الآن يغالون فى وضع المساحيق حتى لقد تلمس فى الصورة هذه المغالاة ، مع أن فن الماكياج الآن قد أخذ يميل إلى الاعتدال . ويوجد الآن فى أمريكا من يدعو إلى استعمال المساحيق لابراز ملامح الممثل فحسب .

ويحدثنا الكاتب بعد ذلك عن أفلامنا فيقول إنها أفلام « سقيمة ذات موضوعات عجيبة تكثر فيها حوادث الاغتصاب والقتل والأغانى والرقص ، وذات حوار زرى ضعيف » . وربما كانت أفلامنا تميل إلى تصوير حوادث الاغتصاب والقتل وخاصة أفلام يوسف وهبى بك الذى يقيس قوة القصة وجودتها بعدد الجثث

التى تجمع بعد انتهاء التمثيل . فليس ثمة مأساة تساق إلينا فى الأفلام إلا مأساة فتاة زلت فلفظها المجتمع ، ثم تقضى العمر دون أن تجد إلى الغفران سبيلا . ولكن هناك قليلاً من أفلامنا تبتعد عن هذه المآسى المضحكة لكثرة ما فيها من العنف ، وتجنح نحو التصوير الخلقى للمجتمع المصرى وعيوبه وطرق إصلاحه ، مثل أفلام نجيب الريحانى الذى يعترف له كاتب المقال بمقدرته فنانا . ولكن حتى هذه الأفلام لا تخلو من الرقص والغناء الذى يدخل على حوادث القصة دون مسوغ . فتجد الفتاة الأولى أو الفتى يغنى كلما احتاج إلى أن يعبر عن شعوره . فيغنى حين يكون سعيداً ، ويغنى حين يكون حزينا ، ويغنى أحيانا حين لا يكون سعيداً ولا حزينا ، وإنما يُدفع إلى الغناء دفعاً بقوة خارجة عن الطبيعة ، مع أن المخرج أو كاتب القصة يعلم ما تفقد المأساة من قوتها وحسنها بهذا الغناء أو هذا الرقص الذى يقف الحوادث ولا يساهم فى تطورها . وإذا كان المونولوج الذى يلجأ إليه كثير من مؤلفى المسرحيات ليتيحوا لشخصياتهم أن تعبر عن شعورها وتحللها يزرى بقوة مسرحياتهم ويحد من تسلسل حوادثها ، فالغناء فى الأفلام يزرى بالقصة أكثر من المونولوج لأنه لا يحلل شيئاً ولا يعبر عن شىء ، وإنما وجد ليستر ضعف القصة والحوار .

أما الجمهور المصرى فيقول عنه الكاتب الفرنسى إنه مكون من الطبقة الموسرة من المسلمين ؛ لأن أسعار الدخول فى قاعات العرض مرتفعة جداً . فطبقة العمال والفلاحين لا يعرفون جريتا جاربو أو كلارك جيبل . أما الموظفون والطلاب والطبقة الموسرة — وهم الذين يكونون الأقلية المثقفة — فلا يعرفون عن السينما الفرنسية إلا سيقان فيفيان رومانس ، وأسنان فرننديل الناصعة البياض ، ولا يعرفون عن السينما الأمريكية إلا ثديى بيتى جريبل ، وعن السينما الانجليزية إلا ميلودرام « الرجل ذو الرداء الرمادى » . وإذا كان الكاتب على حق فيما قاله عن قصص الأفلام المصرية أو عن فن الماكياج ، فهو فيما يقوله عن الجمهور المصرى مخطئ كل الخطأ . وربما كان هناك ما يدفعه إلى ذلك . فالجمهور المصرى يعد بينه طبقة مثقفة تزدرى بتى جريبل وتنفر من أفلامها وتمثيلها ، وتقدر فيفيان رومانس كلما تيسر لها التمثيل الحسن ، وتسعى لمشاهدة

أفلام فرنانديل للهو والترفيه ، وتمتنع عن مشاهدة أفلام ريتا هيورث التى لا تفرق بين التمثيل والتهتك . نعم إن هنالك طبقة أخرى لا تسمح لها ثقافتها أن تميز بين الفن الحقيقى والفن المزيف . فكان على الكاتب أن يظهر هاتين الطبقتين ويفرق بينهما وألا يخلط بين هذه القلة المثقفة وسواد الجمهور الذى تعوزه الثقافة . وهو مخطئ أيضاً حينما يقول إن العامل المصرى لا يعرف جرينا جاربو أو كلارك جيبل . فالعامل المصرى يشهد الأفلام الأمريكية كما يشهد الأفلام المصرية . فهو الآن فى مرحلة تطور تجعله يطلب حظا ولو ضئيلا من المعرفة ؛ فهو يميل إلى المطالعة وإلى الذهاب إلى السينما والمسارح والاستماع إلى الراديو . .

ويضيف الكاتب بعد ذلك : إن الأفلام المصرية قدمت إلى هذا الجمهور المسلم ذى العقلية الطفلية طعاماً ملائماً له . واقترحت الحكومة أمام الانتاج المصرى الضخم أن تنقص عدد الأفلام الأجنبية التى تخص مصر ، فترتب على ذلك أن ثار مديرو قاعات العرض وقاطع المصريون الأفلام الأجنبية وألقيت قنبلة فى إحدى قاعات العرض الكبرى . ولست أرى ما تؤاخذ به الحكومة المصرية إذا أرادت أن تشجع الانتاج المحلى كى تتيح له النهوض بواجبه .

وجاء فى المقال أيضاً : لقد لاقت الأفلام المصرية رواجاً كبيراً فى الشرق الأوسط ، إلا أن قيمتها الفنية ضئيلة جدا . والمشرفون على شئون السينما بدل أن يحاولوا تثقيف الشعب وتكوين ذوقه ، يقدمون له قصصاً خرافية ، ودرامات معقدة تنتهى بأعجوبة فى نهاية الشريط . والكتاب موقنون أن قيمة الفيلم تقاس بجمال طلعة الفتى الأول فيهملون السيناريو الذى يضعونه ويقدمون لنا صورة خاطئة من مصر كما يفعل وضعاء كتاب السيناريو فى هوليوود .

وقد حلل الكاتب قصة فيلم « ضربة القدر » التى وضعها وكتبها وحققها ومثلها يوسف وهبى بك . وهى قصة ضعيفة لقيت نجاحاً كبيراً . ثم يتحدث عن « السوق السوداء » فيقول عنها إن الفيلم جيد جداً ولكنه لم يرق الجمهور لأن كثرة هذا الجمهور تعيش من تلك السوق . أما عن المخرج التلمسانى فهو يعتبره فناناً جديراً بهذا الاسم يصطنع دقة فى الاخراج تنفر منها الكواكب المصرية . وقد تحدثت

فى غير هذا العدد عن بعض الأفلام المصرية من حيث القصة ، وتكلمت عن الفنانين الذين يعتقدون أنهم قادرون على التأليف والتحقيق والاخراج والتمثيل فى وقت واحد وما لذلك من أثر سيئ فى إنتاج الأفلام . لأنه إذا كان ثمة فنان أو فنانان فى عالم السينما يستطيعان أن يقوما بهذه المهمات كلها فهذا لا يعنى مطلقاً أن أى شخص يمكنه القيام بها . إذا كان شارلى شابلن وأرسون ولز تمكنا من وضع السيناريو و إخراجه وتمثيل دور فيه ، فهذان عبقريان لا يوجدان إلا فى القليل النادر . وأعتقد أن مثل هذه العبقرية لم تتح لمصر إلى الآن وهى حديثة عهد بصناعة السينما .

ثم ينتقل الكاتب بالحديث إلى فن التمثيل نفسه فيقول : إن كواكبنا يغالون فى إيماءاتهم ويغنون ويرقصون فى كل مناسبة وفى غير مناسبة ، ويعبرون عن شعورهم بأصوات مرتعدة . وهنا لا يسعنى إلا أن أنقل ماقيل عن الأفلام المصرية فى مهرجان كان . لقد رأوا أن صناعة الأفلام المصرية ، صناعة بدائية ، وأن المثلين ينهجون فى تمثيلهم منهجاً مسرحيا محضا . ويؤسفنى أن أعترف هنا أنهم لم يغالوا فى حكمهم هذا ، فأسماء المثلين السينمائيين لم تتغير منذ عشرين سنة : فمنذ نشأة المسرح ونحن نسمع هذه الأسماء . ورأينا السينما حين أنشئت تعيد علينا الأسماء نفسها . وهذا الاهمال يقع على عاتق المنتجين والمخرجين ؛ إذ هم لايعبأون باكتشاف مواهب جديدة . وإذا حاولوا أن يهيئوا الفرص لاظهار وجوه جديدة ، فهم يؤثرون وسامة الطلعة وأناقة الملبس على المواهب الحقيقية . وقد يحدث أن يكون الفتى الأول الجديد ذا مواهب ، فلا يكلف المخرج نفسه عناء إرشاده وتدريبه حتى يتيح لهذه المواهب أن تصقل .

وأخيراً لا يسعنى إلا أن أنقل خاتمة هذا المقال الفرنسى وما جاء فيه من نصح مفيد وإرشادات صالحة : « من المحتمل أن يزداد الانتاج السينمائى المصرى ، ولكن ليستفيد منه سواد الجمهور لا بد أن يزاد عدد قاعات العرض ، وأن يخفض ثمن الدخول فيها ؛ وليتثقف لا بد أن يقدم له أفلام أجود صناعة وأرفع فنا . إن السينما المصرية فى حاجة إلى بعض الفنيين الأجانب وإلى إرسال البعثات إلى أوربا وأمريكا للتخصص فى فن السينما وإلى تغيير آلاتها وعددها ، وإلى أن تستمد من الأدب الشعبى

الغنى موضوعات أكثر طرافة من الموضوعات التى نشاهدها الآن . أما الشركات الأجنبية فعليها ألا تعد الشرق أرضاً صالحة لاصدار الأفلام السقيمة . »

ونرى من هذا المقال أننا فى ميدان صناعة السينما متخلفون عن الأمم الأخرى ، وأن هذه الأمم على إلمام تام بحالنا المزرية . ولست أرى مخرجاً لهذا مادام هذا الفن بين أيدى أناس لا يعبأون إلا بأن يزيدوا من أرباحهم ، وممثلين اتخذوا من التمثيل مهنة مربحة ، وكتاب يستغلون سذاجة جمهورنا ، ومخرجين لا يقومون بمهمتهم الفنية .

لقد شهدت أفلام موسمين متتاليين فلم ألمس أى تقدم فى تلك الأفلام : قصص مملة ، وإخراج مهمل ، وتمثيل مسرحى مضحك . وإذا استمرت هذه الحال فى مصر مات فيها الفن السابع كما مات المسرح .

وليعلم المشرفون على شئون السينما فى مصر أن هناك أمما عربية — أمم إفريقية الشمالية — جادة فى إخراج أفلام ستجتاح السوق الشرقية وتحد من ميدان توزيع أفلامنا .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

ANDRÉ MALRAUX VICTORIEUX DE LA MORT

ETIEMBLE

أندريه مالرو قاهر الموت*

قال والتر بصوت خفيض : «شد ما كنت أخشى الموت فى طفولتى ، وكل عام أدنانى منه ، أدنانى أيضاً من عدم المبالاة به . . . وأظن أن جوبير هو القائل : حين يأتى مساء الحياة فانه يحمل مصباحه معه . »

لم يجب والدى بشئ . كان واثقاً أن والتر يكذب ، وأحس أن الهلع يطفو .

هكذا يكتب كاتب فرنسى فى كتابه *Les noyers de l'Altenburg* وكانت كتبه السابقة تبدو مركزة حول فكرة الهلع من الموت . وكان ولعه بالتغريب l'exotisme وبالحب المريض وبالبطولة تجارب مر بها تباعاً أو فى وقت واحد ليقهر فى نفسه فكرة الموت . « ما الذى يملك علىّ فكرى ككاتب منذ عشر سنوات غير الانسان ؟ » . وهو على صواب فى أن يضع ذلك السؤال الذى يحمل بين طياته إجابته . ذلك بشرط الانتسى أنه يعرف الانسان بأنه « الحيوان الوحيد الذى يدرى أن لابد من الموت » .

قد تبدو مثل هذه الفكرة المستولية عليه غريبة لدى الشعوب التى يوائم إيمانها أو حكمتها بينها وبين طبيعة الحياة . وتقول أيضاً الشخصية التى ينطقها مالرو بآرائه الحالية و بما يحسه و بما يعشقه : « أنا آت من آسيا الوسطى . إن حياة المسلمين هى مجرد مصادفة فى مصير الكون : إنهم لا ينتحرون مطلقا . » وسأذكر عبارة لبرجيه Berger دون أن أبحث إلى أى حد قد تصححها فلسفة الاسلام وعقيدته واجتماعه . المهم فى هذا الصدد هو أن مالرو لا يخفى أمنيته بأن يواجه

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

الخوف من الموت ، كما يفعل الأفغان ، بإيمان من يثق أنه مقدر أو مكتوب . ومهما ابتعد مالرو عن المسيحية ، ومهما وجد فى العلم والعمل من تلهية تصرفه عن أفكاره القاسية ، فانه قد بقى من رجال الغرب ، ولم يستطع أن يمحو من نفسه ما تأثر به فى طفولته من صور الجحيم وألوان العذاب الذى يلقاه المرء فيه . لقد بقى متأثراً بالدين فى طفولته كما كان أرتور رمبو A. Rimbaud الذى كان يسخط هو أيضاً على الموت : « لا مسوغ مطلقا لأن تسلب منا الحياة بعد إذ منحناها . »

ولكنا نرى فى آخر كتاب اسمه *Les Noyers de l'Atlenburg* — وهو الجزء الأول من قصة سيكون عنوانها العام « الصراع مع الملك » *La lutte avec l'ange* — أن القاص الذى ما زالت تحيا بين جوانحه آراء والده وشهواته (وهذا الوالد هو الذى تسرد الأبواب السابقة قصة حياته) ، رئيس لدبابة وقعت فى حفرة . وتجرى الدبابات الفرنسية فى سهول الفلاندر حول تلك الدبابة المتردية التى ينتظر رجالها رحمة الله : « الصفير . . . لم نعد نحس برءوسنا . انفجرت قذيفة مدفع على بعد ثلاثين متراً خلفنا ، انطفأ النور . جفت أجسادنا ونحن فى انتظار القذيفة الثانية ، لا ننتظر انفجارها ولا صفيرها ، وإنما ننتظر انطلاقها ، وننتظر سماع صوت الموت نفسه . . . لم أعد أنصت إلى شئ : ستأتى القذيفة وشيكا ، لأن الموت داخل السيارة المصفحة . »

وبعد كثير من الهلع ومن الجهد تخرج السيارة المصفحة من الفخ الذى تردت فيه . وكان التعب قد أخذ من رجالها كل مأخذ فتساقطوا على القش فى أحد البيادر ليناموا . وأقبل صباح اليوم التالى : « فى هذا الصباح لا أنظر إلى شئ بعين الغريب . الدجاجات تجول ، كأنها تجهل الحرب . الحيوانات حية على هذه الأرض العجيبة . . . ثم مر قط مروراً مفاجئاً ناعماً ، فاذا بى أستشعر الدهشة لوجود هذا الحيوان . . . فما الذى أصيب بالدهشة فى نفسى ؟ إن شعورى الثابت منذ استيقظت هو شعور الدهشة أن يعيش الكلاب على ظهر هذه الأرض المليئة بالآلات ، فتعمل عمل الكلاب ، وتعيش القطط فتعمل عمل القطط ! »

ومن أعمق أعماق الانسان ، وهو الحيوان الوحيد الذى يدرى أنه فان ، من أعمق أعماق الهلع الانسانى أمام الموت الذى كان بالأمس مؤكداً ، يصبح القاص — وقد أدهشته قوة

الحياة المستمرة كأن لم يحدث شئ من قبل — صيحة خلاصه البطئ : « أيتها الحياة القديمة ما أصلبك وما أعندك ! » وما زال مشفقا من أن ينتصر الفزع ومن أن يسمم ذلك الفرح الذى لم يولد إلا منذ قليل . ولكن كلا : « لست فى هذا الصباح إلا ميلاداً . . . ها هو ذا ضوء النهار يبرز من ظلمات الليل » ، فيرى فلاحين مسنين على مقربة منه لم يهربا من الحرب . إنهما ينظران إلى الموت نظرة تسامح ، « يا له من إغضاء عجيب وانكسار فى طرف العين ينم عن السخرية!! » إن مالرو يدرى الآن « معنى الأساطير القديمة التى تقص قصص المخلوقات التى انتزعت من الموت » ؛ فهو لا يكاد يذكر الهلع .

وما يحمل فى نفسه إلا ما كشفه « من سر بسيط مقدس » . فى ذلك الصباح يرئ مالرو من الموت ، وقبل الحياة ، الحياة كلها من الولادة إلى الموت . وربما كان هذا سبب تخلص هذا الجزء الأول من كتابه « صراع مع الملاك » مما اعتدنا أن نراه لدى مالرو الثائر على مصير الإنسان من فساد فى الأحاسيس والأخيلة التى كان يركزها ، فكأنه كان ينتقم من ذلك المصير . على أن هذا الجزء قد احتفظ بما نعهده فى كتبه السابقة «القاهرون» ***Les conquérants*** و «المصير الانسانى » ***La condition humaine*** من توتر وحزن ورومانطيقية عنيفة أحياناً .

حقا إن المرء ليختنق حينما يقرأ الفصل الذى كتبه عن الهجوم بالغاز الخانق . ولكن هذا الفصل قد برئ من التعقيد الذى يلازم الكتابة عن الحب المريض . ولقد عبر روجيه كايوا **Caillois** عن ذلك خير تعبير إذ قال : « لم يفقد مالرو شيئاً من شدته التى اعتدناها ، ولكن يبدو أنه هو أيضاً قد انضم إلى جانب الحياة وأنه قد سار فى اتجاه الناس . لم يعد ينظر نظرة رضا إلى العنف الفاسد الذى يبدو أنه ضد أبسط نظام فى الكون . لقد أصابه هدوء نبيل ، فأضفى على كتبه عظمة جديرة بالاعجاب لم تصل إليها كتبه السابقة المحمومة الثائرة إلانادراً . لقد كان يؤمن بفكرة خاطئة انتشرت فى ذلك الزمن ألا وهى أن منابع اللذة الجسدية والقسوة تستمد ماءها من طبقة بعيدة الغور لا شئ بعدها . »

ولقد بقى فى الظاهر متعلقاً بذلك التغريب **L'exotisme** الذى عده البعض من أهم مميزاته . ولكن أهو تغريب تلك الكتابة عن ثورة تركيا الفتاة واستيلاء الشاب أنور باشا على الحكم

ثم تلك الرحلة السريعة إلى الأفغان ؟ (ومن السهل أن نثبت أن الصينيين فى كتابات مالرو ليسوا صينيين بالمعنى الحقيقى ، وإنما هم صور متعددة لنفس هذا الكاتب .) نعم إن بعض الصفحات تذكرنا بشاتوبريان Chateaubriand مثل : « وعند هبوطه من بامير حيث الإبل الضالة تتنادى خلال السحب عند عودتها من رمال الجنوب حيث ترى فى أحراج الشوك الصراصير الضخمة التى ترفع قرونها فوق رءوسها الشبيهة بخوذات الفرسان ، أتى بلداً فى لون رميم العظام . وكان هناك فرسان مهلهلو الثياب ، وكأنهم يحلمون تحت باب من الفخار والخشب . وكانت رءوس الخيل وعظام الأسماك المتحجرة تلمع بين الدور المحجبة كالنساء فى رمال الطريق الذى تكتنفه دور لا نوافذ لها . لا ورقة فى خارجها ولا أثاث فى داخلها ، ليس هناك إلا الجدران والسماء والله . » ولكن مثل هذه الصفحات لا تعتبر بالقياس إلى من يعشق آسيا من الأدب التغريبى exotique .

ولن ندهش إذا استمر مالرو فى بحثه وراء البطولة بعد إذ قهر الخوف المسيحى . فما دام المرء يخشى الموت فان السبيل الأوحد لتقبله هو أن يخلق المرء موته ، وأن يجعله أروع ما يمكن وأسهل ما يمكن تجرعه . كانت البطولة حاجة فأصبحت شجاعة بعد أن هزم الهلع .

ومنذ انفصل مالرو رسميا عن أولئك الشيوعيين الذين كانوا يشتبهون فيه دائماً ويتهمونه حيناً بأنه من أتباع تروتسكى ، وحيناً آخر بالفردية الفوضوية أو بأنه من أنصار الفكر ، فان منشوراتهم الرسمية — وكانت قد سكتت عنه حتى ذلك الوقت — أخذت تفسر انفصاله بدوافع كل منها أشد نكراً من الآخر . لقد قال مالرو : إنه يجب الا نحكم على الناس بما يبدو لنا من جانبهم الخسيس . أما أنا وقد عرفته وأحببته وأعجبت به منذ خمسة عشر عاماً فانى لم أدهش قط حين رأيته يرأس فى سنة ١٩٤٥ الائتلاف الذى كان ينتظم وقتئذ عدة جمعيات يسارية معادية لوسائل الشيوعيين ولمذهبهم الأخلاقى . وكنت أحس دائماً أن لديه عنهم أشياء لا يبديها . وكيف لا يستطيع من عقد الصلح بينه وبين الحياة ألا يتقبل القصد والاعتدال ؟ وإنا لنعرف أنه قد رضى أن يخدم الجنرال دى جول فكان وزيراً للأخبار فى وزارته ، ونعلم أيضاً أنه اليوم وجاك سوستيل

J. Soustelle يمثلان حركة التجمع الشعبي فى فرنسا Rassemblement populaire وأولئك الذين تقلقهم مثل هذه الجماعة السياسية التى لم تنتظم حتى اليوم إلا أعداء طبقة العمال سيترددون رغم ذلك فى اتهام مثل هذه الحركة بالفاشية . ذلك لأن رجلا مثل مالرو قد رضى أن يمنح اسمه وسمعته لها . إنه ليعترف برغبتـه « القوية فى أن يترك لنفسه أثراً على الأرض » (وهذا دليل على أنه لم يبرأ تماماً من داء الفناء). ولكن أليس مجده الأدبى كافياً ليترك له أثرا على الأرض ! إنه ليؤمن بأن « الوقت متأخر جدا اليوم ليحاول المرء التأثير فى شئ ما » ويؤمن كذلك « بأنه يجب منذ الآن أن يحاول المرء التأثير فى شخص ما » (هل ذلك الشخص هو دى جول؟) ولنذكر — إلى أن يثبت عكس ذلك — أن مالرو قد كان دائماً إلى جانب المظلومين ضد الظالمين ، وأنه قد قاتل فرنكو حين تطوع فى الطيران الجمهورى ، وأنه نظم بفرلسا حركة مقاومة مهمة قبل أن يرأس فرقة الألزاس واللورين . وبدلا من أن أتهمه بأنه صنيعة قلم الجاسوسية الانجليزية Intelligence Service أو بأنه متآمر مع جماعة التروتسكيين الفاشيين ، فانى أفضل — إلى أن يثبت عكس ذلك — أن أعده رجلا قد قبل الحياة وأنه قد قبل أيضاً :

ذلك الجدول القليل الغور الذى أسيئت سمعتـه ، ألا وهو : الموت . »

ايتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

من وراء البحار

السياسة الخارجية الأمريكية

لعل وصف مستر جو ألسوب لسياسة الولايات المتحدة الخارجية ، الذى نشره فى عدد أكتوبر من مجلة « هوريزن » ، هو خير تحليل قرأناه عن هذه السياسة فى الأشهر الأخيرة ؛ فهو يقول إن أداة السياسة الأمريكية الخارجية هى أداة معقدة كثيرة المتناقضات ، وإن الرجال الذين اعتادوا أساليب السياسة الأوربية يجدون صعوبة كبيرة فى فهم السياسة الأمريكية ، وإذا فتح الله عليهم بفهمها فانهم لا بد أن يشعروا بصدمة للطرق السياسية التى تتخذ منعرجات عجيبة . بل إن الأمريكيين أنفسهم لا يفهمونها إلا إذا كانوا على علم بالعلاقات المتعقدة الكثيرة التعاريج بين البيت الأبيض والبرلمان والرأى العام ؛ وكانوا على علم بالتاريخ الوطنى ، والعوامل الجغرافية ، وسير الحوادث العالمية ، وهى التى تبنى عليها السياسة الأمريكية .

لهذه الأسباب نجد اتجاهاً يكاد يكون عاما للنظر إلى السياسة الأمريكية بعين الماضى ، وتجاهل التغييرات الكبيرة التى طرأت على هذه السياسة فى السنوات الست الأخيرة . ولكن هذه التغييرات هى التى تجعل من المحتمل ، وإن كان من غير المؤكد ، أن تتبع الولايات المتحدة الآن سياسة دولية إيجابية وتامة وتقدمية ، بقدر ما تتطلبه الأحوال الشديدة الملحة التى قامت فى العالم فيما بعد الحرب . ولكى نفهم لماذا كانت مثل هذه السياسة مستحيلة فى الماضى ، ولماذا كان أكبر زعماء أمريكا وهو فرانكلين دلانو روزفلت لا يستطيع قيادة شعبه مطلقاً بل كان دائماً يداور ويلعب دور المحتال فى الفترة السابقة على الحرب ، يجب أن نضرب مثلا بحادث واحد : ففى آخر اجتماع للبرلمان الأمريكى فى دورة سنة ١٩٣٩ ، كان متوقعاً أن يوافق مجلس الشيوخ على إلغاء قانون الحياد على أنه ضرب من الانذار لهتلر ، إذا أمكن إقناع المجلس بأن هنالك خطراً من وقوع حرب . وكانت الجلسة التى

أثير فيها هذا الموضوع خطيرة ، وأذيع فيها عن مستر جاى جيليت ، النائب عن ولاية يوها ، أنه قضى ليلة كاملة وهو راكع ، يسأل الله القدير أن يلهمه الجواب . ومع ذلك طغى على هذا المتعبد نفوذ مستر وليم بوراه عضو الشيوخ عن ولاية إداهو . فان بوراه وحده استطاع أن يقنع مجلس الشيوخ ، بما فيه مستر جيليت ، بأن الحرب لن تقع ، وحاول روزفلت محاولة أخيرة لكى يحمل أعضاء الشيوخ على تأييد وجهة نظره لالغاء قانون الحياد ؛ فدعى مستر بوراه وغيره من الأعضاء البارزين من الحزبين الغالبين إلى اجتماع ليلى فى البيت الأبيض ، وحاول هو وكوردل هل أن يصفا فى تفصيل وفى جد عميق ، الخطر الفظيع الذى كان عندئذ جاثماً فوق العالم بأجمعه .

وعندما انتهى مستر هل وزير الخارجية من تفصيلاته ، أخبره مستر بوراه فى برود بأنه لا يحترم كثيراً آراء وزارة الخارجية ، وأن من عادته أن يجمع معلوماته بنفسه ، وأن المصادر التى يعتمد عليها كل الاعتماد تؤكد أن الحرب لن تقع . وانتهى الاجتماع فى شىء من الاضطراب لأن مستر هل ، الذى كان يسير فى شيخوخته ، عندما رأى هجوم زميله السابق ، بكى حنقاً وأسفاً على خيبة آماله . وحدث بعد ذلك بقليل عندما عرف ما كان فى هذا الاجتماع ، أن جرؤ أحد الكتاب وسأل بوراه عن مصادر أخباره ، فأجاب بوراه فى بساطة متناهية أنه لكى لا يقع فى أحابيل وزارة الخارجية الأمريكية ، اشترك فى مجلة «الأسبوع» الانجليزية ، وقال إن هذا الاشتراك كان مفيداً جدا ، وأنه اقتنع من الجريدة بأن حكومة تشمبرلين تعد تسليما آخر فى مسألة بولونيا ، كما فعلت فى ميونيخ ، وحين أنبئ بأن هذه المجلة يحررها عضو من الحزب الشيوعى البريطانى لم يبد اهتماماً يذكر.

ومع ذلك لم يكن مستر بوراه تافهاً ولا غبيا ولا شريراً ، ولقد كان نفوذه سيئاً على العلاقات الخارجية الأمريكية ولكنه باعتباره فرداً من الأفراد كان رجلا كبيراً وشجاعاً ووطنيا . وهذا التناقض بين نفوذه السيئ وصفاته الكبيرة كان سببه بسيطاً جدا . ذلك أنه يمثل فى نفسه الصفتين البارزتين فى أعضاء البرلمان الأمريكى ، وهما اللتان حالتا دون أن تكون السياسة الأمريكية الخارجية مفهومة إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية . وأولى هاتين الصفتين هى حرص أعضاء البرلمان على المحافظة على استقلالهم من الهيئة التنفيذية . وقد

ذهب الأعضاء فى هذا الحرص إلى حد أنهم يؤثرون أن يظلوا على جهل بالأمور على أن يلتجئوا فى استقصاء معلوماتهم عن الأمور العالميـة من مصادر الهيئة التنفيذية . والصفة الثانية هى الحرص على الاحتفاظ بالنظرة الاقليمية . ولقد كان هذا الحرص بارزاً فى حالة مستر بوراه حتى لقد كان يرفض السفر إلى الخارج ، زاعماً أن السفر قد يدنس سلامة أحكامه بصفته الخبير الأول فى الأمور الخارجية بمجلس الشيوخ ! وهاتان الصفتان يفهمهما كل من عرف أمريكا منذ بضع سنوات ؛ فهذه النظرة الاقليمية كانت تمد جذورها فى السعادة والأمن ، اللذين كانا يجدها الأمريكيون من الطبقـة المتوسطة المسيطرة قبل أن حطمت الحرب هذا النوع من التفكير . وكانت الريبة التى يظهرها أعضاء البرلمان فى الهيئة التنفيذية هى نتيجة حتمية للفصل التام فى أمريكا بين السلطتين التشريعية والتنفيذية .

ويجب على الذين يبحثون عن مستقبل السياسة الأمريكية الخارجية أن يقدروا أمرين هامين حق قدرهما : الأمر الأول أن الصفتين اللتين ذكرناها من قبل أصبحتا غير متسلطتين . وربما كان كل أمريكى عاقل يشعر بحنين طبيعى إلى الماضى البسيط حين كانت التبعات الوطنية أقل عبئاً وتدخلا فى الحياة ، ولكن الحرب العالميـة الثانية قد أقنعت السواد الأعظم بأن التنحى عن التبعة هو أفدح أنواع الجنون ثمناً . ولا يزال كل عضو فى البرلمان يحتفظ بكراهية طبيعية للهيئة التنفيذية بتفرعاتها الواسعة الغامضة . ولكن الحرب العالمية الثانية أحدثت تغييراً دستوريا كبيراً ؛ إذ أقامت جسراً بين السلطتين التشريعية والتنفيذية . ورمز هذا التغيير هو السير على سياسة خارجية يوافق عليها الحزبان المسيطران فى أمريكا . فقد وجد رئيس الجمهورية ووزارة الخارجية وسـيلة لذلك، بأن اعتبرا مستر أرثر فاندنبرج عضو الشيوخ عن ميتشيجان ، ومستر توم أوكونالى عضو الشيوخ عن تكساس ممثلين لمجلس الشيوخ ، فتمكنا بذلك من الاتصال بهما سرا واستشارتهما ، وبذلك يمكن الوصول إلى قرارات يقرها أعضاء البرلمان .

أما الأمر الثانى الحيوى فهو بسيط جدا ، وهو أنه بالرغم من اختفـاء مظاهر الإقليمية السياسية ومظـاهر الريبة فى الحكومة بين أعضاء البرلمان فان هذه المشاعر لم يقض عليها تماماً . وهذان الأمران هما مفتاح ذلك اللغز

الغامض فى السياسة الأمريكية ، وتأثير الظروف العالمية فيها من نهاية الحرب إلى الآن .

بالرغم من الاشاعات الكاذبة التى أذاعها بعض ذوى الأغراض بين الجهلاء عن الرئيس روزفلت قبل نهاية الحرب ، فلقد كان عازماً على اتباع سياسة وطنية كالسياسة التى سار فيها ترومان وبيرنز وفاندنبرج ومارشال . وقد عرف فى البيت الأبيض قبل وفاة الرئيس روزفلت بشهور أنه يفكر فى سياسة « إجارة وإعارة من أجل السلم » ، ومعنى ذلك سياسة تشابه ما يتخذ الآن من معاونة لليونان وتركيا ومقترحات مارشال من أجل أوربا . ولقد قر رأى روزفلت على هذا البرنامج بالرغم من صعوبته وكلفه وعدم هضم الرأى العام له ؛ لأنه كان يفهم تماماً أن العالم سيشهد صراعاً بين الهيئة الاجتماعية الغربية والهيئة الاجتماعية السوفييتية.

وكانت نقطة التحول الحقيقية لدى روزفلت هى مؤتمر يلتا ، وما أقدم عليه الاتحاد السوفييتى من خرق ظاهر للاتفاقات التى تمت فى ذلك المؤتمر فيما يختص برومانيا . فقد ظل روزفلت حتى تلك اللحظة — ولو أنه كان شاعراً بطبيعة النظام السوفييتى — يقبل العبارة التى شاعت أثناء الحرب ، وهى القول «إن كلمة ستالين يمكن الاعتماد عليها » . ولكن بعد نقض الاتفاقات صار روزفلت يبدى لأخصائه أن صبره قد نفد ، وأن مفتاح معاملاته فى المستقبل مع رجال الكرملين سيكون استعمال الشدة . وكان يفسر اتفاقات يلتا تفسيراً حرفيا ، ولم يقبل امتداد الامبراطورية السوفييتية فى شرق أوربا ولم يعتبرها حادثاً تم .وكان عازماً على أن يصر على أن يفى ستالين بوعوده نحو استقلال بولونيا ورومانيا وبلغاريا والمجر . وآخر ورقة رسمية كتبها كانت عبارة عن صورة رسالة شديدة إلى الدكتاتور السوفييتى بشأن المسألة البولونية . وقد اطلع ونستون تشرشل على فحواها فوصفها بأنها فصيحة وقوية. وأعرب روزفلت مراراً فى رسائله إلى تشرشل فى الأشهر الأخيرة من حياته عن خيبة أمله فى حكومة السوفييت ؛ وأوضح أنه راجع سياسته فى ضوء البراهين التى أثبتت أن كلمة ستالين خاضعة لسياسة الواقع بقدر خضوع المسائل الأخرى فى الاتجاه السوفييتى .

وقد يكون من الشائق أن نفكر فيما يحدث لو أن رئيس الجمهورية العظيم لم يقع فريسة للمرض . فقد كان

من جهة على علاقات سيئة للغاية مع البرلمان الأمريكى ، ولم يكن يعرف قط كيف يداريه ، ولا بد أنه كانت تحدث أزمة دستورية حول السياسة الخارجية تبتدئ بمجرد استسلام اليابان . ومن جهة أخرى كانت مكانته فى الخارج عظيمة بحيث كان لا بد أن يحرز النجاح على مائدة المؤتمرات ، حيث أخفق ترومان وبيرنز وفاندنبرج ومارشال . ومن المؤكد أيضاً أنه لو عاش،لعاد الوغد الذى وصفته جريدة برافدا الروسية حين كان هتلر وستالين متفقين .

ومما يدل على ما كان يجده روزفلت من عقبات فى تنفيذ سياسته ، أنه عند وفاته لم يكن نائبه يعلم بأغراضه وما يدور فى خلده . وكانت أول مرة علم بها هارى ترومان بما وصلت إليه الأمور إنما كانت بعد توليه الرياسة ، فى اجتماع عقده بحضور هارى هوبكنز ووزراء الخارجية والدفاع والبحرية ؛ فاتخذ قراراً بأن يتصرف كما يتصرف روزفلت لو كان حياً . وهذا هو الغرض الذى رمى إليه فى تقريعه لمولوتوف بشأن بولونيا ، عندما زار وزير الخارجية السوفييتية البيت الأبيض فى طريقه إلى سان فرانسسكو . ولكن ترومان غير روزفلت ، ولم يكن البرلمان الأمريكى ولا الرأى العام الأمريكى مستعدين لتأييد سياسة قوية ، ولا مستعدين لامداده بالأموال والسلطة التى لا تكون الكلمات القوية بغيرها إلا مجرد صيحة فى الهواء . لذلك كان تولى ترومان لرياسة الجمهورية بدء عصر فى السياسة الخارجية ظهر أثره سريعاً فى خطوة لم يحسن التفكير فيها هى إلغاء الاجارة والاعارة .

كانت المسألة الكبرى التى يجب على ترومان علاجها هى حقيقة السياسة السوفييتية . ومن المحقق أن سياسة الولايات المتحدة منذ تسليم ألمانيا كانت تقرر لمقابلة سياسة السوفييت ؛ وهذا شأن الدول الأخرى ، فالولايات المتحدة وبريطانيا لا ترغبان رغبة صادقة إلا فى الاشتراك على قدم المساواة فى إقامة نظام عالمى . والواقع أن الأمريكيين لقلة تجاربهم كانوا أكثر اعتماداً على هيئة الأمم المتحدة ، كعلاج دائم ، من شعوب بريطانيا والأمم الغربية . ولم تتحول أنظار أمريكا عن واجب التنظيم الدولى إلا بتحدى السوفييت وإصرارها . ولقد كانت أمريكا فى بادئ الأمر ووزارة الخارجية الأمريكية يعتبران محاولة الكرملين القبض على السلطة فى مؤتمرات الصلح

والاعتداء السافر على إيران أنها مجرد سوء تدبير ، ولم تقبل هذا التحدى إلا بتردد كبير وبعد مضي وقت طويل.

ولقد بدت حقيقة السياسة السوفييتية من عالم الخفاء حتى قبل هزيمة اليابان . فقد أخذ السوفييت ينبذ كل الوسائل للتعاون الدولى فيما عدا الاشتراك فى هيئة الأمم المتحدة ، وعمل للقضاء على كل وسيلة جديدة من هذا التعاون . وكان الخبيرون ببواطن الأمور يستطيعون عندئذ أن يتنبأوا بأن رجال السوفييت سوف يستعملون حقهم فى نقض قرارات مجلس الأمن ، وأنهم سيقاومون الجهد الذى يبذله العلماء للسيطرة على أمور الطاقة الذرية . وكان هذا الامتناع عن التعاون مظهراً واحداً من مظاهر السياسة السوفييتية . والمظهر الآخر هو محاولة استغلال الفوضى التى تعقب الحرب باحتلال كل المواضع الاستراتيجية التى فى متناول قواتهم الحربية أو تسربهم السياسى .

ولكى يمكن الحكم على أعمال الرئيس ترومان فى تلك الفترة يجب أن نقدر بعض الأمور ؛ فهو لم يكن قد تخلص بعد من الروح الاقليمية فى سياسته ، وكان يواجه البلاد والبرلمان ، وكلاهما يعتقد أن الأحوال العادية ستعود سريعاً إلى العالم . وهذا هو تفسير ما وقع فيه من أخطاء كبيرة مثل إنهائه لنظام الاجارة والاعارة . ومع ذلك فانه اتخذ خطوات إيجابية بقدر الامكان فى أن أصر على تقديم أكثر ما يمكن من وسائل الاعانة ، ومنح الحكومة البريطانية أسخى قرض يمكن أن ينال عليه موافقة البرلمان الأمريكى ، وأيد بيرنز فى موقفه الجديد نحو السوفييت الذى يتلخص فى وصفه بأنه الصبر مع الثبات . وأقدم بلا تردد على تأييد بريطانيا سياسيا وأدبيا فى مشاكلها كأزمة طرابلس وإيران . ويمكن أن يقال بالاجمال إنه قابل تحدى السوفييت بسياسة تحمل تبعات محددة .

ومن الطبيعى أنه ما دامت تبعاته محددة فانه اعتمد على بريطانيا كى تقوم ببقية العمل ، ففى كل مناطق أوربا وآسيا ، عدا ألمانيا والصين وكوريا واليابان ، كان الأمريكيون بعيدين عن أن يكونوا فى موضع الخطر ، على حين كان البريطانيون مقيمين هناك . وكان هجوم السوفييت موجهاً إلى أماكن تهم دائماً بريطانيا أكثر من الولايات المتحدة ، فكان العبء الذى تحملته بريطانيا غير عادل ، ولا يتناسب مطلقاً مع

مواردها التى كادت تقضى عليهـا الحرب . وكان أمر كبار الموظفـين الأمريكيين عجيباً فى الثمانية عشر شهراً التى تلت الحرب ؛ فهم من الوجهة العقليـة يعلمون أنه لا بد للولايات المتحدة أن تتحمل شطراً أكبر من عبء المشاكل الدولية ، ولكنهم من الوجهة العاطفية كانوا يتجنبون هذا التحمل . ولكن هذه الحالة لا تدوم فقد تحطمت فجأة عندما قرر مجلس الوزراء البريطانى فى فبراير سنة ١٩٤٧ أن تصفى بريطـانيا مسـئولياتها الاقتصادية فى اليونان وتركيا .

كان ذلك القرار نهاية تحمل المسئوليات المحددة ؛ إذ كان على الرئيس ترومان ومن حوله أن يختاروا بين دخول اليونان وتركيا فى النهاية فى منطقة نفوذ السوفييت ، وما يكون لهذا الحادث من نتائج بعيدة ، وبين اتخاذ سياسة نشيطة إيجابية غير محددة المسئوليات ، تنطوى على مشاكل عظيمة فى السياسة وفى التنفيذ . ولم يكن لهذا الموقف مثيل من قبل ، حتى لقد أوجد اضطراباً فى أوساط الحكومة . ولكن الشجاعـة هى أبرز صفات ترومان ؛ فلم ير أمامه إلا طريقاً واحداً فدعا زعماء البرلمان إلى البيت الأبيض وأوضح لهم خفايا الأمور ، وطلب منهم أن يوافقوا على سياسة أمريكية جديدة . وما أشبه هذا الموقف بالموقف الذى ذكرناه فى سنة ١٩٣٩ ، وكان فاندنبرج فى هذه المرة يرتدى حـلة بوراه ، غير أن ترومان لم يكن كيساً فى وصفه ، بل أوضح الأمور فى خشونة. ومن هذه اللحظة حدث تطور فى السياسة الخارجية الأمريكية ، وتم الاتفاق عليها بين الرئيس والبرلمان والشعب .

من هذه اللحظة كان التحول فى سياسة أمريكا قويا . ولقد نصح بعض مستشارى ترومان له بأن يواجـه البرلمان بالقـول إن على الولايات المتحدة واجباً من أكبر الواجبات فى جميع أنحـاء العالم ، وأن يطلب السلطات اللازمة لذلك والأموال التى تعد بالبلايين من الدولارات لهـذا الأمر الهائل . ولكنه لو فعل لهبت المعارضات القديمة مما يؤدى إلى انقسام الشعب . لذلك اكتفى الرئيس بطلب المال والسلطة للعمل فى اليونان وتركيا فقط، واتخذ فى الوقت نفسه هذا الطلب لشن حملة ألفاظ شديدة على السوفييت .

الواقع أن ما حدث فى اجتماع البيت الأبيض كان أكثر تمثيـلا للمبادئ التى يريد الرئيس ترومان

السير عليها ، وأكثر شرحاً لأغراضه مما قاله فى البرلمان الأمريكى . فلم تكن المناقشة فى ذلك الاجتماع مقصورة على اليونان وتركيا بل كان من موضوع المناقشة العبء الهائل الذى يقع على عاتق الولايات المتحدة ، ويحملها تبعة عالمية بسبب مركزها الجغرافى وثروتها وتعداد سكانها ، وحالة الأمور العالمية . وكان القرار الذى اتخذ هو العدول عن تحديد التبعات الذى لم يثمر وتحمل الواجبات الذى يقتضيه مركزها بصفتها دولة عظمى .

والآن يمكن من هذه القرارات أن نستخلص صورة لما ينتظر أن تكون عليه سياسة الولايات المتحدة فى المستقبل . ومن الواضح أن السنين القادمة ستقضى على أمريكا ببذل مجهودات ونفقات مختلفة فى جهات مختلفة . وفى كل مرة يجد موقف جديد سواء أكان هذا الموقف فى غرب أوربا أوالشرق الأوسط أو الشرق الأقصى ، سنجد مناقشات وتردد وتعاسة فى وشنطن . ولكن فى كل وقت لن تجد الحكومة والبرلمان والشعب مناصاً من السير فى السياسة التى بدأوها ، ولا بد من العمل بعد أن تهبط حماسة المناقشات .

ويمكن تحديد سياسة الولايات المتحدة بأن لسياستها الخارجية أغراضاً لها حد أدنى وحد أقصى . فالحد الأدنى هو الثبات السياسى والاقتصادى فى المساحات بين العالم ذات الأهمية الخاصة ، ويكون ذلك بالاستعمال الانشائى للموارد الأمريكية ، وبذلك يقف التوسع السوفييتى عند ما هو عليه الآن . وهذا ما يوافق مصلحة أمريكا و بريطانيا معاً . والحد الأقصى لأغراض أمريكا هو إيجاد هيئة عالمية يمكنها حل جميع المشاكل بين الدول بطرق سلمية ، وهذا فى مصلحة الأمم جميعاً . ومن رأى السياسيين الأمريكيين أنه لا يمكن بلوغ المرمى الأكبر إلا بالحصول على الحد الأدنى ، فأحد الأمرين يعد للآخر .

ولكى نفهم هذه المسألة يجب أن نعرف وجهة نظر أمريكا فى تحليلها للسياسة السوفييتية . فمن الواضح أنه لا يمكن الاعتماد على الهيئة الدولية ما دام رجال الكرملين يعارضون فى التعاون الدولى و يرغبون فى التوسع الوطنى الروسى . على أن هذه السياسة السوفييتية ترجع إلى مصدرين : أولها ارتياب الكرملين فى العالم الخارجى ثم تعلق الكرملين بنظريات أنبياء الشيوعية . فهؤلاء يقولون إن كل مالا يسير على نظام السوفييت يسير

على نظام الرأسمالية . وهذه الرأسمالية مقـــدر لها حرب الطبقات والفوضى والتنازع الاستعمارى . فالرغبة التى يجدها رجال السوفييت فى التوســـع تقوم على عاملين : الاستفادة من هذه الفوضى ، وإقامة سدود دونها . ولا يغرب عن ذهننا أن الامبراطوريات العظيمة تألفت بدوافع الخوف والجشع.

ولـكن يجب ألا ننسى أن هنالك اختلافاً حقيقيا بين عالم السوفييت وعالم غير السوفييت ، وأن سياسة السوفييت قائمة على هذا الخلاف . وفى هـــذه الأحوال توجد وسيلتان لعلاج هـــذه الحالة : إحداهما أن تحاول الولايات المتحدة وبريطانيا استرضاء السوفييت، ولـكن أمريكا اختارت طريقاً أكـــثر فائدة وهو إظهار خطأ استنتاجات السوفييت بحيث لا يبقى سبب لهـــذا الخلاف .

ولقد تم هذا الاختيار أثناء الأزمة الايرانية ، ولقد نادى هنرى ولاس وأحزابه بوجوب العطف على السوفييت، وكان رجال الـكرملين ينتظرون أن يتغلب هذا الرأى . ولـكن ترومان وبيرنز قررا بعد تردد أن يرفضا سياسة الاسترضاء التى كانت ستحدث على حساب بريطانيا ، ولا بد أن تؤدى إما إلى الحرب وإما إلى اختلال التـــوازن الدولى فى العـالم ، وبذلك تحددت مبادئ السياسة الأمريكية .

تقررت الخطوة الحاسمة التى اتخذتها أمريكا فى سبيل الرخاء الاقتصادى والثبات حين ألقى مستر مارشال خطابه فى جامعة هارفرد ، فقطعت أمريكا شوطا بعيداً وبعيداً جداً فى الطريق الذى بدأته عند الأزمة الايرانية وسارت فيه عندما وضعت برنامج المساعدة اليونانية والتركية .

لقد كان من الواجب اتخاذ هذه الخطوة قبل زمن بعيد ، ولـكن زعماء الحـكومة الأمريكية كانوا بطيئين كعادتهم فى فهم الخطورة فى موقف أوربا الاقتصادى . وكثيرا ما أنذرهم الزعماء البريطانيـــون والأوربيون فى يأس ولـكنهم لم يتأثروا بالنذير . ولو أنهم قدروا خطورة الحالة حق قدرها لـكان برنامج المساعدة اليـــونانية والتركية جزءاً من مساعدة كـــبرى تشبه المشروع الذى وضعه مارشال .

وهذا المشروع نشأ عن ثلاثة أمور : أولا أن مارشال عمل قبل سفره إلى موسكو لتنظيم وزارة الخارجية الأمريكية من جديد ، وبذلك استطاعت أن تمده بالمعلومات التى كانت تنقصها بسبب نظامها العتيق . وثانياً أن

الأحوال تفاقمت فى أوربا بحيث لم يكن سبيل إلى تجاهلها . وثالثاً أن زيارته لموسكو أمدته بتجارب هامة ، فكان قبل هذه الزيارة موظفاً كفئاً ، ولكنه صار بعدها سياسيا بارعاً . لذلك ما كاد يعود مارشال من موسكو حتى أخذ فى دراسة الموقف مع معاونيه ، وتقرر لديه وجوب العمل فى الحال ، وكان الرئيس ترومان يؤيدهم تأييداً كبيراً ، ومضت أسابيع وهم يدرسون طرق العمل المختلفة . وأخيراً وجه مارشال نداءه فى هارفرد كى تتكانف أمم أوربا وتضع أسساً مشتركة لتعميرها على أن تؤيد موارد الولايات المتحدة ما يصيبهم من عجز عن ذلك .

وكانت النتيجة أن السياسة الخارجية الأمريكية هى الآن فى الميزان لمعرفة مقدار ثباتها . ولا بد من عرض الأمر على البرلمان الامريكى لاقراره فى وضعه النهائى ؛ فاذا وافق البرلمان ووافقت الأمة على مشروع مارشال بما يتطلبه من نفقات باهظة ، فمما لا ريب فيه أنه لا يخشى بعد ذلك من أن تدير أمريكا ظهرها لأمور العالم مهما تغيرت الحكومة الأمريكية فى المستقبل .

على أن الناس يتساءلون: هل يوافق البرلمان على مشروع مارشال ؟ لا شك فى أن السواد الأعظم من أعضاء البرلمان لا يرضون عن فكرة مارشال ، وسيحاول بعضهم أن يهرب من هذا المشروع ، ولكن من القواعد المعترف بها فى أمريكا أن البلاد دائماً تنقذ نفسها فى آخر الأمر . ولما كان هذا المشروع فيه إنقاذ للولايات المتحدة كما أن فيه إنقاذاً للمستفيدين منه مباشرة ، فمن المعقول أن نفترض أن البرلمان الأمريكى سيقر هذا المشروع .

وهكذا نرى أن مستقبل السياسة الأمريكية يتوقف على سرعة عاملين مختلفين : فالسباق قائم بين تتابع الحوادث الخارجية الناشئة عن التدهور الاقتصادى والسياسى فى العالم بأجمعه ، وتتابع الحوادث فى الولايات المتحدة المؤدى إلى الادراك السياسى . فاذا كانت الاجرءات غير القاطعة التى اتخذت حتى الآن لدفع غائلة الانهيار السياسى والاقتصادى للعالم لا تنجح قبل الاستيقاظ السياسى فى أمريكا ، مما يؤدى إلى العمل على نطاق أوسع وأكثر فائدة ، فان السباق يكون خاسراً .

وعنصر الشك هذا هو الذى يجعل من الحاضر لحظة مؤلمة فى التاريخ .

ظهر حديثا

شرق وغرب للأستاذ على محمود طه (دار إحياء الكتب العربية)

هل نستطيع أن نقول إن الأستاذ على محمود طه هو أشعر الشعراء فى مصر ؟ إن هذا القول فيه شئ من الجرأة قد يحتاج إلى تفصيل كثير ، وقد يرى فيه بعض الشعراء تحديا وافتئاتاً . والقول بهذا الرأى الجرئ يحتاج إلى بحث ودفاع وتحليل ليس هذا موضعه . لذلك لا نريد أن نعرض له . ولكننا نقول فى جرأة إن الأستاذ على محمود طه هو من أوائل الشعراء الذين يصح تسميتهم بهذا الاسم على حقيقته . أى نريد أن نخرج من صفوفهم أولئك الذين يرون فى الوزن والصياغة كل شئ ، أو أولئك الذين لا يجدون فى خيالهم الخصب ما يسعفهم على الشعر فيلجأون إلى تصيد المناسبات التافهة ، أما ذلك الفيض من الخيال الذى ينهمر فى رءوس الشعراء المطبوعين فانك لا تجده فى شعرهم . ولكن يجب ألا يعزب عن فكرنا أن الشعر فن وصنعة وليس الخيال وحده كافياً ، بل إن المنحى الجديد فى الشعر الغربى يجنح إلى القول بأن الشعر هو فن وصنعة قبل أن يكون خيالا . ومن المفهوم بوجه عام أن هذه النزعة الجديدة إنما هى مغالاة بعض الشئ فى ناحية من نواحى فن الشعر ، توازن وتقابل المغالاة فى الناحية الأخرى — أى ناحية الخيال — التى كان يجنح إليها شعراء القرن التاسع عشر فى أوربا . ولا شك فى أن دولة الشعر يتنازعها هذان العاملان ويتعاور عرشها النزعتان فاذا أغرق بعض الشعراء فى ناحية أغرقت المدرسة التى تخلفهم فى الناحية الأخرى ، وتلك سنة الطبيعة .

ونستخلص من هذا الحديث أن الأستاذ على محمود طه ينحو فى شعره منحى شعراء القرن التاسع عشر من الأوربيين . فهو شاعر الخيال قبل كل شئ . وهو شاعر باحساسه وبقلبه قبل أن يكون بصنعته ؛ وقد لا يهتم بهذه الصنعة أحياناً . ولكنه كذلك شاعر قد ظل يخرج شعره سنوات طويلة حتى صار من السهل عليه أن يفكر بالشعر قبل أن يكون تفكيره نثراً . وهذا هو

السبب فى تلك السهولة التى تجعل من شعره شيئاً أقرب ما يكون إلى الموسيقى منه إلى الشعر .

أما نزعته الخيالية فتتبين فى هذا الديوان الجديد كما تبينت من قبل فيما يقرب من عشرة دواوين أخرى نشرها ، وعرفها الناس وأقبلوا عليها أكثر مما عرفوا شاعراً آخر من شعراء مصر . فمن موضوعاته تلك المقطوعات التى كتبها بمناسبة زيارته لمنزل ريتشارد فاجنر الموسيقى الألمانى العظيم الذى أقام فيه حينا من الدهر فى ضاحية من لوسرن ؛ أو على الأصح مكان المنزل الذى كان يقيم فيه الموسيقى العظيم ؛ فان ذلك المنزل ليس قائماً الآن وهو المكان الذى لحن فيه بعض دراماته الموسيقية .

ويمكنك أن تمضى وقتاً لذيذاً مع الأستاذ على محمود طه فتسمع منه اعترافاته ، أو ترنو معه إلى البحر والقمر فى مدينة كان ، أو تسمع منه لحناً من فينا ، أو تتخيل المغرب العربى يتمثل فى أندلسية عرفها الشاعر على بحيرة لوجانو ؛ تلك وغيرها هى صور الحياة التى يرغب أن يتمتع بها كل إنسان وإن كان لا يستطيع ذلك . فمشاغل الحياة عبء مضروب على أكثر الناس . أما تلك السعادة التى يجدها المترف فى حياة يقضيها بين المناظر الجميلة والمتعة ، فذلك أمر مقصور على القليل من الناس الذين يعرفون قيمة الحياة الفنية ، وهذه هى الحياة التى ينقلها الشاعر على محمود طه صوراً ثابتة يستطيع بها المحروم أن يجد فيها عزاء عن حرمانه .

الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة للدكتور ابراهيم موريس الديك
(مطبعة الاعتماد بمصر)

إنى لأشعر دائماً بارتياح كلما عرض لى كتاب يبحث فى موضوع من غير موضوعات الأدب ؛ لأنى إذا كنت أميل بطبيعتى للمضوعات الأدبية ، فانى أحس بنقص المؤلفات العربية التى تخوض فى مناحى المعرفة المختلفة التى تعنى بها الأمم الأوربية . ولا شك أن من بين العلوم التى تمس الأدب من قريب ، والتى لا بد لأديب العصر الحاضر أن يلم بها ، تلك العلوم التى تدور حول الانسان وحياته فى هذه البيئة الانسانية . ومن أخص ما يمس

الانسان الناحية الجنسية . فلقد صار معترفاً بهذه الناحية وأثرها الكبير فى حياة الناس بعد مباحث فرويد ، وتغيرت الأوضاع ، فلم تعد الأبحاث بعد فرويد تدور على نزعة الخير والشر ، بل عرف أن هنالك أموراً مسيطرة على الانسان هى جزء منه ، وهى التى تتحكم فيه أكثر من تحكم ذلك الشئ الفرضى الذى نسميه الخير أو الشر ، وهى أمور تؤلف جزءاً منه ومن تكوينه ، ومن أهم هذه الأمور تلك التى تنشأ عن الجنس .

غير أن هذا الموضوع لسوء الحظ قد يمكن أن يتصل بنزعات سيئة ، و يمكن أن يتخذ وسيلة لترويج كتب لها أغراض غير خدمة العلم . وقد يكون من الخير أن تحارب أمثال هذه الكتب . على أن الذى سرنى فى هذا الكتاب الذى كتبه لنا الدكتور الديك ، أنه كتاب خالص لوجه البحث العلمى ، ولكن التعقيد العلمى فيه لا يبلغ حداً ينفر الأديب والباحث الاجتماعى والباحث النفسانى عن قراءته ؛ فهو كتاب سوطأ لكل مفكر على تنوع دراساته ، ولكنه لم يؤلف للجمهور غير المفكر .

هو كتاب علمى لدقته فى بحث موضوع الاضطراب الجنسى على أنواعه فى تفصيل وفى تبويب ، بحيث لا يفوت القارئ شئ من جوانب هذا البحث ، سواء من الوجهة الجسدية أو النفسية .

و يمكن أن نقول بوجه خاص ، إن الفصول التى تهم الأديب من الكتاب أكثر من غيرها ، هى تلك الفصول التى بحث فيها الكاتب عن نظريات فرويد وأدلر ويونج ، وعن الصراع بين الجنسين ، وعن عبيد العائلة ، فهى مباحث جديرة باطلاع كل أديب وباحث اجتماعى .

ولسنا نحب أن نترك الكلام عن هذا الكتاب القيم دون أن ننوه بالبساطة وحسن الترتيب فى سرد الموضوعات ؛ وفى الوقت نفسه دون أن نأخذ على الكاتب عدم العناية باللغة بقدر ما كان يجب ، وهو و إن كان كتاباً علمياً فان الكاتب أظهر فى أماكن عدة أن أسلوبه فى الشرح يكاد يكون أدبيا ، مما يجذب القارئ ، ولكنه لم يعن العناية الكافية بمراجعة كتابه حتى ظهرت فيه معايب كثيرة ، تدل على إهمال لقواعد اللغة أو فى مراجعة الكتاب مما كنا نرجو أن يبرأ منه .

عيسى محمود

من وحى الفطرة للأستاذ محمد قره على (مطبعة بيروت)

هذا كتاب حقيق بالتنويه ، أنشأه كاتب لبنانى يستحق التنويه كذلك ؛ ولعلى لا أكون غالياً فى القول إن زعمت أن هذا الكتاب وكاتبه سيكون لها فى غد من الشأن ما يحمل مؤرخى الأدب فى هذا الجيل على أن يفردوا لها فصلا بعنوانه . . .

كاتب وكتاب يتحدثان عن قصة من أروع قصص البطولة الواثبة تتخطى القيود والسدود ولا تعبأ بالعقبات التى تتكاءد طريقها حتى تنتهى إلى الغاية أو تكاد ، وتضع قدمها على أولى عتبات المجد !

ليست من بطولة القوة ، فما أحرى هذه أن تكون لوناً من بطولة الغابة التى تتمثل فى ظفر وناب . وليست من بطولة الجسارة المتقحمة على المهالك على أمل الظفر بأمنية بعيدة أو الموت دونها ؛ فما أشبه هذه كذلك أن تكون فنا من فنون المغامرة . وليست بطولة الجرئ الواغل الذى يخيل إليه من شدة اعتداده بنفسه أنه فوق كل ذى فوقية فلا يزال يلقى الناس بوجه وقاح حتى يحملهم على التسليم أو الاستسلام . . . ليست بطولة من هذه البطولات المتكررة الصور فى كل مجتمع من المجامع البشرية، ولكنها بطولة من نوع ممتاز لأنها بطولة إنسان ضعيف المنة عاجز الأداة مقطوع الأسباب ؛ ولكنه إلى ضعف منته وعجز أدواته وانقطاع أسبابه — قوى الايمان بانسانيته ، يحمله هذا الايمان القوى على خطته لعل عربيا قبله لم يسلكها ليحمل الجماعة البشرية التى يعيش فيها على الاعتراف بأنه إنسان ؛ ويبلغ ما أراد ، أو لعله بلغ أكثر مما أراد ؛ فكان إنساناً . . . بطلا . . .

ذلك هو محمد قره على مؤلف هذا الكتاب !

وقد تعودت فى هذا الحيز من هذه المجلة أن أعرض ما بين يدى من الكتب عرضاً مجرداً يعرف بها ويكشف عن موضوعها ، لا أكاد أستطرد إلى ذكر الكاتب إلا قليلا من قليل حين تدعو إلى ذلك حاجة . فليعذرنى القارئ اليوم إذا أناعرضت له الكاتب قبل أن أعرض كتابه ؛ فان الكاتب هنا هو الموضوع الذى ينبغى أن يحتفل له مؤرخو الأدب العربى فى هذا الجيل !

عرفته فى بهو الفندق الكبير ببيت مرى فى لبنان منذ أسابيع ، أو

هو الذى عرفنى على الصحيح ؛ وكنت واقفاً بين طائفة من أهل الأدب ثمة ولفيف من أعضاء المؤتمر الثقافى حين تقدم إلىّ شاب قد مد يده للمصافحة وهو يقول ليعرفنى نفسه : « محمد قره على ، صحفى ». وبادلته التحية ولم أزد ، وكأنى رأيت صحفيا ككل صحفى من الذين يغشون أمثال هذا المجتمع لحاجة أنفسهم أو لحاجة صحفهم فلم ألق إليه كبير اهتمام . . . ثم أتيحت لنا فرصة للاجتماع ، أو لعلها قد أتيحت لى أنا ؛ وتحدث إلىّ بقصته فى تواضع وفى إيمان !

نشأ فقيراً معدماً ككل فقير معدم ، وفقد أمه وهو صبى ، وضاقت أسباب العيش بأبيه أكثر مما كانت ، فلم يدخل مدرسة ولم يتعلم حرفاً ولا رسم حرف ، وخرج إلى الحياة يكدح لرزقه ورزق أبيه وأخته ولم يبلغ العاشرة ، فاحترف الخدمة فى حوانيت التجار ، ثم مسح الأحذية ، ثم حمالا فى الأسواق يحمل على كاهله الضعيف حاجات الناس من الأسواق إلى دورهم فى سلة من القصب يضيق بحملها فارغة فتى فى مثل سنه ساعة من نهار ؛ ثم يترقى من الحمالة إلى بيع الصحف ، وهنا يبدأ شعوره بثقل تبعته ، فهو أمى لا يميز جريدة من جريدة ، وفى لبنان عشرات من الصحف لمئات من القراء ، أو لآلاف ، ويسأل نفسه وقد بلغت سنه بضع عشرة سنة : لماذا لا أتعلم القراءة ؟ ثم لا ينتظر جواباً لسؤاله ؛ فلا يكاد يمضى قليل زمن حتى يصير قارئاً يميز أسماء الصحف بعضها من بعض ، ثم يترقى فى تعليم نفسه حتى يقرأ عناوين الموضوعات فى الجرائد التى يحملها للبيع ، ثم يترقى مرحلة أخرى حتى يقرأ الموضوعات نفسها ليعرف ماذا يبيع للناس من فنون الكلام . . . ثم لا يزال يترقى حتى يصير قارئاً له ذوق وإحساس فنى ورأى ؛ ويجتاز هذه المرحلة وثباً فاذا هو قارىء كاتب ولم يبلغ العشرين ، ولداته وأقرانه لا يزالون فى المدرسة الثانوية أو فى الجامعة يحاولون أن يتعلموا كيف يقرءون . ويغريه النجاح بالاستمرار والدأب فيقتنى الكتب ومعاجم اللغة يقرؤها فى أمسيات الفراغ على ضوء مصباح الشارع ضنا بما فى سراج البيت من زيت قليل ، ولا يزال فى النهار يبيع الصحف ، وأحسبه فى هذه الفترة قد صار نقيباً للباعة يملى عليهم الرأى فيستمعون له ؛ وعرفه أصحاب الصحف فقربوه وأدنوا منزلته ؛ إذ كان فى يده دون غيره رواج صحفهم أو كسادها ؛ أليس قد جمع أعداد

إحدى الصحف ذات صباح وأشعل فيها النار باحدى ميادين بيروت وقد تحلق حولها الباعة من « صبيانه» مهللين ؛ لأن هذه الصحيفة كان لها مذهب فى السياسة غير مذهبه ؟ هذا فتى يحاول « استغلال سلطة وظيفته » لتوجيه الرأى العام الوجهة التى يريدها ؛ لقد اغتصب سلطة صاحبة الجلالة الصحافة فما أحرى أن يكون هو صاحب الجلالة . . . إن الصحافة توجه الرأى العام ، ولكنه هو يملك توجيه الصحافة !

وبرز اسمه بين أصحاب الرأى من . . . من باعة الصحف ؛ وأراد أن تكون سلطته فى التوجيه عملية فاصطنع الكتابة ، وترقى مرحلة أخرى فصار صحفيا . . . إنه لم يزل حتى اليوم وقد جاوز الثلاثين ، يحرص على هذه الصفة ، ولكنه فيما أراه أكبر من صحفى . وعالج الشعر فبلغ مبلغاً ، ونشرت له الصحف المصرية واللبنانية الراقية ؛ وغشى المجامع العامة فلقى الترحيب ، وتعرف إلى كبار أهل الأدب والسياسة فسرهم أن يعرفوه ، ولا يزال حتى اليوم يحتفظ إلى جانب صورة ماسح الأحذية ، والحمال ، وبياع الجرائد الجوال — صوراً أخرى تمثله يتحدث إلى شوقى ، أو إلى هيكل أو إلى أحمد أمين ، أو عبد الرحمن عزام — كل أولئك من أصدقائه وله فى أنفسهم مكانة ؛ إنه زميل من زملائهم فى الشعر أو فى الأدب أو فى السياسة ، وكان ماسح أحذية وحمالا ، وبياع جرائد ؛ ولكنه اليوم أديب من أدباء لبنان . وحاول السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان أن يصطنعه فعين له وظيفة فى الدولة ، فقبل الوظيفة ولكنه لم يقبل أن يصطنعه أحد ؛ فهو اليوم موظف ، وصحفى ، وشاعر ، وكاتب ، ومؤلف مشهور ؛ وهذا كتابه الأول «من وحى الفطرة» وقد كتب مقدمته الشاعر القروى الأستاذ رشيد سليم خورى ، ويقول فى ختامها :

« رشح نفسك لرياسة الجمهورية يا محمد قره على وأنا أول من يمنحك صوتى ، ولن أوثر عليك إلا من يحمل شهادة تحمل من علامات الثقة بالنفس والاعتماد على الساعد والتمرن على مسح الأحذية ونقل الأمتعة وبيع الصحف أكثر مما تحمل شهادتك . إن البلاد لمفتقرة إلى إبراهيم لنكلن لبنانى، فاذا لم يتفق فانتظروا معى فتاة لهذا الوطن ! »

ولكن ماهذا الكتاب الذى يصف الشاعر القروى كاتبه بما وصف ؟

هو كتاب تقول عنه مجلة « الأديب » البيروتية : « وأعد المحرر كتاباً عن سيرة حياته ، سماه « من وحى الفطرة » نزولا عند طلب رفاق الأمس من ماسحى الأحذية ، والحمالين ، وبائعى الصحف وسكان الأكواخ الخشبية ؛ هؤلاء الذين خرج من صفوفهم المتألمة ولم يخرج عليهم فكان خيط الألم بينه وبينهم طريق القلم . »

هو إذن قصة حياة ذلك الأديب على ما رويتها فى إيجاز ؛ قد بسطها كاتبها فى أسلوب فنى عذب ، وأضاف إليها طائفة من الفصول ، ومن الشعر ، هى أيضاً جزء من قصة حياته ، لأنها تصور بعض مراحله فى الحياة وبين الناس .

وهو أول كتاب يذيعه فى الناس « نزولا عند طلب رفاق الأمس من ماسحى الأحذية والحمالين وبائعى الصحف ... الخ » معتزاً بهم ومعتزين ، ليضرب به المثل لهم ولغيرهم من القراء على « أن الحياة صعيد واحد قسمه المجتمع — أو قل : تقاليد المجتمع — إلى مقاطعات ، وأن فى إمكان الانسان أن يقفز من مقاطعة إلى مقاطعة بقليل من المغامرة . وقليل من الجرأة ، والتطفل ... » كذلك يقول ، وكذلك كانت حياته !

أين هذا الأديب اليوم مما كان؟ ولكنه لم يقنع بما بلغ ولم ينس شيئا مما كان ، فلم يزل به إلى الماضى حنين وإلى المستقبل أمل عارم .

يقول فى خاتمة قصة حياته :

« لقد كنت أبيع كتب الناس وصحفهم ، فأصبحت الآن بحاجة إلى من يبيع كتابى !

« أيها الباعة ، يا رفاقى ! أذكروا دائماً أن كل نسخة تبيعونها من هذا الكتاب هى حجر تزيحونه من طريقكم . لن أنسى أبداً أننى واحد منكم ! »

ويقول فى خاتمة كتابه :

« وأمنيتى وأنا فى الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب أن أعود بائع صحف أحمل إلى الناس آراء الناس وأفكارهم ، أى أن أكون مدرسة سيارة تغرى الناس ليقرءوا الناس ، فأبيع الفكر والقلم والقنبلة الذرية وسقوط وزارة وقيام وزارة بخمسة عشر قرشاً ...

« أنا اليوم موظف صغير فى الدولة ما أضعفنى اليوم وما أقوانى أمس ، ساعة كان كل صحفى يتمنى أن أرضى .

« أتمنى أن أعود بائع صحف ، لأنى أخاف أن أتعلم المساومة بنفسى .

« كم صحيفة بعتها وكأنى كنت أبيع معها شرف صاحبها فى الأسواق الرخيصة ! »

ولكن صاحبه « الشاعر القروى » يتمنى له غير ما يتمنى لنفسه ، ولعله أن يبلغه يوماً فيضير رئيساً للجمهورية، ويترقى من بين صفوف باعة الصحف رئيس جمهورية آخر غير إبراهيم لنكلن ؛ فهل يأمن الصحفيون يومئذ شر المصادرة والحبس الاحتياطى ؟ وهل يأمن أهل الأدب أن يتتبعهم قارئ ضيق الفكر أو ضيق الخلق فيسوقهم إلى المحاكة بتهمة الخروج على الناموس ؟

من يدرى ؟

محمد سعيد العريان

الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى (مطبعة دار الكتب المصرية)

أصدرت دار الكتب المصرية الجزء السادس عشر من كتاب الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى . وهو مثل الأجزاء السابقة فى دقة التصحيح وجودة الطبع وجمال الرونق .

ع . م .

فى مجلات الشرق

من لبنان

الطريق العدد ٩ (سبتمبر ١٩٤٧)

يتحدث الأستاذ فرج الله الحلو عن « الثقافة والسياسة » لمناسبة اقتراح عرض فى المؤتمر الثقافى العربى الذى عقد بلبنان منذ بضعة أسابيع ، يقترح فيه صاحبه أن يرسل المؤتمر برقية إلى هيئة الأمم المتحدة أو إلى مجلس الأمن بتأييد قضيتى مصر وفلسطين ، فعارض الاقتراح بعض مندوبى لبنان فى المؤتمر بحجة أن المؤتمر « ثقافى بحت » و « لا دخل له فى السياسة » !

وقد جاء فى مقال الأستاذ الحلو ما يلى :

« لا يستطيع مثقف واحد، ولا سيما إذا كان مؤرخاً ، ألا يعترف بأن الاستعمار الأجنبى هو السبب الأول الأوحد فى انتشار الجهل والأمية فى الأقطار العربية وفى مصر بصورة خاصة ؛ لأن الاستعمار الذى يعانيه هذا القطر الشقيق هو أشد أنواع الاستعمار الذى عرفته البلاد العربية . إذا كانت غاية المؤتمر الثقافى العربى حصر الثقافة والتضييق عليها ومنع انتشارها ، فالمندوب اللبنانى إذاً على حق فى رفضه تأييد قضية مصر وقضية فلسطين على الاستعمار الانجليزى . أما إذا كانت غاية المؤتمر توسيع السبل لانتشار الثقافة ، ورفع مستواها ، ومحاربة الأمية والجهل ، ورفع مكانة الفكر فى المجتمعات العربية ، فقد كان من واجب الوفد اللبنانى كله ، إذا كان حقا يريد تمثيل لبنان المثقف الحقيقى ، أن يكون أول من يؤيد مصر وفلسطين والعراق وطرابلس الغرب وأفريقيا الشمالية وأندونيسيا وجميع الشعوب المستعمرة ضد الاستعمار .

«لقد وقف كبار المثقفين العالميين فى الحرب الأخيرة إلى جانب القوى الديمقراطية ضد الفاشستية باعتبارها أكبر الآفات التى تهدد الثقافة والفكر . وكذلك أيد معظم المثقفين اللبنانيين جبهة الحرية على جبهة الفاشستية . ونعتقد أن المثقف اللبنانى الذى عارض تأييد

المؤتمر الثقافي العربي لقضية مصر وفلسطين ، كان أيضاً بين أولئك المثقفين اللبنانيين الذين أيدوا جبهة الديمقراطية على المحور.

« فهل خرجت الثقافة والفكر في موقفهما ضد الفاشستية عن أغراضهما وأهدافهما ؟ وهل يستطيع أحد أن يتهمهما بأنهما أصبحا مطية للسياسة ؟

« كلا ! بل تصح هذه التهمة على المثقفين الذين ماشوا الفاشستية وساروا في ركابها ، فهم الذين خانوا رسالة الثقافة وسخروها لأغراض سياسية واستعمارية .

« وبعد ، ألم تكن وراء موقف المندوب اللبناني دوافع سياسية وعوامل سياسية حدت إلى اتخاذ موقفه ذاك ؟

« ولكي نقرب المسألة إلى الأفهام نقول لو كان هذا المؤتمر معقوداً في مصر ، وكانت القضية المطروحة على مجلس الأمن قضية لبنان ، وقام أحد أعضاء الوفد اللبناني أو غيره فاقترح إرسال برقية إلى الهيئة الدولية بتأييد قضية لبنان ضد الاستعمار أكان يمكن أن يكون في أعضاء الوفد اللبناني من يعارض ذلك بحجة أن المؤتمر ثقافي بحت ولا يجوز إخراجه عن أهدافه ؟

« وماذا كان يكون موقف الوفد اللبناني لو قام أحد المصريين وعارض تأييد المؤتمر لقضية لبنان ؟

« لا شك أن كل لبناني كان سيعتب على ذلك المندوب ، ومن حقه أن يعتب ، ولكان الوفد اللبناني أشد الوفود احتجاجاً ، ولكان جميع المثقفين العرب يشجبون موقف المندوب المصري .

« نحن كلبنانيين يعقد المؤتمر الثقافي العربي الأول تحت سمائنا ، كنا نود أن يتخذ المؤتمر الثقافي اتجاهاً واضحاً صريحاً في تأييد قضايا الشعوب العربية الوطنية الاستقلالية ، كقضايا الجلاء والاستقلال ، وألا يكون في ذلك أي تحفظ ، لأن أقدس مهمات الثقافة هي النضال لأجل الحرية ، حرية الأفراد وحرية الشعوب . والثقافة تنمو وتزدهر في هذا النضال . وكل محاولة لتحديد أهداف أخرى للثقافة أهم من تحرير الأفراد والشعوب ، ليست سوى سخافة وسخافة خطرة يجب محاربتها .»

الأديب العدد ١٠ (أكتوبر ١٩٤٧)

ويعالج الأستاذ قدرى قلعجى ذلك الموضوع من زاوية أخرى فى مجلة « الأديب » بمقال عنوانه « المثقفون والمجتمع » يقول فيه :

« يعجب أناس من اهتمام بعض مثقفينا بشؤون بلادهم الاجتماعيـــة والسياسية ، وقد طغت على بلادنا الروح الانعزالية وانعدمت الجـــرأة الأدبية ، حتى باتت وكأنها فى مثــل يوم الحشر « لـكل امرئ يومئذ شأن يغنيه »وحتى أضحت كل بادرةمن بوادر الاصلاح أو الدعوة إليه ، موضع الريبة والتجنى من أشخاص لا يحسون فى أنفسهم دافعاً قوميا إلى مجابهة الباطل فينكرون ما يرون فى غيرهم من شدة الاخلاص لشعبهم وشدة التمسك بالحق .

« أما أولئك المثقفون المناضلون فقد عرفوا أن من واجبهم معالجة أمراض شعبهم ، ومقاومة الظلم الذى يحيق به أو يتهدده ، وإلزام أنفسهم أعباء هذا الواجب مهما كبرت وثقلت ؛ لأنهم يستحون أن يعايشوا الظلم ولا يبذلون وسعهم للقضاء عليه .

«فياعجبا أفى وقت حاجتنا العظمى إلى مثل هذه القيم تحثنا على العمل وتحدونا إلى النضال وترشدنا إلى بناء مجتمعنا على أسس الحرية والعدل والمساواة ، يراد من المفكرين الانصراف إلى « روحيات » هوائيـــة غامضة ، كأن النضال الوطنى ليس صورة الروح الانسانية فى تمام وعيها وسموها وتضحيتها ، ويطلب من الأدباء الانعكاف على ما يسمونه المتعة الفنية وحدها ، كأن الفن غريب عن هذه الدنيا التى تشهد غروب عصر وإشراق عصر ، وعن هذا المجتمع الذى يصطرع فيه جيل رجعى هدام عتيق وجيــل جديد صاعد بناء .

«ونحن إذ نرجع البصر إلى التاريخ العربى تطالعنا فيه صور مشرقة كثيرة من تراثنا القومى تراث الحرية والعدل والمساواة ، وتراثنا الثقافى تراث النضال الفكرى والعلمى من أجل الحرية والعدل والمساواة . فان كبار الأئمة والمفكرين والأدباء العرب قد علمونا بأقلامهم وألسنتهم وسيرهم ، الخروج على الحكام الظالمين ، والجرأة فى مقاومتهم مقاومة حازمة صادقة ؛ لأن الكفاح فى سبيل الحرية هو كــفاح فى سبيل الفكر ، وهو كفاح فى سبيل الوطن ، وهو كفاح فى سبيل الله .

« ونحن المثقفين العرب الذين نعتز

بهذا الميراث النضالي العظيم ، حريصون أيضاً على أن نذكره وأن نذكر به ، وعلى أن نعمل به وندعو إلى العمل به ولا سيما في هذه الأيام. ففي معترك الصراع الذي نشهده اليوم بين قوى الحرية وقوى العبودية ، نرانا أحوج ما نكون إلى إعادة النظر في الأسس التي قام عليها ماضينا لكى نتعلم كيف ننهض بحاضرنا ونبنى المستقبل الذى نريد . »

وفي هذا العدد من مجلة «الأديب» مقال طريف للآنسة نجوى عارف قعوار عنوانه « حفنة تراب » تقول فيها :

« حفنة التقطتها من الأرض وفجأة إذا بذراتها تتلألأ كالدموع ، وخرجت منها أنفاس حارة ، وسمعتها تقول : أنا فتاة جميلة في السادسة عشرة من العمر ؛ أريد أن أعود إلى الحياة ، أريد خطيبي الذى كنت أحبه ، وثيابي التي أعددتها ، وأمي التي كنت وحيدتها ؛ أريد أن أعود إلى البيت الصغير الواقع على شاطئ النهر حيث كنت وصديقاتي نلعب ونسبح ونقطف من أشجار الشاطئ الزهر والثمر . . . »

وتقلب الحفنة في يدها ثانية فاذا هى تسمع مواء قطة ، وفي الثالثة تشم عبير زنبقة ، ثم ترى صورة شاب هصرته المنية في ريعانه ، ثم عجوزاً قد شاب شعرها وتجعد وجهها ، ولكنها لا تزال تحن إلى الحياة ؛ ثم يبدو لها في ذرات التراب وجه أميرة شقراء جعدة الشعر بهية الطلعة انتزعها الموت من عز الإمارة وردها إلى التراب — كل أولئك تبدت صورهم في حفنة التراب بين يديها ، وكلهم يحن إلى الحياة ، يأمل أن يعود من التراب خلقاً سويا كما كان . . .

قالت : « وحدقت في حفنة التراب وسرت فيّ رعشة الخوف .

« أيتها الحفنة السوداء من التراب الحقير ! كم من مرة سخرتك جرثومة الحياة لتكونى آنية لهؤلاء ولغيرهم ؟

«وكم من مرة صاغتك القوة المسيطرة الرشيدة ، لتكونى هياكل لفكر الانسان، ولشذى الزهر ، ولغرائز الحيوان ثم تناثرت تراباً ملقى على الأرض ؟

« حفنة تراب ، باردة ، سوداء . . .

« . . . هل تكمن فيها إرادة الحياة أم هى وعاء لها ؟

« يا حفنة التراب : كل ما أعرفه لأقوله إنك بحاجة إلى البنّاء العظيم .

« إلى نفخة من الخالق ، وعندها تصبحين حياة جديدة .

« ويحيا فيك ثانية هذا الذى يرغبه هؤلاء الذين كنت إما وعاء لهم أو جزءا منهم . »

من العراق

المعلم الجديد الجزء ٣ (سبتمبر ١٩٤٧)

يتحدث الأستاذ حسن أحمد السلمان عن « الأمية : عواملها ومكافحتها » فيتساءل : لماذا لم ينجح مشروع مكافحة الأمية في العراق ؟ ثم يحاول الجواب عن سؤاله ، فيرد عوامل الاخفاق إلى أسباب ثمانية :

١ — أن الدولة ألقت مسئولية مكافحة الأمية على وزارة المعارف وحدها .

٢ — وأنها لاتزال تعدها معضلة ثقافية فحسب وتغفل ما يجب أن تؤدى إليه من الغايات الاقتصادية والاجتماعية .

٣ — عدم وجود مكافحين معدين إعداداً فنيا خاصا .

٤ — عدم تهيئة الأسباب للقضاء على الأمية بتوسيع دائرة التعليم العام وجعله إلزاميا حتى لا يتضاعف عدد الأميين كل عام بمن تضيق بهم مدارس التعليم العام .

٥ — قلة الميزانية المخصصة للمكافحة وتوسيع نطاق التعليم .

٦ — النظام الاقطاعي في العراق .

٧ — الفقر .

٨ — أن مشروع المكافحة في جملته لم يوضع على أسس راسخة .

ثم يتحدث الكاتب بعد ذلك عن عوامل التأخر الثقافي بصفة عامة ، فيردها إلى أسباب تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية ، ويخلص من كل ذلك إلى بيان الأسس التي يجب أن يرتكز عليها مشروع مكافحة الأمية ، وعن إعداد المكافحين فيرى أن إعدادهم لا يتطلب أكثر من عام دراسي واحد يتلقى المكافحون خلاله دروساً شاملة في فن تربية الكبار وسيكولوجيتهم وأصول التدريس للراشدين ، ومشاكل المجتمع الاقتصادية والاجتماعية .

من النجف

البيان العددان ٢٧و٢٨ (أكتوبر ١٩٤٧)

يتحدث الأستاذ أحمد مجيد عيسى عن « الدراسة في النجف » تلك المدينة التي لم تزل جامعة علم وآداب ودين منذ منتصف القرن الخامس الهجري، فيقول:

« وكان طلاب العلم ورواده يتتجعون تربتها منذ قديم الزمان إلى الآن حتى غدت مزدحمة بالعلماء وراج فيها سوق الأدب والعلم لدرجة أن المرء لا يمر بمحفل من محافلها إلا ويسمع أصوات المذاكرة بالمسائل العلمية على أنواعها ويرى حلقات الحديث وثيقة العرى متماسكة الأطراف. وللقارئ أن يتصفح كتاب « أمالي » الشيخ الطوسي ليطلع على عدد المجالس وما يدور فيها؛ فانه كتاب مشحون بالأحاديث، وهو شاهد صدق على تعداد المجالس العلمية والأندية، وذلك كله هو السبب الوحيد في الهجرة إليها فقد كثر فيها ازدحام أهل العلم ورجال الأدب، وطفقت أفكارهم تتبارى وأقلامهم تتسابق في حلبة التأليف والتصنيف، وبذلك حازت النجف الرياسة العلمية والزعامة الدينية منذ القرن الخامس حتى اليوم وان اختلفت في بعض العصور شدة وضعفاً، قلة وكثرة، ولكن لم ينقطع عنها العلم قط، وغدت تعد من العواصم العلمية التي لها الحظ الأوفر من الشهرة، فيها كما في غيرها من المدن العلمية آثار علمية كثيرة وفيها المدارس التاريخية والآثار الأدبية، وفيها محلات كثيرة تعرف بمحلات العلماء؛ وهي تسلك في طريقة دراستها سيرة المعاهد الدينية الاسلامية الأخرى ...

« ... أما النجف اليوم فقد أصبحت مدينة جامعة علمية تضم مدارس عدة (بالاضافة إلى المحلات الأخرى للدراسة وهي الصحن الشريف والمساجد) تدرس فيها شتى العلوم والفنون، ولكن الصبغة والرونق للعلوم الدينية. فالنجف جامعة دينية قبل كل شيء، وهي في العراق كالأزهر في مصر، إلا أن الأزهر أثرت فيه الحضارة المصرية والحركة الفكرية فحوّراه وهذباه ورتباه، والنجف لم تجد من نفسية القطر ما يؤثر فيها ... »

من الموصل

الجزيرة العدد ١٨ (أكتوبر ١٩٤٧)

يتحدث الأديب فؤاد طرزى عن حرية الأدب فى مقال طيب عنوانه : « مستقبل الأدب العربى » فيقول :

« إن الأدب تعبير ، وتعبير حر لأنه من نبع الحياة المتدفق . فالحرية فى التعبير هى الخاصة الأصيلة فى كل أدب عاش وسيعيش . كتب اسكندر ديماس عشرات الكتب فى الاصلاح ، فماذ ابقى منها ؟ لم يبق ولا كتاب واحد. وكتب «غادة الكاميليا» فبقيت خالدة خلود الزمن . وأنشد حسان شاعر النبى آلاف الأبيات فى الهداية والارشاد ذهبت كلها بانتهاء أزمانها . وأنشد امرؤ القيس شاعر الجمال ، فبقيت أشعاره تتردد فى كل قلب ويختلج لها كل إنسان . . .

« وإن تقييد الأدب اعتداء على الحرية التى بغيرها لا يقدر الأديب أن يرتاد كل الآفاق وأن يحلق ما شاء التحليق ، وان تقييده وتوجيهه بالقسر والارغام وإنزاله من مستواه إلى مستوى الشعب والهبوط إليه والتقرب منه وملاحظة ما يرتضيه ويلذه كما كان الأدباء القدماء يلاحظون سادتهم ومواليهم — هذا التقييد سيضعف الأدب حتى يصل إلى الابتذال أحياناً، ولعلنا لنشهد بعض ذلك منذ الآن ، وسيحرص آخرون من الأدباء على كرامة الفن وجودته أكثر مما يحرصون على انتشاره وشيوعه ، فيجددون أدبهم ويحفلون بهذا التجديد ثم يرسلون أدبهم إلى القراء غير حافلين بالرضا أو السخط ولا ما ينتجه الرضا أو السخط من الفقر والثراء ، وهؤلاء هم قوام الحياة الأدبية ، وهم هداة الناس إلى الحق والخير والجمال . »

فى مجلات الغرب

من انجلترا

هوريزن *Horizon* (عددا سبتمبر وأكتوبر ١٩٤٧)

فى عدد سبتمبر من هذه المجلة تكلم نويل بوش عن احتلال اليابان، وهذا المقال يؤلف جزءا من كتاب للكاتب يظهر فى شهر أكتوبر باسم « الشمس الساقطة » ، وقد شرح فيه العوامل التى أدت إلى أن يكون احتلال اليابان غريباً فى بابه إذ لم يشعر اليابانيون بوطأة الهزيمة . فهم لا يرون أن الاستسلام قد نقص من هيبتهم ؛ لأن الامبراطور اليابانى هو الذى أعلنه . وتكلم الكاتب طويلا عن صفات اليابانيين وطرق سلوكهم . وهو يرى أن اليابانيين محبون للاقتباس والتقليد ، ولذلك يقلدون الآن الأمريكيين لكى يكونوا مثل هؤلاء المنتصرين . ويحاول الأمريكيون أن يصبغوا اليابان بصبغة الديمقراطية ، ولكن اليابانيين سيفهمونها على غير المعنى الذى يريده الأمريكيون . فالحضارة الأوربية هى الآن فى دور التجربة فى طوكيو وهى تجربة أكمل وأكبر نفقات من أية تجربة أخرى سبقتها .

وتكلم ليونيل تريلنج عن مركز فرويد فى الأدب وموقفه منه . وفى رأى الكاتب أن فرويد ، شأن كل ناقد عظيم للطبيعة الانسانية ، يجد فى الكبرياء الانسانية السبب الأخير للتعاسة . ومع ذلك فان الانسان كما يتخيله فرويد هو أهم وأكبر من أى إنسان يتصوره ناقد آخر . وبالرغم مما يعتقده الناس من أن فرويد يضع قانوناً بسيطاً يطبقه على الانسان كالجنس مثلا ، فان نظريته هى فى الحقيقة مجموعة معقدة من الثقافة وعلم الحياة . وما يشعر به المرء من مجموعة آراء فرويد ، هو أنه بعيد عن أن يكون سيئ الظن بالانسانية ، وهو لا يرغب إلا فى أن يكون الرجل إنسانيا .

وفى هذا العدد أيضاً بحثان أحدهما لروبرت ملفل عن النحات ادواردو

باولوتزى ، والآخر عن فرانسس يونج وتأثيره فى الأدب الفرنسى لبيتى ميلر .

أما عدد أكتوبر من هذه المجلة فانه خاص بموضوعات تعالج الحياة الأمريكية . ففى هذا العدد مقال عن الأمريكى وفنه ، كتبه الأديب وليم فيلبس وهو يقول إن النشاط الأدبى فى أمريكا كان يتغذى فى الماضى بالحركات الأدبية فى أوربا ، ولكن أوربا الآن وهى فقيرة ومعتمدة سياسيا على موارد الولايات المتحدة ، تعتمد الآن على التقدم الثقافى الأمريكى . على أنه قد تصير الولايات المتحدة أكبر مصادر للنفايات فى الأدب . وهو يختتم مقاله بقوله : إذا نظر بعض الأوربيين إلى أمريكا نظرة المنقذ فكل ما يستطيع قوله هو لينقذ الله الملك !

وكتب كليمنت جرينبرج عن التصوير والنحت وحالتهما الحاضرة فى أمريكا . وقد استعرض الكاتب أعمال البارزين من رجال الفن الأمريكيين والمؤثرات التى تدفع بفنهم فى طريقتهم الخاصة .

وتكلم وليم باريت عن بعض المشاهد لمن يريد أن يكون أمريكيا ؛ فبحث فى أمر الأقاليم الأمريكية والجماهير الأمريكية والمهاجر واللغة الأمريكية .

وبحث جيمس سوبى فى صور المصورين بن شاهن وسوريس جريفز .

وتكلم جو ألسوب عن السياسة الأمريكية الخارجية ، وتجد خلاصة وافية لمقاله فى غير هذا المكان .

وتحدث وليم أبراهامز عن بوسطن وكيمبردج ، وهما مركزا العلم القديمان فى الولايات المتحدة .

وفى العدد قصص منها قصة عن الرجل المختفى ، للأديب الزنجى رالف ألسن ، وأخرى لجون بريمان عن اليهودى الخيالى .

وكتب كريستوفار إيشاروود عن مدينة لوس أنجلس .

وذلك فضلا عن عدة بحوث أخرى إحداها عن فن الاعلان الامريكى ؛ والأخرى وصف لسان فرانسسكو وثالثة عن التربية العليا فى أمريكا .

العالم اليوم *World Today* (عدد سبتمبر ١٩٤٧)

وهى مجلة شهرية يصدرها المعهد الملكى الانجليزى للشئون الخارجية . يستعرض عدد سبتمبر فى مذكراته الشهرية الأزمة الاقتصادية العالميـــة وقرض الولايات المتحدة . وقد جاء فيها أن العناصر التى أدت إلى الفوضى الاقتصادية هى أولا الصعوبات المالية البريطانية . ثانياً عدم التوازن بين ما تنتجه الولايات المتحدة وبين ما ما ينتجه بقية العالم ومنهم بريطانيا . ثالثاً النقص العالمى فى الأغذية واستمراره بعد الحرب . رابعاً اعتقـــاد الولايات المتحدة أن العودة إلى التجارة الحرة بين الدول ضرورة أساسية فى التعمير الاقتصادى ، ثم إن خسارة الانتاج الألمانى سبب أساسى فى الأزمة الأوربية .

وفى هذا العرض كلام عن قضية فلسطين وهيئة الأمم المتحدة ، كما أن فيه كلاماً عن نقل السلطة فى الهند .

وفى العدد مقال عن حالة إيطاليا فى صيف هذه السنة . وقد جاء فيــه أن إيطاليا قد كادت تتخلص من مساوئ الحرب وتعود إلى حالتها الطبيعية . غير أن الحالة السياسية فى البلاد لا تزال متقلقلة بسبب تنافس الأحزاب . وفى المقال شرح واف لهذه الأحزاب وآرائها المختلفة وما ينتظر لها من مستقبل .

وتكلمت المجلة فى مقال آخر عن مشكلة تهم كلا من يوغوسلافيا والنمسا ، وهى مشكلة كارينثيـــا السلوفونية ، وهى منطقة تقع بين البلدين وكانت موضوع نزاع بعـــد الحرب الأولى ، ولكن الاستفتاء فى هذه المنطقة أدى عندئذ الى ضمها إلى النمسا ؛ وقد عادت يوغوسلافيا للمطالبة بها .

وفى العـــدد مقال عن الحالة الاقتصادية فى بلاد الأرجنتين ، وما ينتظر لها من مستقبل بعد مشروع السنوات الخمس .

وتكلم أحد الكتاب عن الحالة الاقتصادية والسياسية فى الصين فى شرح مسهب .

ناشنال ريفيو National Review (عدد أكتوبر ١٩٤٧)

مجلة شهرية سياسية محافظة .

لا تنقطع هذه المجلة فى استعراضاتها الشهرية للحوادث عن الحملة على الحكومة البريطانية القائمة ؛ فهى فى عدد أكتوبر تشن حملة شديدة على سوء الحالة الاقتصادية والاسراف والتبذير وإهمال الحكومة للبرلمان الذى يوجه أسئلة فلا تجاب .

وفى العدد مقال كتبه مستر جيبون عما أسماه الفوضى فى الهند ، وهو بلا شك يندد بالحوادث القائمة هنالك ويلقى تبعتها على حكومة العمال البريطانية التى دفعت بالهند إلى هذا الطريق فى رأيه .

وقد كتب ألكسندر كامبل مقالا وصف فيه التطاحن الحزبى فى جنوب أفريقيا . وكتب كاتب آخر عن جزيرة برمودا وابتداء تطلعها إلى الاستقلال ، وهو يرى أن ذلك ناشئ من ضعف الحكومة البريطانية أيضاً .

وتكلمت الكاتبة سلفيا ستيفنسن عن الحالة فى أسبانيا ، وهى لا ترى فيها خطراً كما يقول أعداء النظام القائم هنالك ، بل ترى أن الأمن مستتب وأن النظام الحالى تؤيده البلاد . ومن خير مقالات هذا العدد فى غير السياسة مقالة جون ويندن عن الحديقة الصغيرة يصفها ويذكر طريقة خاصة فى زراعتها .

القرن التاسع عشر وما بعده The Nineteenth Century and After (عدد سبتمبر ١٩٤٧)

مجلة شهرية سياسية حرة .

كتب مستر فويجت فى المقال الافتتاحى بعدد سبتمبر عن الأمن الدولى ، وابتدأ مقاله بقول آدم سميث إن الدفاع أهم كثيراً من الرخاء ولذلك كانت السياسة الخارجية أهم كثيراً للدول الكبرى من السياسة الداخلية . وهو يرى أن الأخطاء فى السياسة الداخلية قد يمكن إصلاحها ما دام الدفاع عن البلاد قوياً بحيث لا يستطيع العدو الخارجى إغراق سفينة البلاد . وهو يقول إن الدول العظمى البرية وهى روسيا وألمانيا والولايات المتحدة لا يمكن فى آخر الأمر التغلب

عليها . فروسيا وألمانيا هزمتا فى الحرب العالمية الأولى ، ولكنهما صارتا بعد عشرين سنة أقوى مما كانتا عليه . وكذلك الولايات المتحدة إذا سقطت لا بد أن تعود . أما انجلترا التى لم تسقط من قبل فهى إذا سقطت فلن تكون لها قائمة لأنها دولة بحرية . وهو يشرح باسهاب ما يجب على انجلترا أن تعمل له من توازن القوى كى تضمن ألا يكون خصومها من الدول العظمى من القوة بحيث يقضون عليها قضاء نهائيا .

وتكلم مستر بيرن عن كتاب مستر سمنر ويلز الأخير الذى ينتقد فيه السياسة الخارجية الأمريكية ، وهو يأخذ عليه آراءه فى روسيا حين يرى أن الدولة الروسية صالحة فى أساسها وأنها ترمى إلى خدمة الانسانية وأنها تستطيع أن تحيا إلى جانب الأفكار الانسانية . ويرى كاتب المقال أن هذه الآراء لا تمثل آراء روزفلت كما أنه يرى أن الخطوات التى اتخذها الرئيس ترومان ومستر مارشال صحيحة ومفيدة للولايات المتحدة وليست فيها خسارة عليها .

وقد تكلم كاتب آخر عن النهضة فى إيطاليا وما يظهر فيها من نشاط بالغ فى الصناعات وما تلاقيه من صعوبات تحاول الحكومة الايطالية القائمة علاجها .

واستعرض باتريك لاسى حالة الهند فى صيف هذه السنة والاضطرابات فيها وهو يرى أن النظام الذى أقرته الحكومة البريطانية حسن وإن كان لا يخلو من مآخذ بسيطة .

وفى غير السياسة يوجد مقال هام عن الكاتب السويسرى راموز .

من فرنسا

لانيف *La Nef* (عدد سبتمبر ١٩٤٧)

يقول روبير كانتير فى المقال الافتتاحى لعدد سبتمبر من هذه المجلة ، وهو مقال كتبه مقدمة لقراءة مؤلفات الأديب الانجليزى د. ه . لورنس ، إن مؤلفات هذا الكاتب هى بلا ريب المؤلفات الوحيدة التى نشعر فيها بجو العبقرية بين الكتاب الذين برزوا فى فترة ما بين الحربين . وليس ذلك بسبب بلوغها ذروة الفن فى أجزاء عدة منها فحسب بل كذلك لما

يظهره الكاتب في مؤلفاته وفي حياته من إخلاص لبعض الغرائز الأساسية .

لم يكن د . ه. لورنس بالفيلسوف فهو لم يضع نظاماً خاصا ، وإنما هو رجل آراء ، ونجد هذه الآراء منبثة في كل مكان من مؤلفاته : في أشعاره وفي قصصه وفي مقالاته . ويحلل الكاتب تحليلا بديعاً هذه الغرائز والآراء التي ينادي بها لورنس .

وفي هذا العدد مقتبسات من الكاتب النمساوي كارل كراوس الذي توفي في فيينا سنة ١٩٣٦ ، وهي مجموعة آراء متناثرة : القسم الأول منها يدور حول الرجل والمرأة ، والقسم الثاني عن الأخلاق والمسيحية ، والثالث عن الانسان وما ماثله ، والرابع عن الصحافة والسياسة ، والخامس عن الفنان ، والسادس عن القراءة والكتابة ، والسابع عن البلاد والناس ، والثامن ملاحظات ، والتاسع آراء مختلفة .

ويوالي كلود مورياك بحثه عن الكاتب الفرنسي أندريه بريتون ونزعته الدينية والأخلاقية ، كما أن بهذا العدد بحثاً قيما عن ماريفو الكاتب المسرحي .

وتكلم برنارد فواين عن الشيطان في كارل ماركس . ومن هذا العنوان يمكن معرفة اتجاه الكاتب ، ونقده له ؛ فهو يفسر الأمور بعامل واحد ، وهذا هو وجه الخطأ في كارل ماركس وهذا هو وجه ظهور نظرياته في مظهر نظامي خلاب قد لا يثبت أمام الحقيقة . فالماركسية هي نظرية تؤثر في عقول الرجال العمليين ؛ لأنها في الظاهر بسيطة ، وتفسر كل شيء . ولكنها لا تثبت أمام العمل حيث تظهر وجوه التناقض فيها . ويمكن أن يقال إن ماركس وإن كان صاحب نظرية خاطئة ، مفكر عميق بحيث لا يمكن تجاهل شخصيته .

وفي هذا العدد قصص عدة كتبها موريس دروون ، وأدريان جورج ، وروجيه بريي ، وكونستانس كولين ، وبول ألكسندر ، وقصة طويلة مترجمة عن الانجليزية لروبر جودن .

ريفي دي باري *La Revue de Paris* (عدد سبتمبر ١٩٤٧)

في عدد سبتمبر من هذه المجلة مقال افتتاحي بقلم الأخوين جيروم وجان تارو عن سنكور وبحثه التعس عن السعادة . فهذا الكاتب عاش

بين سنتي ١٧٧٠ و ١٨٤٦ عيشة فقيرة في باريس، وألف عدة كتب نسيها الناس بمجرد ظهورها. ولكن هذه الكتب قد استطاعت أن تظهر ثانية بالرغم من طغيان العصور، وتظهر لتخلد اسم صاحبها بعد نيف وقرن من وفاته.

ونشرت المجلة سبع عشرة رسالة لم تنشر من قبل للشاعر فرانسيس جام، كتبها إلى الأديب الفرنسي العظيم أندريه جيد.

وتكلم جيسكار دستانج عن القروض الأجنبية وتأثيرها في الاقتصاد الفرنسي. وهو يرى أن تجاهل ضرورة إنقاذ الحالة بعقد قروض خارجية يكون تجاهلا للحقائق. ولكنه يرى أنه من الخطأ الذريع عقد هذه القروض إلا إذا اضطرت إليها البلاد اضطراراً؛ فان استعمال هذه القروض يتطلب أكبر دقة في طريقة توزيعها. فاستعمال القرض الداخلي لسد عجز واقع معناه القضاء على عملة البلاد؛ أما استعمال القرض الخارجي في هذا الغرض فان معناه الافلاس. ولكن إذا استعمل القرض الخارجي بحكمة وبقدر ما تتطلبه الضرورة فانه يساعد في نهضة فرنسا وإزالة الموقف الصعب الحاضر.

وكتب بيير فريدريكس عن اضطراب الحالة في الشرق الأوسط، وتكلم عن البلاد العربية المختلفة، ويلخص الكاتب رأيه بأن بريطانيا وفرنسا خرجتا من هذه الحرب ضعيفتين، وأن الاتحاد السوفييتي في شغل عن أمور الشرق الأوسط باعادة إحياء بلاده، وعلى ذلك صار الدور الأول للولايات المتحدة؛ وهي الدولة التي تستطيع أن تنفذ في الشرق الأوسط سياسة نافعة تساعد في حل المشاكل القائمة في تلك الجهة كما هي قائمة في العالم بأسره، وهي مشاكل اقتصادية واجتماعية.

وقد وصف الكاتب أيتين روما جبل طارق وتاريخه في زمن الحرب، وما كان لهذا الموقع من أهمية لبريطانيا، فهو بصفته مفتاح البحر الأبيض المتوسط كان له الفضل في القضاء نهائيا على سلاح الغواصات في جنوب أوربا.

ووصف الكاتب جول برتو الكونتيسة دى بنلي وأتى على تاريخها إلى حين وفاتها في سنة ١٨٤٢.

وفي العدد مقالات وقصص طريفة أخرى.

مِن حَولنا

قصص مصرية

تأليف محمد سعيد العريان

جيل من الناس فى أفراحه وآلامه ، يرى كل قارئ فى مرآته صورة من نفسه ، أو صورة من حوله ، فى إطار قصصى رائع فى بيانه وفى فنه .

٢٦٠ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٠ مليما)



٢٥٠ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)

على باب زويلة

قصة تاريخية

تأليف

محمد سعيد العريان



كتاب رائع بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها وأصدقها فى وقت واحد ، كتاب من هذه الكتب النادرة التى تظهر بين حين وحين .

٣٥٠ صفحة ، طبعة مزينة بالصور

الثمن ٣٠ قرشاً (البريد ٢٨ مليما)





أرض البشر

للكاتب الطيار
أنطوان دى سانت أسكوپرى
تعريب مصطفى كامل فوده

أرض البشر، تلك الهباءة من الثرى التائهة بين الأجرام السماوية، تلك الأرض الجديرة باعجابنا لأنها وحدها تكوّن الرجال.



طبعة مزينة بالصور
٢٤٢ صفحة
الثمن ٢٥ قرشاً
(البريد ٢٠ مليما)



عقلي وعقلك

تأليف سلامه موسى

أوفى كتاب فى علم النفس الحديث
يبسط آخر المعارف عن هذا العلم
بلغة واضحة ليس فيه جملة معقدة
أو فكرة مبهمة تقرأه فتقف منه
على أسرار النفس البشرية وحركة
التفكــير .

٢٠٠ صفحة

الثمن ٤٠ قرشاً (البريد ٢٨ مليما)

العقيدة والشريعة في الإسلام

للمستشرق العظيم
إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية وعلق عليه
محمد يوسف موسى
عبد العزيز عبد الحق
على حسن عبد القادر

٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشاً (البريد ٤٠ مليما)

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط

تأليف

الأستاذ يوسف كرم

مدرس الفلسفة بكلية الآداب
بجامعة فاروق الأول

٢٦٦ صفحة

الثمن ٥٠ قرشاً (البريد ٣٦ مليما)

تحت الطبع

كتاب البخلاء للجاحظ

تحقيق وشرح الاستاذ طه الحاجرى

تأريخ قضاة الأندلس

نشره وعلق عليه إ. ليڤى پروڤنسال

قطوف

كتاب فى جزأين يجمع عدة مقالات و بحوث

بقلم عبد العزيز البشرى

البيت السبكى

بيت علم فى دولتى المماليك

تأليف محمد الصادق حسين بك

تربية سلامه موسى

بقلم سلامه موسى

النفس فى الصحة والمرض

تأليف الدكتور محمد زكى شافعى بك

تحت الطبع

سافونارولا

قصة الراهب الثائر والمصلح الديني والسياسي والاجتماعي

للدكتور حسن عثمان

الضحك

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

تعريب سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم

غانية أطلنطا

قصة رائعة للكاتب الفرنسي بيير بنوا عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب رشدي كامل

عقدة الأفاعي

قصة تحليلية لفرنسوا مورياك عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب نزيه الحكيم

قصة رجل مجهول

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

تعريب محمود الشليطي

مجلد ٦ — عدد ٢٤ | سبتمبر ١٩٤٧

هيروشيما



الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

الثمن بمصر ١٠ قروش

مجلد ٧ — عدد ٢٧
ديسمبر ١٩٤٧

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

تحت الطبع

كتاب البخلاء للجاحظ

تحقيق وشرح الاستاذ طه الحاجرى

تأريخ قضاة الأندلس

نشره وعلق عليه إ. ليفى بروفنسال

قطوف

كتاب فى جزأين يجمع عدة مقالات و بحوث

بقلم عبد العزيز البشرى

البيت السبكى

بيت علم فى دولتى المماليك

تأليف محمد الصادق حسين بك

تربية سلامه موسى

بقلم سلامه موسى

النفس فى الصحة والمرض

تأليف الدكتور محمد زكى شافعى بك

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

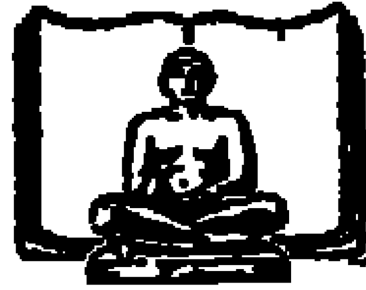
الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

إدارة الكاتب المصرى
٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصري



محـــرم ١٣٦٧ ديسمبر ١٩٤٧

السـنة الثالثـة مجلد ٧ — عدد ٢٧

المعذبون فى الأرض

المعـــتزلة

لا أريد تلك الفرقة الاسلامية المعروفة من فرق المتكلمين ، وإنما أريد أسرة مصرية بائسة كنت أنسيت أمرها ، حتى كان هذا الوباء الذى ألم بمصر فذكرتها ذكراً متصلا ملحا ، وحاولت أن أخلص من التفكير فيها فلم أستطع ، فأردت أن أتسلى عن ذكراها بالتحدث عنها لعل هذا التحدث أن يخرجها من ضميرى الخاص إلى الضمير العام ، فيكون فى ذلك تخفيف للعبء ، وتفريج للكرب ، وشفاء لبعض ما فى النفس . والهموم الثقال تخف إذا شاركت فى حملها ضمائر كثيرة ، ولم يقصر ثقلها على ضمير واحد مهما يكن أيِّداً قويا ، فكيف إذا لم يكن له حظ من قوة أو أيد !

وأردت أن أهدى حديث هذه الأسرة البائسة إلى المترفين المنعمين فى الأرض ، لا لأبغض إليهم الترف بل لأزينه فى قلوبهم ، ولا لأصرفهم عن النعيم بل لأرغبهم فيه ترغيباً وأدفعهم إليه دفعا . فقد تحدث الحكماء منذ الزمن الأول بأن الرجل الحازم خليق ألا ينظر إلى الذين يتفوقون عليه ، فتملأ قلبه الحسرة ويثقل نفسه الهم ، وأن ينظر إلى من دونه من الناس فيعرف ما أتيح له من حسن الحظ ، ويحمد رفق الله به ، ورعاية الله له ، وإسباغ نعمته عليه ؛ ويستمسك من أجل ذلك بما قسم له من الخير ، ويستمتع من أجل ذلك بما قدر له من النعيم . وأنا أبعد الناس عن التفكير

فى أن أزهّد المترفين فى ترفهم وأرغب المنعمين عن نعيمهم ؛ لأنى أعلم من جهة أنى لن أبلغ من ذلك شيئاً إن أردته مهما أنفق من الجهد ، ومهما أبرع فى تدبيج القول وتنميق الحديث . ولأنى أعلم من جهة أخرى أنّ ترف المترفين إنما يأتيهم بحكم القضاء المكتوب والقدر المحتوم . وليس من سبيل إلى تغيير القضاء ، أو تبديل القدر ، أو إلغاء سنة الله فى الناس . فالله قد خلق الناس على ما نراهم من هذه الفرقة فيما بينهم ، يترف بعضهم حتى يطغيه الترف وينعم حتى يبطره النعيم . ويحرم بعضهم حتى يضيق به الحرمان ، ويشقى حتى يمجه الشقاء . ولأنى أكره بعد هذا وذاك أن أكون كالثعلب الذى حاول أن يصيب العنب ، فلما لم يتح له ذلك عاب العنب وزعم أنه فج بغيض .

وقد خطر لى أن أتخذ لهذا الحديث عنواناً آخر ، هو أمّ تمام . لا أريد به زوج شاعرنا العظيم ، وإنما أريد به زعيمة هذه الأسرة المصرية البائسة ؛ فقد كانت تكنى بأكبر أبنائها . وخطر لى أن أهدى حديث هذه الأم وبنيها الثلاثة إلى البائسين المعذبين الذين مسهم الضر قبل الوباء ، وألحّ عليهم بعد الوباء حين تخطف الموت أبناءهم وآباءهم وإخوانهم وعائليهم وتركهم نهباً للشقاء ، لا يدرون كيف يتقونه ، ولا كيف يحتملونه ، ولا كيف يخلصون منه . لا لأبغض إليهم حياتهم البائسة وعيشهم النكد ، فما ينبغى أن تبغض إلى البائس بؤسه ولا أن تكره إليه شقاءه ، وإنما ينبغى أن تحبب إليه البؤس ، ليحتمله وليتزيد منه إن استطاع ، وأن تزين فى قلبه الشقاء ، ليصبر عليه . ويمعن فيه إن وجد إلى الامعان فيه سبيلا . فالبؤس قضاء محتوم على البائسين ، كما أن النعيم قضاء محتوم على المنعمين . والشقاء قدر مقدور على الأشقياء ، كما أن السعادة قدر مقدور على السعداء . والرجل الحازم العازم الحكيم خليق أن يرضى بالقضاء المكتوب ، والقدر المحتوم ، يحتمل الخير غير زاهد فيه ، ويحتمل الشر غير ساخط عليه . ولأمر ما وُصف الشرقيون بأنهم أصحاب إذعان للقضاء ، واستسلام للقدر ، ورضا بالمكروه . فلنصدق على أقل تقدير قول الغرب عنا وظنه بنا ورأيه فينا ، ليصطنع المترفون الشجاعة ليحتملوا الترف ، وليصطنع البائسون الشجاعة ليحتملوا البؤس ، وليصبر أصحاب الثراء على محنتهم بالثراء ، وأصحاب الحرمان على فتنتهم بالحرمان ، حتى ينتهى أولئك وهؤلاء إلى الموطن الذى

لا يكون فيه ثراء ولا حرمان ، والذى لا يكون فيه فقر ولا غنى ، والذى لا يكون فيه يسر ولا عسر ، والذى تتحقق فيه المساواة بين الناس جميعاً حين يصيرون إلى تراب كما خلقوا من تراب . ومهما يكن من شئ فقد ترددت بين هذين العنوانين : المعتزلة وأم تمام ، كما ترددت فى إهداء هذا الحديث بين المترفين والبائسين ، ثم آثرت آخر الأمر أن أخيّر القارئ بين العنوانين ، وأن أهدى الحديث إلى الفريقين ؛ ففى حديث هذه الأسرة ما يرضى المنعمين والمعذبين جميعاً . وأى مطمع للكاتب أجل شأناً وأعظم خطراً من أن يرضى قراءه على ما يكون بينهم من الاختلاف ! وفى حديث هذه الأسرة البائسة ما يسخط المنعمين والمعذبين جميعاً . وما قيمة الكاتب إذا لم يسخط قراءه على ما يكون بينهم من الاختلاف ! وأنا أريد دائما أن أكون كاتباً ذا خطر ، فأرضى قرائى وأسخطهم ، وأسر قرائى وأسوءهم ، وأعجب قرائى حتى يكلفوا بى أشد الكلف ، وأغيظهم حتى يمقتونى أعظم المقت . وأنا زعيم للمترفين بأن يجدوا فى حديث هذه الأسرة ما يحبب إليهم ترفهم ، فيعضون عليه بالنواجز كما يقال ، ويرضون عنى كل الرضا ، وبأن أصور لهم هذا الترف منكرا بشعا ، ومذمما بغيضا ، فيسخطون علىّ أشد السخط . وأنا زعيم للمعذبين بأن يجدوا فى حديث هذه الأسرة البائسة ما يعلّمهم الصبر على المكروه فيرضون عنى ، وما يلقى فى قلوبهم أن حياتهم لا تطاق ، وأن من حقهم أن يخرجوا منها إلى حياة ألين جانباً وأرق ملمسا ، وأن ليس لهم سبيل إلى هذا الخروج ، فيضيقون بى أشد الضيق ، وأبلغ بذلك كل ما أريد ، وهو أن أرضى القراء وأغيظهم مهما يكن بينهم من التفاوت والاختلاف . فأنا لا أريد إلا هذا ، ولا أفكر إلا فيه . وما الذى يعنينى من أن يترف المترفون حتى يقتلهم الترف ، ومن أن يشقى الأشقياء حتى يهلكهم الشقاء ! لا يعنينى من ذلك شئ ؛ لأنى رجل من أهل العصر الذى أعيش فيه . وأخص ما يمتاز به هذا العصر الذى أعيش فيه الأثرة وحب النفس . فأنا رجل أثِر لا أحب إلا نفسى ، ولا أفكر إلا فيها ، ولا أعنى إلا بها . وأنا رجل كاتب لا يعنينى إلا أن أملك على القراء أمرهم بما أثير فى قلوبهم من رضا وسخط ، وبما أشيع فى ضمائرهم من حب وبغض . ولست أزدرى شيئاً كما أزدرى إلقاء الدروس فى الأخلاق . ولست أنفر من شئ كما أنفر

من ترغيب الأغنياء فى العطف على الفقراء ، ومن تشجيع الأشقياء على احتمال الشقاء . ما أنا وهذا كله ! إن الناس من حولى لا يذوقون للتضامن طعما ، ولا يعرفون للتعاطف قدراً ، لا يحفل بعضهم ببعض ، ولا يفكر بعضهم فى بعض ، ولا يأسى بعضهم لآلام بعض ، فمالى أحمّل نفسى من الأعباء ما لا يريد الناس من حولى أن يحتملوا ؟ وما لى أدفع نفسى إلى هذا الشذوذ الذى لا خير لى فيه ولا خير لأحد فيه ؟ ومالى لا أسير سيرة الجيل ، ولا أعيش عيشة المعاصرين ، ولا أنتفع بقول أبى العلاء :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشياً تجاهلت حتى قيل إنى جاهل

الأثرة ، ياسيدى ، هى الأساس المتين الذى يقوم عليه نظامنا الاجتماعى البديع ، الذى نفتديه بأنفسنا ونحميه بما نملك ومالا نملك من جهد . فمن أراد الدفاع عن هذا النظام وحياطته وصيانته من أن يعبث به العابثون أو أن تمسه الخطوب بما لا يحب وبما لا نحب ، فليكن أثراً إلى أبعد غايات الأثرة ، محبا لنفسه إلى أقصى آماد حب النفس ، لا يحفل بالناس إلا بمقدار ما يهيئون له من الخير ، وما يحققونه له من المنفعة ، وما يبلغونه من الآراب . فاذا بَعُدَ الأمد بينه وبينهم ، أو خفيت عليه أسرار الصلات التى تجعله محتاجاً إليهم وتجعلهم محتاجين إليه ، فلا عليه من أن ينكرهم إنكاراً ويزدريهم ازدراء ، ويمضى فى طريقه مستمتعاً بطيبات الحياة ، غير ملق بالاً إلى ما يكتنفهم من الهول ، وما يصب عليهم من الهم ، وما يسلّط عليهم من الكوارث والنكبات .

كذلك نعيش ، وكذلك يجب أن نعيش . وأيسر انحراف عن هذا اللون من ألوان العيش عن هذا النظام من نظم الحياة خليق أن يجشمنا أهوالا ، ويحملنا هموما ثقالا . وكيف تستقيم حياتنا إذا عنى أصحاب الترف المترف والثراء العريض بأصحاب البؤس البائس والعذاب الأليم ، فذادوا عنهم بعض ما يثقلهم من البؤس ، ورفعوا عنهم بعض ما يضنيهم من العذاب ، وشغلهم ذلك عن الاستمتاع بلذاتهم والانتفاع بهذه الثمرات الحلوة المرة السائغة الفجة ، التى تأتيهم من بؤس البائسين وعذاب المعذبين ، وشغلهم ذلك عن أن يجتمعوا إلى سخف الحديث حين يرتفع الضحى ،

وإلى سخف المتاع حين يقبل المساء ، وإلى اللهو واللعب حين يتقدم الليل ، وإلى النوم الثقيل حين يهم الصباح بالاشراق ؟ إذن تفقد الحياة بهجتها ، وتفقد الدنيا زينتها ، ويصبح العيش المصرى كله نكداً كدراً منغصاً ، لا صفو فيه ولا عفو ولا جمال . حسبُ الأشقياء أن تعطف عليهم ألسنتنا وتنأى عنهم قلوبنا ، وأن نرثى لهم بالقول ونقسو عليهم بالفعل ، ونخلى بينهم وبين أحداث الزمان ونوائب الأيام ، تجرّعهم الآلام غصصا ، وتعلمهم كيف يكون استعذاب العذاب المر ، وإساغة الشر الذى لايساغ . وأقول هذا كله جادًّا لا عابثاً . فالله قادر على أن يمس الأرض بجناح من رحمته ، فيتيح لأهلها جميعاً ما يتمنون من الترف والثراء والنعيم . والله قادر على أن يمس الأرض بجناح من نقمته فيفرض على أهلها ما يكرهون من البؤس والشقاء والعذاب . وما دام الله لم يجعل الناس جميعاً سعداء ، ولم يجعلهم جميعاً أشقياء ، وإنما قسم حظوظهم بينهم على هذا النحو الذى نراه ، فليس لنا وليس علينا إلا أن نريح أنفسنا ، وأن يريح بعضنا بعضا من اللوم والنكير والتثريب ، وأن يرضى كل منا بما قسم له من الحظ ، وأن يحقق السعيد إرادة الله فى الأرض فينعم بالسعادة كأقصى ما يستطيع ، وأن يحقق الشقى إرادة الله فيغرق فى الشقاء إلى كتفيه أو إلى أذنيه ، أو إلى شعر رأسه إن شاء .

وقد يظن القارئ أنى قد أسرفت فى البعد به عن هذه الأسرة المعتزلة ، وعن حديث أم تمام . ولكنه يخطئ أشد الخطأ إن ظن بى هذا الاسراف . وهبه يصيب كل الصواب حين يظن بى هذا الاسراف ، فليس يعنينى من خطئه أو صوابه شئ . وإنما الذى يعنينى هو أنى أنا لا أعتقد أنى أطلت المقدمات أو انحرفت عن موضوع الحديث . فقد قلت إن هذا الوباء الذى ألم بمصر أذكرنى من أمر هذه الأسرة المعتزلة ما كنت ناسياً ، ثم ألح علىّ ذكرها إلحاحاً شديداً . وأكبر الظن أنى لم أذكر هذه الأسرة البائسة ذكراً متصلاً ملحًّا ، ليقف منها عقلى وقلبى موقف الناظر لها المحدق فيها ، دون أن يثير ذلك فى العقل بعض الخواطر ، ودون أن يثير ذلك فى القلب بعض العواطف ، ودون أن يشيع ذلك فى الضمير بعض الحزن . والكتّاب البارعون فى الفن يؤخرون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم

إلى آخر الحديث ، يجعلون من هذا كله عبرة لمن يريد أن يعتبر ، وموعظة لمن يريد أن يتعظ . فيجعلون من أنفسهم أساتذة فى الأخلاق ، ومصلحين لنظم الاجتماع ، ويرضون عن أنفسهم بعد ذلك كل الرضا ، ويجهلون أن القارئ أشد منهم مكرا وأبلغ منهم دهاء ، وأنه يقرأ أول الحديث لما قد يجد فيه من تسلية ، أو لما قد يلتمس فيه من تسلية ، ويترك آخر الحديث لأنه يضيق بدروس الوعظ والارشاد والاصلاح أشد الضيق .

ومن الكتّاب البارعين من يشيعون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم فى حديثهم كله منذ يبدءونه إلى حيث يفرغون منه . يتخذون من قصصهم أغشية لهذه المواعظ والعبر ، فيخدعون بذلك بعض القراء عن أنفسهم ، ولكنهم لا يخدعون القراء جميعاً . فلا يكاد الأذكياء منهم يقرءون حتى يستكشفوا مكر الكاتب ويعرفوا حيلته ، فيقرءون على كره أو يزورُّون عن القراءة ازورارا . فأما أنا فقد قلت وما زلت أقول : إنى لا أريد أن أعلم جاهلاً ، ولا أريد أن أعظ غافلاً ولا أن أنبه ذاهلاً . فلست من هذا كله فى شئ ، لأنى واثق بأن القراء جميعاً علماء لا يمكن أن يرقى إليهم الجهل ، أذكياء لا يمكن أن تسعى إليهم الغفلة ، متنبهون لا يمكن أن يعرض لهم الذهول . وقلت وما زلت أقول : إنى لا أريد أن أخدع أحداً عن نفسه ، لأنى لا أسئ الظن بالقراء ، ولا أنظر إليهم على أنهم أطفال يجب أن يلهوا عن الدواء بهذه الأغشية التى تجنبهم مرارته وكراهته . فكيف وأنا لا أقدم إليهم دواء ، لأنى لست طبيبا ، ولأنهم ليسوا مرضى ، ولأنى راض عن حياتنا التى نحياها كل الرضا ، مطمئن إليها كل الاطمئنان ، معجب بها أعظم الاعجاب ، لا أريد أن أغير منها قليلا ولا كثيراً ، ولا أحب أن يتغير منها قليل أو كثير . وأول هذا الحديث يدل فيما أظن دلالة واضحة على أنى من المحافظين المتشددين فى المحافظة ، ومن أصحاب اليمين الذين لا يضيقون بأحد كما يضيقون بأصحاب الشمال .

ومن أجل هذا كله اخترت أن أتحدث إلى القراء فى هذا المقال عن أمّ تمام وأسرتها المعتزلة ؛ لأن أمّ تمام كانت تصور المحافظة اليامنة أبرع تصوير وأصدقه وأقواه . فهى كانت من أهل الصعيد الأعلى . وأهل الصعيد محافظون كما يعلم القراء ، لم يفسدهم العلم ، ولم تنحرف بهم المعرفة عن الطريق

القصد ، ولم تعلمهم الحضارة وما كثر فيها من البدع أن فى الأرض جوراً يجب أن يرتفع عنها ، وأن فى السماء عدلاً يجب أن يهبط إلى الأرض ليملأها أمنا ودعة ورضاء . وإنما هم قوم يعيشون على فطرتهم ، ويرسلون نفوسهم على سجاياها . رأوا الأرض ملعباً لقليل من ملائكة العدل وكثير من شياطين الجور ، فأحبوا أولئك وألفوا هؤلاء ، ولم يطلبوا من أولئك ولا هؤلاء إلا أن يمضوا فيما استأنفوا من لعب . فان مسهم من هذا اللعب خيرٌ نعموا به ، وإن مسهم منه شرٌّ شقوا به ، غير منكرين ولا معترضين ولا محاولين تغييراً ولا تبديلا . ويقال إن الكاتب يختار أشخاصه على صورته ، وقد يقتطعهم من نفسه اقتطاعا . ولولا أن أمَّ تمام كانت غارقة فى البؤس والشقاء ، ومسرفة فى الدمامة والقبح ، لقلت إنى اقتطعتها من نفسى اقتطاعا . ولكنى لست غارقاً فى البؤس والشقاء ، والحمد لله على كل حال . وسيرى القارئ أن صورة أم تمام ليست منى فى شئ ، فيدله ذلك من غير شك على أنى لم أخترعها ولم أبتدعها ، وعلى أن خيالى الضعيف الكليل ليس له فى حياتها ولا فى حياة أسرتها أثر ما ، وإنما هى حقيقة واقعة خلقها الله الذى يخلق الحقائق كلها ، والذى يقسم بين الناس حظوظهم من الجمال والقبح ، كما يقسم بينهم حظوظهم من السعادة والشقاء .

وقد كانت أم تمام هذه غريبة الأطوار من كل جوانبها ، حتى إنى لا أستطيع أن أختار الطور الذى أبدأ به من أطوارها . وربما كان الخير أن أعرض عليك صورة ضئيلة حقيرة للبيت الضئيل الحقير الذى كانت تعيش مع أبنائها فيه .

فقد كان هذا البيت أشبه شئ بالبقعة القذرة التى تفسد جمال الثوب الجميل النقى . كان ضيقاً فى الفضاء أشد الضيق ، منخفضاً إلى الأرض أشد الانخفاض ، قد أقيم من هذا الطين الساذج الذى يخلطه الفلاحون بشئ من التبن والقش ويسوونه تسوية مقاربة ويسمونه فى مصر الوسطى « بالطوف » . ثم يجمعون بعض هذه الأطواف إلى بعض حول قطعة من الأرض ، يرفعونها فى الجو شيئاً ويمدونها فى الفضاء شيئاً ، ويلقون عليها طائفة من سعف النخل أو من قصب الذرة ، ويتخذون لها باباً من خشب رقيق ، فتصبح بيتاً يأوون

إليه ويتقون فيه برد الشتاء وحر الصيف ومطر السماء إن كان من الممكن لمثل هذا البناء المهلهل أن يقى الذين يأوون إليه برداً أو حرًّا أو مطراً . وكان بيت أم تمام هذا الصغير الحقير يقوم بين دارين ضخمتين فخمتين ، أو قل بين فناءين واسعين لهاتين الدارين . وفى كل فناء من هذين الفناءين قامت أشجار وشجيرات ، بحيث همّ كل فناء منهما أن يكون حديقة تقوم أمام الدار ، ولكنه لم يبلغ أن يكون حديقة ، فكان شيئاً بين الفناء المهمل والحديقة التى يمنحها الناس شيئاً من عناية ، ويجدون فيها شيئاً من راحة وروح . ولم أدر كيف قام هذا البيت الحقير الصغير بين هاتين الدارين العظيمتين . وقد سألت الناس من حولى عن هذا ، كما سألتهم عن مقدم أم تمام وبنيها إلى القرية وإقامتها فى هذا البيت ، فلم أجد عند أحد منهم جواباً ؛ لأنهم كانوا جميعاً طارئين على القرية دعتهم إليها الدائرة السنية ، ولأن القرية نفسها كانت طارئة على المكان أنشأتها فيه الدائرة السنية ؛ فلم يكونوا يعرفون من أمر جيرانهم ولا من أمر قريتهم إلا قليلا أو أقل من القليل . وكانت سيرة أم تمام وبنيها تمنع جيرانها من أن يعرفوا شيئاً من أمرها ؛ فقد كانوا يعتزلون الناس اعتزالا غير مألوف . ولكن أوان الحديث عن هذا الاعتزال لم يئن بعد . فقد ينبغى أن تعرف قبل ذلك أم تمام هذه ، أو أن ترى صورتها على أقل تقدير ؛ فصورتها خليقة أن ترسم . كانت أم تمام قصيرة مسرفة فى القصر ، منحنية مسرفة فى الانحناء . همّت قامتها أن ترتفع فى الجو فلم تستطع أن تستقيم وإنما انعطف أعلاها على أسفلها كأنها خلقت لتلتصق بالأرض التصاقاً . وكانت من أجل ذلك أشبه بذوات الأربع منها بالانسان ذى القامة المعتدلة والقد المستقيم . وكانت من أجل هذا إذا مشت خيّلت إليك أنها تتدحرج كما تتدحرج الكرة . وكان مشيها بطيئاً رفيقاً ، فكان يشبه حركة الكرة عندما تخف عنها قوة الدفع فتضطرب مبطئة تسعى إلى السكون . وكان صوت أم تمام نحيلا ضئيلا ، وكانت قد فقدت بعض أسنانها ، فكان صوتها النحيل الضئيل يستحيل إذا تكلمت إلى هواء خافت لا يكاد السامع يتميز حروفه إلا فى مشقة وجهد . وكان يعيش معها فى بيتها ذاك الصغير الحقير غلامان ، كاد أحدهما أن يبلغ العشرين وهو تمام ، وجاوز الآخر الخامسة عشرة قليلا وهو أبو العلاء .

وكان تمام وأخوه يعملان فى البناء ، يحاول تمام أن يكون بنّاء ، ويحمل أخوه الطين والماء وغيرهما من الأدوات التى تتصل بعمل البنائين . ويصيب الغلامان من هذا العمل الذى يتصل أحياناً وينقطع أحياناً أخرى ما يتيح لأسرتهما قوتاً يقيم الأود ولا يكاد .

وكانت لأم تمام بنت فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها ، وهى سعدى التى كان الجمال والدمامة يختصمان على وجهها وجسمها كله اختصاما شديداً : يريد الجمال أن يستخلصها لنفسه مستعينا بقوة الصبا والشباب ، ويريد القبح أن يؤثر بها نفسه مستعينا بالبؤس وما يستتبعه من الحرمان . وكانت الصبية بين هذين الخصمين أشبه شئ بالكرة يتقاذفها اللاعبان . ولم يعرف أحد لهذه الأسرة زعيما ، بل لم يعرف أحد كيف هبطت الأسرة من أعلى الصعيد إلى هذه القرية من قرى بمصر الوسطى . وإنما كان الناس يتحدثون بأن أم تمام قد نهضت وحيدة أو كالوحيدة تنشئ بنيها الثلاثة وقد لقيت فى ذلك جهداً جهيداً ، وعناء شديداً . لم تهبط بهم من صعيدها الأعلى إلى قريتنا تلك إلا متنقلة بين المدن والقرى ، تقيم فى هذه المدينة سنة أو أقل أو أكثر ، وتقيم فى هذه القرية أشهراً ، وفى هذه القرية أسابيع ، وفى هذه القرية أياماً قليلة أو كثيرة ، حتى انتهت إلى قريتنا تلك ، فأقامت فيها وأطالت المقام .

ولم يكن اسم أم تمام أقل غرابة من كنيتها ، بل لم يكن أقل غرابة من جسمها . فأنت إن أردت أن تنطق به كما كان الناس ينطقون به فى القرية قلت ست أبوها ، وإن أردت أن تنطق به على أصول اللغة الفصحى قلت سيدة أبيها ، أو ست أبيها كما كان الناس ينطقون فى بعض عصورنا القديمة . وكان هذا الاسم يقع من آذاننا موقعاً غريباً ؛ وكنا ننطق به على أنه كلمة واحدة لا كلمتان ، وكنا نسأل أنفسنا عن معنى هذا اللفظ الغريب .

ولم تحاول أم تمام قط ولم يحاول أحد من بنيها قط الاتصال بالناس إلا حين كانت الضرورة الملجئة تضطرهم إلى ذلك اضطرارا . فقد كانوا يحتاجون إلى ان يشتروا الطعام ليقيموا أودهم . وكانت أم تمام تحتاج أحياناً إلى أن تبيع ؛ فقد كان يعرض لها فى بعض الوقت أن تخرج إلى الطريق الزراعية العامة ، وأن تلتقط من هذه الطريق روث البقر والجاموس تقطعه قطعاً

متقاربة ، وتجففه على سقف بيتها ، وتتخذ منه وقوداً لتطبخ إن أتيح لها أن تطبخ ، وتبيع فضله بين حين وحين لبعض نساء القرية بالقرش أو بعض القرش ، توسع بذلك على نفسها وعلى بنيها . ولم يخطر فيما أعلم لأحد من الموسرين ولأهل الدارين اللتين كانتا تكتنفان بيتها أن يبروا هذه الأسرة بقليل أو كثير من الخير ؛ لا لأن الموسرين كانوا يبخلون بالمعونة على الذين يحتاجون إلى المعونة ، بل لأنهم فى أكبر الظن قد همّوا أن يبروا هؤلاء الناس فردوا برَّهم عليهم فى شئ من التعفف الذى لا يخنب من الفقراء ، فكفَّ الموسرون عن محاولة الرفق بهم والتوسيع عليهم فى الرزق . وأمثال أم تمام فى القرى يوسعن على أنفسهن وعلى أبنائهن وأزواجهن أحياناً بالعمل فى دور الموسرين والأغنياء ، يكسبن من هذا العمل قوت أنفسهن وفضلاً من خير يحملنه إلى البيوت ، فيأكل الجائع ويكتسى العريان ويذوق المحروم شيئاً من طيبات الحياة .

ولكن أم تمام لم تحاول شيئا من ذلك ولم تفكر فيه ، وكأنها قد حرجت على ابنيها أن يحاولا بعض ما يحاول الشباب الفقراء من الاتصال بشباب الأغنياء وأصحاب السعة . فلم يكن الغلامان يشاركان فى لعب ولا فى جد . وربما رآهما الراءون وقد جلس كل منهما إلى أخيه يخططان فى الأرض أو يلعبان لعبة «الطاب» . وكذلك نظر أهل القرية إلى هذه الأسرة على أنها أسرة غريبة ثقيلة سمجة ، ليست منهم وليسوا منها فى كل شئ . وكان أهل القرية مع ذلك يتحدثون فيما بينهم عن هؤلاء الناس فى إشفاق كثير لا يخلو من سخرية ، وربما يقسو — إن أمكن أن يكون الاشفاق قاسيا — فيشتمل على شئ من شماتة . كانوا يرون هذين الغلامين يحتملان أشد العناء وأشق المشقة ليكسبا القروش القليلة فى بعض الأيام ، ويتساءلون كيف تعيش هذه الأسرة من هذا الكسب القليل . وكانوا يرون هذين الغلامين وقد بليت ثيابهما فكشفت عن مواضع من الجسم من حقها أن تستر ، ورقعت حتى ملت الترقيع . وكانوا يرون الصبية سعدى فى أسمالها البالية ، فيرحمون هذا الصبا النضر فى هذا الغشاء المبتذل . ويقول بعضهم لبعض لولا الكبرياء لأصاب هؤلاء الناس عيشاً أرق رقة وألين لينا .

أما أم تمام فلم يرها أحد قط إلا ملتفة فى شقتها السوداء تتدحرج على الأرض حين تشرق الشمس ساعية إلى الطريق العامة ، وتتدحرج

على الأرض حين يرتفع الضحى أو ينتصف النهار ، حاملة ما جمعت من روث . وربما رآها الراءون متبذلة على سقف بيتها تقطع الروث وتسويه ، فرأوا منظراً بشعاً وشكلا مخيفاً .

ويقبل الوباء ولما يبلغ هذا القرن من عمره سنتين . ويلم الوباء بالقرية فيما يلم به من المدن والقرى . ويفجع الناس فى أنفسهم وأبنائهم وذوى قرابتهم ومحبتهم ، وتكون أم تمام فى طليعة الذين يفجعهم الوباء ؛ فهو يختطف ابنيها جميعاً فى أقل من خمسة أيام . وهى مع ذلك هادئة ساكنة مطرقة بجسمها كله إلى الأرض ، لايرتفع لها صوت بالاعوال ، ولا ينخفض لها صوت بالنحيب ، وإنما هى مقيمة فى بيتها ، وقد آوت إليها ابنتها كأنما تنتظران أن يلم الوباء بهما ويختطفهما كما اختطف الغلامين . ولكن الوباء قد أرضى حاجته من هذا البيت فهو لا يعود إليه . فاذا طال انتظار أم تمام له فى غير طائل ، نظر الناس فاذا أطوارها قد تغيرت من جميع جوانبها ، وإذا حياتها قد بدلت تبديلا ؛ فهى لا تألف بيتها ولا تحب الاستقرار فيه ، وإنما تمسك فيه الصبية وتحرج عليها أن تخرج منه ، وتنطلق هى مع الشمس المشرقة لتعود إلى بيتها وابنتها حين ينشر الليل ظلمته على الأرض ، ويسعى الموت والمرض مستخفيين إلى البيوت .

كانت أم تمام تخرج من بيتها حين تشرق الشمس ملففة فى شقتها السوداء مطرقة بجسمها كله إلى الأرض ، فتقف أمام بيتها وقفة قصيرة تستقبل الغرب ، وترفع رأسها فى تكلف شديد إلى السماء ، وتمد بصرها أمامها ثم تلتفت إلى يمين وإلى شمال ، تجذب الهواء بأنفها جذباً إلى أنفها ، كأنما تحاول أن تتنسم رائحة خفية ضئيلة ، وقد كانت بالفعل تتنسم رائحة الموت ، ثم تندفع إلى يمين أو إلى شمال ، ثم لا يراها الناس أثناء النهار كله إلا فى دار من هذه الدور التى ألم بها الموت وقام فيها المأتم يندبن ويبكين . وكانت أم تمام تصل إلى هذه الدار أو تلك فلا تقول لأحد شيئاً ، ولا تلقى إلى أحد سمعاً ، وإنما تقصد قصد المأتم الباكيات ، وتجلس حيث ينتهى بها المجلس ، لا ترفع صوتا باعوال ولا تخفض صوتاً بنحيب ، لا تلطم وجهها ولا تخمش صدرها ، ولا تصنع صنيع أحد من هؤلاء النساء ، وإنما تجلس ساكنة منعطفة على نفسها ، كأنها قطعة من صخر قد سويت على عجل ونحتت

فى غير نظام ، وفاض من عينيها دمع غزير غير منقطع ، كأنه بعض تلك الينابيع الضئيلة التى يتفجر عنها الصخر فى الجبال . حتى إذا بلغت حاجتها من البكاء فى هذه الدار تركتها إلى دار أخرى ثم إلى دار ثالثة ، وما تزال كذلك حتى ينقضى النهار لا تكلم أحداً ولا يكاد يكلمها أحد ، ولا ترد على الذين كانوا يكلمونها رجع الحديث . أكانت تبكى ابنيها ؟ أكانت تبكى أبناء تلك الأسر التى كانت تلم بها ؟ أم كانت تبكى صرعى الوباء جميعاً ؛ أم كانت تبكى نفسها وابنتها بين الذين لم يصرعهم الوباء ، وكيف كانت تعيش ، وكيف كانت تتيح لابنتها الصبية أن تعيش ؟ لم يستطع أحد قط أن يعرف من ذلك قليلا ولا كثيراً . لم يحاول أحد أن يُعينها ، ولم تحاول هى أن تستعين بأحد ، وإنما أنفقت أيام الوباء تتنسم ريح الموت حين يسفر الصبح ، وتُسفح دموعها فى منازل الموت أثناء النهار ، وتعود إلى بيتها وابنتها حين يقبل الليل . وتنجلى غمرة الوباء ، وتخرج أم تمام من بيتها مع الصبح أياماً وأياما ، فتستقبل بوجهها الغرب تتنسم ريح الموت فلا يحملها إليها النسيم ، فترجع أدراجها وتدخل بيتها وتغلق من دونها الباب ، ولا يراها النهار إلا حين تخرج مع الصبح لتتنسم ريح الموت . ويراها بعض أهل القرية ذات يوم وقد خرجت قبل أن يرتفع الضحى ، وأخذت بيد ابنتها وجعلتا تسعيان فى بطء نحو الغرب ، فيقول بعضهم لبعض : هذه أم تمام قد ملت البطالة ، وسئمت السكون وشق عليها وعلى ابنتها الجوع ، فخرجتا تلتمسان الرزق وتبتغيان من فضل الله ؛ ولكن النهار لا يكاد ينتصف حتى يأتى نفر من الفلاحين يحملون جثة قد شاع فيها الموت ، وجثة أخرى تمتنع على الموت امتناعاً . قد رأوا أم تمام تغرق نفسها وابنتها فى القناة الابراهيمية ، فأسرعوا إلى استنقاذهما ، ولكن الموت سبقهما إلى الشيخة وسبقوه هم إلى الصبية . وقد دفن أهل الخير أم تمام ، وآووا سعدى ، فى هذه الدار أياماً وفى تلك الدار أياماً . ولكن سعدى خرجت من الماء بلهاء ليس لها حظ من عقل ولا نصيب من صواب ؛ فهى ثقيلة على الذين يؤونها ، بغيضة إلى الذين يضيفونها . وما هى إلا أسابيع حتى تلفظها الدور والبيوت ، وإذا هى مشردة تسعى ما استطاعت السعى ، وتسكن حين تضطر إلى السكون تراها فى هذا الشارع من شوارع القرية مصبحة وفى هذا الزقاق من أزقتها ممسية ، وتراها بين ذلك فى الطريق

العامة تسعى سعياً رفيقاً كأنها السلحفاة ، أو تعدو عدواً سريعاً كأنها الأرنب . وقد تراها أحياناً جالسة على شاطئ القناة تنظر إلى الماء كأنها تريد أن تغوص فيه ، أو تنظر إلى السماء كأنها تريد أن ترق إليها . وعرف الناس سعدى البلهاء ، ونسى الناس أم تمام ، وجعل الناس ينظرون إلى سعدى البلهاء كما ينظر أهل الريف إلى أمثالها ، يعطفون عليها حيناً ويضحكون منها أحياناً ، يرثون لها مرة ويقسون عليها مرات .

وسعدى البلهاء على ذلك تعيش وتشب ويستدير جسمها ويستقيم قدها ، ويسخر البؤس منها فيلقى على وجهها مسحة من جمال ، وهى على ذلك حمقاء خرقاء لا تحسن أن تعمل ولا تحسن أن تقول ، ولا تستقر فى مكان ، وانما هى متنقلة بين القرى : ترى فى هذه القرية يوما وفى تلك القرية يوما آخر ، وقد ترى فى هذه القرية مصبحة وفى القرية المجاورة من قرب أو من بعد ممسية . ولكن أهل القرية يرونها ذات يوم فيرون منظرا عجبا من شأنه أن يمزق القلوب حزنا ويفرق النفوس حسرة وأذى . يرون هذا المنظر المؤذى البشع البغيض ، فلا يثير فى نفوسهم رحمة ولا يجرى ألسنتهم بكلمة رثاء ، وانما ينظرون ثم يتضاحكون ثم يتبادلون هذه الألفاظ الغليظة التى تصور سخرية أهل الريف ، لأنهم يرون سعدى البلهاء تسعى وبطنها يسعى بين يديها ، قد عبث بها غول من أغوال الطريق فوضع فى أحشائها جنينا . وهى بلهاء لا تفرق بين الغول والرجل ولا بين الملك والشيطان ، ولا تعرف ما يراد بها ولا تعرف ما تريد إن كان لمثلها أن تريد .

أين مضت سعدى بهذا الجنين الذى كانت تحمله فى أحشائها ؟ أأتيح لهذا الجنين أن يرى النور أم لم يتح له أن يراه ؟ ما خطبه وما خطب أمه ؟ لن أحدثك من أمرهما بشئ لأنى لم أعرف من أمرهما شيئاً . وانما حدثتك بما وقف عنده علمى ، فقد ارتحلت عن القرية قبل أن تبلغنى أنباء الجنين وأمه البلهاء ، ثم شغلت عن الجنين وعن أمه البلهاء وأنسيت أم تمام وابنتها . وتقلبت فيما شاء الله أن أتقلب فيه من شؤون الحياة خمسة وأربعين عاما . ثم أعود إلى مصر بعد غيبة عنها قصيرة أو طويلة ، فأجد فيها الوباء ، وما هى إلا أن أذكر أم تمام وابنتها سعدى البلهاء وما هى إلا أن أسأل نفسى أيمكن أن يجد الوباء الحديث ما وجد الوباء القديم من حال أم تمام وأشباه أم تمام ؟

يقال إن شؤون مصر قد تغيرت ، وإن حياة مصر قد صلحت فيما يقرب من نصف قرن . ولكن شؤون مصر التى تغيرت ، وحياة مصر التى صلحت لم تمنع الوباء من أن يجدد عهده بزيارة مصر . فمن يدرى ! لعل تغير الشؤون وصلاح الأحوال ورقى النظام الاجتماعى والسياسى ، لا يمنع من أن توجد فى قرية من قرى مصر العليا أو من قرى مصر السفلى ، أو قريباً جداًّ من القاهرة ، أسرة معتزلة كأسرة أم تمام .

طه حسين

العالم اليوم بين التأميم والتمويل

حسب الناس أن مؤتمر سان فرنسيسكو ، إذ انعقد فى ربيع سنة ١٩٤٥ كان إيذاناً بسير العالم سيراً حثيثاً فى سبيل التعاون بين سائر أجزائه . لكن هيئة الأمم المتحدة التى انبعثت من ميثاق ذلك المؤتمر لم تلبث أن كانت اجتماعاتها مثاراً للكامن بين أعضائها من خلاف ، كما لم تلبث المؤتمرات الدولية التى عقدت فى باريس ولندن وواشنطن وموسكو ، أن سجلت مواضع المنافسة بين اتجاهات الدول الكبيرة الخاصة ، فكادت الحوادث تعود بنا إلى الأوضاع القديمة المتصلة بتعادل القوى ، وتوازن النفوذ ، لولا أن هذه الحوادث قد كشفت عن جديد ، تتميز به حركة العودة الملاحظة ، والرجوع المرتقب .

ذلك بأن العالم قد أخذت معالم الانقسام فيه تتبين بين ما يعبرون عنه بالشرق والغرب ، أو بين ما يحدده الواقع بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية ، بعد أن كان الانقسام فيما مضى يقع بين دول المنطقة الواحدة ، وتظل قارة بأكلها منعزلة عنه انعزالا . وذلك بأن التميز الواقع الآن إنما يستند إلى اتجاهين اقتصاديين اجتماعيين متقابلين متناقضين : اتجاه التأميم ، واتجاه التمويل .

أما التأميم فيرمى إلى تمليك وسائل الانتاج كلها إلى الأمة ، ويهدف إلى محو الأرباح الفردية وتوجيه الفروق بين الموارد والتكاليف لزيادة أجور العمال والمساهمة فى تهيئة أسباب الهناءة للجماعة التى تكتنفهم . وأما التمويل فيرمى إلى خص أرباب المال بتلك الوسائل جميعها ، ويهدف إلى زيادة الأرباح الفردية يوزعها على حملة الأسهم والقراطيس .

والواقع أن الاتحاد السوفيتى يمثل نظامه الاشتراكى التأميم إلى أقصى

حدوده ، وأن الولايات المتحدة الأميريكية يمثل نظامها الرأسمالى التمويل إلى أقصى حدوده ؛ فكل شئ فى الأول ملك للدولة ، وكل شئ فى الثانية ملك لأصحاب رءوس الأموال المكتلة . والواقع كذلك أن العالم متراوح بين النظامين ، بل إن التراوح ذاته يتوافر داخل أكثر من دولة من دوله ، ولا تختلف فيه إلا نسبة الميل إلى اليمين أو إلى اليسار . ففى بعض البلاد الرأسمالية الحرة نجد أكثر من مرفق من المرافق ملكا للدولة كالسكك الحديدية والمناجم مثلا ، وفى بعض البلاد الجماعية نجد أكثر من نشاط انتاجى متروكا للأفراد ، وإن خضع تركه لبعض الشروط كالمصانع التى يقل العمال فيها عن عدد معين أو المزارع التى تنقص مساحتها عن قدر محدد . وقد تكون بلجيكا مثلا للنوع الأول ، وقد تكون تشيكوسلوفاكيا مثلا للنوع الثانى .

على أن المشاهد المقرر انما هو الميل الواضح خلال العالم كله إلى السير فى سبيل التأميم والابتعاد عن طريق التمويل : وقد تمت فى انجلترا حركات التأميم للبنوك والمناجم وطرق المواصلات أو كادت ، كما تمت حركاته أو كادت كذلك فى فرنسا وفى إيتاليا ، وكما تتبين وتتجلى فى بلجيكا وفى هولندا ؛ وكل تلك البلاد واقعة إلى غرب الخط الفاصل بين المنطقتين المتقابلتين ، وهو الخط الممتد من ممل وشتتن فى الشمال إلى تريستا فى الوسط وإلى جزيرة كورفو فى الجنوب .

وقد لمست الولايات المتحدة هذا الاتجاه البادى . ولعل لمسها إياه هو الذى دعاها إلى اخراج مشروع مارشال ، وهو يهدف فيما يهدف إليه إلى إعاقة السير فى سبيل التأميم عند البلاد التى يمنيها بالاعانة والمساعدة . بل إن هدف الولايات المتحدة قد وضح وضوحا حين سعت إليها انجلترا للحصول على قرض جديد أو لتعديل قيود قرضها القديم ، فاشترطت أن تعدل انجلترا عن حركة تأمم صناعة الصلب والفولاذ التى كانت وزارة العمال متجهة إليها فى حماسة . وهو كذلك يتضح هذين اليومين فى تضمينها شروط إعانتها العاجلة لفرنسا وإيتاليا والنمسا تعهد هذه الدول باستعمال هذه الاعانة استعمالا ذكيا . ولا شك أنها تعنى بالذكاء تمام الانسجام مع النظرات التى تنظر بها هى إلى ماينبغى أن يتوافر فى العالم من أنظمة اقتصادية واجتماعية تتفق مع مصالحها بل تخدم هذه المصالح بالذات .

والحق الذى بدا منذ قامت قيامة الرئيس ترومان فى سبيل مساعدة اليونان وتركيا ، إنما هو رجوع النشاط الأميريكى فى ميدان التنظيم الاقتصادى والدعم المالى إلى اعتبار الوجل الذى يكتنف أرباب المال فى الولايات المتحدة ذاتها من جراء انتشار فكرة التأميم فى العالم . ذلك أن التأميم يقضى على استثمار الأموال الفردية ، وذلك أنه ينظم التوجيه الاقتصادى . والولايات المتحدة تنتج أكثر مما تستهلك من ناحية ، وقد تكدست فيها الأموال من جراء مكاسبها أثناء الحرب من ناحية ثانية . ودول أوربا قد أصيبت بويلات قللت من قدرة الشراء فيها ؛ فقد ضاعت أموالها وضعفت وسائل انتاجها . ومصلحة الولايات المتحدة تقضى باعادة هذه القدرة إليها حتى تستطيع أن تنشر فيها منتجاتها التى تهدد بالتكدس داخل حدودها . وقد رأت تحقيقاً لهذه المصلحة أن تعين الدول الأوربية عن طريق القروض بل عن طريق الهبات ، حتى تستطيع أن تشترى منها الزائد عن حاجة استهلاكها ، فتستمر مصانعها محتفظة بمستوى انتاجها ويستمر حملة أسهم هذه المصانع محتفظين بمستوى أرباحهم من ناحية ، كما رأت أن تتقدم بأموالها المعطلة لانشاء المصانع وتنفيذ المشروعات فيفيد أرباب هذه الأموال من دخول هذه المشروعات وتلك المصانع . وفى هذا كله درء للكارثة أن تحل بالاقتصاد الأميريكى ، ودرء للافلاس أن ينزل بالمولين الأميريكيين .

لكن نظرية التأميم تعوق ذلك التحقيق الذى تريده الولايات المتحدة وأرباب المال فيها . فهو تمليك للأمة ، وإذن فلا صناعات ولا مشروعات لأفراد أو شركات . وهو تمليك الأمة الدولة ، فلا توظيف لمال أجنبى فى أى نشاط اقتصادى داخل حدود هذه الدولة . وهو من ناحية أخرى تنظيم للتوجيه الاقتصادى ، فهو دفع لقدرة الشراء حيث يرى مصلحة جماعته ، وقد يقصرها داخل حدود هذه الجماعة ، وقد يقصرها على أصناف غير تلك التى تعنى الولايات المتحدة بتصريفها وبخلق أسواق لها .

وريح التأميم تهب عاصفة من ناحية الاتحاد السوفيتى ، وإن كانت تسود أجواء بلاد لا تمت للشيوعية ولا للاشتراكية بسبب ، وتحملها الآراء الجديدة التى تحاول أن تطرأ على تنظيم العالم الحديث ؛ فلا بد من ناحية

النظر الاميريكية أن تجند الجهود فى سبيل مقاومة الشيوعية بصفة عامة وفى سبيل مقاومة اتجاهات التأميم بصفة خاصة . وفى اليونان تيار شيوعى فينبغى القضاء عليه فى مهده ، وفى تركيا عداوة تقليدية للروس فيجب تغذيتها ، وفى تشيكوسلوفاكيا عدم تبين لتفوق الاتجاه الشيوعى على الاتجاهات اليمينية فلا يجوز ترك أمورها لنفسها خشية انتهاء ذلك الاتجاه إلى التفوق ، وفى فرنسا وفى إيتاليا نشاط شيوعى بارز وفيهما أزمة اقتصادية حادة ، فيصبح مساومتهما بالمعاونة على الخروج من الضيق الاقتصادى بكبت ذلك النشاط الشيوعى ، وفى انجلترا — الأخت السكسونية — ميل اشتراكى يدعو إلى التأميم ويحقق بعض جوانبه ، وفيها كذلك ضيق مالى ونقص تموينى ، فليفرض عليها الوقوف فى وجه التأميم إذا هى شاءت الانتفاع من فضل القروض وشروطها الميسرة .

وغير دول أوربا التى نزلت بها نوازل الحرب فأخلت بتوازنها الاقتصادى والاجتماعى ، دول أخرى فى أميريكا الجنوبية وفى الشرق الأوسط ، قد يميل بعضها إلى الأخذ بمبدأ من مبادئ التأميم ، وقد يفكر بعضها فى الخروج من حظيرة الزراعة الضيقة إلى مضمار الصناعة الواسع . وإذن فلتسبق الولايات المتحدة إلى ربط هذا الغير من الدول باتجاهات تضمن لها فيهن التفوق . وأميريكا الجنوبية واقعة فى « النصف الغربى من الكرة الأرضية » ، فلتدخل فى نطاق الدفاع عن هذا النصف ، وليجرها هذا الدفاع إلى الوقوف موقف التضامن المحتوم من مناوأة الاتحاد السوفيتى ومن مناهضة الشيوعية . وفى الشرق الأوسط احتمالات مقرونة برغبات صادقة فى سبيل التصنيع ، فلتتقدم الولايات المتحدة لدوله باقتراحات المساهمة المالية والفنية فى انشاء المصانع الجديدة ، وليكن بينها المصانع الحربية ، ولتضع بذلك يدها على الانتاج الجديد ، ولتوجه الحربى منه بخاصة الوجهة الفنية التى تتمشى مع أغراضها الاستراتيجية ، فتقلب هذا الشرق الأوسط مع ركنه الشمالى الشرقى — ركن تركيا واليونان — حصونا حربية واقتصادية للدفاع عن كيانها وكيان أرباب المال فيها .

تلك هى الشواهد التى يستقرئها من يتتبع تطورات الحوادث الجارية طوال العامين المنقضيين على قيام هيئة الأمم المتحدة التى ظنها المتفائلون

أداة من أدوات التوفيق ووسيلة من وسائل الحد من المطامع . وإنها لناطقة بأن النزاع المستولى على الاتجاهات فى العالم ، إنما هو نزاع مستند إلى مُدْرَكين متناقضين : مدرك التأميم ومدرك التمويل ، تقوم بينهما حرب شعواء يلجأ الطرفان الملتحمان فيها إلى كل ما يستطيعان الالتجاء إليه من أساليب ووسائل ؛ فهى فى نظرهما على السواء حرب قيام أو فناء .

محمود عزمى

في أفق السياسة العالمية

الحرب الباردة والقنبلة الذرية

وصف أحد الكتاب السياسيين حالة الجفاء والتوتر القائمة الآن بين الدول الكبرى بأنها الحرب الباردة أو الجامدة ، التي لا تراق فيها الدماء ، ولا تقتتل الجيوش ، وإنما تصطدم فيها السياسات وتصطرع مصالح الشعوب ، ويضحي من أجلها بأنفس ما وصلت إليه جهود البشر في الحرب الأخيرة من تعاون وسلام . ومن علامات هذه الحرب الجديدة ، أن الكتّاب والسياسيين الذين كانوا في الماضي ينبذون اسم الحرب ، ويتحاشون ذكرها في أحاديثهم أو بياناتهم ، قد أصبحوا الآن لايكاد يمر يوم دون أن تجرى فيه كلمة الحرب المشئومة على ألسنتهم وعلى أسنة أقلامهم ، لا في خطبهم وصحفهم فحسب ، بل كذلك في ساحة الهيئة الدولية وأمام الملأ من مندوبي الدول الذين اجتمعوا في نيويورك لتأمين قضية السلام وتوطيد أركان التعاون بين الشعوب . فمندوب روسيا هناك لا يرى حرجاً في أن يتهم حكومة الولايات المتحدة علناً بأنها حكومة استعمارية تدعو في سياستها إلى الحرب ، وبأنها تجرى في خططها بوحي من أصحاب رءوس الأموال الذين يفيدون عادة من الحروب . ثم ينحرف المندوب إلى بريطانيا فيخص مستر تشرشل بقارص اللوم والتقريع ، ويقول عنه : « إن تشرشل يحرض على شن حرب أخرى ضد روسيا وديمقراطيات أوربا الشرقية . . . وإنه لا يخجل من أن يهدد بعقد محالفة عسكرية بين أمريكا وبريطانيا لاشعال نار حرب جديدة » . وأخيراً يقرن المندوبُ في خطابه أمام الجمعية العمومية لهيئة الأمم :

« إن هؤلاء الدعاة الذين يستفيدون من الحرب يحاولون تخويف الشعوب بالأكاذيب الملفقة عن استعدادات يزعمون أن الاتحاد السوفيتي يقوم بها لمهاجمة أمريكا ، وهم يعلمون من غير شك أنهم كاذبون ، وأن الاتحاد

السوفيتى لايهدد أحداً بالاعتداء بأية صورة . » ويرد المندوب البريطانى على هذه الاتهامات فيقول : إن روسيا مازالت تؤمن بالنظرية التاريخية البالية نظرية السيطرة والسيادة المطلقة فى العالم ، وإنه إذا لم تكن روسيا مستعدة لقبول مبدأ المساواة التامة عن رضا واختيار ، فلن يكون لهيئة الأمم المتحدة معنى ، ويكون اجتماع مندوبى الدول فى جمعياتها ومجالسها ضرباً من العبث . ولا يكاد ينقضى أسبوع على هذا التراشق بالتهم بين مندوبى الدول الثلاث الكبرى حتى يظهر كتاب سياسى للوزير الأمريكى السابق مستر جيمس بيرنز ، وقد جعل عنوانه : «لنتكلم بصراحة »[1] وقد فند فيه سياسة روسيا ، وبين أنها تعمل جاهدة للهيمنة على أوربا ، لا فى شرقيها ووسطها فحسب ، بل فى غربيها أيضاً . ومما جاء فى كتابه خاصا بمشكلة ألمانيا : « إنه إذا تفاقم الخلاف بين الدول الغربية وبين اتحاد السوفيت بشأن مصير ألمانيا فمن واجب الدول الغربية أن تدعو سائر الدول إلى مؤتمر عام . وإذا أصرت روسيا على موقفها ورفضت سحب قواتها من المنطقة الألمانية التى تحتلها ، فما على الدول الغربية إلا أن تعقد مع ألمانيا معاهدة صلح على انفراد ، ثم يتعاون الجميع على طرد روسيا خارج ألمانيا بالقوة . » وكذلك لم يحاول مستر بيفن وزير خارجية انجلترا أن يخفى قلقه حين قال فى خطبة حديثة له : إنه إذا استعصى الاتفاق بين الدول فى مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة المزمع عقده فى ٢٥ نوفمبر ، فان الموقف بين الدول لا بد أن يتطور تطوراً بالغاً منتهى الخطورة .

ولم يقف اتهام الفريقين بعضهم بعضاً عند حد التراشق بالتهم والمهاترة فى الكتابة والخطابة ، بل يبدو أنهما قد وطنا النفس على اجتياز حدود الكلام والدخول إلى منطقة الأعمال ؛ فعقد مندوبو الاتحاد السوفيتى ودول الكتلة الشرقية مؤتمراً عاما فى فرسوفيا عاصمة بولنده حضره أيضاً مندوبون عن الحزبين الشيوعيين فى فرنسا وإيطاليا . وقرروا فيه إنشاء مكتب دائم للاستعلامات الشيوعية يُعنى بتنظيم جهود الأحزاب الشيوعية فى سائر الدول وتنسيق أعمالها . وجعلوا مركزه فى بلغراد عاصمة يوغسلافيا ، ليكون المكتب على اتصال

---

(١) *Speaking Frankly*, by James Byrnes

وثيق بروسيا من جهة، وقريباً من المنطقة الدولية فى تريسته من جهة أخرى . والناس يتكهنون لتريسته بأنها ستكون «دانزج» الجديدة التى تمهد للحرب العالمية الثالثة . ويعرف المكتب الجديد « بالكومنفورم » Cominform أى الاستعلامات الشيوعية، تمييزاً له عن «الكومنترن» Comintern أى الشيوعية الدولية ألتى ألغتها روسيا رسميا فى إبان الحرب الأخيرة فى مارس سنة ١٩٤٣ . ووجه الخطر من هذا المكتب أنه يجعل الأحزاب الشيوعية فى الدول المختلفة تابعة فى خططها وتوجيهاتها للهيئة المركزية وإرشاداتها، وأن ولاء الشيوعيين سينحرف تبعاً لذلك إلى جانب المركز الرئيسى الدولى دون غيره من الهيئات الوطنية .

ومع أن أعضاء المكتب الجديد لا يزيدون على تسع دول فان إحياء حركة الشيوعية الدولية تحت العنوان الجديد من شأنه أن يثير مخاوف الدول الأخرى التى مازالت ترى فى المبادئ الشيوعية خطراً يهدد كيانها لأنها تحض على العنف وعلى الثورة العالمية . ولقد خطب الرفيق مولوتوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتى بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على الثورة البلشفية الكبرى فقال عن إنشاء « الكومنفورم » ما يأتى : «إن الحزب البلشفى السوفيتى ليرحب بانشاء هذا المكتب الذى ينظم حركة تبادله الآراء ووجهات النظر بين الأحزاب الشيوعية فى بعض الدول، بقصد تمهيد السبيل لنمو هذه الحركة . وإن الحزب ليتمنى لهذا المكتب النجاح . إننا نعيش الآن فى عصر تؤدى جميع الطرق فيه إلى الشيوعية . » وقال مشيرا إلى مهمة الحركة الشيوعية العالمية : « إن الشعوب التى أيقظها إدراكها لحقائق الأمور لترى فى نجاح الاتحاد السوفيتى عاملا يمكنها من أن تدنو من اليوم الذى سيتسنى لها فيه أن تتخلص من نير الاستعباد . »

وليس من شك فى أن مولوتوف إنما أراد بجملته على الاستعباد أن يقاوم الخطر الأمريكى الذى تعرضت له بعض دول أوربا منذ أعلن الرئيس ترومان فى مارس الماضى مبدأه الجديد الذى قضى به على سياسة الفرقة الامريكية القديمة التى انتهجتها الولايات المتحدة فى الماضى فنأت بسياستها عن جانب أوربا وانطوى اهتمامها على نفسها وعلى شؤون أمريكا بصفة خاصة . فجاء ترومان وأعلن أمام الكونجرس أو المؤتمر الأمريكى الذى يجمع بين شيوخ الدولة

ونوابها عزمه على التدخل لمساعدة اليونان وتركيا وتقديم قرض لهما بمبلغ أربعمائة مليون دولار ، وقال مخاطبا الكونجرس : إنه فى سبيل تقدم الشعوب فى ظلال السلم وإبعاد أسباب القهر والاستبداد ، نهضت الولايات المتحدة بدور رئيسى فى تكوين هيئة الأمم المتحدة . . . ولا يمكن أن نحقق أغراضنا إلا إذا عقدنا النية على مساعدة الشعوب الحرة فى المحافظة على نظمها الحرة وسلامة وطنها من الحركات العدوانية التى تحاول فرض نظمها الدكتاتورية عليها . . . فاذا أمسكنا عن مساعدة اليونان وتركيا فى هذا الوقت العصيب فسيكون لامساكنا هذا آثار بعيدة المدى تصيب الغرب والشرق جميعاً . وقد ذكر الرئيس ترومان صراحة أنه إنما قصد بتدخله صدّ عدوان روسيا عن تركيا واليونان وهما الدولتان الوحيدتان اللتان وقفتا حجر عثرة فى طريق نهضة الحكومات الشيوعية فى شرق أوربا . لذلك وطنت روسيا عزمها على الكفاح والتحدى والمقاومة . .

وأخذت توطد أركان الأحزاب الشيوعية فى البلاد الداخلة فى دائرة نفوذها ، فضمت بلاد المجر إلى حظيرة البلاد التى تعتنق الشيوعية ، واعتقلت زعيم الحزب المعارض للشيوعيين فى رومانيا بتهمة التآمر على خيانة الدولة . وحوكم لهذا السبب عينه زعيم المعارضة فى بلغاريا ونفذ فيه حكم الاعدام رغم اعتراض الحكومتين البريطانية والامريكية . ولا تزال حرب العصابات مشتعلة فى شمال اليونان يلهبها الشيوعيون المتاخمون للبلاد . وفى منطقة تريستة الدولية أبت روسيا أن توافق على تعيين حاكم عام للمنطقة ما لم يكن الحاكم من مرشحيها . وأخيراً قام الشيوعيون فى فرنسا وايطاليا باضرابات وقلاقل كادت تفضى إلى تفوقهم السياسى لولا تضافر العناصر المناوئة للشيوعية ضدهم .

ورأت حكومة الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا أن الدرع الوحيدة التى تستطيع الحكومات الغربية أن تتقى بها ضربات الشيوعيين أن تنهض كل منها بانعاش الحالة الاقتصادية فى بلادها ، فتعاون الأهلين على استعادة انتاجهم الزراعى والصناعى ، حتى تنشط حركة التبادل بين الشعوب وتعود البلاد سيرتها الأولى . ولما كانت الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى تستطيع إقالة أوربا من عثرتها والأخذ بيدها فى محنتها الالية الحاضرة ، بدا لمستر مارشال

الوزير الامريكى الجديد أن يغتنم الفرصة فيخفف من وقع السياسة الجديدة التى أعلنها مستر ترومان وخص بها اليونان وتركيا ، فصرح فى يونيه الماضى بأن حكومة الولايات المتحدة رغبة منها فى إنعاش أوربا اقتصاديا مستعدة لمعاونتها ماليا إذا اتفقت الدول الراغبة فى هذا التعاون على إنشاء برنامج مشترك للتعمير والانتاج فى بلادها . ولاحت حينذاك بارقة أمل فى امكان توحيد أوربا اقتصاديا وإن عزّ توحيدها سياسيا . وقد ساعد على تعزيز هذا الأمل أن وزير خارجية اتحاد السوفيت قد اشترك بنفسه مع وزيرى انجلترا وفرنسا فى اجتماع عقد فى باريس فى الصيف الماضى لبحث هذا المشروع الخطير الذى عرف « بمشروع مارشال » . ولكن وزراء الدول الثلاث ما كادوا يجتمعون حتى بدا اختلافهم من جديد ، ورأت روسيا أن تدخل أمريكا الاقتصادى ما هو فى حقيقة الأمر إلا مقدمة لتدخلها السياسى فى شؤون دول أوربا الصغرى . وعلى ذلك غادر الوزير السوفيتى باريس وقاطعت روسيا المؤتمر الذى دعت إليه انجلترا وفرنسا وقاطعته معها دول شرق أوربا . وأخيرا اجتمع مندوبو ست عشرة دولة لاعداد البرنامج الاقتصادى الذى طلبته حكومة الولايات المتحدة . وقد تقدمت الدول ببرنامجها فى الشهر الماضى . ولكن الأزمة المالية الخانقة فى بلاد كفرنسا وإيطاليا والنمسا جعلت أمريكا تعجل بانقاذ الحالة . وتقدم رئيس الولايات المتحدة أخيراً يهيب بأعضاء الكونجرس الأمريكى أن يلبوا حاجة أوربا الملحة للمساعدة فيعقدوا اجتماعاً غير عادى يقررون فيه إسعاف أوربا بمبلغ بدائى ، وذلك إلى أن يتيسر للمجلس دراسة مشروع مارشال برمته على مهل . وبهذه الطريقة تقوى حكومات أوربا على إنقاذ شعوبها من خطر المجاعة والتعطل من جهة وتستطيع الولايات المتحدة التغلب على حركة التضخم المالى وارتفاع أسعار الحاجيات فيها من جهة أخرى .

وعلى ذلك ظهرت معالم الكتلتين الشرقية والغربية واضحة للعيان ؛ فان ست عشرة دولة [1] فى أوربا قد آثرت أن تلبى دعوة أمريكا وتشترك معاً

(١) هذه الدول هى : بريطانيا ــ فرنسا ــ هولندة ــ بلجيكا ــ لكسمبورج ــ النمسا ــ الدنمرقة ــ النرويج ــ السويد ــ إرلندة ــ اليونان ــ إيطاليا ــ البرتغال ــ سويسرا ــ إيسلنده ــ تركيا .

برياسة بريطانيا فى إعداد برنامج مشترك للانشاء والتعمير . وقد شملت الكتلة الغربية عدا الدول المطلة على المحيط الأطلنطى تركيا واليونان وإيطاليا، ولم تنضم أسبانيا إليها للحجر السياسى الذى فرضته هيئة الأمم المتحدة فى العام الماضى وأقصت به أسبانيا عن المؤتمرات الدولية . ولأجل أن يكون التوازن ملحوظا بين الكتلتين رأى اتحاد السوفيت أن يشعر دول الكتلة الشرقية بأن مصالحها المشتركة هى أيضاً موضوع الدرس والاهتمام ، فأنشأت مكتب الكومنفورم الذى سبقت الاشارة إليه (١) .

وقد بدا الانقسام واضحا بين الكتلتين فى المسائل والقضايا التى عرضت أمام هيئة الأمم المتحدة سواء أمام مجلس الأمن أو فى جمعيتها العمومية . وهنا يستطيع الباحث أن يستخلص من أسباب النزاع بين الفريقين مسألتين هما — إن صح اعتقادنا — مصدر الداء وأصل الخلاف : القنبلة الذرية وحق الفيتو . وسنتناول هنا مسألة الطاقة الذرية التى فوجئت بها روسيا والعالم كله عندما ألقت القوات الأمريكية فى الشرق الأقصى القنبلة الأولى على هيروشيما فى أغسطس سنة ١٩٤٥ أى بعد دخول روسيا الحرب ضد اليابان بأسابيع قليلة . وكأنما الضباب المسمم الذى خلفته القنبلة واحتوى على هيروشيما المنكودة قد غطى أيضاً بسمومه جو العلاقات السياسية بين روسيا وحلفائها السكسونيين ، فأوجد بينهما منذ إلقاء القنبلة هوة ما برحت تتسع وتغور نحو القاع ، حتى لمست الهوة الصخر الصلد الذى لا يلين ولا ينبجس منه الماء ! وليس أدل على عظم هذه الهوة وسعتها من مظاهر الجفاء والتشكك وفقدان الثقة التى سادت بين الحلفاء منذ اجتماع الزعماء فى بوتسدام فى صيف سنة ١٩٤٥ إلى الآن . ولو أن الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وهم أصحاب سر القنبلة قد أبرءوا ضمائرهم ووضعوا سر القنبلة بين أيدى هيئة الأمم المتحدة من أول الأمر لأمكن رأب الصدع وتفادى الخطر فى صفوف الحلفاء . ولكن أناساً ظهروا فى أمريكا وأوربا ، ومنهم كثير من رجالات الحرب ، نادوا بالاحتفاظ بالسر الرهيب حتى يمكن مفاجأة روسيا به إذا

---

(١) ويتألف المكتب المذكور من الدول الآتية : بلغاريا — تشيكوسلوفاكيا — المجر — بولندة — رومانيا — يوغسلافيا — اتحاد السوفيت . يضاف إليها الحزبان الشيوعيان فى فرنسا وإيطاليا .

اقتضت الحال قبل أن تصل إلى سر صنعها . وكان العلماء قد أفتوا بأن كشف الطاقة الذرية لن يبقى طويلا سرا مجهولا ، ولكن الاهتداء إلى صنع القنبلة وإنتاجها قد يستغرق سنين طويلة . وعلى ذلك سرعان ما ظهرت محاولات ومؤامرات أراد بها مدبروها من السوفيت أو غيرهم الوقوف على سر القنبلة فى كندا . فدعا رئيس الولايات المتحدة رؤساء الحكومات الثلاث إلى اجتماع عقد فى واشنجتون وقرروا استعدادهم لإشراك الدول الأخرى معهم فى سر القنبلة متى وافقت هيئة الأمم المتحدة على اتخاذ الاجراءات اللازمة لمنع استخدام الطاقة الذرية فى أغراض التدمير والعدوان . وتألفت على أثر ذلك لجنة مثلت فيها الدول التى يتكون منها مجلس الأمن ومعهم مندوب من حكومة كندا وهى إحدى الدول الثلاث صاحبات السر . وعرفت هذه اللجنة باسم مندوب أمريكا برنارد باروخ Bernard Baruch وهو من سياسيي أمريكا القدماء الكفاءة . وقد عقدت اللجنة جلساتها فى نيويورك فى ربيع سنة ١٩٤٦ وقدمت تقريرها وفيــه اقترحت تأليف هيئة دولية تعمل لاحتكار جميع المواد الخام التى تدخل فى صنع القنبلة حيثما وجدت ، كما تحتكر أسرار صنعها . واقترحت اللجنة أن تتعهد الدول بالامتناع عن إجراء البحوث الخاصة بالطاقة الذرية إلا باذن من الهيئة ، على أن يكون للهيئة حق التفتيش فى البلاد المختلفة وتوقيع العقوبات الرادعة على الدولة التى تحدثها نفسها بمخالفة هذه التعهدات . وذكرت اللجنة أنه متى تم تكوين الهيئة المذكورة فان واجب حكومة الولايات المتحدة أن تعدم القنابل الذرية المدخرة لديها ، وتقف إنتاج القنبلة بعد ذلك بتاتاً . ثم أضافت اللجنة شرطاً أساسيا لقبول مقترحاتها ، وهو أن تنزل الدول التى لها حق الفيتو فى مجلس الأمن عن حقها فى تطبيقه فى حالة اقتراح العقوبات التى توقع عند مخالفة التعهدات المذكورة ، حتى لا تفلت دولة كبيرة أيا كانت من العقوبات متى نكثت عهدها وأخلّت بشروط عدم إساءة استخدام الذرة . ومع أن جميع الدول التى مثلت فى اللجنة المذكورة قد وافقت على هذه الشروط فان حكومة اتحاد السوفيت قد عارضت بشدة فى حق التفتيش الذى سيخول للهيئة ، وفى نزولها عن حق الفيتو . واقتصرت روسيا فى حماستها ضد هذا السلاح المدمر على المطالبة بعقد معاهدة دولية يحظر فيها استخدام القنبلة الذرية قانوناً . وما فتئت روسيا

إلى اليوم تتهم الولايات المتحدة وبريطانيا بأنهما تهددان العالم بهذا السر ، وتعملان لمناهضة حركة نزع السلاح أو تخفيفه ، باحتفاظهما بسر القنبلة الذرية . ولكن الحكومتين تصران على ضرورة قبول الشروط التى وضعتها اللجنة قبل إفشاء السر ، وتقولان إنه ما دعا روسيا إلى معارضة حق التفتيش والتشبث بحق الفيتو إلا إصرارها على حفظ أسرارها الحربية ، والتمسك باقامة السد الحديدى بينها وبين دول العالم . وإنه يكفى برهاناً على تجرد الدولتين من أية مصلحة ذاتية لهما أنهما قبلتا إعدام القنابل الذرية الموجودة لديهما ، والنزول طوعاً عن حقهما فى استخدام الفيتو فيما يخص العقوبات المتعلقة بمخالفة شروط الذرة .

وقد سخر الرفيق مولوتوف أخيراً من موقف الدولتين إزاء القنبلة الذرية ، فقال فى خطبته الأخيرة بمناسبة الذكرى الثلاثينية للثورة الروسية : « ... وخليق بالذكر هنا أن نقرر أن الاستعماريين فى أمريكا لا يثقون بطاقة بلادهم الداخلية ، ولهذا تراهم يعتمدون كل الاعتماد على القنبلة الذرية ، مع أن هذا السر قد أضحى مفضوحاً منذ زمن طويل . ولا يخفى أن الاستعماريين يحتاجون إلى هذه الثقة بالقنبلة الذرية التى هى سلاح للعدوان لا للدفاع كما هو معروف . » فهذا كلام له خطره ، معناه أن روسيا تتسلح بالقنبلة كما تتسلح أمريكا وبريطانيا . ومما لاشك فيه أن القنبلة الذرية سواء أكانت سلاحاً للهجوم أم للدفاع فهى قبل كل شئ أفتك سلاح اخترعه الانسان ضد المدنية والانسانية جمعاء . وإذا كان بعض الناس قد نقموا على الولايات المتحدة فى نهاية الحرب أنها استخدمت قنبلتين اثنتين لضرب اليابان وحملها على التسليم فى الحرب الأخيرة ، فهل يجوز أن تختلف الدول الكبرى فى وقت السلم وأمام الهيئة المنوطة بصيانة السلام بين شعوب العالم على مراقبة الطاقة الذرية وتأمين الانسانية ضد أخطارها ؟

إن الخلاف بين دول الكتلتين خطير ومتعدد الجوانب . ولكن أشد مظاهر هذا الخلاف هو ترك موضوع الطاقة الذرية دون رقابة دولية وإهدار هذ السر وجعله خطراً مشاعاً بين الناس ، قد يكتشفه الروس غداً والألمان بعد غد ، ثم يليهم الطليان واليابانيون والهنود واليهود من بعدهم ، إلى آخر القائمة . وهكذا لا يقتصر الخطر من الكلام عن الحرب على اصطدام قوى

بين الكتلتين أو قيام حرب عالمية ثالثة ، بل نكاد نوقن أن العالم سيستحيل بعد ذلك إلى حقول تجريبية هائلة تستنبت فيها الشعوب القنبلةالذرية ، كما استنبت كدموس فى الأسطورة الاغريقية القديمة أسنان التنين التى بذرها فى مدينة طيبه الاغريقية فلم تلبث الأسنان أن أثمرت وأخرجت سلالة من الوحوش الكاسرة كان كدموس نفسه مؤسس طيبه أول من تعرض لآفاتها و بطشها .

محمد رفعت

كيف نشأت المدنية فى مصر

يمتاز أسلوب العلماء وطلاب العلم فيما يكتبون بدقة التعبير وتحديد دلالات الألفاظ والمصطلحات تحديداً دقيقاً ينتفى معه اللبس، وتجتنب مواطن الخلط وسوء الفهم . ومن المصطلحات التى يعرض لها المعنيون بدراسة التاريخ البشرى العام ، ألفاظ ثلاثة يحسن بنا أن نحدد معانيها وما يقصد بها تحديداً واضحاً . وتلك هى : الحضارة ، والمدنيـة ، والثقافة . وهى ألفـاظ درج كتاب العربية على أن يضفوا عليها معانى فضفاضة بعض الشئ . ويحسن بنا قبـل أن نعالج نشأة المدنيـة أن نحدد ما نقصد بكل من تلك الألفاظ الثلاثة ، أو أن نصطلح — فى القليـل — على دلالات كل منهـا ولو مجرد اصطلاح .

ولفظ الحضارة أكثرها شمولا وأوسعها دلالة . فهو يشمل مجموع نتاج الجهود البشرية على سطح الأرض أو فى جزء منه ؛ وهو يجمع بين الناحيتين المادية وغير المادية من حياة الانسان ؛ ثم هو يمتـد فى الزمان كما يمتـد فى المكان ؛ ولا يجوز اطلاقه إلا بهذا المعنى الواسع الشامل ، فيقال الحضارة البشرية ، أو يقال حضارة الشرق ، أو حضارة مصر القديمة ؛ يقصد بذلك أسس الحياة المادية وأدواتها ووسائلها التى ابتكرها الانسان ليحصل على قوته ومعاشه فى البيئة ، كما يقصد الحياة ذاتها بمظاهرها ونظمها وألوانهـا المادية والمعنوية جميعاً ، بل يقصد بها وصف تلك الحياة فى فترة من الزمن قد تطول أو تقصر حسبما تحياه تلك الحضارة . أما لفظا المدنية والثقافة فأضيق كثيراً فى مدلولهما ؛ بل هما فى الحقيقة يدلان فيما بينهما على ما يجمعه لفظ الحضارة بمفرده . والمدنية يقصد بها — أو لعلنا نستطيع أن نصطلح على ذلك فى هذا المقال — ذلك الجانب المادى من حياة الانسان ، وما تتفتق عنه حيلته فى تيسير أسباب حياته العملية ؛ فهى تشمل الحرف بأنواعها المختلفة

من صناعة ، وصيد للحيوان أو رعى له ، ومن زراعة واستنبات للنبات أو استغلال له ، ومن تجارة وتبادل ومواصلات وطرائق للتعامل والاتصال ؛ كما تشمل بعض الفنون العملية فى الحياة ، كبناء المسكن أو غير ذلك . أما الثقافة فتشمل الجانب غير المادى من حياة الانسان ، ففيها الناحية الروحية ، والناحية العقلية والفكرية ، وناحية الذوق وإشباعه بالفنون الجميلة المختلفة ، ثم ناحية التعبير عن كل هذه الجوانب من حياة الانسان ، بل من الحياة المادية ذاتها بوساطة اللغة وفنونها الأدبية [1] ومع ذلك فالحد الفاصل فى الدلالة بين المدنية والثقافة لا يمكن أن يكون واضحاً دقيقاً . ذلك أن بعض ألوان الثقافة ، كالفن مثلا ، قد ينصب على ناحية مادية من حياة الانسان ، كما هو حاصل فى حالة فنون العمارة والزخرفة مثلا ، فهى من بعض نواحيها جزء من المدنية المادية ، ولكنها مع ذلك تشبع غاية نفسية وإحساساً ذوقيا عند الانسان ، كما يتجلى فيها نزوع النفس أو الروح أكثر مما تتجلى حرفة البناء أو حرفة الزخرفة من حيث هما عمل مادى آلى . والواقع أن الانسان مهما اصطنع فلن يستطيع ، بحكم تكوينه ، أن يفصل فصلا تاما بين حياته المادية وحياته المعنوية أو غير المادية . ولكن من الخير لنا مع ذلك أن نلتزم حدود الدقة بقدر الامكان عند ما نتكلم عن المدنية أو الثقافة ونصيب كل منهما فى تراث حضارتنا العام .

وإذا نحن اتفقنا على هذا الاصطلاح فى التعريف ، فقد يكون واجباً أيضاً أن نتفق منذ البداءة على ما نقصد « بالمدنية المصرية » . فنحن إنما نقصد بها تلك الحياة المادية التى حياها المصريون أو سكان مصر على ضفاف نهر النيل ، والتى ارتبطت فيها ألوان معيشتهم وما حققوه فى مجال المادة والعمل بظروف هذه البيئة المصرية التى ميّزت حياتهم وطبعتها بطابعها المصرى الخاص . بل إننا نقصد بهذه المدنية ما كان من « تفاعل » بين البيئة والانسان ، انتهى إلى هذه الحياة المستقرة العاملة ، التى سارت مع الزمن ، واتصلت فى بعض الأعصر بحياة غير المصريين وأبناء الوادى من شعوب

---

(١) للكاتب مقال موضوعه « مصر حلقة الاتصال الثقافى بين الشرق والغرب » ، وقد حاول فيه أن يعرف الثقافة بمعناها الأعم . أنظر « الكاتب المصرى » عدد ٣ (ديسمبر ١٩٤٥) .

الشرق أو شعوب الغرب ، ولكنها مع ذلك احتفظت بميسمها الخاص ، وبكثير من أسسها ومقوماتها الأولية ، لا لشئ إلا لأنها كانت أصيلة فى بيئتها النيلية ، التى وفرت لها من عوامل الدوام والاستمرار والتجديد ما سنحاول أن نكشف عن بعضه فى هذا المقال .

ويرجع أول ارتباط للحياة بالبيئة المحلية فى مصر إلى ما نسميه بالعصر الحجرى القديم الأعلى . ومع أن علماء عصر ما قبل التاريخ لا يميلون كثيراً إلى تقدير حضاراتهم بالسنين والتواريخ ، فقد لا نكون بعيدين كثيراً عن الحقيقة إذا نحن قدرنا تاريخ هذا الدور الأول من أدوار الحياة والمدنية فى مصر بأنه يرجع إلى حوالى العشرين ألف سنة . وفى هذا العصر بدأت صناعة الآلات الحجرية فى مصر تتخذ طابعاً خاصا بها يميزها من صناعات بقية العالم القديم ، بما فى ذلك فلسطين ذاتها مع أنها بلد مجاور . ويظهر أن مصر لم تتلق غزوات كثيرة فى ذلك العهد ؛ لأن نهر النيل لم يكن قد اتخذ صفته الخاصة التى أغرت به سكان الصحارى فيما بعد . ذلك أن الصحراء إذ ذاك لم تكن جافة ولا عديمة النبات ، إذ كان هناك ما يعرف باسم العصر المطير ، وكان نظام المطر والنبات فى صحارى مصر والشرق العربى المجاور يشبه ما نعرفه الآن فى حوض البحر المتوسط . وبذلك وجد الانسان كفايته من النبات والحيوان وصيد البر ، ولم يستشعر حاجة لأن يسعى إلى وادى النيل ومجراه . وبعبارة أخرى لم يكن هذا الوادى مطمعاً لأولئك الصيادين القدماء فى العصر الحجرى القديم الأعلى . وبذلك استطاعت العناصر التى تعيش فيه وقريباً منه أن تتابع حياتها فى أمن نسبى ، فاتخذت صناعاتها ذلك الطابع الخاص ؛ وكان ذلك أول دور من أدوار تخصص المدنية الأولى فى مصر .

ثم جاء دور لاحق فيما نسميه العصر الحجرى الحديث . وترجع بداءته إلى حوالى سبعة آلاف سنة خلت . وفيه تعلم الانسان أن يستنبت النبات بدلا من أن يكتفى بالجمع والتقاط الحب والثمرات من نبات الطبيعة البرى ، كما تعلم استئناس الحيوان وتربيته بدلا من اقتناصه وصيده . وكان هذان انقلابين خطيرين فى حياة الانسان إلى أبعد الحدود ، بل إن بعض الباحثين يرى فيهما أخطر انقلابين فى تاريخ الانسانية كله . فبعد أن كان الانسان يعيش عيشة هدم واستغلال قصير النظر لموارد الطبيعة ، أصبح يعيش بطريقة

« إنتاجية » ، وأخذ يعاون الطبيعة ويستدر خيراتها بدلا من أن يستغلها بما يؤدى فى النهاية إلى الاقفار والاجداب . ولابد أن موارد الانسان قبل أن يهتدى إلى استنبات النبات واستئناس الحيوان كانت محدودة ، كما كانت حياته شاقة عقيمة . أما بعد ذلك فقد تعلم كيف يصبح صديقاً للطبيعة بدلا من أن يكون عدوا لها وحرباً عليها ؛ فعمل على أن يزيد من مواردها ويسخّر فيض تلك الموارد لصالحه ؛ وتضاعفت بذلك موارده فى الحياة ، فازداد عدد السكان بل تضاعف . كما أن الزراعة وتربية الحيوان كانتا موردين منتظمين ومضمونين إلى حد كبير ، بخلاف الصيد الذى يتوقف كثيراً على عنصر الحظ والمصادفة . وليس من شك فى أن حياة الزراعة والرعى كانت أكثر ضماناً وأوفر أماناً من حياة الصيد التى يتهددها الجوع فى كل حين . ولقد كان ضمان العيش وأمانه عاملين أساسيين فى بناء الحياة المطمئنة ؛ تلك التى يستطيع فيها الانسان أن يفرغ إلى شئ من العيش المتمدن حقا ، بل إلى العيش الذى يجمع بين المدنية المادية والثقافة الروحية والعقلية ، وهما كما ذكرنا أساس كل حضارة .

وليس هذا مجال الافاضة فى نشأة الزراعة والرعى ، وما كان لها من أثر فى تاريخ الحضارة ؛ فذلك موضوع قد يستحق مقالا بذاته . ولكن من الخير هنا أن نشير إلى بعض العوامل فى البيئة المصرية ، مما ساعد على نشأة كل من هاتين الحرفتين العظيمتين من حرف الانسان فى بداءة حياته الآمنة وحضارته المستقرة .

كان العصر المطير قد انتهى قرب نهاية العصر الحجرى القديم ؛ وجاءت فترة جفاف فى صحارى مصر ، يقال إنها كانت سبباً فى نزوح السكان من الصحارى والتجائهم إلى جوانب وادى النيل حيث الماء والحياة . ولم يقتصر النزوح بالطبع على الانسان وإنما شمل كذلك الحيوان الذى كان يعيش على نبات الصحراء . وبذلك أصبح الانسان والحيوان فى واد واحد ، وفى مجال ضيق محصور ، كان لابد فيه للانسان من أن يحارب المفترس من الحيوان حتى يقضى عليه ؛ كما كان على الوديع من الحيوان أن يعيش فى جوار الانسان ويأنس إليه ، مما يسّر مهمة الاستئناس . وهكذا كان جمع الطبيعة للانسان والحيوان فى مكان واحد إيذاناً بعهد جديد ، عاون الانسان فيه الطبيعة على نحو يزيد من إنتاجها ، بدلا من أن يسير على استغلالها

استغلالا هداماً كما كانت الحال فى عهد الصيد والقنص . وطبيعى أن وادى النيل كان من خير المواطن لهذا النوع من الحياة . ولكنه كان فى الوقت نفسه وطناً صالحاً لأن يهتدى فيه الانسان إلى نوع آخر من الحياة المنتجة هو الذى تمثل أيضاً فى استنبات النبات . ففى هذا العهد الذى قلّت فيه الأمطار فى صحارى مصر ، وإن كانت قد تجددت بعض الشئ فيما بعد فزاد المطر زيادة طفيفة للغاية ، اعتمد النيل اعتماداً كليا على منابعه العليا عند خط الاستواء وفى الهضبة الحبشية ؛ واتخذ فيضانه دورته المعروفة من ارتفاع ذروة الماء فى أواخر الصيف وأوائل الخريف ، ثم انحساره عن جوانب الوادى فى أواسط الخريف وأواخره ، وهو موعد مناسب جدا لزراعة المحاصيل الشتوية . بمعنى أن النيل كان يطغى على جوانبه فيغذيها بالماء والغرين ، أى يعدها للانبات ، ثم ينحسر عنها فى أصلح الأوقات لأن تنمو فيها نباتات الشتاء وحبوبه كالشعير والقمح ، وهى لحسن المصادفة (لاسيما أولها) من النباتات التى كانت تنمو برية بطبيعتها فى شمال إفريقية الشرقى وما جاوره من أقطار آسيا الغربية . والظاهر أن طبيعة النيل وموعد فيضانه قد ساعدت على أن يتعلم الانسان فى مصر زراعة مثل هذه النباتات .

ومن اليسير أن نتصور أن تكون نشأة الزراعة فى مصر قد جاءت نتيجة لتطور بطئ تعلم فيه الانسان هذا الفن من الطبيعة نفسها ؛ ففى فصل انحسار ماء الفيضان تذرو الرياح بعض النباتات البرية وحبوبها من حافة الوادى إلى أراضيه الخصبة التى انحسر عنها الماء ، فتنبت تلك النباتات بطريقة طبيعة برية ، وتتغذى من ثرى التربة النيلية السخية ، ثم تأتى أمطار الشتاء المصرى فتغذى النبات وتمده بالماء حتى يكتمل نموه ونضجه فى أشهر الربيع فيحصده الانسان . ولا يبعد أن تكون القبائل المنتشرة على حافة الوادى فى ذلك الوقت قد راقبت هذه الدورة الطبيعية عاماً بعد عام ، فاهتدت عن طريق المشاهدة إلى أن تقلد الطبيعة ؛ فكان الانسان فى أول الأمر يحرس حقول الشعير البرى مثلا بعد أن تنبت برية وحشية ، فيمنع الحيوان من أن يأكلها والطير من أن يقتات من سنابلها وحبها عند نضجه ، حتى يتم الحصاد . ولا يبعد أن يكون ذلك قد مثل مرحلة من مراحل نشأة الزراعة بطريقة يتعاون فيها الانسان مع الطبيعة ، فيكمل عملها ويبنى عليه ، حتى

ينتهى الأمر به إلى أن يتولى بنفسه غرس الحب واستنباته ، وبذلك يصبح زارعاً بالمعنى الكامل الصحيح .

واذا صح هذا التصوير لنشأة الزراعة فى مصر — وهو ما تهدينا إليه الدراسات المفصلة لعصر ما قبل التاريخ ونشأة المدنية الزراعية فى وادى النيل — فان الانسان يكون قد تعلم الزراعة من الطبيعة ، ويكون النيل قد سهد لأن تقوم على جوانبه تلك الحياة الزراعية المستقرة القديمة ، التى رأينا أنها ترجع إلى نحو سبعة آلاف من السنين .

ولكن المهم أن الزراعة فى مصر لم تكن من النوع العادى الذى ظهر فى كثير من جهات الأرض ، فلم ينته بالحياة إلى أن تتقدم وترتفع بالجماعات الزراعية من مرحلتها البدائية إلى مرحلة رفيعة نسبيا من الناحية الاجتماعية . فالزراعة فى غير مصر كانت تقوم كلها على المطر . وما كان على الزارع إلا أن ينقر حفرات صغيرة فى الأرض يضع فيها الحب ثم يتركه للمطر يسقيه ويغذيه حتى يتم نضجه فيحصده . وهذا النوع من الزراعة يعرف بالنوع الفطرى ؛ وهو وإن كان قد ارتفع بأهله فوق مستوى الجمع والالتقاط ، وآمن حياتهم ووقاهم شر الجوع ، فانه مع ذلك لم يعلمهم التضامن الاجتماعى ، فاستطاع الزارع أن يزرع بمفرده أو أن يستعين فى حرفته بأسرته الصغيرة دون حاجة إلى الارتباط بمجتمع كبير . وبذلك بقى المجتمع مفككا ، ولم ترتفع حياة الزارعين إلى مستوى من التضامن الاجتماعى ومن تداخل المصالح المادية بين الأفراد والجماعات الصغيرة يفرض على تلك الجماعات وأفرادها نظاماً معيناً من الحكم هو أساس الحياة المتمدنة بمعناها الاجتماعى المعروف . فضلا عن أن مثل تلك الزراعة الفطرية لا يجد صاحبها حاجة لأن يستمسك بحقل معين يستقر فيه ويقصر جهوده عليه ، وإنما هو يستطيع — بل يفضل — التنقل من عام لعام ، فيزرع فى كل سنة قطعة جديدة من الأرض لم يضعفها الانبات فى موسم سابق . وبذلك كله لم تكد صلة الزارع بحقله أو موطنه المستقر توجد ؛ وذلك ما حدث فعلا فى بعض جهات إفريقية الداخلية مثلا ، حيث نشأت الزراعة وبقيت على أصولها الفطرية ، فلم تتقدم بالمجتمع فى سلم المدنية والحياة المستقرة ، بل بقى بدائيا متنقلا ، واستمر فطريا فى حياته وحضارته العامة . أما فى مصر فان الزراعة قامت فى أرض تغمرها

مياه النيل ؛ وكان من الضرورى منذ البـداءة أن ينظم فيضان هذا النهر إذا أراد الزارعون أن يتوسعوا فى أرضهم التى يفلحون ؛ وهذا التوسع لا يمكن إلا أن يكون داخل حدود الوادى وفى الأرض التى يجدد خصبها هذا النهر العظيم فى كل عام . وبذلك كله لم يكن هناك مجال لأن يتنقل الزارع من حقل لحقل فى كل عام ، بل كان عليه أن يستمسك بحقله ، ينظم فيضان الماء عليه فى كل عام ، ثم ينتظر انحسار الماء عنه ليغرس الحب فى أرضه الطيبة المجددة . وكان تنظيم ماء الفيضان هذا عنصراً هاما من عناصر الجد والكفاح فى الزراعة والحياة الزراعية المصرية منذ نشأتها الأولى ؛ لأنه كان عملا ضخماً يقتضى تضافر الجهود فى المجتمع . فالزارع لا يستطيع وحيداً أن يقيم الجسور ليقسم الوادى إلى حياض يمر فيها ماء الفيضان مروراً منظماً يمكن معه أن يرسب الغرين بانتظام على سطح التربة ؛ ولا يستطيع أن يحفر القنوات التى تحمل الماء من النهر إلى الحوض ثم تصرفه عنه بعد أن يكون قد أرسب ما به من غرين . لذلك كان من الضرورى أن تتضافر جهود الزارعين فى مصر من أجل تنظيم رى الأرض . وبدون هذا الرى المنظم لا يمكن للزراعة أن تتقدم ؛ لأن الأمطار فى الخريف لا تكفى لانبات النبات ، وإن كانت كافية لأن تغذيه وتمد التربة ببعض الرطوبة أثناء فصل الشتاء . لذلك كله كانت الزراعة فى مصر مختلفة عن تلك الزراعة الفطرية التى سادت معظم إفريقية ؛ فهى زراعة من نوع يستلزم العمل الشاق والجهد المنظم والتضافر الاجتماعى ؛ وهى عوامل أساسية فى نشأة الحضارة بمعناها العام ، بل هى أساسية بصفة خاصة لنشأة النظام والادارة و « الحكومة » فى مثل هـذا المجتمع القديم . وهكذا قام « الحكم » على أساس الحاجة والضرورة فى حيـاة الزراع منذ أقدم عهود الاستقرار على ضفاف النيل ، وانتهى أمر الزراعة فى مصر بأن أصبحت أساساً للحياة المتمدنة ، حتى غدا وادى النيل الأدنى موطناً من مواطن المدنية والحضارة الأولى فى إفريقية والشرق القديم .

ولكن نشأة المدنيـة فى مصر لا تقتصر على الزراعة وفلاحة الأرض ، وإنما هى تشمل الحياة والاستقرار والسكنى فوق أرض هـذا الوادى الذى يغمره الفيضان فى كل عام . وقد استدعى استواء الأرض أن تقوم قرى

الزراع فوق كومات صناعية من التراب تبنى المساكن فى أعلى ذراها لتكون بمأمن من الفيض الجارف . وما كان لزارع بمفرده ، ولا لمجموعة صغيرة من الزراع ، أن تقيم مثل هذه الكومة التى يجب أن تكون من الضخامة بحيث تثبت للماء والتيار ؛ و إنما ينبغى أن تتضافر جهود عدد كبير من الزراع فى إقامة هذا التل الصناعى ، وينبغى أن يعيش هؤلاء الزراع فى بيوت تكتظ وتتكاثر فوق هذه التلال المبعثرة فى أرض الوادى . وبذلك فرضت الطبيعة على أهل هذا الوادى أن تتضافر جهودهم ، وأن ينظم الحكم بينهم فى قرى تتمثل فيها روح التعاون والتضامن والتكافل ، وتنشأ بين أفرادها الحرف المختلفة التى تتصل بالحياة الزراعية من جهة ، وبحياة القرية العامة من جهة أخرى . فهذه القرى يجب أن تنظم أسباب العيش فيها والدفاع عنها وقت الحاجة ، كما يجب أن ينظم اتصال بعضها ببعض فى التبادل وغيره بوساطة القوارب أو فوق الجسور أيام الفيضان . وهذا كله يستلزم قيام حكومة وادارة ، ويستلزم بمعنى آخر تنظيم الحياة العامة لزراع الوادى وسكان قراه ؛ وهذا أساس آخر من أسس الحياة المتمدنة ، تلك التى نشأت فى قرى مصر ، ثم استدت فشملت أقاليمها ، ثم وجهيها القبلى والبحرى ، قبل أن تشمل الأرض كلها ، وتقوم حكومة مصر الزراعية الموحدة عند مطلع التاريخ .

وهكذا وُضعت أسس الحياة المستقرة والمدنية التى تقوم على العمل المنتج والتضامن الاجتماعى ؛ بل هكذا وضعت أسس الحكم والنظام فى مصر قبل أن يبزغ فجر التاريخ . وكانت حياة المصريين وجهودهم ومدنيتهم فى ذلك كله متأثرة أشد التأثر وأبلغه بظروف البيئة الطبيعية ؛ تلك التى امتازت على الخصوص بتكامل عناصرها فى هذا الوطن الصالح ، ولقد تمثل ذلك التكامل فى صور وأشكال متعددة ، ربما كان أظهرها ما نلحظه فى دورة الفصول فى مصر . فالنيل يعلو بالفيضان كما ذكرنا فى أواخر الصيف وأوائل الخريف ، ثم ينحسر فى وقت الانبات بالذات ، فتبدأ الأمطار عقب ذلك وتستمر طول فصل نمو النباتات الشتوية حتى يقبل موسم الحصاد فيحل الجفاف ، وينخفض مستوى النهر إلى أدناه ، وتبقى الأرض بواراً تصليها أشعة الشمس خلال النصف الأول من الصيف ، فتجففها وتطهر تربتها من الآفات والحشائش

الضارة التى تمتص خير الأرض ولا تفيد شيئاً ، بل تشقق حرارة الشمس سطح الأرض وتسمح للهواء بالنفوذ إليها وتغذيتها بعناصره المفيدة ؛ حتى إذا ما ارتفع ماء الفيضان ملأ شقوق الأرض وتسرب إلى الأعماق وغطى السطح بطبقة من الغرين تغذى التربة وتعدها للعام الزراعى الجديد . وهكذا تضافرت عناصر البيئة الطبيعية وأتم بعضها بعضاً فى دورة منتظمة على طول العام ، من نظام النهر فى الفيضان والتحاريق ، إلى نظام المناخ بين الشتاء المعتدل المطر والصيف المشمس الجاف . وبهذا كله كانت الطبيعة فى خدمة الانسان ، وتهيأت البلاد لأن تكون مسرحاً صالحاً لنشأة المدنية الزراعية ، وما يتصل بها من حياة الاستيطان والاستقرار . ولم يكن على الانسان إلا أن يأتى بجهده فى الوقت المناسب ، ويسخر الطبيعة لصالحه ، فتجرى الأمور فيها على نظام رائع بديع ، زاد من روعته وإبداعه أنه كان متكرراً بانتظام وفى دقة عجيبة على مر السنين والأعوام .

وقد تجلى مبلغ تكامل عناصر البيئة فى ظاهرة أخرى غير الزراعة . ذلك أن النيل كان يجرى من الجنوب إلى الشمال ، فيدفع تياره الفلك فى ذلك الاتجاه ، على حين كانت الريح السائدة فى مصر تأتى من الشمال إلى الجنوب فتملأ أشرعة تلك الفلك وتعينها على التصعيد ضد التيار . وهكذا أصبح مجرى النيل شرياناً للمواصلات والتجارة بين الدلتا والصعيد . ولو أن النهر كان يجرى من الشمال إلى الجنوب ، أو لو أن الريح السائدة فى مصر كانت تأتى من الجنوب إلى الشمال ، لما استطاعت مصر أن تستكمل أسباب وحدتها فى ذلك العهد السحيق ، عندما اتصل أهل الجنوب بأهل الشمال ، وسبقت مصر غيرها من الأمم ، فظهرت بوحدة أيام الملك نارمر (مينا) منشئ الأسرة الفرعونية الأولى قبل الميلاد باثنين وثلاثين قرناً أو تزيد من الزمان .

بمثل هذه المقومات جميعاً نشأت المدنية فى مصر ، وكانت نشأتها قديمة إلى أبعد ما يكون القدم فى الحياة الزراعية المستقرة . . . بل بمثل هذه المقومات جميعاً سبقت مصر غيرها من الأوطان فى الحياة المتمدنة ، وفى مظاهر الحضارة بمعناها الأوسع الأعم . وعندما وحد نارمر وجهى هذا القطر الأمين ، وخرج على الناس بمصر التاريخية ، لم يكن ذلك

« بداءة » عهد جديد كما كان المؤرخون يقولون فى وقت من الأوقات ؛ وإنما كان فى الواقع « نهاية » عهد طويل من التطور البطىء فى مصر ؛ ذلك التطور الذى أخذت دراسة عصر ما قبل التاريخ تكشف عنه رويداً رويداً فى هذه العقود الأخيرة من السنين . . . وكلما زاد الكشف عن معالم هذا العصر برزت أمامنا عظمة هذه البيئة السخية ، وهذا الشعب الذى عاش فيها ووضع أسس المدنية والحضارة فى حياتنا التاريخية ، وكان فى جهاده وكفاحه مهتدياً ببيئته ، مستجيباً لمقتضياتها ودوافعها الظاهرة والخفية ، حتى غدا شعباً عظيماً متضامناً متكافلا منظم الجهود موحد الغايات ؛ فكانت الطبيعة فى خدمته ، وبارك الله فى جهوده ، حتى ازدهرت به الحياة وارتفعت على يديه المدنية ، وطلعت مصر العظيمة على العالم بأقدم الحضارات التاريخية ، وغدت منذ ذاك بحق كنانة الله فى أرضه .

سليمان حزين

فى الأدب الجاهلى

صـــور من صحراء نجـــد

تمد الطبيعة الرسامين بصور مختلفة يختارون منها ما يمكن أن يمثلوه فنهم ، ويودعوه إحساسهم . ويختلف اختيارهم لتلك الصور باختلاف الفنان وبيئته ومدرسته . ولكن صوراً بعينها من صور الطبيعة تمتاز بأنها كانت على مرّ العصور مصدر إلهام الفنانين جميعا فى كل قطر وكل بيئة وكل عصر . ذلك أن هذه الصور امتازت بشئ من الحياة والقدرة على التعبير لم تجارها فيه غيرها ، فاختيرت وكثر اختيارها ، وترددت على مرّ العصور ترديدات مختلفة ولم يمل ترادادها . فلقد فُضلت صورة الشمس غاربة على أية صورة أو أى وضع من أوضاعها حتى عليها شارقة ، فاتخذ الفنانون مغرب الشمس فى كل العصور موضوعاً للرسم يختلفون فى تفاصيله باختلاف ما يريدون منه من تعبير . ومنهم من يشرك الجبال فى هذا التعبير ، ومنهم من يشرك الحب ، ومنهم من يشرك الانسان فى إخراج الفكرة ، أو إحداث الشعور الذى يريدون أن يحسه الناظر إلى لوحاتهم . ولكنهم يتفقون جميعا فى أن الشمس واقترابها من الأفق وخفوت ضوئها ، اتخذ أساساً أو مادة أولية كالألوان للتعبير . وكان لهذا التحديد فى الاختيار تحديد يسير فى ما قد عُبر عنه ، ولكن كان لاختلاف التفاصيل اختلاف كبير جداً فى هذا الكل الذى أريدت به الصورة .

وفى عالم النحت نرى هذه الظاهرة أوضح منها فى عالم الرسم لضيق دائرة اختيار المنظر ، بل لضيق دائرة اختلاف تفاصيله أيضاً . خذ مثلا جسم الانسان عارياً : كم مرة استعمل فى النحت للتعبير عن مختلف الاحساسات والمعانى ، والأصل فى ذلك لا يختلف بل إن التفاصيل مشتركة إلى حد بعيد ، ولكن مجرد الوضع أو الحركة هو الذى يختلف ، ومع ذلك استطاع النحاتون أن يؤدوا بهذا الاختلاف اليسير مئات من المعانى والتعابير والاحساسات ،

بل إنهم ليأخذون أقوى أجزاء هذا الجسم فى القدرة على التعبير ، وهو الوجه ويكثرون من نحته ، بل قد يأخذون وجه إنسان بعينه كوجه العذراء ، فيؤدون بهذا الوجه المعين أكثر من معنى وأكثر من إحساس : فهذا وجه عذراء يمثل الضعف الانسانى والاستلام للقدر والخضوع لحكم الله الذى لا مرد لحكمه . وهذا وجه عذراء يمثل الجلد والصبر والتعالى والأمل فى انفراج الكرب ، وهكذا ؛ والوجه واحد والملامح واحدة ، ولكن اختلافا بسيطاً فى الأبعاد والخطوط يؤدى إلى هذه النتائج القيمة فى الفن . أما فى الأدب فان ميدان الاختلاف فى تصوير الصورة الواحدة أوسع وأشمل . ذلك أن الأدب فن لا يستطيع بطبعه أن يصور الجمود ، وإنما هو يصور الحياة والحركة ، يصور لنا أجزاء الصورة منفردة كل منها على حدة ، ولا يمكن أن يعطينا الصورة كاملة بكل تفاصيلها فى دفعة واحدة . لذلك كانت التفاصيل فى تصوير الصور حرة فى الأدب لا تتقيد تقيداً لازماً موجباً بالجمال والتناسق أو حتى بالواقع فى بعض الأحيان ، وإنما يكفى فيها أن تكون مناسبة منطقية تؤدى إلى غايتها فتصور الحياة والحركة . ومن هنا كان التشابه فى رسم الصور الأدبية يكاد يكون مستحيلا . فاذا كان لكل رسام أو مثّال يستطيع أن يحمّل الصورة الواحدة المحدودة معنى يختلف عن غيره وإحساساً يمتاز مما سواه فان الشاعر لا يستطيع مهما دقق فى النقل أن يرسم صورة على نفس الوجه الذى يرسمها به غيره . فطبيعة الكلام وما تدل عليه كل كلمة بدقة وتحديد تمنع من أن يكون هناك تكرار فى الصور الأدبية . بل إننا إذا استطعنا أن نجد لكل كلمة مرادفاً فانه لا يمكننا أن نوجد بين هذه المترادفات ما بين الكلمات الأصلية من تناسب وتناسق . فاذا وجدنا صوراً فى الأدب تتكرر فى ظاهرها ثم أمعنا النظر فى تحليلها تحليلا دقيقاً ، وجدنا أن هذا التكرار غير موجود ، ولكننا نعمد إلى هذا التحليل فنخرج بنتائج خصبة إذا اتخذناه وسيلة لتمييز الصور الأدبية الحقة من الصور الزائفة ، أى لتمييز الصور الجيدة فى ميزان النقد الأدبى من الصور الرديئة التى لا تصلح لأن تكون أدباً ، ونخرج بنتائج خصبة حقا إذا نحن عمدنا إلى هذا التحليل ، لنرى الفرق بين تصويرين أدبيين ممتازين لمنظر بعينه .

فلعل تمييز الجيد من الردئ من هذه الصور سهل ميسور ؛ لأن النغمة

المنفرة والتنافر الشاذ فى الصورة المقلدة تقليداً قاصراً غير فنى سيصدماننا لأول وهلة إذا ما بدأنا ندقق أو متى نستمع إلى وصف الشاعر . ولكن لمح اختلاف التفاصيل وما يضيفه هذا الاختلاف البسيط من أثر فى الصورة العامة ، ومن عون على الخروج بالصورة الجديدة للمنظر نفسه إلى مصاف الصور الأدبية الخالدة أصعب ، ولعله أمس بالدراسة الفنية ، وأجدى فيما نصل إليه من نتائج .

وهذه صورة من صحراء نجد كثر ترددها فى الشعر العربى الجاهلى ، وكان لكل ترداد نغم خاص ، ولكل إخراج وقع جديد على النفس . هذه صورة الحمار الوحشى كما رسمه لبيد فى معلقته ، وكما رسمه أبو ذؤيب فى قصيدته المعروفة « أمن المنون وريبه تتوجع » . فلقد أراد كل من الشاعرين أن يصور حياة هذا الحيوان فى صحرائه ، ليؤدى بتلك الصورة غرضاً خاصا فى قصيدته . أما لبيد فقد أراد أن يصف سرعة ناقته التى سيقطع بركوبها لبانة من تعرض وصلة ، فان جفت نوار فهو خليق بأن يقطع أسباب المودة ، وفى ركوب الناقة وفى مغامرات السرعة فى الصحراء تسرية وسلوى . وأما أبو ذؤيب فهو يريد أن يدلل على أن لا شئ يبقى على حادثات الدهر . لقد مات بنوه وخلفوه يائساً حزيناً يعانى حسرات الفراق وارتقاب الموت ، ولكن كل حىّ يموت . وباختلاف هذا الغرض اختلفت تفاصيل الصورة ، لا لأن الشاعر أخذ نفسه برسم التفاصيل على نحو معين فحسب ، ولكن لأن الشاعر نفسه كان يرى هذه التفاصيل على هذا النحو نتيجة تأثره بالصورة . أما لبيد فكان يرى الحمار محبًّا غيوراً ، لأنه كان يحس الحب والغيرة . فلماذا انفرد الحمار بزوجه على ربوة ؟ فان لبيداً يرى أنه أفردها غيرة عليها ، وحرصاً على أن يستأثر بها وحده . وإذا حياة الحب التى يحياها لبيد مع نوار يعكس ظلالها على حيوان الصحراء فتملؤها حياة وقلقاً وغيرة وحبا وتنافساً وفوزاً . وأما أبو ذؤيب فقد كانت حالته النفسية تختلف كل الاختلاف : كان حزيناً يرى ما حوله فى ظلال سوداء من الحزن والأسى والارتياع من هذا المصير المحتوم ، هذا الموت الذى قدّر على الانسان ألا يستطيع له مردًّا . والموت لا يحس إلا إذا أحسسنا الحياة من قبله ، وهذا حمار أبى ذؤيب يمثل الحياة بكل ما فيها من نشاط

وحيوية . هو حمار صاخب الشوارب ، يصيح كالمسبوع من فرط ما يحس من فتوة . وهو يظهر لنا ومعه من الزوجات أربع ، يأكل ما شاء من المرعى المنبسط أمامه ، مرعى خصب وافر الخصوبة ، فاذا شبع فهو يلعب مع زوجاته عاضا هازلا وجادا . وهنا يكتفى أبو ذؤيب بتصوير النشاط والحيوية ، ويريد إكمال صورته عن الحياة كما هى . وكذلك لبيد يريد أن يساير حماره فى حياته العادية . فالشتاء يفرد الحمارين وما معهما فوق الربوة ويفرض عليها قوتاً رطباً يغنيها عن الماء . ولكن الصيف يأتى ، فاذا الحمر تعانى العطش وشدته . والحر يشتد ، ولابد من تغيير المكان التماساً للماء . وتغيير المكان فى حياة الحيوان عند الشعراء القدامى نذير الأخطار والأهوال . وهاهو ذا حمار لبيد يرى أن لا بُدّ من أن يندفع نحو الماء . وفى هذا الاندفاع كما فى مطاردته الأولى لزوجه عندما ارتاب فى أسرها فرصة لتصوير السرعة . بل لعل هذه الفرصة خير من سابقتها ؛ فهو عطش قد اشتد به العطش ، ولكنه يريد أن يحافظ على زوجه وأن يستأثر بها . وهنا يفيد لبيد من الفرصة فيصف سرعتهما وفى هذا الاندفاع نحو الماء والغبار الذى يثيرانه من شدة العدو . ويزيد فى السرعة أن الأتان تريد أن تفلت منه وهو يلاحقها لا يعبأ بشوك الأرض ، وأخيراً يصلان إلى الماء .

أما الطريق إلى الماء عند أبى ذؤيب فهو ثانوى فى صورته . ولكن الحياة بين هذه الأتن وحمارها هامة ؛ فهى تحتمى به من الخطر ، وتسير معه مجتمعة ومتفرقة كقداح الميسر ، والحمار حاميها يديرها كيف شاء ، وإذا الحمار يصل إلى الماء ونجم العيوق يرقبه هو وأتنه . فالنظر إلى هذه الاشارة التافهة إلى نجم العيوق من فوقها ؛ فهو عين القدر التى ترقب الحياة والأحياء لتنفذ فيها أحكامه فى دقة وصبر وتؤدة . بل إن الشاعر ليشبه النجم بمراقب اللعب فى الميسر ، وكأنما الأحياء فى الدنيا قداح يديرها فى اللعب أقواها ، ولكن القدر هو الذى يرعى تنفيذ الأحكام العليا فيها .

وهنا تعود الصورتان إلى التشابه القريب ، فالماء عذب ، والحمر تشرئب أعناقها لتشرب حتى ترتوى . أما لبيد فقد استوفى غرضه من الصورة ، ووصف السرعة مرتين ، كانت الثانية فيهما أقوى وأدق ، وهو يريد الآن أن

يختم الوصف ، والماء يمده بمنظر جميل يحسن أن يقف عنده . وهو الذى يحب جمال الطبيعة ؛ فهذه عيدان القصب قد أحنت الريح بعضها على الأرض أو أمالتها ، وبعضها الآخر قائم يمد ظله على الماء من تحته . وأما أبو ذؤيب فقد انتهى من المقدمة ليس غير ، وهو يريدها الآن أن تؤدى غرضها الأصلى . إن يسر الحياة لا يدوم ، والموت آت لا ريب فيه . فاذا ارتوت الحمر فقد زال الضر ، ولكن الضر الأكبر ينتظرها ، وإذا بريب قرع يقرع ، وإذا القانص يظهر ، وإذا أسهمه يرمى بها ، وإذا الحمر خائفة قد اضطربت واحتمت فلم ينجها اضطرابها ولا احتماؤها ، ولم يغن حاميها عنها شيئا أمام الموت كما كان يفعل فى الجوع والعطش . وإذا القانص يعبث بالكنانة يخرج سهامه الواحد تلو الآخر يوزع الحتوف بالعدل والقسطاس ، فيتعثر من الحمر ما يتعثر ، ويفر منها ما يفر . ولكن الحمار محور الصورة وأس الحياة فيها يموت . وهل يبقى على حدثات الدهر شئ ؟

ولئن كانت صورة الحمار عند هذين الشاعرين ترينا شيئاً من هذا التشابه والاختلاف فى الصور ، وما يستتبعه من اختلاف جوهرى فى الصورة العامة ، فاذا هى تنطق بأثر فنى غير الذى تنطق به الأخرى ، فان الصورة التالية فى نفس القصيدة عند كل من الشاعرين تمدنا بطائفة أخرى طريفة من التشابه والاختلاف ، لعلها أبرز فى تبيان ما لهذه الصورة الشعرية الخالدة من جمال ، وما لهذا الاخراج الفنى الذى يخرجها عليه الشاعر من أثر فى إحداث الأثر الفنى المطلوب .

هذا لبيد يختار لوصف سرعة ناقته مرة أخرى بقرة وحشية على حين يختار أبو ذؤيب لتقرير واقع الموت ثوراً وحشيا . ولمجرد هذا الاختلاف سبب ، فالأول يصف حياته العاطفية ، والأنثى أليق بأن تحمل هذه العواطف وتكشف عنها . إن ناقته المسرعة تشاركه فى الألم لفراق من أحب ، فهى تسرع ولها من وجيب قلبها مما تعانيه من ألم نفسانى حافز إلى الزيادة من سرعتها . على حين يريد أبو ذؤيب الثور الثابت الصبور القوى المدرب ذا القرنين الحادين ليقول إن هذه الضخامة وهذه المرانة لم تجديا عليه شيئاً ولم تغنيا عنه فتيلا يوم أراد الموت أن ينزل به ، وهكذا تستمر الصورة من وحى حال الشاعر النفسية لتؤدى غرضها الفنى المتميز . فالبقرة عند لبيد قد فقدت

ولدها فهي تبحث عنه لاهثة متعبة قد جف ضرعها من اليأس ، وانقضت الليالي وانصرمت الأيام ، وهي لا تعرف لولدها مقراً ، والصحراء وحدها تعرف أين هي أشلاؤه . ولكن المطر ينزل عليها أثناء بحثها ، ثم ينهمر فيلجئها إلى شجرة ضخمة تحتمي فيها ، وقد ازدادت قفزات قلبها من الخوف . والمطر يلمع ظهرها ، فاذا هو كجمانة البحري وسط هذا الليل الدامس الحالك . ويتنفس الفجر ويتمطى شعاعه استعداداً للصباح ، فاذا البقرة تزل أزلالها عن الثرى ، ثم تسترجع الحنين وتوقن باليأس ، ولكنه رز الأنيس يروعها . ومتى ظهر الانسان في حياة الحيوان الوحشي فهو عنوان الشر وبشارة الموت . وإذا البقرة تعدو وأي عدو ! عدو من توترت أعصابها من خوف وحزن وألم ، فهي مرهفة قافزة تعرف أنها مقدمة على معركة الحياة أو الموت إن لم تستطع أن تنجو بنفسها . وهنا قمة الصورة عند لبيد هذا هو أصلها وأساسها ، وما حوله من منظر كان أداة لابرازه . ولكن الكلاب تلحقها . إذن فقد انتهى العدو وبدأت المعركة . أكانت المعركة هامة بالنسبة إليه ؟ كلا ! إنها تافهة ثانوية ، فلقد استكمل صورته وهو لايريد الآن أكثر من أن ينهيها . والكلاب تتصدى للبقرة وهي منهوكة متعبة . أتغلبها الكلاب أم تتغلب هي عليها ؟ حتى هذه النتيجة لا تهم أيضاً . ويقتضب لبيد هذا الجزء الأخير اقتضاباً قد يراه السامع لأول وهلة غير ملائم لما سبق من تفصيل في وصف الحال النفسية ، وما تقود إليه من سرعة . ولكن هذا التفصيل كان هو الأساس ، وأما المعركة ونتيجتها فلا يمكن أن تستغل في الغرض الأصلي .

أما أبو ذؤيب فالمعركة عنده كل شيء ، هي الدليل الشعري على أن محاربة القدر لا تغني ، وعلى أن الجهاد لا يذود عن الانسان حكم الموت ولا يغيّره . لذلك تجد الثور عند أبي ذؤيب فخم البنيان ، دائم الحذر والخوف من فرط احتياطه وخبرته ، متربصا لكلاب الصيد يرقب مقدمها . ولكن الرياح تهب والمطر ينزل عليه ، فيأوي هو أيضاً إلى شجرة ضخمة يحتمي بها ، وبين أضلاعه قلب هلع ، لا من يأس على فقيد ولكن من ارتقاب لما سيجيء . وهو يرى بعينيه الغيوب ، وطرفه مغض يرى بل يصدق ما تسمعه الأذن من شدة الخوف . ومع خيوط الفجر الأولى ينفض المطر من على ظهره ليسمع صوت الكلاب وصاحبها . والكلاب عنصر هام في الصورة ، لذلك يصفها

أبو ذؤيب ، فمنها كلب أجدع . وهو يصف مقدمها ، ويصف كيف يجمّعها صاحبها حتى لا تهجم على الثور فرادى فتنهزم ، وإذا الكلاب تسد عليه الطريق . ويعدو ، ولكن العدو لا يهم أبى ذؤيب فهى تصل إليه ، بل إنها أخذت تنهش لحمه ، وبدأت معركة الحياة أو الموت . وإذا قرنه وهو سلاحه القوى يظهر فى الميدان ، وقرنه حاد ومرانته فى استعماله طويلة ، فهو يحتال على الكلاب حتى يصيبها ، ويقطر دمها من قرنيه فيشبهان حديد الشواء يقطر منه دم اللحم . وارتدت عنه الكلاب صرعى ، أو خائفة هاربة . فهل نجا بذلك من الموت ؟ إن كل شئ يقول نعم ، ولكن القدر يقول لا . وإذا صاحب الكلاب يظهر على المسرح وبيده السهام . والسهام لا ينفع فيها قرن الثور ولا مرانته وهو متعب مسكين . والسهم ينفذ والثور يهوى كالجبل الضخم تهتز الأرض لكبوته . وهل يبقى على حدثات الدهر شئ ؟

وهكذا تنتهى صورة أبى ذؤيب الثانية يريد بها أن يسير برهانه على فناء الدنيا خطوة أخرى . ففى الصورة الأولى موت يجئ ، وفى الثانية موت يجئ أثر جهاد موفق فى ظاهره خائب بحكم الأقدار . ثم ينتقل إلى الصورة الثالثة التى تسير بهذا البرهان خطوة ثالثة ، ولكنها لا تمت إلى الطبيعة ولا إلى الصحراء بشئ .

أما القراءة الأولى للقصيدتين فانها تقول لنا إن صورة الحمار وصورة الثور كلتيهما عند الشاعرين سواء ، وهى صور ألف الشعراء أن ينتزعوها من صحرائهم ليجمّلوا بها شعرهم ، ويقربوا بها معانيهم . ولكن الامعان فى هذه الصور ومحاولة لمح الاختلاف والتشابه ترينا أن الصحراء والحيوان ، والمطر والماء ، والكلاب والشجر ، كل هذه أدوات كالألوان فى يد الرسام ، كل فنان يقول بها شيئا ويضرب بها نغما قد يتفق فى ظاهره ولكنه فى الحقيقة مختلف كل الاختلاف ، يحدث فى النفس آثاراً فنية قد لا تتصل من قريب ولا حتى من بعيد إلا بخيوط رفيعة دقيقة بصلة الشبه أو القرابة ، كما تتصل كل لوحة تمثل وجه الانسان أو جسمه أو كل تمثال يمثلهما بصلة التشابه والقربى .

سهير القلماوى

نهـار وليل

بودّى لو أنهض والنهار باسم
فألج إلى عجائب فأستملى
لكنى أخو العجز
لا أزال ظلاً للنعاس المتثائب
فلو اندفع النور لفتك بالأشواق

ذات مساء إلى وليجة نفسى تحدّرت
— بدوةٌ من بدوات —
هل أردت تصفُّح البستان لا ثمر فيه ولا زهر ؟
تحدّرت وما استطعت الصعود
لِوجهى صرعنى هولٌ ما دريتُ ما يكون

الحب وحدَه كان يقوى أن يسعفنى فأصعد
لكنه جاء من بُعد ، من عل ، من مغيَّب البُعد
أقبل عاجلاً مترعاً بالضوء فيضٌ غير مستحَق !
شدَّ ما فتننى فذوَّبته فى خاطرى

وفى الخاطر ظللنا روحاً لصق روح
كِلانا جاثم مختنق

هل كان فى وسعىَ أن أدركك
قبل أن أغفو وأذهب فى الغفوة
— ياله من سباتٍ لطيفٍ فى ضميره خِصب ونشاط —
هل كان فى وسعىَ أن أحلُم باليقظة الناعمة.
بالأعجوبة يعانقها النور ؟

فى البدء داخل الليل نهارى وأسرف
فغلظت العتمة
ولكنى أصررت على التبصّر
أصرُّ
والآن الآن أذكر كيف لفّت العتمة خاطرى
يالله ! يا ظلمةً تُجرى الخوارق فى وليجة نفس
يا ظلمةً أصبحت منبت مصيرٍ محيِّر بمصيرى الوهّاج .

بشر فارس

ابن الخطيب

سياسى وشاعر وفيلسوف

كان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت بالأندلس فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وكان عبقرية متعددة النواحى ؛ فهو طبيب وفيلسوف ، وهو كاتب وشاعر من الطراز الأول ، وهو مؤرخ بارع ، وهو أخيراً وزير وسياسى ثاقب النظر قوى الادراك .

وهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ؛ ولد فى لوشة من أعمال غرناطة فى بيت من أكرم بيوت الأندلس فى رجب سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ، ثم انتقل بيتهم إلى غرناطة ، وخدم أبوه عبد الله فى القصر والخاص فى عهد السلطان يوسف أبى الحجاج . وتلقى ابن الخطيب دراسة حسنة ، ودرس الطب والفلسفة والفقة والأدب ، وبرز فى النثر والنظم منذ حداثته . ولما توفى أبوه فى سنة ٧٤١ هـ حل مكانه فى خدمة القصر وهو فتى فى عنفوانه . وتولى أمانة السر للوزير أبى الحسن بن الجياب وزير السلطان يوسف ، وكان من أعظم الكتاب والشعراء فى عصره . ولما توفى ابن الجياب فى الوباء الكبير سنة ٧٤٩هـ خلفه ابن الخطيب فى الوزارة والكتابة إلى جانب كبير الوزراء يومئذ الحاجب أبى النعيم رضوان . ولما توفى السلطان أبو الحجاج يوسف (٧٥٥ هـ) وخلفه فى الملك ولده محمد الغنى بالله ، استمر الحاجب رضوان فى الاضطلاع برئاسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب معاونا له ؛ وندب للوصاية على الأمراء القصر ، وأرسله السلطان لأول ولاية سفيراً إلى السلطان أبى عنان المرينى سلطان المغرب على رأس وفد من رجالات الأندلس يستنصره ويستغيث به على مقاومة ملك قشتالة . وأنشد ابن الخطيب بين يدى السلطان قصيدة مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر ... علاك ما لاح فى الدجى قمر
ودافعت عنه كف قدرته ... ما ليس يستطيع دفعه البشر

فتأثر السلطان لقصيدته أيما تأثر ، ووعدهم باجابة ملتمسهم وتحقيق مطالبهم .

وفى سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) نشبت ثورة فى غرناطة قتل فيها الحاجب رضوان وأقصى الغنى بالله عن الملك ، وتولى مكانه أخوه اسماعيل فقر إلى وادى آش ، واعتقل ابن الخطيب بعد ذلك بقليل . ويصف لنا ابن الخطيب فى ترجمته لنفسه فى كتاب « الاحاطة » هذه المراحل الأولى من حياته العامة فى قوله : « فقلدنى السلطان سره (يريد أبا الحجاج) ولما يستكمل الشباب واستعملنى فى السفارة إلى الملوك واستنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى بخاتمه وسيفه ، وائتمننى على صون حضرته وبيت ماله وسجوف حرمه ومعقل امتناعه . ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى وقصر الشورة على لصبحى ، إلى أن كانت الكائنة فاقتدى فىّ أخوه المتغلب على الأمر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته على القبض علىّ ، فكان ذلك . »

وتدخّل السلطان أبو سالم المرينى ملك المغرب فى شأن السلطان المخلوع الغنى بالله ، وكانت تربطه معه مودة وصداقة مذ كان أيام محنته يلوذ بحمايته بغرناطة ، وأرسل إلى ملك غرناطة الجديد سفيراً يطلب اجازة الغنى بالله ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فأجابه السلطان اسماعيل إلى مطلبه ؛ وجاز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب (المحرم ٧٦١ هـ) واستقبلهما السلطان أبو سالم فى فاس بترحاب ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب فى الحفل قصيدته المشهورة التى يدعوه فيها لنصرة سلطانه ، وهذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى داراً على اللوى ... عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوّى الذى ربى جناحىَ وكره ... فهأنذا مالى جناح ولا وكر

وكان لانشاء ابن الخطيب فى السامعين أعظم وقع ، ويقول لنا ابن خلدون وقد كان من شهود ذلك الحفل ؛ إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى .

وكان هذا أول لقاء بين هذين المفكرين العظيمين اللذين تجمع بينهما مشابهات عدة ؛ فقد كان كلاهما أستاذ عصره فى التفكير والكتابة ، وقد خاض كلاهما نفس الحياة السياسية المضطربة ، وأخذ بقسط بارز فى حوادث عصره وفى توجيه شؤونه . وكان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب نفس المركز الذى يشغله ابن الخطيب بالأندلس ، وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة التى يستأثر بها ابن الخطيب بالأندلس ؛ وتوثقت بين المفكرين العظيمين مدى حين أواصر المودة والصداقة ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس حينما عبر ابن خلدون بعد ذلك إلى الأندلس ، واتصل بسلطانها الغنى بالله . وكان كل منهما يقدر صاحبه ويجل مواهبه ، وقد ترجم كلاهما صاحبه بما ينم عن هذا التقدير والاجلال . فيقول لنا ابن خلدون مثلا فى ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لايجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدائحه وانتشرت فى الآفاق قدماء » . ثم ينوه بعد ذلك بروعة رسائله السلطانية وبراعته فى الادارة والحكم (١) .

ويصف لنا الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر معاصر ابن الخطيب خلاله ومواهبه فى تلك العبارات الرنانة :

« هو شاعر الدنيا وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه فى الكتب ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وهو نفيس العدوتين ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية والامتاع بالفهوم النقلية . » ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته فى الهجاء ، وإلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويجمل (٢) .

وأنفق ابن الخطيب ومليكه فى المنفى زهاء عامين ونصف عام حتى مهدت حوادث الأندلس لسقوط المغتصب ، واستطاع الغنى بالله بمعاونة الوزير عمر المتغلب على المغرب أن يسترد ملكه ، وذلك فى جمادى الآخر سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) ، ورد السلطان وزيره ابن الخطيب إلى سابق مكانته فى الوزارة ، ولكنه لم ينعم تلك المرة بسابق حظوته ونفوذه ، إذ كان ينافسه

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها وراجع كتابى ابن خلدون ص ٣٦ — ٣٩

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤٠٤ و ٤٠٥ .

فى السلطة شيخ الغزاة عثمان بن يحيى الذى قربه السلطان وأولاه عطفه لما قام به من معاونته فى استرداد ملكه . ونشبت بين الرجلين منافسة شديدة ، وما زال ابن الخطيب يحرض السلطان ويحذره من نفوذ عثمان وآله ، ويذكره بسابق غدرهم ، حتى استجاب السلطان إلى تحريضه ونكبهم (رمضان سنة ٧٦٤ هـ) وبذا خلا له الجو ، وتبوأ ذروة النفوذ والسلطان .

ويصف لنا ابن الخطيب جهوده وعمله فى الوزارة يومئذ فى قوله : « ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة بكر الحسنات بهذه الخطة بل بالجزيرة فيما سلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان ، وعفاف الحاشية والأمن ، وروم الثغور ، وتثمير الجباية وإنصاف الحماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، فى إيثار المصلحة الدينية ، والصدع فوق المنابر ذمانا من السلطان بترياق سم الثورة وإصلاح بواطن الخاصة والعامة . . . (١) »

غير أن معظم الروايات تدل من جهة أخرى على أن ابن الخطيب جنح عندئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . وإليك كيف يصف صديقه ومعاصره ابن خلدون هذه المرحلة من حياته : « وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بنيه بندمائه وأهل حكومته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتفننوا فى السعاية فيه (٢) . »

وأنفق ابن الخطيب بضعة أعوام أخرى فى الوزارة وهو يستأثر بكل سلطة ، ويتصرف تصرف الحاكم المطلق ، ويثير حوله ضراما من البغضاء والحسد ، وكان السلطان يعرض فى البداية عن الاصغاء لأعدائه والوشاة به . ولكنه بدأ فى النهاية يتأثر بسعايتهم . وشعر ابن الخطيب أنه قد بدأ يتغير عليه ، وخشى العاقبة ، فعول على مغادرة الأندلس واستأذن السلطان فى تفقد الثغور الغربية ، وسار إليها فى نفر من خاصته ، ومعه ولده على ، وما كاد يصل إلى جبل الفتح حتى عبر البحر إلى سبتة (٧٧٣ هـ) وذلك بتفاهم سابق بينه وبين السلطان عبد العزيز المرينى ملك المغرب ، وكان السلطان

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤١ . — (٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٥ .

يقيم يومئذ فى تلمسان نقصد إليها ابن الخطيب ، واستقبله السلطان بحفاوة وأنزله أكرم منزل ، وبعث سفيراً إلى الأندلس ليسعى فى استقدام أسرة الوزير المنفى ، فأتى بها معززة مكرمة ، وتبوأ ابن الخطيب فى بلاط ملك المغرب أسمى مكانة . وغص خصوم ابن الخطيب بغرناطة بنجاته على هذا النحو ، فعولوا على ملاحقته وسحق هيبته ، فاتهموه بالزندقة والخروج عن شريعة الاسلام والطعن فى النبى ، والقول بالحلول ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين ، ونسبوا إليه فى ذلك أقوالا ومقالات أولوها وفق مقاصدهم . وكان تلميذه وخلفه فى الوزارة أبو عبد الله بن زمرك أكبر مروج لهذه الدعاية . وتولى صوغ الاتهام عدو ابن الخطيب القاضى أبو الحسن بن الحسن النباهى ، ووجه إليه بالمغرب رسالة شديدة ينوه فيها بما ارتكبه من الطعن فى حق النبى ويقول : « فانه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة يكبر فى النفوس التكلم بها أنتم تعلمونها ، وهى التى زرعت فى القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بعدكم مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم . ولولا أنكم سافرتم قبل تقاص السلطة عنكم لكانت الأمة المسلمة امتعاضاً لدينها ودنياها قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم . » ثم يعدد مثالبه فى الحكم قائلا : « فليس يعلم أنه صدر منكم من العبث فى الابشار والأموال ، وهتك الأعراض وإنشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل ، والغدر فى غالب الأحوال للشريف والمشروف والخادم والمخدوم [1] . » وسجل القاضى أبو الحسن تهمة الزندقة على ابن الخطيب وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضى رسله إلى السلطان عبد العزيز يطالب بتنفيذ حكم الشرع فى الوزير الملحد ، وهو الاعدام . فأنف السلطان لطلبه وعنف رسل الأندلس وقال لهم : هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؛ وردهم خائبين ، وزاد فى اكرام ابن الخطيب ورعايته [2] .

ولما توفى السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل (٧٧٤ هـ) وخلفه ولده

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٦٨ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ . ونفح الطيب ج ٣ ص ٦٧ و ٦٨ .

السعيد طفلا على العرش غادر بلاط المغرب تلمسان ، وسار ابن الخطيب برفقة الوزير أبي بكر بن غازى القائم بالدولة ، ونزل بفاس واقتنى الضياع والدور ، واستمر على مكانته فى الدولة . ولكن حوادث المغرب ما لبثت أن تمخضت عن انقلاب جديد . ذلك أن الثورة نشبت فى شمال المغرب على يد بعض الزعماء من بنى مرين ، وعضدت حكومة الأندلس هذه الحركة وأمدتها بالعون ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد بن السلطان أبي سالم . وحاول الوزير ابن غازى مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الخوارج فاس فأذعن الوزير . وخُلع الملك الطفل السعيد ، وجلس السلطان أحمد على العرش وذلك فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ .

وكان ابن الخطيب قد لجأ فى أثناء ذلك إلى البلد الجديد « ضاحية فاس » وكان التفاهم قد تم بين السلطان ابن الأحمر وزعماء الفتنة بشأن ابن الخطيب ومصيره . فلما وقع الانقلاب بادر السلطان بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود وقد كان من ألد خصوم ابن الخطيب جهداً فى تشديد النكير عليه وتدبير مَصْرعه ، وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق لما نمى إليه من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربته . وبعث ابن الأحمر وزيره أبا عبد الله ابن زمرك إلى فاس ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وعقد السلطان أحمد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى واستدعى إليه ابن الخطيب لمناقشته ومواجهته بالتهم المنسوبة إليه وأخصها تهمة الزندقة استناداً على ما ورد فى بعض رسائله ، وعزر وعذب أمام الملأ ، وأفتى بعض الفقهاء السفلة بوجوب قتله ، ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه خنقاً فى سجنه ، وأخذت جثته فى الغد وأضرمت فيها النار ثم دفنت . وكان ذلك فى أواخر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م) .

وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ضحية الجهالة والتعصب والاحقاد السياسية الوضيعة . وقد نقل إلينا صديقه ابن خلدون عنه أبياتاً من الشعر كان يرددها وهو فى سجنه ويرثى بها نفسه توقعاً لمصيره المحزن :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة ... كجهر صلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما ... وكنا نقوت فها نحن قوت

وكان ابن الخطيب سياسيا بعيد النظر ، وكان يرى فى حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب من نهاية محتومة لهذا الوطن الذى مزقته الأهواء وأضنته الفتنة ، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر أن يبادروا إلى غوثه ونصرته وإلى المجاهدة فى سبيل الدين والوطن ، وله فى ذلك رسائل عديدة ونداءات مؤثرة يوجهها إلى قومه ، ويلفت نظرهم إلى الخطر الداهم الذى لا محيص من وقوعه ، وهى رسائل تمتاز بروعة أسلوبها (١) .

وأبلغ من ذلك كله فى الدلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذى ينتظر الأندلس ما وجهه فى وصيته إلى أولاده من النصح بعدم الاسراف فى اقتناء العقارات بالأندلس إذ يقول لهم : « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد الذى لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع فى العقار فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعيا لنفسه أن يتغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار ، ومعوقا عن الانتقال أمام النوب الثقال . وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالاجمال فى الطلب أولى (٢) . »

ومن الصعب علينا أن نلم بجهود ابن الخطيب الفكرى والأدبى فى هذا المقام الضيق . والحقيقة أن ابن الخطيب كان عبقرية متعددة الجوانب حسبما أسلفنا ، فكان طبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وكاتباً ، وكان سياسيا ومؤرخا ، وقد ترك لنا تراثا ضخما متنوعا من مؤلفات عديدة وديوان شعر حافل ورسائل أدبية وسياسية لا تحصى .

ونستطيع أن نذكر من مؤلفات ابن الخطيب الكتب الآتية :

الاحاطة فى أخبار غرناطة ، مركز الاحاطة بأدباء غرناطة ، الحلل (بالأسكوريال) .

---

(١) نقل إلينا المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض كثيراً من هذه المسائل .
(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٤٢٥ .

اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية ، رقم الحلل فى نظم الدول . الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ، التاج المحلى فى مساجلة القدح المحلى ، (وهو أيضاً تاريخ لغرناطة) .

منفعة السائل فى المرض الهائل . (وهو يتعلل بالوباء الكبير سنة ٧٤٩ ﻫ) (بالأسكوريال) .

ريحانة الكتاب (بالأسكوريال) الديوان (بالأسكوريال) السحر والشعر . الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة [١] .

وكان ابن الخطيب من أئمة الموشحات الأندلسية . ومن أشهر نظمه الموشحة الذائعة الصيت التى مطلعها :

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما ... فى الكرى أو خلسة المختلس

ولابن الخطيب تراث حافل من الرسائل الأدبية والسياسية ، وقد نقل إلينا المقرى منها العدد الجم ، ونقل إلينا ابن خلدون بعض ما كان يكتبه إليه منها [٢] .

ويفرد المقرى فى كتابه نفح الطيب مجلدين كاملين (هما الثالث والرابع) لابن الخطيب ، وأخباره وشعره ونثره ، وشيوخه وتلاميذه ، وقد نقل إلينا فيهما من مختلف كتبه ورسائله فصولا وشذوراً لا تحصى ، كما نقل إلينا وصيته لأولاده ، وهى من أبدع ما كتب [٣] .

محمد عبد الله عنان

---

(١) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٣٠ .
(٢) راجع كتاب نفح الطيب ج ٤ ص ٣١٩ — ٤٢٦ .
(٣) راجع هذه القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها .

هذا الانسان . . .

يصطلح المؤرخون الأوربيون على تسمية العصور التى تقع بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ للميلاد بالعصور المظلمة . ذلك لأن العقل البشرى خبا وأوشك أن ينطفئ . فكانت أوربا فى ظلام الجهل لا ترى رؤيا العقل والأدب والعلم . وبقيت فى هذا الظلام إلى بدايات القرن الحادى عشر حين بزغ النور على أضعف ما يكون ، ولكنه ما زال يتجمع حتى انفجر فى القرن الخامس عشر .

فاذا انتقلنا من التاريخ البشرى إلى التاريخ البيولوجى وجدنا أيضا « عصوراً مظلمة » . فقبل نحو ٧٠ أو ٨٠ مليون سنة عم العالم ظلام ، كأن الحياة ، فى الاعتبار البشرى ، قد أخفقت وسدت على نفسها طريق الرقى . ذلك أن الأحياء انتهت إلى أنواع من الحيوان يطلق عليها فى أيامنا اسم الزواحف الكبرى . وكانت هذه الزواحف التى لا تزال هياكلها باقية فى المتاحف ، بل كذلك بيضها ، تشبه إلى حد كبير التماسيح والعظايا والورن والسلاحف . ولكنها كانت فى الحجم تترجح بين الكلب والفيل ، بل كانت تزيد أحيانا على الفيل . وكانت تعيش فى كل مكان فى الغابات والأنهار والسهول والجبال والبحار . وقد انقرضت لأسباب لا تزال مجهولة . ولم يبق منها ، بعد تطورات مختلفة جعلتها بعيدة عن الزواحف القديمة ، سوى تلك الزواحف الصغيرة والكبيرة فى أيامنا . وهى لا تحيا إلا تلك الحياة النثرية ، تختبىء من الأحياء الأخرى وتخشى الافتراس ، وتسعى فى الظلام وتنجحر فى النهار .

وعاشت هذه الزواحف الكبرى نحو ثلاثين أو أربعين مليون سنة . وكأن التطور قد تجمد بها . وكأن اتجاه الطبيعة نحو الانسان بايجاد العقل قد انحرف ، فلم تعد الغاية نمو العقل ، بل أصبحت نمو الجسم .

ومن قبل ذلك بملايين السنين تجمد التطور بامجاد الحشرات التى اتجهت وجهة أبعد ما تكون عنا ؛ اذ قنعت بالغريزة كأنها من الشجر. حتى أن برجسون ، فى نزعة غيبية مسرفة قال إن فى الحياة طريقين أحدهما طريق الغريزة ، وقد قطعته الحشرة إلى نهايته ، والآخر طريق العقل ونحن البشر فى طريقه لما نبلغ نهايته . ولو أن برجسون كان قد عاش أيام الزواحف الكبرى لوصل إلى مثل هذا الفرض أيضا . ولكن الحيــاة « موسوعية » تحاول وتجرب وتبيد الأحياء الفاشلة ، وتتحسس الوسائل الصغيرة لتجاربها الكبيرة .

وانقراض الزواحف الكبرى مجال للحدس والتأمل . فلعلها انقرضت لأنها كانت كبيرة الحجم عملاقية التركيب . ونحن نعرف أن العمالقة الشاذين الذين يولدون بيننا من البشر يعقمون أى لا يتناسلون . والفيل أكبر الأحياء على اليابسة لا يلد إلا مرة كل ٢٥ سنة . ولكن هذا التعليل لا يكفى ؛ لأنه كان بينها زواحف فى قدر الكلب أو الحمار أو الفرس . وهناك من يقول بأن التغير المناخى قد أبادها ، أى إن الدنيا بردت فجأة ودخلت فى عصر جليــدى ، فلم تتحمل هذه الزواحف المناخ الجديد . ولكن هذا بعيد ؛ لأن التطور كان أحرى بأن يسعفها بفراء أو ريش بدلا من أن يتركها لتنقرض . وأخيرا هناك من يقول بأن اللبونات الجديدة كانت تأكل بيضها وتحول دون تناسلها . وهذا حدس لا أكثر .

ولكن بعد نحو ٣٠ أو ٤٠ مليون سنة من هذا الكابوس الذى جثم على العالم نجد أمارات العصر الجديد أو النهضة البيولوجية . فمن ناحية نجد الطيور ومن ناحية نجد اللبونات . وليس فى أيامنا طيور قديمة تحتوى مناقيرها على الأسنان ، ولكن بقاياها أو أحافيرها توجد فى المتاحف . أما اللبونات القديمة فلا يزال بعضها حيا حتى فى أيامنا . فانها تبيض ولا تلد . ثم هى مع ذلك ترضع أولادها بطريقة بدائية ؛ إذ يتشقق البطن ويخرج من شقوقه سائل دموى لبنى تلحسه الأطفال . وهذا هو الرضاع البدائى كما نراه فى حيوانين هما البلاتيبوس فى استراليا والنمّال أو آكل النمل فى أمريكا الجنوبية .

وظهور الطيور هو خطوة كبيرة جدا فى التطور ؛ لأن الاحساس عند الطائر انتقل من الأنف إلى العين . فالى ظهور الطيور كانت جميع الأحياء ، فى البحر واليابسة ، تسعى للطعام والأنثى بالأنف . ولكن ميدان الشم صغير

محدود . أما ميدان العين فيتسع إلى الآفاق ويزيد الملاحظة والمقارنة فيزيد الذكاء .

وحوالى ٣٠ مليون سنة قبل عصرنا نجد أحياء من اللبونات الجديدة تعيش على الشجر وتعتمد على عيونها . وهى مضطرة إلى ذلك غير مختارة ؛ لأن المجال للشم على الشجرة صغير جدا . ولكن هذه اللبونات لم تكن مساحة بالريش لكى تطير بالأجنحة وتنجو بنفسها أو تنتقل بها من شجرة إلى أخرى . ولذلك احتاجت هذه اللبونات الجديدة إلى أن تعتمد فى التنقل على الأغصان أو الانتقال من شجرة إلى أخرى على أيديها .

وأبعد إيماءة إلى أصلنا هو الليمور . وهو أنواع كثيرة تختلف أحجامها من حجم الفأر إلى حجم الثعلب . وهو حيوان ليلى يسعى فى الظلام ثم يختبئ وينام فى النهار . ولأنه ليلى جمع عينيه فى وجهه مثل البومة التى تصيد فى الليل . ووجهه غير بشرى ؛ فان أنفه يجتمع بفمه فى فم بارز ، وشفته العليا مشقوقة ، ومنطقة أنفه وفمه رطبة كالبقر . وهو يستعمل يديه الاثنتين ، لا الواحدة للتناول . وقد يتناول طعامه أحياناً بفمه . وهو من أقدم اللبونات كما يدل على ذلك أنه يعيش فى شرق آسيا وشرق إفريقيا (فى مدغشقر) ولا يعيش فيما بينهما . أى إنه نشأ قبل الانفصال الجيولوجى بين هاتين القارتين ، هذا الانفصال الذى يملأ ثغرته الآن المحيط الهندى .

وهذا الليمور هو إيماءة أولى للانسان . ولكن ما أحقرها من إيماءة ! فانه لايزال يحتفظ بذنبه ، وذكاؤه يقل عن ذكاء الكلب ، ومخه أمسح بلا تلافيف .

وليس من شك فى أننا نحن البشر قد قضينا فترة طويلة من تطورنا على الشجر اكتسبنا بها جملة أشياء ما كنا لنكسبها لو أننا قنعنا بالبقاء على اليابسة . ذلك أن الشجر علمنا وعوّدنا التسلق باليدين . فلم تعد يدانا للمشى فقط بل صارتا أيضاً للتسلق . وبهذا التسلق نفسه تهيأت اليدان للامساك والتناول . ثم كسبنا ، بالمعيشة على الشجر ، الاعتماد على العين بدلا من الاعتماد على الأنف . فزاد وجداننا أى درايتنا بالوسط الذى نعيش فيه . لأن الحيوان الذى يسعى بأنفه ويسترشد بالشم ، لا يدرى إلا البقعة التى هو فوقها أو القليل مما حولها .

ولكن الحيوان الذى يقعد على غصن الشجرة أو يرتفع إلى غصونها العالية يرى بعينيه جملة كيلومترات محيطة بالشجرة . ونحن هنا كالطير ، ولكننا نمتاز على الطير من حيث إن أيدى الطير صارت أجنحة ، أما أيدينا فبقيت للتسلق ثم للتناول .

وإذا كان الليمور إيماءة أولى ، فان الطرسير إيماءة ثانية . فانه حيوان يتفق مع الليمور من حيث إنه ليلى كالبوم . والبومة ، لأنها تصيد فى الظلام أو الغبشة ، تحتاج إلى أن تكون عيناها فى وجهها ، لا فى صدغيها كالحمامة أو الدجاجة ؛ لأنها تحتاج إلى التمييز الصحيح للاشباح بعينين اثنتين تريان معاً . وليس الشأن كذلك فى سائر الطيور النهارية التى ترى بعين واحدة . ولا بد أننا قضينا فترة طويلة من تطورنا ونحن نسعى فى الليل على الشجر ، كما هو الشأن فى الليمور والطرسير . وهذه الفترة هى التى جمعت عينينا فى وجهنا ونقلتهما من صدغينا . فصرنا ننظر إلى الأشياء بعينين نظراً كاليدسكوبيا ، أى إن الصورة التى تنقلها إحدى العينين تراجعها العين الأخرى وتصححها وتنقل ظلالها ، فتتجسم الرؤية .. وهذا المنظر الكاليدسكوبى هو ما يطمع فى تحقيقه هذه الأيام المشتغلون بالأفلام السينمائية . أى إنهم يرغبون فى تجسيم الصور حتى لا تكون فتوغرافية فقط . وجميع الحيوانات ، باستثناء القليل ، كالانسان والقردة العليا ، وطيور الليل ، تنظر النظر الفتوغرافى بعين واحدة فى أحد الصدغين . فالرؤية عندها غير مجسمة ، أى غير متقنة .

ولكن حياتنا على الشجرة أكسبتنا ميزة أخرى لا تقل عن ميزة الاعتماد على العين ، أى على العينين معاً ، دون الاعتماد على الأنف ، هى ميزة استخدام اليد للتناول . فان التسلق على الشجر يهيئ اليد والأصابع للتناول ؛ لأننا تعلمنا من القبض على الغصن كيف نقبض بعد ذلك على العصا أو الحجر ، وكيف نتناول الثمرة باليد وننقلها إلى الفم بدلا من أن نمد شفتينا إلى الثمرة . وساعدنا هذا على وضع جديد للوجه البشرى ؛ لأن الفكين تراجعا للوراء ورقت الشفتان . فصار لنا وجه مستقيم عموديا ولا يبرز منه الفكان من أسفل . وساعدنا هذا بعد ذلك ، على أن نتخذ الوضع العمودى لأجسامنا بدلا من الوضع الأفقى الشائع بين الحيوانات .

اعتبر مرة أخرى الميزات العديدة التى نلناها من حياة الشجر :

١ ــ إن عقلنا أصبح عقل العين بدلا من عقل الأنف ، عقل الآفاق البعيدة والمقارنات الكثيرة . وما زلنا نقول : مارأيك ؟ يجب أن تتبصر . وهذا هو التفكير العينى .

٢ ــ اكتسبنا من الشجر استعمال اليد لتناول الطعام وغيره بدلا من استعمال الفم .

٣ ــ واكتسبنا أيضاً القامة العمودية ، وكان تسلقنا على الشجر هو التدريب الأول لذلك .

٤ ــ واكتسبنا هذا الوجه البشرى الذى لا يبرز فيه الفكان .

ولكن حياة الشجر علمتنا أيضاً أخلاقاً جديدة ، ما كنا لنصل إليها لو أننا بقينا على اليابسة ، منها عناية الأم بأطفالها أو هذه الأمومة البشرية فى التزامها لأطفالها مدة طويلة ، وكذلك اعتماد الأطفال على الأم . وهذه المدة الطويلة قد هيأت الفرصة للتربية .

ذلك أن سكنى الشجر لغير الطيور خطرة على حيوان لبون لا يطير إذا هاجت الريح وضربت الغصون ، أو إذا تسلق ثعبان وحاول أن يأكل الصغار . وهى أخطر على الأطفال الذين يجب أن تحرسهم الأم وتدأب فى المحافظة عليهم من السقوط أو من عادية الوحش . وهنا الفرصة العظيمة للنمو العقلى مدة الطفولة .

ونستطيع أن نصف الانسان منذ بداياته الأولى بأنه حيوان عينى ، لاحيوان أنفى ، وأنه أيضاً حيوان عمودى لا حيوان أفقى ، وانه أيضاً حيوان يدوى .

ولكن هذه البدايات نجدها جميعا فى الليمور الذى تنأى أصوله إلى ماض سحيق ؛ برهاننا عليه إنه كان يعيش قبل الانفصال الجيولوجى بين أفريقيا وأندونيسيا حيث لا يزال هو إلى الآن يقيم فى هاتين المنطقتين : مدغشقر وأندونيسيا .

ولكن هذه بدايات فقط فى الليمور لأنها غير تامة ؛ فان عينيه لم يتقاربا التقارب البشرى ؛ وهو لا يزال يمشى على أربع مع القدرة على الوقوف

والتسلق . فاذا انتقلنا من الليمور إلى الطرسير ، وهو حيوان ليلى كالبومة ، وجدنا تقارب العينين ، ووجدنا ميزة أخرى هى أنه لا يمشى ولكنه يثب على قدميه كما نثب نحن حين نكون مقيدين . وهذا الوثب قد انتفعنا به لأنه نقل عبء الجسم من أصابع القدمين إلى رسغيهما ، فكانت القامة العمودية .

وظهر الطرسير ، فى تجاربه البشرية الأولى ، من أقل من ثلاثين مليون سنة ، وكنا نحن هذا الطرسير ننظر فى الظلام كالبوم ونثب على رسغينا ، ونأكل كل شئ بلا تخصص كما نفعل الآن . فلم نقتصر على الثمر ولم نقتصر على الحشرات . فنحن من حيث الطعام « موسوعيون » لا نتخصص .

والطرسير مع ذلك حيوان سحيق ؛ لأن الفرق بينه وبين الغوريلا أكبر جدا من الفرق بين الغوريلا وبين الانسان ؛ فان مخه لم يغطّ الى الآن مخيخه كما هو الشأن فى القردة العليا .

ولأمر ما نجهله نزل الانسان الأول ، وهو شئ بين الطرسير والقرد ، إلى اليابسة ، واستطاب الاقامة على اليابسة حيث الأمن فيها على الأطفال مكفول . لأن سقوط الأطفال من الشجر كان من الهموم العظيمة التى كان يعانيها أسلافنا قبل ملايين السنين ، واستطاع أن يسعى على اليابسة . يسعى بالوثب أولا ثم بالمشى ثانياً بالاعتماد على الرسغين .

ولكنا لما تركنا الشجر كانت أذنابنا لا تزال عالقة بنا ، بل هى لاتزال كذلك فى العصعص الذى يجمع عندنا من الفقرات ما يكفى لذنب محترم يليق لأى حيوان يعيش على الشجر ويتعلق بالغصون . وكل ما نحتاج إليه كى نسترد أذنابنا قليل من اللحم والجلد . . . ولكن إقامتنا على اليابسة أغنتنا عن الأذناب . لأن اليد كانت قد تحررت فصارت تتناول وتذب الهوام وتقتل الحشرات . وفى حيوان مثل الانسان قد استقر على أن يعيش على اليابسة ، يعود الذنب عبئاً يجب التخلص منه وقت القتال . وكان لا بد من زواله .

وكان لابد من أن نترك الشجر : أولا للأمن الذى ذكرنا ؛ لأن حياة الصغار على الغصون كانت عرضة لأخطار السقوط . وثانياً لأن غذاءنا من الأثمار لم يعد يكفينا ؛ وخاصة لأن الأثمار ليست دائمة إذ هى موسمية . وكسبنا من اليابسة جملة أشياء :

أولها أن اليد التى كانت قد كادت تتخصص فى القبض على الغصون قد

أصبحت مكلفة واجبات جديدة فى التناول . فتطورت الأبهام حتى صارت كأنها يد أخرى تواجه الأصابع الأربع لا تقف معها فى صف كما هو الشأن فى الأورانج أوتان الذى لا يزال ملازما للشجر ؛ فهو يحسن القبض على الغصن والتعلق به ، ولكنه لا يحسن التناول للحجر أو العصا . ثم اكتسبنا القامة العمودية للمشى .

وقد احتجنا فى هذا الانتقال من الشجر إلى اليابسة ومن القامة الأفقية إلى القامة العمودية إلى رباطات جديدة تربط أمعاءنا حتى لا تسقط . ولكن هذه الرباطات لم تتأصل فى طبيعتنا إلى الآن . كما نرى مثلا من هذا المرض البشرى ، والبشرى فقط ، أى الفتق ، حين تنهار الأمعاء عند الرجل وتسقط فى الكيس أو حين تفتق صرة المرأة وتخرج . فان هذا المرض الذى لا يمكن أن يصاب به كلب أو بقرة أو فأر نصاب نحن به للقامة العمودية التى اتخذناها ، ولما نحقق جميع أدواتها التى تحميها وتبقيها فى صحة وسلامة .

العين ، واليد ، والابهام ، والرسغ ، هذه الأربعة قد نقلتنا من طور الحيوان إلى طور الانسان ، وهيأت لنا حالا جديدة أو وضعاً جديداً استطعنا به أن نجعل الرأس كبيراً يتسع للمخ الكبير الذى كسا المخيخ بل طغى عليه . ولولا هذه الأربعة لما استطعنا أن نصل إلى الوجدان والذكاء والمعرفة ثم الحضارة والرقى . لأن المخ البشرى ، بالمقارنة إلى الجسم ، هو أكبر مخ على هذا الكوكب . ولولا أن قامتنا عمودية لما استطعنا أن نحمله . ولو كان هذا المخ البشرى فى رأس الذئب أو الفرس لكسر عنقيهما لأنهما يحملانه حملا أفقيا لا عموديا .

ولكن مخاً كبيراً بلا عينين تنقلان إليه أخبار الوسط لا قيمة له ؛ إذ لن يجد المادة التى تحمله على التفكير والمقارنة والاستنتاج أى الذكاء . ثم كذلك مخ بلا يد تصنع الأدوات والآلات لن يؤدى إلى اختراع حضارة . ثم كل هذا لم يكن مستطاعاً لو لم نقف على أرساغنا أى على كعوبنا وقفة عمودية .

سلامة موسى

المسرحيات الراقصة

لم تعد المسرحيات الراقصة فنا عابراً ، يأتى العواصم الأوربية مع الفرق التى تعنى بهـذا النوع من الفنون ، فيهرع هـواة الفن من الأوربيين والأمريكيين لمشاهـدته ، ثم ينتقل بانتقـال الفرق إلى بـلاد أخرى ، حيث تعرض هذه المسرحيات الراقصة . بل صار هذا الفن فى السنوات الأخيرة ، فنًّا مقيما فى العواصم والمدن الـكبرى الأوربية والأمريكية ، وصار له هواة وجمهور لا يختار منه بديلا ، وصارت هنالك مسارح تقف عملهـا عليه . وتلك جرأة من فن لم يكن له ثبات قبل عصر السينما الذى طغى على كل شئ . وإن فنًّا يثبت هذا الثبات فى زمن سيطر فيه فن السينما ، لخليق بأن تكون له ميزات ، وفيه صفات ، تستحق هذا الثبات وهذا الاقبال من جمهور فنى .

فنحن نعـلم ما عاناه المسرح من مشاق للثبات فى وجه السينما . ونعلم كذلك كيف قاوم المسرح فى ذلك وناضل . ثم أخذ القائمون به يحاولون ويبتدعون كى يظل الفن الذى يعملون له قائما فى الحياة ، مع أن لفن المسرح تاريخا مجيداً يمتد إلى أجيال ، وتحسب سنو حياته بما مرّ من عصور منـذ المدنية اليونانيـة والرومانية على الأقل ، وقد يكون إلى أبعد من ذلك فى الأمم الأخرى . فلعل المسرح قد رأى فجر المدنية وعاصرها ، وولد حين بدأ الانسان يفضل نتاج الفكر على المادة .

إلى هذا الزمن البعيد يرجع تاريخ المسرح ومجده المؤثل . ومع ذلك نراه قد تراجع أمام فن دخيل لم يمض عليه أكثر من خمسين سنة . وبدت عليه إثر تقدم السينما عوارض الشـيخوخة ، بل ظهرت عليه علائم الانحلال فجأة ، لولا أن تداركه رجال الفن من محبيه ورواده ، فأمدوه بدم جديد ، وأمـدوه بالأدوية المجددة للشباب ، فتمكنوا من أن يحتفظوا له بحياته فى أخطر فترة مرت عليه ، ثم أعادوا إليه الـكثير من روائه .

ولكن ثمة فنًّا كان إلى نيف وعشر سنوات لا يستطيع الحياة فى العواصم والمدن ، بل كان يتنقل من مكان إلى مكان . وقد ألفى هواة فى كل مكان حل فيه ، وألفى ترحابا من جمهور محب ؛ ولكن كان الشك كبيرا فى ثبات هذا الجمهور على حبه ، وكان الشك كبيرا فى اخلاص هؤلاء المحبين . وإذا كانت المسرحيات الراقصة لها رواء لا يمكن أن يقاس إلى جانبه رواء المسرح العادى فى رواياته التمثيلية ، أو السينما فى نوره الخاطف ومناظره المتنقلة السريعة وسط الظلام ، فانه لم يكن من المتوقع مع ذلك أن يوجد لهذا الفن جمهور ثابت لا يحب أن يجد منه بديلا .

لكى نستطيع أن نقدر هذه الأعجوبة فى عصر تسلطت فيه السينما على العقول ، يجب أن نبحث قليلا فى الفرق بين هذا الفن والفنون القريبة منه والمنافسة له ، ثم نبحث قليلا فى كيانه وما ينتظر له من مستقبل .

لننظر ونفكر . ما هو الفرق الأساسى بين الروايات التمثيلية وبين السينما ؟ أليس السينما نوعا من المسرح ؟ أليست القصص السينمائية قصصا تمثيلية يقوم بها ممثلون كممثلى المسرح ويخرجها وينظمها ممثلون كمخرجى المسرح ومنظميه ؟ هذا صحيح ولكن الفرق الأكبر فى أمرين : أولها أن السينما يستطيع بوسائله أن يتخطى حدود المكان الذى يقف فيه الممثلون ، وتلك ميزة السينما الكبرى ؛ تلك ميزته التى أدت بالمسرح حيناً إلى أن يتراجع ويترنح تحت طعنة السينما . فهذا الانتقال السريع من مكان إلى مكان ، وتلك المناظر التى يستطيع الاخراج السينمائى أن يطلعنا عليها فى طرفة عين ، وتلك الدور التى يهتك لنا أسرارها بعصا ساحر ، وتلك الرحلات التى نعبر بها المحيط فى لحظات معدودات ، بل قد تنقلنا إلى الكواكب والعوالم المجهولة فى مثل لمح البصر ، تلك ميزة السينما الكبرى .

ولكن إذا أخذنا الأمور على ظاهرها فاننا نكون مخطئين . فما تلك الوسائل التى التجأ إليها فن السينما إلا وسائل مادية ، دعمت بما ظفر به هذا الفن الحديث من إقبال ، ودعمت بالبذخ والاسراف فى الانفاق على هذا الفن الوليد . وقد ننسى شيئاً هاماً فى الفن ، بل ننسى أهم قوام للفن ، إذا نحن نسينا أمراً واحداً ، وهو أن الفن لا ينشأ ولا يقوم إلا نتيجة للحياة الروحية ، وأن الفن يعتمد على الفكر والروح ، قبل أن يعتمد على الجهد الآلى والمادة .

وذلك هو الفرق الثانى . فالواقع أن القصص التمثيلى لم يبلغ هذه المكانة التى بلغها ، ولم يثبت على مر العصور ، ولم يسخر أقلام رجال يعدون من أنبغ الذين ظهروا على وجه الأرض ، إلا لأنه فن يعتمد على الفكر والروح بالرغم من كل شئ . فلقد عرف هذا الفن تلك المدرجات المستديرة الطلقة فى الهواء ، حيث يجلس النظارة على الصخر ساعات طويلة ، ويتتابع الممثلون وعلى وجوههم الأقنعة فى منظر عجيب ، ثم ينتقلون بالحديث وحده من بلد إلى بلد ، ويضربون فى أرجاء عرض الأرض . ولا يرى النظارة من هذا الانتقال شيئاً ، بل يرون أمامهم المنظر الثابت للطبيعة سواء أكان خلف الممثلين فضاء أو بناء أو بحر . ومع ذلك لا يجد النظارة فى ذلك ما يضحك بل يصغون إلى الحديث واجمين أحياناً ، مبتسمين أحياناً أخرى ، مظهرين السرور إذا دعاهم الممثل ، أو راثين له ولحالته . ولقد عرف الفن خشبة المسرح التى يكتب على لوحة فيها : هذا بيت أو هذا حائط أو تلك غابة لتدل على المنظر ، ومع ذلك لم ينكر النظارة شيئاً ، بل ظلوا يصغون إلى حديث الممثلين فى صمت ، ويصدقونهم حين يبدو من كلامهم أنهم فى أرض الدانمرك ، أو على ضفاف بحر خضم مثلا ، وهم يبكون لبكاء الممثل ، ويفرحون لفرحه ، ويشاطرونه حلو الحياة ومرها ، دون أن ينكروا عليه شيئاً .

فلماذا نراهم يفعلون ذلك ؟ ولماذا نراهم يغمضون أعينهم عما تقع عليه أنظارهم ، ولا يستنكرون على الممثل خداعه لهم على هذه الصورة الصارخة ، أليس ذلك لأنهم لا يعنون فى المسرح إلا بالروح ؟ أليس ذلك لأن الممثل لا يخاطب إلا عقولهم ونفوسهم ، ولا يهم بعد ذلك ألا يمثل المنظر الذى أمامهم الحقيقة سواء أكان قطعة من الخشب أو قطعة مدلاة من القماش ؟ أليس ذلك لأن الاتصال بينهم هو اتصال فطرى وروحى ، فالممثل يلقى عليهم خلاصة فكر الشاعر أو الناثر الذى ابتدع القصة ، وهم يتصلون بهذا الفكر اتصالا يأخذ بنفوسهم وعقولهم ؟ أظن ذلك .

هذا هو الفرق الكبير بين المسرح والسينما : تلك الحرارة التى تصل بين الممثل والمشاهد لا تجدها فى السينما ؛ وإن وجدتها ، فهو اتصال بارد يتفق مع تلك الأشباح المتحركة دائما ، الزائلة دائما . وذلك هو فيما أظن الذى أبقى على المسرح واستطاع به المسرح أن يعيش إلى جانب السينما ،

وأن يبرأ من الطعنة التى وجهت إليه والتى كادت تكون قاتلة . لم يعش المسرح لأن العاملين فيه قد حاولوا أن يستفيدوا من وسائل السينما ، وأن يزيدوا من استعمال الاضواء وما إليها استعمالا جديداً يشبه الطرق التى كانت فتحا فى السينما ؛ وانما عاش المسرح بطبيعته ، وعاش بذلك التراث العظيم من نتاج العقول ، وبذلك الاتصال الروحى الذى نجده فى المسرح ونفتقده فى السينما ، وبتلك الحرارة التى تصل بين الممثل والمشاهد ، فلا يقوم بينهما حجاب ولو كان ستاراً أبيض .

أخرج المسرح كشأن كل فن كبير أنواعا من القصص التمثيلى . ونحب لكى نصل إلى المسرحيات الراقصة ، أن نتكلم قليلا عن نوع له اتصال كبير به ، وهو النوع المسمى لدى الأوربيين بالأوبرا . فالأوبرا ليست إلامسرحية تمثيلية معظم حديثها غناء لا القاء ، بل قل إن حديثها كله غناء . فهى مسرحية أنشأها حب الموسيقى أكثر مما أنشأها حب التمثيل ، وقد أريد بها أن يجمع المشاهد بين متع عدة . ولذلك كانت الأوبرا فنا نشأ فى عصور حديثة ، واستعين فيه بفنون عدة ، فاهتم المخرجون للأوبرا بالمناظر ، واهتموا بالموسيقى طبعاً أكبر اهتمام ، كما أعاروا التمثيل والحديث شيئا من الاهتمام . وحين تعذر عليهم الجمع بين هذه الأنواع ، كانوا يفضلون الموسيقى فى الأوبرا على غيرها من الفنون ، بل يضحون بالفنون الأخرى فى سبيل فن الموسيقى . وكانوا أحيانا يزيدون على هذه الفنون فنا آخر فيستعينون بالرقص فى مناظر ، وفى مناسبات أو فى غير مناسبات .

وفن الأوبرا على ماله من رواء اجتذب أعاظم الموسيقيين ووجد إقبالا من جمهور محب ، وتشجيعاً من نخبة المهتمين بالفنون ، إلا أنه فن ناقص فى جوانب منه . ويجب عليك أن تغمض العين على أمور كثيرة ، إذا كنت تريد أن تستمتع حقا بالأوبرا وتجد لها لذة .

قلنا إن الأوائل كانوا يسلمون أنفسهم لحديث الممثل دون أن يأبهوا للمنظر الذى لا يتحول ، وفى بعض العصور دون أن يأبهوا للاشارات المضحكة التى تدل على المنظر . ولكن ما رأى المشاهد للأوبرا حين يجد حديث الممثل كله غناء وهو يعلم حق العلم أن الناس لا يتغنون فى حديثهم ،

فهم لا يأمرون خادمهم باحضار الطعام متغنين ، ولا يخاطب الملك رجال حاشيته وهو يرفع الصوت ويخفضه على ايقاع الموسيقى ، ولا ترد عليه حاشيته القول وهى تصيح صيحة موسيقية ؟ إذن على المشاهد للأوبرا أن يغمض عينيه ، بل عليه أن يفعل أكثر من ذلك ، عليه أن ينزل عن جزء كبير من عقله .. والمنظر بعد ليس شيئا هاما ، إذا كنت تصغى لحديث من الأحاديث . فانك قد تستغرق فى الحديث مع صديق فتنسى كل ماحولك ومن حولك . ولكن هل تستطيع أن تجد متعة فى حديث صديق تراه يغنى عباراته فى ترجيع ورفع وخفض لنغماته دون أن تلغى أو على الأقل تقف شيئاً من عقلك ؟ ذلك ما يفعله المشاهد للأوبرا .

فالأوبرا نوع من الفنون لا يخاطب العقل بقدر مايخاطب العاطفة . لذلك كان أدنى إلى الموسيقى منه إلى المسرح . وبسبب هذا الغناء المستمر لا يستطيع الممثل أن يتقن حركاته ، وكل ما يحاول أن يتقنه هو حسن الأداء فى الغناء . وبسببه لا يستطيع الشاعر الذى يضع الحوار أن يتقن حواره ، فهو خاضع لتحكمات الموسيقى . ولذلك قيل إن خير المؤلفين للأوبرا ليس هو الشاعر الكبير ، بل هو الناظم البسيط الذى لا يتقن الشعر . والمشاهد كما رأينا يجب أن يتخلى عن كل شئ إلا أن يتبع الموسيقى بعاطفته . فكأن للموسيقى الدور الأكبر ، وهى المتسلطة فى الأوبرا . ومع ذلك ، ومع أن هـذا الفن يجتذب إليه جميع الموسيقيين بقـوة سحرية لا تدفع ، فان الكثير من أعاظمهم يرون أنه ليس من أرفع أنواع الموسيقى ؛ لأنهم يشعرون بما على المؤلف الموسيقى من قيود يخضع لها بالرغم من أنه المسيطر ، فهو ملك فى هذا الفن ، ولكنه ملك مقيد .

وإذا كان المؤلفون الموسيقيون لفن الأوبرا فى القرون الأولى من حياة هذا الفن ، أى فى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، كانوا يجدون غاية النجاح وبلوغ أربهم فى تلحين إحدى الأوبرات أو عشرات أو مئات منها ، فان الموسيقيين فى القرن الثامن عشر بدءوا يوقنون أن الفن الموسيقى الحقيقى هو فى الموسيقى الخالصة . ومع ذلك ظلوا واقعين تحت تأثير المسرح وممثليه . فكان أكبر آمالهم النجاح فى فن الأوبرا ؛ ولذلك عرف هذا الفن ألحان موتزارت الساحرة .. وكان موتزارت عظيما فى الموسيقى الخالصة ،

كما كان عظيما فى أوبراته . بل إن جباراً من أكبر العقول التى أخرجت الموسيقى الخالصة إن لم يكن أكبرهم جميعاً وهو بتهوفن ، كان من أكبر آماله أن ينجح فى المسرح ، وترك درة من نوع الأوبرا فى مسرحيته فيدليو وكان طوال حياته يبحث عن موضوع آخر .

فللأوبرا إذن بريق يجذب الموسيقيين إلى هذا الفن ، وإن أخذوا منذ أوائل القرن التاسع عشر ينزلونه منزلة ثانوية ، ويشعرون بما فى هذا الفن من نقص ، ويجدون فى الشعر الملحن ما يعوقهم عن التعبير بالنغمات ، وما يقيدهم دون إطلاق ذلك الوحى الذى ينزل على عقل العبقرى . وإذا كان القرن التاسع عشر قد رأى الموسيقيين قد تنبهوا إلى معايب هذا الفن ، فانه رأى أيضاً أعظم العاملين لنهضته والعودة به إلى الشباب ، فى شخص موسيقى من الموسيقيين النادرين هو ريتشارد فاجنر الألمانى .

يطول بنا القول إذا أردنا أن نشرح ما كتبه فاجنر فى كتبه النظرية ، أو أن نحلل ما وصل إليه فاجنر فى مؤلفاته للموسيقى المسرحية . ولكن يكفينا القول ، والقول المختصر جدا ، إن فاجنر أتى بنظرية جديدة يصلح بها من شأن الأوبرا . فقد رأى أن الأوبرا هى العكاس للحالة الاجتماعية السائدة ، فهى إذن فن أنانى ، لأن الموسيقى تريد أن تتسلط فيه ، وأدى ذلك إلى أن أصبحت الأمور الأخرى من قصة وتمثيل ومناظر ، إن هى إلا أموز ثانوية . ولذلك لا ينتظر لهذا النوع من الفن حياة . بل يجب لكى ينهض هذا الفن ويكون عملا فنيا حقا أن يتجه نحو ما أسماه الدراما الموسيقية ؛ وهو نوع يتألف من جماع فنون ، أو على قوله فى بعض مؤلفاته من شيوعية فنون ، أى اشتراك الفنون فيما بينها . فيجب إذن أن يتعاون الشعر والموسيقى والمنظر فى خلق جو هذه الدراما الموسيقية . فيكون هذا النوع من المسرحيات مؤثرا لا فى ذكاء المشاهد وعقله ، بل فى عواطفه وإحساساته الغريزية . ولكى نحقق موضوع هذه الدراما الموسيقية يجب أن يكون الموضوع ذا أهمية كبيرة ، وأن يكون بسيطاً يعود بالناس إلى مشاعرهم الأولى . ولا يتحقق ذلك إلا باتخاذ الأساطير موضوعا ؛ لأن الموضوعات التاريخية تبتعد بالمؤلف عن هذين الشرطين . ولا ريب فى أن الغرض من اشتراط أهمية الموضوع هو ألا تتغلب الموسيقى على الشعر ، بل يقف الاثنان على قدم المساواة . وكذلك يكون

التصوير للمناظر والاضاءة وغير ذلك من وسائل المسرح من أهم ما يساعد فى الدراما الموسيقية .

تلك نظريات فاجنر فى عبارات قصيرة قد لا تغنى ، وهى مقتضبة كل الاقتضاب ؛ لأن نظرياته الفنية جديرة بدراسات وكتابات واسعة . ولكننا قد ذكرنا ما يكفى لفهم هذه النظريات وتأثيرها فى فن الأوبرا .

فهى نظريات عظيمة حقا ولكن يصعب تحقيقها . على أنها وجدت من يحققها فى فاجنر نفسه ؛ إذ كان فاجنر شاعراً مسرحيا من الطبقة الأولى من الشعراء ؛ لا نقول إنه فى الشعر من كبار العبقريين ، ولكنه لم يكن مجرد ناظم ، وكان شاعراً ممتازاً . وإذا كان لم تطر له شهرة بالشعر المسرحى ، فذلك لأن الناس شغلوا بموسيقاه عن شعره ، فهو من أعاظم الموسيقيين بلا مزاء . وعبثاً يحاول بعض المعادين لنظرياته فى عصره وفى العصر الحاضر أن ينتقصوا من قدره . فهم يستطيعون أن يمنعوا تمثيل مسرحياته الموسيقية ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينكروا فضله وعظمته فى الموسيقى .

لسنا نريد أن نصف كيف كان فاجنر يؤلف الشعر ويلحنه ويبتدع المناظر لرواياته التى اقتطعها من الأساطير الجرمانية القديمة . وكيف أدى به الأمر إلى أن عمل لانشاء دار لتمثيل مسرحياته خاصة ، وهذه الدار قائمة الآن ، وما ابتدع فيها من نظام ، فكل هذا له مكان آخر . على أن كل ما نريد أن نقوله إنه إذا كان فاجنر هو أول من استطاع أن يجمع بين الفنون ، فربما كان آخر من استطاع أن يفعل هذا . ومعنى هذا أنه كان الوحيد الذى استطاع أن يحقق نظرياته . أما هذه النظريات فقد كانت أملا تحلم به نفوس الموسيقيين الذين تلوه فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولكنها كانت أملا خلابا وخائبا . فلم يستطع أحد من أنصاره ومقلديه أن يبعثوا الحياة فى هذا النوع من بعده . وعاد المؤلفون الموسيقيون إلى نوع الأوبرا المعروف من قبل بمعايبه القديمة ، وإن استطاعوا أن يخفوا هذه المعايب قليلا بعد أن تعلموا من فاجنر كثيراً .

لا أستطيع أن أترك القول فى الأوبرا دون أن أذكر موسيقيًّا فذًّا ، هو رجل لم يأبه بفاجنر ونظرياته ، نظر إلى هذا الفن نظرة غريبة وبعيدة

عن روحه القديم . هذا الموسيقى هو كلود دبوسى فى تلحينه لمسرحية « بلياس ومليزاند » .

اتخذ دبوسى مسرحية مترلنك بعباراتها النثرية التى ترتفع إلى مرتبة الشعر ، ورسم فصول هذه القصة الرمزية بموسيقاه دون أن يلجأ إلى الترديد والتلحين فى الغناء ، بل العبارات تنطق بنغمات تكاد تكون نغمات الحديث العادى ، والموسيقى تترجم دائماً العواطف الثائرة التى تكتنف تلك القصة ، وتحيي فى أذهاننا صوراً من عصر القصة التي تقع حوادثها فى قصر من قصور العصور الوسطى .

لذلك لا تجد فى فن دبوسى ما يناقض المواقف التى تألفها فى الحياة . فهو ينتقل بنا فجأة بألحانه الأولى إلى جو القصة ، ولا تشعر بغرابة فى حديث المثلين ، فهم لا يتغنون ويرددون ويرجعون اللحن ، بل هم يتكلمون حديثاً يكاد يكون طبيعيا ، ولا نجد غضاضة فى قبوله لأننا نشعر منذ اللحظة الأولى بأننا انتقلنا من جو الحقيقة إلى جو الخيال . وفى تلك المواقف الصاخبة ، كموقف الزوج الغيور يرفع صبيا لكى يستطيع الصبي أن يرى ما يجرى من زوجه داخل نافذة ، نشعر بصورة حقيقية للغيرة تطل علينا ، فتبدو لنا آلام الزوج مرتسمة بصورة لا يمكن أن نرى لها مثيلا إلا فى بعض مشاهد عطيل .

فى الحقيقة أن دبوسى أحيى فن الأوبرا إحياء جديداً مبتكراً يختلف كل الاختلاف عن نظريات فاجنر ، ولا نجد فيه أى نوع من الغثاثة التى نجدها فى فن الأوبرا العادى . ويخرج المشاهد بنوع من الرضا والمتعة العقلية لتحقق الفن كاملا ، بشيء شبيه كل الشبه ، كأنه أخ شقيق ، بما نشعر به حين نشاهد مسرحية راقصة .

١

ليكن أصل المسرحيات الراقصة ما يكون : هل هى تمتّ إلى السحر واسترضاء الآلهة القدماء كما قال بعض الباحثين فى الرقص وفى الموسيقى أيضاً ؟ هل منبعها ونشأتها من المسرح اليونانى شأن جميع المظاهر الفنية والأدبية فى هذا العصر إذ يرجع فضله إلى اليونان ؟ هل المسرحيات الراقصة نمت وترعرعت فى بلاط لويس الرابع عشر ، حين كان يشترك فيها الملك نفسه ومن فى بلاطه من رجال ونساء ؟ ليكن هذا أو ذاك فنحن لا نقصد إلا المسرحيات

الراقصة التى ألفها الناس الآن ، والتى تجد جمهوراً فنيا مستمراً فى عواصم انجلترا وأمريكا ؛ أعنى ذلك الفن الذى عرفته أوربا وكان فتحاً فنيا جديداً فى أوائل هذا القرن ، حين خرجت فرق الرقص العجيبة من روسيا لتتجول فى أنحاء أوربا ، وتنشر هذا الفن الذى نقلته روسيا عن الغرب وهو فى شيخوخته ، فتمكنت بمعجزة أن تعيد إليه الحياة وتخرجه إلى الناس شابا فى رونق جديد .

فلقد شعرت أوربا حقا ، حين رأت فرقة دياجليف وحين شاهدت رقص بافلوفا ، أنها أمام فن جديد كأن لا عهد لها به ، ولا صلة بينه وبين تلك الرقصات التى كانت تتخلل الأوبرات الفرنسة والايطالية ، والتى لا معنى لها غير ظهور جماعة من فتيات جميلات خفيفات الحركة ، يردن التعبير بحركاتهن عن لا شئ أو عن شئ ضئيل . ومع ذلك فان هاته الرقصات قريبة النسب من الرقص الروسى كما عرف فى أوائل هذا القرن ، ولكن الروس جددوا شبابه .

كيف فعلوا ذلك ؟ إنهم فعلوه بأمور عدة ، من أهمها أن الرقص الروسى لايقنع بالفتيات بل يشترك فيه الفتيان ، وبذلك تكمل الصورة فيمكن التعبير حقا عن الحياة .

فالفتيان عنصر هام فى الرقص الروسى . وإذا كانت للفتيات الخفة والرشاقة ، فان للفتيان القوة والحركة الرياضية السريعة . وقد لجأ الروس إلى الموسيقى يستلهمونها موضوع رواياتهم ، وأرادوا أن تكون هذه المسرحيات معبرة كل التعبير عن القطعة الموسيقية . ولا ريب فى أن المسرحيات الراقصة وجدت إقبالا ومعونة كبيرة من الموسيقيين . فقد رأينا الموسيقيين ، بالرغم من شعورهم بما يعتور فن الأوبرا من نقص ، يقبلون عليه ويجدون فيه ما يجذبهم ، وقد يكون ذلك على غير إرادة منهم . وقد جذبوا إلى الفن الجديد بأسرع مما جذبوا إلى الأوبرا . فانَ العيب الأساسى فى الأوبرا ، وهو ذلك العائق الذى يجده الموسيقى من اضطراره إلى اتباع الحديث والحوار ، قد تخلصت منه المسرحيات الراقصة نهائياً . لأن المسرحيات الراقصة ليس فيها كلام مطلقاً ، وإنما التعبير فيها بالحركات والاشارات ، كما أن التعبير فيها بالموسيقى والمناظر . ومن الطبيعى أن تزداد الموسيقى فى هذه المسرحيات تسلطاً ، ومن الطبيعى إذن أن يكون للموسيقى الدور الأهم فى هذه المسرحيات .

ونشأ نوعان من المسرحيات الراقصة : أحدهما تؤلف له الموسيقى خاصة فيقبل المؤلف الموسيقى على وضع الألحان المناسبة لموضوعه . وعلى الراقصين والراقصات الذين يمثلون موضوع الرواية أن يتبعوا موسيقاه حسب إشارة المخرج وتصريفه .

أما النوع الآخر فذلك هو اقتباس قطعة موسيقية لم توضع لهذه المسرحيات ، وإنما وضعت لتعزف فى الحفلات الموسيقية ؛ ولكن أراد مؤلفو المسرحية الراقصة أن يعبروا فى مسرحيتهم عن الصورة التى ترسمها الموسيقى فى عقولهم . فالموضوع أوحته موسيقى لم تكن قد وضعت له . وقد لاقى النوعان نجاحاً كبيراً ، وأمكن فى النوعين خلق متعة فنية كبيرة .

ولنذكر مثالا على النوع الأول مسرحية بتروشكا التى لحنها الموسيقى الروسى سترافنسكى . فهى تعد من خير المسرحيات الراقصة . وهى فى موضوعها وفى شخصياتها وفى ألوانها مثال للمسرحيات العظيمة ، كما أنها تمثل فى موسيقاها الموسيقى الروسية فى أروع مظهرها . وتكوين هذه المسرحية فريد فى بابه : فنحن نرى فيها جماعة من الممثلين والممثلات ذاهبة وجائية ؛ وهى تلعب دوراً ثانويا ولكنه على جانب من الأهمية ؛ فهى لا تشترك فى الرقص ولكنها تتحرك وتمثل . ونرى بين هذه الجماعة التى هى تعبير عن الجماهير ، شخصيات ترقص أحيانا رقصات وطنية ، ولكنها جزء من الجماهير أيضاً ، أما فى مواجهة النظارة فنجد الأشخاص الحقيقيين لهذه المأساة الراقصة : وهم بتروشكا والمغربى والراقصة والأفاك . ومن هذا المزيج بين الجمهور والشخصيات الأساسية للقصة نفهم هذه المسرحية فهماً دقيقاً وكأننا نسمع حواراً فى مأساة من المآسى التمثيلية الشهيرة . وتتميز شخصيات الممثلين الأصليين فنعرف تلك الراقصة التى تغازل الرجال وتلعب بهم بلا مبالاة ، ثم تلقى بهم إذا ما انتهت من عبثها . ونعرف ذلك المغربى القوى المتوحش الذى يرتعد فرقا من المجهول . ونعرف بتروشكا الشاب المتيم . وهكذا إلى أن نصل إلى المأساة الأخيرة .

ومن النوع الثانى تلك الرقصة التى اشتهرت بها بافلوفا وعرفت باسم موت البجعة ؛ وهى تقوم على قطعة موسيقية لسان سانس ، أو رقصة كرنفال التى بنيت على ألحان للموسيقى شومان ، أو رقصة السلفيد التى نظمت موسيقاها من ألحان شوبان .

استعملت المسرحيات الراقصة إذن الموسيقى المؤلفة لها خاصة ، كما استعملت موسيقى كبار الموسيقيين السابقين . ولقد ظهرت طائفة من الموسيقيين يؤلفون ، أو على الأصح يقبلون على التأليف لهذه المسرحيات . ومن الطبيعى أن يكون من أشهرهم مؤلفون روسيون ؛ فقد تطور هذا الفن عندهم ، وعندهم استطاع أن يكون متعة للأعين ، كما هو متعة للفكر . فالمناظر والملابس ومواقف الممثلين ورقصاتهم ، وتحركهم ، كل هذه متعة للأعين تستولى على قلب المشاهد ، لا يقطعها الانتباه إلى حديث أو حوار ، وترى الموسيقى لا تفتأ تشرح وتتحدث وتحاور . فهذه المسرحيات الراقصة متعة للعقل مشتركا مع العاطفة . ولذلك أخذت الجماهير من عامة المثقفين تتعلق بهذا الفن ، كما فتن به فى أوائل هذا القرن وأواخر القرن الماضى ، الخاصة من رجال الفن والأدب من مصورين وشعراء وموسيقيين .

حسين محمود

الفنانة الحائرة !

١

كانت حياتك لحنا مبللا بالدموع
فصار موتك حزنا لهيبه فى ضلوعى
أتى الربيع فغنى بكل لحن بديع
فاهتز ملبي وأنا وهام بين الربوع
صبا إليك وحنا وأنت... روح الربيع

الشاعر الحائر

جنّبوا قلبي على الحب الملاما هل علمتم فى هوى قلبي أثاما ؟
واسمعونى حين يشدو بمعزفى لحن . . . قلبي ثم يرتد حطاما !
واعذرونى حين أرجو مُكرَها أن أرى نفسى ـ كما كانت ـ رَغاما
خيّم اليأس بقلبي والأسى فإلامَ الصبر يا قلبي . . . إلاما ؟
ومضى الموت « بآمالى » ، فما أرهبُ الموت . ، وإن كان زؤاما
ليت شعرى كيف أحيا بعدها ؟ ولمن أبعث شعرى ؟ وعلاما ؟
إنها كانت لنفسى بهجة إنها كانت على قلبي سلاما
كنت أهواها بقلب يائسٍ كوكباً حلّ مكانا لن يُراما

زهرةٌ يمـلأ قلبي عطـرها — وهْى لا تألو عن العين اكتتاما
كنت أهـواها ، وأخـفى ألمى — وأريه للخلـيين ابتسـاما
ولقـد هز حيـاتى أن أرى — زهرة الأيام ترتاد الرجاما
أودعـوها فى مـكان موحش — طنّب المـوت حواليـه الخيـاما
حيث لا أنداءَ تنهـلُّ بهـا — ومن الأنداء ما بل الأُواما
حيث لا أضـواءَ يحملن لهـا — قبـلات الفجر شـوقا وهيـاما
حيث لا أنسـامَ تهفـو نحـوها — فـتريهـا الحب لثما والـتزاما
حيث لا أطيـارَ تشدو حولهـا — فتحيِّيهـا ، وتهـديهـا السلاما
إيه يا دهر أحقٌّ ما نرى ؟ — أم ترانا أيهـا الدهر نيـاما ؟
ليتـه حـلم ، فنَلقى صحوة — تطرد السُّحْب ، وتجتـاح الغماما
آه ما أقساك يا دهر ! وما — أضعف الناس ! وما أقوى الحِماما !
قد عهـدناك خـؤونا غادراً — تنقض العهـد ، ولا ترعى الذماما
أنت لم ترحم قـلوبا أترعت — كأسَهـا الأيامُ حزنا وسـقاما
روَّعتهـا بغتـة النعْى كما — روَّع الصـائد فى البيـد النعـاما
وتولاَّها ذهـول مُطبِـق — لم تُفق من هَوْله إلا لِمـاما
أنت لم تعـطف عـلى قمـرية — تملأ الأيام شدواً وبُغاما (كذا)
كلمـا غنّت عـلى أفنانهـا — رفرف القلب حواليهـا وحامـا
قلبهـا كان جراحـا لم تزل — من يد الأيـام تبغى الالتئامـا
صوتهـا كان نُواحـا ! حسْبُه — أنه قـد علَّم النَّوْحَ الحَمامـا
شـاعت الأحزان فيـه مثلمـا — شاع نَفْح الزهر فى ريح الخُزامى
واستحـال القلب فيـه نغمـا — يستثير الحزن ، والدمع السِّجاما

كلما اهتز ترامت نحوه مهجٌ ثكلى ، وأرواحٌ أيامى
ليت شعرى كيف وافاها الردى دون أن يخشى من الدنيا ملاما ؟
ليته لم يرها ، أو ليته إذ رآها كان عنها يتعامى
غرقت فى ساعة مشئومة كان فيها الشر قد ألقى اللثاما
آه يا دهر لعمر موحش ولأيام كأيام اليتامى !
ما الذى ضرك لو أبقيتها تسعد الكون الحزين المستضاما ؟
وترينا الفن قلبا نابضا يبعث اللحن صفاء وانسجاما
وتغنينا غناء ساحرا يملأ الأرواح صفوا ووئاما

هل درى القبر الذى حلت به أىّ قلب قد ثوى فيه وناما ؟
هل درى أى شباب يانع وجمال رائع ضمَّ غراما ؟
هل درى أى حياة حرة أصبح الموت لها قيدا لزاما ؟
إيه يا قمرية النيل التى طالما غنَّى بها النيل وهاما
وسقاها الحب فى خمرته فسقته فى أغانيها المداما
وتجلت فى رُباه ، فهفا نحوها الموج مشوقا مستهاما
أين فن كان فى الدنيا سنًّا بينما كان بجنبيك ضراما ؟
أودعوه حفرة مظلمة ! ليت قلبى كان للفن مُقاما
أين تغريدك ؟ قد أسى صدًى باكيا . . . فى كل أفق يترامى !
أين قيثارك . . . قيثار الهوى ؟ عربد الدهر ، فألقاه حطاما !
ولياليك التى غنَّت بها مهج نالت من الفن المراما
ورواها النيل فنًّا رائعا وشدَتْها الطير لحنا لا يُسامى

ليتها كانت علينا سرمدا فسهرناها ، وأنكرنا المناما
ذهبت تلك الليالى مثلما ذهب الزهر مع الريح ركاما
فانتهى السّامر من أفراحه وانطوى الأنس بساطاً ونَدامى
وبدا الصبح حزينا شاحبا فكأن الصبح قد حال ظلاما !

رُبَّ شاكٍ ظلَّ يقضى عمره يعبر السهل ، ويجتاز الأكاما
لا يذوق الأمن إلا خلسة أو يرى طيف الكرى إلا لِماما
يرجع السَّفْر إلى أوطانهم وهْو يرتاد النَّوى عاما فعاما
أذن الله ، فألقى عبئه ودعا المــوتُ ، فلبّى وأقاما
فاهدئى أيتها النفس التى لم تكن تلقى هدوءاً أو سلاما
وأقيمى فى ثرى مصر ، فما كنت تبغين سوى مصر مُقاما
وثرى مصر على طول المدى كل ما فيه عزيز لن يُضاما
جاورى يا أخت فى هذا الثرى إخوة شمًّا ، وأحبابا كراما
لم يكن عمرك إلا غنوة تبعث الشوق ، وتهتاج الغراما
كنت تبكين إذا غنّيتها ! أترى صيغت دموعا أو كلاما ؟
لم يكن عيشك إلا قصة صاغها الله « غراما وانتقاماً »
أنت مثّلت لنا أحداثها فاذا الموت لها كان ختاما !

ليت شعرى — والأسى مشترك لم يَدعْ مصر ، ولم يُخْلِ الشآما —
من أعزى ؟ كلَّ روح إن رأى مطلع الالهام والوحى ترامى
صيغ من نور ، وفى أعماقه جذوة تحيا مدى الدهر اضطراما

يأخذ الفن سبيلا للعُلا ويراه — إن دعا المجدُ — إماما
ويرى الأحلام دنياه التى طار فى أجوائها العليا وهاما
هى من أشواقه منسوجة راحة كبرى وأمنا واعتصاما

نضّر الله ضريحا قد حوى درة كانت على التُّرْب حراما
وسقى البهجةَ ما قد حفّها فغدا بردا عليها وسلاما

ابراهيم محمد نجا

من هُنا وهُنالِك

عبر البحار ! . . .

مهداة للدكتور طه حسين بك

. . . لك يا صاحبي أن تركب البحار ، وتمخر المحيطات ؛ ولك أن تمتطي ظهر السفين وتداعب أمواج الخضم . لك أن تستمتع بهواء البحر العليل ونسماته العذاب . . . لك ما شئت من دوار البحر وتلاطم أمواجه ، ولك بعد ذلك ما أردت من الأهوج المدّار . . . فلا أحد ينازعك فيه ، ولا عليك من عشاقه ومحبيه ! . . . استأثر به ما وسعتك الأثرة ، واحتضن أمواجه ما كان إلى ذلك سبيل . دع نسماته تداعب وجهك وهدير أمواجه يداعب أذنيك ؛ دع السفين تتقلب بك أنىّ شاءت وحيثما أرادت . ولك بعد هذا وذاك أن تسأل الربان أن يمد في أجل السفرة وأن يحول بينك وبين الساحل ولو لأمد قصير . فاذا انتهيت إلى الساحل ووطئت قدماك أرض الفرنسيس فلا تنس أن لك في الشرق إخوة حال البحر بينهم وبينك ، فلا هم بقادرين على عبوره إليك ، ولا أنت مشفق عليهم فتعود إليهم من قريب . . .

أذكر أن لك في العراق محبين ، وبأدبك مغرمين وبأسلوبك معجبين فلا تبخل عليهم بما أنت قادر عليه . . .

لك يا صاحبي أن تأخذ قطار مرسيليا إلى باريس ، وأن تستقر في الشانزلزيه . . . ولك أن تفضل الحي اللاتيني حي الجامعة ، حي العلم والعرفان على ما سواه ؛ لك أن تنعم بمغاني غابة بولونيا ما شاءت لك نفسك . . . لك ما شئت في مفاتن باريس وسحر السين ، لك كل ما في مدينة النور من مكتبات ؛ وكل ما في برج ايفل من مفاتن ، ولك بعد ذلك كل ما في فرنسا من غذاء العقل والروح ! . . . لك يا صاح كل هذا وذاك ؛ فما من أحد يقف بينك وبين ما تبغي . . . ولكن لا تنس أن لك في مصر أصدقاء يتمنون دوماً ألا تخلي بينك وبين السكوت . . . أذكر أن في الأقطار العربية فئة كبيرة جدا

لا يسرها صمتك ، وأنها لو قدرت لحالت بينك وبين البحر ، وبالتالى بينك وبين أرض الفرنسيس . . . لا تنس أن تدفع إلينا بين الحين والحين بنتاج تفكيرك ، وخلاصة تأملاتك ؛ فليس بنا صبر على القطيعة ، وما بنا طاقة على الهجران ؛ ولا عاشت مدينة تغريك فينا ، وتصدك عنا . . .

لك ياسيدى أن تمكث فى باريس ما شئت ، حتى إذا ضاق بك الجانب الأيمن فاعبر إلى الضفة اليسرى من السين حيث مونبارناس أو مونمارتر . . . لك كل ما فى الجانبين من جمال ، ولك كل ما فيهما من روعة . . . لك أن تستبدل ما شئت بما شئت ، ولكنى . . . لكنى أستحلفك بالله أن تكتب إلينا « من بعيد » .

[الفلوجة ــ العراق] عبد الحميد الألوسى

الصحافة العراقية فى العهد العثمانى

أول ما عرف العراق الصحافة بفضل مدحت باشا . وهو الشخصية اللامعة فى تاريخ الانقلاب الدستورى العثمانى ، الذى يطلق عليه الناهضون فى الشرق اسم أبى الأحرار . فقد عين واليا لولاية بغداد عام ١٨٦٩ وكان عالى الهمة يعتزم القيام بحركة اصلاحية فى هذا القطر البعيد المهمل من بلاد السلطنة ، فاستصحب معه جماعة من رجال العلم والعمل لتشغيل جهاز حكومته الجديدة بينهم مدير مطبعة وصحافى ومهندس طباعة . وبعد أيام من وصوله مدينة السلام أسس فيها مطبعة الولاية ببغداد . وهى أول مطبعة آلية تدخل الحاضرة .

وكان العراقيون فى تلك الأيام لا يقرءون الصحف إلا نادراً ، ولا يصل إلى أيديهم منها الا ما ينشر فى الخارج ولا سيما فى عاصمة الخلافة . ولتفشى الأمية وندرة المتعلمين كانت غالبية القراء من الموظفين ، وهؤلاء يعرفون التركية فى أكثريتهم وقل منهم من يطالع الجرائد والكتب العربية . وقد تعثر على نسخ قليلة جدا من جريدة « الجوائب » العربية لأحمد فارس الشدياق اللبنانى المنشورة فى القسطنطينية بين أهل العلم ورواد الأدب ، لوثوق الصلة فى ذلك العهد

بين بغداد والبصرة والموصل واستانبول، بحيث نجد فى خزائن رجال الجيل الماضى عندنا كثيراً من آثار مطبعة الجوائب العربية فى اللغة والأدب أوفر مما نقع عليه من منتوج المطابع المصرية فى تلك السنين .

أنشأ الوالى المصلح جريدة « الزوراء »[1] فبرز عددها الأول فى ٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٦ ه (١٥ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٩ م) بثمانى صفحات مكتوبة باللغتين العربية والتركية . وقد كتب فى صدرها : « هذه الغزتة تطبع فى الأسبوع مرة يوم الثلاثاء وهى حاوية لكل نوع من الأخبار والحوادث الداخلية والخارجية » . وقد نشرت فى استهلالها « الفرمان العالى لمدحت باشا » بتعيينه والياً لولاية بغداد . وفى هذا العدد خطاب الوالى نفسه الذى ألقاه فى الاحتفال بقراءة الفرمان ، وفيه يبسط سياسته ويذكر الأهلين بحالة أوربا وتقدمها وما وصلت إليه بلادنا من التقهقر .

عنيت هذه الجريدة بشؤون الولاية وأحوالها ونشرت أخبار الدواوين ، والبراءات السلطانية والقوانين ونصوص المعاهدات والوثائق وأخبار السلطنة والدول الأخرى ، وعالجت البحث فى أسباب انحطاط العراق ووسائل ترقيته ، وتضمنت رسائل من الأقاليم العراقية ، ولم تهمل موضوعات السياسة الدولية وإيراد خلاصات من الصحف العالمية نظير « تايمس » لندن مثلا فى القضايا الراهنة ، كما حملت مقالات فى الصحة والتعليم والتنظيم الادارى وبعض قرارات المحاكم فى الآستانة العلية .

والتزمت الجريدة فى ظل مؤسسها الصراحة فى القول وتدوين الوقائع بحرية ؛ فلما نقل بعد ولايته ثلاث سنوات فقط كانت حافلة بالأعمال والاصلاح ، وعاشت بعده سبعاً وأربعين

---

(١) كان يعرف النصف الغربى من بغداد فى العهد الاسلامى بالزوراء ، أى العوجاء . ويعلل بعضهم هذه التسمية بانحراف القبلة فيها عن أية جهة من الجهات الأربع ، أو بأن نهر دجلة ينحنى عندها ، وكان يسمى النصف الشرقى الروحاء بمعنى أنها ذات سعة وانفراج أو لوقوعها عند منحنى النهر . ويقول المسعودى إن هذين الاسمين كانا شائعين بين الناس فى زمنه . ولكن الجغرافى الفارسى حمد الله فى القرن الثامن الهجرى قال : بينما يسمى العرب بغداد (مدينة السلام) دائما ، كان الفرس يفضلون عليه اسم الزوراء ، ومع أن هذه التسمية عربية الأصل ، إلا أنها ربما قامت مقام اسم فارسى قديم طوى أثره من أمد بعيد .

سنة ، تغيرت لهجتها وأصابها ما أصاب الصحافة العثمانية فى العهد الحميدى من الضغط وخنق الحرية . ومهما كان الأمر فقد حدث فى أعوامها الأربعين الأولى من شؤون البلاد العراقية وأهليها ما لا تعثر على بعضه فى أى مرجع آخر .

بقيت « الزوراء » تحرر باللغتين التركية والعربية . فلما حظيت البلاد بالنهضة الدستورية عام ١٩٠٨ وظهرت فى بغداد جرائد عربية ، طوى قسمها العربى وصارت تنشر باللغة التركية وحدها . فاحتج على ذلك فريق من العراقيين من ذوى النزعة القومية أو ممن لا يعرفون التركية ويهمهم الوقوف على مضامين الصحيفة الرسمية من أنباء وبيانات ، فأذعنت الحكومة لطلبهم وعادت تنشر باللغتين عام ١٩١٣ .

أما أسلوبها العربى فقد تعاورته أقلام متنوعة فترجح بين الركاكة والبيان بحسب الكتاب الذين يشتغلون فيها ، حتى إن بعض الأدباء العرب فى الأقطار الأخرى نعى على جريدة تنشرها الحكومة فى بغداد مدينة الأدب العربى فى أزهى عصوره وتسمى « الزوراء » ظهورها بهذه الركاكة الفاضحة والأغلاط المزرية . فالتفتت السلطة إلى هذا الانتقاد المصيب فتبين لها أن العلة فى أن يتولى تحريرها العربى بعض موظفى الولاية ممن لا يحسنون اللسان المبين ، فعهدت بانشائها إلى جماعة من رجال العلم والأدب العراقيين ، نذكر منهم أحمد عزت باشا محمود الفاروقى الموصلى وقد حرر فيها بضعة أشهر وهو كاتب العربية فى ولاية بغداد فى تلك الأيام ، وتولاها بعده أخوه على رضا ، ومن محرريها عبد الحميد الشادى واحمد الشادى من أعلام الأدب فى القرن الماضى ، ومن أدباء هذا القرن عبد المجيد بك الشادى والأستاذ طه الشواف والأستاذ محمود شكرى الآلوسى صاحب المؤلفات العديدة فى التاريخين العربى والعراق ، وقد كتب فيها فصولاً أدبية كان لها أثرها فى تحريك الجو الأدبى الراكد ، وناقش علماء بغداد على صفحاتها فى مسائل فقهية ولغوية . أما الأستاذ فهمى المدرس الذى نيطت به إدارة مطبعتها فقام بأعباء التحرير فيها باللغتين العربية والتركية وعمره لم يتجاوز ٢١ عاماً .

ويبدو أن جريدة الولاية هذه انحطت فى أسلوبها وكتابتها فى سنواتها الأخيرة ؛ فقد كتب الأب أنستاس مارى الكرملى عنها فى مجلة « المسرة » اللبنانية عام ١٩١١ فى استعراضه

صحافة بغداد يقول : « وأما مواضيع الزوراء فلاتستحق الذكر . وأسفا على ولاية بغداد أن تكون جريدتها الرسمية بهذه الصورة الدنيئة . . . » وقد غابت « الزوراء » عن الأنظار باحتلال الجيش البريطانى بغداد سنة ١٩١٧ .

بعد خمسة عشر عاما من ظهور جريدة « الزوراء » الرسمية فى بغداد أنشئت جريدة رسمية فى الموصل عام ١٨٨٥ باسم « الموصل » تظهر مرة فى الأسبوع باللغتين التركية والعربية وأحيانا بالتركية فقط، وتطبع فى مطبعة ولاية الموصل . وهناك مصدر يؤرخ أول صدور جريدة « الموصل » بسنة ١٨٧٩ ، وأثر هذه الصحيفة فى العهد العثمانى غير واضح فى الحياة الفكرية فى بيئتها . ويلوح لنا أنها قصرت مهمتها على نشر القوانين وبيانات الحكومة وإعلاناتها واختتمت حياتها باحتلال القوات البريطانية مدينة الموصل سنة ١٩١٨ .

هذا فى حاضرة الشمال ، أما فى الجنوب فقد أسست أول مطبعة فى البصرة فى ولاية هدايت باشا أسسها محمد على جلبى زاده رئيس كتاب دائرة السنية ، وطبع فيها جريدة « البصرة » التى بدت فى عالم النشر عام ١٨٨٩ وهنا اختلفت « البصرة » عن زميلتها « الزوراء » و « الموصل » إذ أن امتيازها لم يكن للحكومة بل لصاحب المطبعة المذكورة وهو المسئول عن سياستها وإن اتخذت لسانا للولاية ، وكتبت باللغتين العربية والتركية أيضاً واستمرت على هذا المنوال خمسة أعوام . حتى إذا نقل منشئها إلى وظيفة فى بيروت تبنت الحكومة المطبعة ووسعتها ، وعهدت بتحرير الجريدة إلى موظفين فى ديوان الولاية فغدت جريدة رسمية صرفة . لهذا يبدأ البعض تاريخ جريدة « البصرة » الرسمية بكانون الثانى (يناير) سنة ١٨٩٥ وبقيت تنشر أسبوعيا إلى أن احتلت القوات البريطانية الثغر العراقى فى بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .

ما انبثق نور الدستور فى أفق السلطنة العثمانية عام ١٩٠٨ وأميد صرح الاستبداد ، ورفع الحجر على الآراء حتى انطلقت الأقلام من عقالها ، وخرج المفكرون إلى ساحة الحرية ، وكانت الصحافة من مجالى بروز هذا الانقلاب فى حياة الشعب ، فأقبل الأدباء والمنشئون على إصدار الصحف؛ ولم يكتفوا بالجرائد اليومية والأسبوعية بل أنشأوا المجلات والنشرات الدورية .

وكان نصيب العراق فى البلاد العثمانية أن سرت إليه هذه الموجة فهب المشتغلون بالسياسة والكتاب إلى إنشاء الصحف والمجلات يكتبونها باللغتين العربية والتركية ، حتى بلغت الجرائد فى بغداد وحدها فى خلال سنتين خمساً وعشرين صحيفة ، إلا أن صحفنا لم تسلم من الآفات التى بدت أعراضها فى صحافة أرجاء السلطنة جمعاء؛ فان ازديادها الفاحش مع نقص الخبرة والكفاية عند محرريها جعلتهم يشطون فى كتاباتهم ولا سيا فى الجدال السياسى والحزبى ، فظهرت على صفحاتها مهاترات شخصية يندى لها الجبين مما سلم سلاحاً للرجعيين يشهرونه فى وجه أنصار الحرية الصحافية ، فأحدثت النكسة رد فعل كان له صداه فى مجلس المبعوثان فى الآستانة .

ومن الناحية المادية لم يستطع منشئو الصحف العراقية أن ينهضوا بها على أساس مشروعات اقتصادية كما يفعل أصحاب الصحف فى أوربا وأمريكا وبعض أقطار الشرق الآن . لهذا أخفق القسم الأعظم منها ولم يقو على الحياة ففارق الوجود من أول الشوط أو بعد خطوات قصيرة .

وقد أصيبت صحافتنا فى مطلع حياتها بالأمراض الوبيلة التى تصاب بها الصحف فى العالم ، إلا أن هاتيك الصحف عند الأقوام تكون أقلية لا يؤبه بها بجانب الأكثرية التى يستقيم سلوكها ، فتتفوق الصحف المحترمة على صحف المرتزقة التى تعيش عيشة طفيلية . لهذا قلما تجد جريدة عراقية علت بها السن يرجع ميلادها إلى أول العهد بتاريخ الصحافة فى بلاد الرافدين ، كما أن هذه الصحف فى العهد العثمانى أنشأتها ظروف وأوضاع وأغراض خاصة فذهبت بذهابها وقضى عليها فور تغير الوضع فضلا عن قلة الصحافيين والمنشئين الذين احتبسوا حياتهم لهذا العمل والكتابة ، لانخفاض المستوى الثقافى العام وشيوع الأمية فى القطر .

إن أول جريدة أهلية عرفتها مدينة الخلفاء هى « بغداد » أنشأها فرع حزب الاتحاد والترقى فى الحاضرة ، وعهد بادارة سياستها إلى مراد بك سليمان أحد رجال الحزب ، ظهرت ثلاث مرات فى الأسبوع باللغتين العربية والتركية ورأس تحرير قسمها العربى الأستاذ معروف الرصافى الشاعر الشهير، وكتب فيها أعلام الأدباء والكاتبين كجميل الزهاوى وفهمى المدرس ويوسف غنيمة. والمتتبع لهذه الجريدة الأولى فى صحافة البلد إذ صدرت فى ٦ آب (أغسطس) سنة ١٩٠٨ (ولم يكن قبلها إلا الجريدة

الرسمية) وقد كتب فى ديباجتها أنها « جريدة سياسية علمية أدبية أسبوعية واسطة لنشر أفكار جمعية الاتحاد والترقى » يجدها من أقوى الصحف العراقية اندفاعاً فى تأييد الانقلاب الدستورى ، عنيت بالفكرة والاسلوب مما أحلها منزلة علية عند القراء . أما من حيث البيان العربى ، فبعد أن تركها الأستاذ الرصافى ضعف أسلوبها وساءت لغتها . ومع أنها كانت بكر الجرائد فى يومها ، فقد ضربت الرقم القياسى فى سعة الذيوع ولا سيا فى الحوادث الجلى ، فبلغت النسخ التى طبعتها ووزعتها من العدد الذى وصفت فيه حادثة ٣١ آذار (مارس) الشهيرة فى استانبول التى قضت على الحكم المطلق ، وقوضت عرش الطاغية ، ثلاثة آلاف نسخة ، فى حين لم تكن فى تلك الأيام تنشر أروج جريدة أكثر من ألف نسخة فى اليوم . ولم تعمر صحيفة « بغداد » إذ قرر الحزب وقفها فى سنتها الثانية .

وازدادت الصحف العراقية حتى وصلت إلى تسع وستين جريدة وعشرين مجلة بين أسبوعية وشهرية، وليس بينها يومية غير بغداد فى بعض الأشهر و « الزهور » و « صدى الاسلام » فى أخريات سنوات الحرب العظمى . والبعثة تظهر مرة أو مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع .

ويظهر أن الحكومة العثمانية بعد أن طغى سيل الصحف فى مجتمعها ورأت اضطراب أكثرها من الناحيتين المادية والأدبية وضاقت ذرعاً بالصحافيين الأحرار ذوى الجرأة ، عمدت إلى طريقة لتصفية صحف بغداد والقضاء عليها ، فصدر أمر وزارة الداخلية فى الآستانة سنة ١٩١١ « بأن الجرائد التى تحصل على امتيازها ولم تنشر حتى ٥ آذار (مارس) من تلك السنة أو نشرت بضعة أعداد منها ثم احتجبت إلى هذا التأريخ تلغى امتيازاتها » . وهكذا قضى وزير الداخلية بجرة قلم على ثمان وثلاثين جريدة بغدادية فلم يبق فى مدينة السلام مع « الزوراء » الرسمية غير خمس جرائد ومجلتين .

لم تكن لغة صحافة العراق فى ذلك الطور العربية وحدها بل كانت معظم الجرائد تنشر باللغتين العربية والتركية ، وبعضها تركية صرفة ، وبينها صحف باللغة الفارسية . وعربية صحفنا فى أول نشأتها كانت مشوبة بالعجمة ، وأسلوب الكتابة ركيك وجملتها مهلهلة وتعابيرها مشحونة بالاغلاط فى اللغة والنحو بحيث قال لغوى عراقى كبير محنقاً : « إن لغة جرائدنا هذه خليط

من جميع اللغات التى لها متكلمون فى البلد ، فترى فيها التركية والكردية والفرنسية والانكليزية والهندية والفارسية ولغة مؤلفة حروف ألفاظها من كل هذه اللغات معاً أو من بعض منها . »

هذا من حيث اللغة والبيان ، أما من حيث الموضوعات فبديهى أن شيوع الأمية فى القطر يومئذ شيوعاً رائعاً والتأخر العلمى والأدبى جعل وجود الصحافيين والكتاب والباحثين بين ظهرانينا نادراً ، وبخاصة متى علمنا أن الصحافة صناعة لا يخوض غمارها بجدارة إلا من يملك موهبة الكتابة ويعرف أسرار الفن الصحفى . ولم يكن يقدم على الكتابة فى الجرائد فى تلك الفترة حملة العلم الدينى وأشياخ التدريس والفقهاء . وهنالك ملاحظة جديرة بالتدبر وهى أن العراق قد إحتفظ فى أظلم عصور التقهقر بجوهر اللغة ، فى الشعر أما الكتابة فهى فيه متكلفة مصطنعة ، وهذا النثر أدب محنّط لا يصلح للمصاولة فى ميدان الصحف . من أجل ذلك قل أن وجد فى الخطة العراقية فى مطلع النهضة الصحافية كتاب عصريون ذوو أسلوب سائغ محبب للقراء . وإلى وقت قريب بين الحربين العالميتين لم تذع صناعة الكتابة الصحافية الذيوع الذى تفتقر إليه البلاد . وهذا القحط يدفع بالراغبين فى المطالعة إلى تطلب ما تنتجه مطابع الأقطار الأخرى ، وكانت فى ظل الدولة العثمانية استانبول ومصر والشام .

وقد وجد الفاقهون العراقيون ورجال السياسة فى الصحافة معوانا لهم على الدعاية لآرائهم وخططهم السياسية ، فكانت صحفهم تؤيد السلطة أو تقارعها وتتحزب لهذا الحزب أو خصيمه . ولكن الظاهرة التى تلفت نظر المتفحص أن أغلب صحف العراق فى ذلك الحين كانت معارضة للحزب الحاكم فى الامبراطورية العثمانية ، ولم يقف بجانب الحزب الاتحادى غير جريدتين ، أما بقية الصحف فى بغداد والبصرة فكانت تروج لحزب الحرية والائتلاف المعارض لحزب الاتحاد والترقى أو أن تعبر هذه الصحف عن انتقاض الشعب تحت نير الغريب ومحاولته الافلات منه ، وبينها جرائد دعت للفكرة القومية ومهدت للنهضة العربية .

ويسجل التاريخ للصحافة العراقية مواقف مشهودة فى التملل من الحكم التركى ، كما أن الصراع كان عنيفاً بين بعض الصحافيين والوالى الذى يتمتع

بسلطات واسعة. ومرجع الشكوى وزارة الداخلية فى القسطنطينية. وقد انتصر فى بعض الحادثات الصحافى على الوالى الذى كثيراً ما تذرع بحكم دكتانورى مخيف، كما أن روح التمرد على الظلم، ومحاسبة المسئولين برز فى صحفنا بما كان يقوم بين الوالى وبعض وجوه البلد من توتر وكفاح، ويظهر أثر الصحافيين فى الانتصار لهذا الجانب أو ذاك ولاسيما فى موسم الانتخابات لمجلس المبعوثان أو المجالس الادارية المحلية. ولعل صحف الفكاهة والهزل على قلتها قد قامت بدور أعمق تأثيراً فى هذا المضمار.

وإذا كانت صحافة العراق قبل أربعة عقود من السنين وفى أول نشأتها لم ترتفع إلى درجة علية من حيث الفنّ والأسلوب والمظهر والاخراج، فلا يعنى هذا أن الروح العراقى الصلب والسجية الحرة التى فطر عليها أبناء الرافدين لم يكونا يغمران أكثرية تلك الصحف التى يعدّ عملها عمل الروّاد فى طريق الاحياء القومى الوعرة. فقد عرفت بغداد والبصرة والموصل صحفاً فى ظل حكم الغريب وتحكمه، ترفع صوتها بمطالب الأمة وتعبر عن احساس الجمهور العربى وتمثل نزعة التحرر والاصلاح.

فجريدة «الرقيب» لمنشئها الحاج عبد اللطيف ثنيان برزت فى ٢٨ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩٠٩ فكانت ثالثة جريدة أهلية فى هذه الديار. وقد كتب على صدرها أنها جريدة عربية تركية خادمة لترق الوطن بكمال الحرية. صدرت مرة فى الأسبوع أولاً ثم صارت تظهر مرتين كل أسبوع وقسمها التركى ضئيل. وتميزت بأسلوبها الكتابى السهل وسلاسة عبارتها ونقاء لغتها بالنسبة إلى رصيفاتها. وهى أجرأ صحف وقتها وأكثرها شعوراً بالواجب. تيقظ صاحبها لتتبع سير الحكومة وأعمالها، فما رآه حسنا أطراه، وما وجده خطأ انتقده، فاستطاع بذلك أن ينفذ خطة جريدته التى أعلنها فى قوله: «جعلنا خطة الرقيب حرة إلى آخر درجة، تذكر المسيء وتقبح فعله. مهما كان شريفاً عالماً فاضلا غنيا، وتذكر المحسن وتقدر إحسانه مهما كان خاملا فقيرا بلا فرق بينهما؛ إذ بدون ذلك تذهب مزية المحسن ضحية عدم شهرته وغناه، وذلك مما يخالف العقل لأن الحسنة حسنة، وان كانت من بيت الاحسان فهى أحسن، والسيئة سيئة وان كانت من بيت الشرف فهى أسوأ.»

عاشت هذه الجريدة ما يزيد على السنتين، ولم تقصر همها على السياسة

بل جالت فى ميدان الاجتماع جولات وعالجت مشكلة التربية والتعليم وحثت على ترقية الأفكار ، وتناولت مسائل لغوية طريفة من لغة العوام فى العراق ، ولصاحبها مؤلف مخطوط فى هذا الموضوع .

وعنى عبد اللطيف ثنيان فوق جرأته السياسية بتقصى أحوال القطر العراقى ، فتراه ينشر على الدوام رسائل من الألوية يعالج فيها شؤون كل لواء وفق حاجته ، ويذيع شكاوى الناس ، حتى إنى عثرت فيها على مطالبته بدفع رواتب متراكمة لمنضد حروف فى مطبعة الولاية ، بمعنى أنه قام بخدمة الأغراض النقابية قبل أن توجد نقابة عمال المطابع فى عهدنا الحاضر . وفى هذا إشارة إلى اهتمامه بالأمور الشعبية ؛ لذلك أقبل الجمهور على جريدته إقبالا كبيراً حمده وقدره فى مفتتح سنته الثانية وجعل هذا من عوامل مثابرة الجريدة على الصدور ، على حين لم يحل الحول على زميلاتها البغداديات باستثناء واحدة منها .

وأكثر ما كانت تلهج به جريدة « الرقيب » النظام الدستورى فى الحكم ، فتطالب الحاكمين بتنفيذ أحكام الدستور . ولابدع فى ذلك لقرب عهد الناس بنشر الدستور وزوال دولة الاستبداد . ولم يسلم منشئ «الرقيب» من اضطهاد السلطة وملاحقتها، فحصلت بينه وبين الوالى مشادة انجرت إلى سوح القضاء ، واتخذ خصومه هذا للتشنيع عليه بأسلوب تنكره الأخلاق والفضيلة ، فلم يثنه ما لاقاه عن خطته فى النقد الصريح .

وظهرت جريدة « بين النهرين » فى ٦ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٠٩ باللغتين العربية والتركية ، وكانت فى أول عهدها للتاجر يعقوب أفندى العانى أخبارية بحت لا تهدف إلى غرض سياسى . ثم تسلمها محمود بك الطبقجلى وصار يحرر فيها القسم التركى بلهجة عنيفة ، ويحرر قسمها العربى كامل بك الطبقجلى ، وهو تاجر مفكر عشق الكتابة وعلق بالنظم وهوى الصحافة ، وكان قلمه خذما ، وفى هذه الصحيفة بدأ الكاتب البليغ الأستاذ ابراهيم صالح شكر وخزاته الدامية . فلما نشط مديرها للعمل السياسى الجدى وأنشأ فرعاً لحزب الحرية والائتلاف المعارض فى بغداد أصبحت « بين النهرين » لسان هذا الحزب ، فزاد انتشارها ، وأخذت تصدر ثلاث مرات فى الأسبوع بعد أن كانت جريدة أسبوعية . وقد وقفت بجانب الوالى الشهير الفريق ناظم

باشا ، فلما عزل من ولاية بغداد ورجع إلى الآستانة حيث اغتيل بيد خصومه السياسيين ، اندفعت الصحيفة فى ميدان المعارضة للحزب المسيطر ، وقاومت الوالى الجديد جمال باشا ، مقاومة لا هوادة فيها .

و « بين النهرين » أول جريدة عراقية انتصرت للفكرة العربية ونبهت إلى الخطر الذى يهدد السلطنة باعتناق بعض أقطاب الاتحاديين « النزعة الطورانية » . وكان منشئ الجريدة قد تلقى من الشهيد شكرى بك العسلى نائب دمشق فى مجلس المبعوثان فى دار الخلافة وصاحب الخطب الرنانة فيه ، كتابا يعلمه بما تبيت الحكومة المركزية فى استانبول من التفريق بين عنصرى الدولة الترك والعرب بحيث وضعت علامة على اسم كل موظف أو ضابط عربى فى الحكومة ، لتقف دون تسنمهم مراقى المناصب . كما أثرت فيه لهجة جريدة « الحضارة » التى كان يذيعها فى قومه من فروق الشهيد الأستاذ عبد الحميد الزهراوى ، فطفق الطبقجلى يفضح فى صحيفته الخطط الملتوية منبها الغافلين من بنى أمته . وقد قست كتاباته مما حمل السلطة على سوقه إلى ساحة القضاء فحكمت عليه المحكمة بالسجن ، وقد كان متغيباً فى البصرة . عاشت « بين النهرين » ثلاث سنوات ، حتى إذا جنح حزب الوالى إلى طرق غير قانونية فى كفاح خصومهم وعمدوا إلى أساليب مروعة تنتهى بالاغتيال ترك الميدان الصحفى ، وكتب فى العدد الأخير كلمة مؤثرة قال فيها : « أما والحياة مهددة فلأختمن حياة الصحافة والنشر قبل أن تختم حياتى » ، وسافر خلسة من بلده بغداد إلى البصرة حيث كانت ملجأ الأحرار والمعارضين للحكومة فى حمى عميد حزب اللامركزية السيد طالب باشا النقيب . وقد عضد هذا الزعيم فى تلك الأيام الحركات السياسية والمشروعات الصحفية وعاون الأحرار بنفوذه والمال الذى بين يديه .

وهناك جريدة ذات لون خاص فى صحف العراق بل فى الصحف العربية قاطبة فى ذلك الطور ، فقد وجد فى الوزراء وجيه نجدى كبير هو الشيخ جار الله الدخيل من أهل القصيم ينتمى إلى عشيرة العكيل ، وبيت الدخيل من البيوتات الرفيعة فى نجد إلى اليوم ، وكان جار الله وكيلا للامير ابن الرشيد فى هذا الاقليم ، له تجارة واسعة ويهيمن على طريق البادية وقوافلها ، وبأمرته أهناد الابل يتعاطى المتاجرة بها ويستخدمها فى

المواصلات يوم لم تكن فى البلاد سيارات ولا قطارات . ولهذا الزعيم النجدى مضيف فسيح الجوانب فى بغداد ، يعج بروداه من بدو وحضر . فأراد أن يصدر جريدة تعضد نفوذه وتوسع آفاقه وتخدم تلك الأصقاع المجهولة فى عالم النشر من مواطن عشيرته . فأسس صحيفة « الرياض » متخذاً لها اسم قاعدة نجد . وكان له ابن أخ ، شاب نابه ، يتصل بالطبقة المثقفة من البغداديين ممن يهوون السياسة ويمارسون صناعة القلم هو الأستاذ سليمان الدخيل ، فعهد عمه إليه بتحرير جريدته ، واستعان الصحافى الدخيل بطالب نجيب فى المدرسة الاعدادية شدا الكتابة ودرج على أن يترك مقاعد مدرسته ويختلف إلى مكاتب الصحف هو ابراهيم حلمى العمر .

ظهرت « الرياض » فى ٧ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩١٠ أسبوعية عربية اللهجة أدبية المشرب وإن لم تكن قويمة اللسان أو مشرقة البيان إلا أن الصفة التى امتازت بها العناية الفائقة بأخبار نجد وشبه جزيرة العرب والامارات العربية المصاقبة للعراق . وطبيعى أن تشغل شؤون إمارة ابن الرشيد كثيراً من أعمدتها .

ويجب أن نعترف فى تحليل تسرُّب الفكرة العربية إلى الأذهان فى حكم الأغراب الذين لم يكونوا يرضون لهذه النزعة انتشاراً بأن « الرياض » قد خدمت القضية العربية بما أحدثت من كثرة الضجيج والكتابة عن قلب الجزيرة وينبوع العربية ، فأذاعت الحديث عن العرب وقبائلهم وأفخاذهم ومنازلهم ومنازعاتهم وغزواتهم وحربهم وسلمهم بنطاق واسع أثر فى الأفكار ولفتها إلى هذه الرقعة من الشرق المتململ للنهوض . وليس عليك بعد ذلك أن تدقق أو تلحف فى تمحيص ما ترويه « الرياض » من جوانب الامارات العربية والسلطنات وزعامات البوادى ومناحراتها ، فالمبالغة بادية عليها . ولكن هذا لا يهم الكاتب أو الناشر ، ما دامت معظم رواياتها وتلفيقاتها تحتل مكاناً بارزاً فى عالم المطبوعات ، وتتناقله صحف العراق والشام ومصر وتتخاطفه أقلام مراسلى الصحف الأجنبية . فكم شغلت بعض رواياتها هذه أسلاك البرق ودواوين الدولة العثمانية أسابيع بل أشهراً . وقد يكون الحادث فى أساسه من ابتداع ذهن مدير الجريدة أو محررها . وقد روى لى أستاذ عراقى فى الشعر والصحافة أن المستشرقة الانكليزية الشهيرة المس جرترود بيل سألت يوماً الأستاذ

سليمان الدخيل وهى فى مكتبها الرسمى فى دار الحاكم الملكى البريطانى العام فى بغداد — بعد الاحتلال البريطانى — كم تقدر عدد نفوس نجد ؟ فأجابها فوراً: ثلاثين مليوناً . وعبثاً حاولت أن تستفهم منه هل كان قد وهم بصفر فى الرقم وهو يريد ثلاثة ملايين ؟ ولكنه أصر على تقديره . ولما كانت «الخاتون» —كما يسميها أهل العراق — رحالة خبيرة ببلاد العرب ، فياشد ما هالها وهم الأستاذ !

ولم يقف الأستاذ الدخيل عند حد الصحافة السياسية والجريدة الأسبوعية بل أصدر مجلة شهرية عنوانها «الحياة» يحررها الكاتب الفتى ابراهيم حلمى العمر محرر « الرياض » ! وتوسع فى عمله فأسس دار نشر تطبع الكتب ، جعلت باكورة انتاجها كتاب « عنوان المجد فى تاريخ نجد » لعثمان بن عبد الله بن بشر ، وقد صححه محمد بن عبد العزيز ابن مانع النجدى ومدير « الرياض ». ومن طريف حوادث دار النشر هذه أنها طبعت فى بغداد كتاباً فى « حساب الجفر » نسبته إلى ابن العربى الفيلسوف الشهير فتلقفته الأيدى وراج رواجاً هائلا وربح الناشر منه مالا وفيراً . وحقيقة الكتاب من قلم تحرير الرياض انتجته قريحة سلمان وابراهيم أوأحدهما.

وتولى الأستاذ الحاج عبد الحسين الأزرى إصدار جريدة أدبية فى بغداد اسمها « الروضة » وأعقبها بجريدة « مصباح الشرق »سياسية ، حتى إذا عطلتها الحكومة نشرها باسم « المصباح » وخلفتها « المصباح الأغر » بعد التعطيل . وقد كانت مصباحاً منيراً للفكرة العربية حمله هذا الكاتب الشاعر لينير بصائر بنى جلدته وقارع الحكومة فى حيادها عن جادة الصواب ، وهى جريدة أسبوعية باللسان العربى دون التركى برزت فى غرة آب (أغسطس) سنة ١٩١٠ واشتدت فى انتقاد السلطة فتربصت بصاحبها ، حتى إذا سبق غيره من الصحافيين فى إذاعة مصرع فريد بك والى البصرة — فى الصراع بين الحكومة والزعيم طالب باشا النقيب — ساقت الحكومة الأستاذ الأزرى إلى المحكمة فحكمت عليه بغرامة . وظلت الجريدة تصدر إلى أن اعتقل منشئها فى الحرب العالمية الأولى وصودرت مطبعته .

وساهمت البصرة فى الجهاد الصحفى ، فمن أوائل الجرائد الحرة فيها جريدة « الايقاظ » التى أنشأها الأستاذ سليمان فيضى المحامى ، فى ٢ أيار (مايو) سنة ١٩٠٩ ولم تعمر طويلا . ومما أوثر عنها دفاعها المجيد فى

وجوب استعمال اللغة العربية فى دواوين الدولة والمحاكم والمدارس إذ كانت اللغة التركية هى السائدة .

أما الصحيفة الجليلة الخطر فى الفيحاء فهى « الدستور » التى أسسها عبد الله بك الزهير فى ٢٢ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩١٢ فلما انتخب صاحبها - عضواً فى مجلس المبعوثان انتقل امتيازها إلى الأستاذ عبد الوهاب الطباطباى فنفخ فيها حياة جديدة ، وتضافر على التحرير بها نخبة أدباء الثغر وسياسيه منهم أخوا صاحبها عبد المحسن وعبد العزيز وإسماعيل السامرى ، وكانت لسان فرع حزب الحرية والائتلاف فى البصرة . وقد اشترى لها الحزب مطبعة من أوربا مما لم يفعله حزب آخر فى العراق . وأصبحت دار الدستور ندوة الكتاب والمفكرين والسياسيين سواء منهم البصريون والهاربون من بغداد فراراً من إرهاق الحكومة . وتجد من أعضاء أسرة الدستور فى الدولة العراقية فى عهد الاستقلال وزراء ومتصرفين ومديرين عامين ورؤساء دواوين . ولما عطلت الحكومة الدستور صدرت باسم « صدى الدستور » وواصلت خدمة النهضة الفكرية والقضية القومية .

واشتدت الحركة الفكرية عند أهل بغداد والبصرة ولا سيما بعد أن انعقد المؤتمر العربى الأول فى باريس وكثرت الجمعيات السياسية السرية والعلنية فى أنحاء السلطنة وقوى ساعد المطالبين باللامركزية ، وتجلت شخصية الأمة العربية وتعزز كيانها . فنهض فريق من الشباب القومى فأسسوا فى بغداد النادى العلمى الوطنى لبث تعاليم البعث القومى . ومن أنشط العاملين فيه مزاحم بك الباجهجى الذى قام بتأسيس جريدة « النهضة » فاذا هى الصحيفة العربية الجهيرة الصوت البليغة الأسلوب المتفوقة فى هذا المجال . طلعت على القراء فى ٣ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٣ مطالبة الحكومة التركية بحقوق العرب بلهجة حادة ، وشددت النكير على الحزب المهيمن يحررها إبراهيم حلمى العمر (محرر جريدة « الرياض » سابقاً) وفيها تجلت صفات هذا الكاتب فطارت شهرته . فلم تتحمل الحكومة سطورها النارية فعطلتها بعد عددها (الحادى عشر) وتعقبت مدير سياستها ومحررها فهرب الباجه جى بك إلى البصرة ومعه المحرر ، ويسجل مؤرخو « الثورة العربية الكبرى » لجريدة «النهضة» البغدادية

موقفها التاريخي في مناصرة مشروع التحرير العربي .

ويحسن بنا أن نشير هنا إلى دفاع المفكرين العراقيين عن الحرية الصحافية ؛ فقد أرادت الحكومة أن تضيق الخناق على الصحافة فجاءت مجلس المبعوثان بذيل لقانون أصول المحاكمات الجزائية تريد به أن تقيد الأقلام وترهب الصحافيين ، فاندفع النواب العرب للحملة على هذه اللائحة ودافعوا عن حرية الرأى والكتابة والنشر ، بينهم من العراق الأستاذ جميل صدقى الزهاوى الشاعر الفيلسوف نائب بغداد والأستاذ سليمان فيضى نائب البصرة . ومما قاله سليمان فيضى فى خطابه فى هذا الصدد :

« تريد الحكومة أن تعامل أبناء الأمة الذين استنارت أذهانهم بالعلم والمعرفة بما تعامل به المجرمين والقتلة . إننا نقتل أذكى كتابنا ونخرس الأقلام ونسلب الناس حرية الكلام ثم ندعى أننا نعيش فى بلاد دستورية حرة ! فما هذا المنطق ؟ لماذا تشدد الحكومة هذا التشديد على أرباب الأقلام والمنورين منا ؟ فاذا كانت الحكومة تريد بسن هذا القانون اتقاء القدح والذم فى الصحف ، فلماذا ترجح حقوق هؤلاء الناس على حقوق الآخرين ؟ لتوضح لنا الأسباب التى حملتها على تقييد حرية الصحافة تقييداً لا ينطبق على القواعد الدستورية . »

وقد علقت جريدة « الاقدام » المصرية التى يحررها ولى الدين بك يكن — الكاتب الشاعر الخالد — على هذه الضجة فى البرلمان العثمانى انتصارا لحرية الصحافة ، فقالت :

« إننا نعجب كل الاعجاب بالنفر القليل من نوابنا العرب مثل سليمان فيضى « البصرة » وجميل الزهاوى (بغداد) وفارس الخورى (الشام) فهؤلاء أدوا الأمانة حقها ، فدافعوا عن حرية الصحافة دفاع الأبطال الشجعان فبرهنوا أولا على إخلاصهم لوطنهم ، وثانيا على كبر نفوسهم فلم يكونوا عبيدا للمطامع والشهوات ، وثالثا على أنهم من العلماء المنورين فشكراً لهم وألف شكر على شجاعتهم الأدبية وغيرتهم الوطنية . »

وليس أدل على ما عاناه الصحافيون العراقيون من عنت السلطة وعسفها من استعراض بعض الأحداث التى أصيبوا بها قبل نشوب الحرب العظمى الأولى عام ١٩١٤ وفى أثنائها ؛ فقد عدلت الحكومة العثمانية المادة ٢٣ من (قانون المطبوعات) فتعرض أصحاب الصحف والكتاب للمحاكمة

والسجن ودفع الغرامات المالية ، ولم ينج بعضهم من الاهانة والتنكيل ، فعطل الوالى جمال باشا جريدة الرصافة لصاحبها الأستاذ صادق الاعرجي تعطيلا إداريا فاحتكم الصحافى إلى القضاء وأصدر بمكان صحيفته المعطلة جريدة الصاعقة التى استعارها من صديقه الأستاذ عبد الكريم الشيخلى ، فلم يرتو حقد الوالى فاستعان ببعض السوقة فتحرشوا بناشر الجريدة ظلما وعدوانا وافتروا عليه بالكذب فى شكواهم إياه للمحكمة ، فلم يسع المحكمة إلا أن تعتقل الصحافى على ذمة التحقيق ، ولكن الرأى العام الواعى أحس بوقع سياط الظلم على الكاتب الجرىء ، فتجمهر خلق كثير فى سراى الحكومة احتجاجا على هذا التصرف ، وشجع شغب الجمهور الوجيه عيسى بك الجميل الذى يتمتع بزعامة شعبية مرموقة ، فأبرق بعرائض الشكوى المريرة إلى الأستانة ، فأوعزت وزارة الداخلية من هناك بالافراج عن الصحفى المضطهد . فلم يسع الوالى إلا أن يواجه صاحب « الرصافة » فوجده صلب العدد حاد اللسان .

ولم يكن الوالى الظالم يتورع من أن يضرب الصحافى بعصاه كما حدث لابراهيم حلمى العمر عند ما نشر فى جريدة مصرية مقالا حمل فيه على حكومة الاتحاديين عند اعلان الحرب فما كان من الوالى جاويد بك — وهو يشغل مركز قائد الجيش أيضا — إلا أن أصدر أمره بحبس الكاتب ، ثم استدعاه من محبسه فصار يضربه ضربا مبرحا فى بهو استقباله وعلى مرأى ومسمع من ضيوفه ولم ينجه من يديه إلا شفاعة زميل ترك الصحافة وأصبح عضوا فى مجلس الولاية .

كانت البصرة معقل الأحرار فى ظل الزعيم طالب باشا كما ألمعت آنفا ، وهذاما أغرى الصحف البصرية بالامعان فى حملاتها على الحكومة وحزبها مما أحنق الحكومة المركزية فصدرت أوامر وزارة الداخلية فى استانبول فى أواخر عام ١٩١٣ إلى والى البصرة باقفال جميع الجرائد التى تصدر فى الحاضرة والامساك عن منح امتياز جديد بصحيفة ، ولم تبق من الجرائد إلا واحدة بنفوذ الزعيم المذكور .

ولما دارت رحى الحرب الكبرى اعتصم فى البصرة بعض من ذكرت من السياسيين والصحافيين وبخاصة بعد أن احتلتها القوات الانكليزية

ثم تسرب إليها بعد ذلك رشيد الهاشمى الشاعر الكاتب والشيخ كاظم الدجيلى مدير مجلة « لغة العرب » .

أما فى بغداد فقد اتخذت السلطة من ظروف الحرب الاستثنائية ذريعة للقضاء على الصحافة الحرة واضطهاد الصحافيين فغابت معظم الصحف عن الأنظار ولم تبق إلا جريدة « الزهور » لصاحبها الأستاذ رشيد الصفار لأنها موالية للوضع القائم ، وهو الوحيد الذى ثبت على سياسة واحدة ، حتى إذا جلا العثمانيون عن بغداد التحق بالجيش المنسحب إلى الموصل واستأنف عمله الصحفى فيها فأصدر جريدة « دعوة الحق » . فلما عاد إلى وطنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها أسس له مطبعة ولم يشتغل بالصحافة ، وكانت سلطة الاحتلال البريطانية قد صادرت مطبعته لتطبع فيها جريدتها التى أنشأتها باسم « العرب » فى بغداد .

ونهض الحزب الحاكم فى غمرة الحرب للاستعانة بالصحافة فى بث دعوته فأصدر جريدة « صدى الاسلام » باللغتين العربية والتركية أشرف على سياستها قيادة الجيش برآسة القائد نور الدين بك وهو المعروف بعد ذلك بالجنرال نور الدين باشا فاتح أزمير ، ويتولى إدارتها الأستاذ رءوف بك الجادرجى . وعظم اهتمام حزب الاتحاد الشرق بهذه الجريدة فاختير لها أكابر الكتاب فى اللغتين ، فكتب فيها بالتركية حكمت ثريا بك كما كتب فيها بالعربية محمود بك الدادى والأستاذ عطا الخطيب والأستاذ ابراهيم حلمى العمر والأستاذ خيرى الهنداوى والشاعر عبد الرحمن البناء والأستاذ على الشرق من النجف رامزا إلى اسمه بالحرفين ع . ش وكان هم الصحيفة نشر الدعاية للحكومة الاتحادية وسياستها وتفنيد بعض كتابات جريدة « الأوقات البصرية » التى أنشأها الجيش البريطانى المحتل فى البصرة .

ولم تكتف الحكومة باضمحلال الصحف العراقية ، بل عمدت إلى الانتقام من الصحفيين المعارضين ، وممن يحملون الفكرة العربية الاستقلالية ، فنفت كلاً من الحاج عبد الحسين الأزرى صاحب « المصباح » ، والأستاذ داود صليوا صاحب « صدى بابل » ، والأب ألستاس مارى الكرملى منشئ « لغة العرب » إلى قيسرى من البلاد التركية حيث قاسى هؤلاء الأسرين مايزيد على سنة ونصف سنة . كما نفت الأستاذين ابراهيم صالح شكر منشئ مجلة « الرياحين » ، وعبد اللطيف ثنيان

صاحب « الرقيب » إلى الموصل ، وفر إلى نجد الأستاذ سليمان الدخيل صاحب « الرياض » .

ولم تكتف بهذا بل ساقت إلى ديوان المحكمة العرفية فى عالية (لبنان) الأستاذ أحمد عزة الأعظمى المفكر العراقى المجاهد الذى كان ينشر فى استانبول مجلة « لسان العرب » حيث سجن ثلاثة أشهر تجرع فيها العذاب ، ولم تسفر محاكمته عن إدانته . وصادرت الحكومة فى الموصل حرية خير الدين بك العمرى عقاباً له على ما كان ينشره فى جريدة « النجاح » من نقد ومعارضة للحكومة .

هذه لمحة عن حال الصحافة العراقية فى العهد العثمانى . وإذا تركنا النزعة السياسية جانبا ، ودرسنا أحوال هذه الصحف من حيث مادتها وفنها فى ذلك العهد ، لا نلقى لها شخصية واضحة فى عالم الأدب والثقافة ؛ إذ معظمها لم يكد ينشر إلا التافه من الكتابة . أما فى الميدان الاجتماعى فقلما ناصرت الفكرة الحرة الجديدة . ويكفى أن أشير إلى حملة بعضها على الأستاذ جميل الزهاوى لآرائه فى « تحرير المرأة » التى نشرتها له جريدة « المؤيد » فى مصر بحيث هب كبار المفكرين المصريين للدفاع عنه وفى طليعتهم الدكتور شبلى شميل وولى الدين بك يكن .

كما كانت هاتيك الصحف قليلة الرواج ، متخلفة من ناحية الاخراج والأسلوب الفنى ، صغيرة الحجم ، رديئة الطبع فى الغالب ، لا تتجاوز أربع صفحات صغيرة أو صفحتين اثنتين . وتلك حال اضطرارية عهدئذ لقلة الوسائل ونقص المواصلات وفقدانها وتأخر الطباعة . وقد نبه الى هذا الطور البدائى فى الصحافة العراقية بعض من أخذوا فى تدوين تاريخ الصحافة العربية قبل أربعين سنة . ثم تطورت الصحافة العراقية بعد الحرب العالمية الأولى تطوراً يبعث على الاستحسان والتقدير .

رفائيل بطى

شهرية السياسة الدولية

عمر ميدان السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى بالحوادث الجديرة بالتسجيل . فقد كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة منعقدة طواله ، وكان جدول أعمالها مليئا بالبنود المتصلة بمواضيع على جانب من الخطورة . وقد انعقدت خلاله كذلك جلسات لمجلس الأمن ، كما بدأت فيه لجنة المستعمرات الايتالية السابقة تحرياتها استعدادا لوضع تقريرها ، وحدد موعد لانعقاد مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة الذى يرى الناقدون أنه منطو على غير قليل من المواقف الدولية الحاسمة .

حق الاعتراض

أما فى الجمعية العامة للأمم المتحدة فقد احتل حق الاعتراض مكانا من مداولاتها ممتازا . وقد أثار مناقشته اقتراح من جانب الولايات المتحدة بخلق هيئة جديدة تضاف إلى هيئات الأمم المتحدة وتكون مؤلفة من ممثل لكل دولة من دولها الأعضاء ويكون لها اختصاص النظر فى الشؤون التى لا تتصل اتصالا مباشرا بالسلم العالمى والأمن الدولى فلا تتعارض من ناحية مع اختصاصات مجلس الامن المقررة فى أحكام ميثاق « الأمم المتحدة » ، وتتحرر قراراتها من ناحية ثانية من حق الاعتراض الذى اتهم الاتحاد السوفيتى باساءة استعماله اذ لجأ إليه مندوبه أكثر من ثمانى عشرة مرة .

وكان الدافع المباشر إلى تقدم الولايات المتحدة بهذا الاقتراح هو موقف الاتحاد السوفيتى من رغبة الدولة الاميريكية الكبرى فى إصدار مجلس الأمن قرار اتهام بلغاريا ويوجوسلافيا وألبانيا بمساعدة الثائرين من اليونان على حكومة أثينا وعهدها الحاضر ؛ فقد عطل باستعماله حق الرفض المضى فى سبيل

تحقيق تلك الرغبة تعطيلا .

وقد انتهت الجمعية العامة فى الأمم المتحدة بالموافقة على الاقتراح بتأليف ما سمى « بالجمعية العامة الصغرى » بكثرة من الأصوات عارضتها الكتلة السلافية معلنة أن أعضاءها لن يساهموا فى أعمال تلك الجمعية الصغرى التى يعتبرون قيامها مخالفا لأحكام ميثاق الأمم المتحدة إذ يعتدى اختصاصها على اختصاصات مجلس الأمن المقررة فى هذا الميثاق . وقد وقفت مصر والدول العربية من هذا الصراع موقف الحياد فامتنعت من التصويت .

حكاية فلسطين

ولعل السبب فى وقوف الدول العربية هذا الموقف يرجع إلى موقف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى من القضية الفلسطينية ، وهو موقف يلتقى اتجاههما فيه إلى القول بتقسيم فلسطين بين دولتين مستقلتين إحداهما عربية والأخرى يهودية . فشاءت الدول العربية بامتناعها من التصويت فى النزاع القائم بين الدولتين الجبارتين عدم تغليبها رأى إحداهما على رأى الأخرى مادامتا ملتقيتين فى الاتجاه المتصل بفلسطين .

وقد أثار هذا التلاقى دهشة الدوائر الدولية فى مهد الأمم المتحدة وفى سائر البقاع ؛ فقد جاء فى وقت غلت فيه مراجل الخلاف بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بحيث خشى منه على كيان الأمم المتحدة ذاتها .

وعندنا أن هذه الدهشة قد يقضى عليها شئ من التعمق فى تفهم حقائق النظرات إلى القضية الفلسطينية من الجانبين . ولعله ليس من البعيد أن يصح استناد النظرة الأميريكية إلى أن فلسطين إنما هى مفتاح الشرق الأوسط من الناحية الاقتصادية . فاذا تفاهمت الولايات المتحدة أو أرباب المال فيها مع الدولة اليهودية الناشئة فانها تشرف عن طريقهم على تنفيذ بعض المشروعات الكبرى التى يقال إنها ستقلب رمال صحراء النجب إلى جنات مثمرة ، كما تساهم فى قيام المصانع المحولة للمواد الأولية ، وتساعد على ترويج منتجات هذه المصانع وتلك الجنات فى أركان الشرق الأوسط كله . ولعله ليس من البعيد كذلك أن يصح استناد الاتحاد السوفيتى إلى العناصر

اليسارية التى يكثر توافرها فى البيئات اليهودية ، فتجرف الاتجاه الاقتصادى والاجتماعى فى الدولة اليهودية الجديدة إلى الناحية الشيوعية، فتقيم بذلك وسط كتلة البلاد الشرقية نموذجا من نماذج الأنظمة التى تعتز بها .

وإذن فيكون التقابل فى الرأى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بصدد فلسطين صادراً عن اعتبارين متناقضين ، بل سيكون مهدوفاً فيه إلى مناضلة بين مصلحتين متنافرتين .

والمفهوم حتى كتابة هذه السطور أن تقدم الدولتين الكبيرتين باقتراح مشترك لحل القضية الفلسطينية على قاعدة التقسيم سيحض كثرة أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة على تقرير هذه القاعدة ، ولا سيا أن القرائن قد توافرت على سبق التفاهم بين الولايات المتحدة والحكومة البريتانية على فكرة التقسيم فى عمومها ، إذ كانت المقترحات الأميريكية تبلغ قبل إعلانها وإذاعتها لحكومة لندن أولا فأولا .

بقى الموقف العربى ، موقف العرب داخل فلسطين وموقف الدول العربية المجاورة ، وستكشف الأيام القريبة عنه ، فلننتظر .

عجز مجلس الأمن

أما أعمال مجلس الأمن خلال الشهر المنقضى فقد جاءت مسجلة من جديد لما امتاز به هذا المجلس من عجز عن حل المعضلات التى تعرض عليه لتصدر عنه فيها حلول حاسمة . وقد تبين هذا العجز هذه المرة بالنسبة للقضية الأندونيسية . فقد كان لمجلس الأمن فيها قرار سابق يقضى على الفريقين المتقاتلين من الهولنديين والأندونيسيين بوقف القتال وبالعودة إلى المراكز التى يحتلانها ، لكن الفريقين وقفا القتال دون أن يعودا إلى المراكز السابقة، ولم يستطع المجلس أن يحمل الهولنديين على الرجوع إلى خطوطهم الأولى . . . وظل الاشكال قائماً وواردا فى جدول الأعمال . . .

المستعمرات الايتالية السابقة

وكانت معاهدة الصلح التي وقعت بباريس بين إيتاليا والحلفاء قد نصت على تقرير مصير المستعمرات الايتالية السابقة في بحر سنة تبدأ من يوم إتمام إجراءات إبرام تلك المعاهدة. وقد تمت هذه الاجراءات في الأسبوع الأول من شهر أكتوبر الماضي، وكان معاونو وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى هم المكلفين باعداد البحوث الخاصة بهذه المسألة. وكانوا قد قرروا تأليف لجنة تقوم بزيارة المستعمرات السابقة وتتصل فيها بالأهالي والزعماء، فتعرف منهم اتجاهات الرأي العام، ثم تتقدم بتقريرها فينظر مجلس وزراء الخارجية في المصير على ضوئه.

وقد بدأت هذه اللجنة أعمالها بالفعل فغادرت لندن في طريقها إلى أرتريا ثم إلى الصومال ثم إلى ليبيا، وينتظر أن تنتهي من مهمتها نحو شهر يونية المقبل.

وستدلي الدول ذوات الشأن بمطالبها إزاء المستعمرات الايتالية السابقة، وحددت هذه الدول بالحبشة ومصر وايتاليا ذاتها. وللحبشة مطالب في أرتريا وفي الصومال تصل بها إلى منفذ إلى البحر، ولمصر مطالب في ليبيا وفي إرتريا؛ إذ تود استعادة جغبوب من الأولى ومصوع من الثانية. ثم إن لها وللجامعة العربية كلها موقفا من مصير برقة وطرابلس على اعتبار أنهما قطران عربيان.

والاتجاه البريتاني يذهب إلى الرغبة في منح برقة استقلالها وربطها ببريتانيا بمعاهدة مماثلة لما يربطها بشرق الأردن من رباط، على أن يكون السيد السنوسي ملكا عليها مشابها للملك عبد الله بن الحسين.

أما طرابلس فقد تطمع في الوصاية عليها إيتاليا بالذات، كما تطمع في أن تضالعها الولايات المتحدة أو أن تساهم في الاشراف عليها لجنة يمثل فيها الاتحاد السوفيتي.

ولفرنسا علاقة بالمسألة الليبية ناشئة من احتلالها أثناء الحرب لواحة فزان، وهي تود أن تحتفظ بها لتوافق أصول أهلها مع أصول بعض القبائل المقيمة داخل الحدود التونسية.

مؤتمر وزراء الخارجية

على أن المسألة التى ستجابه مؤتمر وزراء الخارجية قبل أن يعرض لمشكلة المستعمرات الايتالية السابقة إنما هى مسألة معاهدة الصلح مع ألمانيا . وموقف الدول منها غير موحد . وقد ذهبت الولايات المتحدة إلى حد التهديد بعقد صلح منفرد بينها وبين ألمانيا مخالفة فى ذلك العهود السابقة بين الحلفاء . وذهبت روسيا مذهباً آخر هو اشتراطها الاستماع إلى الحكومة الألمانية المركزية حين تؤلف للوقوف على رأيها فى معاهدة الصلح قبل إبرامها . ولم تقل انجلترا ولم تقل فرنسا حتى الآن شيئاً يستدل منه على اتجاهاتهما ، ولكن انجلترا أعلنت فى الأيام الأخيرة أنها لاتؤيد الولايات المتحدة فى نشاطها المقاوم للآراء الشيوعية المنتشرة الآن بين الألمان أنفسهم .

ويلوح أن المسألة الألمانية ستكون هى الصخرة التى قد تصطدم عندها اتجاهات الحلفاء . ولذلك فان الجانب الانجلوسكسونى يحاول ألا يقف مع الاتحاد السوفيتى فى حظيرة ضيقة أملا فى معاونة الأفق الأوسع له ، فيطالب بأن جميع الدول التى أعلنت الحرب على ألمانيا تحضر مؤتمر الصلح معها ، فى حين أن الاتحاد السوفيتى يريد أن يحصر الحاضرين فى الدول التى شاركت فى الحرب الفعلية ضد الألمان ؛ كما يطالب بأن الدعوة إلى مؤتمر الصلح يجب أن تصدر عن الصين على اعتبارها خامسة الدول العظمى ، فى حين أن الاتحاد السوفيتى لا يريد لها دخلا فى شؤون أوربا بالذات .

محمود عزمى

شهرية السينما

أبو حلموس تأليف نجيب الريحانى وبديع خيرى (نحاس فيلم)

انقضى الموسم المسرحي الماضى دون أن نشهد إنتاجا للاستاذ نجيب الريحانى. وراجت شائعات مختلفة عن هذا الاحتجاب. فأسفنا لذلك أشد الأسف؛ إذ فقد الفن المسرحى المصرى ركنا من أركانه ، وفقد الشعب معلما ومسليا فى وقت واحد . فمن المعروف أن الأستاذ الريحانى ، وهو صاحب فكاهة رائعة ، يجعل من المسرح أداة لتعليم الجمهور ، فيأتى بصور واقعية من الحياة المصرية ويقدمها على مسرحه فى شئ من المغالاة التى تمده بالعنصر الهزلى . ولو أنه لم يغال فى تصويره لأصبحت مسرحياته مآسى تبكى هذا الشعب لما يشهد فيها من صور أليمة لنفسه ولمن حوله . والأستاذ الريحانى من هؤلاء الذين لا يغفلون شيئاً مما يقع تحت أبصارهم ولا يهملون شيئا مما يصل إلى أذانهم . ولولا هذه اليقظة لما يدور حوله ، وهذا الانتباه لما يقال فى حضرته لما أمكن للريحانى أن يرسم للمصريين هذه الصورة الصريحة الصادقة ، وأن يسخر من عاداتهم البغيضة ومن أخلاقهم المعوجة الأليمة ومن أحاديثهم التافهة الكريهة . وهو حين يصور هذه العادات البغيضة وهذه الأخلاق المعوجة وهذه الأحاديث التافهة ويتندر بها ويستمد منها النكتة الحلوة والمواقف العذبة المحببة ، إنما يرمى إلى إصلاح ما فسد وتقويم ما اعوج فى هذا المجتمع . فهو إذن من هؤلاء الفنانين الذين جمعوا بين الفن الأصيل واللهو المحبب والتربية الأخلاقية التى يحتاج إليها الجمهور . وهو مع ما يرى من فساد واعوجاج متفائل التفاؤل كله . فما من مسرحية إلا كانت نهايتها مستحبة ترضى الجمهور وترضى تفاؤله الذى لا حد له . فمهما بلغت المحن التى تلم ببطل مسرحياته الذليل المستضعف بسبب المجتمع وعاداته وآرائه ، نجد هذا البطل فى الفصل الأخير من المسرحية ينتصر على المجتمع الذى أذله واستغله وأشقاه وجعله فى يأس وبؤس وعذاب . إن انتصار هذا المعذب على المجتمع إنما هو

الدليل القاطع على استعداد النفوس لأن تصلح وتقوم .

فلكل هذا ساءنا أن نرى هذا الفنان يعتزل المسرح ولما يتم المهمة التى أخذ نفسه بالقيام بها ، مع أنه لم يأل فى سبيلها جهدا مهما يكن من عنفه . ساءنا أن نرى المسرح المصرى الوحيد الذى يقدم للمصريين فنا صحيحا جديراً بهذا الاسم يغلق ، وأن يذهب هباء ، مجهود سنين طوال . ولكن يبدو أن الأستاذ الريحانى لم يستطع أن يحرم المصريين فنه وتعاليمه ، فعاد إليهم فى المسرح والسينما فى وقت واحد. فبينما هو يفتتح مسرح الريتس يقدم لنا فى سينما كورسال فيلماً جديداً عنوانه « أبو حلموس » .

وشريط « أبو حلموس » ما هو إلا مسرحية اسمها « لو كنت حليوه » حورها الأستاذان الريحانى وبديع خيرى لتصلح للسينما ، فأضافا إليها بعض المناظر وأغفلا بعضها، حتى أصبحت قصة صالحة للفن السينمائى . و «أبو حلموس» تستمد قوتها الفنية لا من قصتها و إنما من الصور التى تقدمها لنا . ففى هذه القصة نجح الريحانى فى تصوير طبقة من المجتمع المصرى جديرة بأن يعنى بها الاجتماعيون ، ألا وهى طبقة نظار الأوقاف وموظفيهم الذين لا يردهم ضميرهم عن السرقة وابتزاز الأموال .

وقد التزم الأستاذ الريحانى فى هذا التصوير دقة عجيبة واصطنع أمانة تثير الدهش . فلم يترك أى تفصيل إلا أتى به فى قصته . فساق إلينا فى أسلوب مضحك لا يخلو من سخرية الطرق التى تلجأ إليها هذه الطبقة فى سرقاتها : فمن تزوير فى السجلات إلى أخطاء فى الحسابات ، إلى غير ذلك .

وهو إلى جانب هذه القصة الأليمة التى أضحكتنا ، قدم لنا صورة أخرى من فتيات هذا المجتمع الذى يطمح إلى الرقى ولا يجد إليه سبيلا . فتاة تستغل سذاجة أحد موظفى أبيها لتصل إلى مرامها وهو أن تتزوج بمن تحب . وهى دائبة على هذا الاستغلال حتى يتضح لها أن من تستغل يخصها بحب صادق أمين .

وقد كان النجاح حليف الأستاذ الريحانى ومن معه من ممثلين فى أداء أدوار هذه القصة . والأستاذ الريحانى ، مثلا ، فى غنى عن أن نقدمه للجمهور أو أن نحلل أسلوبه فى الأداء . وأكبر الظن أن قليلين يستطيعون أن يصطنعوا هذه الدقة فى التعبير ، وهذا القصد الذى لا يلتزمه إلا الفنان المخلص لعمله . واعتقد أنى لا أغالى حين أقول إنى لم أشهد فى مصر من

يمكنه تمثيل المشاهد الصامتة كما يمثلها الأستاذ الريحانى . ولا أريد أن أترك الحديث عن التمثيل دون أن أحمد لكمال المصرى تمثيله لشخصية الباشكاتب القبطى ، وأن أثنى على السيدة مارى منيب لأدائها شخصية العانس التى تبحث عن زوج ، هذا الأداء الصادق ، وأن أمتدح الأستاذ عباس فارس لاتقانه شخصية ناظر الوقف مع أنه قد أسرف أحيانا فى التعبير والصياح .

وكان فيلم « أبو حلموس » تحت إدارة الأستاذ الريحانى ، ومن إخراج الأستاذ ابراهيم حلمى . وفى هذه الناحية لا يسعنى إلا أن أمتدح للأستاذين اختيارهما للمناظر وخاصة منظر منزل ناظر الوقف الذى يمثل تمثيلا دقيقاً الروح المصرى وخلق به المخرج والمدير الفنى الجو المصرى الأصيل . إلا أن هناك بعض الأغانى أدخلت على القصة إدخالا لا مسوغ له ، وجاء الرقص غير منسجم يشوبه أحياناً بعض الاضطراب . فلو أنهما لم يسرفا فى المناظر الغنائية الراقصة لجاء الاخراج متقناً كل الاتقان . وكنت أود أن يهتم الأستاذان بالتصوير أيضا . فالصورة يعوزها الضوء الصحيح إذ أنها بيضاء . ثم إن هناك ناحية فى التصوير مهملة كل الاهمال فى الأفلام المصرية . فالمصور لا يهتم بأن يختار الزاوية الصالحة للتصوير . وهذا النقص يظهر جليا فى تصوير الأشخاص أكثر مما يظهر فى تصوير المناظر . فالمصور يقترب من الممثل بآلة التصوير حتى تبدو ملامحه مضخمة مشوهة . ولم يكن تصوير المناظر خاليا من العيوب . فهنا أيضا لا يدرك المصور أن ثمة اعتبارات يجب أن يحسب لها حسابها . فهو مثلا لا ينظم صورته ولا ينسق تفاصيلها وانما يلتقطها اعتباطا فتطغى بعض عناصرها على بعضها الآخر فتبدو الصورة مضطربة كل الاضطراب . وآلة التصوير ما هى إلا آلة يجب أن يتحكم فيها المصور ويستغلها ليحقق ما يرمى إليه من صور فنية رائعة ولوحات جميلة خلابة . وأما فى هذا الفيلم فلم أر استغلال المصور للآلة وانما — مع الأسف — رأيت تحكم الآلة فى المصور .

وخلاصة القول إن إنتاج « أبو حلموس » يحتل بين الأفلام المصرية المكان الأول قصة وتمثيلا وإخراجا ، على رغم ما لمست فيه من ضعف فى التصوير . وهذا الضعف نلمسه فى الانتاج المصرى عامة .

فلو أن منتجينا ومخرجينا احتذوا الأستاذ الريحانى فى إنتاجه السينمائى لكانت حال السينما المصرية تختلف عما هى عليها الآن . فلنشكر إذن للاستاذ الريحانى هذا المجهود ، ولنتمن له دوام التوفيق فى عمله الفنى .

هيومورسك (إخوان وارنر) (١)

منذ ابتدع أورسون ولز وسام وود طريقة عرض الحوادث بالتقهقر أى من آخرها إلى أولها التزم المخرجون الأمريكيون فى عرض القصة هذه الطريقة لايصدفون عنها ؛ فيعرضون على النظارة المنظر الأخير من قصتهم ثم يعودون إلى المنظر الأول منها عن طريق الذكريات مثلا أو سرد الحوادث . وإذا كانت هذه الطريقة عدت طريفة حين ابتدعها إورسون ولز فى فيلم « المواطن كين » فقد أصبحت الآن لكثرة استعمالها دون مسوغ مملة مزرية بالقصة التى نطلع على نهايتها قبل أن نعرف الحوادث والظروف التى أدت إلى هذه النهاية .

وأورسون ولز حين ابتدأ « المواطن كين » بمشهد وفاة البطل إنما أراد بما فى هذا المشهد من عناصر مختلفة مثل الضوء القاتم الذى كان يغمر الحجرة ، وتلك الكرة الزجاجية التى يمسكها كين وحيث يتساقط الثلج ، أن يجمع فى هذا المنظر المراحل المختلفة التى سيمر بها بطل القصة من طفولته المتضعة ، وقد رمز إليها بالكرة الزجاجية إلى كهولته الموسرة ، وقد رمز إليها بالقصر الذى يموت فيه كين . فثمة إذن مسوغ قوى للبدء بالنهاية . أما فى الفيلم الذى أتحدث عنه اليوم فلا أجد ما يسوغ عرض القصة على هذا النمط . فالمخرج فى المنظر الأول من الشريط يرينا الموسيقار بول بورى وقد استسلم لليأس العنيف دون أن ندرى أسباب هذا اليأس المفزع . ويترك البطل لذكرياته العنان ، فنراه طفلا مرحا مشغوفا بالموسيقى حتى ليضطر أهله فى يوم عيد ميلاده أن يشتروا له كمانا وهو لا يدرى كيف تستعمل هذه الآلة الموسيقية . فما الداعى إذن إلى المنظر الأول ؟ وما مسوغه ؟ وما عذر المخرج فى التجائه إلى هذه البداية إلا

(١) Humoresque (Warner bros)

أنه أراد أن يأتي بشئ جديد فلم يستطع إلا أن يحاكى مخرجين كانوا أكثر منه طرافة وأقدر منه على الابتكار ؟

ويأخذ الشريط فى سرد حياة الموسيقار طفلا ثم صبيا ثم شابا ؛ فيصوره لنا مولعا بالموسيقى مشغوفا بفنه لا يمنعه عنه مانع ولا يشغله عنه شاغل . وقد أطال المخرج أيضا فى هذه المشاهد مع أنها ليست ذات خطر. أما كان يكفى ليصور ولوع الموسيقار بفنه مشهد شراء الكمان فى طفولته ؟ فليس من الضرورى أن نرى تمرينات هذا الطفل ثم هذا الصبى ثم هذا الشاب على الآلة الموسيقية ، ونستمع إليها . وليس مشهد دروسه فى المعهد الموسيقى ذا شأن . فكان لابد من العرض السريع لهذا الجزء من حياة بطل القصة حتى نصل إلى المرحلة التى تبدأ فيها مأساة غرامه . لقد كان يعوز الموسيقى الشاب بعض المال ليعرض فنه على الجماهير . فصادف امرأة ثرية لا هم لها إلا تشجيع الفنانين ومساعدتهم حتى يصيبوا شيئا من الشهرة . ولم تكن هيلين رايت — وهو اسم هذه السيدة — قد وجدت سبيلها إلى السعادة وإلى الحب الصادق ، فكانت تعيش فى وحدة موحشة لا تجد إلا فى الخمر ما ينسيها بؤسها وشقاءها . وقد عنيت ببول كل العناية وأخلصت له كل الاخلاص لما لمست فيه من ولوع بفنه وعزيمة قوية إلى أن يسمو بهذا الفن إلى أعلى درجات السمو . وقد أدى بها هذا الاخلاص لخدمة بول وهذه العناية إلى الكلف بالشاب . فها هى ذى تسعد لأول مرة بحب متبادل ينقذها من وحدتها. ولكن هناك فن بول يفصل بينها وبين عشيقها . وهى لا تريد أن يضحى الشاب بهذا الفن ليعيش إلى جانبها دائما ويحقق لها حياة سعيدة طالما طمحت إليها . وهى من ناحية أخرى ترغب رغبة شديدة فى أن تجمعهما حياة واحدة . فكان موقفها عنيفا بين فن لاتحب أن يزول وبين كلف لاتود أن يشقيها . فليس إذن من مخرج إلا أن تنتحر لتترك لعشيقها السبيل إلى أن يخلص لموسيقاه .

وإذا كان المخرج لم يوفق فى عرض القصة فى بادئ الأمر فهو قد توصل إلى طريقة طريفة متقنة للانتقال من منظر إلى منظر . وقد نوع فى هذا الانتقال كلما وسعه التنويع . فيختار حينا صورة لينتقل بها إلى صورة مشابهة فى المنظر التالى ، ويختار حينا آخر صوتا يجد له ما يماثله فى المشهد الذى

يريد الانتقال إليه . وعلى سبيل المثال أذكر هذا المشهد : هيلين تنظر إلى صورة لبول طفلا وهو يمسك كمانه . وتحتل تلك الصورة الشاشة كلها ثم تنقلب شيئا فشيئا حتى نرى بول يذيع فى إحدى قاعات الموسيقى . ومثال آخر الصوت فيه هو عنصر الانتقال : هيلين تصب فى الكوب بعض الصودا التى تختلط بالشراب فى شئ من العنف . فهذا الصوت وهذا المنظر يتيح للمخرج أن ينتقل إلى صورة البحر والأمواج تختلط بعضها ببعض فى عنف مشابه .

وقد أتاح التصوير المتقن للمخرج أن يوفق التوفيق كله فى تسجيل تنقلاته هذه من منظر إلى منظر ، كما أتاح له أيضا أن يصور لنا تمثيل جون كراوفورد فى دور هيلين رايت .

إن هذه الممثلة بقدرتها الفنية التى تعينها على التعبير الصادق قد استطاعت أن تصور لنا نفسية هذه المرأة . فكأن وجهها مرآة لنفس الشخصية التى تمثلها . لقد كان الشاهد يشعر من نظراتها ، من طريقتها فى صب الشراب وعبه ، بما تضطرم به من بؤس ووحدة وخاجة إلى حب صادق يملأ فراغ قلبها الموحش .

ومهما يكن من هنات فى الاخراج وعرض القصة فيمكن أن يعد هذا الانتاج من خير ما أنتجته أمريكا فى الموسم الحالى ؛ إذ أننا لم نشهد للآن إلا أفلاما قصصها سقيمة ضعيفة مثل قصة « امرأة غريبة » أو « مغامرات ولتر سيتى ». أو ذات إخراج يعوزه الفن الصحيح مثل « قسمة » .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

HERMÈS TRISMÉGISTE ET LA CRISE DU RATIONALISME

ETIEMBLE

هرمس مثلث العظمات وأزمة المذهب العقلي *

إن الضجة الكبيرة التي تثار حول الآثار التافهة أو الضارة تحول دون بلوغ الأصوات الصحيحة أسماع البشر . ويبدو لي أن الأثر الأخير للأب فستوجيير Festugière وعنوانه « حقيقة هرمس مثلث العظمات » *La Révélation d'Hermès Trismégiste* لم يقابل بما كان خليقا أن يقابل به مثل هذا العقل النير الذي ينتظم كل تلك المعلومات . ومع أن الجزء الأول « التنجيم والعلوم الخفية [1] » هو الوحيد الذي ظهر من مجموعة كتب ثلاثة كان لا بد أن تكون على غاية من الأهمية ، فان المقدمة الغزيرة التي تقع في ٩٠ صفحة تلقي الضوء على مشروع الأثر في جملته وتساعد على التكهن بما سيكون عليه الأثر إذا ما أنجز .

ولست أملك أن أمتدح أو أن أذم قيمة الاطلاع العلمي في مؤلف « هرمس مثلث العظمات » ، غير أني كنت أذكر أفضاله لواحد من كبار علمائنا في آثار البردي وهو الأستاذ جان شيرير المدرس بجامعة فؤاد الأول ، فكتب لي يقول : « إن « هرمس » فستوجيير ربما كان خير مؤلف ظهر أثناء الحرب . إن الذين اتصلوا بتلك النصوص المروعة ليقدرون مثل هذا المجهود في سبيل الايضاح . » وكنت أنا أحس بذلك فبلغ الاحساس مني اليقين . والجزء مزود بملحق كتبه لويس ماسينيون بعنوان

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصري » .

(١) الناشرون : جابلدا ، باريس ١٩٤٤ .

« بيان عن الأدب الهرمسى العربى » ، ويعتبر أول مجموعة من مراجع علم لم يستكشف بعد . ولو أن كل فضل « هرمس المثلث العظمات » انحصر فى عرض وترجمة وشرح النصوص المنسوبة إلى توت — هرمس ، ونشر بيان بالأدب الهرمسى العربى ، فانه مع ذلك يستدعى اهتمام الأدباء الشرقيين ، فسيجد فيه علماء اليونانية والعربية وعلماء اللاهوت والفلاسفة مواد نادرة غزيرة يجولون فيها بنافذ بصيرتهم التخصيصية .

غير أن للكتاب مزايا أخرى : فهو يحلل لغير الاخصائيين وللمثقفين أزمة اللاعقلية التى اجتاحت العصر الهلينستى ، حين انتشر فى العالم اليونانى الرومانى « عدد من الحكم السماوية التى كانت تنسب إلى بعض مجوس فارس (زورواستر وأوستانس وهستاسب) أو تنسب إلى أحد آلهة (توت — هرمس) ، أو إلى المنجمين القادمين من كلدانيا ، بل كانت تنسب أيضاً إلى أنبياء أو فلاسفة من اليونان كانوا أكثر من غيرهم قرباً إلى الأمور الالـهية . ذلك أن الفيثاغورية والأورفية قد عادتا إلى الازدهار من جديد فى ذلك الحين . » وقد ساد وقتئذ ما هو جدير حقا بأن يسمى بدعة . فبعد وفاة القديس سيبريان الأنطاكى باحدى وعشرين ومائة سنة ، كتب القديس جريجوار دى نازيالس يمدحه فقال إنه درس السحر فى مصر مدة طويلة ، وفى كلدانيا تعلم الفلك . وإنا لنجد متعة فيما نحا إليه الكاتب من خلط بين حياة القديس وبين الحياة النظرية الخرافية التى كان لابد أن يحياها رجل تقى يرمى إلى التأثير فى عقول أبناء عصره. فاذا كان مثل القديس سيبريان قد أخذ بالهرمسية ، فلا موضع للدهش إذا قيل إن توت هرمس هو صاحب رسائل التنجيم ، ونظريات الكيمياء الكاذبة ، والمؤلفات السحرية ، وكل ما كانت الأذهان المتعارضة مع العقل تعتبره حينئذ علما .

وقد سرت عدوى مؤلفات مثلث العظمات فى الجزء الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط بتلك السرعة التى تتوالد بها خلايا السرطان . وكان كل من أراد لفكرته أن تذيع وتسود ، ينشرها تحت اسم الاله توت . وقد فسر زوزيم مثلث العظمات بالطريقة الثلاثية لما هو منتَج وما هو منتِج » ، كما فسره أحد المشتغلين بالكيمياء الكاذبة بطريقة مختلفة إلا أنها ليست أقل جزما : فقيل إن هرمس مثلث

العظمات لأنه يصنع الذهب « على خطوات ثلاث من خطوات الطريقة العملية» وليفهم من استطاع إلى الفهم سبيلا ! مع أن الحقيقة على بساطتها ليست أقل روعة ؛ ففى اللغة المصرية القديمة يعبر عن صيغة التفضيل بتكرار الصفة نفسها . فاذا كانت آ آ معناها كبير فكلمة آ آ آ آ معناها كبير جدا . وترجمتها باليونانية μέγας καὶ μέγας (عظيم وعظيم) غير أن من طبيعة اللغات أن تبلى . لذا حدث منذ القرن الثانى مع أن معنى التفضيل لكلمة μέγας المكررة قد نسيه الكتاب وأغفلته الشعوب . ومن وقتئذ ظهرت فى الأدعية والابتهالات عبارة μέγιστος καὶ μέγιστος (عظيم وعظيم) أوعبارة μέγιστος καὶ μέγιστος καὶ μέγιστος (عظيم جدا وعظيم جدا وعظيم جدا) أى مكررة ثلاثا ؛ لما كان للعدد ثلاثة من تأثير سحرى ، ومعناها τρισμέγιστος أى هرمس الأعظم ثلاث مرات ، أى هرمس العظيم جدا ثلاث مرات ، أى هرمس مثلث العظمات Hermès Trismégiste . (وذلك رغم أنف كل من يتأثر بمقاطع الألفاظ ويحملها معانى سحرية كلفظتى أبركساس أو أبراكادابرا !)

والأب فستوجيير يقيم الدليل على أننا يجب أن نصدق حقيقة الكتابات الهرمسية بقدر ما نصدق ما شاع من خرافات حول أصل تسمية الإله الساحر أو ما يرمز إليه . وإذا كان اللاعقليون يقولون إن ما نسب من مؤلفات إلى هرمس قد انتقل منذ عام ٤٨ — ٨٦٣ قبل الاسكندر ، إلى داخل الجمعيات الدينية أو الصوفية التى اتخذت منه فرائض صلاتها ، فالأب فستوجيير على نقيض ذلك يرى فى هذه الآثار التى تتضمن عقائد متنافرة وتشمل مبادئ متناقضة ، مظاهر لنوع أدبى بحت . « فرؤيا الله » لدى أشياع هرمس فى القرن الثانى ، قد لعبت نفس الدور الذى لعبته بدعة « أوصاف الأشخاص » portraits فى عصر الملك لويس الرابع عشر .

ولا يقتصر المؤلف على وصف أعراض الداء بل ينقب عن أسبابه : ففى القرن الثانى من المسيحية « انهارت أركان العقل والجدل والمذهب الانسانى من كل النواحى ، واختلطت تحت أنقاضها فى عاصفة هوجاء كل القوى اللاعقلية ، فاذا بالاضطراب يعترى كل هذه الأرواح وكل هذه الأبخرة التى كان يستحضرها فن النبى والمجوسى والكيميائى الكاذب

ويناجى الموتى . » وقد عم الرخاء ذلك العصر ، كما سادت فيه بقدر ما كان منتظراً رفاهية مادية أعظم بكثير مما كان فى العصور السابقة . والمؤلف يسائل نفسه عن السبب الذى من أجله « لم يعرف القرن الثانى نهضة عقلية حقة ، والذى من أجله كانت قوة الفكرة ووضوحها فى هبوط متصل » . والذى من أجله بموجز القول « لم يصحب الرضاء المادى العظيم الذى كان ينعم به العالم فى ذلك الحين ، ازدهار يماثله فى الانتاج العقلى » . إن هذه الظاهرة التى تعد بحق من أهم الظواهر فى تاريخ البشر ، من العبث أن نبحث عن أسباب لها آلية أو اقتصادية بحتة . والحقيقة مهما تكن مخيبة للرجاء ، هى أن المذهب العقلى اليونانى الذى كان يسود الفكر حينئذ ، هدم نفسه بنفسه فى عنف وقوة . « وبما أن العقل فعلا تحرر وأخذ يتيه كما يشاء دون أن يجد الضابط الطبيعى له فى نظرة أعمق وأصلح للعالم المحسوس ، فكان لابد أن هذه القوة المنطقية نفسها التى استخدمت فى إقامة البناء ، استخدمت كذلك فى هدمه . » لاشك أن أفلوطين ومدرسته حاولا إنقاذ القيم اليونانية وسخرا من أولئك الذين يستسلمون للسحرة . فأسرار العلوم الالهية وطقوس السحر تتغلب حتما على الفكر المنطقى المجرد ، الثالى فى منطقه ، والذى لم يتمكن من الاستزادة باختبارات لا تنفك تتجدد ويعاد البحث فيها ، فينتهى به الأمر إلى فقد حيويته ثم إلى ضعفه ثم إلى تلاشيه .

إن فيثاغورية تحكمية αὖτος ἔφα كما قال فيثاغور نفسه ، ونظريات مجازفة عن الأعداد ، كانت تكفى لارضاء رجل القرن الثانى الذى كان لا يجد هذا الرضا نفسه فى عقل معقم ، فكان من نتيجة ذلك ما رأيناه من ظهور دين ، هو دين خلاص ، ومن ظهور عذراء الاسكندرية هيباتى Hypathie العالمة الحكيمة التى قتلها المسيحيون (٣٩١) .

وماذا نرى اليوم ؟ نرى من ناحية العقليين التحكميين الذين تميزوا بالجفاف أمثال جوليان بندا Julien Benda ، فهم لا يمارسون التفكير إلا فى الفكر نفسه . وهم إذا كتبوا عن « دورة الصفوة » circulation des élites فى الولايات المتحدة اعتقدوا أنهم يفقدون قدرهم بدراستهم الظواهر التى تقيم الدليل على أن عامل الامتصاص بين الطبقات الاجتماعية

لا أثر له فى أمريكا . أما أصحاب « المذهب العقلى الحديث » أو بمعنى آخر الماركسيون الراشدون ، فهم أكثر اهتماما بالتجارب ، إن لم يكن فعلا فمبدئيا على الأقل . وهم يبدون بالفعل الاحتقار نفسه للتجارب أو الملاحظات التى تسىء إلى مبادئهم . وهم يذهبون إلى حد إثبات أن المذهب العقلى الحديث يخلص الانسان من الموت . ذلك لأن الموت ما هو إلا النفى « المنطقى » L'antithèse dialectique للحياة . ليس هذا رأى كل الذين صدموا بجفاف فكرة لظرية اجتهادية وبالتالى غير إنسانية، ومازالوا يناشدون اليوم هرمس كما ناشدوه بالأمس لتبديد قلقهم .

وقد لاحظت فعلا من قراءتى الآثار الأخيرة لأندريه بريتون ، أن زعيم مذهب السيريالزم يمنح يوماً بعد يوم نصيبا أكبر وأخطر لعلم الغيب والعلوم الخفية من سحر وتنجيم وللسنة الهرمسية. وقد أنشأ قصيدة كاملة « الساحرة مرجانة » *Fata Morgana* على نغمة « مومياء إيبيس » . وهو يأخذ على عاتقه قصة « أوزيريس إله أسود » ويأخذ أيضا بأتفه التفاصيل ما دامت هذه التفاصيل مقتبسة من مؤلف « هرمسى » . ولما كان الحرفان الأولان من اسمه ولقبه A و B قريبى الشبه فى توقيعه بالعددين ١٧ و ١٣ ، فهو يعتقد أنه نذر لأن يتأثر بسيالات هذين العددين ، فتراه يكتب ركن ١٧ Arcane 17 ، ثم يواصل بالتدريج هذه النظرية الرقمية الغريبة حتى يأخذه الهذيان إلى درجة انشاء منهج ، وحتى يصل به التفكير إلى أبواب الجنون . ونجد فى كوبا تلميذه الرسام ولفريدو لام ، ينشىء لوحة تحت عنوان « هرمس مثلث العظمات » مع أن مضمونها التشكيلى لا يستدعى مطلقا هذا العنوان الذى وضع فى غير موضعه .

« ليسقط العقل » تلك صيحة ما زال يرددها فى كل مكان تقريبا عدد كبير من الشبان الذين يحلفون بهرمس وبالاكتو بلاسما وبالنضد الدائرى .

ونحن نخطىء إذا استخففنا بهذا التطور الأخير لمدرسة السيريالزم ، فهو يكشف فى القرن العشرين عن القلق نفسه الذى شاهدنا آثاره فى القرن الثانى . ولم ينخدع بذلك رجال الدين؛ فمع أن الكنائس تدين الألظمة الهرمسية ، فنحن نرى الذين يصيدون النفوس فى الماء العكر يهنئون أنفسهم بهذا الميل المعاصر للعلوم الخفية ؛ فهو فى اعتقادهم يبشر بالعودة إلى التقاليد المتوارثة

«وبالأصح إلى التقاليد المسيحية» [1] .

وبدلا من الاستسلام لتلك الغربيات ، يجدر بالانسان اليوم أن يرد للعقل اعتباره فى كامل قوته وتنوع رسالته هذا التنوع العجيب . وإذا كان اللاعقليون قد نجحوا فى إعلان بطلان هذا العقل الواهي القوى الذى يدمر نفسه بنفسه ، فهم لم يتوصلوا حتى الآن إلى نقد العقل الآخر نقدا ذا خطر ، كعقل ديكارت هذا الذى كان يقدر العواطف ، وعقل ديدرو هذا الذى كان يتعهدها تعهداً متصلا ، وهذا العقل الذى أتاح للانسان أن يحطم الذرة ، وأن ينشئ مذهباً أخلاقيا لنفسه . فليس هرمس على أية حال هو الذى عثر على البنسلين بل الدكتور فلمنج . وليس توت هرمس هو الذى ألقى الضوء على حقيقة ميولنا بل سيجموند فرويد وغيره . وليس يوحنا ورؤيته هما اللذان ساعدانا على تفهم اللاعقليات بل جيمس فريزر وأثره « غصن الذهب » *Rameau d'Or* .

وقد كتب جان بولان : « يوجد نوعان من الفهم (أو من المذهب العقلى) : الأول يكتفى بأن يطبق تطبيقاً دقيقاً بعض القواعد — وهى ميتفازيقية غالباً — وضعت فى أول الأمر بدون أى برهان أو إقامة أدنى دليل . ولكن هناك فهماً آخر (أو مذهباً عقليا آخر) ، يتبع الملاحظة البطيئة والتجربة المنظمة ، ويحاول أن يستنتج بعض قوانين ، ويجتنب التحيز والتعصب مهما كانا مغريين ، ويمتنع عن الاستنتاج ما وسعه الامتناع . وإنى أود أن يكون ذلك مذهبي . »

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكم

---

(١) جى ميشو « الرسالة الرمزية » باريس ، نيزيه ١٩٤٧ .

من وراء البحار

منطقة النفوذ الروسية فى أوربا وأمورها الاقتصادية

أسدت إلينا مجلة « العالم اليوم » الانجليزية خدمة كبيرة حين نشرت فى عدد أكتوبر مقالا عن الحالة الاقتصادية فى منطقة شرق أوربا الخاضعة للنفوذ الروسى ، اذ تقول : إنه بينما تنظر الأمم الست عشرة فى غرب أوربا قرار أمريكا فيما يتعلق بمقترحات مؤتمر باريس ، الذى عقد على أثر مشروع مارشال ، يستمر القسم الشرقى من القارة فى تحول اقتصادى أساسى قد يغير بمرور الزمن وجه أوربا الشرقية تغييراً تاما ؛ وليس ذلك فحسب ، بل قد يحدث ثورة فى العلاقات بين الأمم المعروفة من قديم بصناعاتها وبين الأمم التى كانت تعتمد فيما مضى على صادراتها الصناعية . فان البحث يدور الآن فى وضع مشروع ينفذ فى عشر سنوات فى أوربا الشرقية ، وهو مشروع شامل يؤدى إلى اتحاد منطقة النفوذ الروسى ويجعلها مستقلة تماماً عن العالم الغربى . لذلك كان من المناسب استعراض التطورات فى تلك المنطقة منذ انتهاء الحرب .

لقد اعترف الباحثون فى العلاقات الدولية منذ أمد بعيد بأن تقطيع أوربا الشرقية إلى وحدات اقتصادية على أثر الحرب العالمية الأولى كان من الأخطاء الكبرى ؛ لذلك رحبوا بالجهود التى بذلت فى أثناء الحرب الثانية لكى توجد الظروف الملائمة لتعاون مثمر بين دول تلك المنطقة . وكان يراد إقامة هذا التعاون على أساس اتفاق التشك والبولونيين ، ثم اتفاق اليونان واليوغسلاف . وكانت الفكرة ترمى إلى ضم جميع الدول فى المنطقة الممتدة بين بحر البلطيق وبحر إيجه بحيث يشمل ١١٥ مليونا من البشر ، مما يجعل التعمير والتقدم الاجتماعى ممكنا . وكانت فكرة جريئة ، غير أنه قبل أن يشرع الخبراء فى العمل لتنفيذها عارضتها روسيا فقتلت الفكرة فى المهد .

فقد تذكرت روسيا فكرة الحاجز الصحى الذى أريد إقامته من حولها من قبل ، وتذكرت مشروعات ترغب فى تنفيذها ، فأدى ذلك إلى رفض

أى مشروع يعمل لحل مسألة أوربا الشرقية ولا تكون روسيا مشتركة فيه اشتراكا فعليا . ولما تمكنت روسيا من إقامة حكومتين مواليتين لها فى بولونيا وفى يوغوسلافيا كان فى ذلك القضاء على هذه ألفكرة الأولى نهائيا .

ولقد رأى العالم بعد انتهاء الحرب ظهور مشروع جديد لا يمتد من الشمال إلى الجنوب كالمشروع البريطانى ويتخذ مركزه من الاتصال بين وارسو وأتينا ، وإنما هو مشروع يقوم على عدد من المعاهدات والمحالفات ، ويمتد من الشرق إلى الغرب فيصل بين موسكو وفارسوفيا وبين موسكو وبراج وبين موسكو وبلغراد وهكذا . وعلى أساس هذه الاتفاقات الثنائية استطاعت روسيا أن تحصل على ما كان يحرمه عليها المشروع البريطانى ، فيصير لها نفوذ مباشر فى كل عاصمة يسد حاجاتها الاقتصادية ويؤكد سلامتها . وبعد أن حلت روسيا مشكلة السلامة ، ولم يبق هنالك ما يهددها فى تلك البلاد المحيطة بها ، عمدت إلى السماح لهذه الدول التابعة بأن تعقد الاتفاقات فيما بينها . وإذا كان رفض حكومات هذه الدول الاشتراك فى مؤتمر باريس على غير إرادة الشعوب نفسها ، فان دراسة صحافة تلك البلاد تؤدى إلى القول بأنه لم يكن لهذا الرفض تأثير سيئ دائم . فاذا كانت هذه الشعوب قد حرمت مزايا الأدوات والآلات الأمريكية ، فقد أخذت تفكر فى تنفيذ مشروعات هامة ، وتتحدث الصحف كثيراً عن وجوب الاعتماد على النفس والأمل فى مساعدة روسيا . وسيبدو فى المستقبل هل هذا النشاط سيسفر عن شئ مادى أو يكون مجرد أحلام .

الواقع أن المشروعات تشغل بال الحكومات فى أوربا الشرقية ، فنرى تلك الدول تضع المشروعات التى يجب تنفيذها فى مدى سنتين أو ثلاث سنوات أو خمس سنوات لكى تنهض بالاقتصاد الوطنى . وتعمل هذه الحكومات لعقد اتفاقات مع جاراتها ومع الدول الواقعة فى المنطقة . وكل هذه الاتفاقات ذات علاقة بالمشروع الروسى الذى قدر له خمس سنوات والذى ينفذ الآن ، وبالمشروعات التى تفكر فيها روسيا للمستقبل . ويمكن اجمال هذه المشروعات فيما يأتى :

أولا — إعادة تعمير روسيا سريعاً بمعاونة جاراتها .

ثانيا — اعتماد المناطق على نفسها بتوجيه دول البلقان للصناعة وزيادة القوة الصناعية فى بولونيا وتشيكوسلوفاكيا .

ثالثا — إنشاء وحدة اقتصادية كبيرة تساوى أو تزيد على قوة أمريكا أو قوة بريطانيا ودول غرب أوربا مجتمعة .

وإذا كانت المصالح الخاصة للدول الصغرى المشتركة فى مؤتمر باريس قد وجدت اهتماما ورعاية ، فليس من الصعب أن نتبين أن هذه المصالح الخاصة لجارات روسيا لم تجد من الرعاية إلا بقدر عدم تعارضها مع الخطة العامة التى وضعتها روسيا لتنظيم هذه المنطقة اقتصاديا . ولقد صار من البين الآن أن المشروعات التى وضعتها دول أوربا الشرقية ليست عبثا، كما أنه ليس من الحكمة الاعتماد على أن تعود هذه الدول إلى الاثرة المعروفة عنها . وقد يعتمد القائلون بهذا الرأى الأخير على الأرقام التجارية لهذه الدول مع روسيا فيما قبل الحرب ، حين كانت روسيا لاتصدر لدولة مثل تشيكوسلوفاكيا غير ١,٨ من وارداتها وأقل من ذلك لبولونيا ورومانيا ويوغوسلافيا . ولكن هذه العلاقة كانت خاضعة للظروف السياسية القائمة وقتئذ ، وأدت إلى قيام ألمانيا بملء هذا الفراغ ، مما هو معروف لدى الباحثين فى الأمور الاقتصادية .

وأدى سقوط ألمانيا واحتلال الجيش الأحمر لأوربا الشرقية إلى أن صار الموقف الاقتصادى الجديد ملائما جدا لروسيا . وقد اختفى أهم شريك لهذه الدول فى أمورها الاقتصادية ، وانقطعت المواصلات تماما مع غرب أوربا ؛ فلم يبق أمام هذه الدول غير روسيا . ثم إن اتفاق بوتسدام قضى بأن تمتلك روسيا كل مخلفات الألمان فى تلك المنطقة ، فوضعت روسيا يدها مثلا على مائتى شركة فى المجر . ثم إن فرض تعويضات على رومانيا والمجر لروسيا — إذ فرض على الأولى ٣٠٠ مليون دولار ، وعلى الثانية ٢٠٠ مليون دولار — سهل إنشاء شركات مختلطة روسية رومانية ، وروسية مجرية ، وكانت نتيجة ذلك أن روسيا اليوم تحتل مكان ألمانيا فى تجارة هذه الدول ، وكان قسطها فى تجارة ثلاث من هذه الدول فى سنة ١٩٤٦ كما يأتى :

المجر : الصادرات ٤٥ ٪ — الواردات ٤٩ ٪ .

بلغاريا : الصادرات ٦٦ ٪ — الواردات ٨٢ ٪ .

بولونيا : الصادرات ٥١ ٪ — الواردات ٧٤ ٪ .

وإذا كانت الأرقام ليوغوسلافيا ورومانيا غير معروفة فانها تماثل هذه النسبة تقريباً .

والاستثناء الوحيد لهذه الظاهرة وفى جميع الظواهر الأخرى هو حالة تشيكوسلوفاكيا ؛ فانها كانت فيما قبل الحرب على اتصال اقتصادى قوى مع غرب أوربا ومع ألمانيا . وبالرغم من التشدق بوجوب التضامن السلافى فى تلك البلاد ، فان تجارة يوغوسلافيا لم تزد فى وارداتها من روسيا عن ٩ ٪ وفى صادراتها إلى روسيا عن ١٢ ٪ فى سنة ١٩٤٦ . وتدل البيانات التى أعلنت فى يونيه سنة ١٩٤٧ على أن روسيا تشغل المحل السابع بين زبائنها ، والمحل الحادى عشر بين الموردين لها . وهذا ما يفسر قوة تشيكوسلوفاكيا نسبيا فى موقفها نحو الاتحاد السوفييتى . ولذلك عند ما أعلنت حكومتها أولا الرغبة فى الاشتراك فى مؤتمر باريس الذى عقد لمشروع مارشال ، بذلت روسيا جهداً كبيراً لسد هذا الخرق الوحيد فى البنيان الذى أقامته بينها وبين الغرب ؛ وعملت لزيادة ربط تلك البلاد بالنظام الاقتصادى فى تلك المنطقة . وكان من نتيجة ذلك أن بذلت وسائل الترغيب ؛ فعقدت معاهدة تجارية ستضمن للتشيك أن يجدوا عملا طوال خمس السنوات القادمة . فقد تم الاتفاق على أن تقدم روسيا مقادير ثابتة من القمح والمخصبات والقطن والمعادن الخام ، فى نظير تقديم التشيك لآلات وأدوات بما يقدر بنحو مائة مليون من الجنيهات. ومع ذلك قد لا يكون هنالك خطر من تابعية تلك البلاد لروسيا واعتمادها عليها ؛ فان حكومتها متيقظة للنتائج السياسية التى تنجم عن إدارة الحياة الاقتصادية فى أى بلد بوساطة عميله الأساسى..

ولقد عقد اتفاق أيضاً بين السوفييت والمجر فى شهر يولية الماضى ، وهو يسرى لمدة اثنى عشر شهراً . وهو اتفاق أكثر شمولا ؛ إذ يقضى بتبادل المواد الخام الروسية بدلا من الآلات المجرية والألومنيوم والبترول بما يقدر بنحو ١٧ مليونا من الجنيهات الانجليزية ، وهو مبلغ يزيد قليلا عن مجموع صادرات المجر فى سنة ١٩٤٦ . على أن الصادرات الزراعية للمجر

التى سترسل لروسيا لا تزيد على ١٥٠٪ كما هو الحال بالنسبة لتشيكوسلوفاكيا ؛ فان موسكو مهتمة بالآلات التى تحتاج إليها لمشروع خمس السنوات ، ولكى تحصل على هذه الآلات ضاعفت من كية الفحم الحجرى وزادت خمس مرات كية الحديد الخام الذى تصدره للمجر فى سنة ١٩٤٦ . ولذلك فهى تقدم ثلث حاجة المجر من هذين النوعين . على أن تحسن الموقف الاقتصادى السيئ جداً للمجر لا يكون إلا بتغيير أساسى فى سياسة التعويضات التى تسير عليها روسيا والتى لم تكد تبقى للبلاد شيئاً .

هذان الاتفاقان هما أحدث الاتفاقات التى عقدت لبلوغ روسيا غرضها الأول ، وهو تقوية الاقتصاد الروسى الداخلى ، بربطه بالنشاط الاقتصادى لدول شرق أوربا وجنوبها الشرقى حتى تسد هذه الدول حاجاتها . وهى تعمل كذلك فى نشاط للوصول إلى الغرض الثانى وهو زيادة النشاط الصناعى فى تلك المنطقة . وهنا نجد أن لتشيكوسلوفاكيا مركزا ممتازا بالنسبة لكفاية صناعة الهندسة فيها ورقى هذه الصناعة . فهى سترسل إلى بولونيا ما يقدر ثمنه بنحو أربعة ملايين من الجنيهات من الأدوات لمساعدتها فى إقامة صناعة صلب جديدة تستطيع أن تخرج مليون طن فى السنة ، ولكى تحسن موانيها وتزيد صناعة الفحم فى سيليزيا العليا نماء . وستعطى يوغسلافيا مثل هذا المقدار من الآلات وأدوات التعدين فى نظير بعض المواد . وترسل إلى بلغاريا من الآلات ما ثمنه مليون ونصف مليون فى نظير بعض المواد أيضا . ويتم كل ذلك فى خمس سنوات . ولو سارت الأمور سيراً طبيعيا فان تشيكوسلوفاكيا ستصير مصنع أوربا الشرقية .

ومن الاتفاقات الحديثة فى تلك المنطقة اتفاق الصداقة بين يوغوسلافيا وبلغاريا ، وهى خطوة أولى لانشاء اتحاد بينهما . ويحتوى هذا الاتفاق على عدة نصوص اقتصادية ، مع أن الدولتين لا تتم إحداهما الأخرى . أما رومانيا وهى دولة لديها ثلاثة أنواع من الصادرات ذات شأن كبير ، وهى البترول والخشب والمنتجات الزراعية ، فقد أخذت تعيد اقتصادها المحطم بوساطة اتفاقات تجارية مع كل دولة من هاته الديمقراطيات الجديدة .

ولاتفتأ موسكو تردد إلى جانب هذه الاتفاقات ، دعاية عريضة عن أخطار العبودية للنظام الرأسمالى

الاحتكارى الذى يهدد أية دولة من دول شرق أوربا تفضل الاشتراك فى مشروع مارشال . ومع ذلك فقد بدت فى المؤتمر الذى عقدته أحزاب شرق أوربا الاشتراكية رغبة فى اجتناب الخضوع الكامل لحاجات روسيا الاقتصادية ، وهو ما تعمل له السياسة الشيوعية . وقد عقد هذا المؤتمر فى بودابست وأبدى فيه بعض وزراء تلك الدول من الاشتراكيين ما يدل على رغبة فى زيادة التجارة مع دول غرب أوربا .

وفى رأى الكاتب أن ليس ثمة مانع من إيجاد علاقات اقتصادية مع دول غرب أوربا ، مع الاحتفاظ بما لروسيا من رغبة فى ايجاد كتلة اقتصادية شرقية موحدة . فاذا أردنا أن نفحص أغراض روسيا من سياستها فى القريب العاجل ، وأغراضها البعيدة ، فان غرضها البعيد قد يكون احتكار الاقتصاد فى شرق أوربا احتكارا تاماً ، مع عدم السماح بالاتصال بالغرب ، إلا عن طريق وكالة اقتصادية للمنطقة تسيطر عليها روسيا . على أن من أغراض روسيا القريبة ، مع أن أمامها واجبات هائلة لتعمير بلادها مما يضطرها للوصول إلى اتفاقات فى نواح متعددة ، رغبتها على الراجح ، فى التجارة مع الغرب والسماح للآخرين بذلك ، مادام هذا العمل يوطد النظام السوفييتى . فروسيا تريد الأموال من الغرب والتجارة مع الدول الصناعية ، ولكن على الشروط التى تضعها هى ؛ وهذه الاتفاقات التى تربط اقتصاد شرق أوربا بها مما يزيد قوتها فى المساومة . ومع ذلك فان التنظيم الاقتصادى لشرق أوربا يتمشى مع التسلط السياسى لروسيا على تلك البلاد .

لوس انجليز

لعل من أمتع الأوصاف التى قرأناها لمدينة لوس انجليز البلد الشهير فى كاليفورنيا وصفاً دبجه قلم الأديب الانجليزى كرستوفر ايشارووود الذى هجر انجلترا إلى أمريكا فى أول الحرب الأخيرة ونشره فى عدد أكتوبر من « هوريزن » الذى كان مخصصاً لأمريكا والحياة الأمريكية . غير أن هذا الوصف طويل لا نستطيع نقله جميعاً ، وإنما نكتفى بأهم

العبارات التى يمكن أن تساعد على تكوين فكرة عن هذا الوصف البديع .

فهو يقول إنه لكى يرى المرء مدينة لوس انجليز فى أسوأ حالاتها يجب أن يكون ذاهباً إليها فى سيارة كبيرة من النوع الذى يستعمل لسياحة عدد كبير من الناس ، ويفضل أن يكون ذلك فى الصيف ، وفى ليلة السبت ، وهذا ما فعله ايشاروود نفسه . فقد جاء إليها منذ ثمانى سنوات بعد أن قطع الأرض الأمريكية من شرقها إلى غربها ، أى من واشنطون مارا بنيوأورليان وألبازو والبوكيرك وفلاجستاف وأريزونا . وبينما كانت السيارة تقطع الخط الحديدى فى نيدلز ، وهو مكان من أحر الأماكن فى العالم خارج بلاد العرب ، أخذت سيدة من السياح نشوة الوطنية ، فبدأت تغنى «هأنذى آتى إليك يا كاليفورنيا ! » وفى أمريكا يفعل الناس مثل هذا الأمر بلا مبالاة إذا كانوا فى سفر طويل . فتلك البلاد لا تزال محتفظة بالجو الذى كان يصحب العربة المغطاة التى تجرها الخيل . ومع ذلك كان تأثير غناء السيدة مؤلما ؛ إذ كانت تمتد أمام السائحين صحراء صفراء قذرة ترتعد تحت وهج الشمس ، كأنها النار فى فم أحد الأفران ، على حين ترى هنا وهنالك بين الصخور التى على جانب الطريق هياكل سيارات متروكة قد علاها الصدأ ، وهى النوع الحديث الذى يماثل تلك البغال التى كانت تسقط ميتة من الاعياء زمن المستكشفين القدماء ؛ فكانت السيارة الكبيرة تسير فى أرض ليست أرض ميعاد .

ثم يقول إن مدينة لوس انجليز تعتبر فى داخلها من أحقر مدن الولايات المتحدة . فأكثر البنايات على جانبى الشارع الرئيسى فيها قديمة نسبيا ، ولكن القدم لم يكن رفيقاً عليها ، فهى بنايات بادية الحقارة وبادية القدم كأنها شيخ شرير . وتجد الشوارع الأخرى غاصة بالبحارة والمكسيكيين ، ولكن المدينة خالية من البريق الذى يصحب الموانى ، والسحر الذى يوجد فى المدن المكسيكية . وقد لا تمضى خمس وعشرون سنة ، حتى يهدم هذا القسم من المدينة ويعاد بناؤه ؛ فان لوس انجليز مصرة على أن تصير عاصمة كبيرة بأية وسيلة . فهى اليوم مجرد بلدان وقرى مضمومة بعضها إلى بعض ، وتمتد عريضة بيضاء فى الوادى المائل بين الجبل والمحيط الهادى . وقد اعتاد سكانها أن يقطعوا المسافات البعيدة فى سياراتهم

بين العمل والدار وأماكن التسلية. وليس غريباً أن يقطع الواحد منهم ثمانين ميلا فى اليوم . وأكثرهم يملك الواحد منهم سيارة أو يكون له الحق فى استعمال سيارة ؛ وهى ضرورة لا مجرد مسألة كمالية ؛ لأن وسائل النقل بالسيارات الكبيرة غير منتظمة ، فليس هنالك طريقة غير السيارات الخاصة .

ويقول : إنه يوجد فى تلك المدينة عمارات من جميع أنواع الطراز المعروفة فى الأبنية — فمنها ما هو على الطراز المكسيكى ، ومنها ما هو على الطراز الأسبانى ، ومنها الفرنسى والانجليزى القديم والأمريكى فى زمن الاستعمار واليابانى . ويوجد فضلا عن ذلك ما يبعث على الدهشة المباغتة : فتجد منزلا صغيراً كأنه منزل ساحرة تمتد منه أسلاك وخيوط تكاد تتصل بالأرض ؛ وتجد معبداً مصرياً مزيناً بحروف هيروغليفية ؛ وحصنا صغيراً من حصون القرون الوسطى وقد وضعت عليه المدافع تطل من سطوحه . ولعل السينما هى المسئولة عن وجود هذه الأبنية . وبعض الأبنية ليس له من الثبات والحقيقة الا مظهره ؛ حتى ليتوقع المرء أن تأتى عصابة من النجارين ومعها عربة نقل فتنقل حطام البيت بأكمله فى الليل ، فاذا جاء الصباح لم يجد شيئا .

وفى الشمال من هوليوود تجد سلسلة من التلال القفراء ، وتجد فى وسط المدينة أجزاء لم تكد تسكن ، وفيها حفر عميقة ينمو فيها شجر البلوط وأعشاب مختلفة ، وفيها تجد الأفاعى والغزلان والذئب الأمريكى الصغير . وفى المساء أو فى الصباح الباكر تجد هذه الذئاب تسير جملة فى صف واحد كأنها كلاب ، ثم تجدها فجأة قد اختفت بين الأعشاب فى خفة الحيوان المتوحش .

ويقول : إن بلاد كاليفورنيا هى بلاد محزنة مثل فلسطين وجميع البلاد التى هى أراضى ميعاد ؛ فتاريخها القصير كأنه صحيفة حمى يتبين عليها رسم بعدد المهاجرين ؛ فهنالك الهجوم لامتلاك الأرض ، والهجوم للبحث عن الذهب ، والهجوم للبحث عن البترول ، والهجوم من أجل العمل فى السينما ، والهجوم من أجل زراعة فواكه الأوكى ، والهجوم فى زمن الحرب للعمل فى مصانع الطيران . ويتبع ذلك فى كل نوع من هذه الأنواع هجرة مضادة يقوم بها أولئك الذى أصابهم الاخفاق وخيبة الأمل وهم يتحركون فى حزن عائدين إلى موطنهم . لذلك تجد الكثير من

الناس فى وسط أمريكا وفى شرقها يشعرون بمرارة شديدة وحنق على كاليفورنيا بوجه عام، وعلى لوس أنجليز بوجه خاص. فهم يجهرون بالشكوى قائلين إن الحياة فيها لا قلب لها؛ فهى حياة مادية أنانية. ولكن الواقع أن لا حق لهم فى الشكوى؛ فالذين يذهبون إلى المغرب الأقصى من أمريكا تكون لهم غايات متطرفة؛ فهم فى أعماق أنفسهم يريدون أن يجدوا شيئاً من لا شئ، أو يجدوا الكثير دون أن يبذلوا إلا القليل وقد يحدث هذا، ولكن إذا لم يوفقوا فيجب ألا يلوموا إلا أنفسهم. ولنذكر مثلا واضحاً صناعة السينما؛ فهى الآن لا تزال كأنها معسكر لاستخراج الذهب، ولكنها تنظم نفسها فى بطء وصعوبة كى تؤلف هيئة اجتماعية منظمة ومحترمة. ولا شك أن هـذا الأمر عمل عنيف. ولا يزال هنالك أثر لفوضى الأيام الماضية، حين كان كل إنسان يعمل لنفسه والرابح هو الذى يأخذ الثمار. وليس من السهل على الكاتب الذى يكسب ثلاثة آلاف دولار فى الأسبوع أن يتفق مع زميله الذى يكسب مائتين وخمسين دولاراً فقط.

وهو يقول إن الجشع هو أخد القوى التى تهدد أخلاق المهاجرين، أما القوة الأخرى وهى أشد فتكا فتلك هى الرخاوة والفتور. فهنالك فى الصباح الدائم الكسول على ضفاف المحيط الهادى تمضى الأيام فتصير شهوراً وتمضى الشهور فتصير سنين، دون أن تجد إلا أبسط الفرق بين الفصول. إن هنالك أمراً واحداً مركزيا هو سطوع الشمس دائماً. وقد يقضى الانسان حياته بين فترتى تثاؤب وهو متمدد عارى الجسد قد لوحته الشمس على الرمال. فالأشجار تحتفظ بخضرتها، والزهور دائمة النضرة، والفتيات الجميلات والفتيان الأشداء راكبون دائماً على ظهور الأمواج. وليس الفتيان والفتيات، والأزهار والأشجار التى تراها هى دائمة لا تتحول، ولكنك لا تكاد تلحظ تغييرها. فالشيخوخة والموت لا تستديم هنالك كأنما هى غير طبيعية؛ كتلك الغواصات اليابانية التى كانت تجوس خلال الشاطئ فى زمن الحرب وتغرق السفن أحيانا وهى على مرأى من الأرض. ولا حاجة إلى وصف المقابر المترفة التى كأنها حدائق، والتى تدعو الزائر إلى العمل للراحة الكبرى؛ فان ألدس هكسلى قد أبدع فى وصف ذلك فى كتابه: « بعد كل صيف ». على أنه

يحسن أن نذكر بعض الاعلانات التي نجدها هنالك عنها ، فنجد صورة سيدة متقدمة في السن جذّابة وأنيقة (والمفروض أنها ردت إلى الحياة بعد الموت) ، وهي تؤكد للجمهور : « إن مقبرة الغابة هي خير من أي مكان ، وإني أتكلم عن تجربة » .

ولكي يعيش الانسان عيشة سليمة في لوس أنجليز (وأظن ذلك ينطبق على كل مدينة أمريكية كبيرة) يجب أن يتقن الانسان فن استدامة اليقظة . فيجب أن يتعلم (في ثبات وفي غير شدة) مقاومة المقترحات المستمرة التي يريد أن ينيمه بها الراديو والاعلانات والسينما والصحف. تلك الأصوات التي كأنها أصوات الشياطين التي تهمس في أذنه مملية عليه ما يجب أن يرغب فيه ، وما يجب أن يخشاه ، وما يجب أن يلبسه ، وما يجب أن يأكله ، وما يجب أن يتمتع به وما يجب أن يفكر فيه ويعمله ويكونه ؛ فهي تعد لك الحياة — من المهد إلى اللحد ثم إلى ما بعده — وقد يكون من السهل ، ومن السهل جدا ، أن تقبل ذلك . فان حدث أي تراخ في الانتباه ، أو إهمال في التيقظ ، إذا الأجفان تنطبق والعيون تقفل ، والجسد يتحرك طوعا لأوامر المنوم . فاستيقظ ، واستيقظ قبل أن تجد نفسك قد أمضيت عقداً يقيدك سبع سنوات ، أو اشتريت بيتا لا ترغب فيه في الحقيقة ، أو تزوجت من فتاة تحتقرها في نفسك . ولا تمتد يدك إلى زجاجة الويسكي ، فانها لا تساعدك ؛ بل يجب أن تفكر وتميز ، وتستعمل إرادتك الحرة وتزن أمورك . وأكرر القول بأنه يجب أن تفعل ذلك وأنت في هدوء وتعقل . لأنك إذا غضبت على المنومين ، وإذا حطمت الراديو أو مزقت الجريدة إربا إربا ، فانك تكون قد تطرفت إلى الجانب الآخر ، وصرت من أولئك الغريبي الأطوار . وفي هوليوود تجد نوعين من الناس أحدهما على نقيض الآخر : الكاتب السكير الذي يعمل للمحافظة على شهرة اكتسبها منذ عشر سنوات ، والزاهد الذي يعلن عن زهده في شكل مسرحي ، فيمشي في الشوارع الكبيرة ، وقد احتذى نعلا ، ولبس سروالا قصيرا ، وأطلق لحيته كالأنبياء ، وهو يردد اللعنة على عصر الآلات !

ظهر حديثا

قطوف للأستاذ عبد العزيز البشرى (دار الكاتب المصرى)

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخلان ، فيذكرونه كما كانت الخنساء تذكر صخراً أخاها ، وتذوب أنفسهم حسرات كلما ذكروه ، حتى يكاد الحزن ينتهى بهم إلى اليأس ، كما كانت الخنساء تلقى وتشقى كلما ذكرت أخاها صخراً ، وكما صورت الخنساء ذلك أحسن تصوير وأبعده أثراً فى النفوس وأشده وقعاً فى القلوب حين قالت :

يذكرنى طلوع الشمس صخراً
وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى
على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن
أسلى النفس عنه بالتأسى

وصنع الله لأهله الذين يذكرونه حين تطلع الشمس وحين تزول وحين تهوى إلى مغربها ، ولأصدقائه الذين يذكرونه فى تلك الساعات التى كانوا يلقونه فيها ، فى ساعات العمل وجه النهار ، وفى ساعات الفراغ من آخر النهار ، وفى تلك الساعات الحلوة من أول الليل حين يتخفف الناس من أعمال النهار وأثقاله ، وحين يرسلون أنفسهم على سجيتها ، فتفرح وتمرح ، وتعبث وتمزح ، وتخوض فى كل فن من فنون القول ، وتجول فى كل ميدان من ميادين التفكير .

فقد كان عبد العزيز رحمه الله أباً برًّا ، وأخا وفيا ، وصديقا حميما . وكان من أجل هذا كله محببا إلى النفوس ، أثيراً فى القلوب ، عزيزاً على الأهل والأصدقاء جميعا .

والشمس تشرق وتغرب فى كل يوم ، والليل يغمر الكون وينجلى عنه فى كل يوم أيضاً ، وفى اختلاف الليل والنهار وفى تتابع الأيام والأشهر والسنين ما يجلو عن النفوس غمراتها ، ويفرج عن القلوب حسراتها ، ويعزّى الأحياء عن الأموات ، وينسى الأحياء بعضهم بعضا . ولكنى أعتقد أن اختلافَ الليل والنهار ، وتتابع الأيام

والأشهر والسنين ، وتعاقب الأحداث الجسام والخطوب العظام واشتغال الناس بما يسرهم وما يسوءهم من شؤون الحياة — كل ذلك وأكثر من ذلك ليس من شأنه أن يعزى عن عبد العزيز أهله الأقربين وذوى مودته من الأصدقاء والأخلاء . فقد كان عبد العزيز رحمه الله من هذه القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل ، والتى ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب فى طبعه وفى جوهره ومادته ، إن صح هذا التعبير ، بحيث لا يبلو الانسان أقله إلا كلف به أشد الكلف وافتتن به أشد الافتتان ، وأصبح لايستطيع له نسيانا ، ولا يجد عنه سلوا مهما يلم به من الخطوب ، ومهما يختلف عليه من الظروف .

وقد عرفت أنا من هذا الطراز قلة قليلة استأثر الله ببعضها ، وأرجو أن يطيل الله بقاء بعضها الآخر . ومن هذه القلة التى آثرها الله بجواره الكريم ثلاثة نفر كانوا أجلاء فيما بينهم ، وكانوا أصدقاء لكل من عرفهم أو اتصلت به أسبابهم من الناس ، وهؤلاء الثلاثة هم : شاعر النيل حافظ إبراهيم، وكاتب النيل عبدالعزيز البشرى ، وطبيب النيل على إبراهيم . كلهم كان عذب النفس ، حلو الروح ، كريم السجية ، مهذب الطبع ، مترف الذوق ، مرهف الحس ، رقيق الشمائل . وهم من أجل ذلك كانوا متوادّين متحابين ، لا يفترفون إلا ليلتقوا . ولولا أن خطوب الحياة كانت تفرقهم على كره منهم لما آثروا على اجتماع شملهم شيئاً . وكانوا على ذلك أصدقاء للناس جميعاً ، لا يعرفون البغض ولا تطمئن نفوسهم إليه ؛ لأن نفوسهم خلقت من معدن الحب وفطرت على على سجية الاخاء والوفاء وحسن المعاشرة . ولذلك لا أعرف أحداً من الذين عرفوا هؤلاء الثلاثة — وما أكثر من عرفهم ووصل أسبابه بأسبابهم — قد تعلّق على واحد منهم بكلمة مؤذية أو خطة مؤلمة أو عمل يحزن أو يسوء . وإنما نحن نذكرهم جميعا فيمزق الأسى قلوبنا ، وتفرق اللوعة نفوسنا . ولا نكاد نذكرهم مجتمعين أو متفرقين حتى يأخذنا الشجا لفقدهم ، وتبتسم نفوسنا الباكية لما تذكر من أعمالهم وأقوالهم ؛ فهم كانوا ابتساما على ثغر الحياة فى مصر مهما يكن حظ الحياة فى مصر من العبوس والحرج ومن النكر والضيق . وهم كانوا كغيرهم من الناس يحسنون ويسيئون ،

ولكنهم لم يسيئوا تعمدا للاساءة قط ، ولم يسيئوا إلا كانت إساءتهم مهما تقس فى أول أمرها مصدر رضا وغبطة وفكاهة ودعابة بعد وقت يقصر أو يطول .

وكلهم نفع الناس فى حياته كأحسن ما يستطيع الانسان أن ينفع الانسان . وكلهم وجد فى نفع الناس لذة ومتاعا ، ولم يحفل بما جنى الناس عليه ولا بما جرعوه من فنون الألم وضروب الشقاء . كانوا لا يغضبون إلا ليرضوا ، ولا يبتئسون إلا ليبتهجوا ، ولا يعبسون إلا ليبسموا . فطرت نفوسهم على التفاؤل ، أو خلقت نفوسهم من التفاؤل ؛ فلم يعرف التشاؤم إليها سبيلا ، ولم يلق الناس منهم إلا خيرا .

كان حافظ يمتع الناس ويحيى نفوسهم بشعره الرائع . وكان على إبراهيم ينفع الناس ويحيى نفوسهم وأجسامهم بفنه البارع وعلمه الواسع وتفوقه الرفيع . وكان عبد العزيز يسحر قلوب الناس ويستهوى ألبابهم ، ويملك عليهم أمرهم ، وينسيهم صروف الحياة ، ويعزيهم عن آلامها بحضره دون أن يتكلم . فاذا تكلم فقد كان يرق بهم من عالم إلى عالم وينقلهم من حياة الى حياة . فاذا كتب ونشر فقد كان يأخذ عليهم سبل الاعجاب ، ويضطرهم إلى أن يقرءوا ويقرءوا منفردين قد خلوا إليه دون غيره من الناس . فاذا لقى بعضهم بعضا تحدثوا عما قرءوا ثم أعادوا القراءة ، ثم أخذوا يذهبون من الأعجاب بما يقرءون كل مذهب ، يسلكون من هذا الاعجاب سبل الجد وسبل الفكاهة ، وربما شغلوا أنفسهم بذكر عبد العزيز فى مجلسهم كله حتى يتفرقوا ولم يقضوا منه العجب .

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخلان ، فيذكرونه مصبحين ويذكرونه ممسين ، لاينسونه ولا يتعزون عنه ، فليس إلى نسيانه أو إلى التعزى عنه سبيل . وأما هذه الكثرة الكثيرة من المثقفين الذين لم يلقوه ولم يستمتعوا بحضره ، ولم يقولوا له ولم يسمعوا منه ، ولم ينعموا بفكاهته الحلوة ودعابته الرائقة ونادرته الحاضرة ، وإنما سمعوا عنه من بعيد أو قرءوا له بين حين وحين ، فان أمرهم معه كأمرهم مع غيره من الكتاب والشعراء والعلماء ، يستمتعون حين يتاح لهم المتاع ، ويرضون عما استمتعوا به عجلين ، ثم ينصرفون إلى غيره عجلين أيضا ، يطلبون اليهم كثيرا أكثر مما يطيقون ، ولا يعطونهم من أنفسهم إلا قليلا أقل مما يستطيعون .

إن المثقفين جميعا يؤمنون بأن حافظا كان شاعرا فحلا ، وبأن عبد العزيز كان كاتبا ممتازا ، وبأن على إبراهيم كان جراحا متفوقا . قد أقروا ذلك فى أنفسهم ، وسجلوه فى قلوبهم ، وآمنوا به عن علم أو عن غير علم ، ثم لم يزيدوا على ذلك . فكم عدد الذين يطيلون القراءة فيما نظم حافظ ، وما كتب عبد العزيز ، ويطيلون التفكير فيما امتاز به على إبراهيم !

لم يمض ربع قرن على وفاة حافظ ، والناس يعدونه الآن شاعرا من الشعراء البارعين كما يعدون الشعراء القدماء . ولم تمض إلا أعوام قليلة على وفاة عبد العزيز ، والناس يعدونه كاتبا مجيدا كما يعدون غيره من الكتاب القدماء . ولم يدر العام بعد على وفاة على إبراهم والناس يؤمنون له بالتفوق فى الجراحة والطب ثم لا يزيدون على ذلك شيئا .

وقد يكون هذا ملائما لطبيعة الأشياء ؛ فالموت يلغى الزمن بالقياس إلى الموتى . ومن مات مات . وأفهم من هذه الجملة ما تستطيع أن تفهم . مات بالقياس إلى نفسه ، ومات بالقياس إلى أكثر الناس ، وربما مات إلى أشد الناس اتصالا به وقربا منه . مات ولم تبق منه إلا هذه الذكرى التى تظل مضطرمة متأججة فى بعض القلوب حتى تخمد حين تكف هذه القلوب عن الخفقان ، وتظل فى سائر القلوب أشبه شىء بهذه الأسماء التى تكتب على اللافتات ، ينظر الناس إليها أحيانا ، ويمرون بها معرضين عنها فى أكثر الأحيان . لا يتعمدون النظر إليها إلا إن احتاجوا إليها ليستعينوا بها على التماس ما يبتغون من طريق . فالذين يؤرخون الأدب الحديث سيتعمدون تذكر حافظ وعبد العزيز وإطالة التفكير فيهما . والذين يؤرخون الجراحة الحديثة سيتعمدون تذكر على إبراهيم وإطالة الوقوف عنده . وأولئك وهؤلاء سيقفون عند هؤلاء الأشخاص كما يقف المتجول فى مدينة القاهرة عند هذه اللافتة أو تلك ليتبين طريقه إلى الغاية التى يريد أن يصل إليها .

ولست أدرى أخير هذا أم شر ، ولكنى أعلم أنه الحقيقة الواقعة من جهة ، وأكاد أعتقد أنه العقوق ، وأن هذا النوع من العقوق قد ركب فى طبائع الناس ، فهم يسرعون إلى نسيان من أحسن إليهم ، وهم يضيعون على أنفسهم بهذا النسيان منافع كثيرة ومتاعاً عظيما . وآية ذلك أنك تقرأ

الأثر القديم الذى مضت عليه القرون الطوال من آثار الأدباء والعلماء ، فتجد اللذة كل اللذة والنعيم كل النعيم ، وترثى للذين لم يقرءوا هذا الأثر من هذه الأجيال التى لاتحصى ؛ لأنهم لم يقرءوه ولم يستمتعوا به . فالذين لا يقرءون اليوم حافظا ولا عبد العزيز قد دفعوا إلى هذا العقوق الذى ركب فى طبيعة الناس ، فأضاعوا على أنفسهم شيئا كثيرا ، ما أجدرهم ، لو أحسنوا التفكير والتقدير ، أن يستدركوه ولا يفرطوا فيه .

وقد كنت من المفتونين بحديث عبد العزيز حين يتحدث ، ومن المفتونين بآثاره حين يكتب . وقد توسلت إليه حين أزمع نشر « المختار » أن يأذن لى بتقديمه إلى الناس . وشهد الله ما تكلفت ولا تزيدت ، وشهد الله ما جاملت وما صانعت ، وإنما علمت فقلت بعض ما علمت ، ورضيت فقلت أيسر ما يوجبه الرضا .

وإنى لأرانى مع عبد العزيز فى تلك الغرفة التى كان صديقنا على عبد الرازق قد استأجرها فى ربع من ربوع خان الخليلى وكنا نلتقى فيها حين نتفرق عن دروس الفقه وحين يرتفع الضحى لنقرأ بعض كتب الأصول أو بعض كتب البلاغة . وكان عبد العزيز يلهينا بدعابته وفكاهته عن جد البلاغة والأصول . ثم لم يلبث أن ضاق بهذا الجد فانسل منه كما تنسل الشعرة من العجين ، ودون أن يلقى كيدا . وأقمنا نحن على هذا الجد ننفق فيه حياتنا ، ونزعم لأنفسنا أننا كنا نغذو به العقول والقلوب . وإنى لأرانى مع عبد العزيز وعلى عبد الرازق فى هذه الغرفة نفسها بعد أن تصلى العصر ، نقرأ معا كتاب الكامل للمبرد ، نحصل بهذه القراءة الأدب كما كنا نحصل البلاغة والأصول بقراءة الضحى . وكان مزاح عبد العزيز وتندره يصرفاننا عن هذا التحصيل كما كانا يصرفاننا عن ذاك . ثم لم يلبث أن انسل من هذا التحصيل كما تنسل الشعرة من العجين ودون أن يلقى كيدا . ذلك لأنه ، رحمه الله ، كان أقل الناس حباً للاستقرار وميلا إلى الامعان فى طريق واحدة . فطر على حب التنقل ، على حب التنقل المادى والمعنوى جميعاً . فكنت تراه مصبحا فى هذا الحى من أحياء القاهرة فى الأزهر أو قريباً منه ، فاذا صليت الظهر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة ملما بدار الكتب أو قريبا منها فى قهوة من قهوات باب الخلق .

فاذا صليت العصر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة فى قهوة من هذه القهوات التى كان الأدباء يختلفون إليها فى حى الأزبكية . فاذا صليت العشاء الآخرة رأيته فى غير حى من أحياء القاهرة ، تلقاه عند آل عبد الرازق فى عابدين ، وتلقاه عند غيرهم من ذوى المكانة والجاه ، وقد تلقاه فى قهوة من قهوات الناصرية مع جماعة من الأدباء صدرهم حافظ إبراهيم رحمه الله . كل ذلك حين كنا طلاباً قبل أن تشب الحرب العالمية الأولى ، وقبل أن تتغير الدنيا ويتحضر هذا الجيل من أجيال المصريين بعد انقضاء الحرب الأولى وشبوب الثورة الوطنية واشتجار الخلاف بين السعديين والعدليين ، وانتقال مركز النشاط لهذا الجيل إلى مكان آخر من مدينة القاهرة . فكنت ترى عبد العزيز فى ذلك الوقت فى « بار اللواء » أثناء الأصيل ، وفى « الكافيه ريش » حين يقبل الليل ، وفى الأهرام أو غير الأهرام من دور الصحف حين يتقدم الليل . وربما رأيته أثناء النهار أو أثناء الليل عند هذا العظيم أو ذاك من عظماء العدليين .

ثم تتغير الدنيا مرة أخرى ويأتلف المختلفون ويتفق المختصمون فاذا عبد العزيز يغشى مجالس السعديين وأنديتهم كما كان يغشى مجالس العدليين وأنديتهم . ولكنه على كل هذا التنقل وعلى كل هذا الاضطراب بين أحياء القاهرة كان يثبت على مكان واحد يختلف إليه مهما تكن الظروف والأحداث ليلقى فيه على إبراهيم وأصحابه ساعة من ليل .

وفطرت نفسه على حب التنقل المعنوى ، فكان يشارك فى علوم الأزهر طائعاً أو كارهاً . وماذا يصنع وهو ابن شيخ الاسلام وقد سلكه أبوه رحمه الله مع الأزهريين فى نظام واحد وكان يشارك فى أدب القدماء وفى أدب المحدثين وكان يلم بالأدب الأجنبى إلماماً قصيراً من بعيد . وكان يحاول أن يتعلم اللغة الفرنسية ويعرف منها أطرافا ويتندر بها فى حديثه العذب . وكان قد أدمن قراءة « الأغانى » ففصح لسانه إلى أبعد غاية من غايات الفصاحة وآثر فى حديثه جزالة اللفظ ، وأعانه صوته المتين الملىء على التضخيم والتفخيم والترصين . وكان من أروع ما يروعك حين تسمع إليه متحدثا بلغة الجاحظ وأبى الفرج أن تستخفك اللفظة الفرنسية قد انزلقت بين هذا الكلام

العربي الرصين المتين من حيث لا تدرى أنت ولا يدرى هو .

ثم يريد الله أن تعدو العوادى ، وأن تدلهم الخطوب ، وأن نفقد عبد العزيز على غير توقع لفقده ، وإذا نحن نحرم هذا المتاع الغريب النادر الذى كنا نجده حين نتحدث إليه ونستمع له وإذا نحن مضطرون إلى أن نستحضر حديثه بقراءة ما ترك لنا من الآثار ، نقرأ ويخيل إلينا أننا نسمعه يتحدث ، فنجد ذلك مزاجا غريبا من اللذة الأليمة والسرور الحزين .

ثم يتحدث إلىّ أحد أصدقائى ذات يوم بأن لعبد العزيز آثاراً لم تجمع فى كتاب ، نشر بعضها فى المجلات وأذيع بعضها فى « الراديو » وأعد بعضها للنشر أو للاذاعة ، وكان عبد العزيز يهيئها كلها لتجمع فى سفر أو سفرين ، فأعجله الموت عن ذلك . فلا أكاد أسمع هذا النبأ حتى ألح على صديقى فى أن يصل الأسباب بينى وبين هذه القطوف ، فيتاح لى ذلك . فلا أقرأ ولا أستقصى ، وإنما أزمع نشر هذه الفصول وفاء بما لهذا الأديب العظيم من حق ، ورعاية لما لهذا الصديق الكريم من حرمة .

لا أقرأ ولا أستقصى إجلالا لآثار عبد العزيز أن تقرأ أو تستقصى قبل أن تقدم إلى المطبعة ؛ فقد كان راضيا عنها ، وهذا يكفى . تطبع هذه القطوف وترسل إلىّ فى فرنسا ، فأخلو إليها فى هذه القرية النائية من قرى الجبل أياما ، فلا أشك فى أنى لم أخطىء حين وثقت برأى عبد العزيز فى قطوفه ؛ فهى الأدب كل الأدب ، وهى الفن كل الفن ، وهى الكلام الذى يجمع إلى رصانة الأدب القديم وجزالته خصب الأدب الحديث وثروته . وهى على ذلك كله إذا ضمت إلى ما جمع من آثار عبد العزيز صورة فذة لا نظير لها فى الأدب المعاصر . فهى فصل مستقل من تاريخنا الأدبى يصوّر لوناً من ألوان هذا التاريخ لا نجده عند كاتب آخر من كتابنا المعاصرين ، لا أكاد أستثنى منهم إلا صديقنا المازنى .

فعبد العزيز أشد كتابنا المعاصرين عكوفا على حياتنا المصرية ، وعلى حياة القاهرة خاصة ، وعلى حياة الطبقة الوسطى من أهل القاهرة بنوع أخص . وهو أشد كتابنا نفوذاً إلى دقائق هذه الحياة وسرائرها ، وأشدهم تمثلا لخلاصتها ، قد خالطت نفسه ، ومازجت دمه ، وانطلقت على لسانه حين كان يتحدث ، وجرت مع

قلمه حين كان يكتب . فهى أصدق مرآة وأصفاها للحياة المصرية فى عصر الانتقال . وقد كان عبد العزيز رحمه الله يحب أن يصور المعاصرين ويجلو صورهم فى فصول رائعة كانت تنشر بعنوان «فى المرآة» ثم جمعت بعد ذلك فى سفر أرجو ألا يكون قد انقطع من أيدى الناس .

فاقرأ «قطوفه» هذه ، فسترى فى كل فصل من فصولها مرآة مصقولة صافية صادقة أدق الصدق ، لاتعكس صورة فرد من الأفراد ، وإنما تعكس صورة بيئة من البيئات ، أو جماعة من الجماعات ، أو لون من ألوان التفكير المصرى ، أو فن من فنون السيرة المصرية فى هذا الطور أو ذاك من أطوار الحياة . فاذا فرغت من قراءة هذه «القطوف» فقد استقرت فى نفسك صورة كاملة شاملة دقيقة لحياة مصرية ذهب أكثرها وبقى أقلها ، ولحياة مصرية جديدة ناشئة لم يتم تكوينها بعد ، ولكن عبد العزيز سبق بذكائه النافذ وملاحظته الدقيقة إلى التنبؤ بحقائقها وبما سيختلف عليها من الأطوار .

وكنت أقدر أن رعاية حرمة الأدب والوفاء بحق الصديق هما اللذان قد دفعانى إلى نشر هذا السفر ، فاذا أنا أقرأ ثم لا أشك فى أنى قد أهديت بنشره طرفة من أقوم الطرف وأشدها إمتاعا إلى المثقفين من قراء العربية عامة وإلى الشباب منهم خاصة . فما أعرف أن كاتباً من الكتاب المعاصرين أتيح له من التوفيق مثل ما أتيح لعبد العزيز فى هذه الفصول التى تسجل من من حياتنا ما كاد يضيع ، وتسجله فى أروع لفظ وأبرعه وأجزله وأمثله ، وما أشك فى أن كثيراً من هذه القطوف لو ترجم إلى بعض اللغات الأوربية لفتن به كثير من أهل الغرب فتونا .

ولو علمت أنى أستطيع أن أشير على وزارة المعارف فتسمع منى وتقبل مشورتى لأشرت عليها فى أن تجعل كتب عبد العزيز البشرى ، وهذا الكتاب منها خاصة ، بين الكتب التى تدرس فى المدارس الثانوية ؛ فما أعرف أقدر منه على تحبيب الأدب العربى إلى الشباب وتزيينه فى قلوبهم ، وإقناعهم بأن لغتنا الفصيحة القديمة تستطيع أن تؤدى من المعانى والأغراض ما تقتضيه الحياة الحديثة دون أن يمسها من ذلك نصب أو لغوب .

رحم الله عبد العزيز ، وهيأ

للأدب العربي من يقوم مقامه . ولولا الثقة بالله لقلت كما قال الحجاف في العصر القديم : « وما أراه يفعل » . ولكن قدرة الله وسعت كل شيء ، ورحمته وسعت كل إنسان ؛ فليعوض الله من عبد العزيز خيراً ، وليسبغ الله على عبد العزيز رحمة ونعمة وثوابا .

كتاب السياسة لأرسطاطاليس ترجمة الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد باشا
(لجنة التأليف والترجمة والنشر)

أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد باشا ، داعية أرسطاطاليس في الشرق الحديث ، كما قال صديقنا الدكتور محمد كامل حسين بك. ولكنه داعية الفلسفة بوجه عام ، والفلسفة السياسية خاصة قبل أن يكون داعية لأرسطاطاليس . عرفنا ذلك منذ عرفناه في أوائل هذا القرن حين كنا نختلف إليه مع أترابنا في الجريدة ، فنسمع منه أحاديث كانت تقع من نفوسنا أغرب المواقع وأشدها إثارة لحب الاستطلاع . فقد كنا نسمع منه أسماء غريبة لم يكن المعممون يسمعونها في الأزهر ، ولم يكن المطربشون يسمعونها في مدارسهم الثانوية والعالية . كنا نسمع أسماء مونتسكيو وفولتير ، وجان جاك روسو ، وديدرو ، وإيمانويل كانت ، وأوجوست كونت ، وستيوارت مل ، وجول سيمون ، وسبنسر . وربما سمعنا منه أسماء ديكارت ، وليبنتز ، ومالبرانش ، وسبينوزا . وكانت هذه الأسماء تثير في نفوسنا عجبا وإعجاباً في وقت واحد . كانت تثير العجب لوجود طوائف من العلماء والفلاسفة لم يكن يخطر لنا وجودهم على بال ، ولوجود ألوان من العلم والفلسفة لم نكن نقدر أن وجودها شيء ممكن أو معقول . فقد كنا نحسب أن العلم كله في الأزهر أو أن العلم كله في المدارس المدنية ، فاذا هذا الرجل الساحر يظهر لنا أن الأزهر والمدارس والمعاهد العالية لم تكن تعلمنا من العلم إلا أقله وأيسره ، ويفتح لنا آفاقا ما كنا نقدر أنها ستفتح لنا في يوم من الأيام .

وقد أحس إقبالنا على هذه الألوان من المعرفة ، وعجزنا عن أن

نبلغ حاجاتنا منها؛ فأزمع أن يعلمنا من ذلك ما لم نكن نتعلم فى الأزهر والمدارس، وسلك إلى تعليمنا طريقين: إحداهما طريق الأحاديث والحوار، كما كان سقراط يعلم شباب الآتينيين، والمحاضرات المنظمة التى كان يلقيها هو أو يلقيها بعض أصحابه من الكبار حين يقبل المساء، فى موضوعات بعينها تمس فلسفة السياسة ونظم الحكم. والطريق الأخرى هى الطريق الحديثة التى يسلكها العلماء المعاصرون إلى تثقيف الشباب وتمرينهم. فقد كان يتخير الذين يحسنون اللغة الفرنسية أو الانجليزية، ويعطيهم بعض الكتب اليسيرة ويكلفهم أن يحاولوا ترجمتها وأن يظهروه على نتائج هذه المحاولة بين حين وحين. بحيث كانت الجريدة فى أول النهار وفى أول الليل إرهاصا بالجامعة قبل أن تنشأ الجامعة، وبكلية الآداب قبل أن توجد كلية الآداب.

وكان أحمد لطفى السيد قد اتصل منذ شبابه الأول بالأستاذين الاماميين جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده. واتصل كذلك بآخرين من شيوخ الأزهر المتازين، فدفعه هذا الاتصال إلى أن يعنى بالفلسفة الاسلامية، ويقرأ المنطق والكلام، وما بعد الطبيعة، ويتحدث إلى الأزهريين بلغة الأزهر، وإلى المثقفين المدنيين بلغة الثقافة المدنية. ولعل الذين يحققون تاريخ الأدب العربى فى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن، ينتهون إلى أن لطفى السيد هو الذى وفق للملاءمة الرائعة بين لغتى هاتين الثقافتين. فقد كنا نحن الأزهريين نكاد نطير فرحاً حين كنا نسمع منه ألفاظ الجنس والفصل والخاصة والقول الشارح، والجوهر، والعرض، والمقولات، نجد فى ذلك شيئاً من الأنس إلى هذا المطربش المترف لم نكن نجده عند غيره من المطربشين المترفين. كنا نأنس إليه حين يحدثنا بلغتنا ونعجب به حين يحدثنا بلغة الثقافة الأوربية. وكان أترابنا من شباب المدارس يأنسون إليه حين يحدثهم بلغة الثقافة الحديثة، ويعجبون به حين يحدثهم بلغة الأزهر، وكنا نلتقى جميعاً فى الاعجاب به والأنس إليه.

وقد كنا نحن الأزهريين نعرف اسم أرسطاطاليس لكثرة ما كنا نسمعه فى دروس المنطق والفلسفة والتوحيد. ولكنا لم نكن نعرف من أرسطاطاليس إلا أنه فيلسوف يونانى يحسن الكلام عن الهيولى والصورة، وعن الجوهر والعرض، وعن الموجود والمعلوم، وعن الحد والرسم والقياس.

وإذا لطفى السيد يظهرنا على أن أرسطاليس هذا يحسن أشياء أخرى كنا نفتن بها فى ذلك الوقت أشد الفتنة ، وهى الأخلاق والسياسة . وقد فتنتنا سياسة أرسطاليس فتنة لم نجد مثلها بالقياس إلى الأخلاق . فقد كنا نسمع حديث الأخلاق فى الأزهر ، وكان المتازون منا يقرءون كتاب ابن مسكويه ، فأما السياسة فشئ لم نفكر فيه ولم يخطر لنا على بال ، بل كنا إذا سمعنا لفظ السياسة تصورنا معنى غامضا من هذه المعانى الغامضة التى كان العلم بها مقصورا على فريق قليل جدا من الخاصة بل من خاصة الخاصة .

ولم يكن شئ يخلب ألبابنا كما كانت تخلبها ألفاظ الديمقراطية والأرستقراطية والايلوجاركية ؛ فقد كانت هذه الألفاظ تقع من آذاننا مواقع شاذة غريبة ، وتنزل من نفوسنا منازل الشغف والحب ، وكنا نجد شيئا من الصعوبة فى النطق بها على وجهها ، وكثيرا من العذوبة فى النطق بها مصححة أو محرفة . وكنا ربما تشدقنا بهذه الألفاظ فى بيئاتنا الأزهرية الخاصة ، لنظهر لزملائنا أنا نحسن من العلم ما لم يعلموا ، ونلقى من لا يتاح لهم لقاؤهم من الناس . وكنا على ذلك نكلف أشد الكلف بأن نعلم علم أرسطاليس هذا وأصحابه الذين كنا نسمع أسماءهم فى الجريدة من الفرنسيين والانجليز والألمان . ثم تمضى الأيام ، ويتفرق هؤلاء الشبات عن أستاذهم ، وتختلف بهم مذاهب الحياة متباعدة حينا ومتقاربة أحيانا ، حتى إذا انجابت غمرة الحرب العالمية الأولى ، عاد كثير من هؤلاء الشباب إلى لقاء أستاذهم فاستمعوا له وتحدثوا إليه ، وإذا هو لم ينس أرطاليس ولم يعرض عنه ، وإنما ازداد به كلفا وله معاشرة وعليه عكوفا . فهو لا يكتفى بالتحدث عن أرسطاليس إلى أصحابه وتلاميذه ، وإنما هو يعكف على ترجمة أرسطاليس يترجمه لنفسه أولا ؛ فهو يجد اللذة كل اللذة فى الخلوة إلى هذا الفيلسوف العظيم . ويترجمه للمثقفين ثانياً ؛ فهو أبعد الناس عن الأثرة وأشدهم ترفعاً عن اختصاص نفسه بما يمتع القلوب والعقول . وهو مؤمن بعد ذلك بأن النهضة العربية الحديثة لن تستقيم لها الطريق ولن تبلغ غايتها إلا إذا اعتمدت على نفس الأسس التى اعتمدت عليها النهضة العربية القديمة ، وهى الثقافات الأجنبية التى يسيغها المثقفون إلى ما أساغوا من التراث العربى الخالص ،

ويصنعون منها ومن هذا التراث مزاجا معتدلا يغذون به الأجيال التى تأتى بعدهم من الناس. وإلا إذا قامت على نفس الأسس التى قامت عليها النهضة الأوربية الحديثة، وهى الرجوع بحياة العقل إلى أصولها الأولى، ووصل ما انقطع من الأسباب بين التفكير الحديث والتفكير القديم. وهو مؤمن بعد هذا وذاك بأن للغة العربية على أبنائها حقوقاً يجب أن تؤدى، وحرمات يجب أن ترعى. وأهم هذه الحقوق والحرمات أن تغنى هذه اللغة بعد فقر، وتخصب بعد جدب، وترقى بعد انحطاط. وسبيل ذلك أن تعى كل ما وعته اللغات الراقية الكبرى من ضروب العلم والأدب والفلسفة، بحيث لا يقع شئ من ذلك موقع الغرابة والشذوذ من الذين يحسنون هذه اللغة ولا يحسنون غيرها من اللغات. وكان يحدثنا بأن من الاسراف الشديد على الناس أن نكلفهم جميعاً درس اللغات الأجنبية والتصرف فيها قديمها وحديثها، ليظهروا على ما أنشئ فيها من الآثار، وأن من الظلم الشديد للناس ألا تيسر لهم وسائل العلم بما تنتجه العقول على اختلاف العصور من ضروب المعرفة وفنون الثقافة. وكان يحدثنا بأن القدماء من المسلمين قد فطنوا لهذا كله، فأدوا إلى اللغة حقها وأدوا إلى أصحاب اللغة حقوقهم، ونقلوا من ثقافات العالم القديم ما استطاعوا أن ينقلوا؛ فما ينبغى للمحدثين أن يقصروا فيما لم يقصر فيه القدماء. وكان يتقدم إلينا فى أن يترجم كل منا ما يستطيع ترجمته من اللغة الأجنبية التى يحسنها إلى اللغة العربية، ثم يقول فى تواضع مبتسم: أما أنا فموكل بسيدنا أرسطاطاليس.

وأحمد لطفى السيد باشا رجل وفى لسيدنا أرسطاطاليس هذا، لم تشغله عنه الشواغل مهما تكن ومهما تختلف: صحبه فى باريس حين أقام مع الوفد فى باريس، واستراح إليه بعد عودته إلى القاهرة من لغط الحياة السياسية ومن خطوب المناصب العامة التى وليها. لم تصرفه عن أرسطاطاليس إدارة دار الكتب المصرية ولا إدارة الجامعة ولا الوزارات المختلفة التى نهض بأعبائها ولا عضويته لمجلس الشيوخ ولا رياسته لمجمع فؤاد الأول للغة العربية. وإنما كان يستريح من هذه الأعباء كلها إلى أرسطاطاليس وربما استعان على هذه الأعباء كلها بأرسطاطاليس. وهو من أجل ذلك قد أخرج من كتب أرسطاطاليس

أجلها خطراً وأعظمها شأناً وأبقاها أثراً : أخرج الأخلاق ، والطبيعة والكون والفساد ، وهو الآن يخرج السياسة . ومن يدرى ما الذى يحاول أن يخرج بعد أن فرغ من ترجمة السياسة ؟ وقد رأيته فى الصيف الماضى يحاول أن يؤلف من حوله جماعة من شباب الفلاسفة المصريين ليعيد معهم النظر فيما ترجم المسلمون القدماء من منطق أرسطاطاليس .

وأحمد لطفى باشا يعلم —ولا يخفى— أن أقْوَمَ الترجمة ما نقل عن الأصل مباشرة . ولكنه يعلم أن العرب قد نقلت لهم آثار اليونان من طريق السريانية لقلة الذين كانوا يحسنون اليونانية أيام العباسيين ، وأن الذين كانوا يحسنون اليونانية حين بدأ هو بترجمة أرسطاطاليس كانوا لا يوجدون إلا فى الوهم والأمل . فلم يكن من الممكن ولا من المعقول أن ينتظر بترجمة أرسطاطاليس حتى يوجد الشباب الذين يحسنون اليونانية ويحاولون الترجمة منها مباشرة . وهو يرى أن شيئاً خير من لا شئ ، وأن ما وسع المسلمين فى العصر العباسى ، والأوربيين فى القرون الوسطى ، يمكن أن يسع الشرقيين المحدثين فى هذه الأيام . وقد أنفق لطفى باشا جهوداً عظيمة موفقة ، يحفظها له التاريخ الجامعى المصرى ، فى إعداد جيل من الشباب يحسنون من اليونانية واللاتينية ما لم يحسن القدماء . وهو يرى الآن هؤلاء الشباب يستقبلون نشاطهم الخصب ، فيشعره ذلك رضا واغتباطا ، ولكنه لا يمنعه من المضى فيما استأنف من ترجمة أرسطاطاليس على النحو الذى ألفه . وما أشك فى أنه سيكون أشد الناس تشجيعاً لمن يريد من الشباب أن يترجم كتب أرسطاطاليس هذه من اليونانية ترجمة مباشرة . والشئ المحقق هو أن هذه الكتب التى ترجمها ، وهى من أقوم الآثار التى تركها أرسطاطاليس إن لم تكن أقومها . قد أصبحت الآن بفضل لطفى باشا ، قريبة المتناول من الذين يستطيعون أن يقرءوها فى أصلها اليونانى أو فى تراجمها إلى اللغات الأوربية الحديثة . والشئ المحقق أيضاً ، هو أن أستاذنا لطفى باشا السيد ، وأستاذنا عبد العزيز باشا فهمى ، يعلّمانِنا ويعلمان الأجيال الناشئة من الشباب كيف يكون الاخلاص فى ذات الثقافة ، والنهوض بأعباء المعرفة ، والتوفر على ما ينفع الناس ، فى غير ضجيج ولا عجيج ولا إعلان ، بل فى غير شعور بأنهما يتكلفان جهداً عنيفاً

لم يتعود أمثالها أن يتكلفوه .

وما أحب أن أسوء أحداً ، وما أحب أن أغيظ أحداً ، وما أحب أن أسر هذين الأستاذين الجليلين ، وإنما أحب أن أقول الحق ؛ لأن الحق يجب أن يقال مهما تكن الظروف . والحق الذى أريد أن أقوله هو أن لهذين الأستاذين العظيمين مكانة ممتازة بين أمثالها من أصحاب المكانة الرفيعة فى مصر ، هؤلاء الذين يعنون بالسياسة والمال والاقتصاد ، ويستريحون من هذا كله إلى الفراغ ولهو الحديث ، والاكتفاء بأنهم أصحاب التفوق فى السياسة والمال والاقتصاد ، ثم يتركون هذه الدنيا بعد أعمار أرجو أن يمد الله فيها ، فيذكر الناس أنهم كانوا من أصحاب السياسة والمال والاقتصاد ، ثم لا يزيدون على ذلك شيئاً .

أما هذان الأستاذان الجليلان ، فقد شاركا أمثالها فيما يضطربون فيه من شؤون الحياة العامة ، ولكن أحدهما يفرغ لترجمة أرسطاطاليس ، والآخر يفرغ لترجمة جوستينيان .

ولله الأعشى حين قال :

شتان ما يومى على كورها
ويوم حيان أخي جابر

وكتاب السياسة لأرسطاطاليس ليس فى حاجة الآن إلى أن نفصل القول فيه أو نجمله ؛ فقد تغيرت حياة الناس منذ أول هذا القرن ، وعرف المثقفون ما لم نكن نعرف فى ذلك الوقت ، فاصبحوا فى غير حاجة إلى أن نعلمهم معنى السياسة كما يتصورها الفلاسفة ، ولا أن ننبئهم بأن أرسطاطاليس قد وضع فى علم السياسة وفلسفتها كتاباً خالداً فتح للانسانية آفاقا ومهد لها طرقاً ما زالت تسعى فيها الآن ، وأن هذا الكتاب قد بلغ من العمر أربعة وعشرين قرنا ، ولكنه على ذلك مازال شابًّا مكتمل الشباب ، لا يقبل عالم أو فيلسوف أو مؤرخ على السياسة أو على علم الاجتماع إلا بدأ بالخلوة إليه والنظر فيه .

وكل هذه حقائق كنا نحن نجهلها فى أول الشباب ، وأصبحت بفضل لطفى السيد باشا من الأوليات التى يعرفها المثقفون من الجامعيين وغير الجامعيين. فلست فى حاجة اذن إلى أن أجمل القول فى كتاب السياسة أو أفصله ، ولا إلى أن أبين الصلة بين كتاب السياسة وما سبق اليونان إليه فى حياتهم العاملة والمفكرة قبل أرسطاطاليس ، ولا أن أبين تأثير كتاب السياسة فيما كتب الفلاسفة والعلماء والمؤرخون وأصحاب الاجتماع إلى الآن بعد أرسطاطاليس

لست فى حاجة إلى شئ من ذلك ، و إنما أنا فى حاجة أى حاجة إلى أن أنبه الشباب من المثقفين إلى هذه القدوة الصالحة التى يقدمها هذان الأستاذان العظيمان . وفى حاجة أى حاجة إلى أن ألح على الشباب فى أن يقرءوا ترجمة لطفى السيد باشا لأرسطاطاليس ، وترجمة عبد العزيز فهمى باشا لجوستينيان . وفى حاجة أى حاجة إلى أن ألح على وزارة المعارف فى أن تأخذ أساتذتها وطلابها بالنظر فى هذه التراجم ، وفى أن تأخذ أساتذتها خاصة بتعليم طلابهم كيف ينظرون فى هذه التراجم ، وكيف يوازنون بينها وبين أصولها ، وكيف يتأسون بهذين الأستاذين العظيمين من أساتذة هذا الجيل ، وكيف يعرفون لهما حقهما على الشباب وفضلهما على الثقافة ، وكيف يكونون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و يرون المثل الصالحة فيجدون التأثر والاقتداء .

طه حسين

في مجلات الشرق

من تونس

الثريا العدد ١٢ (ديسمبر ١٩٤٦)

يتحدث الأستاذ عثمان الكعاك عن « عصر الموسوعات » في الحضارة التونسية ، فبعد أن يتحدث عن الموسوعة ما هي ، ويضرب لها الأمثلة مما يعرف قراؤه ، كمفاتيح العلوم للخوارزمي ، ونهاية الأرب للنويري — يخلص للحديث عما يسميه عصر الموسوعات في تونس ، ويعني به القرنين السابع والثامن بعد الهجرة ؛ « لأنهما القرنان اللذان ألف فيهما التونسيون الموسوعات الجليلة ، ودوائر المعارف الفخمة ، والمعالم المعتبرة » ويشبههما بالقرن الثامن عشر الميلادي عند الفرنسيين .

ثم يقسم العلوم التي ألف فيها التونسيون الموسوعات في ذلك العصر بصفة عامة — أربعة أقسام :

١ — العلوم الدينية ، ويمثلها « إكمال العلم لفوائد كتاب مسلم » تأليف الامام أبي عبد الله محمد الأبي التونسي . وهو شرح على صحيح مسلم ، ويعده الكاتب بما اجتمع فيه من الفوائد ، دائرة معارف في الحديث .

٢ — العلوم اللسانية ، ويمثلها « لسان العرب » تأليف جمال الدين ابن منظور « القفصي » ويراه بما جمع من الشواهد والآيات والأحاديث والأشعار ، أكبر دائرة معارف لغوية عند العرب ، بل في العالم .

٣ — العلوم الأدبية والتاريخية ، وقد عني بها في هذا العصر — على الأقل — ثلاثة رجال من التونسيين ، هم : محمد بن الأبار ، ونور الدين بن سعيد المغربي ، وابن خلدون . أما أولها فله مما يعد من الموسوعات :

(ا) الحلة السيراء ، وفيه تراجم الشعراء من أعيان الأندلس والمغرب من المائة الأولى للهجرة إلى إلى المائة السابعة ، وقد نشرت

منتخبات من هذه الموسوعة بعنـاية المستشرق الهولاندى دوزى بليـدن فى سنة ١٨٤٧ .

(ب) كتاب التكملة فى تاريخ أئمة الأندلس ، ويعتبر من أمهات كتب التاريخ الأندلسى .

(جـ) المعجم ، وهو موسوعة فى التراجم ذات أهمية .

وأما ثانيهم ، فلـه موسوعتان كبيرتان فى تاريخ المغرب ، هما :

(ا) المغرب فى حلى المغرب ، فى خمسة عشر مجلدا .

(ب) المشرق فى حلى المشرق ، وقد ذكر القالى أنه (كان) فى ستين مجلدا.

وأما ثالثهم عبد الرحمن بن خلدون فلم يكن مؤرخا وحسب ، بل كان واضع علم الاجتماع وعلم النقد التاريخى وعلم الاقتصـاد السيـاسى وعلم الاحصائيات حسبما يتضح ذلك من دراسة « المقدمة » .

من لبنان

الأديب العدد الحادى عشر (نوفمبر ١٩٤٧)

يتحدث الأديب قدرى قلعجي عن « حقوق المثقفين » فيقول :

« منذ سنوات عدة نتحدث عن واجبات المثقفين العرب ، وأحسب أنه قد أزف الوقت لأن نتحدث عن حقوق المثقفين العرب أيضا . فلئن كان التنبيه إلى واجباتهم ضروريا لأن الطابع الذى كان يميزهم هو طابع الانعزال عن مشاكل المجتمع العـربى ، فان التنبيه إلى حقوقهم لا يقل عن ذلك ضرورة فى بلاد لا يتمتع الفـكر فيها بالاحترام الذى ينبغى له ، وقد خضعت حرية العمل الفكرى عـلى صعيدها لنير الحكام المستبدين زمنـا طويـلا . . . وظلت يد السياسة الرعناء منـذ عهد هولاكو إلى عهد عبـد الحميد إلى عهدنا هذا ، تحطم دائما أجنحة الثقافة وتقعد بهـا عن التحليق إلى الذرى التي تطمح إليها ، حتى اضطر أكثر المفكرين إلى التماس الحرية فى المهاجر ، وبقى الآخرون يجاهدون عـلى أرض الوطن أو يدفنوا مواهبهم فى ترابه ...

« إن شدة توكيدنا على واجبات المثقفين قد أوهمت بعض السياسيين

أن رجال الفكر يجب أن يكونوا مجرد دواليب عمياء فى عجلة المتزعمين من رجال السياسة . وقد بلغ من استهانة هؤلاء بقيمة الفكر — وهو أجمل ما أنجبه التطور البشرى وأنبل ما تعتز به أمة على أمة — أن الرجل منهم لم يعد يهمه إلا أن يحشر حوله جمهوراً من الأنصار يصفق له ، وقل بينهم من يحيط نفسه بالمفكرين الصادقين الذين يساعدونه على السير سيرة هادية مهدية . . . »

وبعد أن يصف الكاتب بعض ما يلقاه المفكرون الأحرار من عنت السياسيين والحكام ، يقول :

« فى هذه الأيام ، التى يطل فيها على بلادنا فجر حياة حرة جديدة ، يأتى دور المفكرين العرب الواعين المستنيرين فى الطليعة . إن التاريخ هو الذى يدعوهم إلى هذا المكان كى يحتلوه بجدارة وحق ؛ إذ عليهم فى الدرجة الأولى يتوقف نهوض أمتنا إلى المصاف التى تطمح إليها . وإن جماهير الشعب المتيقظة هى التى ينبغى لها أن تسهم بالقسط الأوفر لبلوغ المفكرين ذلك المكان الخليق بهم . فهل لهذه الجماهير أن تعرف للمفكرين حقوقهم حتى يستطيعوا أداء واجباتهم على أحسن وجه ؟ »

العروبة الجزء الثامن (أكتوبر ١٩٤٧)

يتحدث الشاعر النائب أمين نخلة عن جديد الشعر وقديمه فى مقال عنوانه « فى تعريف الشعر » فيقول :

« لا دخل للزمن فى قضية الشعر ، ففى الشعر لا جديد ولا قديم ، المدار على الاجادة ، وما عداها عبث لا طائل تحته ! نعم لا ينكر تأثير الارتقاء ، واتساع الاختراع ، وانفساح المعارف ، وإتقان الآلات والأدوات ؛ ولكن ذلك يمس أصباغ الشعر المتحولة ولا يفضى إلى حقائقه ، لعلاقة الأولى بعصر دون عصر ، وسلالة دون سلالة ؛ وعلاقة الأخرى بالعصور جميعاً وبالبشر قاطبة . أضف أن الشعر مرآة الحياة كما قد قيل ، وهذه الحياة الدنيا لا تتحول حقائقها بمقدم قادم عليها وذهاب ذاهب عنها ؛ ولا بأحوال وأفعال أخرى مما يعرض ألفة الناس وتقلبهم ، فيكون شرط الجودة بالشعر بشريا عاما لا عصريا خاصا ، ويكون تأثير الترقيات الاجتماعية فى الصبغ الزائل لا فى الجوهر الباقى » .

الطريق الجزء العاشر (أكتوبر ١٩٤٧)

يتحدث المحرر عن الشعب الأوزبكي في ظل النظام الاشتراكي ، فيقول :

« برز في صفوف الشعب الأوزبكي عدد من مشاهير الأدباء والعلماء ، أمثال الخوارزمي الذي وضع أول قاعدة للجبر في القرن التاسع ، وابن سينا الطبيب والفيلسوف الشهير في القرن الحادي عشر ، وأولوغ بك الشاعر الكبير ومنشئ الأدب الأوزبكي . ولقد حرم هذا الشعب النشيط ، في الماضي ، من حقه في إقامة دولة قومية ، لكن النظام الاشتراكي فتح أمام الأوزبكيين آفاقا جديدة . . . »

وبعد أن يصف المحرر ما بلغه الشعب الأوزبكي من الرقي في الزراعة والصناعة ، وما يبذل من جهد حر لزيادة اقتصاده القومي ، يقول :

إن نسبة المتعلمين في البلاد قبل الثورة الاشتراكية لم تكن تزيد على ثلاثة في المائة ، ولم يكن فيها مدرسة عالية واحدة ، أما اليوم فليس في أوزبكستان أمي واحد ، وقد طبق فيها نظام التعليم الاجباري المجاني ، وفيها اليوم ٣٧ مدرسة عالية ، و٦٧ مدرسة صناعية ثانوية تضم ٤٥ ألف طالب !

من العراق

البيان الجزء ٢٩–٣٠ (نوفمبر ١٩٤٧)

مقال للأستاذ صدر الدين أحمد بعنوان « إسفنج وصخر » يوازن فيه بين ما ينتجه أدباء مصر وسورية على الجملة ، وما ينتجه أدباء النجف — العراق ، فيقول :

« كل شئ في ملكوت السماء والأرض يستهوي قلوب الأدباء إلى التأمل والاعجاب . . . إلى التصوف والزكانة . . . إلى التفاؤل والطرب . . . وإلى ما أدري وما لا أدري من المعاني السافرة على الأفق المشرق . . . على الروض الشادي . . . على القفر الصامت . . . على البحر المتاوج الأعطاف . ولكن أين أدباؤنا من

مطالعة هذه الروائع الفاتنة البهيجة الألوان ؟ أفلا يملكون لها عيونا تقبس ، وقلوباً تخفق ومدارك تعى وتترجم ؟

« ومشاكل الناس الاجتماعية من يعالجها ؟ وظلاماتهم الاقتصادية من يناجزها ؟ وأمانيهم القومية من يجلوها ويصورها ويعلنها ؟ فياما أتعس الأمة إذا شقيت بتقاعس أدبائها عن نصرها وتعضيدها على كل حال !

ليست المواهب الأدبية فى النجف بأقل من مثيلاتها فى سورية ومصر ، ولا هى قاصرة عنها فى معاناة شتى أساليب التفنن والابتكار والتنافس والتعاون والتصادم والتعاطف والنقد والتقريظ ، ولكنها فى الواقع أصبحت كالاسفنج ، تمتص وتستوعب وتستزيد ، وكالصخر تبخل وتنشح فلا تهيئ صعيداً ممرعاً لفيضان الانتاج ، وتهذيب الأذواق ، وإيقاظ الحماس ، وتلميع الأخيلة والعواطف والطباع . وهل يغيب عن أى المتبصرين ما كان للأدب الوطنى من أثر فى استقلال سورية عن باريس ، ونهضة مصر إلى الاستقلال عن لندن ؟

« أنا لا أنفى نفيا ، أن فى النجف أدبا مهيضا يرفرف لمناسبات تقليدية فى مآتم الأموات ومحافل الأعراس والترحيب ، وإنما الذى يحز فى حشاشة نفسى ألا يتطور هذا الكائن من الأدب فيشارك العصر الحديث فى أحاسيسه ، ويصاهره فى منازعه وأهدافه ومراميه . فاعملوا — يا أدباءنا — فسيرى الله عملكم ويشكره لكم أضعاف ما سوف يشكره لكم أبناؤكم جيلا إثر جيل . »

* **الجزيرة** الجزء التاسع عشر (نوفمبر ١٩٤٧)

مقال للأديب فؤاد الونداوى بعنوان « خواطر يثيرها أديب » يتحدث فيه عن وجهة الأدب ، من حيث هو فن فى ذاته ليس يقصد منه إلا اللذة العقلية ، ومن حيث هو وسيلة لخدمة الحقيقة والمثل الأخلاقية ؛ فيجعل الأدب نوعين : الأدب الجيد ، والأدب العظيم . فالأول يتوخى الجمال أو يتوخى اللذة العقلية وحسب ؛ والآخر يتوخى فوق الجمال واللذة ، إشاعة السعادة بين أفراد البشر ، وإنماء العطف المتبادل بين الناس ، وتمثيل الحقيقة التى تتصل بنفوسنا وتتعلق بصلاتنا بالعالم

ويمكنها أن تقوينا وتشدد هممنا . . .

ويخلص من هذا التقسيم ووزن مقاييسه ، إلى الجزم بأن اتصال الأدب بالحياة معناه تحقق وجوده ، وأن انفصاله عنهـا يعني تحقق عدمه ، أراد الانسان ذلك أو لم يرده . . . .

« إن الأدب نقد للحياة ، لأنه يخدم الحقيقة ويتمسك بالمثل العليا في دائرة قواعده الفنية ، فان انحرف عن هذه الجادة فان الذوق سيزورّ عنه بدوره ، لأنه ينزع إلى مسايرة الحياة العادية التي كيفت خصائصه ، ومن باب أولى أن يساير الحياة المثلى التي يدعو إليها أدب الحياة . . .

« وما دام الأمر كذلك فعلى الأديب إذن أن يفهم الحياة والعالم فهماً متقناً شاملا ، لتستمد من وراء ذلك قوته المبدعة غذاءها الصالح ؛ فبمقدار تفاوت الأدباء في هذا الفهم ، تتفاوت قواهم الأدبية ولو تساوت مواهبهم الابداعية . »

فى مجلات الغرب

من فرنسا

أوربا *Europe* (عدد أكتوبر ١٩٤٧)

المقال الافتتاحى فى هذا العدد كتبه الكاتب زلبى تحت عنوان : « الحقيقة فى أمر مونيخ . » وقد كتب هذا الكاتب بحثه بعد اطلاعه على كتاب كايث فلنج عن حياة نيفل تشمبرلن رئيس الوزارة البريطانية فى ذلك العهد ، ومذكرات نيفل هندرسون السفير البريطانى فى برلين . وفى رأيه أن مؤتمر مونيخ لم يكن إلا مسرحية مدبرة من قبل ، أريد بها تغطية سياسة تشمبرلن الذى كان قد سلم لهتلر فى اقتطاع إقليم السوديت من تشيكوسلوفاكيا ، و إضعاف تلك الدولة بل القضاء عليها ، وذلك فى سبيل أمل كان يكنه تشمبرلن وهو الوصول إلى عقد اتفاق بين هتلر وانجلترا . وهو يثبت نظريته بما لشر فى كتاب حياة تشمبرلن . وكان تشمبرلن يرضى بتضحية حلفائه فى سبيل الوصول إلى غرضه ، مما أدى إلى زيادة أطماع الزعيم الألمانى . فكأن سياسة انجلترا الملتوية هى التى أدت إلى الحرب بدلا من منع أسبابها .

وفى هذا العدد طائفة من الشعر بقلم بعض الناشئين من الشعراء الفرنسيين . وفيه قصة بقلم أندزيه برديه ، وأخرى بقلم أديث توماس ؛ كما يحتوى العدد على بحث طويل عن ستيفن زفايج الكاتب النمساوى الشهير ، وقد حللت الكاتبة مؤلفاته ووصفت حياته وصفاً مسهباً قبل هجرته من بلاده وبعدها إلى أن أقدم على القضاء على نفسه بالانتحار .

ومن المقالات الجديرة بالقراءة فى هذا العدد نص محاضرة ألقاها ملبو أكسيوتى أحد الأدباء اليونانيين ، فى اتحاد الجامعات الفرنسى ، وقد وصف فيها حالة اليونان الآن ، وما تقاسيه من ظلم وبؤس وعسف باسم الديمقراطيــة تحت إشراف الأجنبى .

من الجزائر

فورج Forge (العدد الثالث ١٩٤٧)

وهي كراسات أدبية تصدر باللغة الفرنسية في مدينة الجزائر.

كتب الأستاذ محمد زكروري في المقال الافتتاحي عن شخصية جحا في الأدب العربي. وهو يقول إن شخصية جحا من الشخصيات التي انطبعت في الأدب القصصي الشعبي، وأن الروايات تزعم أنه كان عالما يمضي أوقاته بين المخطوطات. وقد ترك مجموعة من القصص ألفها أو اقتبسها من مشاهداته في الحياة؛ وكانت النتيجة أن صار هو نفسه موضوعاً لقصص عدة. وينقل الكاتب بعض هذه القصص إلى اللغة الفرنسية.

وتكلم الأستاذ طاهر بشوشي عن الشاعر المصري على محمود طه في مقال قصير وعن نظرته إلى الحب، ونقل شيئاً من شعره إلى الفرنسية.

وفي العدد أيضاً طائفة من الشعر للشاعر محمد السيد حمو على وقد نشرت باللغتين العربية والفرنسية.

وفيه قصة لمانويل روبليس، وفيه طائفة من الشعر لكتاب فرنسيين وعرب ممن يقرضون الشعر بالفرنسية.

ومن البحوث الطريفة في هذا العدد بحث عن الموسيقى العربية في الجزائر.

من أمريكا

رومانيك ريفيو Romanic Review (عدد أكتوبر ١٩٤٧)

وهي مجلة تصدر كل ثلاثة أشهر.

كتب في هذا العدد الأستاذ نيوتن بمنت مقالا عن تاريخ القديس لويس ملك فرنسا الذي كتبه المؤرخ القديم جوانفيل، وما للطبعة التي أصدرها محل ميشيل من القيمة اللغوية. وهو يقول إن عدد النصوص التي يمكن منها دراسة النثر الفرنسي في القرن الرابع عشر قليل نسبيا؛ لأن المخطوطات الأصلية

لم يحتفظ بها إلا فى القليل . وأكثر المخطوطات التى اعتمد عليها لدراسة هذا القرن كتبت فى القرنين اللذين تلواه . ويقول فى سياق المقال إن لويس التاسع توفى فى سنة ١٢٧٠ ، ونظرت الكنيسة فى أمر رفعه إلى مرتبة القديسين فى سنة ١٢٩٧ بعد تمحيصات عدة سمعت فى أثنائها شهادة جوانفيل . وبعد ذلك طلبت زوج حفيده فيليب الرابع من جوانفيل أن يكتب تاريخاً يسجل فيه مناقب الملك القديس لويس فبدأ يكتب مؤلفه . ويأخذ كاتب المقال فى تمحيص تاريخ وضع الكتاب ومخطوطاته وما فى هذه المخطوطات من خلاف بينها .

وكتب جوينر جيتس مقالا فى الأمثال التى جاءت فى مسرحيات كالديرون الكاتب الأسبانى .

وللكاتبة جيرمين بريه بحث فى العنف ومظهره فى مسرحيات راسين . وهى تفحص هذا الموضوع بوجه خاص فى مسرحيتى بريتانيكوس وبيازيد ثم ايفيجينيا وفيدر . وقد قارنت هذه المسرحيات بمسرحياته الأخرى مثل اندروماك وفيدر . وهى تقول إن فى ذلك اللعب المميت من أجل السلطة والارادة والحرية يكون أكثر الناس تعرضا للأخطار ، وأكثرهم خطرا بالنسبة للكوارث التى يطلقون سراحها ، هم الأشخاص الأقوياء الذين يجمعون بين القوة وشدة الحساسية والذين يرغبون فى أن ينتزعوا من الآخرين الموهبة الارادية .

ويحث وادسويرث فى كتاب لابروبير الكاتب الفرنسى عن الأخلاق ، وميل الكثيرين من الناقدين إلى القول بأنه لم يكن شديد التدين ، أو هم ينكرون تدينه . وهو يصل إلى نتيجة هى أن لابروبير كان يزداد تمسكا بالدين كما يبدو من الطبعات المتتابعة لكتابه . وهو إذا كان قد غالى فى الحقيقة حين قال فى مقدمة كتابه سنة ١٦٩٤ ، إن الغرض الأساسى الذى يرمى إليه من وضع هذا الكتاب هو قيادة الملحدين إلى الدين ، وهذا القول منه كان ليسكت ناقديه ، فانه من الثابت مع ذلك أن هذه الفكرة كانت غرضا من الأغراض التى قصد إليها ، وقد كان شديد التحمس للدين .

وفى العدد بحثان : أحدهما كتبه برايس عن مونتسكيو ، والآخر كتبه سليم عزبان عن بيير لاسير وجيته ونتشه .

وذلك عدا نقد للكتب التى ظهرت فى البلاد التى تتكلم اللغات المشتقة من اللاتينية .

المسرح والفنون Theatre Arts (عدد سبتمبر ١٩٤٧)

فى هذا العدد مقال للاستاذ جوليان هكسلى رئيس الهيئة الثقافية للدول المتحدة UNESCO وهو يبحث فى الدور الذى تقوم به هذه الهيئة فى مجال الفنون ، وهو يشرح شرحا وافيا المسائل التى ستعمل لها الهيئة .

وقد تكلم ستارك ينج عن فن التصوير ، والمسرح ، وهو يبين ما للتصوير من قيمة فى فهم المسرحيات ، ويضرب أمثالا لما كان له من قيمة فى إخراج المسرحيات والأوبرات .

وكتب الموسيقى الفرنسى الشهير داريوس ميلو Darius Milhaud مقالا عن وضع الموسيقى للأشرطة السينمائية وما يعترض المؤلف الموسيقى من صعاب فى ذلك .

وفى العدد مقال عن مبدأ الوحدة فى المسرح وشأنه فى المسرحيات اليونانية القديمة وشأنه عند المؤلفين المحدثين .

وفى العدد عدا ذلك بحوث أخرى عديدة جديرة بالقراءة فضلا عما تهتم به هذه المجلة من نشر صور ومناظر جديرة بالاقتناء .

المجلة الجغرافية الوطنية National Geographic Magazine (عدد أكتوبر ١٩٤٧)

فى هذا العدد الملئ بالصور الملونة مقال للاسيرال بيرد الأمريكى عن رحلة قامت بها بعض وحدات الأسطول الأمريكى لارتياد أراضى القطب المتجمد الجنوبى . وقد استعان المستكشفون بأحدث المخترعات التى ظهرت فى أثناء الحرب مما ساعدهم كثيراً فى التغلب على الصعاب التى يجدها مرتاد هذه الانحاء . فكانت معهم فى الطيارات التى أخذوها أدوات التصوير الاستطلاعى التى تقدمت فى أثناء الحرب ، والوسائل العلمية التى يمكن بها نقل الصور التى تؤخذ من الجو فتصير خرائط . ولم تكن الصعاب التى تعترضهم العدو المسلح ، وإنما كانت الضباب الشديد وسوء الرؤية ونزول الثلج وتراكم السحب . وكان مع الرواد آلة جديدة استعملت لأول مرة ، وهى عبارة عن مجنتومتر محمول فى الهواء يمكن بوساطته معرفة طبيعة الصخر الذى تغطيه الثلوج المتراكمة وما فيه من

معادن . وكانت معهم سفن من كاسرات الثلوج وهي التي نظم استعمالها في أثناء الحرب .

وفي العدد مقال بالصور الملونة فيه وصف لزيارة إلى بلاد جواتيمالا من بلاد وسط أمريكا .

من انجلترا

سكروتني *Scrutiny* (عدد سبتمبر ١٩٤٧)

وهي تصدر كل ثلاثة أشهر

يبتدئ هذا العدد بمقال للكاتب كوينتن أندرسون عن هنري جيمس الأديب الأمريكي الذي عاش في نهاية القرن التاسع عشر ومبدأ القرن العشرين ، وعلاقة كتاباته بالنظريات التي كان يقول بها والده الفيلسوف هنري جيمس في بحوثه في الدين وعلم النفس . وهو يخرج بنتيجة هي أن الأديب تأثر كثيراً بنظريات والده الفيلسوف وآرائه .

وفي هذا العدد مقال عن المجلات التي صدرت في نقد الأدب ؛ وقد أتى المقال على تاريخ هذه المجلات وقيمتها وتأثيرها في الحياة الأدبية .

ويوالي الكاتب كلنجوبولس بحثه في القصة التي تكون بمثابة الشعر المسرحي . وهو يتكلم هذه المرة عن رواية مرتفعات وذرنج، ويصف بإسهاب ما فيها من مواقف شديدة تجعل للقصة من القيمة ما لمسرحيات عهد اليزابيث ومسرحيات اليونان القديمة .

وكتب مستر ميلرز عرضا للحياة الموسيقية سواء منها ما سمع في الحفلات الأخيرة وما ظهر حديثاً في الاسطوانات .

وذلك عدا باب النقد للكتب ، وهو في هذه المجلة من أهم أبوابها .

النشرة الأدبية لجريدة التيمس *Times Literary Supplement* (عددا سبتمبر وأكتوبر ١٩٤٧)

في عدد سبتمبر مقال افتتاحي عن طريقة الخيالة في أثينا قديماً . وفيه أتى الكاتب على خلاصة محاضرة للأستاذ جلبرت مري الاخصائي في الدراسات

اليونانية ألقاه فى الجمعية الخاصة بهذه الدراسات . وفى رأى الأستاذ أن الاقبال زاد على دراسة آثار اليونان بعد الحرب ؛ يدل على ذلك اهتمام طلبة المدارس باختيار اللغة اليونانية وإقبالهم على دراساتها ، فضلا عن إصدار الكتب العديدة التى هى عبارة عن ترجمة لمخلفات اليونان فى ميادين الفكر المختلفة ، وإذاعة المسرحيات اليونانية القديمة ثم زيادة أثمان الآثار اليونانية زيادة كبيرة .

وقد أخرج كثيرون من فطاحل الباحثين الأميريكيين والانجليز كتباً هامة فى هذه الدراسات ، ومن أهمها كتاب للأستاذ بيزلى عن الأوانى اليونانية ، وكتاب الاستاذ باورا عن المأساة عند سوفوكليس .

ويقول الأستاذ مرى فى دعوته لدراسة الأدب اليونانى إن اليونان كانت أول استيقاظ للعقل الانسانى باتجاهاته المختلفة فى البحث وراء الحقيقة ، وخلق الجمال ، والطلب الدائم لحياة طيبة يحياها الانسان .

وفى هذا العدد مقال طويل ينوه فيه كاتبه بكتاب جون ريولد عن تاريخ التصوير المعروف بفن النظرة العابرة impressionism ويقول إنه استطاع فى كتابه هذا أن يجعل من موضوع معقد صورة جلية مرتبة ترتيبا تاريخيا ، مبتدئا بنظرة عامة عن الفن الفرنسى فى سنة ١٨٥٥ ، ثم بأيام الثورة على الفن القديم الذى تؤيده مدرسة الفنون الجميلة والمعارض المختلفة الرسمية ، وما كان من عرض الثائرين لصورهم وأشهر ما أخرجته هذه المدرسة الفنية .

وذلك عدا العشرات من البحوث عن كتب صورت فى مختلف الفنون .

وفى عدد أكتوبر اتخذ المقال الافتتاحى موضوعه من مقال نشر فى مجموعة مؤلفات الكاتب الأمريكى هويتمان وهو تحت عنوان « نظرات إلى الخلف» . وقد أراد هويتمان أن يعارض رأى لونجينوس الشاعر القديم حين قال إن ما يرمى إليه الشاعر هو التأثير وأن ما يرمى إليه الناثر هو الوضوح . أما هويتمان فيرى رأيا غريبا وهو أن أكبر خدمة للأدب هي ملء القارئ بالرجولة القوية والاحساس الدينى وبالقلب الطاهر . وهو ينكر أن الشعر أو أية كتابة أخرى تخدم العقل أو تصور مشاعر أو شخصيات أو حوادث .

وفى هذا العدد مقال عن الجو الأمريكى بمناسبة ظهور كتاب جون جانتر

المسمى « داخل الولايات المتحدة » . ويرى كاتب المقال أن وصف الشعب الأمريكي بجملته أصعب من وصف الأوربيين مع أن الأوربيين شعوب مختلفة . وهو يرى أن مستر جانتر أقدم على عمل ضخم متنوع . وقد رسم صوره بطريقة سينمائية تترك أثراً كبيراً في عقل القارئ ، وإن كانت لم ترو قصة الولايات المتحدة بأكملها .

وفي هذا العدد مقالات عدة جديرة بالقراءة ، لعل من أهمها مقالة في فلسفة الموسيقى في نظر الفيلسوف كيركجارد .



كليمنصو وحياته العاصفة

تأليف ليون دوديه

تعريب حسن محمود

كليمنصو . . . مسقط الوزارات . . . النمر

الرجل الذى عاش حراً فأصبح مغلولا

الرجل الذى طلب أن يدفن واقفاً فى القبر

زعيم فى السياسة بقلم زعيم فى الأدب

طبعة مزينة بالصور

٢٨٨ صفحة

الثمن ٣٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)



نابليون

تأليف إميل لودفيج

ترجمه عن الألمانية

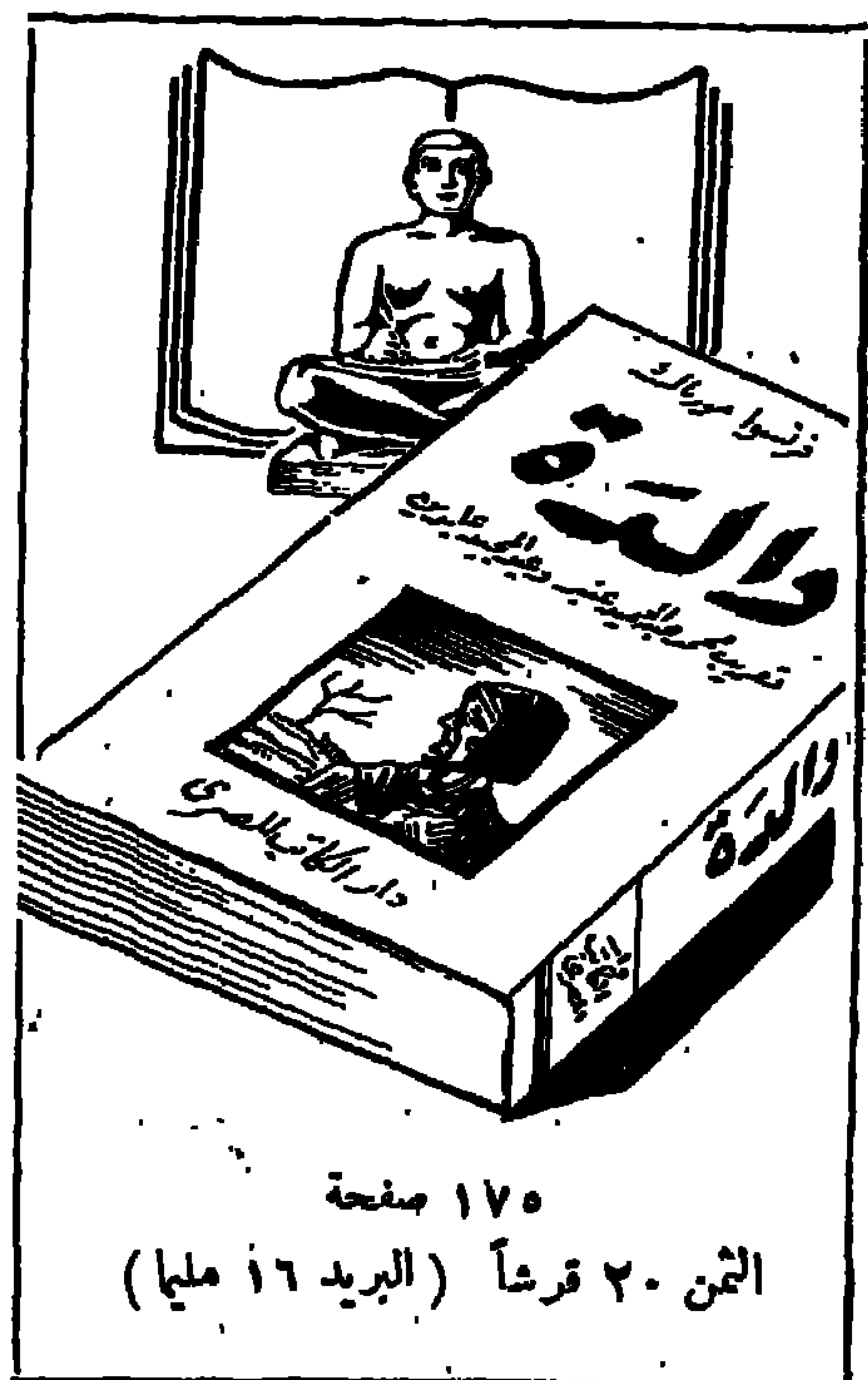
محمود إبراهيم الدسوقى

البطل الذى اكتشف لودفيج وراء قناع بطولته محيا الانسان ، فتجلت بطولته فى إنسانيته ، وفاقت كل ما عرف إلى الآن .

طبعة مزينة بالصور فى جزأين

الجزء ٣٥٠ صفحة

ثمن الجزء ٤٥ قرشاً (البريد ٣٦ مليما)



١٧٥ صفحة
الثمن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليما)



٢٢٨ صفحة
الثمن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

أرض البشر

للكاتب الطيار
أنطوان دى سانت إكسوپرى
تعريب مصطفى كامل فوده

أرض البشر، تلك الهباءة من الثرى التائهة بين الأجرام السماوية، تلك الأرض الجديرة بإعجابنا لأنها وحدها تكوّن الرجال.



طبعة مزينة بالصور
٢٤٢ صفحة
الثمن ٢٥ قرشاً
(البريد ٢٠ مليما)

جنة على نهر العاصي

تأليف موريس بارس

عضو المجمع اللغوى الفرنسى

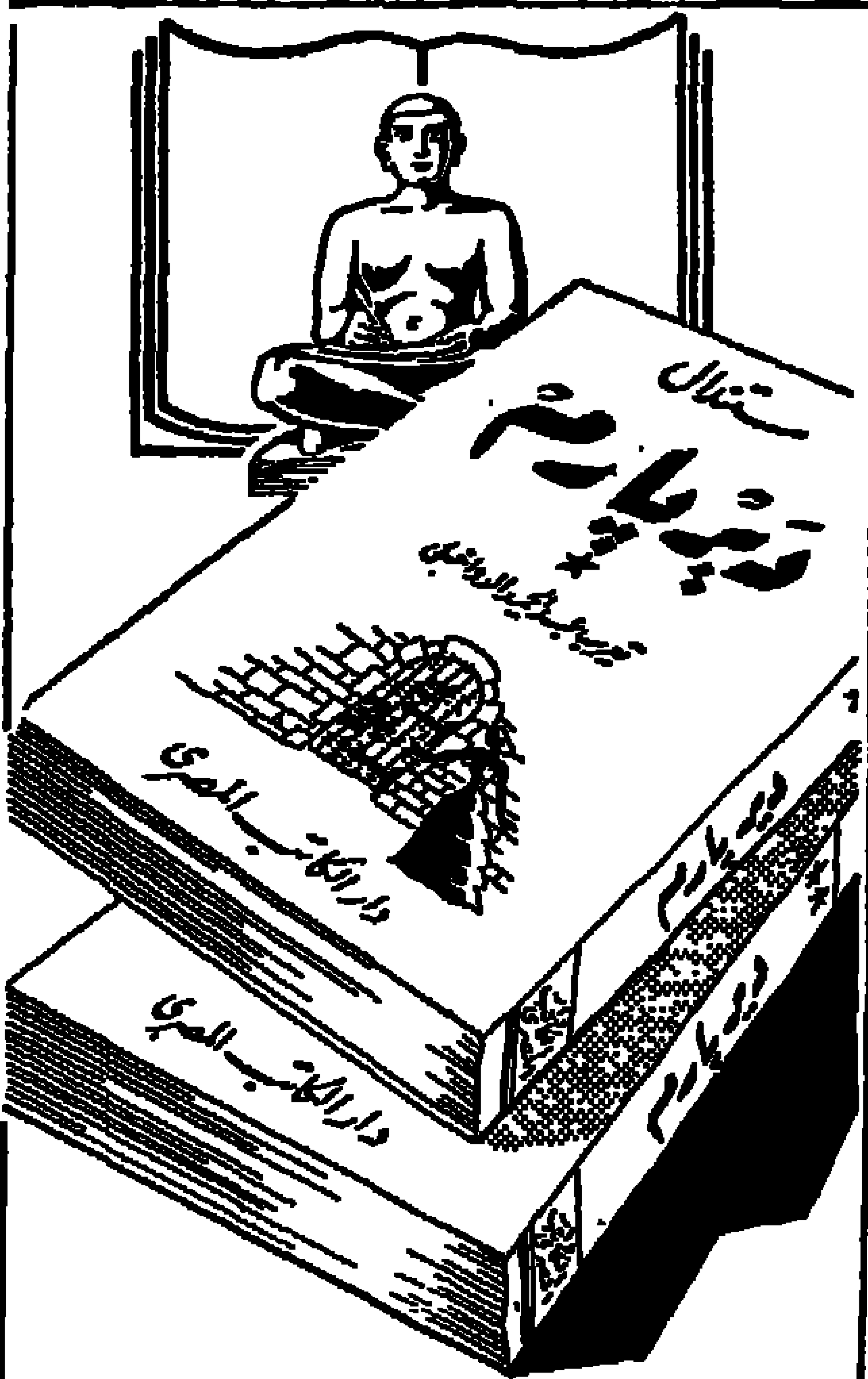
تعريب محمد عبد الحميد عنبر

وعبد المجيد عابدين

غرام أقرب إلى العبادة ومغامرات أقرب إلى الأحلام على ضفاف نهر العاصي حيث تملأ السواقى بأنينها أجواز الفضاء .

١٦٦ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)



ثمن الجزء ٣٠ قرشاً (بريد الجزأين ٤٠م)

المقامر

تأليف فيدور دستويفسكى

تعريب شكرى محمد عياد

قصة شاب ممتحن بداء القمار لقى من هذا الداء فى حياته شراً عظيما . وهى قصة عنيفة تستأثر بحاجة القارئ إلى الاستطلاع .

١٦٩ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

الحب الأول

تأليف إيفان ترجنيف

تعريب محمود عبد المنعم مراد

قصة ساذجة تصور قلب شاب ناشئ يندفع إلى الحب فى غير احتياط ولا تحفظ وما يصيبه من يأس حينما يعلم أنه كان يحب عشيقة أبيه .

١٠٤ صفحة

الثمن ١٥ قرشاً (البريد ١٢ مليما)

مجلد ٧ — عدد ٢٨
يناير ١٩٤٨

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

تحت الطبع

كتاب البخــلاء للجاحظ

تحقيق وشرح الاستاذ طه الحاجرى

تأريخ قضاة الأندلس

نشره وعلق عليه إ. ليڤى بروڤنسال

قطوف

كتاب فى جزأين يجمع عدة مقالات و بحوث

بقلم عبد العزيز البشرى

البيت السبكى

بيت علم فى دولتى المماليك

تاليف محمد الصادق حسين بك

تربية سلامه موسى

بقلم سلامه موسى

النفس فى الصحة والمرض

تأليف الدكتور محمد زكى شافعى بك

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصري



صفـــر ١٣٦٧ — يـنـــاير ١٩٤٨

السـنة الثالثـة — مجلد ٧ — عدد ٢٨

أردت أن أكتب فصلا أدرس فيه أدب أندريه جيد بعد أن عرفت أنه ظفر بجائزة نوبيل فى شهر نوفمبر الماضى ، ولكنى رأيته أكبر وأكثر من أن يحيط بأدبه فصل مهما يكن طويلا . فآثرت أن أثنى عليه بترجمة هذا الكتاب الرائع وأنا أرجو أن يجد الشباب المثقفون بين عشبه الخبيث المجنون ، كما يقول أندريه جيد ، حبا حسنا لا يكاد يستقر فى القلوب والعقول حتى ينبت فيها نباتاً حسناً . [طه حسين]

بروميتيه ذو الغل المهمل

إلى بول-ألبير لورانس

إليك أهدى هذا الكتاب أيها الصديق العزيز لأنك تفضلت فأثنيت عليه . لعل قليلا من الذين يشبهونك أن يجدوا فى هذا العشب الخبيث المجنون كما وجدت حبًّا حسنا . [أندريه جيد]

فى يوم من أيام شهر مايو ١٨٩ * ، فى تمام الساعة الثانية بعد الظهر رأى الناس هذا المنظر الذى وقع من نفوسهم موقعا غريبا :

رأوا فى الشارع الذى يؤدى من المادلين إلى الأوبرا ، رجلا ضخما نصفا لا يميزه إلا ضخامته النادرة ، وقد أقبل عليه رجل نحيف وهو يبتسم غير مضمر فيما نظن شيئا يريب، ورد إليه منديلا كان قد سقط منه. فيشكر الرجل الضخم فى إيجاز ويهم أن يمضى. ثم يبدو له فيميل إلى الرجل النحيف كأنما يطلب إليه شيئا، وكأن الرجل النحيف قد أنبأه بما أراد ؛ فقد أخرج من جيبه دواة وقلما ودفعهما فى سذاجة إلى الرجل النحيف ، ومعهما غلاف كان فى يده . ورأى المارة الرجل النحيف يكتب عنوانا على الغلاف . وهنا يبدأ ما فى القصة من غرابة لم تشر إليها صحيفة ما ؛ فقد رد النحيف إلى البدين دواته

وقلمه وغلافه . ولم يكد يبتسم بعد ذلك مودعا حتى أهدى البدين إليه شكره لطمة مفاجئة عنيفة ، ثم وثب إلى عربة واستخفى قبل أن يستفيق النظارة (وكنت بينهم) من الدهش ويفكر أحدهم فى التعلق به .

وقد علمت بعد ذلك أن هذا الرجل كان زوس ، غنى من رجال الأعمال .

وضاق الرجل النحيف بالتفاف الناس حوله وعنايتهم به ، فجعل يؤكد أنه لم يكد يشعر باللطمة على حين كان أنفه يرعف وكانت شفته تقطر دما ، وكان يلح فى أن يخلى بينه وبين نفسه . فلما رأى الناس منه ذلك تفرقوا عنه قليلا قليلا . والقارئ يأذن لنا فى ألا نعنى منذ الآن برجل سيراه كثيرا فيما يستقبل من هذا الحديث .

تاريخ الحياة الخلقية الخاصة المستقيمة

١

لن أتحدث عن الحياة الخلقية العامة فليس لها وجود ، ولكنى أروى بمناسبتها قصة :

أحس بروميتيه فى أعلى جبل القوقاز أن الأغلال والقيود والوسوق والحواجز والموانع الأخرى قد أثقلته ومسه منها الضر ، فأراد أن يغير من موضعه ، فارتفع بجنبه الأيسر ومد ذراعه اليمنى ، ورآه الناس ينحدر فى الشارع الذى يؤدى من المادلين إلى الأوبرا بين الساعة الرابعة والخامسة فى يوم من أيام الخريف .

وجعلت جماعات من الشخصيات الباريسية المعروفة تمر أمام عينيه ، وجعل هو يسأل نفسه إلى أين تذهب هذه الجماعات ؟ ثم جلس فى إحدى القهوات إلى قدح من الجعة وسأل الخادم : « إلى أين تمضى هذه الجماعات ؟ »

تاريخ الخادم وصاحب الملايين

قال الخادم : لو رآهم سيدى كما أراهم يمرون فى كل يوم لجاز أن يسأل نفسه من أين أقبلوا . فهو سؤال واحد لأنهم يمرون فى كل يوم . وأنا أقول لنفسى : ما داموا يمرون فى كل يوم فهم لم يجدوا ما يبتغون . وأنا أنتظر الآن أن يسألنى سيدى : ماذا يبتغون ؟ وسيرى سيدى بماذا أجيبه .

هنالك سأل بروميتيه :

— ماذا يبتغون ؟

قال الخادم :

— ما داموا لا يستقرون فهم لا يلتمسون السعادة . ويستطيع سيدى أن يصدقنى . ثم دنا منه وقال هامسا : — إنما يلتمسون شخصياتهم . أليس سيدى من أهل باريس ؟

قال بروميتيه :

— لا !

قال الخادم : إن هذا لبين . نعم ! شخصياتهم : ما نسميه نحن هنا بالمزاج . فأنا مثلا ، كما ترانى الآن ، لاتشك فى أنى خادم قهوة . كلا ياسيدى ! لست بطبعى خادم قهوة ، وإنما أتكلف هذه المهنة عن حب لها . صدقنى ، إن شئت ، أن لى حياة مضمرة : إنى ألاحظ الشخصيات ، إنها وحدها تثير حب الاستطلاع ، ثم الصلات بين الشخصيات . لقد رتب كل شئ هنا على أحسن وجه ؛ فى هذا المطعم مائدة لكل ثلاثة من الناس ، وسأبين لك بعد حين تدبير ذلك . ستتناول العشاء بعد قليل ، أليس كذلك ؟ ستقدم . . .

وكان بروميتيه متعباً بعض الشئ . قال الخادم :

— مائدة لكل ثلاثة من الناس . نعم هذا أوفق ما وصلت إليه . يقبل ثلاثة من الناس فيعرف بعضهم إلى بعض (إذا أرادوا ذلك بالطبع) . ففى مطعمى يجب أن يذكر الطارئون أسماءهم قبل الجلوس إلى المائدة ، وأن يذكروا صناعتهم . وليس عليهم بأس إن أخطأوا . ثم يجلسون (ولا أجلس أنا) ، ثم يتحدثون (ولا أتحدث أنا) ، وإنما أصل بين الناس وأسمع لهم وأنظر إليهم وأدير بينهم الحديث . فاذا انتهى الطعام فقد عرفت دخيلة ثلاثة من الناس ، ثلاثة من الشخصيات . أما هم ، فلم يعرفوا شيئا . أما أنا فافهم عنى : إنى أسمع ، إنى أنشئ الصلات ، على حين يخضعون هم لهذه الصلات التى أنظمها. وقد تسألنى ماذا يجدى على هذا كله ؟ لا يجدى على شيئا ، وإنما أنا موكل بانشاء الصلات . . . لا بالقياس إلى نفسى . . . إنما هو عمل يشبه أن يكون شيئا من العبث المطلق .

وكان شئ من التعب يظهر على بروميتيه .

قال الخادم :

— عمل عابث ! هذا لفظ لا يدلك أنت على شئ . أما أنا فانه يدلنى على شئ خطير عظيم الخطر . لقد فكرت وقتاً طويلا فى أن العمل العابث هو الذى يميز الانسان من الحيوان . وكنت أعرف الانسان بانه الحيوان القادر على العمل العابث . ثم بدا لى فرأيت عكس هذا الرأى ، وهو أن الانسان هو الكائن الوحيد الذى لايستطيع أن يعبث. أن يعبث ؟ فكر إذن : أن يتصرف لغير علة . — نعم ! قد فهمت . — لنقل لغير دافع إلى العمل . ومنذ ذلك الوقت جعلت هذه القضية تغيظنى ، وجعلت أسأل نفسى : لم يفعل الانسان هذا ؟ ولم يفعل الانسان ذاك ؟ . . . وليس مصدر ذلك مع هذا أنى جبرى . . . ولكن لهذه المناسبة اسمع هذه القصة :

لى صديق يا سيدى من أصحاب الملايين قد لا تصدق ذلك . وهو إلى ثرائه ذكى ، أثار فى نفسه فكرة العمل العابث ، وسأل نفسه كيف السبيل إليها ؟ ويجب أن تقدر أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا عمل لا ينتج شيئا ، فهذا شئ . . . إنما يريد عملا عابثا لا دافع إليه . أتفهم عملا لا تدفع إليه منفعة ولا شهوة ولا سبب ما ، عملا غير نافع ، عملا ينشئ نفسه ، عملا لا غاية له ولا مسيطر عليه ، عملا حرا ، عملا أصيلا ؟

قال بروميتيه : — ماذا ؟
قال الخادم :
— ألق بالك ، إن صاحبي يهبط فى كل صباح وفى جيبه ورقة مالية قيمتها خمسمائة فرنك قد طوى عليها غلافا وفى يده لطمة مهيأة . وهمه أن يلقى رجلا لا يختاره ، فيلقى فى الشارع منديله ثم يقول لمن يلتقط هذا المنديل متلطفاً :
— عفوا يا سيدى ! ألا تعرف أحداً ؟
يجيبه الآخر : بل أنا أعرف غير واحد .
فيقول صاحب الملايين: فستتلطف إذن يا سيدى وتكتب اسمه على هذا الغلاف ، وإليك القلم والدواة . . .
ويكتب الآخر فى سماحة ثم يتجه إلى صاحب الملايين قائلا :
— والآن يا سيدى أتفسر لى . . . ؟
فيجيب صاحب الملايين :
— هذا مبدأ ثم (وقد أنسيت أن أقول إنه قوى) يضع على خده اللطمة التى أعدها فى يده ، ويدعو عربة فيستقلها ويستخفى .
أفهمت الآن؟ عملان عابثان فى لحظة واحدة : هذه الورقة المالية ترسل إلى عنوان لم يختره هو ، ولطمة تهدى إلى رجل قد اختار نفسه ليتلقاها حين التقط المنديل . — ألا ترى أن هذا هو العبث ؟ إنه عمل قابل للعكس . أحد الرجلين تلقى خمسمائة فرنك لأجل لطمة ، والآخر تلقى لطمة من أجل خمسمائة فرنك . . . ثم لا سبيل إلى الفهم . . . قد نضل الطريق . — فكر ! عمل عابث ليس أشد من ذلك بلبلة للنفوس . — ولكن سيدى قد أخذ يجد الجوع . إنى معتذر إلى سيدى . ما أيسر ما يندفع الناس فى الحديث . . . أيريد سيدى أن يلقى إلى اسمه لأقدمه ؟
قال بروميتيه فى يسر :
— اسمى بروميتيه .
قال الخادم :
— بروميتيه ! لقد قدرت أن سيدى ليس من هذه المدينة . . . ومهنة سيدى ؟
قال بروميتيه :
— لا شئ .
قال الخادم فى ابتسامة حلوة :
— كلا ! يكفى أن يرى الانسان سيدى ليعلم أنه فعل شيئا .
قال بروميتيه هامسا :
— مضى على ذلك زمن طويل .
قال الخادم :
— لا بأس لا بأس ! وليطمئن سيدى ! فأنا حين أقدم الناس أذكر أسماءهم ، فأما صناعاتهم فلا أذكرها بحال . — لننظر لننظر : — ماذا يصنع سيدى . . .
قال بروميتيه مغمغما خجلا :
— كنت أصنع الثقاب .

هنالك ساد صمت ثقيل بعض الشئ. وقد فهم الخادم أنه أخطأ حين ألح فى السؤال، وفهم بروميتيه أنه أخطأ حين أقدم على الجواب .

ثم قال الخادم فى لهجة رفيقة :

— والآن قد ترك سيدى صناعة الثقاب . ومع ذلك فينبغى أن أكتب شيئا ، فلست أستطيع أن أكتب هكذا : بروميتيه ، ثم لا أزيد. فلسيدى من غير شك صناعة متواضعة ما أو تخصص فى شئ من الأشياء . . . وأخيراً ماذا يحسن سيدى أن يعمل ؟

فأعاد بروميتيه قوله :

— لا شئ .

قال الخادم :

— إذن فلنقل إنك أديب . والآن إذا تفضل سيدى بالدخول إلى قاعة الطعام . فلست أستطيع أن أخدمه خارج القاعة . ثم صاح : — مائدة لثلاثة ! مائدة !. . . وهنا دخل رجلان من بابين مختلفين . وقد رئيا يمليان اسميهما على الخادم ، وإذ لم يطلب أحد تعارفاً ، فقد جلس الرجلان إلى المائدة .

فلما استقر بهم المجلس :

٢

قال أحدهم :

— يا سيدى ! إنما أقبلت على هذا المطعم مع أن الأكل فيه ردئ لشئ واحد هو الحديث. فأنا أبغض الخلوة إلى الطعام ، وأحب المائدة التى يجلس عليها ثلاثة ؛ لأن الاثنين إذا خلا أحدهما إلى الآخر جاز أن يختصما. . . ولكنكما صموتان فيما يظهر !

قال بروميتيه :

— على رغمى آثرت الصمت .

قال المتكلم :

— سأمضى إذن فى الحديث .

قال الثالث :

— تفضل .

قال المتكلم :

— أنا أرى أن ساعة يجلس فيها ثلاثة رجال إلى المائدة تكفيهم ليتعارفوا إذا لم يسرفوا فى الأكل . وهذا يسير هنا إذا أقللنا الكلام واجتنبنا الموضوعات الشائعة ، أريد ألا نذكر إلا ما يمس الحياة الفردية الخاصة . ولست أزعم أن هذا الحديث ضربة لازم . ولكن إذا لم يعجبنا الحديث فما قدومنا إلى هذا المطعم ؟

وكان بروميتيه متعباً جدا وقد مال الخادم إليه وهمس قائلا :

— هذا الذى تكلم هوكوكليس ، وهذا الذى سيتكلم هو داموكليس .

قال داموكليس :

قصة داموكليس

سيدى لو قلت لى ذلك منذ شهر لما استطعت أن أجيب . أما بعد الذى حدث لى فى الشهر الماضى ، فلم يبق شئ مما كنت أعتقده من قبل . وما كنت لأحدثكم بشئ مما كنت أفكر فيه قديما لولا أن العلم به يعينكما على أن تفهما الفرق بينه وبين ما أفكر فيه الآن . وإذن ياسيدى فأنا أشعر منذ ثلاثين يوما بأنى كائن ممتاز فريد ميسر المصير غريب . فاستنبطا من أنى كنت أشعر قبل ذلك شعورا يناقض هذا الشعور مناقضة تامة . فقد كنت أحيا حياة عادية خالصة ، وأفرض على نفسى الاذعان لهذه القاعدة وهى أن أسير سيرة أشد الناس محافظة على المألوف . أما الآن فأنا واثق بأن الرجل العادى لا وجود له ، وبأن من الجهد الضائع أن يحاول أحد أن يشبه كافة الناس ، لأن كافة الناس تأتلف من الأفراد جميعا ، وليس فى وسع الفرد الواحد أن يشبه جميع الأفراد . ومع ذلك فقد كنت أفتن وأتكلف الاحصاء وأتلمس أوساط الأمور — دون أن أفهم أن الأطراف تتقارب ، وأن من نام متأخرا لقى من استيقظ مبكرا : وأن من تحرى أن يجلس فى المكان الأوسط كان خليقا أن يجلس بين كرسيين .

فكنت آوى إلى سريرى كل يوم فى الساعة العاشرة ، وأنام ثمانى ساعات ونصف ساعة ، وأحرص فى كل عمل من أعمالى على أن أقلد أكبر عدد من الناس ، ولن أطيل فى ذلك .

ولكن عرضت لى ذات يوم مغامرة خاصة . وخطر ذلك فى حياة رجل متزن لا يفهم إلا بعد حين .

٣

وإذن فتعلما أنى تلقيت كتابا ذات صباح .

— وأنا أرى يا سيدى أنى أقص عليكما قصتى فى غير مهارة؛ لأنى لا أرى الدهش فى وجهيكما . فقد كان يجب أن أنبئكما بأنى لم أكن أنتظر كتبا . فأنا أتلقى ثلاث رسائل فى كل عام : إحداها من صاحب البيت يطالبنى فيها بالأجر ، والثانية من المصرف ينبئنى بأنى قادر على أدائه ، والثالثة فى أول يناير . . . وأوثر ألا أنبئكما بمصدرها . وكان عنوان الرسالة التى تلقيتها قد كتب بخط لا أعرفه . وخلو هذا الخط من الخصائص كلها، كما عرفت فيما بعد حين لجأت إلى المختصين فى تأويل الخطوط ، لم ينبئنى عن صاحب الرسالة بشئ . فلم يجد المختصون فى هذا الخط آية إلا على كرم النفس وشئ من الضعف ، ولم يستطيعوا أن يحددوا شيئا . الخط . . . لست أتحدث إلا عما كان على الغلاف ، فلم يكن داخل الغلاف شئ ، لم يكن داخله سطر ولا نقطة . لم يكن فى الغلاف إلا ورقة مالية قيمتها خمسمائة فرنك .

وكنت أهم أن أتناول قدح «الشيكولاتة» الذى تعودت أن أتناوله كل صباح ، ولكنى

كنت عظيم الدهش حتى صرفني ذلك عنه فأدركته وقد برد مافيه . جعلت أبحث ... ولم يكن أحد مدينا لى بشئ . ولى دخل محدود ياسيدى ، وأنا أستعين بالاقتصاد على الموازنة بينه وبين النفقات برغم ما يصيب الأسهم من نقص فى كل عام . قلت إنى لم أكن أنتظر شيئاً ولم أطلب قط إلى أحد شيئاً . وقد تعودت الحياة المنظمة حتى منعنى ذلك من أن أؤمل شيئاً . وقد فكرت كثيراً متوخيا فى التفكير أقوم مناهجه : من أين ؟ إلى أين ؟ من أى طريق ولماذا ؟ وكانت هذه الورقة لاتجيب على سؤال من هذه الأسئلة ؛ فقد كنت ألقى هذه الأسئلة للمرة الأولى .

وقد فكرت فى أن هذا خطأ ، وفى أنى سأحاول إصلاحه . فقد قدرت أن هذه الورقة قد كانت مخصصة لرجل غيرى يشاركنى فى الاسم . وقد بحثت فى الدليل عن شريك لى فى اسمى لعله كان ينتظر هذه الورقة . ولكن اسمى ليس شائعاً ، فرأيت أنى الوحيد الذى يحمله . وقد قدرت أنى سأجد على الغلاف اسم من أرسله بعد أن لم أجد اسم من أرسل إليه . وهنالك لجأت إلى المختصين فى تأويل الخطوط . ولكن لاشئ — لم يستطيعوا أن ينبئونى بشئ ، ولم أصل إلا إلى زيادة ما أنا فيه من الضيق . فهذا المبلغ من المال يزداد ثقله على من يوم إلى يوم ، وأنا أحاول أن أتخفف منه فلا أجد إلى ذلك سبيلا . فقد يجب — لو أن أحداً من الناس قد أهدى إلى هذا المبلغ غير مخطئ — أن أشكر له هديته . إنى لحريص على أن أكون معترفا بالجميل — ولكنى لا أدرى لمن أعترف بالجميل .

وأنا أحمل هذه الورقة دائما مؤملا أن تعرض لى المصادفة التى تخرجنى من هذا العناء . أحملها لا أفارقها فى النهار ولا فى الليل لقد أصبحت مملوكا لها . — لقد كنت فيما مضى رجلا عاديا ولكنى كنت رجلا حرا . أما الآن فانى رق لهذه الورقة ! لقد حددت هذه المغامرة شخصيتى ، كنت إنسانا ما ، فأصبحت الآن إنسانا بعينه .

وأنا منذ هذه المغامرة أزعج نفسى أبحث عمن أستطيع أن أتحدث إليه ، وإذ آثرت الاختلاف إلى هذا المطعم فى أكثر الأحيان ، فمصدر ذلك أنى أرجو أن أجد على مائدة من هذه الموائد المخصصة لثلاثة أشخاص واحداً من جليسى يعرف صاحب هذا الخط على هذا الغلاف الذى أعرضه عليكما . . .

ثم أخرج من صدره زفرة ومن سترته غلافا أصفر قذرا قد كتب اسمه عليه كتابة عادية واضحة . هنالك وقع هذا الحادث الغريب : فقد كان كوكليس ملتزما للصمت ، وظل ملتزما للصمت — ولكنه فجاءة رفع يده على داموكليس ، لم يكد الخادم يردها إلا فى جهد . فاضطر كوكليس إلى أن يضبط نفسه وقال فى حزن هذه الكلمات التى لم تفهم إلا فيما بعد :

— على أن الخير فى هذا . فلو قد رددت إليك اللطمة لخيل إليك أن من الحق أن ترد إلى الورقة مع أنها ليست لى . — وإذ ظهر على داموكليس أنه ينتظر تفسيراً لهذه الحركة قال كوكليس : أنا الذى كتب عنوانك على هذا الغلاف .

قال داموكليس فى شئ من الغضب : ولكن كيف عرفت اسمى ؟

قال كوكليس : عرفته مصادفة . على أن هذا لا خطر له فى هذه القصة ، فقصتى أغرب من قصتك فأذن لى فى أن أقصها فى إيجاز :

قصة كوكليس

ليس بيني وبين الناس صلات ذات شأن، بل لم أكن أعلم، أن لى بالناس صلة قبل أن يقع ما سأنبئكم به الآن. لست أعرف من أخرجني إلى هذا العالم وقد تلمست وقتاً طويلا بعض ما يحبب إلى الحياة . وقد هبطت إلى الشارع ملتمساً فيه ما يوجه حياتى مقدراً أن مصيرى مرتبط بأول ما يكون بيني وبين الناس من صلة . فلم أنشئ نفسى فأنا أدنى إلى الخير من ذلك . وكنت أعلم أن أول عمل أعمله سيعلل وجودى . وإذ كنت خيراً بالفطرة فقد كان أول عمل أتيته أنى التقطت منديلا . ولم يكن صاحبه قد بعد عن مكانه إلا خطوات ثلاثا، فأسرعت نحوه ورددته إليه . وأخذه فى غير دهش ظاهر ، وإنما الدهش أصابنى أنا حين رأيته يقدم إلى غلافا هو هذا ويقول لى باسما : تفضل بكتابة عنوان على هذا الغلاف . قلت أى عنوان ؟ — قال : عنوان أحد ما . — وقدم فى أثناء ذلك إلى أدوات الكتابة . ولم أكن أرغب فى التخلص من علة ظاهرة ، فأجبته إلى ما أراد . وقد قلت لكما أن ليس بيني وبين الناس صلة ذات شأن . وكان الاسم الذى كتبته ، ولست أدرى كيف خطر لى اسم رجل لا أعرفه . ثم دفعت إليه غلافه وحييته معتقداً أنى قد أديت ما على، وهممت أن أنصرف، ولكنى تلقيت على خدى لطمة مروعة. وقد دهشت لذلك فلم أعرف ما صار إليه لاطمى . فلما ثبت إلى نفسى رأيت جماعة ضخمة تحيط بى . وكانت الجماعة كلها تتكلم . وقد تعلق بى بعضهم يريد أن يصحبنى إلى صيدلية مجاورة . ولم أخلص من عنايتهم إلا حين أكدت لهم أن ليس بى بأس ، على حين كان أنفى يرعف وكنت أجد ألماً شديداً فى الفك .

وقد اضطرنى ما أصاب خدى من التورم إلى أن ألزم غرفتى ثمانية أيام .

وقد أنفقت هذه الأيام مفكراً :

لم أهدى الرجل إلى هذه اللطمة ؟

لا شك فى أنه أخطأ فلم أقدم إليه ما يسوءه !

لم أقدم شرا إلى أحد ، وليس أحد من الناس يمكن أن يتمنى لى الشر ، فالشر شئ يرد على من قدمه .

وقد فكرت لأول مرة أن هذه اللطمة إن لم تكن قد أهديت إلى عن خطأ — فهى شئ قد كتبه على القضاء ، على أنى أضفت إلى ذلك أن المهم هو أنى قد تلقيت اللطمة سواء أكان ذلك عن خطأ أم عن عمد ، وهل أردها — وقد أنبأتكما بأنى خير بالطبع ، وأضيف الى ذلك أن من لطمنى كان أقوى منى ؟

فلما برئ خدى واستطعت الخروج جعلت أبحث عن لاطمى . نعم ! ولكن لأتجنبه على أنى لم ألقه . وإذا كنت قد تجنبته فقد كان ذلك على غير علم منى .

ثم انحنى نحو بروميتيه قائلا :

— أنظر كيف يتعقد اليوم كل شئ وكيف تختلط الأمور بدل أن تتضح : — فقد علمت أن لطمتى قد أدت إلى هذا السيد خمسمائة فرنك . . .

قال داموكليس :

— ولكن عفوا .

قال كوكليس محييا :

— اسمي كوكليس ياسيدى .

قال داموكليس :

— سأذكر لك اسمي يا كوكليس ، فأنا داموكليس ، وأنا واثق بأنه سيسرك أن تعرف اسم من ساق إليك حظك . . .

— ولكن . . .

قال كوكليس :

— نعم ! — وستعلم أم من ساق إليك حظك ، فما ينبغى أن تجهل أن ربحك مستمد من بؤسى .

قال داموكليس :

— ولكن . . .

قال كوكليس :

— أرجو ألا تكثر ، فان بين ربحك وألمى صلة لا أدرى ما هى ، ولكن هناك صلة .

قال داموكليس :

— ولكن يا سيدى .

قال كوكليس :

— لا تدعنى سيدك .

— ولكن عزيزى كوكليس .

بل ادعنى كوكل — فى غير تكلف .

قال داموكليس :

— ولكن مرة أخرى أيها الرجل الطيب كوكل . . .

قال كوكليس :

— كلا يا سيدى — كلا يا داموكل — فقد تستطيع أن تقول كل شئ ، فأثر اللطمة قائم على خدى . . . أستطيع أن أظهرك عليه .

وجعل الحديث يتصل بالأشخاص ويمعن فى السوء . وهنا استبانت لباقة الخادم .

٤

فقد صب فى حركة رشيقة — طبقاً من أطباق الطعام على بروميتيه ، فحول إليه الجماعة عناية صاحبيه . لم يستطع بروميتيه أن يحبس صيحة ، وقد ظهر صوته بالقياس إلى صوت الآخرين عميقاً أجش ، حتى لاحظت الجماعة أنه آثر الصمت إلى الآن .

فقال داموكليس وكوكليس فى غيظ مؤتلف :

— إنك لا تقول شيئا !

بروميتيه يتكلم

قال بروميتيه :
— يا سيدى لا صلة بين ما يمكن أن أقوله وبين ما نحن فيه . . . حتى إنى لا أدرى كيف . . . بل كلما فكرت . . . كلا ! فى الحق أنى لا أدرى كيف أقول . لكل منكما قصته ، أما أنا فلا قصة لى . فاعذرانى . ثقا بأنى أسمع فى متعة خالصة لكل منكما وهو يقص قصته التى أود لو . . . أن لى . . . ولكنى لا أستطيع حتى أن أعبر عن ذات نفسى فى يسر . كلا ! فى الحق أنه يحسن أن تعذرانى يا سيدى العزيزين ، فلم أصل إلى باريس إلا منذ قريب من ساعتين . ولم يعرض لى فيها شئ — إلا لقاؤكما الذى لا يقدر والذى يشعرنى بما يمكن أن يصير إليه حديث باريسى حين يقبل عليه أصحاب الذكاء و . . .
قال كوكليس :
— ولكن قبل أن تأتى إلى باريس . . . .
أضاف داموكليس :
— قد كنت فى مكان ما .
قال بروميتيه :
— هذا حق أعترف به . . . ولكنى أعيد أن ليس بين ذلك وبين ما نحن فيه صلة ما . . .
قال كوكليس :
— ولو ! لقد جئنا إلى هذا المطعم لنتحدث . وقد أخرجنا داموكل وأنا قصتينا وأنت وحدك لم تأت بشئ . إنما تسمع وليس هذا عدلا . قد آن لك أن تقول يا سيدى . . .
وأحس الخادم فى لباقته كلها أن قد آن الوقت لتعريفه ، فأزلق الاسم كأنما يتم الجملة قائلا فى يسر :
— بروميتيه
قال داموكليس :
— بروميتيه ! معذرة يا سيدى . يخيل إلى أن هذا الاسم قد . . .
قال بروميتيه مقاطعا :
— أوه ! ليس لهذا خطر ما .
قال الآخران فى حنق :
— ولكن إذا لم يكن لشئ خطر فلم جئت إلى هذا المطعم أيها السيد العزيز . . . سيدى . . . ؟
قال بروميتيه فى رفق :
— بروميتيه .
قال كلوكليس :
— أيها السيد العزيز بروميتيه ، ألم ألفتكما آنفا إلى أن هذا المطعم يدعو إلى القول ؟ على أنك لن تقنعنى بأن اسمك هذا الغريب هو وحده الذى يميزك . إذا لم تكن قد

عملت شيئا فستعمل شيئا ، فماذا يسعك أن تعمل . بين لنا الخصلة التى تميزك ، بأى شئ تمتاز من سائر الناس ؟ لماذا سميت بروميتيه ؟

وفى هذا الموج من الأسئلة أغرق بروميتيه فنكس رأسه ، واضطر إلى أن يجيب فى صوت أشد عمقا ، وفى شئ من الاختلاط :

— ما يميزنى يا سادتى ؟ — ما يميزنى أنا — إنه نسر .

— إنه ماذا ؟

— نسر — أو لعله صقر . . . هذا موضوع تردد .

— نسر ! هذا غريب ! — نسر . . . أين هو ؟

قال بروميتيه :

— أتحرصان على أن ترياه ؟

قالا :

— نعم ! إن لم يكن فى ذلك تطفل ..

هنالك نسى بروميتيه مكانه ، كل نسيان ، ونهض فجاءة ودفع صيحة عظيمة ، صيحة دعاء لنسره العظيم ، فوقع هذا الحادث المذهل :

قصة النسر

طائر يظهر ضخما من بعيد ، ولكنه من قريب ليس شديد الضخامة ، يغمر بالظلام سماء الشارع لحظة — ثم يهوى كالعاصفة على القهوة ، فيحطم الواجهة ، ويقع وقد فقأ عين كوكليس بخفقة من جناحه ، وفى زقزقة متصلة فيها حنان ولكن فيها قوة ، يسقط على الجنب الأيمن لبروميتيه ، الذى يسرع إلى صدارته فيفرجها ويقدم إلى النسر قطعة من كبده .

٥

اشتدت الضوضاء فى القهوة .

واختلطت الأصوات فى غير ائتلاف ، ثم تفرقت حين انضمت إليها أصوات أخرى .

وكان كوكليس يقول :

— خذ حذرك !

ولكن إنكاره ضاع فى وسط الضوضاء الضخمة التى كانت تقول :

— هذا نسر؟ هيهات !! انظروا إليه، هذا الطائر الناحل ! هذا... نسر! هيهات!! إنه لا يزيد على أن يكون ضميرا .

والواقع أن النسر العظيم كان بائسا ، نحيفا خفاق الجناحين رثا . وكان إقباله فى شره على قوته القاسى يدل على أن المسكين لم يطعم شيئا منذ ثلاثة أيام .

وأسرع آخرون مع ذلك ، فجعلوا يعرضون فى همس لبروميتيه قائلين : ولكن

أيها السيد لا تظن أن هذا النسر يميزك بشئ . نسر ، أأقول لك الحق نسر ، كل منا له نسره .

وكان أحدهم يقول :

— ولكن . . .

فيضيف الآخر :

— ولكننا لا نحمل نسرنا فى باريس . فهو لا يروق فى باريس . إن النسر يضايق . أنظر إلى ما فعل ! إن سرك أن تطعمه من كبدك فذلك إليك . ولكنى أؤكد لك أن هذا منظر مؤلم لمن يراه . فاذا عمدت إلى هذا الأمر فاستخفِ به .

وكان بروميتيه يغمغم فى اختلاط :

— معذرة يا سادتى — إن أسفى لعظيم . ماذا أصنع !

— عليك أن تخلص منه قبل أن تدخل يا سيدى .

وكان بعضهم يقول :

— يجب خنقه .

وبعضهم الآخر يقول :

— يجب بيعه ؛ فلم توجد مكاتب الصحف إلا لهذا يا سيدى .

وفى هذا الضجيج المختلط المتزايد لم يلاحظ أحد أن داموكليس يطلب الحساب إلى الخادم فجاءة . فقدم إليه الخادم حسابه على هذا النحو :

غذاء كامل لثلاثة أشخاص (مع الحديث) . . .	٣٠	فرانكا
زجاج الواجهة	٥٠٠	فرانكا
عين من الزجاج لكوكليس	٣,٥٠	فرانكا

. . . ثم قال داموكليس للخادم وهو يزلق ورقته إليه . . . : واحتفظ بالباقى . ثم انصرف سعيداً .

وآخر هذا الفصل قليل الغناء . فقد أخذ الطعم يخلو قليلا قليلا . وعبثاً حاول بروميتيه وكوكليس أن يؤديا نصيبهما من الحساب ، فقد أدى داموكليس كل شئ . وودع بروميتيه الخادم وكوكليس ، ومضى مستأنيا إلى القوقاز وهو يفكر : أيبيع النسر ؟ — أيخنقه ؟ . . . وما يمنع من استئناسه ؟ . . .

سجن بروميتيه

١

وما هى إلا أيام حتى يرى بروميتيه نفسه سجيناً بفضل تلطف الخادم الذى وشى به إلى السلطان وزعم أنه يصنع الثقاب بغير ترخيص .

وكان السجن معتزلا عن العالم لا ينظر منه إلا إلى السماء . وكان خارجه يشبه البرج . وكان من داخله يسلط السأم على بروميتيه .

وأقبل الخادم ذات يوم يزوره .

فقال له بروميتيه باسماً :

— ما أسعدنى بلقائك ! لقد كان الملل يضنينى . تحدث أنت الذى يقدم من خارج . إن جدران هذا السجن تعزلنى عن العالم ، ولست أعرف من أمر الناس شيئاً . ماذا يصنعون ؟ — وأنت أولا ماذا تصنع ؟

قام الخادم :

— لا أكاد أصنع شيئاً منذ كانت قصتك المثيرة . لم يكد أحد يلم بنا . وقد أنفقنا وقتا طويلا فى إصلاح الواجهة .

قال بروميتيه :

— إنى آسف لذلك . ولكن داموكليس ما خطبه ؟ أرأيت داموكليس ؟ لقد انصرف مسرعاً من المطعم ذلك اليوم فلم أودعه . وأنا لذلك محزون . فقد كان يظهر رجلا عذباً شديد الحياء قوى الضمير . كان يعرض ألمه فى غير تكلف ، وكان يؤثر فى نفسى . أكان على أقل تقدير سعيداً حين ترك المائدة ؟

قال الخادم :

— لم تطل سعادته . فقد رأيته من غد وقد ازداد قلقه جدا حتى بكى وهو يحدثنى . وأخص ما يقلقه صحة كوكليس .

سأل بروميتيه :

— أهو إذن مريض ؟

قال الخادم :

— كوكليس ؟ — كلا ! بل أستطيع أن أقول إنه يرى الآن بعين واحدة خيراً مما كان يرى بعينين . وهو يظهر للناس جميعاً عينه الزجاجية ويسعده أن يرثى له . فاذا لقيته فقل له إن عينه الجديدة تزينه ، وأنه يحملها فى رشاقة وظرف ، ولكن أضف أنه قد تألم من غير شك . . .

— أيألم إذن ؟

— لقد يألم حين لا يقال له إنه يألم .

— ولكن إذا استقامت حال كوكليس ، بل إذا لم ينله ألم فما قلق داموكليس ؟

— يقلق مما كان يجب أن يؤلم كوكليس .

— أتشير على حقا بأن أقول لكوكليس إنه ألم . . .

— نعم ! قل له ذلك ، ولكن داموكليس يعتقده ، وهذا يغنيه .

— وماذا يصنع غير ذلك ؟

— لاشئ . قد استأثر به هذا الخاطر الوحيد . وهو فيما بينى وبينك رجل مشغول البال — فهو يقول لولا هذه الفرنكات الخمسمائة لما صار كوكليس إلى هذا البؤس .

— وكوكليس ؟

— يقول هذا أيضاً . . . ولكنه أصبح غنيا جدا .
— وكيف كان ذلك ؟
— لست أدرى بالضبط ، — ولكن الناس رثوا له كثيراً فى الصحف ، وجمعت له معونة صالحة .
— وماذا يصنع بها ؟
— إنه ماكر . يفكر فى أن ينشئ ملجأ بالمال الذى يجمع له .
— ملجأ !
— ملجأ صغيراً ، نعم ! لا يؤوى إلا العور . وقد عين نفسه مديراً .
صاح بروميتيه :
— هيه ! إن حديثك ليتعبنى .
قال الخادم :
— لقد كنت فى ذلك راغباً . . .
— وأنبئنى أيضاً . . . ما خطب صاحب الملايين ؟
— أما هو فثعلب ! — أتظن أن شيئا من ذلك يسوءه !! إنه مثلى: يلاحظ الناس . . . إن سرك ذلك قدمتك إليه — حين تخرج من هذا السجن . . .
وأخيرا قال بروميتيه :
— وعلى ذكر السجن لماذا أنا هنا ؟ وبم أتهم ؟ أتعرف هذا أيها الخادم الذى يعرف كثيراً من الأشياء ؟
قال الخادم متكلفاً :
— لا والله ! كل ما أعلمه أنك فى سجن احتياطى . وستعرف ذنبك بعد أن يحكم عليك .
قال بروميتيه :
— هذا خير . إنى أوثر على كل حال أن أعلم .
قال الخادم :
— وداعاً ! لقد تأخرت . من عجب أن الوقت يمضى مسرعاً فى صحبتك . . . ولكن أنبئنى عن نسرك ما خطبه ؟
قال بروميتيه :
— عجباً ! لقد أنسيته .
ولم يكد الخادم ينصرف حتى أخذ بروميتيه يفكر فى نسره .

« يجب أن ينمو وأن أخف »

وإذ كان بروميتيه شديد السأم فقد دعا نسره حين أقبل المساء . — وجاء النسر . قال بروميتيه :
— لقد طال انتظارى لك .
أجاب النسر :
— فهلا عجلت دعائى !

ونظر برومثيه لأول مرة إلى نسره ، وقد قام فى غير عناية على حديد السجن الملتوى ، وكان ذهب الأصيل يبين عن شحوبه الشديد . كان داكناً دميماً متداخلا كئيباً مستسلماً يائساً . وكان يظهر أضعف من أن يطيق الطيران · فلما رأى ذلك برومثيه بكى إشفاقاً على نسره قائلا له :

— أيها الطائر الوفى كأنك تألم . أنبئنى ما خطبك ؟

قال النسر :

— إنى جائع .

قال برومثيه وقد كشف عن كبده :

— كل .

فأكل الطائر . قال برومثيه :

— إنك تؤذينى .

ولكن النسر لم يقل شيئاً آخر ذلك اليوم .

٢

فلما كان الغد حن برومثيه إلى نسره منذ الفجر . فدعاه من أعماق حمرة الصبح المشرق ، وأقبل النسر مع الشمس ، وقد نبتت له ريشات ثلاث . فانتحب برومثيه حناناً ، وقال وهو يمسح الريشات النابتة :

— شد ما تأخرت !

قال الطائر :

— ذلك أنى لا أقدر على الطيران السريع ، ولا أرتفع إلا فويق الأرض . . .

— لماذا ؟

— لأنى شديد الضعف .

— إلام تحتاج لتطير مسرعاً ؟

— إلى كبدك .

— إليك فكل .

فلما كان الغد زاد ريش الطائر ثمانى ريشات . وما هى إلا أيام حتى جعل يسبق مطلع الصبح . أما برومثيه فجعل ينحف . وكان برومثيه يقول له :

— أنبئنى عن خارج السجن . ماذا يصنع الآخرون ؟

فكان النسر يجيب :

— أما الآن فأنا أحلق ، ولا أعرف غير السماء وغيرك .

وقد أخذ جناحاه ينموان شيئاً فشيئاً .

— أيها الطائر الجميل ماذا تقص هذا الصباح ؟

— لقد روضت جوعى فى الفضاء .

— أيها النسر ! ألا تكون فى يوم من الأيام أقل قسوة على ؟

— لا ! ولكنى أستطيع أن أزداد جمالا .
وكان بروميتيه مفتوناً بماسيستقبل لنسره من الجمال ، فكان يزيد فى طعامه من يوم إلى يوم .

وذات مساء أقام النسر ولم يرم .
ثم لم يبرح السجن من غد .
وكان يشغل السجين بنهسه ، وكان السجين يشغله بمسه الرفيق ، يزيده الحب نحولا كل يوم ، وكان ينفق النهار ماسحا ريشه مسحا رفيقا ، وكان ينفق الليل مغفياً تحت جناحه ، مقدما إليه من الطعام ما يشاء . — والنسر لا يفارقه ليلا ولا نهارا .
— أيها النسر الحلو ! من كان يظن ؟
— يظن . ماذا ؟
— أن ساعات حبنا ستكون عذابا .
— آه بروميتيه . . .
— قل لى أى نسرى العزيز أتعلم فيم أنا سجين ؟
— ما يعنيك من ذلك ؟ ألست معك ؟
— أجل ! ماذا يعنيني ؟ أراض أنت عنى على الأقل يانسرى الجميل ؟
— أجل ! إن رأيتنى رائع الجمال .

ـ ٣ ـ

وجاء الربيع ، والتفت حول أعواد البرج الحديدية أغصان مزهرة عطرة من اللبلاب .
قال النسر :
— سنبرح الأرض ذات يوم .
صاح بروميتيه :
— أحق هذا ؟
قال النسر :
— لقد أصبحت قويا أيداً ،وأصبحت أنت نحيلا ضئيلا ،فأستطيع أن أحملك .
— أيها النسر أيها النسر . . . احملنى .
واحتمل النسر بروميتيه .

فصل يتيح انتظار ما بعده

فى ذلك المساء التقى كوكل وداموكل وتحدثا . ولكن شيئاً من الفتور كان بينهما من غير شك . فكان كوكليس يقول :
— ماذا تريد ؟ إن الرأى بيننا مختلف .

وكان داموكل يجيب :

— أواثق أنت ؟ ليس أحب إلى من أن نتفق .

— تقول ذلك ولكنك لا تؤمن إلا لنفسك .

— أما أنت فلا تعنى حتى بالاستماع لى . قل إذن إن كنت تعلم .

— أتزعم أنك تعلم خيراً منى ؟

— وا أسفاه يا كوكليس! إنك تغضب — ولكن رحماك! قل لى ماذا يجب أن أصنع ؟

— لا تصنع لى شيئا أكثر مما صنعت . لقد اتخذت لى عينا من زجاج .

— من زجاج لأنى لم أجد خيراً من ذلك يا عزيزى كوكليس .

— نعم ! بعد أن جعلتنى أعور .

— ولكن لست أنا الذى جنى عليك يا عزيزى كوكليس .

— هذا أقل ما كان يجب أن تفعل . على أنك كنت تستطيع أن تتكلف الثمن — فقد كنت غنيا بفضل لطمتى .

— أى كوكليس لننس الماضى ! . . .

— بالطبع يروقك أن تنساه .

— ليس هذا ما أعنى . . .

— ولكن ماذا تريد أن تقول إذن ؟ هلم تكلم !

— إنك لا تسمع لى .

— لأنى أعلم ما ستقول .

وكاد الحوار الذى لا جديد فيه يتخذ مجرى سيئاً ، وإذا هما يصطدمان فجاءة بلوحة إعلان متنقلة وقد كتب عليها :

هذا المساء فى الساعة الثامنة

فى قاعة الأهلة

سيتحدث عن نسره

بروميثيه محرراً

وفى الساعة الثامنة والنصف

يقدم النسر إلى النظارة ويأتى ببعض الحركات

وفى الساعة التاسعة

يجمع الخادم التبرعات لملجأ كوكليس

قال كوكليس :
— يجب أن نرى هذا .
قال داموكليس :
— سأصحبك .

٤

ودخلت جماعة النظارة قاعة الأهلة فى تمام الساعة الثامنة .
وجلس كوكليس فى وسط القاعة عن يسار ، وجلس داموكليس فى وسطها عن يمين ، وجلس سائر الناس بين ذلك .
واستقبل بروميتيه برعد من التصفيق . فصعد درجات المنصة ، ووضع نسره إلى جانبه ، وثاب إلى نفسه . وجرى فى القاعة صمت مرتعش . . .

الاستدلال بالدور

وبدأ بروميتيه حديثه قائلا :
— سادتى ! لا أزعم لنفسى مع الأسف القدرة على إمتاعكم بما سأقول ، ولهذا استصحبت هذا النسر ، ليلعب بعض اللعب حين أفرغ من كل جزء ممل لهذا الحديث . وأنا أحمل كذلك بعض الصور الماجنة وبعض الصواريخ الطائرة . وسأسلى النظارة بها فى المواطن الخطيرة من خطبتى . فلى أن أنتظر منكم أيها السادة بعض الالتفات .
وسيشرفنى أيها السادة أن أشهدكم طعام النسر فى كل موضع جديد من خطبتى — لأن خطبتى أيها السادة تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، (ولم أرد أن أعدل عن هذا التقسيم الذى يلائم عقلى التقليدى) . — وإذا ما كان ما قدمت يصلح فاتحة لهذه الخطبة ، فسأعلن إليكم الآن مقدماً وفى غير تكلف القسمين الأولين من أقسامها :
القسم الأول : يجب أن يكون لكل إنسان نسر .
القسم الثانى : على أن لكل واحد منا نسراً .
وإذ كنت أخشى أيها السادة أن تظنوا بى التعصب ، وإذ كنت أخشى كذلك أن أقيد حريتى فى التفكير ، فقد تعمدت ألا أعد من خطبتى إلا هذين القسمين . أما القسم الثالث فسينتج بالطبع عن القسمين الآخرين ، وسأدع الحماسة تسلك سبيلها إلى أبعد حد . — وسيختم النسر هذا الحفل بجمع التبرعات .
فصاح كوكليس :
— مرحى ! مرحى !
شرب بروميتيه جرعة من ماء . ودار النسر ثلاث مرات حول بروميتيه ثم حيا ، ونظر بروميتيه فى القاعة ، وابتسم لداموكليس ثم لكوكليس ، ولم ير آية من آيات السأم فأجل صواريخه ، واستأنف قائلا :



مهما يكن حظى من البراعة البيانية أيها السادة فلن أستطيع أمام بصائركم النافذة ، أن أخفى التناقض الذى لا مفر منه والذى ينتظرنى فى أول حديثى .

فمهما نصنع أيها السادة فلا سبيل لنا إلى الافلات من التناقض . ماعسىٰ أن يكون التناقض ؟ أجرؤ أيها السادة على أن أقول : إن كل تناقض إنما هو تأكيد للمزاج ، إذ حيث ينعدم الدليل يتأكد المزاج .

فاذا أعلنت : يجب أن يكون لكل إنسان نسر ، كان لكم أن تتصايحوا : لماذا ؟ — وإذن فكيف تريدون أن أجيب بغير هذا الجواب الذى يؤكد شخصيتى ومزاجى وهو : لا أحب الناس ، وإنما أحب مايلتهمهم .

المزاج أيها السادة هو مايجب أن يثبت نفسه . ستقولون : هذا تناقض جديد . ولكنى قلت آنفاً إن كل تناقض إنما هو تأكيد للمزاج . ومن حيث إنى أرى وجوب تأكيد المزاج فانى أعيد : لا أحب الناس وإنما أحب ما يلتهمهم . — وعلى ذلك فاذا يلتهم الانسان ؟ يلتهمه نسره . وإذن أيها السادة فيجب أن يكون لكل إنسان نسر . وأظن أنى قد أثبت ذلك إثباتاً كافياً .

. . . وا أسفاه ! إنى أرى أيها السادة أنى قد أملتكم ، فبعضكم يتثاءب . وقد أستطيع فى الحق أن أسوق هنا بعض النكات ، ولكنكم قد تجدونها متكلفة ، فان عقلى مطبوع على الجد لا يحيد عنه . لذلك أوثر أن أدير عليكم بعض الصور الماجنة . ذلك أحرى أن يهدئ الذين يملهم حديثى ، فأمضى إلى الغاية .

وشرب بروميتيه جرعة من ماء ، ودار النسر ثلاث مرات حول بروميتيه ، ثم حيا . واستأنف بروميتيه :

بقية حديث بروميتيه

سادتى : لم أعرف دائماً نسرى . وهذا هو الذى يحملنى على أن أستنتج بقياس له اسم خاص فى المنطق أنسيته ، لأنى حديث عهد بالمنطق لم أدرسه إلا منذ ثمانية أيام — أقول إن هذا هو الذى يحملنى على أن أستنتج . وإن لم يكن هنا إلا نسر واحد هو نسرى ، أن لكل واحد منكم أيها السادة نسراً .

لقد كتمت قصتى إلى الآن . على أنى إلى الآن لم أكن أفهمها . وإذا أخذت نفسى بأن أقصها عليكم فى هذه الساعة ، فلأنها تظهر لى فى هذا الوقت بفضل نسرى رائعة حقا .

٦

سادتى ، قلت لكم إنى لم أكن أعرف نسرى دائماً . وكنت قبل أن أعرفه خلياً جميلا، سعيداً عارياً دون أن أعلم ذلك . يا لها أياماً سعيدة . على جوانب القوقاز المشرقة كانت آسيا الهلوك تعانقنى سعيدة عارية أيضاً ، وكنا معاً نتدحرج فى الأودية ، ونجد غناء الهواء ، وضحك الماء ، وأرج أيسر الزهر شأناً . وكثيراً ما كنا لضطجع فى ظل الأغصان العراض ، بين أزهار يتنازى عليها ذبابها متناغياً . وكانت آسيا تقترن بى يملؤها الضحك ، ثم فى شئ من العذوبة يمتزج طنين الذباب ، وهفيف الورق ، وخرير الجداول الكثيرة ، فيدعونا إلى أعذب النوم وأحلاه . وكان كل شئ من حولنا يسمح و يحمى عزلتنا التى لا يطيقها الانسان . — وذات يوم قالت لى آسيا فجاءة : ينبغى أن تعنى بالناس .

وكان يجب على أولا أن أتبسم .

كنت أريد أن أعنى بهم ، ولكن عنايتى بهم كانت إشفاقا عليهم .

كانوا يغمرهم شئ من ظلمة . فاخترعت لهم شيئا من نار . ومنذ ذلك الوقت بدأ نسرى . من ذلك الوقت جعلت أشعر أنى عريان .

وهنا انطلق التصفيق من بعض جوانب القاعة . وفجأة أمعن بروميتيه فى النحيب . وخفق النسر بجناحه وتغنى . وفى حركة بشعة فرج بروميتيه صداره وقدم كبده الجريحة إلى الطائر . فتضاعف التصفيق . ثم دار النسر ثلاث مرات حول بروميتيه . وشرب هذا جرعة من ماء ، وثاب إلى نفسه ، واستأنف حديثه قائلا :

٧

سادتى كان التواضع يسيطر على . معذرة إليكم فانى إنما أتحدث إلى الجمهور لأول مرة . أما الآن فالصراحة هى المسيطرة : سادتى لقد عنيت بالناس أكثر جدا مما كنت أقول . سادتى لقد أهديت إلى الناس خيرا كثيرا . سادتى لقد أحببت الناس حبا عنيفا هائما سيئ العاقبة . — ولقد أحسنت إليهم حتى كأننى خلقتهم خلقا ؛ فأى شئ كانوا قبلى ؟ — كانوا موجودين ، ولكنهم لم يكونوا يشعرون بوجودهم . — صنعت لهم يا سادتى بكل ما ملكت من حب ، هذا الضمير كأنه النار التى تضئ لهم . — وأول ما عرفوا من الشعور إنما كان الشعور بجمالهم . هذا الذى أتاح لهم بقاء النوع . وكذلك استطاع الانسان أن يبقى فى ذريته . وكذلك تكرر جمال الانسان الأول مستويا لا يحفل به أحد ولا يتحدث عنه أحد . وكان ذلك خليقا أن يتصل زمنا طويلا . — ولكنى كنت بهم معنيا ، وكنت أحمل على غير علم منى البيضة التى خرج منها نسرى . فأردت أكثر من ذلك بل خيرا من ذلك . خيل إلى أن بقاء النوع وأن اتصاله المتقطع إنما يصوران فيهم تنظر شئ — على حين كان نسرى وحده هو الذى ينتظر . أما أنا فلم أكن أعلم ؛ إنما كنت أظن أن الانسان هو الذى كان ينتظر ؛ كنت أضع هذا الانتظار فى الانسان .

على أنى وقد وضعت الانسان على صورتى . أفهم الآن أن فى كل فرد من أفراده شيئا ينتظر وهو لم يتفتح بعد . فى كل فرد من أفراده كانت بيضة النسر . . . ثم لا أدرى ؛ لا أستطيع آن أفسر ذلك ، وإنما أعرف أنى لم أقنع بمنحهم الشعور بوجودهم فمنحتهم الأسباب التى تجعل وجودهم نافعا مغنيا . منحتهم النار واللهب وكل الفنون التى يكون اللهب لها مادة . أشعت الحرارة فى نفوسهم ، فتفتح فيهم مايلتهمهم من الايمان باستعداد الانسان للرقى . وكنت أجد متعة غريبة حين أرى الانسان يفنى صحته ليبقى نوعه — لا مؤمنا بالخير بل مريضا طامحا إلى خير من الخير . وكان إيمانهم بالرقى ، أيها السادة ، هو نسرهم . فنسرنا ، أيها السادة ، هو علة وجودنا .

وقد جعلت سعادة الانسان تنقص وتنقص ولكنى لم أحفل بذلك : فقد ولد النسر . لم أكن أحب الناس ، وإنما كنت أحب ما يبقى من آثارهم . وقد فرغت من انسانيتى التى لا تاريخ لها . . . إنما تاريخ الانسان أيها السادة هو تاريخ النسور .

٨

وهنا اندفع شئ من تصفيق ، فاعتذر بروميتيه مضطربا :

— أيها السادة لقد كنت أكذب . معذرة إليكم ؛ فلم يكن هذا سريعا إلى هذا الحد . كلا لم أحبب النسور دائما . لقد آثرت عليها الانسان وقتا طويلا ؛ وكنت حريصا على سعادته المنقوصة لأنى نقصتها فكنت أرانى مسئولا عنها . وكنت كلما فكرت فيها حين يقبل المساء أقبل نسرى على محزونا كأنه الندم وأخذ يأكل .

كان فى ذلك الوقت نحيفا شاحبا مهتما كئيبا — كان دميما كأنه الصقر — فانظروا إليه الآن أيها السادة وافهموا لماذا أتكلم ؛ لماذا أجمعكم هنا ! لماذا أضرع إليكم فى أن تسمعوا لى : ذلك أنى استكشفت هذا ، وهو أن النسر يمكن أن يصير جميلا جدا — ولكل واحد منكم نسره كما أكدت لكم ذلك آنفا . نسر ؟ — وا أسفاه ! لعله أن يكون صقراً ! لا ، لا ! لا صقر أيها السادة ! — يجب أيها السادة أن يكون لكل إنسان نسر . . .

والآن أصل إلى المسألة الخطيرة : — لماذا النسر ! آه ! لماذا ! — ليجب النسر على هذا السؤال . هذا نسرى أيها السادة أحمله إليكم ... أيها النسر أمجيب أنت الآن ؟...

ثم التفت بروميتيه قلقا إلى نسره . وكان النسر ساكنا وظل ساكتا . . . فاستأنف بروميتيه فى صوت أسف :

— أيها السادة ! لقد سألت نسرى فى غير طائل . . . أيها النسر ! تكلم الآن : إنهم يستمعون لك . من أرسلك ؟ — لماذا اخترتنى ؟ من أين أقبلت ؟ إلى أين تذهب ؟ تكلم ما طبيعتك ؟ . . . (وظل النسر صامتا .) — كلا ! لا شئ ! لا كلمة ! لا صيحة ! وقد ظننت أنه سيكلمكم أنتم ؛ ولهذا استصحبته . . . أأتكلم إذن وحدى هنا . كل شئ صامت ! كل شئ صامت — ما معنى هذا ! . . . لقد سألته فى غير طائل .

ثم التفت إلى النظارة قائلا :

— لقد أملت أيها السادة أن تحبوا نسرى ، وأن حبكم سيجعل لجماله علة . — من أجل ذلك منحته نفسى وغذوته بدم قلبى . ولكنى أرى أنى أعجب به وحدى ... أليس يكفيكم أن يكون جميلا ؟ — أم تنكرون على جماله ؟ — أنظروا إليه على أقل تقدير ... إنى لم أعش لشئ غيره . — وأنا الآن أحمله إليكم . ها هو ذا ! — ولقد كنت أعيش من أجله — أما هو فلم يعيش ؟ — أيها النسر الذى غذوته بدمى بنفسى والذى منحته كل حبى . . . (وهنا قطع النحيب على برومتيه حديثه) — أيجب إذن أن أترك الدنيا دون أن أعلم لماذا أحببتك ، ودون أن أعلم ماذا تعمل وإلى أى حال تصير بعدى على هذه الأرض . . . على الأرض سألت . . . سألت فى غير طائل .

وكان الكلام يحتبس فى حلقه ؛ وكانت الدموع تمنع صوته من أن يبلغ السامعين .

ثم استأنف قائلا وقد استرد شيئا من هدوء :

— معذرة أيها السادة ؛ — معذرة من أن تحدثت إليكم بأشياء عظيمة الخطر ؛ ولو قد علمت شيئا أعظم منها خطرا لأفضيت إليكم به .

ثم مسح برومتيه عرقه المتصبب وشرب جرعة من الماء وأضاف :

آخر حديث برومتيه

لم أعدد من حديثى إلا هذا القدر . . .

وهنا اشتدت الحركة فى القاعة ؛ وهم الذين أدركهم السأم أن ينصرفوا .

فصاح برومتيه :

— سادتى إنى أتوسل إليكم فى أن تقيموا . لن أطيل . ولكن المهم لم يقل بعد إن لم أكن قد أقنعتكم . أيها السادة ! — أرجو . . . هلم ! شيئا من السرعة . . . بعض الصواريخ . . . وأنا محتفظ بأقومها للحظة الأخيرة . . .

— أيها السادة رحماكم اجلسوا ؛ انظروا . أترون أنى أقتصد . إنى أرسل منها ستة فى وقت واحد . ومع ذلك فغلق الأبواب يا فتى .

وأثرت الصواريخ تأثيرا حسنا ، فجلس أكثر الواقفين .

— والآن أين بلغت من حديثى ؟ لقد اعتمدت على الاندفاع الذى أصبته فقد قطعته حركتكم . . .

فصاح صائح :

— ليكن ، هذا خير .

قال برومتيه :

— آه ! لقد ذكرت . . . كنت أريد أن أقول لكم . . .

(فتصايح الناس من كل جانب : — حسبك ! حسبك ! !)

. . . إنه يجب عليكم أن تحبوا نسركم .

فارتفعت إليه فى سخرية من هنا وهناك أسئلة : « لماذا ؟ »

— إنى أسمع أيها السادة أسئلتكم « لماذا » : فأجيب : لأنه حينئذ سيصير جميلا .
— وإذا صرنا نحن إلى الدمامة .
— أيها السادة إن ما أحمل إليكم هنا ليس كلاما تبتغى به المنفعة . . .
— هذا بين .
— إنما هو كلام قوامه الاخلاص . أيها السادة يجب أن يخلص الانسان لنسره . . . (فيضطرب الناس وينهض كثيرون) . أيها السادة لا تقفوا ! فسأمس بعض الشخصيات . . . لست فى حاجة إلى أن أذكر هنا قصة كوكليس وداموكليس . فكلكم يعرفها . وهأنذا أواجههما بالحق . إنما سر حياتهما فى إخلاص كل منهما فى دينه . فى إخلاصك للطمتك يا كوكليس ، وفى إخلاصك لورقتك يا داموكليس . أى كوكليس كان يجب عليك أن تتعمق جرحك وعينك الفارغة أى كوكليس . أما أنت يا داموكليس فقد كان يجب أن تستبقى المئات الخمس من الفرنكات ، وأن تظل مدينا بها فى غير خجل ، وأن تظل مدينا بأكثر منها ، وأن تظل مدينا فى فرح . هذا هو نسركما أنتما . وهناك نسور أخرى ؛ هناك نسور أعظم منهما مجدا . ولكنى أقول لكم هذا : إنما النسر يلتهمنا على كل حال سواء أكان فضيلة أم رذيلة ، واجبا أم شهوة . إجتهد فى ألا تكون رجلا عاديا ، وإذن فلن تفلت من النسر . ولكن . . .
(وهنا كاد صوت بروميتيه يضيع فى صخب الجمهور) — ولكنكم إذا لم تطعموا نسركم محبين له فسيظل شاحبا بائسا مستخفيا من الناس جميعا ولكنه مع ذلك متربص ؛ وهو الذى يسمى حينئذ بالضمير ، وهو غير خليق بما يثير فى النفوس من آلام ؛ لا حظ له من جمال . — أيها السادة يجب أن يحب الانسان نسره ، وأن يحبه ليصير جميلا . فقد يجب أن تحبوه لأنه سيصير جميلا . . . أما الآن فقد فرغت . وسيأخذ نسرى فى جمع التبرعات . أيها السادة يجب أن تحبوا نسرى : — وأنا مع ذلك أرسل بعض الصواريخ .

. . . .
. . . .

وبفضل هذه التسلية الصاروخية تفرقت الجماعة فى غير مشقة ؛ ولكن داموكليس أصابه البرد حين خرج من القاعة .

مرض داموكليس

١

قال الخادم لبروميتيه وقد لقيه بعد ذلك بأيام :
— هل تعلم أن حاله تسوء ؟
— من ؟
— داموكليس . أجل تسوء جدا : — أدركته العلة منصرفه من محاضرتك . . .
— أى علة ؟

— يتردد فيها الأطباء ؛ — إنها علة شديدة الندرة . . . يتحدثون عن ضيق فى العمود . . .

— فى العمود ؟

— فى العمود . — وإذا لم تدركه العافية باحدى المعجزات فلن يزداد المرض إلا خطراً . إنه ضعيف جدا لاشك فى ذلك ؛ وإنك لا تحسن بعيادته .

— أتعوده كثيراً ؟

— أنا ؟ كل يوم . إنه قلق على كوكليس ، وانا أحمل إليه أنباءه . .

— ولما لا يذهب إليه بنفسه ؟

— كوكليس ؟ — إنه مشغول جدا . لقد أثر فيه حديثك تأثيراً هائلا . أتجهل ذلك ؟ فهو لا يتحدث إلا عن الاخلاص . وهو ينفق وقته مطوفا فى كل مكان متلمسا لطمة جديدة تؤدى شيئا من المال لرجل من أمثال داموكليس . وهو يغرى فى غير نفع خده الآخر .

— نبئ بذلك صاحب الملايين .

— إنى أنبئه بذلك فى كل يوم . بل أنا من أجل ذلك أعود داموكل فى كل يوم .

— ولم لا يعوده هو ؟

— هذا ماأقوله له ولكنه يرفض . لايريد أن يعرف . ومع ذلك فقد يبرأ داموكليس إذا عرف من أحسن إليه : أقول له ذلك ولكنه يمعن فى إبائه ويحرص على أن يظل مجهولا — فقد فهمت الآن أنه لا يعنى بداموكليس وإنما يعنى بعلته .

— ألم تقل لى إنك ستقدمنى إليه . . . ؟

— منذ الآن إن شئت .

ومضيا إليه من ساعتهما .

٢

وإذ لم نعرف زوس صديق الخادم فقد أزمعنا ألا نتحدث عنه إلا قليلا . فلنرو عنه فى يسر هذه الكلمات .

حديث صاحب الملايين

الخادم : — أليس حقا أنك عظيم الثراء ؟

صاحب الملايين ملتفتا قليلا نحو بروميتيه : — أنا غنى ، أغنى جدا مما يمكن أن يظن . أنت لى ، وهو لى ، وكل شئ لى . — إنكم تظنون أنى صاحب مصرف ، ولكنى شئ آخر . وإن تأثيرى فى باريس خفى ، ولكن هذا لا يقلل من قيمتى . هو خفى لأنى

لا أتتبعه . نعم ! إنى أحب قبل كل شئ الابتكار . أنا أنشئ . ثم إذا تقدم ما أنشأته أعرضت عنه ، ثم لم أمسسه .

الخادم : — أليس حقا أن أعمالك عابثة ؟

صاحب الملايين : — أنا وحدى ، إنما صاحب الثراء الذى لا حد له هو الذى يستطيع أن يعمل فى غير غاية . أما الانسان فلا . ومن هنا أحببت اللعب ؛ لم أحب الكسب ، افهما عنى — إنما أحب اللعب . وماذا عسى أن أكسب وقد ملكت كل شئ ؟ حتى الزمن . . . أتعرفان سنى ؟

برومثيه والخادم : — يظهر أن سيدنا مازال شابا .

صاحب الملايين : — وإذن فلا تقاطعنى يا برومثيه . نعم أنا كلف باللعب . واللعب الذى أوثره هو أن أقرض الناس — أقرضهم لاعبا. أقرضهم مضيعاً للمال . أقرضهم وكأنما أعطيهم . — يعجبنى ألايعلم الناس أنى أقرض . أنا ألعب ولكنى أخفى لعبى . أنا أجرب . أنا ألعب كما يلقى الهولندى بذوره ، كما يزرع بصيلة خفية . وما أقرضه للناس وما أزرعه فى الناس يعجبنى أن ينمو ، يعجبنى أن أراه ينمو. وبغير ذلك يصبح الانسان فارغاً ! — دعانى أقصص عليكما أحدث تجاربى ، وستعينانى على ملاحظتها . اسمعا لى أولا وستفهمان بعد ذلك . ستفهمان .

لقد هبطت إلى الشارع ملتمساً الوسيلة إلى أن أوذى أحد الناس بالخير الذى سأسوقه إلى غيره ، لأمتع هذا الأخير بالألم الذى سأمتحن به ذلك الأول . ويكفينى لذلك لطمة وورقة قيمتها خمسمائة فرنك ؛ لأحدهما اللطمة وللآخر الورقة . أواضح هذا ؟ أما ما هو أقل من هذا وضوحا ، فهى الطريقة التى يكون بها المنح .

قال برومثيه مقاطعاً :

— أعرف ذلك .

قال زوس :

— ماذا ! أتعرف ؟

— لقد لقيت داموكليس وكوكليس ؛ إنما أحدثكما عنهما بالضبط : إن داموكليس يلتمسك ويدعوك ؛ إنه قلق ؛ إنه مريض ؛ أشفق عليه وأظهر له نفسك .

— ياسيدى حسبك — لست فى حاجة إلى أن أتلقى النصح من أحد .

وهم برومثيه أن ينصرف . ولكن يبدو له فجاءة :

— سيدى معذرة إليك واعف لى عن سؤال متطفل . أظهره لى متفضلا ! كم أود لو أراه . . .

— ماذا ؟

— نسرك .

— لا نسر لى يا سيدى .

— لا نسر لك ؟ ليس له نسر !! ولكن . . .

— لا نسر لى كما أنه لا نسر فى باطن يدى . النسور (وكان زوس يضحك) النسور أنا الذى أعطيها .

وكان ذهول برومثيه عظيما .

قال الخادم لصاحب المصرف :
— أتعرف ماذا يقال ؟
— ماذا يقال ؟
— يقال إنك الاله !
قال الآخر :
— لقد سمعت ذلك .

٣

ذهب بروميتيه ليعود داموكليس . ثم عاده مرات كثيرة . ولم يكن يتحدث إليه كل مرة ؛ ولكن الخادم كان يعطيه أنباءه . وقد استصحب كوكليس ذات يوم . فاستقبلهما الخادم . قال بروميتيه :
— كيف هو ؟
أجاب الخادم :
— سيئ سيئ جداً . لم يطعم البائس شيئاً منذ ثلاثة أيام . إن مصير ورقته يعذبه ، فهو يلتمسها فى كل مكان ولا يجدها فى مكان . يظن أنه أكلها فيتخذ المسهل ويلتمسها فيما يخرج منه . فاذا ثاب إليه عقله وذكر هذه المغامرة لم يزده ذلك إلا حزنا ولغصاً . وهو واجد عليك يا كوكليس ، فهو يزعم أنك تعقد دينه حتى يختلط الأمر عليه ، وهو يهذى فى أكثر الأحيان . ونحن ثلاثة نسهر عليه الليل ، ولكنه يثب فى سريره حتى يحول بيننا وبين النوم .
قال كوكليس :
— أيمكن أن نراه ؟
— نعم ! ولكنك ستراه قد تغير . إن القلق يفنيه . لقد نحف ونحف ونحف . أتراك تعرفه ؟ — وهو أتراه يعرفك ؟
ودخلوا يسعون على أطراف أقدامهم .

الأيام الأخيرة لداموكليس

وكانت غرفة داموكليس بغيضة الرائحة لما اشتملت عليه من أدوية ، وكانت ضيقة منخفضة السقف . وكان ينتشر فيها ضوء حزين من ساهرتين . وكان داموكليس يرى فى سرير تحت كومة قذرة من الأغطية . وكان يتحدث إلى شخص ما وإن لم يكن أحد يصغى إليه ؛ وكان صوته أجش مبحوحاً . وقد نظر كل من بروميتيه وكوكليس إلى صاحبه وقد ملأهما الروع ! ولم يسمعهما داموكليس حين أقبلا ، فمضى فى حديثه كأنه كان وحيداً .

كان يقول :

— ومنذ ذلك اليوم ظهر لى فى وقت واحد أن حياتى قد أصبحت ذات معنى ، وأنى لا أستطيع أن أحيا ! هذه المئات الخمس من الفرنكات البغيضة المقوتة ، كنت أظن أنى مدين بها للناس جميعاً ولا أجرؤ على أن أعطيها لأحد — لقد حرمتها الناس جميعاً . ولم أكن أفكر إلا فى أن أخلص منها — ولكن أين ؟ — فى صندوق التوفير ! لقد كان ذلك خليقا أن يزيد همى . كان دينى يزداد بمقدار ما ينتج من فائدة ؛ وكان ثقيلا على أن أدع هذا المال راكداً . وكذلك رأيت أن أدير هذا المقدار من المال . فكنت أحمله دائما ؛ وكنت أستبدل فى نظام كل ثمانية أيام بالورقة نقداً وبالنقد ورقة . وليس فى الصرف ربح ولا خسارة ، وإنما هو جنون دائر ليس غير . وإلى هذا كان يضاف الألم من أنى إنما تلقيت هذه المئات الخمس من الفرنكات بفضل لطمة تلقاها رجل آخر ! — وفى ذات يوم لقيتك فى المطعم كما تعلم . . . .

قال الخادم :

— إنما يتحدث عنك .

— وإذا نسر بروميتيه يحطم واجهة ويفقأ عين كوكليس . . . لقد نجوت !! عابثا منتهزا للمصادفة مستفيدا من الحظ . سأزلق هذا المبلغ فى أثناء هذه الأحداث . لادين ! لقد نجوت ! — واحسرتاه يا سادتى . ياله من خطأ . . . إنما احتضر منذ ذلك اليوم . كيف أفسر لكم هذا ؟ أيمكن أن تفهموا ما أجد من لوعة هذه المئات الخمس من الفرنكات ؟ أنا مدين دائما ولكنها ليست فى يدى ! لقد هممت فى جبن أن أتخفف من دينى ولكنى لم أؤده . وإنى ليأخذنى الكابوس أثناء الليل فأهب وقد تصببت عرقا وأجثو صائحا : « رباه ! رباه ! لمن كنت مدينا ؟ — رباه ! لمن كنت مدينا ! »

لست أدرى ولكنى كنت مدينا . — إن الدين يا سادتى شئ بغيض . أما أنا فقد آثرت أن أموت . — والآن فان أشد ما يؤلمنى هو أنى نقلت إليك هذا الدين يا كوكليس . . . كوكليس ! إن عينك ليست لك لأن المال الذى اشتريتها به لم يكن لى . يقول الكتاب المقدس : « أى شئ عندك لم يعط لك » . . . يعطى لى ممن ؟ ممن ؟ ممن ؟ — إن شقائى لا يطاق .

وكان صوت البائس يتقطع ويبتل ويختنق فى الشهيق والنحيب والدموع . وكان بروميتيه وكوكليس قلقين يسمعان . قد أخذ كل منهما بيد صاحبه وهما يرتعدان . وكان داموكليس يقول وكأنه كان يراهما :

— إن الدين لبغيض أيها السادة . . . ولكن أشد منه هولا الندم على محاولة التخلص من الدين . . . كما لو كان الدين أقل وجوداً إذا حمله شخص آخر . . . ولكن عينك تحرقك يا كوكليس ! — أى كوكليس !! إنى واثق بأن عينك الزجاجية تحرقك . انزعها ! — إن لم تكن تحرقك فهى خليقة أن تحرقك . — إنها ليست لك هذه العين . . . وإذا لم تكن لك فهى إذن لأخيك . . . لمن هى ؟ لمن ؟؟ لمن ؟؟

وكان البائس يبكى ؛ وكان يفقد عقله وقوته ؛ وكان أحياناً يحدق فى كوكليس و بروميتيه كأنه يعرفهما ثم يصيح بهما :

— إفهما عنى إشفاقاً على ! إن الاشفاق الذى أطلبه إليكما ليس عصابة مبتلة على جبهتى

وليس قدحا من الماء البارد وليس شرابا حارا ؛ وإنما هو أن تفهما عنى . أعينانى إذن رحمة لى على أن أفهم نفسى ! — إن عندى هذا الذى لا أدرى من أين جاءنى ، والذى أنا مدين به لا أدرى لمن ! لمن !! لمن !! — ولأجل أن أخلص من هذا الدين ظننت أنى أقدر على ذلك فذهبت أمنحه لغيرى ! لغيرى !! لكوكليس تصدقت عليه بعين !! ولكن هذه العين ليست لك يا كوكليس . أرددها . أرددها ، إلى من ! إلى من !! إلى من !! ولم يستطع كوكليس و بروميتيه أن يحتملا فانصرفا .

٤

قال كوكليس وهما يهبطان فى السلم :

— هذا جزاء من اكتسب الغنى من ألم غيره .

قال بروميتيه :

— ولكن أتجد على أقل تقدير شيئاً من الألم ؟

قال كوكليس :

— أجد الألم فى عينى أحيانا ، فأما اللطمة فلا أكاد أجد لها ألماً ؛ لقد خف وقعها . ولست أحب ألا أكون قد تلقيتها لأنها أظهرتنى على أنى رجل خير . وهذا يعجبنى و يرضينى ، فما أنفك أفكر فى أن ألبى قد عاد على نظير لى بالرزق وأغل عليه مئات خمساً من الفرنكات .

قال بروميتيه :

— ولكن نظيرك هذا يموت من ذلك يا كوكليس .

— ألم تكن تقول له إن عليه أن يغذو نسره ؟ — ماذا تريد ؟ لم نستطع قط ، داموكليس وأنا ، أن نتفق ؛ فان أراءنا متناقضة إلى أبعد حدود التناقض .

ثم انصرف بروميتيه عن كوكليس ومضى مسرعا إلى زوس صاحب المصرف . فقال له :

— أشفق على هذا الرجل وأره نفسك أو أعلمه من أنت . إن البائس يموت حسرة . وقد أفهم أن تقتله لأنك تجد فى ذلك لذة ، ولكن يجب أن يعلم على الأقل من قاتله — ليستريح إلى هذا العلم .

قال صاحب الملايين :

— لا أريد أن أفقد سلطانى .

٥

وكانت آخرة داموكليس خليقة بالاعجاب ؛ فقد نطق قبيل ساعته الأخيرة ببعض هذه الكلمات التى تبكى أشد الناس جحودا وتحمل المؤمنين بالدين على أن يقولوا إنها مليئة بالعبرة والموعظة . وكان أظهر شعوره ما تصوره هذه الكلمات : — أرجو على الأقل ألا يكون هذا المبلغ قد قضى عليه الحرمان .

فسئل : من هو ؟
قال داموكلي وهو يجود بنفسه :
— هو من أعطانى شيئاً . . .
قال الخادم فى لباقة :
— كلا ! إنما هو الاله .
ومات داموكليس حين سمع هذه الكلمة الطيبة .

الجنازة

وكان بروميتيه يقول لداموكليس وهما يتركان غرفة الموت :
— إن هذا لفظيع ! إن آخرة داموكليس لتملأ نفسي جزعاً . أحق أن محاضرتى كانت مصدر مرضه ؟
قال الخادم :
— لا أستطيع أن أؤكد ذلك ، ولكنى أعلم على الأقل أنه كان شديد التأثر بما كنت تقول عن نسرك .
قال كوكليس :
— عن نسرنا .
قال بروميتيه :
— لقد كنت شديد الاقتناع . ولذلك أقنعته . . . لقد كان حديثك شديد القوة . . .
— كنت أظن أن أحداً لم يكن يصغى إلى . . . وكنت من أجل ذلك ألح . . . ولو قد علمت أنه كان يسمع لى . . .
— ماذا كنت قائلا ؟
قال بروميتيه مغمغماً :
— نفس ما قلته .
— وإذن ؟
— ولكنى لن أقول ذلك منذ الآن .
— ألم تعد مقتنعاً ؟
— لقد أسرف داموكليس فى الاقتناع . فأما الآن فان لى فى نسرى آراء أخرى .
— وعلى ذكر النسر أين هو ؟
— لا تخف يا كوكليس فانى أرقبه من كثب .
— وداعاً . سأتخذ الحداد . متى نلتقى ؟
— حين الدفن فيما أظن . سأتكلم عند القبر . يجب أن أصلح شيئاً . ثم أدعوكما بعد ذلك ، سأقدم طعام الحداد ، وفى نفس المطعم الذى رأينا فيه داموكليس لأول مرة .

٦

وفى ساعة الدفن لم يكن المشيعون كثيرين ، فلم يكن داموكليس معروفا إلا قليلا ، فلم يلتفت إلى موته أحد من الذين لم يعرفوا هذه القصة ، وقد التقى بروميتيه والخادم وكوكليس عند القبر وشهد الدفن بعض الفارغين من الذين استمعوا للمحاضرة ، وكان كل واحد ينظر إلى بروميتيه وكان معروفا أنه سيتكلم ، وكان بعضهم يسأل بعضا : « ما عسى أن يقول ؟ » لأنهم كانوا يذكرون ما قال . وكان الدهش يسبق خطبته وكان مصدر هذا الدهش أن الناس لم يكونوا يحقون بروميتيه ، كان بدينا لشيطا مبتسما مبتسما إلى حد أن سيرته كادت تعد مخالفة للمألوف ، ثم تقدم نحو القبر باسما دائما ولم يكد يبلغه حتى استدار ونطق بهذه الكلمات :

قصـــة تيتـــير

أيها السادة الذين يتفضلون بالاستماع لى إن الجملة التى أقتبسها من الكتاب المقدس وأتخذها مقدمة لما سأستأنف من حديث هى هذه :

— « دعوا الموتى يدفنوا الموتى » . فلن نشغل أنفسنا إذن بداموكليس . — لقد رأيتكم لآخر مرة مجتمعين تسمعون لى وأنا أتحدث عن نسرى . — لقد مات لهذا الحديث داموكليس ، فلندع الموتى . . . ومع ذلك فبسببه ، بل بفضل موته قتلت نسرى . . .

فتصايح الناس : قتل نسره ! ! !

— وبهذه المناسبة استمعوا لهذه القصة . . . وهبونى لم أقل شيئا .

١

فى البدء كان تيتير .

وكان تيتير وحده يعانى السأم وقد أحاطت به المستنقعات . — وهنا مر مينالك فوضع فكرة فى رأس تيتير وألقى حبة فى المستنقع أمامه . وكانت هذه الفكرة هى الحبة وكانت هذه الحبة هى الفكرة . وبمعونة الله نبتت الحبة وأصبحت نبتة ضئيلة . وكان تيتير فى المساء والصباح يجثو أمامها ويشكر الله الذى وهبها له . وهذه النبتة نمت . وإذ كان جذرها قويا فما أسرع ما أيبست الأرض من حولها ، بحيث وجد تيتير أرضا جامدة يضع عليها قدميه ، ويسند إليها رأسه ويقوى عمل يديه .

فلما بلغت هذه النبتة قامة تيتير استطاع تيتير أن يذوق بعض اللذة بالنوم فى ظلها . وإذ كانت هذه الشجيرة بلوطة فقد كان من الطبيعى أن تعظم جدا ، حتى عجزت يد تيتير عن أن تقوم وحدها بتنقية الأرض وعزقها حول هذه البلوطة ، وبسقى الشجرة وتنظيفها وتقليمها والعناية بها وصيانتها من الدود واجتناء ثمراتها الكثيرة المختلفة .

فى الفصل الملائم لذلك . فاستعان إذن بمنق وعازق ، وساق ، ومنظف ، ومقلم ، ومهذب ، ومشذب ، وذائد للدود ، وبعض الغلمان الذين يحسنون العناية بالفاكهة . وإذ كان على كل واحد من هؤلاء أن يقصر جهده على ما كلف من عمل فقد كان من المأمول أن يكون كل منهم متقنا لعمله .

ولتنظيم دفع الأجور لهؤلاء الناس احتاج تيتير إلى حاسب كما احتاج إلى خازن يشاركه فى العناية بثروة تيتير ، التى جعلت تنمو بنمو شجرة البلوط .

وقد شجر بعض الخلاف بين المشذب والمهذب حول توزيع عمليهما ، فعرف تيتير الحاجة إلى حكم ، واستعان هذا الحكم بمحاميين : أحدهما مدع والآخر منكر ، واتخذ تيتير مسجلا يقيد الأحكام . وإذ كانت الأحكام إنما تسجل لتنفع وليستعان بها فى مستقبل الأيام فقد اتخذ تيتير حافظا للأحكام . وقد جعلت الدور ترتفع على الأرض شيئا فشيئا . ولم يكن بد من شرطة لحفظ الأمن ، ومن شرطة لحماية الآداب .

وقد ثقل العمل على تيتير فأخذ يحس ثقل المرض ، وقد دعا الطبيب فوصف له الزواج — وإذ لم يكن تيتير يستطيع أن ينهض وحده بأعباء هؤلاء الناس الكثيرين ، فقد اتخذ له مساعدا ، ونشأ عن ذلك أن أصبح هو عمدة . ومنذ ذلك الوقت لم يبق له إلا شئ قليل من فراغ ليتصيد السمك من نافذة بيته التى ظلت مطلة على المستنقعات .

وقد اتخذ تيتير أيام أعياد يباح فيها لشعبه أن يلهو . وكان اللهو يحتاج إلى نفقة كثيرة ، وكان كل واحد من أفراد الشعب قليل المال لا يستطيع أن يقرض الناس جميعا ، فبدأ تيتير بجباية بعض المال من كل واحد .

وقد قامت شجرة البلوط فى السهل (فلم تتحول الأرض برغم المدينة وبرغم الجهود التى بذلها هؤلاء الناس الكثيرون عن طبيعة السهل) وقد قامت الشجرة فى السهل بحيث كان أحد جانبيها فى الظل والآخر معرضا للشمس . وكان تيتير يصدر أحكامه فى الجانب الظليل ويقضى حاجته الطبيعية فى الجانب الآخر .

وكان تيتير سعيدا لأنه كان يشعر بأنه ينفع الناس بحياته الحافلة بالأعمال .

٢

وجهد الانسان قابل للاستثمار . فقد كان لنشاط تيتير يزداد بفضل مايلقى من النجح . وكان حذقه الطبيعى يغريه بأعمال أخرى ، فجعل يعنى بتأثيث داره وفرشها وتهيئتها للسكنى . وقد أعجب الناس بحسن تنظيمه للاستار وتهيئة كل إداة لما يسرت له . وكان ماهراً بارعا فى التجربة ، بل هو قد اخترع مشاجب معقوفة يعلق عليها الاسفنج ، ثم لم تمض أربعة أيام حتى تبين أنها غير ملائمة بحال من الأحوال .

وأقام تيتير إلى جانب حجرته حجرة لمصالح الشعب العامة . ولما كان المدخل مشتركا بين الحجرتين ، لم يكن من الممكن أن تطرد المدفئتان الدخان معاً ، فكان ايقاد إحداهما فى أوقات البرد يشيع الدفء فى حجرة والدخان فى الحجرة الأخرى . فتعود تيتير إذا أراد أن يوقد النار أن يحتفظ بنافذته مفتوحة .

وكان تيتير يحمى كل شئ، ويعمل على انتشار أنواع الحيوان ، فانتهى به الأمر إلى أن رأى الديدان تسعى فى مسالك حديقته متكاثرة ، حتى أشفق أن يحطم منها واحدة فلم يكن يدرى أين يضع قدمه ، واضطر آخر الأمر إلى ألا يخرج إلا قليلا .

وقد أنشأ مكتبة دائرة ودعا إليها مؤجرة واشترك عندها فى هذه المكتبة . وكانت هذه المؤجرة تسمى أنجيل ، فتعود أن ينفق عندها السهرة مرة كل ثلاثة أيام . وكذلك تعلم تيتير ما بعد الطبيعة والجبر والعلم الالهى . وقد أخذ تيتير وأنجيل يعنيان معا فى نجح ببعض الفنون الجميلة الرفيعة . وأظهرت أنجيل ذوقا خاصا فى الموسيقى ، فاستأجرا بيانا مذيلا ، وجعلت أنجيل تعزف عليه مقطوعات كان ينشئها من أجلها بين حين وحين .

وكان تيتير يقول لأنجيل : — إن هذه المشاغل الكثيرة ستهلكنى ؛ فقد بلغت من الاعياء غايته ، و إنى لأحس الفناء يسعى فى ، و إن هذا التضامن ليزيد ضميرى يقظة وتحرجا ، فاذا زادا نقصت ..ما العمل ؟

قالت له أنجيل :

— فلو سافرنا ؟

— لا أستطيع أنا . تمنعنى من ذلك شجرة البلوط .

قالت أنجيل :

— فلو تركتها !

— أترك شجرتى ! أتقدرين ذلك ؟

— ألم تكبر بعد بحيث أصبحت تستطيع أن تنمو وحدها ؟

— ولكنى موصول بها .

قالت أنجيل :

— فانفصل عنها .

وبعد قليل من الوقت استيقن تيتير أن أعماله وتبعاته وشواغل ضميره وشجرة البلوط لا تمسكه ، فابتسم وتوسم مهب الريح وانطلق وقد استصحب الخزانة وأنجيل . وهبط نحو آخر النهار الشارع الذى يؤدى من المادلين إلى الأوبرا .

٣

وكان منظر الشارع فى ذلك المساء غريبا يؤذن بأن شيئا شاذا رهيباً يريد أن يحدث . وكان جمهور ضخم جاد قلق يزدحم قد اكتظ به الافريز وكاد يسيل إلى الطريق التى كان يحميها شرط باريس وقد اصطفوا فى نظام متقارب بين . وكانت الأرصفة أمام المطاعم تظهر مسرفة فى السعة لكثرة ما صف عليها من الموائد والكراسى ، فتزحم الطريق وتجعل الحركة شيئا مستحيلا . وربما ارتقى أحد النظارة كرسيه لحظة يدفعه إلى ذلك تطلعه ، ثم لا يلبث أن ينزل حين يدعى إلى النزول . وكان واضحا أن الناس جميعا كانوا ينتظرون . وكان الشعور عاما واثقا بأن شيئا سيهبط عند شاطىء الافريز ساعيا على الطريق التى تحميها

الشرط . وبعد مشقة عظيمة وجد أنجيل وتيتير مائدة ودفعا لها أجراً عالياً وجلسا إلى قدحين من الجعة وسألا الخادم :

— ماذا ينتظر الناس ؟

قال الخادم :

— من أين عاد سيدى ؟ ألا يعلم سيدى أن الناس ينتظرون ميليبيه ؟ إنه يمر بين الخامسة والسادسة . . . وانظر ، واسمع : يخيل إلى أن مزاميره تسمع .

وارتفع من أعماق الشارع صوت نحيل من أصوات القصب ، فرجف الجمهور الذى ازداد لحسه إرهافا وعظم الصوت ودنا . قالت أنجيل :

— إن هذا لمؤثر جدا !

وكانت الشمس متهالكة ترسل أشعتها من أقصى الشارع إلى أقصاه . ورئى ميليبيه كأنما تنزل من روعة الغروب وهو يتقدم وصوت مزماره يسعى بين يديه . ولم يكن يتميز منه فى أول الأمر إلا مظهره ، فلما دنا قالت أنجيل :

— يا له فاتنا خلاباً !

وقد بلغ ميليبيه مجلس تيتير فقطع غناء مزماره ، ووقف فجاءة ورأى أنجيل واستبان كل إنسان أنه كان عريان . قالت أنجيل وقد مالت إلى تيتير :

— ما أجمله! وما أحسن اعتدال قوامه! وما أخلب مزاميره للعقول !

وكان تيتير يجد بعض الضيق . قالت أنجيل :

— سله إلى أين يذهب .

قال تيتير :

— إلى أين تذهب ؟

أجاب ميليبيه :

— *Eo Romam*

سألت أنجيل :

— ماذا يقول ؟

تيتير : — لن تفهمى ياصديقتى .

قالت أنجيل :

— ولكنك ستفسر لى .

فعاد ميليبيه يقول :

— *Romam, urbem quam dicunt Romam*

أنجيل : — ما أعذب ما يقول ! — ما معنى هذا ؟

تيتير : — أؤكد لك يا عزيزتى أنجيل أن هذا ليس من العذوبة بحيث تظنين . فهو لا يزيد على أن يقول إنه ذاهب إلى روما .

قالت أنجيل :

— روما ! — كم أحب أن أرى روما !

وأخذ ميليبيه أعواده واستأنف لحنه الساذج .

ولم تكد أنجيل تسمع الصوت حتى شغفت ثم ارتفعت ثم نهضت ثم دنت . وإذ كان

سيليبيه يعطف ذراعه فقد أخذتها ، ثم سعيا فى الشارع فنأيا فازدهيا فاستخفيا فى الأصيل الذى ليس وراءه شئ .

وقد أطلق الجمهور عنانه ، فجعل يضطرب فى اصطخاب شديد . وكنت تسمع الناس يتساءلون من كل جانب : — ماذا قال ؟ — ماذا عمل ؟ — من هذه المرأة ؟ ولما ظهرت بعدذلك بقليل صحف المساء تخطفها استطلاع عنيف كأنه الاعصار ، وعرف الناس فجاءة أن هذه المرأة هى أنجيل ، وأن ميليبيه هذا رجل عريان ذاهب إلى إيطاليا .

هنالك خبا حب الاستطلاع ، وسال الجمهور كأنه الماء الحر منصرفا عن الشارع الأعظم . — ورأى تيتير نفسه وحيداً قد أحاطت به المستنقعات من جميع جهاته .

فهبونى لم أقل شيئاً .

وعصف بالسامعين ضحك لا سبيل إلى وقفه .

قال برومیتيه وهو يضحك :

— أيها السادة إنى لسعيد حين أرى قصتى تلهيكم . فقد استكشفت سر الضحك منذ مات داموكليس . — وقد فرغت الآن أيها السادة . فلندع الموتى يدفنوا الموتى ، ولنسرع إلى تناول الغداء .

وأخذ الخادم باحدى ذراعيه ، وأخذ كوكليس بذراعه الأخرى ، ولخرجوا جميعا من دار القبور . ولما تجاوزوا الباب تفرق سائر الجماعة .

قال كوكليس :

— معذرة إليك . فقد كانت قصتك ظريفة وقد سليتنا . . . ولكنى لم أتبين صلة بينها وبين ما نحن فيه . . .

قال برومیتيه :

— لو تبينت الصلة لما ضحكت كما تضحك الآن . لا تلتمس لهذا كله معنى ذا خطر . — إنما أردت أن أسليكم . وأنا سعيد لأنى بلغت ما كنت أريد . ألم أكن مدينا لكم بذلك ؟ لقد أمللتكم فى حديثى الأول .

وبلغوا الشارع .

قال الخادم :

— إلى أين نذهب ؟

— إلى مطعمك إن شئت تذكارا للقائنا الأول.

قال الخادم :

— لقد جاوزته .

— لا أعرف الواجهة .

— لأنها جديدة الآن .

— أنسيت أن نسرى . . . إطمئنا : لن يطعمها مرة أخرى .

قال كوكليس :

— أحق إذن ما كنت تقول .

— ماذا ؟
— أنك قتلته .
قال بروميتيه :
— وأننا سنأكله . . . أتشك فى ذلك ؟ ألم تنظر إلى ! أكنت أستطيع أن أضحك فى حياته ؟ ألم أكن شديد النحافة ؟
— من غير شك .
— لقد كان يأكلنى منذ زمن طويل . فقد آن لى أن آكله .
إلى المائدة! هلم ! إلى المائدة يا سيدى ! — أيها الخادم . . . لا تخدم ; وخذ مكان داموكل لنذكره للمرة الأخيرة .

وكان الغداء أشد مرحا مما يباح لنا أن نصوره هنا . وكان النسر شهيا لذيذاً .
وسأل سائل :
— ألم يكن فى وجوده نفع ما ؟
— لا تقل هذا يا كوكليس ! — فان لحمه قد غذانا . — كنت أسأله فلا يجيب . . . وأنا آكله غير واجد عليه . ولو قد عذبنى أقل مما عذبنى لكان أقل سمنا مما هو . ولو قد كان أقل سمنا لوجدنا فى أكله لذة أقل مما نجد .
— ماذا بقى من جماله الرائع أمس ؟
— لقد احتفظت بريشه كله .

وبريشة من هذا الريش أكتب هذا السفر الصغير .
فسعيت أيها الصديق النادر ألا تراه رديئاً .

خاتمة

تحاول أن تبين للقارئ
أن هذا الكتاب إن كان كما هو
فليس ذلك من ذنب صاحبه

فالكاتب لا ينشئ من الكتب ما يريد
يوميات جونكور

كانت قصة ليدا قد ملأت الدنيا ضجيجاً ، وبنت لتندار مجداً عظيماً ، حتى لم يكن مينوس يحفل بزوجه باسيفاييه حين كانت تقول له : « ماذا تريد؟ أما أنا فلا أحب الرجال . »

ولكنها قالت بعد ذلك : « هـذا شئ يغيظ ، (على أنه لم يكن يسيراً !) قد كنت آمل أن إلٰها تقمصه . — ولو عنى زوس بهذا الأمر لكنت خليقة أن ألد ابناً إلٰهيا . ولكنى بفضل هذا الحيوان لم أهد إلى الدنيا إلا عجلا . »

الدستور البلغارى

كانت بلغاريا بين الأقاليم الأوربية الأولى التى ضمتها الفتوحات العثمانية إلى السلطنة ، ولكنها ظلت دائماً تنتهز الفرص لاعلان عصيانها فى وجه حكومة الآستانة إلى أن فازت باستقلالها الذاتى الذى قررته معاهدة برلين العتيدة سنة ١٨٧٨ . ولم تلبث أن حظيت بعد ثلاثين عاماً باستقلالها التام ، إذ أعلنت نفسها دولة ملكية ذات سيادة فى سنة ١٩٠٨ وفى نفس الوقت الذى فاز فيه رجال تركيا الفتاة باعلان الدستور وخلع عبد الحميد .

وكانت الإيالة الممتازة — كما كانوا يسمون مصر ولبنان وبلغاريا فى ذلك الأوان — قد اتحدت مع إقليم الروملى سنة ١٨٨٥ فاتسعت بذلك حدودها بعض الشئ . فلما وقعت حرب البلقان سنتى ١٩١٢ و١٩١٣ أفادت منها بلغاريا المستقلة الظافرة على جيوش متبوعها السابق ، فحصلت على أقاليم تصل بها إلى بحر إيجه . لكنها لم تفد من هذا الاطلال على مياه البحر المتوسط إلا قليلا ؛ فقد انضمت إلى جانب ألمانيا والنمسا فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥ فساهمتهما الفشل الذى لحقهما ونالها منه أن أبعدت عن مياه ذلك البحر بمقتضى أحكام معاهدة نويى سنة ١٩١٩ .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية انضمت فيها كذلك إلى جانب ألمانيا واستولت فى سنة ١٩٤٠ على إقليم دوبرداجه الذى كان جزءاً من رومانيا .

وكانت طوال هذه الحرب محتفظة بالتحالف مع المحور ومستمسكة فى الوقت عينه بالصداقة السوفيتية التى ترجع فى الحقيقة إلى إحساس البنوة الصقلبية وإلى فضيلة العرفان ، إذ كانت روسيا القيصرية هى المكتنفة دائما لبلغاريا والباذلة فى سبيل استقلالها .

وشاءت المقادير أن يكون أحد شبان البلغار النابهين ببرلين يوم احترق فيها الريخستاج ، كما شاءت أن توجه له تهمة الاقدام على ذلك الجرم ، وقد

كان هو من الشيوعيين . فاحتضنه الاتحاد السوفييتى ، وذاع من ذلك اليوم صيته ، ولجأ إلى موسكو ينتظر فيها تطور الأمور .

وتطورت الأمور بالفعل ، فهزمت ألمانيا وانسحبت جيوشها من بلغاريا ، وتوفى العاهل البلغارى ، ونودى بابنه الصبى ملكا ، وعاد ديمتروف من موسكو إلى صوفيا ، وقامت فى بلغاريا كلها حركة فكرية تدعو إلى الجمهورية ، ولاح فيها اتجاه إلى تنظيم الاختيار بين النظامين الملكى والجمهورى ، فأصدرت الجمعية الوطنية فى شهر يونيه من سنة ١٩٤٦ قانوناً يقضى باجراء استفتاء عام يشترك فيه جميع المواطنين البلغاريين البالغين الثامنة عشرة أو ما يزيد ليختاروا الملكية أو الجمهورية الشعبية .

وقد جرى الاستفتاء فى اليوم الثامن من شهر سبتمبر فى السنة نفسها ، وأعلن بما يكاد يكون إجماعاً أن الشعب البلغارى قد اختار الجمهورية الشعبية لحكمه نظاما . وفى السابع والعشرين من شهر أكتوبر بعده ، وتنفيذاً للقانون الخاص بالاستفتاء والاختيار ، جرت انتخابات عامة انبعثت منها الجمعية الوطنية الكبرى لتضع الدستور الجديد للجمهورية الشعبية الفتية .

وكانت اللجنة الوطنية لجبهة الوطن — وهى التى قامت بالدعوة إلى الجمهورية بين أفراد الشعب البلغارى — قد أعدت مشروع دستور طبعته وعممت توزيعه قبل الانتخابات العامة ، فدارت الحملة الانتخابية بين المرشحين للنيابة على أصوله وأحكامه ، فساهم الشعب بذلك فى وضع مبادئه العامة ، وإن عن طريق غير مباشر .

وبمجرد انعقاد الجمعية الوطنية الكبرى تألفت لجنة من خمسة وعشرين عضواً كلفت وضع مشروع الدستور فى مدة معينة مع تحقيق استمرار مساهمة الشعب فى وضعه . فاتصلت مرات عدة بجميع الهيئات السياسية والاجتماعية والثقافية والفنية وبالمواطنين الفرادى أيضاً ، سائلة عن الرغبات والتوصيات والاقتراحات تبعث إليها كتابة أو تقدم إليها عن طريق الحضور والادلاء بالذات . وكذلك لجأت اللجنة إلى الاستعانة بخبرة أهل الذكر بين الأساتذة والسياسيين والاقتصاديين .

وخرج من ذلك كله مشروع الدستور البلغارى الجديد ، وعرض على الجمعية الوطنية الكبرى فتولته بالبحث والدرس والمناقشة ، ثم أصدرته فى اليوم الخامس

من شهر ديسمبر لسنة ١٩٤٧ . وقد تضمن بابه الأول أحكام السلطة العليا فنصت مادته الأولى على أن شكل الحكومة الجمهورية الشعبية هو الشكل النيابى . وسجلت مادته الثانية أن السلطة جميعها تصدر عن الشعب وتظل فيه ، وأن الشعب يستعمل سلطانه عن طريق «انتخابات حرة ومباشرة عامة وسرية تقوم على قاعدة المساواة فى الحقوق ، وكذلك عن طريق الاستفتاء » كما نصت المادة الثالثة على أن « الناخبين والمرشحين للنيابة هم كل المواطنين ، بلا تمييز يرجع إلى اعتبار النوع أو القومية أو الجنس أو الدين أو المعرفة أو المهنة أو الأصل الاجتماعى أو حالة الثروة ، البالغين الثامنة عشرة أو المتجاوزين إياها ما عدا المحجور عليهم والمحكوم عليهم بالحرمان من الحقوق المدنية والسياسية . » ومن شأن هذه النصوص التفصيلية أن تقضى على كثير من الخلافات التى تدور حول النصوص التقليدية الواردة فى عموم الدساتير القائمة فى عديد الأمم . فاضافة أن السلطة تظل فى الشعب ، إلى جانب النص على أنها جميعها تصدر عن الشعب ، صراحة فى الدلالة على تغليب الارادة الشعبية على سائر الارادات ، ومنع التصادم المتناقض من الاتجاهات ، بل حكم بضرورة الاستفتاء الشعبى يتلمس عن طريقه القول الفصل فى كل نزاع . وتفصيل نعت الانتخابات بالحرة المباشرة و بالعامة السرية والمتساوية قضاء على بلبلة أفكار المتفقهين الدستوريين وحيرتهم بين الدرجة الواحدة والدرجتين ، والفرد والقائمة ، ووحدة الأصوات وتعددها ، وردع هذا التعدد إلى المؤهلات العلمية أو حالات الثراء .

لكن المبدأ الفذ الذى تضمنه الدستور البلغارى الجديد — وقد أخذه عن الدستور السوفيتى الذى انفرد بالسبق إليه — إنما هو مبدأ مسئولية النواب وممثلى الشعب أمام ناخبيهم . وقد جرى العرف الدستورى إلى الآن فى عموم على أن النائب بمجرد تمام انتخابه إنما يمثل الأمة كلها ، فلا يسأل أمام دائرته التى انتخب فيها أو أمام الناخبين الذين خصوه بأصواتهم بحال . ولهذه المسئولية التى يقررها الدستور البلغارى ، كما يقررها الدستور السوفيتى من قبل ، نتيجة هى جواز سحب الناخبين ثقتهم ممن أنابوه عنهم قبل أن يتم دورته التشريعية . وقد حسب أصحاب هذا التجديد فى النظريات الدستورية أن ذلك أدعى

إلى سهر النائب على مصالح الشعب طوال مدة نيابته ، وأبعد به عن الميل إلى استثمار نيابته لذاتيات .

وقد جدد الدستور البلغارى كذلك فى تنظيمه النيابى ، فخرج على تقليد تأليف الهيئة النيابية من مجلسين ، واكتفى بمجلس واحد احتفظ لتسميته باسم البرلمان البلغارى القديم مضيفاً إليه ثقته بالشعبى « نارودنوسوبرانى » . واجتهد فى التجديد إذ لم ينص على مدة الانعقاد السنوى للهيئة النيابية ، بل لم يحدد حادثاً لا يصح انتهاء العمل قبل حلوله ، بل نص على أن للانعقاد صفة الدوام، وأن الهيئة النيابية هى وحدها التى تحدد مواعيد عطلتها السنوية ، وأن مكتبها هو الذى يدعوها للانعقاد إذا كانت فى هذه العطلة من تلقاء نفسه أو بناء على طلب الحكومة .

ومن اختصاص هذه الهيئة النيابيـة التى تؤلف من نواب يمثل كل منهم دائرة عدد سكانها ثلاثون ألفاً ، انتخاب رئيس الجمهورية بالاشتراك مع ممثلين للمجالس الاقليمية والمركزية ، وانتخاب رئيس مجلس الوزراء وقبول استقالته ، وانتخاب رئيس محكمة النقض ، ورئيس المحكمة الادارية العليا ، والنائب العام ، وتقرير الالتجاء إلى الاستفتاء وتحديد موعده ، وتقرير صحة انتخاب الأعضاء على سبيل الانفراد ، ومناقشة الميزانية ، واصدار القوانين جميعاً ، على أن يكون حق المبادأة التشريعية للحكومة وللنواب بشرط ألا يقل عدد المتقدمين بمشروع قانون منهم عن خمس مجموعهم .

وإذا كان شرط السن بالنسبة للناخبين والنواب هو بلوغ الثامنة عشرة فانه بالنسبة لرئيس الجمهورية بلوغ الثالثة والعشرين . ومدة الانتخاب له وللنواب واحدة وهى أربع سنوات .

ولا يعين رئيس الجمهورية رئيس الوزارة ، فانتخابه من اختصاص الهيئة النيابية على نحو ما ذكرنا ، ولكنه يعين الوزراء الذين يختارهم رئيس الوزارة بالذات ، كما يعين القائد الأعلى للجيش بناء على اقتراح مشترك مقدم من الحكومة ومكتب الهيئة النيابية .

أما الحكومة التى أفرد لها الباب الثالث من أبواب الدستور فمؤلفة من رئيس مجلس الوزراء ونوابه ورئيس المجلس الاقتصادى الأعلى والوزراء الذين يجوز أن يكونوا من غير النواب .

ويجرى انتخاب الهيئة النيابيـة لرئيس مجلس الوزراء بالاقتراح السرى و بالكثرة المطلقة لمجموع النواب . فاذا لم تتوافر هذه الكثرة فى الاقتراع الأول أعيد فى بحر ثلاثة أيام على الأكثر ، فاذا لم يسفر الاقتراع الثانى عن كثرة مطلقة تحل الهيئة النيابية ويعتبر حائز أكثر الأصوات عدداً رئيس حكومة يتولى منصبه إلى أن تجرى انتخابات عامة تجىء بهيئة نيابية جديدة ، ويجرى فيها انتخاب جديد لرئيس مجلس الوزراء . ولا يتولى رئيس مجلس الوزراء منصبه إلا بعد أن يتقدم للهيئة النيابية ببرنامجه وينال على هذا البرنامج الثقة . ويجرى الاقتراع على هذه الثقة فى بحر ثلاثة أيام على الأكثر من يوم انتخاب رئيس الوزراء .

ومن طرائف الدستور البلغارى فى صدد الاداة الحكومية أنه يضع الجيش تحت هيمنة مجلس الوزراء وإدارته العليا ورقابته ، وينص على صدور قانون ينظم علاقات هذا المجلس ووزارة الدفاع بالجيش تحقيقاً لتلك الهيمنة والادارة العليا والرقابة . وكذلك فانه يفرض على جميع موظفى الحكومة بمختلف درجاتهم أن يؤدوا يمين الولاء للجمهورية الشعبية قبل تولى وظائفهم .

وإذا كان رئيس محكمة النقض ورئيس المحكمة الادارية العليا والنائب العام ينتخبون عن طريق الهيئة النيابية بالذات لمدة خمس سنوات فان الدستور البلغارى قد نص على قيام مجلس قضائى أعلى ينظم وحده شؤون تعيين سائر القضاة ورجال النيابة وترقيتهم وعزلهم ، ويؤلف من ستة أعضاء تنتخبهم الهيئة النيابية وعضوين يختارهما رئيس الجمهورية الشعبية وثلاثة يمثلون اتحاد القضاة ، يرأسهم وزير العدل .

وقد اختص الباب الثانى من أبواب الدستور البلغارى بالتنظيم الاقتصادى والاجتماعى للجمهورية الشعبية الجديدة . فقررت مواده فيما قررت أن « العمل عامل اجتماعى واقتصادى أساسى توليه الدولة كل أنواع العناية » ، وأن «الدولة تعين وتشجع الجماعات التعاونية الشعبية » ، وأنها « تخص بحمايتها الذين يقومون بالعمل مباشرة فلاحين وعمالا وصناع حرف وعقليين عن طريق سياستها العامة الاقتصادية والاجتماعيـة وعن طريق الاعانات بالسلف ذات الفائدة القليلة وعن طريق نظام الضرائب وتشريعات الجماعات التعاونية » .

وكذلك قررت تلك المواد أن « الملكية قد تكون للدولة ، وللهيئات

المحلية ، وللجماعات التعاونية ، وللمنشآت الاجتماعية ، وللأشخاص الطبيعية والمعنوية » . ومعنى هذا أن الدستور البلغارى يبيح الملكية الخاصة كما يجيز الملكية العامة شأنه فى هذا شأن سائر الدساتير القائمة فى الأمم ذات الأنظمة الاقتصادية الفردية ، وإن كان قد نص من ناحية أخرى على أن « المناجم والثروات الطبيعية للأرض وباطن الأرض والمياه ، والمياه المعدنية ، ومصادر القوى الطبيعية والمواصلات الحديدية والجوية والتلغراف والتليفون والاذاعة تكون كلها ملكا للدولة » .

وقد نصت المادة التاسعة منه على أن « الملكية الخاصة وميراثها والاستثمار الخاص فى الاقتصاد الأهلى معترف بها وتحظى كلها بحماية القانون » .

وتحظى الملكية الخاصة الناشئة عن العمل والادخار وميراثها بحماية ممتازة خاصة . على أن عقود الاحتكار الخاص وجماعاته (ترست وكارتل) ممنوعة ، وأن للدولة أن « تؤمم » بعض فروع الصناعة والتبادل والنقل والائتمان تأميما كليا أو جزئيا .

أما الأرض فيمتلكها امتلاكا خاصا أولئك الذين يفلحونها على وجه العموم . ويحدد القانون المساحات القصوى التى تكون محل الامتلاك الخاص ، كما يحدد الحالات التى يجوز للمواطنين غير الفلاحين أن يمتلكوا أرضا قابلة للزراعة .

وأما التجارة الداخلية والخارجية فقد نص الدستور على أن الدولة هى التى توجهها وتراقبها .

ولم يجر الدستور البلغارى الجديد على غرار سائر الدساتير القائمة من التقدم بحقوق المواطنين وواجباتهم فى باب من أبوابه الأولى ، بل إنه أبقاها إلى الباب الرابع من أبوابه السبعة . وقد بدأها بحق المساواة أمام القانون مع حرية المواطنين المطلقة فى اختيار القومية التى ينتمون إليها ، وعدم الاعتراف بأى امتياز ينحدر عن الجنس أو الأصل أو الدين أو الثروة ، والنص على معاقبة القانون على كل دعوة للكراهية القومية أو الدينية أو الجنسية .

وثنى بحق المواطنين فى العمل . وعقب على تقريره بأن الدولة تضمن تحقيقه عن طريق توجيه الاقتصاد الأهلى والسهر على إنماء قوى الانتاج انماء منظما مستمرا وخلق المهام الاجتماعية . كما عقب بأن مقابل العمل إنماء يقدر

حسب قدر الانتاج ونوعه ، وبأن العمل واجب على كل مواطن قادر عليه وشرف له .

ويلحق بحق العمل فى الدستور البلغارى الجديد حق الراحة يضمنه نقص أيام العمل ومنح إجازات سنوية مدفوعة أجورها ، وإقامة شبكة واسعة من دور الاستراحة والأندية وما إليها .

وكذلك يلحق به حق «المعاش» والتقاعد والاعانة والتعويض فى حالات المرض والاصابة والبطالة والشيخوخة ، وتضمن الدولة ذلك كله عن طريق التأمينات الاجتماعية والعناية الطبية يفيد منها الجميع .

وقد سوى الدستور البلغارى الجديد فى هذا المضمار بين الرجل والمرأة ، فنص فى مادته السادسة والستين على أن المساواة بين النوعين مطلقة « فى جميع ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ما اتصل منها مباشرة بالدولة وما رجع منها إلى الاستثمار الفردى » ، فيكون للمرأة نفس أجر الرجل وعين شروط العمل والراحة والتأمين والتثقف . بل إنه قد ميزها عليه إذ خص الأم بحمايته ، فقضى بتحمل الدولة أعبـاء العناية بالأمومة والطفولة عن طريق دور الولادة والحضانة ومدارس الأطفال والمستوصفات ، كما نص على تمتع المرأة بالانقطاع عن العمل قبل الولادة وبعدها مع استمرار أجرها وتقديم المعاونات الطبية لها مدة الحمل وأثناء الوضع .

أما الزواج والأسرة فقد وضعهما الدستور فى حماية الدولة ، فلا يعتبر زواجا إلا العقود أمام الجهة الرسمية المعينة لشؤونه . ويسوى فى الحقوق بين جميع الأبناء وإن جاءوا عن غير طريق الزواج الشرعى . وكذلك تأخذ الدولة على كاهلها العناية بشؤون التربية الاجتماعية والثقافية والبدنية والمرانة على العمل .

ونصت المادة التاسعة والستون على أن « حرية الاعتقاد وتأدية الشعائر مضمونة للمواطنين وأن الكنيسة مفصولة عن الدولة » .

وعرضت المادة السبعون لحق التعليم فقالت إن « التعليم عام وقائم على روح ديموقراطى وتقدمى » ، وأن الابتدائى منه إلزامى وبالمجان ، وأن المدارس كلها للدولة ، وأن المأذون به من المدارس الحرة موضوع تحت رقابة الدولة أيضا .

وكذلك نص الدستور على أن الدولة تعنى بتقدم العلوم والفنون بتنظيمها معاهد البحوث العلمية ودور النشر والمكتبات ودور التمثيل والمتاحف وقاعات

القراءة الشعبية والمعارض ودور الاخراج السينمائى ودور عرض الأفلام ، وبتشجيع جميع المتفوقين فى هذا المضمار .

أما الصحة فقد نصت المادة الثانية والسبعون على أن الدولة ساهرة عليها عن طريق تنظيم وإدارة المصالح والمعاهد ونشر التعلم الصحى بين أفراد الشعب.

وكذلك قرر الدستور حرمة الأشخاص ، فقضى بألا يقبض على شخص لأكثر من اثنتين وسبعين ساعة إلا بأمر من السلطات القضائية ، وبألا يعاقب شخص إلا بمقتضى نص من نصوص القانون ، وألا يوقع عقاب إلا إذا صدر من المحكمة المختصة ، وأن للمتهم حق الدفاع .

ويحظى المواطنون البلغاريون فى الخارج بحماية الجمهورية الشعبية البلغارية ، كما أن للرعايا الأجانب حق الالتجاء إذا كانوا مدافعين عن المبادئ الديموقراطية والتحرر القومى وحقوق العاملين أو عن حرية النشاط العلمى والثقافى.

وكذلك قرر الدستور البلغارى الجديد حرمة المنازل والمراسلات وحرية تأليف الجمعيات، بشرط ألا تكون موجهة ضد النظام العام ولا متعارضة مع أحكام الدستور .

ونصت المادة الثامنة والسبعون على أن «حرية الصحافة والخطابة والاجتماع والتكتل » والتظاهر مكفولة للمواطنين البلغاريين » . كما عرضت المادة التالية لحق تقديم العرائض لهيئات الدولة أو الشكوى منها ومن الموظفين فيها وحق المطالبة بتعويض الاضرار التى لحقت من إساءة التصرفات .

وختم باب الحقوق والواجبات بالنص على الخدمة العسكرية الالزامية، وعلى فرض الضرائب بنسبة قدرة المواطنين .

أما تعديل الدستور فقد وردت أحكامه بالمادة السابعة والثمانين وهى المادة السابقة للأخيرة مقررة أن اقتراح التعديل لا يصدر إلا عن الحكومة أو عن ربع مجموع النواب ، وأن مناقشته لا تجرى إلا بعد إيداعه بأسبوع على الأقل ، وأن تقريره لا يكون إلا بموافقة ثلثى النواب كلهم ، على ألا يصبح التعديل نهائيا إلا بعد عرضه على الشعب عن طريق الاستفتاء وموافقة نصف الناخبين عليه ، ولا يكون نافذاً إلا بعد أن تعلن محكمة النقض نتيجة الاستفتاء وبعد أن ينشر القانون الخاص به فى الجريدة الرسمية .

محمود عزمى

فى أفق السياسة العالمية

مأساة ألمانيا

لم يكن لألمانيا فى مستهل القرون الحديثة وجود قومى أو سياسى شبيه بما كان إذ ذاك لفرنسا وإنجلترا وأسبانيا التى توحدت قومياتها وتركزت حكوماتها ، واستعدت كل منها لتوسيع سلطانها وحدودها لا فى أوربا وحدها ، بل كذلك وراء البحار والمحيطات فى العالم الجديد — الذى كشفه الملاحون العظام من أهل تلك البلاد — غربا وشرقا فى عصر الاستكشافات . أما ألمانيا فقد ظلت كايطاليا عبارة عن اصطلاح جغرافى تنطوى تحته إمارات ودويلات متنافرة متقاطعة ما برحت تثير الفتن والحروب بين بعضها وبعض ، حتى قيض الله لها أن تتحد فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر .

وكان من جراء تأخر تحقيق الوحدتين الألمانية والايطالية أن فازت الدول الكبرى القديمة بنصيب الأسد فى الأراضى الجديدة التى استعمرت ، حتى إذا ما اشتد ساعد الدولتين الفتيتين وتاقت نفساهما إلى منافسة كبريات الدول لم تجدا أمامهما فى عالم الاستعمار سوى بضع لقيمات جافة ازدردتاها وهما حانقتان تتحينان الفرص وتتربصان بغيرهما الدوائر .

ومن سوء حظ الدولة الألمانية الحديثة التى أعلنها ولهم ملك بروسيا فى يناير سنة ١٨٧١ وسط هتاف الأمراء الألمان فى قصر فرساى بباريس عقب انتصار الألمان فى الحرب السبعينية ، أن الوحدة التى وضع أساسها بسمرك السياسى الألمانى العظيم وحاك خيوطها بمهارة أصبحت مضرب المثل فى التفوق الدبلوماسى ، كانت وليدة الروح العسكرية البروسية المتأصلة فى نفوس البروسيين ، ونتيجة حتمية للسياسة التى ابتدعها بسمرك ولاءم فيها بين الخطط الحربية الصارمة والأساليب الدبلوماسية الحازمة الناعمة ، وهى التى عرفت بسياسة اليد الحديدية داخل القفاز الحريرى . وبفضلها خاضت بروسيا فى مدى سبع سنوات ثلاث حروب ظافرة متعاقبة : الأولى ضد الدنمرقة ، والثانية ضد

النمسا ، والثالثة ضد فرنسا . وقد اصطنع بسمرك هذه الحروب اصطناعا ومهد لها بجيدة الدول ، حتى لم تجرؤ واحدة منها كبيرة كانت أو صغيرة أن ترفع أصبعا واحدة لنجدة الدول المغلوبة على أمرها . وقد خرجت ألمانيا من هذه الحروب جميعا مزهوة بانتصارها شديدة الايمان بمستقبلها وقوة سيفها الظافر .

ودخلت ألمانيا على أثر ذلك فى طور سياسى جديد تلمست فيه أسباب العظمة والتفوق ، فوجدتها متوافرة فى داخليتها : فى جيشها وفى هيئة أركان حربها الذين رسموا لها خطط النصر . ووجدتها فى علمها وفنها وأدبها وفى فلسفتها وموسيقاها ونظم بلدياتها . ولكنها افتقدتها فى الخارج حيث السبل إلى البحار والمستعمرات تحكمها بريطانيا سيدة البحار . وكانت ألمانيا فى القارة الأوربية مضيقاً عليها من كل الجهات تقريباً : فمن الغرب تقف بلاد الأراضى المنخفضة وفرنسا وإنجلترا سدًّا منيعاً فى وجهها ، ومن الشرق يجثم الدب الروسى الضخم ، ومن الجنوب يقوم أبناء عمومتهم فى إمبراطورية النمسا . فلم يكن أمام ألمانيا من سبيل إلى التوسع من هذه الجهات إلا بالعدوان والهجوم على جاراتها ، وهو أمر لم يكن سهلا ولا سائغاً بعد أن لطخت ألمانيا أيديها بدماء الالزاس واللورين اللتين اغتصبتهما من فرنسا بعد انتصارها فى الحرب السبعينية .

على أن بسمرك قد استطاع فى أول عهد الامبراطورية الجديدة أن يكبح جماح الروح العسكرية البروسية ، وأن يجنب ألمانيا وهى فى بدء وحدتها وتكوين عظمتها الصناعية والثقافية الاشتباك فى أية حرب أوربية أو استعمارية . ذلك لأنه كان يعلم أن الشعب الألمانى إذا اندفع فى تيار التوسع أو الاستعمار فلا بد له من أن يصطدم بالمصالح البريطانية ، وقد يؤدى الاصطدام إلى حرب مع الانجليز تخرج منها ألمانيا خاسرة كما خرجت فى الماضى أسبانيا وبعدها فرنسا . لذلك انتهج بسمرك فى حكمه خطة كان من شأنها أن تضرم نار الحقد والتباغض بين جاراتها ومنافساتها من جهة ، وأن تكفل لألمانيا أن تمسك بميزان القوى السياسية فى القارة الأوربية من جهة أخرى . لذلك شجع فرنسا على أن تحتل تونس ، حتى يسلو الفرنسيون الالزاس واللورين ، وحتى تقع الجفوة والنفور بينها وبين إيطاليا التى كانت تطمع فى تونس ؛ ووقف يرقب النزاع المرير الذى شجر بين انجلترا وفرنسا من أجل مصر والسودان . ولما تفاقمت الحال بين روسيا وتركيا فى الحرب الروسية التركية وتدخلت بريطانيا وتعرض

السلام العام فى أوربا للخطر كانت ألمانيا هى الداعية إلى عقد المؤتمر الدولى ببرلين فى سنة ١٨٧٨ برياسة بسمرك لاعادة النظر فى المسألة الشرقية ، وكانت ألمانيا هى الدولة الكبرى التى ليس لها فى البلقان مطامع تقتضى — كما قال بسمرك — أن تراق فى سبيلها قطرة دم من ألمانى واحد .

غير أن بسمرك لم يستمر طويلا على هذه السياسة ؛ فقد جاء وقت أصبح فيه التسابق والتكالب على أشده بين الدول الأوربية بشأن استعمار إفريقية أو القارة المظلمة كما كانوا يسمونها حينذاك . وجاءت ثورة المهدى فى السودان وانسحاب القوات المصرية مؤقتاً من ربوعه فرصة سانحة أغرت الدول على التهام ما يمكن التهامه من هذه الأرض الباخة التى اعتبرتها الدول نهباً لمن غلب . فخشى بسمرك إذا واصلت ألمانيا سياسة القناعة والحذر أن يجىء وقت لا تجد أمامها بقعة خالية تستعمرها وتمدها بالخامات والقواعد اللازمة لصناعاتها ومشروعاتها الحربية البعيدة المدى . لذلك اندفع بسمرك فى سياسة الاستعمار بعد سنة ١٨٨٤ وكان فى ذلك مدفوعاً بقوة هيئة أركان الحرب التى كانت تسيطر جهراً أو سرا على مرافق الحكومة جميعاً . وكان من مظاهر ذلك النشاط الاستعمارى الناشئ أن دعت ألمانيا الدول ذوات المصالح الاستعمارية إلى عقد أول مؤتمر استعمارى دولى فى برلين سنة ١٨٨٥ وفيه سوت الدول خلافاتها بشأن استعمار إفريقية ، وتقررت القواعد التى تجب مراعاتها عند ما تزاول رياضة القنص الاستعمارى فى أحراش افريقية ! وكانت أولى هذه القواعد أن تخطر الدول بعضها بعضا بالفرائس التى يراد أن يستولى عليها ، وأن تتفق فيما بينها على دوائر نفوذ كل منها وحدودها . واستغلت ألمانيا عوامل الخلاف التى كانت ناشبة إذ ذاك بين فرنسا وإنجلترا ، وعلى ذلك سرعان ما أصبح لها فى القارة المظلمة دولة استعمارية تلى إنجلترا وفرنسا فى الأهمية؛ إذ صار لها مستعمرات فى شرق إفريقية وغربها وفى تنجانيقا والكمرون وتوجولند وبعض الجزر .

وفى سنة ١٨٨٨ اعتلى العرش الامبراطور وليم الثانى ، وكان شابا طموحا مستبدا ، أشربت نفسه حب العسكرية البروسية والطوت على إيمان صادق بمستقبل ألمانيا العظيم . ولم يطق أن يظل طويلا وراء اسم بسمرك وعظمته السياسية ، فسرعان ما أقصاه عن الحكم وجعل يصرف شؤون الدولة بمستشاروه من دعاة التسليح والعظمة الحربية ، إلى أن أعلن صراحة

فى بدء القرن العشرين أن ألمانيا قد أصبحت، بفضل صناعتها واتساع نفوذها الاقتصادى ، دولة عالمية ذات مصالح حيوية ، وأن هذه المكانة وتلك المصالح تقتضيان حتما أن يكون لألمانيا أسطول بحرى يضارع أكبر أسطول فى العالم. وهو يعنى بطبيعة الحال الأسطول البريطانى . وكانت ألمانيا قد استردت من إنجلترا جزيرة هليجولند فى بحر الشمال ، فاتخذت منها قاعدة بحرية حصينة ، ثم أنشأت قناة كيل التى تصل بين البحر البلطى وبحر الشمال ؛ وبذلك اتخذ الأسطول الألمانى سبيله فى البحر سربا . وما فتئت ألمانيا تمعن فى التسليح وتقيم المظاهرات البحرية فى البحر المتوسط لتعلن عن قوتها الناشئة تارة أمام طنجة وأخرى أمام أغادير على ساحل الأطلنطى فى مراكش ، حتى لم يبق شك فى أن ألمانيا إنما تعد نفسها لتتحدى بريطانيا وتصل إلى تحقيق الغرضين اللذين كانت العسكرية البروسية ترمى إليهما منذ توحدت ألمانيا ، وهما التفوق الحربى فى أوربا ، واغتصاب السيادة البحرية والاستعمارية من بريطانيا . أما التفوق الحربى فكان أمره يسيراً هينا ؛ إذ لم يبق فى أوربا بعد إذلال روسيا وانهزامها أمام اليابان سوى فرنسا ، وهى وحدها لم تكن ذات خطر بسبب ما أصابها على أيدى رجال أحزابها من أزمات ومؤامرات وتقلبات لا تكاد تنقطع . وأما فى الخارج فان ألمانيا قد توغلت فى سياستها الخارجية متحدية بريطانيا تحديا صريحا ؛ إذ وثقت علاقاتها بدول البلقان وبتركيا حتى يخلو لها الميدان فى الشرق ويكون الطريق أمامها بين برلين وبغداد وخليج فارس سالكا ميسورا متى دنت ساعة الفصل بينها وبين بريطانيا .

وعلى ذلك قامت الحرب العالمية الأولى . وعلقت ألمانيا مصيرها فيها على حرب خاطفة تسحق فيها قوات روسيا من الشرق وفرنسا من الغرب ، ويتعذر معها على بريطانيا تعبئة قواتها وقوات إمبراطوريتها لأنقاذ حليفتيها فى الوقت المناسب . وفعلا اخترق الألمان حيدة بلجيكا ولكسمبورج ، وتقدموا مثل وميض البرق الخاطف داخل فرنسا ميممين صوب باريس مكتسحين أمامهم جميع القوى التى اعترضت طريقهم . وكادوا ينفذون خطتهم لو لم يقف القائد الفرنسى « جوفر » وقفته الشهيرة عند المارن فى سبتمبر سنة ١٩١٤ فاضطر الجيش الألمانى إلى الارتداد . ومن ثم لجأ الجيشان المتحاربان إلى مكابدة حرب الخنادق ببطئها وسقمها ونزولها بالانسان إلى أسفل الدرك فى المعيشة والحرب جميعاً .

ثم تطورت الحرب بعد ذلك على أثر ثورة العرب فى الشرق على الأتراك حلفاء الألمان وقيام الثورة البلشفية الكبرى وانسحاب روسيا من ميدان الحرب ، وأخيراً بدخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء ، فرجحت كفتهم ، وأيقن كبار القواد الألمان بالهزيمة ، وذاعت بين الجنود والبحارة الألمان أنباء تقدم الحلفاء وتحسن مراكزهم إلى جانب ما كانوا يحسون من خيبة الأمل وسوء المصير الذى ينتظرهم . وكان قد نمى إليهم أيضاً خبر نجاح الثوار فى روسيا وما أحدثوه فيها من انقلاب سياسى واجتماعى خطير ، فلم يتوانوا فى انتهاز أول فرصة للعصيان والانتقاض على السلطات الرجعية التى تواصل حرباً خاسرة إرضاء لشهواتها . فما إن وصلت إلى أسماعهم مبادئ ولسون الأربعة عشر التى أعلنها فى يناير سنة ١٩١٨ حتى تحركت روح الثورة فى نفوسهم وارتضوا هذه المبادئ أساساً للصلح العتيد . وما لبثت شرارة الثورة أن اندلعت بين البحارة فى كيل وسرت منها إلى جميع الميادين . فلم ير الامبراطور بداً من الفرار إلى هولندة ومعه ولى عهده ، وترك زعماء الثورة يطلبون الهدنة فى الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادى عشر من الشهر الحادى عشر من سنة ١٩١٨ وكانت هذه الهدنة إيذانا بالسلام بعد حرب مدمرة شملت أرجاء أوربا وآسيا ووصلت نيرانها إلى أجواز الفضاء فى الجو وإلى مسارب الأسماك فى بحار العالم ومحيطاته ، وقد ذهب ضحيتها نحو عشرة ملايين من الأنفس عدا الذين شوهتهم الحرب وأشلتهم وشردتهم أو حطمت أعصابهم فى جميع أنحاء العالم .

وجاء مؤتمر الصلح فى فرساى ، فحرم على الألمان الخدمة العسكرية الالزامية ، وحرم التسليح إلا بالقدر الذى يحتاج إليه الجيش وقد خفضوه إلى ١٠٠,٠٠٠ جندى ، والأسطول وقد خفضوه إلى ست سفن كبيرة وستة طرادات وأربع وعشرين سفينة صغيرة أخرى لا يعمرها سوى ١٥,٠٠٠ بحار . ومن شروط الصلح التى فرضوها على الألمان ، حيدة مقاطعات الرين ونزع سلاحها ، وفرض غرامة حربية باهظة قدروها فى أول الأمر بأكثر من عشرة آلاف مليون جنية . هذا فضلا عن فقدان ألمانيا لجميع مستعمراتها وخسارتها ما يقرب من ٨٧,٠٠٠ ميل مربع من أراضيها يبلغ عدد سكانها نحو سبعة ملايين ضمت إلى بولندة وغيرها من الدول المجاورة التى ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

حركة الاشتراكية الوطنية . وكان هندنبورج قد طعن فى السن فلم يستطع مقاومة التيار الجديد ، فأخذ انصار هتلر يتفوقون فى البلاد ويفوزون فى الانتخابات ، حتى إذا انتهت مدة رياسة هندنبورج فى سنة ١٩٣٢ ونزل إلى ميدان الانتخاب يريد تجديد انتخابه نال ١٩,٣٦٠,٠٠٠ صوت مقابل ١٣,٤١٨,٠٠٠ نالها هتلر ، ورأى الرئيس أنه لم يعد قادرا على تنحية هتلر ، فعينه مستشاراً للدولة فى يناير سنة ١٩٣٣ ومات هندنبورج فى صيف العام التالى ، فأصبح هتلر رئيسا غير منازع للدولة ، بل لقد كان كذلك فعلا قبل أن يموت هندنبورج . ومع أن الدستور الجمهورى الذى أصدرته الجمعية الوطنية فى ويمار لم يلغ رسميا فان هتلر قد جمع فى شخصه وركز فى حزبه وأعوانه السلطات الادارية والتشريعية والتنفيذية جميعاً ، حتى صار كل شئ فى البلاد لا يشتق وجوده أو يستمد بقاءه إلا منه ، حتى الكنيسة والعلم والتعليم قد طغت عليها جميعاً الفكرة النازية طوعا أو كرها . وكان فى مقدمة العقائد النازية التى بشر بها هتلر ، تأمين تفوق الجنس النوردى أو الآرى ، وقمع اليهودية والشيوعية ، وتجنيد الشباب والشعب بكامل طبقاته لخدمة النازية والدولة . وأخيراً وليس آخرا ، محو آثار معاهدة فرساى ، واستئناف العمل الذى بدأ سنة ١٩١٤ لكى تتبوأ ألمانيا مركزها الاسمى فى أوربا وبين دول العالم أجمع .

أما أهدافه الخارجية فكانت تقوم على الأخذ بمبدأ المجال الحيوى Lebensraum وهى النظرية التى لفقها هتلر للبرهنة على أن عدد سكان ألمانيا سيصل فى مدى قرن إلى ٢٥٠ مليون نفس ، وأن هذه الزيادة الهائلة يجب أن تقابلها أراض وميادين جديدة ينتشر فيها شعب الآلهة المفضل ويستثمر فيها مواهبه للقضاء على الشعوب المنحطة الأخرى !

وفكر هتلر فى المستعمرات القديمة التى كانت لألمانيا ، وهى لم تكن فى نظره إلا وديعة تسلمتها عصبة الأمم ، وعلى الحلفاء أن يردوا الودائع إلى أهلها ، فاذا تعذر عليهم ذلك فهناك مستعمرات واسعة تملكها دول من الدرجة الثانية فى الأهمية مثل هولندة والبرتغال وبلجيكا ، ويمكن تعويض ألمانيا من مستعمرات تلك الدول . وجال فى خاطر ساسة الدول الغربية من مروجى سياسة السلم بأى ثمن ، أن هتلر قد عنى حقا أن يكتفى بالمستعمرات القديمة

فأبدوا له استعدادهم لاعادة النظر فى موضوع الخامات الأولية ونظام توزيعها بين الدول .

ولكن التوسع الحقيقى الذى كان يريده هتلر للدولة العالمية المنتظرة كان طريقه من الشرق نحو بولنده وأكرانيا ورومانيا وجنوبى روسيا والقوقاز حيث سهول القمح الممتدة الشاسعة وآبار زيت البترول ومناجم الفحم والحديد وحيث معظم السكان من الشعوب الصقلبية أو المغولية التى لا تطاول الجنس الألمانى مدنية ورقيا . وأخذ هتلر يقيم علاقاته مع شرق أوربا وجنوبها الشرقى على أساس بدائى من مقايضة الحاجات بين الفريقين ، حتى لاتقوى تلك الدول على تحويل نشاطها التجارى إلى دول أخرى غير ألمانيا ، وحتى تكون اقتصادياتها مرهونة بارادة ألمانيا . وكان هتلر يرمى بسياسته إلى فرض نفوذه الاقتصادى عليها أولاً توطئة لاخضاعها سياسيا تحت سيطرته متى حان الوقت المناسب . وشبيه بهذه السياسة ما اتبعه فى اقتصاديات ألمانيا الداخلية ؛ إذ ركز إنتاجها الزراعى والصناعى جميعاً فى شركات مركزية يشرف عليها الحزب النازى . وجعل يسعى جهده فى أن تنتج ألمانيا كل ما تحتاج إليه ، حتى منتجات المناطق الاستوائية أو المدارية قد وضعها فى بوتقة التجربة تحت مجهر العلماء المختصين يحاولون إنتاجها اصطناعيا ، فيسروا له الحصول على الزيت والمطاط وبعض المنسوجات . ولم يكن غرضه من ذلك إلا إعداد ألمانيا لمواجهة أخطار الحصر البحرى متى دنت ساعة العمل .

أما الأداة التى استند إليها هتلر فى بلوغ هذه الأهداف جميعاً فهى ، كما كانت دائما فى التاريخ البروسى الحديث ، هيئة أركان الحرب ، وقد جددها هتلر ، فأنشأ إلى جانب هذه الهيئة العريقة أدوات أخرى ابتدعتها العقلية النازية الشيطانية مثل الجستابو Gestapo أو البوليس السياسى السرى ومعسكرات السجون والاغتيالات السرية ، يضاف إليها قمع جميع الحريات الشخصية وربطها جميعاً بمشيئة « الفوهرر » أو الزعيم .

وكذلك أعد هتلر فى الخارج عدته للوقت المناسب ؛ فكان دعاته يعملون لانشاء الأحزاب فى البلاد المختلفة على النسق النازى ، ويهيئون داخل هذه الأحزاب الجماعات التى عرفت بالطوابير الخامسة والسياسيين الذين عرفوا بالكويزلنج Quisling أو وزراء الضرورة النازية. ولما كان هتلر وأعوانه يعلمون

أن الحرب فى النهاية هى الوسيلة الحتمية لبلوغ أهدافهم، فانه ما برح منذ اضطلع برياسة الدولة يزدرى النظم الديمقراطية وميثاق عصبة الأمم ومبدأ التأمين الجمعى ضد الحرب، حتى انتهى الأمر فى سنته الأولى بانسحاب ألمانيا من العصبة، ثم أخذ يعمل بسرعة جنونية لزيادة التسليح، فقرر التجنيد الاجبارى سنة ١٩٣٥ وفى العام التالى احتلت الجيوش الألمانية أرض الرين وأقامت عليها الحصون والقلاع مخالفة فى ذلك كله معاهدة فرساى ومعاهدة لوكارنو. وفى سنة ١٩٣٨ ضمت النمسا إلى ألمانيا، واعتدت على تشيكوسلوفاكيا فضمت إقليم الألمان السوديت أولاً ثم ضمتها برمتها سنة ١٩٣٩. وكانت تشيكوسلوفاكيا مرتبطة مع فرنسا بمعاهدة الاتفاق الصغير، فلم تقو فرنسا ولا حليفتها إنجلترا على مساعدتها بل لقد نصحتاها بأن تقبل ما فرضه الطغيان النازى عليها وأن ترفض ما تطوعت روسيا بتقديمه إليها من المساعدة الحربية. وجاء رئيس وزراء انجلترا بنفسه طائراً إلى ألمانيا وبيده حمامة السلام، واجتمع بعد ذلك مؤتمر الدول الأربع (انجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا) فى ميونيخ لاقرار طلبات هتلر وإغماد سيف الحرب فى جرابه بضعة أشهر. وقد ارتضى الحلفاء لأنفسهم ذلك الاذلال خوفاً من زحف قوات روسيا البلشفية غرباً، وانتظاراً للوقت الذى تصطدم فيه قوات هتلر بالجيش الأحمر فيتطاحن العدوان ويفنى بعضهما بعضاً ودعاة السلام فى الغرب يتفرجون عن كثب ويظنون أنهم بذلك يحسنون صنعا!

ولكن الدكتاتورين كليهما كانا من دهاقنة السياسة فى أوربا فلم ينخدعا بما أضمره لها ساسة الغرب من مكايد وما نصبوه لها من حبائل. فأما المرشال ستالين فصمم على الانتقام من دول الغرب التى أهملته فى اجتماع ميونيخ ولم تستمع إلى نصحه بشأن تشيكوسلوفاكيا، وقرر فى دخيلة نفسه أن يدع تلك الدول تتلقى هى ضربات الحرب الأولى من ألمانيا حتى تتهيأ روسيا لمواجهة دورها بعد قليل أو كثير. وأما هتلر فانه قد عجم عود الحلفاء فى ميونيخ فلم يجد إلا قصبة مرضوضة، فليس بهم قوة حتى على الوقوف إلى جانب حليفتهم فى ساعة شدتها، فقرر أن يتخذ قراره التاريخى الخطير غير عابئ بحكومات الغرب المتخاذلة فى شخص تشمبرلن فى إنجلترا ودلادييه فى فرنسا.

وكانت أولى ضرباته أن اغتنم فرصة نفور ستالين من حكومات الغرب وسارع إلى الاتفاق معه على الحيدة المقبلة، حتى لا تتعرض ألمانيا مرة ثانية

لخطر الحرب فى جبهتين متعارضتين : احداهما شرقية ضد روسيا والأخرى غربية ضد الدول الغربية . وكان أشد ما أخذه هتلر على الامبراطور السابق أنه أوقع ألمانيا فى بدء الحرب العالمية الأولى بين نارين من جيوش الحلفاء ، وأنه أراد تحقيق الغرضين البعيدى المنال لألمانيا فى وقت واحد : التفوق الحربى فى أوربا ، والسيادة فى عرض البحار ؛ فخاب مسعى الامبراطور فى الغرضين جميعا . وعلى ذلك تم لهتلر أعظم انقلاب دبلوماسى شهدته أوربا فى تاريخها الحديث ، وهو عقد الاتفاق بين روسيا وألمانيا فى أغسطس سنة ١٩٣٩ ، وكانت سياسة المحور بين برلين وروما قد تأيدت بمعاهدة التحالف بين ألمانيا وايطاليا فى مايو سنة ١٩٣٩ فلم يتردد هتلر وأركان حربه فى إعطاء الاشارة برفع الستار عن مأساة أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ وقد حالفت آلهة الحرب قوات هتلر فى السنين الثلاث الأولى من الحرب ، فعقدت له ألوية النصر فى عدة مواقع حاسمة خاطفة تبوأت على أثرها ألمانيا مركز الزعامة والسيادة فى قارة أوربا فيما عدا السويد وتركيا وسويسرا وقد نضيف إليها تجاوزا ، أسبانيا والبرتغال . ومع ذلك فقد كان لألمانيا فى هذه الدول من النفوذ الأدبى والمادى ماجعلها أيضا تحت رحمتها . ولو أن هتلر ثابر على العمل ونفذ خطته الأولى فلم يعرض ألمانيا لخطر الحرب أمام أكثر من جهة واحدة ولم يحاول إصابة الهدفين الألمانيين معا لكان مصير ألمانيا شيئا آخر غير الانحلال الذى يتهددها اليوم . ولكن الطبيعة البشرية وما جبلت عليه نفس الانسان من الأثرة والطمع والغرور قد جعلت هتلر يزهى بانتصاراته الأولى ويسىء تقدير قوى أعدائه ، فانزلق وهو فى أوج مجده يعادى أمريكا ويعلن الحرب على روسيا قبل أن تنقلب عليه ، ويحاول فى الشمال أن يدق طريقه دقا ليعبر روسيا إلى أكرانيا فالقوقاز وبحر قزوين ، ويحمل فى الوقت نفسه قائده « رومل » فى الجنوب على طرق باب الاسكندرية إلى قناة السويس فبلاد الشرق الأوسط وخليج العجم حيث يلتقى بحلفائه اليابانيين وقد اكتسحوا جنوب آسيا إلى الهند فايران . هنالك أشفقت آلهة الحظ من فداحة مثل ذلك النصر الذى لم يتح من قبل للآلهة نفسها فضلا عن البشر ، فأشاحت بوجهها عن بطلها حينئذ ، وبدأ نجم هتلر فى الأفول ، فارتد الألمان عن ستالنجراد فى الشمال ، وتراجعوا أمام العلمين فى الجنوب ، وكان ذلك بداية النهاية .

محمد رفعت

تأمين على الحياة . . .

قهوة صغيرة ، أو قل حانة حقيرة ، ينحشر فيها جمع من الصعاليك والفارغين ، يقضون فيها الوقت ، أو بتعبير أليق بهذا المقام : يقتلون الوقت بثرثراتهم الحادة العنيفة ، ومجادلاتهم التي يسودها العناد والمكابرة ، مفضيةً بهم إلى المهاترة والمشاجرة والعراك ، على حين يتجرعون نفايات الخمور . . .

من بين أوشاب هذه الحانة المدمنين شاب يدعى شافعى ، أو الأستاذ شافعى كما يصر هو نفسه على أن يدعو نفسه بهذا اللقب . . .

ولم لا يكون أستاذا ، وهو الذى لم يكد يخفق فى حياته الدراسية ، وتلفظه معاهد التعليم ، حتى انزجّ كاتبا أو شبه كاتب فى بعض دور المحامين ، فشهد المرافعات الخطيرة تتجاوب أصداؤها فى جنبات المحاكم . . . ومرت أمام عينيه أضاميم القضايا ، فعلقت بأنظاره أمهات الاصطلاحات القضائية ، وتناهت إلى سمعه أحاديث كتّاب المحاماة تتناول إجراءات المحاكم وما إليها من أساليب الحجز والإنذار والكيد للخصوم ؟

وهو على بذاذة هيئته يحاول أن يبدو أنيق المظهر . فرباط رقبته المهلهل الذى قرّحته الأدران يعقده عقدة ضخمة كأنها سلحفاة آخذة بتلابيبه ، وشعر رأسه العامر بالقاذر يرّجله ويلطخه بالرخيص من الدهان ، وقد أطل من جيب سترته الأعلى قلم حبر ، أو بالأحرى أنقاض تاعسة من قلم ثمين لو أوتيت معجزة النطق لصاحت :

— ارحموا عزيز قوم ذلّ !

فان هذا القلم أقرب إلى الرمز منه إلى الواقع . . . ما أعياه عن أن يخط حرفا بله كلمة . . . ولم يكن الفتى ليريده على أن يجرى بشئ على القرطاس ، وإنما كان يتخذه شعاراً أو شارة تعلن أنه من حملة الأقلام !

كان الشاب يختلف إلى ذلك الخان دائبا لا يتخلف ، و يمضى فيه أطراف النهار وآناء من الليل لا يبرحه إلا خطفا . . . وكان صاحب الخان يلقاه بوجه جهم عبوس ، ونظرة نكراء يتوضح فيها الإزراء . . . أليس فى ذلك كله آية بينة على ما يتمتع به الشاب من ملحوظ المكانة فى دنيا التصعلك والفراغ ؟

وعلى الرغم من أن هؤلاء الرواد فى ذلك الخان قد ملتهم كراسيّهم وضجرت بتشبثهم ، تراهم لا يشعرون بطائف من الملالة والضجر ؛ إذ كانوا يأنسون بهذا الصخب الذى لا يفتر وتلك المحاورات التى لا يخبو لها أوار ، ومتى كلّت حناجرهم أشرعوا أبصارهم إلى الطريق يجدون فيه مجالا للمتعة والسلوى ؛ فقد كان الخان قائما فى ملتقى شارعين من أكثر شوارع القاهرة ازدحاماً وحركة . . . المركبات على اختلاف أنواعها فى جيئة وذهوب ، والسابلة على تباين طبقاتهم وأزيائهم ؛ لا يفتر تتابعهم من رجال ونساء . . .

فى أصيل يوم كان الأستاذ شافعى يتحدث إلى حشد من الرفاق ، وهم متطلعون يستمعون إليه دون أن يفقهوا له قولا ، وما جعلهم يصبرون على الاستماع إلا أن كلا منهم يريد أن يوهم غيره بأنه من أولئك النفر السايرين للتطور الاجتماعى المشاركين فى جديد أنظمته وأوضاعه . . . .

ومن حق الأستاذ شافعى أن نسجل له ما أوتى من بضر نفاذ مؤثر يقلبه فيمن حوله ، ولسان ذلق تترادف عليه الجمل طنانة رنانة ، والكلمات فخمة ضخمة ، يلقيها مصطنعاً لهجة المحامين ، متخذاً طرائقهم فى الاشارة والتلويح ، فتسمع منه أمثال قوله :

الجهل بالقانون لا يعفى من المسئولية !

المتهم برىء حتى تثبت إدانته ! . . .

أيأخذ العامل أجره بحسب إنتاجه ؟ أم بقدر حاجته ؟

وبينما كان الأستاذ شافعى متدفقاً فى حديثه ، والجمع حوله شاخص مشدوه ، إذا بضجة تتعالى فى ملتقى الشارعين ، فالتفت الأستاذ ناحية الضجيج ، فألفى الزحمة تتزايد ، والطريق تتعطل حركته ، وما هى إلا أن قفز من مقعده ، واقتحم الزحام ، وأرهف سمعه يتعرف الخطب ، فعلم أن صبى لبان كان يسرع بدراجته الخربة عليها قوارير اللبن يوزعها على طلابها فى البيوت ، وفى ملتقى الشارعين صدمت إحدى سيارات الأجرة مؤخرة الدراجة ، فألحقت بها نوعاً

من العطب ، وكسرت إحدى قوارير اللبن ، فوقف الصبيّ فى بلاهة يندب سوء حظه ، ويتحسر على ما أصابه ، ويكرر على مسامع المجتمعين حوله خوفه مما ينتظره من حساب وعقاب ، على حين كان السائق يتصايح متهما الصبيّ بجهله نظام المرور وحداثة عهده بسياقة الدراجات . . .

وظل الأستاذ شافعى يدافع الناس بمنكبيه حتى بلغ مكان الخصمين ، فجعل ينقل بصره بينهما فاحصا وهو يرقب مجرى الحوار . . . وأوشك الجمع أن ينحازوا إلى جانب السائق فيما أدلى به من حجة تنفى تبعته . وكيف لا يصدقون رجلا يتربع على مقعده العتيد فى سيارة ضخمة يصور موقفه تصوير خبرة وتدقيق ؟ وكيف لا يكذبون ذلك الصبى الغرير الفأفاء الذى لا يحسن إلا الشكوى والتحسر والانخذال ، معبرا بذلك الوجه الشائه الذى تتخالف أقسامه حتى لتنأى به عن طلعة الانسان ، وتجعله أدنى إلى مرتبة العجماوات ، فلا يثير بشكله وبحديثه إلا السخر والاستهزاء ؟

وما هى إلا أن تقدم الأستاذ شافعى يجابه السائق بقوله :

— يجب أن نحدد المسئولية تحديدا واضحا يا حضرة . . . أنت فى سيارة ، وهذا الصبى فى دراجة ، والفرق جلىّ بينهما من حيث القوة على الضبط والربط ، وإنه سابق لك وأنت من ورائه تراه ولا يراك . . .

ومسح الصبى اللبان لعابه المتسايل على زوايا فمه ، ودعك أنفه المنتفش ، وحلق فى ذلك الشاب مشدوه النظرات . . .

وصمت الجميع إنصاتا إلى ذلك المدافع المنطيق بصوته الجهير . . .

ودبت الحماسة بين جنبى الأستاذ شافعى ، فعلا بصدره ، وأصلح رباط رقبته المنتفخ ، ثم انتزع قلمه العتيد من جيب سترته الأعلى ، واندفع يشهره فى وجه السائق ، وهو يقول :

— القانون صريح فى تحديد المسئوليات . . . إن . . .

فقاطعه السائق متحديا يقول :

— لا تدخل فيما لا يعنيك يا أفندى !

وأحس الأستاذ شافعى أن السائق يتحفز لشر ، فخشى المغبة ، وألفى قدميه تتراجعان . . . ولكنه لمح شبح الشرطىّ يتخطر فى طريقه إلى الميدان ، فعاودته الحمية ، واستأنف قوله متصايحا منتفخ الأوداج :

— كيف لا يعنيني ؟ أتعرف من أنا ؟

فأجاب السائق ساخر اللهجة :

— لم أتشرف بعد يا جناب « الحكمدار » . . . !

فعقب عليه الأستاذ شافعي وقد ملك أعصابه ، قائلا فى تؤدة ، وهو يحكم مخارج الحروف :

— أنا السكرتير العام فى نقابة المحامين ، وعضو مجلس الادارة المنتدب ...

وتراءى شبح الشرطيّ وقد تصيدت أذنه بعض ما تفوه به الشاب الثائر ، فاستشعر له شيئا من التقدير ، ورآه يتجه إليه ، ويسترسل أمامه فى نبرات خطابية يشرح قصة اعتداء السيارة على الدراجة ، غاليا فى التفصيلات ، متحذلقا فى التعليل والتأويل ، واختتم خطبته بقوله :

— القانون صريح . . . من أضرَّ بآخر لزمه التعويض !

وكان صبي اللبان قد انتبذ بدراجته مكاناً غير بعيد ، وعينه تنتهب الأستاذ شافعي ، وفمه ينفرج عن بسمة كريهة بلهاء !

واتخذ الشرطي سبيله إلى مكان الدراجة ، وقد اكتسى وجهه صبغة من التزمت والأنفة ، وراح يتفحص الدراجة كأنه خبير فنيّ يستشف بنظره حقائق ودقائق لا يعلمها إلا الأقلون . . .

وما إن أتم بحثه وفحصه حتى انطلق إلى مكان القارورة يقلب النظر فى كُسَارِهَا ، كأنه يستجلي غوامض مصرعها ، ثم داعب حطامها بحذائه الثقيل ، وما لبث أن ركله ركلةً ألقت به عند حافة الطوار مُجْهَزًا عليه !

ورجع إلى السائق يقول عابس القسمات :

— خير لك أن تؤدى للصبي تعويضا . . .

وسرعان ما سرت فى الجمع همهمة استحسان لهذا الرأى ، وانقلب الجمهور فى لحظة ظهيراً للصبي يأخذ السائق بأن يؤدى التعويض . . .

وألقى السائق نظرةً على الشرطي ، فلمح شاربه يهتز انفعالا واستنجازا ...

وألفى شراذم من غلمان الطريق قد تحلقت حوله وتألبت عليه ، وإذا الأستاذ شافعي يتصايح معدّدًا ما لحق الصبي من أضرار ، وما على السائق من تبعات . . . فلم يجد السائق مفيضا من الاحتكام إلى الشرطي فى تقدير التعويض ، راضيا بما يكون من حكمه فى هذا الصدد . . .

فأزاح الشرطى طربوشه إلى الوراء ، وفتل شاربه ، ثم نطق بقوله :

— أعطه عشرين قرشا . . . لقد أصاب الدراجة تلف شديد . . .

دفع السائق هذا القدار صاغرا ، وتناول الصبى النقود فاغرا فاه من دهشة واغتباط ، وصاح الشرطى بالجمع أن تفرّقوا . . . وسرعان ما انقشع الزحام !

انطلق صبىّ اللبان يجرجر دراجته فى تسكّع ، وهو ينظر إلى يده مطبقة على النقود ، فلم يكن لديه موضع آمَنُ من هذه القبضة القوية . . . أيأتمن على النقود جيبه المتهتك فى ذلك الثوب البالى المهلهل الذى لا يؤمن على شىء ؟

سار وقتا لا يخطر بباله شىء ، ولا يفكر إلا فى مصرف هذا المبلغ الضخم . . . إنه أكبر مبلغ ملكه منذ عرف المال حتى هذه الساعة البيضاء !

وفيما هو على حاله ، يقدر ويدّبر ، أحس شخصا يتهادى على قرب منه ، وإذا هو الأستاذ شافعى ينظر إليه فى تلطف وهو يقول :

— ما رأيك ؟ أمسرور أنت ؟

فانبسطت أسارير الصبىّ ، وأطلق ضحكة شوهاء ، وقال :

— طال عمرك ، وبقى أولادك !

— يبدو لى أنك ولد رقيق الحال . . . ما اسمك ؟

— الفولى . . .

— ماذا تعمل ؟

— صبىّ لبان . . .

— عند من ؟

— عند المعلم فتح الله . . . ألا تعرفه ؟ الرجل ذو الشارب الغليظ ، والكرش العظيمة !

وانطلق يوالى ضحكاته ، فأسكته الأستاذ شافعى بإشارة منه ، وقال له فى جدّ :

— ماذا أنت صانع بالدراجة العاطبة ؟ وماذا أنت قائل للمعلم فى شأن قارورة اللبن المفقودة ؟

فنظر إليه الفولى ذاهلا يقول :

لم أفكر فى هذا قط !

— إنه سيطالبك بالعشرين قرشا ، لأنها تعويض عن قارورة اللبن وعطب الدراجة . . .

فبدا على وجه الصبيّ حيرة وتخوّف ، وجعل يردد وكفه تزداد انقباضاً على ما فيها :

— كيف يأخذ النقود منى ؟

— هى من حقه . . .

وحنا الفولى رأسه فى قنوط واغتمام ، وأخذ يردد :

— وماذا أصنع إذن ؟

— نبحث المسألة ، لعلنا نجد لك مخرجا معقولا ، أنت بائس محتاج ، وأنا مستعد أن أعينك على أمرك . . .

فقال الصبيّ وقد شرق بدمعه ونظر إلى الشاب نظرات توسل وركون :

— طال عمرك ، وبقى أولادك . . . أنا محتاج حقا . . . أنا يتيم ليس لى من أعوّل عليه . . . وأنا أعمل عند المعلم بالقوت الضرورى ، وياليته راض عنى ، فلشدّما يضربنى ويخزنى ويهددنى بالطرد . . .

واندفع يشكو ويتضرع ، راغباً فى طريقة يحتفظ فيها لنفسه بالنقود . . . وراح الأستاذ شافعى يدور حول الدراجة متفحصاً إياها بعين الخبرة ، أو بالحرى يوهم الفولى أنه ذلك الفاحص الخبير . . . ثم همهم :

— ربما لاحظ المعلم عطب السيارة فسألك عنه ، وربما غاب عنه الأمر ، وبذلك تنجو من سؤاله وحسابه . . . أقوىّ النظر هو ؟

— عينه كعين الصقر . . .

— هنا نقطة ضعف فى المسألة . . . ولكن ثمة وسائل لإنقاذ الموقف !

— بربك ساعدنى . . .

وتشبث به الفولى ، فراح الأستاذ شافعى يعتصر جبهته برهة ، ثم واجه الصبى سباغتاً إياه بقوله :

— سألقنك بعض جمل قد تنفعك . . . قل إن ما حدث كان قضاء وقدرا ، ولا رادّ لقضاء الله . . . قل إنك سليم النية لم تضمر أىّ سوء . . . قل إن

السيارة حين اقتحمت الدراجة أقبلت أنت على الدراجة تحميها وتحمى ما عليها من قوارير ، حتى دمى جسمك ، وتمزق ثوبك . . .

ووقف الشاب يتوسم الصبى لحظات ، ثم قال :

— يجب أن يدمى جسمك ، وأن يتمزق ثوبك . . . !

— كيف ؟

— أعاجز أنت عن أن تخدش نفسك وتشق ثوبك وتتمرغ فى التراب ؟

— أليس من هذا بد ؟

— لابد من ذلك لابد . . . لا مخلص لك إلا بهذه الوسيلة . . . إن المعلم إذ يراك على هذا النحو يشفق عليك . . .

فابتسم الفولى ابتسامته العريضة ، وقال :

— أمرك !

وانتحى الأستاذ شافعى والفولى ناحية من الطريق مهملة ، وشرع الصبى يؤدى لنفسه مهمة الخدش والتمزيق والتمرغ وفق التعليمات المرسومة ، حتى بلغ من ذلك ما أراد . . .

فما إن رآه الأستاذ شافعى حتى ربّت كتفه ، وقال :

— أحسنت !

ثم تابع قوله :

— لا تنس أن تتدانى إلى الحانوت ، متخاذل المشية ، ذليل القسمات ، تتلوى من الألم . . .

ثم استمر يشرح له الخطة ، ويلقنه الأجوبة ، ويزوده بالنصائح وبما يواجه به المفاجآت . . .

وبعد أن وعى الفولى ما سمع ، تهيأ للمضى فى الطريق ، فنظر إليه الأستاذ شافعى مليًّا ، ثم تصنّع ابتسامة الفطنة ، وقال :

— أراهن على أنك تريد منى أن أرافقك فى مهمتك ، حتى أخلصك من سطوة معلمك !

فأجاب الفتى فى سذاجة :

— أبقاك الله ، وحفظ أولادك . . . إن هذا لجميل منك . . .

وهنا وقف الأستاذ شافعى وقفة حزم ، وقال :

— ولكن مسألتك أضاعت من وقتى ساعتين ، فماذا تبغى منى فوق هذا ؟ لدى قضية مهمة لا مخلص من إنجازها ، وجلسة فى النقابة علىّ أن أشهدها . . .

فأخذ الفولى يتضرع قائلاً :

— إنى خائف من المعلم !

ولبث الأستاذ شافعى يمط شفتيه فى امتعاض ، مظهراً التردد والإحجام ، ثم بسط ساعده ، واستشار ساعة يده الخربة ، وداعب ذقنه لحظة ، وأخيراً قال :

— لا بأس ... دقائق أخرى من أجلك ... أنت ولد تستحق المساعدة ...

وابتهج الفولى بذلك الفوز ، فأقبل على يد الأستاذ شافعى يغمرها بقبلاته ... وأخذا يتوجهان وجهة حانوت اللبان ، فقال الأستاذ شافعى :

— عليك أن تتقدمنى خطوات ، حتى لا يراك أحد معى فيرتاب فى الأمر . . . إنى مراقبك من بعيد . . . وسأتدخل فى الوقت المناسب !

وأخرج علبة لفائفه وفتحها ، ثم قذف بها فى عرض الشارع متسخطا يقول :

— ليس فيها لفائف !

فقال الفولى على الأثر :

أذهب لأشترى علبة ؟

— لا مانع . . .

وأخرج محفظته المنتفخة بالأوراق ، وألقى بصره عليها ، ثم زوى ما بين حاجبيه ، وقال :

— لا داعى للفائف الآن . . .

— ولم ؟

— ليس معى إلا ورق مالى كبير لا يصرف هنا . . .

قال ذلك وقد سلط عينه على كف الفتى يريد أن ينفذ ببصره إلى الريال المختنق فى قبضتها . . . فقال الفولى وقد أحس النقود تضطرب فى يده :

— ربما كان من المستطاع صرف ورقة من الورق الكبير ... ألا نجرب ؟

فقال الأستاذ شافعى محتدًّا :

— حسبى ما ضاع من وقتى . . . أتريد أن تفوتنى القضية وجلسة النقابة ؟

— لا أحب أن أراك متضايقاً كما أنت الآن . . .

فصاح به الأستاذ شافعى صيحة عنيفة :

— قلت لك إنى مرتبط بمواعيد . . .

فوقف الفولى منكمشا ، ثم أخذ يهرش رأسه ، وانسرح يفكر ، وهو يردد بصره بين قبضة يده يختزن فيها كنزه وبين الأستاذ شافعى يقف وقفته العصبية . . . وأخيراً لم يجد بدًّا من أن يقول :

— أذهب لشراء علبة وأدفع ثمنها مما عندى . . . وحين تصرف الورقة ترد إلىّ الثمن . . .

— ما هذا الكلام الفارغ يا ولد !

وتضرع إليه الفولى أن يقبل هذا الحل . . . وبعد تمنع ومناقشة قبل الأستاذ شافعى فمدّ يده وانتزع النقود من يد الصبى وهو يقول :

— أفضّل أن أشترى علبة اللفائف بنفسى . . . اسبقنى وأنا وراءك !

وسار الفولى يجرجر درّاجته المتداعية ، وقوارير اللبن يرتطم بعضها فى بعض ، وكأنها تتساءل عن مصيرها بعد أن تغير البرنامج المرسوم لها كل يوم . . . !

تبع الأستاذ شافعى خطوات الصبى ، وكان كلما قطع من الطريق مرحلة ازداد عنه تباعدا . . . وبين الفينة والفينة يلتفت إليه الفولى ليشعره بأنه أمامه يهديه السبيل . . . !

وازدحم السابلة أثناء السير ، فلاحت الفرصة للأستاذ شافعى كى ينجو بالغنيمة ، ولكن عين الفولى لم تنم عنه ، فأفسدت عليه تدبير الهرب ، وأحس كأنه محصور يخضع لرقابة ذلك الفج الغرير . . . !

على أنه اعتصم بالصبر ، وحث خطاه ، مزمعا فى دخيلة نفسه أن ينتهز أول فرصة للخلاص من تلك الرقابة البلهاء !

ولكنه ما عتم أن ألفى نفسه قبالة حانوت اللبان ، حيث تهيأ الفتى ليلج بابه متخاضع الهامة ذليل الخطا . . .

وكانت وجهة الحانوت بيضاء مغبرة قذرة ، وعلى عتبة الباب يتسايل الماء فيملأ البقعة بالأوحال . . . ومن خلال زجاج الوجهة يتراءى مصباح كهربى يتدلى فى نحو مبتذل ويتهافت شعاعه الواهن على تمثال رخيص شائه لحيوان أوضح ما فيه ضرع كبير ، لا تدرى أبقرة هو أم لبؤة أم هرة عجوز ! . . . وخلف هذا شبح كتلة بشرية ضخمة غير واضحة المعالم ، يتعالى

منها صوت متحشرج تشيع فيه رنة السخط ، ما أشبهه بخشخشة مذياع خرب !

لمح الأستاذ شافعى هذا المنظر ، وتناهى إليه ذلك الصوت ، فألفى نفسه قد انزوى فى ناحية يتطلع ويتسمع ، يدفعه الفضول إلى تعرف ما يكون . . . واستطاع أن يتابع فى صعوبة خلف زجاج الوجهة الكدر مشاهد الرواية بين بَطَلَيْها : المعلم والصبى !

الكتلة البشرية تتحلحل ، شبح الفولى عن كثب منها يتخاذل تخاذل الظل الناصل أمام الضوء الكاشف . الحشرجة تنقلب زمجرة حبيسة كزمجرة الاعصار حين يتهيأ للزفيف . الكتلة تنقضّ على الظل الناصل فاذا هو لا عين ولا أثر . الاعصار يعصف كأنه دوّامة موّاجة يضيع فيها صراخ الاستغاثة المضعضع . . .

وما هى إلا ان أنقذفت لُمن الحانوت إلى الطريق تلك المزقة الآدمية التى تدعى الفولى ينبعث منها تأوه وانتحاب . . .

وسرعان ما تهافت حول الصبى الصريع نفر من الفضوليين ما كاد يتبينهم حتى انطلق يشكو لهم بأساءه وما حل به من ضرب وجيع بلا جريرة ولا ذنب . . .

وكان يتطلع يمنة ويسرة باحثا عن منقذه وأمين كنزه الثمين ، فلم يره على فرط التلفت والتصفح للناس ! . .

وعمرت الحلقة بعابرى السبيل ، وأخذ الناس يتذمرون ويتبادلون شعور الاستياء من صاحب الحانوت ، بعد أن تجلى لهم ما بَرَّح بالفتى من الآلام ، وما أصابه من جراح . . .

فى هذه اللحظة بزغ المنقذ ! . . . فاخترق الحلقة ، وشرع يسائل ، وتطلّق وجه الفتى ، وتهادت الكتلة البشرية الضخمة بشاربها الغليظ ، وهى تصيح بالجمع أن يتبدد . فخطا الأستاذ شافعى خطوة إلى الأمام وقد علا بصدره ، وانبرى يسوّى رباط رقبته المنتفخ يستمد منه الحمية والتشجع ، وقال :

— هذا الولد مظلوم ، خليق بالرثاء !

فأرعد المعلم قائلا :

— إنه أخبث مخاتل خداع . . .

— وهذه الجراح ؟ وتلك الكدمات ؟

واقترب الأستاذ شافعي من الصبي يتحسس أوصاله ، وصاح ملتفتا إلى الجمع :

— يلوح لى أنه قد أصيب بكسر فى ترقوته !

فهمهم الجمع :

— ترقوته ؟

والتفت الأستاذ شافعي إلى الصبي يقول :

— قم يا ولد . . .

وما كاد الصبي ينهض حتى صاح الأستاذ شافعي :

— شَدَّ ما يتألم !

وفى هذه اللحظة سمع الصبيّ يجأر بالشكوى ويتوجع . . . وتابع الأستاذ شافعي قوله :

— إنه ليتعذر عليه أن يقيم صلبه . . . انظروا إليه يتهالك على الأرض مثخنا بجراحه !

وما أسرع أن ارتمى الفولى على الأرض ، فواصل الشابّ قوله :

— يالله ! المسكين يكاد يفقد وعيه . . .

وما إن أتم قولته ، حتى تمدد الصبي خامد الأنفاس . . .

وصاح الشاب يقول :

— هذا ما كنت أخشاه . . . حقا إن ترقوته قد كسرت ، وهذ أعراض انكسارها . . . يجب أن نستدعي سيارة الاسعاف وإلا . . . وإلا أفلتت فرصة العلاج !

طرقت هذه الكلمات سمع المعلم ، فبدا عليه التعجب والدهش ، ولكنه ظل رابط الجأش ، متملكا زمام نفسه ، وافتعل ضحكة شنعاء ، قائلا :

— ماذا تقول يا أفندى ؟ أية ترقوة ؟ وأىّ إسعاف ؟

ومد قدمه إلى الصبي يغمزه ويقول :

— قم ياولد . . .

ولكن الفولى كان حريصا على الاذعان لنصائح الشاب ، فلم يبد فى رقدته حراكا . . . وكان وهو ممدود على أديم الأرض تكسو وجهه الجراح ،

وتعلو ثيابه الأوحال ، حريا أن يستثير مشاعر العطف والاشفاق . . .
فتعالت همهمة سخط وتغيظ بين جمهرة الناس ، فقال أحدهم يوجه كلامه إلى المعلم :

— أليس فى قلبك ذرة من رحمة ؟ إن الولد يجود بنفسه !

فصاح الأستاذ شافعى وقد انحنى على الصبى يتحسسه :

— الحالة خطرة . . . أخشى أن يكون قد أصيب بنزف باطنى . . . ألا أجد رحيما يسعفنا ببعض المنعشات ؟

فهرع جمع من الناس يحضرون الماء والخل . . . وأقبل الأستاذ شافعى على الصبى يدلكه وينشقه ، ثم تركه لبعض السابلة يتعهدونه ، وقصد إلى المعلم ، ووقف أمامه وجها لوجه ، وقد عقد حاجبيه ، وخطف قلمه العتيد التداعى من جيب سترته الأعلى ، وجعل يلوح به قائلا :

— ألا تعلم أنك عرضت نفسك لمسئولية جنائية صريحة ؟

فغمغم المعلم وقد تغضن جبينه :

— مسئولية جنائية ؟

— حقا . . . إنها لمسئولية خطيرة ، تزُجّ بصاحبها فى محكمة الجنايات !

وهمّ المعلم أن يرفع الصوت مستنكرا ، فوجد الكلمات تختنق فى زوايا حلقه. وكان الأستاذ شافعى يرقبه بالنظر الثاقب ، فلمح شارب المعلم الضخم المتشامخ يتهدل ويتطامن . . .

فصاح على الأثر :

— لا أقل من سجن خمس سنين . . . أوَحسبت أنه لا حساب ولا عقاب ؟

وأخيرا استطاع المعلم أن يقول :

— وحضرتك من تكون ؟

— ألا تعرفنى ؟

— لم يسبق لى شرف التعرف . . .

— أنا السكرتير الخاص لنقابة الطب الشرعى ، وعضو اللجنة العليا للاسعاف ! . . .

فأجاب المعلم مختلج الأنفاس :

— وسعادتك . . . بماذا تأمر ؟

— لا شأن لى بالموضوع . . . لا مصلحة لى قط . . . علىّ أن أبلغ الأمر للسلطات المختصة . . . هذا كل مايجب أن أعمله ، أما الاجراءات القضائية فانها تأخذ مجراها . . .

فمد المعلم فتح الله يده إلى كتف الأستاذ شافعى ، وجعل يربتها فى ترفق ، ثم اجتذبه من الزحمة متلطفا وهو يقول :

— تعال معى إلى الحانوت نتحدث على مهل . . .

وسار به إلى الحانوت ، وواصل قوله :

— هذا الولد عندى كأحد أبنائى ، وقد ربيته ، وليس بعسير علىّ أن أعالجه ، وأن أنفق عليه حتى يذهب عنه ما به . . .

ودخل كلاهما الحانوت ، فعمد المعلم إلى الباب يغلقه ، وشوهد شبحاهما من خلال الوجهة الزجاجية ، وقد انتحيا ركنا قصيا ، وانبريا يتناقشان ويتحاوران . . . ثم شوهدت الكتلة البشرية تدس خفية فى يد الأستاذ شافعى شيئا لم يكد يلمسه حتى خفّت حدته فى المناقشة ، وانقطع عن اللجاج !

وخرجا من الحانوت يظللهما الصفاء . . .

وسمع الناس الأستاذ شافعى يخاطب المعلم بقوله :

— سأتولى الأمر بنفسى ، ولكن كن حكيما فى معاملة الغلام ، ولا تدع غضبك يسيطر عليك . . .

وأمر باحضار مركبة من مركبات الخيل ، فلما حضرت حمل إليها الفولى ، ووثب الأستاذ شافعى يتخذ مجلسه بجواره ، ومضت بهما المركبة بين أخلاط الزحام . . .

وما إن ابتعدت عن الحى حتى اعتدل الفولى فى جلسته ، وتطلع إلى وجه منقذه يبتسم ابتسامته البلهاء ، فزجره الأستاذ شافعى بنظرة حادة ، ثم استل من جيبه الريال العتيد ، ودفع به إلى الفولى ، قائلا له :

— خذ نقودك . . .

— واللفائف ؟

— لا حاجة لى بها الآن . . . حسبى ما أضعت من وقتى فى مشكلتك الأولى والأخرى . . .

ترادفت على يوم هذا الحادث شهور . . .

وظهر فى المنتديات وفى المجالس الكبيرة شابان تزينهما حلة إفرنجية ، أحدهما حديد البصر يعنى برباط رقبته ذى العقدة الضخمة ويصلحها بين حين وحين ، وتراه يتحسس تارة قلم الحبر الثمين ذا الغطاء المذهب ، وهو مطل من جيب سترته الأعلى . . . وبجوار هذا الشاب فتى يافع يلازمه ملازمة الظل ، لا ندرى أآدمى هو بحق أم هو من ذلك النوع البدائى المنقرض من سلالة الانسان ، ذلك الذى تخيله داروين حلقة الاتصال بين القرد والبشر . . . فهو على الرغم من جدّة حلته ، يبدو مختل الزى بلا هندام ، حركات شاذة فى النهوض والسير والتلفت ، وإشارات طائشة يبعثرها فى غرارة ، وابتسامة عريضة بلهاء تبتلع وجهه الشتيم !

ولشدّ ما يبادره رفيقه بالتعنيف ، إذ يقول له :

— قلت لك دع هذه الابتسامة ، لا تضحك على هذا النحو ، متى تتعلم !

فيتطلع إليه الفتى على حاله لا يكاد يشعر بما قيل له ، ويجيب ساذج اللهجة :

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟

— أريد أن تكون كخلق الله !

— ألست من خلق الله ؟

— إنك لحيوان . . .

— طال عمرك ، ويبقى أولادك !

وينفرج فمه أكثر من ذى قبل ، وتتوضح ضحكة كأنها تثاؤبة بشعة . . . فينظر إليه الشاب الأنيق نظر الاشمئزاز ، وتعتلج فى نفسه نزعة جامحة إلى صفعه ، ويلقى كفه تختلج ، ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه قذف فى وجه الفتى ورقة مالية صغيرة ، وهو يصيح صيحة الآمرة :

— حل موعد الطعام ، فاعزب عنى ، وأرحنى من طلعتك بعض الوقت . . .

فيتلقف الفتى ورقته مغتبط النفس ، ويقول :

— لا حرمنى الله فضلك وإحسانك . . .

— لا تتأخر . . . يجب أن ألقاك فى الموعد . .

ثم يحسر كمه عن معصمه ، ويلقى بنظرة خاطفة على ساعته الذهبية الوهاجة ، ويواصل قوله :

— أمامك ساعة . . . ستون دقيقة فقط . . . أفاهم ، أنت ؟

— فاهم يا سعادة البك . . .

— إن وقتى محسوب علىّ . . . القضايا يأخذ بعضها برقاب بعض . . . فحذار أن تتخلف . . .

— كان الله فى العون !

— إن الله تعالى لم يشأ أن يعيننى بمعرفتى بك . . . لقد زادت متاعبى منذ سقطت علىّ . . . ولكن ماذا أنا صانع ؟ أألقى بك فى عرض الطريق ؟ لك رزق . . . إنما نطعمكم لوجه الله . . .

— عمر الله بيتك !

— اذهب لشأنك وتذكر موعد اللقاء . . .

ويخرج « شبه الآدمىّ » يقفز فى مرح ، تراوده شهوات الطعام وألوان المآكل . . .

منذ يوم الحادثين التاريخيين — حادث السيارة ، وحادث المعلم فتح الله — تاحت للأستاذ شافعى فرصة تتجلى فيها مواهبه على نحو جديد . . .

فكر فى شأن ذلك الصبى ، فرأى أنه إن اتخذه تلميذا يستخلصه فى مثل هذه الحالات أصاب منه رزقا حسنا . . .

وكان الأستاذ شافعى فطنا حصيفا لا يتهور ؛ فهو لا يتقدم خطوة إلا إذا مهد لقدمه موضعا ، فبدأ يصطنع الصبى على نحو يأمن معه الزلل والافتضاح ، واتخذ من حادثة المعلم فتح الله أساسا للعمل ، فسعى فى إلحاق الفولى بمحل آخر على نحو ما كان ، وأعاد تمثيل الرواية بعد أن أتقن تجربتها وأبدع فى إخراجها وزادها فصولا إلى فصول ؛ فقد كان الأستاذ شافعى مجدِّدًا حقا فى أساليبه ، لا يركن إلى طريقة واحدة فى الاعادة والتكرار . . . ولا يكاد ينفض يده من حادثة ، حتى يمضى بربيبه وصنيعته إلى صيد جديد .

صدقت الحكمة القائلة بأن الحظ إذا واتى إنسانا ألفه ، فلم يغدر به ؛ وإذا أخلف لم يكن له من عود ؛ فالأقدار التى أخذت بناصر الأستاذ شافعى ظلت تمنحه العطف والتأييد . . .

فقد وقعت يوما حادثة ما أجدرها أن تكون محور تحول فى خطة ذلك الشاب المغامر ، إذ أصيب الفولى فعلا بصدمة سيارة كادت تتركه فى ذمة المنون . . . فما أسرع أن رفع الأستاذ شافعى الأمر إلى القضاء ، فحكم له بتعويض أدته شركة التأمين التى كانت تضمن حوادث هذه السيارة . . . فقد ثبت أن الصدمة تركت ما يسميه الطب الشرعى : « عاهة مستديمة » ... ولم تكن فى الواقع عاهة يأبه لأمثالها الفولى ونظراؤه من ذلك الضرب البشرى الذى هو عرضة للجد والاحتمال . . .

هنا انفتح لعين الأستاذ شافعى مجال تكمن فيه الذخائر والكنوز ، هذا المجال المبارك عنوانه :

« العاهة المستديمة » !

وعلى كرّ الأيام اتخذ الموضوع منحى عمليا لا يخلو من خطر ، إذ وجد الأستاذ شافعى نفسه أمام ميدان يتطلب الجهاد فى جدّ وإحكام ، ولم يكن هذا ليعييه . . .

وبذلك أصبح ذات يوم فألفى نفسه مُرَوِّضا حقا لهذا الحيوان شبه الآدمىّ . مروضا له على نهج مرسوم وخطة مقررة لغاية واضحة تمام الوضوح . . . !

وكان عليه أن يتذرع بالصبر والحلم ومكابدة المشاق ؛ يغدق الرحمة والحنان أحيانا حتى يبلغ الأمر مبلغ التدليل ، ويقسو تارة أشد القساوة حتى يسوم ربيبه سوء العذاب . . . فهو صيدلىّ يتخذ من الأدوية والسموم ما يلائم ملابسات الأحوال ، حتى يستطيع بذلك أن يجبل هذا الحيوان شخصية ماهرة تجيد اللعب فى مخاطر الحياة ، كما يجيد البهلول قفزاته العالية يتطوح بها يمنة ويسرة فى حلقات الملاعب . . .

لقد غدا الأستاذ شافعى فى حياته الجديدة مبتكراً مخترعاً ، يحتبس فى مكتبه ليرسم الخطط ويعد التجارب ، فاذا فرغ من رسمها وإعدادها عمد إلى صنيعته يلقنه الدرس ، ويريده على ضروب من التمرين ، ثم يجرجره معه كما يجرجر الصياد شبكته ، ويرمى به فى معمعان الحياة وعباب الأحداث ، ثم يجذبه فاذا هو مملوء الوفاض بالمغانم والخيرات !

أما الفولى فكان يسلم قياده لأستاذه ، لا يعصيه ولا يخالفه فى أمر أو نهى . . . لقد وهب لأستاذه كامل ثقته ، فلم تكن المخاطر تهزّه أو تهوله ،

ما دام أستاذه هو الذى يدفعه إليها دفعا . . . لا مرية أن السلامة مكفولة مهما ينله من إصابات ، فما كان لأستاذه أن يريد به السوء !

وأخذ الأستاذ شافعى يتنقل فى البلاد مستصحبا صنيعته ، لا يستقر له قرار فى بلد واحد ، يرتاد المصايف والمشاتى ، حسبه أن يزج بصبيه فى المزالق والمآزق فلا تلبث المغانم أن تفئ إليه باردة طيبة لا تكلفه عنتا . . . فعاش عيش المترفين النعمين ، يلقى من مائدته فتاتا لربيبه الصبى ، فيلتقطه محبوراً تقر عيناه . . .

واتسعت مناطق عمل الشاب ، وازدادت المشروعات بين يديه ، فكان يؤثر منها أضخمها تبعة وأثقلها كلفة . . .

وسارت الأمور على هذا النحو ، وتكاثرت فى جسد الفولى ألوان « العاهات المستديمة » فأصبح كالثوب المرقع ، بقيت فيه المزق ، ولعب بأصله العفاء !

وأصبح للفولى اسم ذائع الصيت فى المشافى والمصحات ، يقضى فيها من أيام عمره أكثر مما يقضيه خارجها من أيام السلامة والعافية . . . وكان ذلك مما يغريه بالمخاطر ويشجعه على اقتحامها ؛ فإن عيش المشافى والمصحات أهنأ وأمرأ ، وإن حياته فى تلك الدور لهى حياة رفاهية ومتاع ، إذ هو بين أيدى الممرضات يتعهدنه ويلاطفنه ويقدمن له أنظف الملبس وأطيب الطعام والشراب . . .

وتعاقبت الأيام والفولى مطمئن بحياته ، رافه البال ، يعيش فى قفص من عاهاته المستديمة كما تعيش القوقعة فى محبس من صدفتها ، أو السلحفاة فى حصن من درعها الصخرية . . .

ولكن الأستاذ شافعى لم يعد يشارك الصبى هذه الطمأنينة ؛ فقد سمع مرة من الجراح الذى تولى علاجه أن هذا الصبى لن يعيش طويلا إذا تعرض لصدمة أخرى . . . فوقع هذا النبأ على الأستاذ شافعى وقوع الصاعقة ، وفكر فى الأمر مليا ، واضطر أن يخفف من وطأة المغامرات التى يورط فيها ربيبه ، وأحاطه بموفور الرعاية . . .

وكان كلما خطر بباله أنه قد يفقد الفولى يوماً ، شعر بصرح آماله يتقوض ، وتأمل فى نفسه ، فلم يجد أنه قد ادخر مما كسب شيئاً لمثل هذا

اليوم ، اليوم العصيب المنتظر . . . فقد كانت المائدة الخضراء ، ومناضد الشراب ، ومجالس الغوانى ، تتناهب كسبه ، فلا تبقى ولا تذر . . .

هل من سبيل لانقاذه من تلك الكارثة التى توشك أن تحيق به فتسلمه إلى البوار ؟

كان مرة فى السينما ، فشاهد رواية إجرامية دارت أحداثها حول استغلال التأمين على الحياة ، فخلبه الموضوع ، وراقته الفكرة ، ومضى يسائل :

أما يجوز له أن يتخذ من موضوع التأمين سلما لانقاذ مستقبله ؟

لم لا ؟

وجلس إلى مكتبه ، وقد علت سحنته تلك المسحة الشريرة ، وأحس من قرارة نفسه باعثاً يحدوه على عمل فاصل وأمر محتوم . . . إنها الورقة الرابحة الكبرى ، أفلا يقامر بها ؟ إن حياته كلها كانت حتى اليوم ربحاً لا خسران معه ، فليجرب هذه المرة أيضاً مواتاة حظه ، وإنه لعلى يقين أنه لن يتنكر له . . .

عليه أن يضرب الضربة الحاسمة حتى تغنيه عن تلك المغامرات الصغيرة التافهة التى هى علالات عجاف !

فى هذه اللحظة طالعته صورة للفولى ملقاة على مكتبه ، وهو يبتسم ابتسامة تكشف عن قسماته الحيوانية ، كأنه يذكره بفضله عليه ، فتأمل الصورة حيناً بعين مغيظة ، وما عتم أن قذف بها بعيداً ، وراح يذرع الحجرة ذهاباً وجيئة . . .

الفولى . . . من هو ؟ بل ما هو ؟ . . . غر مأفون ، وسيموت يوماً ، ما من ذلك بد . فإذا إن تقدم به الأجل ؟ كثير غيره من كرام القوم وسراة الناس تجرى عليهم سنة الموت وهم فى ريق العمر ، وفى الصبا النضر ، ومع ذلك تسير الدنيا ولا تفتأ تسير !

الفولى . . . إنه ميت لامحالة . . . ولكن المهم من أمره إذن أن يموت فى الوقت المناسب على الوجه المناسب ، فيضمن لموته قيمة لا تضيع ، وإنما تكون جزاء لولى نعمته الذى انتشله من الحضيض ، ورفعه فى مراتب الحياة درجات !

وانفرج الباب فى هذه اللحظة عن الفولى يخب فى حلته الجديدة غير

المهندمة وهو يحي الأستاذ شافعي بتلك الابتسامة المثيرة للأعصاب . . .

فتدانى منه الأستاذ شافعي وربت كتفه ، وهو يقول :

— سنخرج معاً . . . أستأهب أنت ؟

— أنا طوع أمرك . . . إلى أين ؟

— سنمضي إلى بعض زيارات . . . زيارات هينة . . .

ثم أخرج من جيبه علبة لفائف ، ورمى بها نحو الفولي في ملاطفة ومعابثة ، فلقفها الصبي وهو يترنح من طرب . . .

مضيا . . . متجهين إلى إحدى شركات التأمين . . .

وانقضى أسبوعان والأستاذ شافعي يستصحب ربيبه متنقلا به بين شركات التأمين يعرضه عليها مستشيراً إياها في التأمين على حياته . . .

وكان يساوم ويفاضل ، ويستخبر مختلف الجداول المزدحمة بالأرقام ، حتى استقر قراره بعد لأي على اختيار إحدى الشركات السخية في شروطها ، وبدأت بعد ذلك إجراءات الفحص الطبي ، فطرح الفولي بين يدي الأطباء يقلبونه كما يقلبون البضاعة المزجاة ، متفحصين إياه في عناية واهتمام وحذر ، واستعانوا في فحصهم بتحليل الدم واتخاذ الصور لأوصال الجسم المختلفة ، والصبي في أثناء ذلك لا يحاول أن يفكر في اكتناه الغاية مما يرى وما يسمع ، حسبه أن يحس الغبطة والانشراح والاعتزاز بذلك الجمع المحتشد من حوله يشمله باهتمام ملحوظ . . .

وبعد محاولات ومداورات حررت وثيقة التأمين ، فدسها الأستاذ شافعي في جيبه في عناية واحتراس . . . وما إن ترك المكان حتى التفت إلى الفولي يقول وعيناه تلتمعان التماعة الفوز والمرح :

— أتعلم ماذا كان من أمرك الساعة ؟

— ماذا ؟

فوقف الأستاذ شافعي يتأمله بعيني النسر الشره ، ثم قال :

— إن حياتك التي لم تكن تساوي قشرة بصلة ياسيد فولي قد أصبحت منذ اللحظة تساوي آلافاً من الجنيهات !

فحملق الفولي مبتهجاً مهتاج الخاطر ، ينشق فمه عن ابتسامته الكريهة البلهاء ، وهمهم :

— كيف ؟ . . . كيف هذا ؟

— ذلك هو الواقع . . . لقد رفعتك من لا شئ إلى كل شئ . لقد جعلت لحياتك قيمة غالية . . . افهم أنك أصبحت الآن عظيما ، عظيما جدا أيها الحيوان ! . . .

فتضاحك الفولى مترنح الأعطاف ، وقال :

— طال عمرك ، وبقى أولادك . . .

هنا تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ صلة الفولى بأستاذه الشافعى ، مرحلة يلعب فيها القدر لعبته الكبرى . . .

لقد أمّن الأستاذ شافعى على حياة الفولى بمبلغ ضخم ، وجعل لنفسه وريثه الأوحد . . .

لقد توضحت المسألة . . .

إن الذى كان يخشى الأستاذ شافعى وقوعه قبل اليوم ، أصبح الساعة هو الذى يشتهيه ويتعجله ويرى فيه فردوس أحلامه . . .

عليه الآن أن يعمل بجد . . .

وسرعان ماشمر عن ساعد الاهتمام ، واستأنف مراجعته لمشروعاته ينمقها ويجيد إخراجها ويجملها بما يجعلها أحد وأمضى !

وتأهب الفولى لخوض المغامرات بعد فترة الراحة والاستجمام . . .

كانت الخطط السابقة تتسم بالحيطة والحذر ، ولكن الخطط الحاضرة يتجسم فيها التهور والتعرض للتهلكة . . .

وشرع الفولى يدرك ببصيرته الحيوانية ، بصيرته التى تنيرها غرائز الحرص على البقاء ، أن ثمة عنصراً جديدا قد اندس فى مغامرات اليوم . . .

ولكن ما هو ؟

ذلك ما لم يستطع التفطن إليه والكشف عنه . . .

وأحس يوماً فى إحدى المغامرات يد الأستاذ شافعى تدفعه دفعاً تحت عجلات السيارة ، على حين أن الخطط فى سوالف المغامرات كانت تلزم الأستاذ شافعى أن يظل بعيداً عن الأنظار ، حتى تقع الواقعة . . .

وما هى إلا أن وجد الفولى نفسه فجأة يحجم ويتمنع ويتوقى ، فكان الاخفاق نصيب المغامرات المدبرة . وتأصلت فى قلب الفولى مخاوف لم يكن

يدرك تمام الادراك مأتاها . . . فكان وهو على أهبة التقحم فى ميدان الخطر يشعر فى اللحظة الحاسمة بما يزين له التراجع والفرار ، فاذا هو قد جانب الميدان ، وأطلق ساقيه للريح . . . !

أثار هذا الاخفاق المتتابع غضب الأستاذ شافعى ، فكان يعنف ربيبه أقسى تعنيف ، ويحضه على الاقدام والتشجع ، ويسائله :

ماذا أصابه حتى فقد رباطة جأشه وخفة حركته ؟

فلا يجيب الفولى إلا بما ينطبع على وجهه من سهوم وحيرة وارتتاج . . .

وكثيرا ما همّ الأستاذ شافعى أن ينحى على ربيبه بالضرب الموجع ، ولكنه كان يراجع نفسه ، ولا يلبث أن يقبل عليه يلاطفه ويتملقه ، ويلاينه بمعسول الأمانى . . . فكان الفولى يحدق فيه طويلا بعينيه الكابيتين الكئيبتين ، كأنه يريد أن يستكنه هذا الملق وما ينطوى عليه من سر . . .

وسرعان ما ينخرط فى بكاء وانتحاب ، وتستبد به الوحشة والانقباض ، كأنه تائه يضرب فى بيداء ماحلة تعوى فيها الرياح . . .

اختلت برامج الأستاذ شافعى كل اختلال ، وخلا إلى نفسه يسائل فى أمر هذا الصبى المعتوه ، وما عراه من تغير حال . . .

أى شئ أصاب الصبى حتى جعله يتخذ خطة أخرى فى مجابهة الصعاب وملاقاة المخاطر ؟

لقد كان من قبل مذعنا لارشاد أستاذه منجزا لخططه فى استسلام واطمئنان ، لا تقصير ولا عصيان . . .

فما خطبه اليوم يحجم ولا يبدو طيّعا كما كان ؟

ماذا جرى ؟

هل أحس أن نية سيده قد تغيرت نحوه ، وأنه يأتمر به ليهلكه ؟

لا ريب فى أن الصبى هو هو ، فعقله هو عقله ، وفطنته هى فطنته ، ليس بقادر على أن يستشف مجهولا ولا أن يستبطن شيئاً مما غاب . . .

أثمة وسيلة أخرى إذن غير العقل والفطنة تكشف عن البصائر وتجلو السرائر وتتوضح بها النيات ؟

أفى مستطاع الغرائز غير مستعينة بالعقل والادراك أن تستشف من حقائق الحياة وغيوب التدابير ما قد تعيا به العقول والفطن ؟

كان الفولى مستسلماً مطمئنا ، يوم كانت نيات أستاذه الشافعى نحوه بيضاء لا تريد له هلاكا ، بل تبغى حمايته والاحتفاظ به . . . ولكن الصبى اليوم ينقلب إلى الضد ، فيتقيه ويحذره ويستريب به ، لا لسبب إلا أن الأستاذ شافعى فى سريرة نفسه التى لا يعلمها أحد قد فكر فى الخلاص من ربيبه . . .

أترى الفولى بواعيته الخفية قد أحس ذلك الانقلاب فيما يهدف إليه أستاذه من أغراض . . .

عالج الأستاذ شافعى ربيبه بمختلف الذرائع وأشتات المغريات ، وإذ يضيق بأمره ذرعا لا يجد بدا من أن يتقصده بالضرب المبرح والايذاء الأليم . . .

فكان الفولى يحتمل الأذى فى صبر وجلد ، لا يروعك منه إلا كشرة ضارية تعلو فمه كما تكشر الذئاب المتأهبة للانتهاش . . .

ولا يكاد الأستاذ شافعى يرى الفولى قد كشر عن أسنانه على هذه الصورة البشعة حتى يتقهقر عنه ، وقد أوجس خيفة منه !

وانتهى الأمر بأن أعلن الفولى جهرة إضرابه عن تنفيذ أى مشروع يراد عليه . فأسقط فى يد أستاذه الشافعى ، وذهبت محاولاته كلها أدراج الرياح ، وتلبّس الفولى بعناد كما يعاند الحمار إذا حرن ، وتأبّى أن يتزحزح عن موقفه مهما يكن من أمر . . .

ونشبت بين الصبى ومروّضه عداوة مضطرمة كان من العبث إخفاؤها . . . وكان الأستاذ شافعى يكاشف صبيه بالعداء فى ضجة وعنف . فأما الصبى فقد ظل منطويا على ضغنه الخبئ ، يجلس الساعات الطوال فى ركن من الحجرة وحيدا يحدق فى الفضاء أمامه بعين تائهة حيرى ، وقد يفيق بغتة من غشيته على أثر رجفة تنتظم أوصاله ، إذ يتراءى فى مخيلته الأستاذ شافعى وقد عاجله بضربة على أم رأسه تسقطه مضرجا بدمه . . .

وكم من مرة جمعت بينهما حجرة واحدة . . . الأستاذ شافعى جالس إلى مكتبه وهو عابس ينتفخ ، والصبى متجمع فى ركن قصىّ يخالس أستاذه النظر ، فكلما تلاقت عيونهما ألفى الفولى نفسه يصرّ بأسنانه صريرا لا يخطئه السمع ، وقد انفرجت شفتاه ، وتحفز للذود عن نفسه وحياطتها من كل مكروه . . .

تواصلت الأيام ، والفولى غريق عناده وكآبته وصمته ، وبدأ الأستاذ شافعى يجد ريح الأزمة المقبلة ، فجن جنونه ، وأقبل على ذكائه يهزه ويعتصره ، ولكن عزّ المعين !

ومرة كان الغريمان على حالها فى حجرة المكتب ، وإذا الأستاذ شافعى ينهض واجف الأوصال من الغضب ، مكفهر الوجه من الغيظ ، وصاح بالفولى قائلا :

— تعال هنا ياولد . . .

فرماه الفولى بنظرة نكراء ، ولم يبد من حراك . . .

فردد الأستاذ شافعى صيحته :

— تعال هنا يا ولد . . . هل خرست ؟

فأشاح الفولى برأسه يأبى الاستجابة للأمر . فخطا إليه الأستاذ شافعى ، فما إن رآه الفولى مقبلا حتى نهض دفعة واحدة ، فزأر الأستاذ شافعى قائلا :

— لماذا لا تطيع أمرى ؟

فهمهم الفولى فى صوت محتدم كظيم ، وقد علت وجهه سحابة كدرة مفزعة :

— هكذا فعلت !

— وإنك لتتوقح فى القول ؟

— هكذا أنا . . . !

فنفرت أوداج الأستاذ شافعى ، وألقى يده تتعالى ، ثم تهبط بصفعة عاصفة ، فاهتز لها كيان الصبى ، ولكنه لم يزُل عن موقفه ؛ وكل ما كان منه أن انقلبت عيناه بقعتى دم فائر . . . وهمهم وهو يصر بأسنانه صريراً يكاد يحطمها :

— لا تضرب !

فتحمس الأستاذ شافعى ، وصاح مجلجلا بصوته :

— أضربك وأضرب شياطين أبيك . . .

فتابع الصبى صرير أسنانه ، وجمجم :

— قلت لك لا تضرب . . .

— إنك خارج الآن معى . . .

— كلا . . .

— قلت لك إنك خارج . . .

— لن أخرج !

وارتفعت يد الأستاذ شافعي ، وما كادت تهبط بصفعتها حتى التقت بيد متحجرة جبارة تمسك بها في قساوة وعنف . . .

وسرعان ما التحم الخصمان ، وكانت معركة حامية الوطيس ، معركة تجرى على الفطرة ، كل خصم يحرص على أن ينال من خصمه جهد ما يستطيع بكل ما أوتى من قوة وشراسة . . .

فكانت الضربات تتهاوى هنا وهنالك ، وكان الخمش والخدش يتناثران ذات اليمين وذات الشمال . . .

وإن أحدهما ليقبض على خصلة شعر خصمه ، فلا ينزع يده إلا وقد اجتثها من أصولها . . .

لقد توارت إنسانية الخصمين ، فلم يبق منهما إلا صورة الحيوانية الباغية الطاغية لا تعرف غير الضراوة والافتراس !

وجرت المعركة لا يسمع فيها إلا هرير الأنفاس ، والارتطام بالحوائط والأثاث ، ووقع اللكمات والضربات . . .

وتدانى الجسدان من الشرفة ، وسرعان ما اشتبكا في عراك على سورها ، ثم ألفيا نفسيهما بغتة يسقطان متخبطين في الهواء . . .

ولم تكد صيحتهما تعلو حتى ذهب بها صوت سقطتهما العنيفة من حالق . . .

فارتمى الجسدان هامدين !

وتجمع حولها السابلة ، وبعد حين تهادى الشرطيّ ، والناس من حوله يصفون له ما وقع في تضارب واختلاط . . .

في هذه اللحظة الهوجاء وقعت عين الشرطيّ على شيءٍ أبيض يطل من جيب الأستاذ شافعي ، وكأن هذا الشيء يحاول جهد الامكان أن يفسح له مثابة في عالم النور ليعلن وجوده في وضوح . . .

فاجتذبه الشرطي يتعرف ما هو ؟ فاذا هو غلاف كبير مكتوب في جبينه بالخط العريض :

وثيقة التأمين على الحياة ! . . .

محمود تيمور

نشأة الزراعة وأثرها فى تاريخ الحضارة

طلب إلى أحد العلماء الذين توفروا على دراسة تاريخ الحضارة منذ نشأتها الأولى أن يكتب مؤلفا فى أهم المخترعات والمكتشفات التى كان لها أثر عميق بالغ فى مجرى الحياة والحضارة البشرية ، فبدأ مسودة كتابه — الذى أعرف أنه لم يخرج إلى النور ولم يطبع بعد — بأن سجل أن أهم المخترعات وأخطرها شأنا قد تم منذ بضعة آلاف من السنين على أقل تقدير . وأضاف أن ما نشاهده ونتمتع بنتائجه من الاختراعات الحديثة فى عهدنا الذى نعيش فيه لا يمكن أن تقاس فى خطرها إلى اكتشاف استخدام النار مثلا ، وقد اهتدى إليه الانسان منذ عهد طويل قد يبلغ عشرات قليلة من آلاف السنين ، ولولاه ما استطاع الانسان أن يسخر كثيراً من موارد الطبيعة والحياة ؛ كما لا يمكن أن تقاس إلى استئناس الحيوان أو استنبات النبات ، وقد اهتدى إليهما الانسان منذ سبعة آلاف من السنين أو تزيد ، ولولاها ما استطاع الانساس أن يسخر مملكة الحيوان والنبات . ثم إنها لا يمكن أن تقاس إلى اكتشاف استخدام المعادن كالنحاس والبرونز والحديد ، وقد اهتدى الانسان إليها جميعاً بين الألف الرابعة والألف الثانية قبل الميلاد ، ولولاهما ما سخر الانسان المعدن النافع فى صنع آلاته وأدواته . فاكتشاف عمل النار واستخدامها ، واستئناس الحيوان ، واستنبات النبات ، واستخدام المعدن النافع قد قلبت حياة الانسان وغيرت مجراها تغييراً يكاد يكون تاماً ؛ على حين أن كثيراً من اكتشافاتنا الحديثة كاستخدام البخار أو صنع الصلب بدلا من الحديد ، أو استخدام الألمنيوم أو الكشف عن الكهربا أو غير ذلك ، إنما هى كلها تكييف وتشكيل لبعض ما كان معروفاً ، أو إضافة إلى تراث عريق؛

أو هى بناء فوق أساس قديم ؛ بحيث إننا نستطيع أن نقول إنها لا تمثل « جديداً » بالمعنى الدقيق للكلمة [١].

والذى يعنينا فى هذا المثال إنما هو أن نعرض لاكتشاف واحد من تلك الاكتشافات القديمة ذات الأثر العميق البالغ فى حياة الانسان ، وهو اكتشاف الزراعة أو استنبات النبات . وسنحاول فى هذا المقال أن نستطلع أموراً شتيتة قد يفيد بيانها والجمع بينها فى إبراز قيمة هذا الكشف الخطير ، الذى يزيد من أهميته فى حياة الناس أن الانسان بطبيعته حيوان نباتى فى غذائه ؛ فهو بحكم تكوينه الفسيولوجى وتكوين أسنانه بصفة خاصة إنما خلق ليعيش على الحبوب والجذور والفاكهة وثمار الشجر . فليست أسنانه من النوع « الناهش » المدبب ، كما هى أسنان المفترس من الحيوان وليست هى من النوع « الماضغ » الأملس ، كما هى أسنان المجتر من الحيوان ، الذى يعيش على الحشائش ؛ وإنما هى أسنان وسط تصلح لأن تجرش الحب أكثر مما تصلح لأن تنهش اللحم النيئ أو تمضغ ألياف الحشائش الخضراء . ومهما قيل من أن الانسان قد انقلب بحكم عاداته المكتسبة إلى حيوان مفترس يقتات على لحوم غيره من الحيوان ، فقد بقى النبات بحبه وجذوره وثماره أساس الغذاء البشرى بصفة عامة . ولعل هذا أن يكون السر فى أن اكتشاف استنبات النبات بدلا من مجرد جمعه والتقاط حباته وثماره من الطبيعة يعتبر الاكتشاف الأول من حيث الأهمية فى حياة الانسان .

ولا يعرف على وجه الدقة متى ولا كيف بدأ الانسان يستنبت النبات . ولكن المعروف أنه قد درج فى أول الأمر على الجمع والالتقاط ؛ واكتفى بذلك ردحا طويلا جدا من الزمان ، ليس لنا أن نقدر طوله الآن ، ويكفينا منه أن نشير إلى أن حياة الانسان فى هذا الطور الطويل كانت حياة « هدّامة » ؛ فهو كان يعيش على حساب استغلال الطبيعة استغلالا سلبيا من جهة ، والاعتماد على ما تجود به دون محاولة الإكثار من ثمراتها أو استدرار خيراتها

---

(١) قد لا ينطبق هذا على اكتشاف تحطيم الذرة واستخدام طاقتها . وليس ذلك لأن استخدام الطاقة أمر جديد فى حد ذاته ، ولكن لأن تحطيم الذرة سيفتح آفاقا جديدة أمام الانسان فى استخدام مقادير هائلة من قوى الطبيعة ، لا تكاد تشملها حدود .

من جهة أخرى . أما بعد أن اهتدى إلى الاستنبات فقد صار الانسان عوناً للطبيعة بعد أن كان حرباً عليها ؛ واختلفت حياة الانسان عن حياة الحيوان الذى يسعى فى الأرض ويأكل الثمرات . والمعروف — أو الذى تواضع عليه العلماء الآن — أن تحول الانسان هذا التحول الخطير إنما حدث فى أوائل العهد الذى يعرف باسم العهد الحجرى الحديث ، وكان ذلك فى أوقات مختلفة فى مختلف الأماكن ؛ فالتحول لم يحدث فى وقت واحد فى كل مكان . ومع ذلك فمن المرجح أن يكون ذلك قد حدث فى أواخر الألف السادسة قبل الميلاد ، بحسب ما تدل عليه القرائن الأثرية فى مصر وبلدان الشرق القريب . ثم انتشر فن الزراعة والاستنبات إلى بلدان أخرى فى حوض البحر المتوسط وفى أواسط آسيا وشرقها خلال القرون أو الآلاف اللاحقة . ومن الجائز أن يكون استنبات بعض النباتات كالأرز قد نشأ فى جنوب آسيا الشرقى مستقلا عن استنبات القمح والشعير فى الشرق القريب وعند مجمع آسيا الغربية بأفريقية الشرقية ، كما أن من المعروف أيضاً أن استنبات الذرة الغليظة قد بدأ مستقلا فى أمريكا الشمالية .

أما كيف بدأ الاستنبات فى حد ذاته ، وكيف اهتدى الانسان إليه فالآراء كثيرة متضاربة ، وهى أقرب إلى الفروض والنظريات منها إلى الوقائع المحققة . ومن الباحثين من يرى أن الانسان قد اهتدى إلى الزراعة أول الأمر بعد أن آمن بالبعث واليوم الآخر ، فقدم القرابين للموتى ، ودفن مع الأجساد فى المقابر كميات من الحبوب تسعف الميت يوم النشور بزاد يقيه الجوع ساعة يهب من رقاده الطويل ، فجاء ماء المطر وتسرب إلى المقابر فأنبت الحب ، وخرج النبات بين حفر المقابر ؛ فتعلم الانسان من ذلك كيف يكفر الحب فى الأرض ليخرج زرعاً جديداً يمده بمحصول مضاعف من الحبات والثمرات . ومن الباحثين من يرى فى هذه النظرية تفسيراً متكلفاً ؛ ويفضل عليها أن يفترض أن يكون الانسان قد جمع الحب فى موسم نضجه من حقول الطبيعة ، حيث تنمو النباتات بطبيعتها نمواً بريا أو وحشيا . حتى إذا ما جمع الحب كان أكثر مما يستطيع أن يقتات به فى وقت قصير ؛ فاحتفظ به فى كوخه حيث كانت الحبات معرضة لأن تتناثر حول الكوخ وعلى الأرض بين حين وحين ؛ حتى إذا ما ابتلت الأرض فى وقت مناسب للانبات خرج النبات

الأخضر من الحبات ، وشاهد الانسان نموه حتى أدرك أن النبت إنما يخرج من الحب ، ثم يستوى زرعاً طيباً تتوجه السنابل والحبات التى يضاعف الله بها الرزق للناس . وبذلك لم يكن عسيراً على الانسان أن يهتدى إلى أن يبذر الحب على الأرض أول الأمر ، ثم يكفره فى ثراها بعد ذلك ؛ فكانت نشأة الزراعة بمعناها المعروف .

وهناك فروض ونظريات أخرى يدور معظمها حول تعليل نشأة الزراعة ، ولكنها لا تعدو أن تكون مجرد آراء . وقد يكون أولى بنا ألا نفترض أن يكون فن الزراعة قد نشأ على أنه « اختراع » أو « اكتشاف » تم دفعة واحدة . فقد رأينا فى مقال سابق (١) أن من الجائز أن تكون زراعة المحاصيل الشتوية — لا سيما الشعير — قد نشأت فى بلد كمصر نشأة طبيعية تدريجية ؛ فالنيل يعلو ويغمر جوانبه فى أواخر الصيف وأوائل الخريف ؛ ثم ينحسر عنها فى وقت ملائم جدا لانبات الشعير والقمح وما إليهما من محاصيل الشتاء . ومن اليسير أن تذرو الرياح لدى انحسار الماء بعض البذور من حافة الوادى إلى تربته التى غزاها النيل بغرينه ومائه وأعدها أطيب إعداد للانبات والانماء ، فيخرج النبت الجديد ويتغذى من ثرى الأرض الطيب حتى تقبل أمطار الشتاء فتغذيه حتى نهاية موسم الانبات والنمو وحلول فصل الحصاد فى أواخر الربيع . ولا يبعد أن تكون القبائل المنتشرة على حافة الوادى فى ذلك الوقت قد راقبت هذه الدورة الطبيعية عاماً بعد عام ، فاهتدت عن طريق المشاهدة إلى أن تقلد الطبيعة ، أو أن تكمل عملها وتحسنه على الأقل ؛ فكان الانسان فى أول الأمر يحرس حقول الشعير البرى مثلا بعد أن تنبت برية وحشية ، فيمنع عنها أذى الحيوان والطير ، حتى يتم الحصاد . ومن يدرى ! فقد تكون قد مرت على هذا النمو مرحلة من مراحل نشأة الزراعة بطريقة يتعاون فيها الانسان مع الطبيعة فيكمل عملها ويبنى عليه ، حتى تعلم الزراعة الصحيحة ، وغرس الحب وتولى استنباته ورعايته آخر الأمر ؛ وبذلك صار زارعا بالمعنى الكامل الصحيح .

وإذا نحن قبلنا هذا التصوير الأخير لنشأة الزراعة فى بلد كمصر ، فقد

---

(١) « الكاتب المصرى » عدد ٢٧ (ديسمبر ١٩٤٧) .

لا تبقى بنا حاجة إلى أن نتخيل ماحدث على نحو ما تصوره لنا النظريات السابقة . وقد يكون مقبولا أن نتصور أن تكون الزراعة قد نشأت فى مواطن معينة من العالم ، لأن البيئة الطبيعية كانت أكثر صلاحية فى تلك المواطن ، ومع ذلك فان من المهم لنا أن نفرق منذ الآن بين نوعين من الزراعة كان لكل منهما أثره الخاص فى حياة الانسان وتطور مدنيته وحضارته . فأما النوع الأول فهو فطرى بسيط لم يزد فيه الانسان على أن ينقر حفرة صغيرة فى الأرض بوساطة فأس حجرية أو عصا خاصة ، ثم يضع الحب ويكفره فى التراب ، فيأتى المطر ويسقيه حتى يتم نموه ويستوى على سوقه ، فيحصده الزارعون . ومثل هذا النوع من الزراعة لم يرتفع كثيراً بأهله ؛ فهو لم يعلم أصحابه التضامن والتعاون فى أداء مهنتهم ؛ وهو قد مكن لكل زارع أن يزرع بمفرده ولنفسه ، أو أن يكتفى فى حرفته بأن يستعين بأسرته الصغيرة دون حاجة إلى الارتباط بمجتمع كبير . وبذلك بقيت الجماعات التى اشتغلت بهذه الزراعة الفطرية مفككة ، لا يربط بين أفرادها تضامن أو تكافل اجتماعى أو إدارى ، من ذلك النوع الذى يميز الحياة المتحضرة ، والتى تتداخل فيها المصالح وتشترك الغايات وتتشابك الوسائل . فضلا عن أن هذا النوع الفطرى من الزراعة لا يحتم على صاحبه أن يرتبط ببقعة معينة من الأرض ، وإنما هو يحدوه إلى أن يفضل الانتقال فى كل عام أو عامين إلى بقعة جديدة لم ينهك خصبها الانماء . وبذلك لا يعتاد الزارع حياة الاستقرار التى هى ضرورية لنشأة الحياة الثابتة والمدنية المستقرة .

أما النوع الآخر من الزراعة فهو الذى يعرف بالزراعة الراقية ، حيث يعتمد الزارع على الأدوات والآلات كالمحراث وغيره ، مما يستلزم قيام حرف إضافية غير الزراعة ، أو أدوات الرى ووسائله التى تستلزم قيام فن الهندسة وشق الترع والقنوات بدلا من الاعتماد على المطر فى رى النبات . وهذا النوع الراقى من الزراعة يستلزم جهداً مضاعفاً من صاحبه ، ويستلزم أن تتعاون فنون وحرف مختلفة تتشعب معها الحياة فى المجتمع ويتنوع النشاط وتتكاثر المصالح ويصعب فيه على الزارع أن يعمل فى الحياة بمفرده أو أن يكتفى بالاستعانة بأفراد أسرته الصغيرة . بل إن هذا النوع الراقى من الزراعة هو دون الزراعة الفطرية أساس المدنية الزراعية بمعناها التاريخى المعروف . وهو الذى سمح

فى بلد كمصر أن تصبح الزراعة أساساً صالحاً لحياة مستقرة مثمرة ، هى التى قامت عليها تلك المدنية العريقة التى عاصرت التاريخ وارتفعت بالمجتمع المصرى درجات رفيعة من الحياة والمدنية والحضارة .

ومع ذلك فقد يكون من المفيد أن نخلص من هذه الدراسة العامة لنشأة الزراعة وألوانها المختلفة إلى تقصى بعض نتائجها الظاهرة فى حياة المجتمع البشرى وحضارته ؛ تلك النتائج التى لم تقتصر على مصر ومثيلاتها من البلدان ذات المدنية الزراعية المستقرة القديمة ، وإنما هى قد شملت أغلب الانسانية فى بقاع كثيرة من الأرض . ولعلنا أن نجد فى تعدادها وتحديد دلالات كل منها بعض ما ينفع فى الكشف عن قيمة « الزراعة » كقوم أساسى من مقومات الحياة الانسانية والحضارة البشرية بوجه عام .

وأول ما ترتب على الزراعة بصفة عامة أنها علمت الانسان أن يكون بنّاء فى الطبيعة بعد أن كان هداماً فى عهد الجمع والالتقاط ، مثلها فى ذلك مثل استئناس الحيوان ورعيه ؛ فقد علما الانسان أن يعاون الطبيعة على أن تتوالد وتتكاثر بدلا من أن يقتنص حيوانها اقتناصاً كان لابد أن ينتهى إلى الفناء والانقراض . وقد ترتب على تحول الانسان نحو الحياة الانتاجية أن أصبح عوناً للطبيعة ، فضاعفت الطبيعة أجره ، وأخرج الله من كل حبة غرسها سنبلة أو سنابل ، فى كل سنبلة حبات كثيرة فيها من الرزق ما ييسر أسباب الحياة . وقد أدى ذلك إلى توافر الخيرات ، فتكاثر الناس وتضاعف السكان ، لا سيا فى الجهات التى تتيسر فيها الزراعة أو تجود . وكان هذا عاملا خطيراً فى عمران سطح الأرض ، وفى إمكان انتشار الانسان إلى جهات مختلفة ما كان له أن يعمرها لولا معرفته للزراعة والاستنبات . فاذا ما ذكرنا أن امتداد سلطان الانسان على وجه البسيطة ، بل إن قيام المدنية فى حد ذاته يستلزم توافر حد أدنى من السكان ، سهل علينا أن نتصور أنه لولا ظهور الزراعة ، وتوافر الأقوات والأرزاق نتيجة لذلك ، ما قامت لبنى الانسان دولة فى هذه الأرض التى تجود بالخير على العاملين .

ومع ذلك فلم يقتصر خير الزراعة على زيادة الرزق وتوافره ؛ وإنما هى كانت وسيلة « مضمونة » من وسائل العيش ، أو هى فى القليل كانت أكثر ضماناً من جمع الحبوب والتقاط الثمرات من النباتات والأشجار البرية والوحشية .

فالانسان فى عهود الجمع والالتقاط ، أو حتى فى عهد الصيد والقنص ، إنما كان يعيش من يوم ليوم ، أو من فترة قصيرة إلى فترة قصيرة على كل حال. فحياته كانت كلها خوف ، والجوع كان يتهدده ويتعقبه فى المكان والزمان . ولا بد لنا من أن نسلم بأن الخائف لايمكن أن تقوم على يديه مدنية ؛ وأن الذى يتهدده الجوع لا يمكن أن يكون له فكر مثمر أو روح مستقر . بل إن الحياة الفكرية ذاتها لا يمكن أن تنشأ أو تنمو إلا إذا توافرت للانسان الطمأنينة والأمان ، بل ذلك الشئ الذى نسميه « وقت الفراغ » . . . لا سيما هذا الأخير ، فهو الذى يتحرك فيه الفكر ويسبح فى آفاقه ، وهو الذى ينزع فيه الروح إلى مجال بعيد عن حياة الجسد ، بل هو الذى تعمل فيه العقول حرة طليقة من حاجات البطون . . . وتلك كلها مقومات أولية فى الحياة المتحضرة التى يجمع فيها الانسان إلى حياة المادة حياة الفكر والروح والعقل . ولعلنا أن نتبين ذلك واضحاً جليا حين نقارن بين حياة الزارعين القدماء وحضارتهم من جهة ، وحياة من سبقهم من جماعات الالتقاط والجمع والصيد من جهة أخرى .

وأثر آخر من آثار نشأة الزراعة ، لا سيما النوع الراقى منها ، أن الحياة المستقرة قد استلزمت قيام عدد آخر من الحرف والصناعات بل والعلوم المكملة للزراعة . من ذلك عمل الآلات الزراعية كالفأس والمحراث وآلات الحصد وغيرها ، أو أدوات الرى ، أو أوانى الفخار وغيرها حيث تحفظ حبوب المحصول من موسم لموسم ، أو غير ذلك من الصناعات الزراعية البسيطة التى استلزمها بالضرورة ظهور المحصول دفعة واحدة وفى موسم واحد ، وحاجة السكان إلى إختزانه والاحتفاظ به صالحاً للاستهلاك خلال بقية العام . وكل ذلك وغيره من نشأة علوم الرياضة الفلكية لحساب مواسم الزراعة والحصاد وعمل التقاويم الزراعية وتحديد الفصول قد أدى بالتدريج إلى ظهور فئات مختلفة من ذوى الحرف فى المجتمع ، وإلى زيادة ارتباط تلك الفئات بعضها ببعض ، واشتباك المصالح بين أصحاب الحرف والصناعات والعلوم والفنون من الزارعين وغيرهم. فضلا عن أن توافر المحاصيل والتوسع فى الزراعة قد انتهيا آخر الأمر إلى أن أصبح الزارع ينتج من المحاصيل ، أو من بعضها على الأقل ، أكثر مما يستطيع أن يستهلك . فنشأت فكرة التبادل ، وتداخلت الزراعة فى التجارة كما تداخلت

فى الصناعة من قبل . وذلك ولاشك أساس هام من الأسس التى قامت عليها الحياة والمدنية فى مختلف العصور .

ومع ازدياد التعقيد فى حيـاة الزارعين ومن خالطهم من ذوى الحرف الأخرى ازدادت الحاجة إلى النظام فى الحكم والادارة ، ونزع الزارعون أنفسهم ، وبحكم حياتهم المستقرة ، إلى الدعه والاستكانة ، وهما ضرورتان من ضرورات الحكم الثابت المستقر . فامتازت حيـاة الجماعات الزراعية القديمة — والحديثة إلى حدما — بألوان ثابتة ، أو قليلة التغير من الحكم والادارة ، استمر بعضها قائمـا على الزمن آلافا عـدة من السنين ، نستطيع أن نلمح آثارا منها فى حيـاة القرية المصرية الحالية أو القرية الصينية على سبيل المثال . ولعل هذا أن يكون هو السر فى أن أقدم « الحكومات » انما هى تلك التى نشأت بين جماعات الزراع .

ولـكن الاستقرار فى الأرض واستتباب الأمن والحكومة قـد يسرا من جانبهما نشأة نظام الملكية ، وتملك الزارع لقطعة معينة من الأرض يحفظها له القانون ، ثم تمسك المجموعة الـكبرى من الزارعين باقليم معين يحفظ عليهم تعاونهم الشامل وحكومتهم الموحدة الدائمة . وبذلك كله نشأت فكرة « الوطن » وكان الزارعون أكثر تعصبا لها واستمساكا بها من غيرهم من ذوى الحرف الأخرى ، بما فى ذلك الرعاة فى مراعيهم . فالراعى إذ يتمسك بمرعى إبله إنما يحتفظ فى الوقت ذاته بالقبيلة كوحدة للمجتمع . وإذا انتقلت القبيلة من جهة إلى أخرى أو هى هاجرت ، فانها تحتفظ بوحدتها ولا تأنف أن تستبدل بمرعاها مرعى آخر ؛ بل هى فى الحقيقة دائبة العمل ولو بطريقة غير محسوسة ، لأن تتوسع وتتنقل ؛ لأن القـاعدة فى حيـاتها هى الحركة لا الثبات . أما الزارعون فان الوحـدة « الاقليمية » عندهم تقابل الوحدة « القبلية » عنـد الرعاة ، والوطن الثابت عند الزارعين معقد الأمل . وكلما استمرت جهود جماعة من الزراع فى بقعـة معينة من الأرض ازداد تعلقهم بها ، وتضاءلت رغبتهم فى النزوح عنها ؛ لا سيما إذا كانت الزراعة من النوع الراقى الذى يحتاج إلى الرى وشق الترع والقنوات وإقامة المشروعات والقرى الزراعية الثابتة . لذلك كله كانت فـكرة الوطن والوطنية أقرب إلى حيـاة الزارعين منها إلى حيـاة غيرهم من الرعاة ، أو بالطبع من الصيادين أو الذين يحترفون الجمع

والالتقاط . فاذا نحن ذكرنا أن الحضارة الراسخة والمدنية المستقرة قد ارتبطتا منذ البداءة بفكرة الوطن والمكان الذى تتركز فيه الجهود ويثمر العمل الدائب ، حق لنا أن نشيد بفضل الزراعة فى نشأة المدنية والحضارة بوجه عام .

ولقد كانت أراضى الزراع فى كل عصر مطمعاً لغيرهم من العناصر المجاورة لا سيما الرعاة ؛ فكانت غزوات كثيرة متلاحقة يذكرها التاريخ فى الشرق الأدنى وشرق آسيا وغيرها من مواطن المدنية والاستقرار . وكان ذلك فى حد ذاته مبعثاً لألوان جديدة من احتكاك فئات البشر بعضهم ببعض ، ذلك الاحتكاك الذى لم يخل من أن تسيل فيه دماء ، أو أن يحل بسببه خراب ودمار ، ولكنه كان فى جملته خيراً للانسانية ؛ فقد انتهى فى أغلب الأحيان بأن استوعب الزراع غزاتهم من الرعاة ، وعلموهم كيف يكونون بناة جديدين لألوان جديدة من المدنية ، ما كان الرعاة ليحققوا شيئاً منها لو أنهم بقوا فى مراعيهم . فكأن الزراع وإن رغبوا عن الرحلة والانتقال ونشر مدنياتهم فى أقاصى الأرض ، فقد جادوا بها وعلموها غيرهم من الغزاة والرعاة جيلا بعد جيل .

ومع ذلك فان فضل الزراعة والزارعين على الانسانية أعمق من ذلك . فالمجتمع الزراعى كان أبرز مجتمع ظهر فيه نظام الأسرة كأساس لحياة الجماعة . وهو الأساس الذى مهما تشكلت ألوان المدنية والثقافة والحضارة العامة فانه لا يزال باقياً ، وسيبقى فى صورة من الصور مادام هناك إنسان يعمر الأرض . بل إن الزراعة كانت بحكم نشأتها أول حرفة تعاون فيها أفراد المجتمع تعاوناً صادقا شاملا فى عمل واحد . ففى حرفة الصيد مثلا كان العمل الحقيقى يتولاه الشبان والرجال الأقوياء القادرون على مطاردة الصيد ومغالبته ، أما النساء والشيوخ والأطفال فلا يعملون كثيراً ، ولا يعاونون بقدر ما يعالون . وفى حرفة الرعى كان الرجل يقوم بالعمل الأساسى المنتج دون المرأة . وفى حرفة الجمع والالتقاط كان النساء والأطفال يعملون أكثر مما يعمل الرجال . ولكن حرفة الزراعة فتحت باب العمل أمام الجميع لا سيا النساء ، وهن فريق غالب من بنى الانسان (!) ، بل هن فئة غالبة كانت معطلة النشاط — إلى حد بعيد أو قريب — فى حياة الصيادين بل فى حياة بعض الرعاة القدماء .

حتى إذا ما جاءت الزراعة فتحت آفاقا جديدة أمامهن ، إلى حد أن بعض الباحثين يرون أن المرأة هى التى اهتدت إلى اكتشاف الزراعة واستنبات النبات قبل الرجل ، وكانت هى العامل الأول فى الزراعة فى أطوارها القديمة ، كما بقيت عاملا هاما فى الزراعة حتى وقتنا هذا .

من هذه الخلاصة لما ترتب على نشأة الزراعة من آثار فى حياة البشر وحضاراتهم ، نستطيع أن ندرك قيمة هذه الحرفة القديمة ، ونستطيع أن نقيس ما كان من فضل لتلك الجماعات العريقة التى اهتدت إلى استنبات النبات والزراعة واشتغلت بهما منذ أقدم العصور ؛ ومنها مصر وكثير من أمم الشرق القديم فى غرب آسيا وشرقها على السواء . . . تلك الجماعات التى سبقت إلى الانسانية بفضل كبير لا نزال نعيش فى أكنافه ونجنى ثماره وخيراته حتى الآن . . . ولعلنا أن نزيد هذا الفضل جلاء ووضوحاً إذ نتصور أن الانسانية الحديثة قد ارتدت عن معرفتها بالزراعة والاستنبات ؛ فساقها مثل هذا الارتداد إلى مجاهل الماضى السحيق ، وقطع على جماعاتها المتكاثرة سبيل الحياة ! ولئن كان ما سبقت به أممنا وجماعاتنا القديمة إلى الانسانية قد حدا بصاحبنا العالم الذى ورد ذكره فى صدر هذا المقال إلى أن يعترف بالفضل لذويه ، فيقول إن أخطر المكتشفات فى تاريخ البشر قد تم أمره — على أيدى أناس من الشرق — منذ بضعة آلاف من السنين على أقل تقدير . . . فما أحرى هذا الفضل ، إن نحن درسناه وكشفنا عن آثاره الظاهرة والخفية ، أن يكون مصدر اعتزاز وإيحاء لنا ، نحن أبناء أولئك الزارعين القدماء ، الذين فتح الله عن طريقهم باب الخير للانسانية ، وبارك فى أعمالهم ، فاتخذ من صورة جهادهم الطيب ومن ثمرة جهدهم المبارك فى الزراعة والاستنبات مثله الكريم حين تحدث عن أقرب الناس إليه ممن ينفقون أموالهم فى سبيله فقال: « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم . »

سليمان حزين

حُلمٌ بالسعادة

فؤادى ، فؤادى ! قد ذوى عُودىَ النَّضْرُ
فحسْبُكَ ، لا تفتنك بيضٌ ولا سُمْرُ

فؤادىَ لا تفتنك بيضاءُ بضّةٌ
طهورٌ كأفروديت أطلعها البحر

مزاجٌ من الجنسين غربٌ ومشرقٌ
تجمّع فيها منهما العقلُ والسحر

فؤادى لا تُسلس عنانك للهوى
وأمسِكْ ، فقد أمسيتَ ، وانفرط العمر

فؤادىَ واذكر زوجةً لك فى الثرى
دعتك طَوال النزع ما غبّها الذكر

فؤادىَ ما قولى إذا ما لقيتُها
على العُدوة الأخرى وقد ضمّنا الحشر

أرى الدمع يغشى ناظرىّ فترعوى
فإن غاض نزّى من لواعجك الصدر (١)

(١) نزّى كنزى : وثب وغلا .

طمعتَ — فؤادي — أنْ تَبرمتُ بوَحشتي
وأغراك مني ذلك المدُّ والجزر
فجلّيتَ في عيني فتاتَك جلوةً
يخفّ لها حلمي وينخذل الصبر
وزيّنت لي فيها شمائلَ زوجتي
ليسكن تبكيتي وينفسح العذر
فؤاديَ لم يرحم هواك كهولتي
ولم يكترث للشيب هَلّ به الشَّعر
ولم يرعَ حقاً للوفاء نذرتُه
ولا حرمةً للحزن فاض به الشِّعر
فأشعَر في عُودي المصوَّح صبوةً
وعودُ الغَضَى إن جفّ ألعجه السَّعْر
أعالجها بالكبر طوراً وبالشجى
فلم يغنني شجوي ولم يغنني الكبر
وقد كاد هذا الأرمل التَّعْس مرغماً
يعاوده ألسُ الصبابة والبشر (١)
ويعمر بالزوج الأليفة بيتُه
ويَعْمُر بالطير المناغية الوكر
وبتُّ على النجوى ؛ وفي بعض ساعة
تبدّلت الأحوال وانحسم الأمر

(١) التعس وصف بالمصدر .

فلا هي ترضاني ، ولا أنا مقبلٌ
عليها كعهدي ، دون أن يُعلم السرّ
وظنّيَ أنْ قد قام بيني وبينها
خيالكِ يا زوجي ، فكان لكِ النصر
فقَرّي ، سأبقى خالياً متوحّداً
بقبرٍ من الإيحاش ما ضمّك القبر

عبد الرحمن صدقي

العتابى

نحن اليوم تلقاء شاعر من أكبر شعراء القرن الثانى وأرفعهم مكانة وأظهرهم شخصية وأبلغهم أثراً فى الحياة الأدبية ، وإن كان يختلف فى كثير عن الجمهور الأعظم منهم . فهو شاعر عربى صميم ، من أسرة عربيـة عريقة فى تمثيـل الخصائص العربية وفى قول الشعر معا . وقد نشأ وتربى وتكونت شاعريته واستقامت له طريقته فى قول الشعر وصلب عوده فيه فى بيئة عربية أدنى الى البداوة ، بعيداً عن تلك البيئات المعهودة فى البصرة والكوفة وبغداد . ثم هو كان مع هذه النشأة البدوية ، وهذا البعد عن تلك البيئات التى كانت تمد شعراء ذلك العصر بمقومات أدبهم ، وتدفع بهم قدما نحو التجديد فى شعرهم ، شاعرا أدنى إلى التجديد منه الى التقليد ، وأقرب الى مسايرة روح العصر فى اصطناع أساليب التعبير الفنى والفعلى . فهو إمام من أئمة البديع ، بالمعنى الذى كان يطلق عليه فى القرن الثانى والثالث ، وأستاذ من أساتذة الفن الشعرى : ينسج الشعراء على منواله ، ويسلكون سبيله ، ويجدون فى طريقته وأسلوب صياغته ومذهبه فى التوفيق بين الديباجة العربية والنزعة التجديدية ما يفتنهم ويقف بهم عليه ويغريهم بتتبعه وتعرف منزعه . ثم هو بعد ذلك كله لم يكن يقف عند الشعر فى التعبير عن تلك النفس الفنية التى يحملها بين جنبيه ؛ فقد دفعت به روح العصر الى ما وراء تلك الحدود التى كان معاصروه من الشعراء ما يزالون محصورين فيها ، لا يكادون يتجاوزونها ، فجعل يصطنع النثر فى التعبير الفنى كما كان يصطنع الشعر ، وكان يصطنع النثر فى صورتيه ، فكان خطيباً مذكوراً فى الخطباء الظاهرين ، كما كان كاتبا تعتبر رسائله من النماذج البليغة الممتازة ، دقة فى المعنى واحتفاظا بالروح العربية وصفاتها المميزة للأسلوب العربى كما كان يتصور فى ذلك العصر . ثم كان مع هذا كله معدودا من أئمة النقد الفنى القائم على الذوق والدرس فى تلك الفترة ،

يلتمس العلماء رأيه بين ذلك الخليط من الآراء الصادرة من هنا وهنا ، ويقدرونه ويعرفون خطره ، ويستشهدون به فى موضع الاستشهاد

وإذن فقد كان العتابى مثالا رائعاً من هذه الشخصيات التى نبغت فى القرن الثانى ، واستطاعت أن تتمثل العوامل المختلفة التى تجمعت فى ذلك العصر ؛ إذ وجدت هذه العوامل فيهم القوى التى تستطيع أن تبرز بها وتظهر فيها ، حتى تنتهى إلى غايتها المقدورة فى تكوين العقل الاسلامى والحضارة العربية . وكان أحد أولئك الرواد الذين تمتاز بهم هذه المرحلة الانتقالية البعيدة الخطر فى تاريخنا الأدبى والعقلى جميعاً ، والذين اضطلعوا بشق السبل التى تهيئ لذلك التطور أن يحقق مظاهره المختلفة . ومع هذه المنزلة المتعددة النواحى لم يكد يظفر بشئ مما ينبغى لمثله من تجلية شخصيته وتبين أثره ، إلا هذه الأثارات القليلة الضئيلة المقتضبة ، تشير إليه ثم تقف ، وتنبه تنبيها خفيفاً عابراً إلى خطورة مكانه فى تاريخنا الأدبى ثم تمضى عنه ، حتى ذهب الرجل مغموراً أو كالمغمور ، لا يكاد أحد من رجال الأدب المعاصرين يعنى به أو يقف عنده ، بالرغم مما قدمنا .

وسنحاول فى هذا الفصل أن نقدم صورة لحياته ، قدر ما تأذن لنا مصادرنا القليلة المقتضبة ، وآثاره النزرة المشتتة المضطربة ، ثم قدر ما يحتمل مثل هذا الفصل .

والعتابى شاعر جزرى الأسرة والمولد والمربى ، ولد فى الجزيرة ونشأ بها واستكمل مقومات شخصيته فيها . والجزيرة إذا أطلقت فانما يعنى بها جزيرة أقور ، كما كان يسميها جغرافيو العرب المتقدمون ، أو ميزوبوتاميا كما كان يسميها الرومان ، ويعنون بها الجزء الأعلى من وادى دجلة والفرات ، بين العراق والشام وبلاد الروم وأرمينية وأذربيجان .

وليس بنا فى هذا الفصل أن نعرض لخصائصها الاقليمية وما يتبع ذلك من العوامل المختلفة التى كونت لها شخصيتها الخاصة بها ، وطبعتها بذلك الطابع الأصيل المسيطر عليها ، وما يصدر عنها من نزعات كان لها — ولا ريب — أثرها فى تكوين آثارها الفنية وتوجيهها ؛ فذلك — على ضرورته — مما لا يحتمله هذا الفصل ، إذ كان من أشد الدراسات تعقيداً وأكثرها تشعباً وأبعدها

غاية . ثم هو من أوثق الدراسات صلة بتاريخنا الأدبى ، وأجدرها أن يفرغ بعض الباحثين له ، ويقتسموا أطرافه ؛ إذ كانت هذه المنطقة من أقدم المناطق التى هاجر إليها العرب واتخذوها موطناً لهم ، فتأثروا بها وتأثرت بهم . فما لا يكاد يحتمل الريب أنه كان لهؤلاء العرب أثر غير قليل فى بعض وجوه حياتها السياسية والاجتماعية ، كما استطاعوا منذ ذلك العهد أن يكون لهم فيها أدبهم العربى الخالص يصور ألوان حياتهم وصنوف مشاعرهم وما كان يشجر بينهم ، ثم ما كان يثور بينهم وبين أصحاب السلطان من محادة ومخاصمة لا تلبث حتى تغمر الجو مظاهرها المادية والأدبية معاً ، على النحو الذى نستطيع أن نرى أطرافاً منه فيما بين أيدينا من بعض الشعر والخبر .

وإذا كان النشاط الأدبى مظهراً لا يكاد يتخلف من أقوى مظاهر الخصومات أو النشاط الحربى فى مثل تلك البيئات ، فاننا نستطيع أن نعرف إلى أى حد بلغ هذا النشاط فى الجزيرة إذا عرفنا مبلغ ما كانت تمتاز به من حياة العرب فيها بعد الاسلام من نشاط حربى لا يفتر ، وثورة على السلطان دائمة متصلة . ولعل ذلك انما كان استمراراً لما كان يمتاز به هذا الاقليم قبل الاسلام من هذه الناحية ، ثم لهذه الصفات العربية البدوية المتأبية على النظم والقيود . وقد عاش العرب فى الجزيرة محتفظين بالطابع البدوى لهم حريصين عليه ، بالرغم من مظاهر الحضارة العريقة فيها ، حتى أمكن أن يقال مثلا عن أعشى تغلب — كما يحكى صاحب الأغانى — أنه « كان من ساكنى الشام إذا حضر ، فاذا بدا نزل فى ديار قومه بالموصل » . وكأنما وجدت قبائل العرب فى ظروف الجزيرة قبل الاسلام ما يغذى فيهم نزعاتهم البدوية ، ويذكى فيهم الرغبة فى القتال ؛ إذ كان موقعها بين الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية مما جعلها موضعاً للمنافسة بينهما ، وميداناً من أبرز ميادين النشاط العسكرى تظهر فيه الخصومة بينهما حادة دائبة عنيفة .

فكما كانت الجزيرة مركزاً من أهم مراكز النشاط الحربى قبل الاسلام فيما كان بين الفرس والروم ، كذلك كان لها هذا الطابع بعد الإسلام . ولعله لايغيب عنا أن سهول صِفِّين التى دارت الحرب فيها بين على ومعاوية إنما تقع على حاشيتها بينها وبين الشام ، وأنه قبل أن يلتقى الفريقان فى تلك المعركة بصفين كانت المعركة ناشبة بين أنصار علىّ وأنصار معاوية فى قلب

الجزيرة نفسها ، فى مرج مرينا بين الرقة وحران . كذلك كانت تعتبر من أنشط الميادين التى تجلت فيها الخصومة على أشدها وفى أعنف صورها بين القيسية واليمانية ، ثم بين المضرية والربعية ، فى أيام فتنة ابن الزبير . وما هذه المواقع التى تذكر بها وقائع الحرب بين الفريقين وتنسب إليها ، كما كسين والثرثار والحشاك والحضر والبليخ والسكير والكحيل والمبارك وقرقيسيا ، إلا أسماء أمكنة تقع فى شتى أنحاء الجزيرة حيث نشبت هذه المعارك التى كان لها مظهرها الأدبى فى شعر شعراء هذه الفترة من هؤلاء وهؤلاء ، كالأخطل والقطامى وعمرو بن الاهتم وعمير بن الحباب .

ويطول بنا القول لو أننا تتبعنا تاريخ هذا النشاط الحربى ومظاهره فى الجزيرة . ولكننا لا نملك إغفال الاشارة إلى مبلغ ما ساهمت به هذه المنطقة فى تلك الحروب والثورات التى جعل الخوارج يشنونها على الدولة ، فى عهد بنى أمية وعهد بنى العباس ، ونحن نعرف بعدُ مبلغ النشاط الأدبى الذى كانت تثيره هذه الحروب والثورات خاصة . وما هذه الثورات التى كان يقودها سعيد ابن بهدل والضحاك بن قيس وشيبان بن عبد العزيز اليشكرى والملبد بن حرملة والوليد بن طريف وخراشة الشيبانى إلا ثورات جزرية ، نشبت فى الجزيرة وقامت بأهلها . وقد ظلت متصلة لا تخمد واحدة حتى تشتعل أخرى ، ثم لا تلبث حتى يمتد أوارها إلى ما وراءها . ولا ريب أن لهذا دلالته القوية على ما قدمنا الاشارة إليه من احتفاظ العرب الذين استوطنوا الجزيرة بخصائصهم البدوية .

فى هذه البيئة البدوية ، ومن بين هؤلاء القوم ، خرج شاعرنا العتابى كلثوم بن عمرو ، من أسرة يتصل نسبها بعمرو بن كلثوم صاحب المعلقة المشهورة ، كما تتصل إقامتها فى الجزيرة إلى ما قبل ذلك العهد الذى كان يعيش فيه ذلك الشاعر الجاهلى الكبير .

ولم يصل إلينا شئ عن نشأة العتابى الأولى نستطيع أن نتمثله به ، فنعرف على أي شئ تفتحت مشاعره ، وبأى أنواع الثقافات أخذ نفسه أو أخذه ذووه أو وجهته الملابسات والظروف ؛ فذلك ما لا قبل لنا بمعرفته معرفة تبعث على الطمأنينة العلمية . لقد كان مولده ونشأته فى تلك المنطقة التى تشبه أن تكون

منعزلة ، والبعيدة عن مركز النشاط العلمي والأدبي ، مما أضاف عاملا جديداً من عوامل الغموض الذى يحيط بنشأة أمثاله . على أنه قد بقى لدينا خبر من أخبار حداثته لعلنا نستطيع أن نتشبث به ، ونرى فيه ما يدلنا على الاتجاه الغالب عليه فى بداية الشعرية . فقد قالوا إنه جاء بشاراً وهو حدث بعد ، فأنشده أبياتاً له وقعت من بشار — فيا يقولون — موقع الاعجاب ، وهى قوله :

أتصرف عن أمامة أم تقيم … وعهدك بالصبا عهد قديم
أقول لمستطار القلب عفّى … على عزماته السير العزيم
أما يكفيك أن دموع عينى … شآبيب تفيض بها الهموم
أشيم فلا أرد الطرف إلا … على أرجائه ماء سجوم

فها هى ذى شاعرية مبتدئة تتلمس طريقها ، وتحاول أن تثبت قدمها فى ذلك المذهب الذى اتجهت إليه وأرادت أن تصطنعه ، وهو مذهب «البديع» الذى استطاع بشار بشخصيته القوية أن يلفت إليه الأنظار ويبهرها به ، ويجذب ناشئة الشعراء إليه ، من أمثال صاحبنا هذا كلثوم بن عمرو . ففى هذه الأبيات التى تبدو عليها أمارات الفجاجة الفنية نستطيع أن نلاحظ أثراً من آثار هذه الفتنة بذلك المذهب الجديد فى صناعة الشعر ، كما نستطيع أن نعرف فيها صورة من الاتجاه الشعرى عند العتابى أول عهده بالشعر ومعالجته ، فى مثل ذلك الجناس المقصود فى قوله : « . . . عفى على عزماته السير العزيم » ، وفى مثل تلك الاستعارات المصنوعة صناعة ، وتلك الصور المجازية المتكلفة الذاهبة فى سبيل المبالغة ، كشآبيب الدموع التى تفيض بها الهموم ، أو الماء السجوم على أكناف الطرف المرتد .

فقد اختار العتابى إذن سبيل أصحاب البديع منذ حداثته ، مفتونا بها ، لا يعبأ أن يعنف بنفسه فى تكوين تلك الصور الشعرية ليتحقق بذلك على الوجه الذى استطاع أن يتصوره ، وهو بعد حدث لم ينضج ولم تكتمل له وسائله الفنية . وتبدو فى هذا الخبر الذى سقناه تلمذته لبشار ، وأنه كان يعتبره صاحب ذلك المذهب وممثله ، فلم يكد يعلم أن فى إمكانه لقاءه حتى يمضى إليه يعرض عليه شعره . وبشار يرى فى ذلك الشعر اتجاهه ومذهبه ، فهو يظهر رضاه عنه وثناءه عليه وإعجابه به .

أما كيف لقى العتابى بشارا ، وأين ، ومتى ، فهذا ما لا نجد النص عليه ولا الاشارة إليه فيما بين أيدينا .

ولكنا نعلم أن بشاراً رحل إلى الجزيرة ذات مرة ، قاصداً سليمان بن هشام ابن عبد الملك ، فدخل حران حيث الأمير ، وأقام بعض الوقت . وكان ذلك — ولا ريب — فى أواخر عهد الأمويين . فهل يمكن افتراض القول بأن العتابى لقى بشاراً فى هذه المناسبة : سمع بمقدمه ، وكان صيته قد سبقه ، وكان مذهبه فى الشعر موضع فتنة كما قلنا ، فمضى إليه يعرض شعره عليه ، وقد رآها فرصة نادرة أن يجلس إلى ذلك الأستاذ وينشده ويأخذ عنه ويسمع رأيه ويرضى غروره الصبيانى ؟ ذلك فرض قريب محتمل ليس ما يمنع منه .

ومهما يكن من أمر فقد كان العتابى أحد تلاميذ تلك المدرسة الجديدة التى استطاع بشار بقوته وما أتيح لشعره من أسباب الذيوع والقدرة على التغلغل فى الأوساط المختلفة ، أن يفرضها ويختط سبيلها ويأخذ ناشئة الشعراء بها .

فهذه واحدة لا بد لنا من تقريرها ونحن نحاول تبين هذه المرحلة من حياته .

وأخرى تعرض لنا ونحن فى ذلك الصدد : لقد نشأ العتابى فى تلك البيئة التى حاولنا تصويرها ، وهى بيئة بدوية طبعت على الثورة والتمرد ، وقد شهد ولا ريب كثيراً من مظاهر ذلك التمرد ، وتفززت منه عواطفه ، وتأثرت به مشاعره آثاراً مختلفة . بل لقد كان يشهد إلى جانب ذلك الذى يدور حوله كثيراً من الصور تتراءى فى نفسه وتثير مشاعره ، مما كانت أسرته ما تزال حريصة على تناقله والاعتزاز به عن جدها الأكبر ومبعث فخرها عمرو بن كلثوم . ولكن شيئاً من شعره لا يصور لنا شيئاً من هذه المظاهر ، ولا يعبر عن مثل هذه المشاعر ، بل إن شعره الذى بين أيدينا يمثل لنا الهدوء والأناة والدعة . ومرجع ذلك أن شيئاً من شعره فى تلك الفترة الأولى من حياته لم يصل إلينا ، بتأثير بعده فى هذه الفترة عن مركز النشاط العلمى والأدبى ، فلم يظفر من الرواية بما يسجله ويكفل له شيئاً من الذيوع ، وأن ما وصل إلينا من شعره هو شعر الشيخوخة أو الكهولة ، حين اعتدلت أسبابه ، واتأدت نفسه ، وغلبت طبيعته الوادعة . واذن فهناك حلقة مفقودة فى شعر العتابى تستلزمها حتما طبيعة الأشياء ، كما تقتضينا أن نذكرها ونجعلها فى بالنا حين

نذهب لتقصى العوامل التى أتيحت لشاعر كهذا الشاعر ، وحين نتلمس تصور حياته فى هذه الفترة الغامضة المبهمة منها .

وثالثة ينبغى ألا نغفلها : ما عسى أن يكون أثر هذه الثقافات المختلفة التى كانت تتمثل فى الرها وحران ونصيبين من مدن الجزيرة ؟ أحالت نشأته البدوية دون هذا التأثر بها ، أم أن شابًّا طموحاً مثله ، متقد الذهن مشبوب العاطفة لا يمكن أن يظل بمعزل عن هذه البيئات ، وهو يعلم أن فيها غذاء لطموحه العقلى والأدبى؟ لقد استطاعت هذه البيئات أن تبسط من قبل سلطانها شيئاً ما على هذه القبيلة التى ينتسب إليها العتابى ، والتى خرج منها شاعر كالأخطل وآخر كالقطامى ، فكان للمسيحية فيها مكان ملحوظ ومنزلة ظاهرة ، فهل يستقيم القول بأنه ظل فى معزل عنها ، بعيداً عن التأثر بها ؟

بل كيف تكونت ملكات هذا الرجل الفنية على ذلك النحو الذى جعل منه إماماً من أئمة المجددين فى العبارة الأدبية شعراً ونثراً ؟ وكيف استقامت له الروح العلمية التى أتاحت له منذ اتصل بالبيئات البغدادية ، وهو شيخ كبير علت سنه ، أن يغامر فى ألوان الحياة العلمية المتصلة بالنقد الأدبى ، إذا كان قد أمضى حياته الأولى فى تلك البيئة البدوية الساذجة بتقاليدها وروحها المحافظة دون أن يدع لتلك الثقافات العقلية سبيلها إليه ، توسع من آفاقه العقلية وتحرر مُثُله الفنية ؟ إن افتراض القول بأنه اتصل منذ عهد التكوين بتلك الثقافات ضرورة لا نكاد نجد عنها معدلا فى منطق البحث الأدبى ؛ وبذلك استطاع أن يكون له فى تاريخ الأدب ذلك الأثر الذى أجملنا القول فيه .

واذا صح لنا هذا الفرض عن العتابى الذى نشأ بعيداً عن البصرة و بغداد لجدير بذلك أن يحملنا على العدول عما ألفناه وجرينا عليه من حصر العوامل التجديدية فيهما ، ورد كل تطور أدبى إليهما . فانما ينبغى لتاريخ الأدب أن يمد النظر هنا وهنا ، ويتغلغل به فى تلك البيئات التى كانت بعيدة عن مركز الدولة ومستقر السلطان ، فصرف ذلك الأنظار عنها ، وتركها فى غمرة الاغفال والنسيان ، ثم اطرد الأمر على ذلك حتى أيامنا هذه ، لا نكاد نخرج عن هذه الدائرة ، أو نرى فى غيرها مجالا للنظر والبحث والتقصى .

لقد كانت الجزيرة مركزاً من مراكز الحياة الأدبية القوية النشيطة المتصلة منذ العصر الجاهلى ، كما كانت مركزاً من مراكز النشاط السياسى على

النحو الذى رأيناه . فأما فى أيام بنى أمية فقد سجل لها شعراؤها مكانا ممتازا ؛ إذ كانت صلتهم بالدولة فى دمشق صلة يقدرها السلطان ويحرص عليها ويغالى بها ، ونحن نعرف بعد المنزلة التى كان يتمتع بها الأخطل فى البلاط الأموى . فاذا كانت أيام بنى العباس فقد تغيرت الأمور وتبدلت الأوضاع ، فحدثت الجفوة بينها وبين الدولة ، حتى أصبحت فيما يشبه العزلة من هذه الناحية ؛ ومضت الحياة الأدبية فيها محدودة بحدودها ، حتى ما تكاد أصداؤها تعدوها ، ولا تكاد بغداد تشعر بها ، ولا نكاد نرى شاعراً جزريا يقصد قصدها أو يتصل بالسلطان فيها ، إلا ما كان من مثل ربيعة الرقى . وهو لم يقصد إليها ، وانما استقدمه المهدى استجابة لرغبة جواريه ، كما يقولون . وكان ربيعة هذا — فيما يقول أبو الفرج — « من المكثرين المجيدين ، وانما أخمل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء » . وهكذا كان — فيما يبدو — شأن الحياة الأدبية عامة فى الجزيرة : أخملها وغض من شأنها « البعد عن العراق وترك خدمة الخلفاء » .

وهكذا كان أيضاً الشأن فى هذه الفترة الأولى من حياة شاعرنا العتابى ونشاطه الأدبى فيها ؛ فقد مضى — بالنسبة للرواة ودارسى الأدب — مغموراً ، يغشاه الابهام المطلق ، وتحتوشه الظلمات ، فما يبدو منه إلا تلك الومضة الخاطفة التى تشير إلى صلته ببشار ومحاولته اصطناع مذهبه فى صناعة الشعر . ثم تظل هذه الظلمات تحيط به ، وتضرب من دونه نطاقاً غفلا ، حتى عهد الرشيد ، حين يتجه هذا الخليفة بعنايته إلى هذه المنطقة ، ويتخذ من الرقة داراً له ، يكثر من النزول فيها والالمام بها ، وحينئذ تنجاب هذه الظلمات بغض الشئ عن العتابى ، فنراه ماثلا أمامنا ، متصلا برجال الدولة ، وبالبيئات البغدادية المختلفة .

١

كان بدء ذلك فى أثناء ولاية عبد الملك بن صالح العباسى على الجزيرة ، وفى أعقاب فتنة من هذه الفتن التى كانت ما تلبث حتى تشتعل هنالك ، إما ثورة على الدولة القائمة تصدر عن نزعات دينية أو جنسية ، وإما ثورة داخلية بين هذه القبيلة وتلك إستجابة لروح العصبية القبلية . وقد أخذت الدولة فى قمع هذه الثورة التى كان قوامها رجال ربيعة ، قبيلة العتابى وعشيرته ، فنكلت

بها وجردت السيف فيها وأنهكتها عقوبة واستقصاء فيها . والعتابى الشيخ يحس الوجيعة لما يشهد من مصارع قومه ، فلا يجد إلا أن يتقدم إلى الأمير بقصيدة يعتذر فيها لهم ، ويستوهبه العفو عنهم ، وهى قصيدة ما تزال قطع منها بين أيدينا تصور العاطفة المتزنة ، كما تصور صناعة العتابى الشعرية فى هذه المرحلة من حياته ، من الديباجة المصقولة والسرد المحكم والصور الفنية المجودة . وقد بلغ العتابى بهذه القصيدة الغاية التى كان يرجوها ، فلم يلبث الأمير أن أمر قائده أبا عصمة أن يكف سيفه .

« فلما قدم الأمير الرافقة أنشده عبد الملك القصيدة ، فقال : لمن هذه ؟ فقال : لرجل من بنى عتاب يقال له : كلثوم بن عمرو . فقال : وما يمنعه أن يكون ببابنا ؟ فأمر باشخاصه من رأس عين . فوافى الرشيد ، وعليه قميص غليظ وفروة وخف ، وعلى كتفيه ملحفة جافية ، بغير سراويل » كما يقول أبو الفرج فى سياق الكلام عن هذه القصيدة .

وهكذا خرج العتابى من بيئته ، فلم يكد يتصل بالسلطان حتى أخذ سبيله إلى بغداد ، فترك البادية إلى الحاضرة ، وترك حياة القبيلة إلى ذلك المجتمع الزخار بأنواع الناس وأصناف اللباس ، كما يقال . فماذا كان من شأنه فى هذه البيئة الجديدة ؟ لم يكن العتابى رجلا بدويا خالص البداوة من جميع جوانبه وانما كان مزاجاً من هذه وتلك : كان بدويا فى مظهره وأسلوب حياته وبساطة مشاعره ، ثم كان بعد ذلك يمثل الرجل الحضرى المترف بعقله وأسلوب تفكيره ومنهجه فى الصناعة الفنية ؛ و بذلك استطاع أن يتصل بالبيئات الرفيعة المختلفة فى بغداد ، لا باعتباره شاعراً بارز الشخصية من شعراء الطبقة الأولى فحسب ، وهو الاعتبار الذى وصل بينه وبين السلطان ، بل باعتباره — إلى جانب ذلك — عالماً من علماء الشعر وأصحاب الرأى فيه ، وباعتباره كاتباً جيد الكتابة استطاع أن يبهر الناس بأسلوبه فيها ، وباعتباره خطيباً يعرف كيف يدير القول ويصيب المفصل ويفتن الألباب ويبلغ غاية الاقناع بقوة بيانه وجودة عبارته ووضوح حجته . فقد اجتمع له إذن من وسائل التبريز فى تلك البيئات ما لم يجتمع لسواه ، ونزل من أصحابها منزلة كبيرة ، حتى لقد كان يحيى بن خالد البرمكى يقول لولده : « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو فضلا عن رسائله وشعره . . . فلن تروا أبداً مثله » . وهكذا لم يكد العتابى يتصل

ببغداد حتى هيأت له مواهبه أن يحتل فى المجتمع البغدادى المثقف هذه المنزلة الرفيعة ، وأن يتبوأ فى أندية بغداد الأدبية التى كانت تتمثل فى بيوت السراة وأصحاب السلطان ذلك المكان الظاهر . وقد أحاطه البرامكة برعايتهم وأولوه حمايتهم ، وأشعروه روح الطمأنينة فى ذلك المجتمع الجديد .

ومن ذلك يبدو أن العتابى أصاب فى هذه البيئة الجديدة نجاحاً جديداً لعله فوق ما كان يقدر . ولكن هذا النجاح إنما أصابه العتابى الشاعر الكاتب العالم الخطيب ، فأما العتابى الرجل ، الذى كانت الروح البدوية فى أعماقه ، مسيطرة عليه وموجهة مشاعره ، فكان شيئاً مختلفاً ؛ فما أصابه ذلك نجاحاً وظهوراً أصابه هذا إخفاقاً وتخلفاً . ذلك أن الحياة الاجتماعية فى بغداد كانت معقدة أشد التعقيد ، محكومة بطائفة من الاعتبارات أدنى إلى السخف ، وكانت صلات الناس بعضهم ببعض لا تقوم على المودة الخالصة والمعانى النفسية قدر ما تقوم على التملق والمخادعة والمصانعة والتماس المنفعة العاجلة . وكانت أسباب الرجل فى هذه الحياة مشتقة من طبيعة هذه الحياة القائمة على التكلف والتصنع ، لا من صفاته النفسية أو مواهبه العقلية أو الفنية حين يكون المجال الذى يقوم فيه ويؤدى عمله مجالا فنيا أو عقليا . فأنّى لهذه المشاعر البسيطة والخلائق الصريحة المستقيمة أن تعرف سبيلها فى تلك المسالك الملتوية ؟ ولو أن العتابى جاء بغداد قبل أن يشيخ ويصلب عوده على الوضع الذى نشأته عليه البادية فلعله كان يملك لنفسه شيئاً من الملاءمة بينها وبين تلك البيئة الاجتماعية المعقدة ، ولكن ذلك شئ لا يمكن استرجاعه . فلابد إذن مما صارت أموره إليه .

وهكذا كان صاحبنا يحس أنه يحيا فى بغداد حياة مقسمة ، فهو ناجح مخفق ، وهو متقدم متخلف ، وهو موضع التقدير وموضع الغبن والتأخير . ولعل هذه المفارقات كانت من أول ما جعل يؤزّه و يملأ حياته عناءً وجهداً ، وقد جعلته يقارن بينه و بين غيره فيرى الدنيا مقبلة على هذا وذاك مدبرة عنه دون أن يكون لهذا الاقبال والادبار — فيما يحسب — سبب يرجع إلى طبيعة الأشياء .

قالوا إنه مر بأبى نواس ذات مرة ، وقد اجتمع إليه طائفة من الناس ، وهو ينشدهم قصيدته فى مدح الخصيب بن عبد الحميد :

ذكر الكرخ نازح الأوطان فبكى صبوة ولات أوان

فلما رآه أبو نواس قام إليـه وسأله الجلوس ، فأبى وقال : أين أنا منك وأنت القائل ، وقد أنصفك الزمان :

قد علقنا من الخصيب حبالاً أمنتنا طوارق الحدثان

وأنا القائل وقد جار عليّ وأساء إليّ :

لفظتني البلاد وانطوت الأكفاء دوني وملني جيراني
والتقت حلقة عليّ من الدهر فما جت بكلكل وجران
نازعتني أحداثها نهمة النفس وهدّت خطوبها أركاني
خاشع للخطوب مفترق القلب كئيب لنائبات الزمان

لقد أبعلته المفارقة وملأت جوانب صدره ضيقاً وبرماً حين نظر إلى أبي نواس فرأى البون الواسع بينه وبينه ، ثم رآه مقبلا عليه متحفيا به ، فكأنما رأى شيئاً منكرا لا تسيغه مشاعره البسيطة الساذجة .

ولم يكن نظر العتابي إلى من حوله ممن أقبلت الدنيا عليهم ، ثم مقارنة حاله بحالهم ، عن حقد منه أو ضغينة يضطغنها عليهم ، فلم يكن بالرجل شيء من هذا . فانما يحقد الرجل الصغير عند نفسه ، يستشعر الضعة في أعماقه ، فأما العتابي فكان معتزا بنفسه ، مقدراً لكرامته مكبراً لها ، يراها أول ما ينبغي للرجل أن يحرص عليه ويغالى به . ومن ذلك هذه القطعة المأثورة عنه وقد جعلها كالوصية لأصحاب الحاجات : « إن طلبت حاجة إلى ذي سلطان فأجمل في الطلب اليه ، وإياك والالحاح عليه . فان إلحاحك يكلم عرضك ، ويريق ماء وجهك ، فلا تأخذ منه عوضاً لما يأخذ منك . ولعل الالحاح يجمع عليك إخلاق الوجه وحرمان النجاح . فانه ربما مل المطلوب إليه حتى يستخف بالطالب » . وليس هذا كلام رجل يجد الحقد سبيلا إلى نفسه ؛ فالحرص على ماء الوجه وكرامة النفس لا يتفق مع الصغار الذي هو قرين الحقد وباعثه .

لقد نشأ العتابي في تلك البادية التي رأينا مبلغ إبائها واعتزازها وما تفيضه على أبنائها من مغالاة بالكرامة وتقدير للشخصية واعتداد بالذات ، وفي أسرة ما تزال تتمجد بذلك التاريخ الذي كتبه لها عمرو بن كلثوم ، تتوارثه

وتتدارسه وتتغذى به فى بنيها ذلك الشعور بالكرامة والاعتدادبالنفس والاكبار للذات . وقد بقى فى هذه البيئة حتى أسن واكتهل ، حفيظاً على تقاليدها ، حريصاً على مظاهرها ، يكره أشد الكره أن يغفلها أو يتبدل بها ، كما تدلنا على ذلك أخباره دلالة صريحة . وقد مضى إلى بغداد بهذه الطبيعة وفى تلك السن العالية ؛ فكانت هذه المفارقات الصارخة التى رأيناها ، والتى عبر عنها بهذه العبارة الهادئة ، حين سأله أحد أصحابه ذات مرة : « ما بالك لا تقصد السلطان كما يفعل فلان وفلان؟» فقال : «لأنى أراه يعطى واحداً لغير حسنة ولا يد ، ويقتل الآخر لغير سيئة ولا ذنب » . وقد جعلت هذه المفارقات تؤلمه ، ولكنها لم تستطع أن تجعله يصوغ نفسه على غرار ما يتطلب ذلك المجتمع .

وإذا كنا نسمعه مرة يقول :

أسجد لقرد السوء فى زمانه
وإن تلقاك بخنزوانه
لا سيما مادام فى سلطانه

فإنما تلك فى حقيقة الأمر سخرية مرة بالسلطان ، وتهزؤ بذلك النظام الاجتماعى الذى يلبس الأشياء غير لبوسها ، ويضعها فى غير مواضعها .

وهكذا كانت حياة العتابى فى بغداد حياة مقسمة ، وهكذا كانت مشاعره فيها : إحساساً بالألم والوجيعة ، كما نرى فى تلك الأبيات التى أنشدها أبا نواس ، ثم سخرية من تلك الأوضاع المنكرة التى ألفها الناس واستكانوا لها فلم يعودوا يرون فيها شيئاً من النكر الذى عبر عنه فى تلك القطعة الصغيرة الساخرة ، حين قدم إلينا صورة القرد وقد انتفخ سَحْره وشمخ بأنفه واصطنع التيه والجبرية ، والناس أمامه قد خروا سجوداً له . . . ثم إحساساً باليأس وارتياحاً إليه على النحو الذى نراه فى قوله :

ألا قد نكس الدهـــر فأضحى حلوه مرا
وقد جربت من فيه فلم أحمدهم طرا
فالزم نفسك اليأ س من الناس تعش حرا

ولكن الأمر لم يقف عند ذلك الحد ، ولم يستطع العتابى بالرغم من موقفه

أن يعتصم من سوءات ذلك المجتمع وشروره . فهذه الصلة الضئيلة التى اتصلها بالسلطان لم تلبث أن أثارت حوله الضغائن ، ونصبت له الدسائس . فمرة هو متهم بأنه أقحم اسم الخليفة فى بعض ما كان يمازح به إخوانه ويعبث به وإياهم ، وهو مأخوذ مرة أخرى بأنه كان « يقول بالاعتزال — كما يحكى ذلك الجهشيارى — فاتصل ذلك بالرشيد ، وكثر عليه فى أمره فأمر به بأمر عظيم » . ولا ندرى كنه ذلك « الأمر العظيم » الذى جعله الرشيد عقوبة له ، ولكنه قد حمله على كل حال على أن يهرب إلى اليمن ، ثم ظل مقيما بها حتى استنقذه يحيى بن خالد البرمكى مما كان يساوره من المخاوف فيها ، فما زال بالرشيد حتى استصدر له العفو عنه .

ولعل هذه المكرمة كانت من أكبر ما وثق بالبرامكة أسبابه ، ولو أن النكبة لم تلبث أن وقعت بهم ، فبكاهم ، ثم لم ير بعد ذلك ما يمكن أن يغريه بالبقاء فى بغداد ، فولاها ظهره ، وانطلق عائداً إلى الجزيرة . وقد جعلت مشاهد بغداد تتردد فى خياله ، وجعل يستعرض حياته فيها ، فيرى أنه لم يفد شيئاً منها ، وأنه راجع إلى موطنه أخيراً كما تركه فقيراً صفر اليد مما كان يؤمله ويمنى النفس به من المال الذى كان يريد أن يبنى به ما هدم الاقتار من مأثرته ومن خطر أسرته . ولكنه ما يلبث أن يتعزى عما فاته من ذلك بمصرع البرامكة وقد بلغوا ما بلغوا ، فيمضى وهو يردد هذه الأبيات :

تلوم على ترك الغنى باهلية ... طوى الدهر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن فى الكسى ... مقلدة أعناقها بالقلائد
أسرك أنى نلت ما نال جعفر ... من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصنى ... مغصهما بالمرهفات البوارد
ذرينى تجئنى ميتتى مطمئنة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد
فان رفيعات الأمور مشوبة ... بمستودعات فى بطون الأساود

لم يكن هذا آخر عهد العتابى ببغداد ، فما تكاد تنتهى فتنة الأمين والمأمون وتستقر الأمور فيها ، ويرجع المأمون إليها ، ويفد الناس عليه من هنا وهنا ، حتى نرى العتابى ببابه ونشهده وقد تشبث بيحيى بن أكثم القاضى ، يريد

أن يذكره لديه ويستأذن له عليه ، وابن أكثم يذكر له أنه ليس حاجبًا . ولكن العتابى ما يزال به يلاحيه ، حتى ما نلبث أن نراه فى مجلس الخليفة ، وفى المجلس إسحاق بن ابرهيم الموصلى . وقد أحسن المأمون لقاءه وأكرم وفادته . ثم نراه بعد ذلك وقد انصرف مع الموصلى إلى منزله نازلا عليه .

وهنالك فى دار الموصلى جعل له مجلساً يختلف إليه أهل الأدب والتأدبون ، يسمعون منه ويكتبون عنه ويذاكرونه فى مسائل مختلفة من مسائل الأدب والشعر . ولعل هذه المجالس والأمالى التى كانت تلقى فيها هى الأصل فى هذه الكتب التى يذكرها له ياقوت ، وهى : كتاب المنطق ، وكتاب الآداب ، وكتاب فنون الحكم ، وكتاب الخيل ، وكتاب الألفاظ ، وكتاب الأجواد ، ثم كتاب آخر لم يذكره ياقوت وإنما نجد الاشارة إليه فى الفصل الذى عقده صاحب الأغانى للكلام عن ابن سريج ، وقد أورد فيه قطعة منسوبة له فى صفة المصيب المحسن من المغنين ، وقدمها بأنه نقلها عن كتاب العتابى . وإذا كان أبو الفرج لم يسمّ هذا الكتاب فلعلنا بهذه القطعة التى نقلها عنه نملك القول بأن موضوعه كان الغناء وصفات المغنين ، ولعله كان مجموعة روايات فى هذا الموضوع أتيح له أن يسمعها فى خلال إقامته الأولى ببغداد ، حتى إذا كانت إقامته فى دار إسحاق بن ابرهيم الموصلى — وهو من نعرف فى الغناء — وجد فى ذلك ما حفزه إلى وضع هذا الكتاب وإملائه .

وكانت دار إسحاق بن ابرهيم الموصلى تعد من أكبر الأندية الأدبية فى بغداد ، وأكثرها تمثيلا لوجوه المتع الفنية والعقلية ؛ إذ كان الرجل من أكثر أهل عصره تحصيلا لثقافات العصر وتحققاً بها وتذوقاً لها : كان عالماً شاعراً أديباً ، وكان يعد رأس المغنين وإمامهم ومعلمهم ، وكان إلى جانب ذلك رجلا سريا بكل معانى السراوة فى المال والخلق ، نبيلا رحب الجانب أريحى النفس مهذب الطبع ، فكان أهل ناديه يجدون عنده حاجات نفوسهم ومطالب عقولهم ولذاذات أذواقهم . فلا جرم أحس العتابى عنده كثيراً من الروح كما أتيح له أن يعقد صلته عنده بكثير من سراة البغداديين فى هذه الفترة كأحمد بن هشام وأخيه على بن هشام وعبد الله بن طاهر .

ولكن العتابى لا يلبث — وقد تقدمت به السن — أن يحس الحنين الشديد إلى موطنه ، فيعود إلى الجزيرة يقضى فيها أيامه الأخيرة . وكان

ذلك — فيما نقدر — فى عهد ولاية عبد الله بن طاهر عليها ، فيما بين سنتى ٢٠٦ و ٢١١ . وكان عبد الله هذا يأخذ بتقاليد السراة فى عصره ، فيصطنع ألوان الترف العقلى والفنى والمادى . وكذلك وجد العتابى فى كنفه وحياطته وسماحة نفسه وحسن تقديره ما كفل له حياة راضية ، وجعله يستشعر الطمأنينة فى هذه السن العالية .

ولسنا نعرف متى قضى العتابى نحبه ، ولكنا نعلم أنه كان لا يزال ممتعاً بالحياة فى سنة ٢١١ ، وهى السنة التى وجه فيها عبد الله بن طاهر إلى مصر . فقد حكى صديقه محمد بن النضر أنه مر به ، وهو فى طريقه إلى عبد الله بن طاهر حين كان يريد مصر ، فجلس إليه وجعل يجاذبه أخبار الحياة الأدبية فى العراق و بغداد . ولكنا لا نعلم عنه شيئاً بعد ذلك ، وأكبر الظن أنه لم يعش بعد ذلك طويلا .

طه الحاجرى

تقدير الجمال

أسئلة تخطر على البال ، وليس من اليسير الجواب عنها ، مع أنها تدور في أذهاننا كلما شاهدنا الأشياء الجميلة والآثار الفنية البديعة . ماذا نعني بالجمال ؟ وهل يوجد ميزان أو موازين نرجع إليها في تقدير الأشياء الجميلة ؟ وما الدور الذي يلعبه العقل أو الذوق في تقدير الجمال ؟ وهل الجمال تعبير عن مكنونات النفوس ، أو صفة من صفات الأذهان والعقول ، أو أثر من آثار الخلق والابداع ؟

ولندع هذه الأسئلة التي تضرب في الفلسفة إلى الصميم ، لنقف موقفا بسيطا يقفه كل إنسان عند ما يعجب بقصيدة من الشعر ، أو يطرب لنغمة موسيقية ، أو يتذوق أثراً من هذه الآثار الفنية في الرسم والتصوير والنحت وما إلى ذلك . إنه يقول هذا جميل ، فما هو سر الجمال ، وما موضع الاعجاب ؟

إن قلت الجمال لذة الحواس كالبصر والسمع ، فليس الأمر كذلك ؛ لأن الجمال متعة تضاف إلى الحواس ، لا لذة تستمد منها . فانت تجد لذة في تناول الطعام ، ومتعة في النظر إلى المائدة الجميلة وقد نضدت بالزهور . والفرق بين هذا وذاك هو الفرق بين الحيوانية والانسانية . وفي ذلك يقول أبو نصر الفارابي في الفصوص : « العمل الحيواني جذب النافع ويقتضيه الشهوة ، ودفع الضار ويستدعيه الخوف ويتولاه الغضب . والعمل الانساني اختيار الجميل . »

ولقد ذهب المحدثون من الفلاسفة ابتداء من كنت وهيجل إلى لالو وكروتشي وجيو مذاهب شتى في تفسير الجمال ، وتعليل الاعجاب به ، وبسط الموازين لتقديره ، غير أن ديلاكروا لا يرضى عن أي مذهب من هذه المذاهب ، ويعد كل واحد منها ناقصا من وجه ، صحيحا من وجه آخر .

ثم يختم كلامه بأن الفن ليس « إحساساً ، أو صورة ، أو ائتلافا فى الأرواح ، أو حقيقة ، أو البصر بالمُثُل ، ولكنه كل ذلك ، حيث كان فيضا لقوة مبدعة مؤلفة » .

ويبدو أن مذهب أفلاطون قد أُهمل فى زوايا النسيان ، أو أدرج فى ذيل المذاهب ، مع أنه الفيلسوف على التحقيق ، وعنه أخذت الفلسفة الألمانية المثالية ، والعلم الحديث يأخذ بتفسيره الرياضى للكون ، بعد أن ظلت الحضارة الانسانية ترسف فى أغلال مادة أرسطو وصورته حول عشرين قرنا من الزمان فلم تتقدم .

ولعلنا إذا رجعنا إلى مذهب أفلاطون فى الجمال ، ثم أضفنا إليه شيئا من التعديل ، أن نكون أدنى إلى التفسير الصحيح .

يصف أفلاطون فى محاورة المأدبة رحلة النفس الانسانية فى طلب الجمال . وهنا نجد الالٰهة ديوتيما تدل سقراط على السبل التى ينبغى على الذين ينشدون معرفة « مثال الجمال » اتباعها . فالسبيل الأول أن يقدر المرء جمال شئ واحد جميل ، ثم يتدرج إلى مرحلة ثانية يقدر فيها جمال عدة أشياء ويلحظ ما بينها من مشاركة . والمرحلة الثالثة تقدير الجمال المعنوى ، الذى يخلو من علائق المادة ، كالجمال فى الأنظمة والنواميس .

وهذا كله لا يكفى فى بلوغ المثال ، أو على حد تعبير أفلاطون فى « البصر بالمثال » إذ لا بد من دراسة عميقة لفرع من فروع المعرفة اليقينية ، هى الرياضة بأقسامها : الحساب والهندسة والفلك . ولن يبلغ الفنان المثال بالذات إلا إذا امتلك ناصية العلم الرياضى . ومن المأثور عن أفلاطون أنه كتب على باب مدرسته « من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا » . ويرى الفارابى فى كتاب تحصيل السعادة ، أن أول أجناس الموجودات التى ينظر فيها الانسان علم الحساب والهندسة وما يلحق الأعداد والأعظام والأشكال من « خاصة التقدير ، وجودة الترتيب ، وإتقان التأليف ، وحسن النظام » .

كيف ينتقل الانسان من مشاهدة الأشياء الجميلة ، ودراسة الحساب والهندسة إلى البصر بالمثال ؟ هنا نجد أفلاطون يلبس مسوح المتصوفة

فيحدثنا بأن اشتغال النفس بالدرس والطلب يؤدى إلى مكافأتها باشراق نور المثال كما يندلع اللهب من النار . فالتحصيل شرط ، والبصر بالمثال إلهام .

وإذا رجعنا إلى نظريات المحدثين من علماء النفس وما حققوه فى كلامهم عن الابداع فى الفنون وجدنا بينهم وبين مذهب أفلاطون شبها كبيراً . وجملة ما يذكرونه أن الأثر الفنى ، إبداعاً كان أو تقديراً ، تجسيدا أو تفكيراً ، يمر فى أربع مراحل : الاعداد والحضانة ، والاشراق ، والتنفيذ أو التحقيق . والاعداد يشبه مرحلة الدرس والتحصيل عند أفلاطون . ويعزو علماء النفس إلى فترة الحضانة أهمية خاصة ؛ إذ أن الفكرة تنحدر من الشعور إلى اللاشعور ، وتظل كامنة ، ولكن العقل يصرفها ويقلبها دون وعى من صاحبها . ولهذا كانت أعظم أعمال العباقرة ما جاءت بعد فترة من الكسل ، أو الراحة بعد الكد والتعب . ثم تبرز الفكرة الجديدة ، أو صورة العمل الفنى ، أو هذا المثال الذى يحكى عنه أفلاطون ، وكأنه — كما يقول الفريد دى موسيه — « مجهول يهمس فى آذاننا » . وهكذا يحصل إلهام الفنان ، ووحى الشاعر ، واختراع العالم .

ويشبهون هذا الالهام أو الوحى بطفرة ينتقل فيها العقل بعد الاعداد والدرس الى الكشف ، وهى طفرة تستند إلى العلم السابق ، ولكنه لا يقتضيها بالضرورة . ولهذا يلجأ العلماء إلى التحقيق حتى يتثبتوا من هذا الكشف .

والخلاصة عند أفلاطون أن الجمال ، ابتكاراً كان أو تقديرا ، فهو نوع من الكشف عن مثال الجمال ، نصل إليه بالمعرفة ، ونهتدى إليه بطول الخبرة والممارسة . وبعد فان تقدير الجمال لا يرجع إلى الذوق والوجدان ، بل إلى « المعرفة » . فالجمال على ذلك موضوعى لا شخصى .

أى إن الميزان فى تقدير الأشياء الجميلة ميزان خارجى مستمد من طبيعة الأشياء نفسها ، فلا يقوم على هوى الشخص أو مزاجه .

فاذا كنتَ تريد أن تحكم بين أبى تمام والبحترى ، أو بين شوقى وحافظ ، أيهما أعلى شعراً وأصدق فنا ، فلا بد أن تكون على علم وثيق بالشعر وموازينه ، ثم لا يكفى أن تحفظ علم العروض ، بل ينبغى أن تمارس النظم حتى يصير

الشعر عندك ملكة أو عادة ، وعندئذ فقط تهتدى إلى « مثال الجمال » فى الشعر ، حتى إذا نظرت فى قصائد الشعراء ، ووجدت أنها تطابق هذا المثال الموجود فى ذهنك ، كانت جميلة ، وإذا وجدتها تبعد عن هذا المثال كانت قبيحة .

وفحوى هذا المذهب أنك لا تصلح حكما بين الشعراء إلا إذا كنت شاعراً، ولا ناقداً لصورة زيتية إلا إذا كنت رساماً ، ولا بصيراً بالألحان إلا إذا كنت موسيقيا . ولهذا السبب يختصم الناس إلى النقاد والفنانين والخبراء . ومع ذلك فقلما تجد اتفاقاً بين النقاد على جمال شيء يحكمون فيه ، لا لأن المثال يعوزهم ، بل لأنهم قد يرجعون إلى الذوق والعاطفة.

أمّا الجانب الآخر فى مذاهب الجمال ، فهو الذى يعتمد فى التقدير على الشخص . وعلى رأس المتطرفين فى المذهب الشخصى تولستوى ، وله كتاب مشهور عنوانه « ما هو الفن ؟ » انتهى فيه إلى أن قيمة الأثر الفنى ، شعراً كان أو تصويراً أو لحنا أو تمثالا ، إنما يعتمد اعتماداً تاماً على تأثيره فى أشخاص الناظرين إليه . الفن فى رأى تولستوى هو نقل الانفعالات والعواطف . فالقصاص الذى يروى قصة ، والموسيقى الذى يؤلف لحنا ، والرسام الذى يخرج صورة ، إنما يرمون جميعا إلى تسجيل انفعالاتهم التى أحسوا بها ، ونقلها عن طريق هذه الآثار الفنية إلى الناس ؛ وهذا هو الفن : تأثر ، ثم تعبير ، ثم تأثير . وميزة الفنان أنه أقدر من غيره على التعبير . سئل أحدهم لماذا كان المتنبي أعظم الشعراء ؟ فأجاب : « لأنه يحكى عن خواطر الناس . »

وينبغى أن يرمى الأثر الفنى إلى الجمال فقط ، فاذا جمع بين الجمال واللذة لم يكن فنا ساميا . فاذا أخذنا بمذهب تولستوى وأردنا أن ننصب الميزان للحكم على لحن أو قصيدة أو صورة ، فعلينا أن نعرضها على الناس ، ثم نعد كم شخصاً أعجبوا ، واهتزوا ، وتأثروا . ذلك لأن الجمال ليس موضوعيا أومستمدا من طبيعة الآثار الفنية ، بل الجمال صفة للتأثير الحادث فى نفوس الذين يشاهدون الآثار الفنية . فالجمال تجربة شخصية ، ووظيفة الفنان أن يبرز الاحساس بالجمال فى أعين الناظرين .

وهذه مثالية حادة تشبه ما يقوله أنصارها من أن الحرارة ليست صفة فى النار ، بل هى التأثير الحادث من النار فى الحواس .

ولعمرى إن هذا المذهب يجعل من الفن شيوعية ، ويرد أحكام الجمال إلى العامة والجمهور ، فينزل بقدره ، ويهبط بمستواه ، ثم يرد التقدير إلى الكم والعدد ، لا إلى الكيف والقيم .

والمذاهب الشخصية هى التى تسود حضارة اليوم . ففى الفلسفة تجد الوجودية ، وفى الأخلاق النفعية ، وفى الفن الاحساس الشخصى . وقد عدل بعضهم عن هذه الذاتية الصارخة ، وجمع بين وجدان المشاهد وموضوع الأثر الفنى . ويقولون فى ذلك إن ما نسميه الجمال هو راحة الانفعال . فنحن عند ما نحكم على شئ بأنه جميل ، إنما نعنى أن بعض النوازع النفسية قد برزت عند مشاهدة هذا الشيء إلى حالة من التوازن أو الانسجام الوجدانى . فاذا حدث هذا الانسجام ارتاحت النفس ، وسلّمت بوجود الجمال فيما تشاهده . وحاصل هذا المذهب أنك تخلع نفسك وإحساسك على العالم الخارجى .

ويقوم هذا المذهب فى الواقع على أساس من علم النفس . فالانسان مركب من دوافع بعضها فطرى وبعضها مكتسب . وهذه الدوافع تكون عادة متنافرة وفى صراع دائم ، ومن الخير تنظيمها وتأليفها ، بحيث يتسنى لكل دافع نفسانى أن ينطلق فى حرية بدون أن يتنازع مع غيره من الدوافع . فاذا حدث التنظيم التام للدوافع أحسسنا بالجمال فى الأشياء .

على أن المذاهب الشخصية لا تستطيع أن تثبت طويلا أمام النقد . ففى الأشياء عناصر موضوعية لا غنى عنها ، ولا يمكن إغفالها بحال من الأحوال .

هل تستطيع أن تقرض شعراً غير موزون ؟ إن البيت المكسور ليفسد القصيدة ، واللحن يسئ إلى الكاتب ، والجهل بتشريح الجسم يجعل المثال عاجزاً .

ويبدو أن الذين يأخذون بالمذاهب الشخصية يخلطون فى تقدير الجمال بين الوجود والمعرفة . إنهم ينكرون وجود الشئ الجميل وتأثيره فى النفس ، ولا يعترفون إلا بانفعالاتهم وعواطفهم ، وتوافق هذه الانفعالات وانسجامها . فان قالوا : نحن لا ننكر وجود الأشياء الجميلة ، قلنا إذن لها فى ذاتها خصائص

تجعلها جميلة . والخلاف بيننا وبينهم فى « معرفة » هذه الخصائص . فالخروج على قواعد الموسيقى يجعل اللحن متنافراً تمجه الاسماع .

الجمال إذن تناسب وتوافق فى الأشياء ذاتها . ونحن لانحس الجمال إلا عند ما ندرك هذا التناسب ، ونميزه ، ويكون حاضراً فى الذهن كالمقياس أو الميزان . وهذا هو المذهب الذى أوثره .

فى كل شئ جميل مادة وصورة كما يذهب أرسطو . مادة الشعر المعانى والألفاظ ، وصورته الأوزان . ومادة التصوير الألوان ، وصورته التأليف فى السجام . ومادة الموسيقى الأصوات والأنغام ، وصورتها الزمان . هذا الجانب الصورى لا غنى عن معرفته والخضوع له ، وهو الذى نسميه مثال أفلاطون. فالترتيب ، والتتابع ، والانتظام ، وحسن التأليف ، وضبط الايقاع ، ولطف التداخل بين الأجزاء ، ووحدة الشئ فى وضوح وانسجام ، هذا كله مصدر الجمال .

والمرجع فيما ذكرنا إلى الاحساس بالزمن وإدراك قيمته . ولا يعنينا أن ندخل فى قضية الزمان أنفسانى هو أم طبيعى ، وإنما الذى يعنينا أن نقرره هو أن إدراك الزمن المنقسم ، والايقاع المنتظم،والتوقيت المؤتلف ، هو السرفى الجمال . فى حفيف أوراق الشجر اهتزازات لا تختلط فى تنافر ، بل تتناسب فى انسجام . فأنت تجد الجمال فى أمواج البحر التى تغمر الشاطىء ثم ترتد عنه ، ثم تعود إليه ، وهكذا . وتجد الجمال فى مشية المرأة لأنها تخطر وكأنها ترقص. والرقص مشية تجرى مع الزمن المنتظم .

وكلما أردنا أن نعبر عن إعجابنا بشئ جميل قلنا : لقد جعلنا نهتز طرباً ، أو نرقص طرباً .

فلاعجب إذن أن يكون مرجع تقدير الجمال إلى الاحساس بالزمان ، وإدراك ما ينطوى عليه من تناسب وانسجام .

فاذا سلمت معى بهذه المقدمات ، كان من العسير بعد ذلك أن تؤمن مع الفلاسفة القائلين بأن « الفن حرية » ؛ إذ كيف يصح أن تجرى الفنون الجميلة طبقاً لأوضاع ونظم ، أكثر الناس إلتزاماً لها هم الفنانون أنفسهم حين

يبدعون الأشياء الجميلة ، أو النقاد الذين يحكمون على هذه الآثار ، ثم يقال بعد ذلك إن الفن حرية ؟ إن كنتَ تقصد أنها حرية كحرية العصفور السجين فى القفص يتنقل فيه من جانب إلى آخر ، فلك أن تسمى هذه الحركة حرية .

ولك أن تقول إن من يسعى إلى إدراك الجمال ، إنما يسير حرًّا حتى يعثر على هذا النظام البديع ، فيدركه ، سواء أكان من إبداع الطبيعة أم من خُلق الانسان ، ثم يجد لذته فى الاستمتاع بهذا النظام وما فيه من جمال .

وهنا نجد الفلاسفة يقولون إن عين الجمال أصدق نافذة نطل منها على سر الكون ومكنونات الطبيعة . ومن أقوال هيجل : « إن آثار الفنون ليست مظاهر بسيطة ، وإنها لتنطوى على الحقيقة أكثر مما تنطوى عليه مظاهر الموجودات فى هذا الكون . ذلك أن العقل يجد مشقة فى النفاذ إلى باطن الطبيعة ولا يشق عليه النفاذ إلى صميم آثار الفنون . »

والسر فى ذلك أن صاحب الذوق الجميل يبصر صور الأشياء ، وعلاقتها بعضها ببعض ، ويميز حقيقتها الباطنة ، ثم يعريها عن علائق المادة التى تشوبها ، ويعبر بعد ذلك عن هذه الصورة المجردة التى أبصرها فى الأشياء الطبيعية والمجتمع الانسانى : فى تمثال ، أو صورة زيتية ، أو قصيدة من الشعر ، أو قصة أدبية .

ومن هنا صح لنا أن نقول إن الفنون الجميلة نوافذ نطل منها على الحقيقة .

أحمد فؤاد الأهوانى

شهريات

شهرية العلم

التقويم المصرى وعلم الفلك فى مصر القديمة

نشأة التقويم

إن التقويم الذى وضعه المصريون منذ العصور الأولى للتاريخ ، والذى لا يزال سائدا إلى اليوم يعتمد على عنصرين طبيعيين وهما : صفاء جو البلاد واعتدال مناخها ، ثم انتظام فيضان النيل . فصفاء جو مصر ونقاء سمائها اللذان يميزانها من كثير من البلاد الأخرى قد أتاح للمصريين القدماء أن يدرسوا قوانين الآلة الفلكية السماوية وأن يستنبطوا مما وصلوا إليه من نتائج القواعد الأساسية التى يقوم عليها ترتيب أزمنة التقويم وحسابها .

أما النيل فقد أتاح انتظام فيضانه واعتدال مياهه للمصريين أن يلاحظوا بدقة التطورات المختلفة التى تمر بها مياه النهر وأن ينظموا حياتهم الخاصة طبقا لهذه التطورات، وأن يجعلوها أساساً لكل حساب زمنى فى مصر .

فقد أدرك المصريون أن فى الزمن ثلاث حقبات : الأولى هى الحقبة التى تزيد فيها مياه النيل وترتفع شيئا فشيئا فتكتسح فى ارتفاعها الأراضى الصالحة للزراعة وتغمرها حاملة إليها الحياة والخصب . والثانية هى الحقبة التى تنخفض فيها المياه شيئا فشيئا كحالها فى الارتفاع وفى مدة مثل مدة الفيضان لاتزيد عليها ولاتنقص . أما الثالثة فهى الحقبة المتمة للدورة النيلية وفيها تجف الأراضى فتسمح للفلاح أن يجمع الحبوب والثمرات التى ما يفتأ النيل يمد الأرض بالخصب لانتاجها . والنقوش الهيروغليفية والرسوم الموجودة فى المعابد المختلفة تدل على هذا التطور الثلاثى ، وتعطينا وصفا مختصرا لهذه الفصول الثلاثة . وإذ كان نظام النيل مرتبطا ارتباطا تاما بتقلبات كرتنا الأرضية وبالظواهر الجوية والمائية التى هى نتيجة هذه التقلبات ، فان دورة وحدة الزمن الكبرى التى اتخذها المصريون هى نفس دورة تقلب كوكبنا . والفصول الثلاثة السالفة الذكر هى حقيقة عدلتها ٣٦٥ يوماً .

تقسيم الزمن على أساس الأهلة

لما تحقق المصريون أن الشمس روح الزراعة والنيل حياتها، جعلوا اليوم — الليل والنهار — وحدة للمقياس الزمنى ، ومن الدورة القمرية شهرا عدة أيامه ٢٩ أو ٣٠ ثم قسموا الشهر إلى أربع وحدات متساوية هى الأسبوع . وجعلوا السنة

الزراعية اثنى عشر شهرا قمريا . وكان لذلك الحساب القمرى أثره فى الحفلات الدينية إذ أصبحت تقام للقمر ، كما كان له أثر فى الاسم الذى أطلق على الشهر فى اللغة القبطية وهو ABOT (وينطق بالحروف اللاتينية Abot) أى القمر . وقد رمز له فى الكتابة الهيروغليفية بقرص القمر مع نجمة مصحوبة بيد .

تعديل السنة القمرية وجعلها سنة شمسية

ولكن سرعان ما اضطر المصريون إلى اختيار السنة الشمسية . وذلك حين وجدوا أنه من الصعب وضع سنة قمرية ثابتة توافق ما للسنة الزراعية من ثبات ، وهو ارتباطها بالنيل ونظام فيضانه ، ومن ثمة كانت السنة الزراعية مرتبطة بالشمس ارتباطا وثيقا. وقد قضوا وقتا طويلا يحاولون فيه أن يحددوا مدة السنة الشمسية ، ولم يصلوا إلى هذا التحديد إلا تدريجيا وبفضل بحوث نسبت إلى الاله المصرى توت الذى لاحظ أن التقسيم إلى أسبوع يعوزه بعض الدقة ، وأن الأثنى عشر شهرا هلالية ، وإن تكن لا بد أن تشمل فيضانا فانها تنقص أحد عشر يوما . فلم يسعه إلا البحث عن ضابط ثابت يجعل توقيتاتهم الزراعية لا تختلف من سنة إلى أخرى . وقد رأى أن أحد نجوم الشعرى اليمانية وأسطعها ، وقد أطلق عليه اسم البراق ، هو من الكواكب الثابتة يظهر مع الشمس عند شروقها وغروبها فى ابتداء زمن فيضان النيل . فلم ير بدا من جعل ذلك الزمن بدء السنة المصرية الشمسية . وجعل لكل شهر من شهور السنة الأولى الشمسية الاثنى عشر ثلاثين يوما ، وأضاف إليها خمسة أيام تكميلية لتتم عدة السنة خمسة وستين وثلاثمائة يوم ، وهى العدة التى لاحظها فى دورة السنة الشمسية ، وأطلق على هذه الاضافة اسم أيام النسىء . وكذلك تحدد مبدأ السنة الشمسية الأولى باليوم الأول للفيضان ، والذى يظهر فيه النجم البراق عند خط عرض ٣٠° — الذى يقطع الوجه البحرى .

وقد حفظ المصريون للاله توت هذه اليد التى أسداها إليهم فأطلقوا اسمه على الشهر الأول من السنة، كما أنهم دعوا النجم البراق نجم الالهة ايزيس .

وأصبحت السنة الشمسية بعد ذلك مقسمة إلى ثلاثة فصول : أولها الفصل الزراعى ويشمل شهور توت وبابة وهاتور وكيهك ؛ وثانيها فصل الحصاد ويتألف من طوبة وأمشير وبرمهات وبرمودة ؛ وثالثها فصل الفيضان ويتكون من بشنس وبؤنه وأبيب ومسرى وأيام النسىء . ولذلك سميت هذه السنة السنة الزراعية ، واعتمد عليها الفلاح فى زراعة أرضه وتحرير عقود إيجاراته .

تعديل السنة الشمسية

كانت السنة الشمسية المكونة من خمسة وستين وثلاثمائة يوم لا تمثل السنة الشمسية الفلكية تمام التمثيل . فبعد أربع سنوات من وضعها أشرق البراق أو نجم ايزيس متأخرا يوما واحدا ، ومنذ هذا الوقت استمر يتأخر يوما كل أربع سنوات .

وهذا التأخير وإن لم يكن ذا شأن فى حياة الفرد أو فى حياة المجتمع فانه انتهى مع تطاول الزمن إلى وجود تعارض بين فصول التقويم وفصول الزمن ، وأصبح التقسيم إلى فصول وشهور تقسيما لا قاعدة له .

ولكن تأخير نجم ايزيس عن ميعاد ظهوره أثناء الخمسة والستين وثلاثمائة اليوم التى هى عدة السنة أخذ يقل وأخذ ميعاد ظهور النجم يقترب من الميعاد الأصلى وفى نهاية ١٤٦١ سنة ظهر النجم فى ميعاده الأصلى الذى كان يوافق بدء السنة الشمسية . وقد لوحظ أن كل ١٤٦١ سنة عدد أيامها ٣٦٥ يوما تعادل ١٤٦٠ سنة ايزيسية عدد أيامها ٣٦٥ وربع يوم . وعلى ذلك صوب المصريون سنتهم الشمسية وجعلوها سنة ايزيسية ، وأضافوا مجموع الأرباع اليومية فى آخر السنة الرابعة بحيث صارت أيام النسئ ستة أيام كل أربع سنوات وأطلق عليها اسم السنة الكبيس وهى المألوفة فى مصر إلى يومنا هذا .

ويلاحظ فى الآثار المصرية أنه فى عهد الأسرة الرابعة التى استوت على عرش مصر منذ نحو ٢٤٨٠ سنة ق.م. كانت السنة الايزيسية قائمة . ونرى فى المقابر وفى القرابين التى تقدم للآلهة عيدا مزدوجا لرأس السنة : عيد رأس السنة غير المحددة وعيد رأس السنة الايزيسية .

وتذكر النصوص الموجودة فى الأهرام هذه السنة الأخيرة . ولستنتج من ذلك أن وضع السنة الايزيسية يرجع إلى ما بعد أيام العصر الذهبى للامبراطورية القديمة .

حدد مبدأ السنة الفلكية الصحيحة وهى المعروفة بالسنة الايزيسية فى إحدى السنين التى اتفق أول يوم منها مع اليوم الأول من السنة غير المحددة ، وهذا المبدأ يوافق اليوم الأول من دورة فيضان النيل أى يوم ١٩ يوليه من السنة اليوليانية أو ١٥ يونية من الغريغورية . وحدث هذا التوافق على مر الزمن فى السنوات ١٤٠/١ إلى ١٤٣/٤ ، و ١٣٢١/ صفر إلى ١٣١٨/٧ ، و ٢٧٨١/ صفر إلى ٢٧٧٨/٧ ، و ٤٢٤١/ صفر إلى ٤٢٣٨/٧ ق . م . وعلى مقتضى هذه المصادر التى سبق ذكرها يكون أول افتتاح للسنة الايزيسية أو الفلكية المصححة قد حدث فى مصر سنة ٤٢٤١ ق . م .

ومع ذلك لم تكن السنة الايزيسية سنة التقويم الشعبى كما لم تكن متبعة ولا مذكورة إلا عند الكهنة والعلماء .

ورغم كل المحاولات التى بذلها أمراء مصر ومجهودات بطليموس الثالث افيرجيت وأغسطس قيصر لم يقبل شعب مصر السنة التى تشمل ٣٦٥ يوما وربع يوم إلا فى عصر المسيحية ؛ إذ تمسك شعبها لذلك الحين بالسنة التى عدتها ثلاثمائة وخمسة وستون يوما فقط . وقد صدر قانون فى المملكة ، كما قال بعض المؤلفين ، يحدد عدد أيام السنة . وقد جرت العادة على أن يتعهد الأمراء للملك فى يوم تتويجه باحترام هذا القانون لأن النظام الاقتصادى فى جميع المملكة كان معلقا به .

ونلاحظ أن المصريين قد بذلوا أعنف الجهد ليحتفظوا بمقياس هذه الدورة وأخذوا يدونون بدقة متصلة مدى هذا القياس ليصوبوا كل نقص يتضح وجوده فى علومهم الفلكية . ومع ذلك فليس ثمة شاهد على وجود علم فلكى بالمعنى الصحيح عند قدماء المصريين . ففى عصر الامبراطورية الجديدة نجد بعض النقوش المتعلقة بالكرة الفلكية وخاصة التى توجد على ناووس ستى الأول ، ورمسيس الرابع والسابع ، وفى معبد رمسيس الثانى . ولكن هذه النقوش أوحتها الأساطير لا علم الفلك .

ويلاحظ وجود نقوش مماثلة فى مقدم هيكل إدفو الذى بنى فى عهد لاحق لهذا العصر وكذا فى معابد فيلة وأمبوس وأرمنت ودندرة . أما ما يثبت ، بصفة قاطعة على مايظهر ، أنه موضوع لدراسة الجهاز الفلكى فهى المناظر الفلكية التى نقشت فى مقابر طيبة لرمسيس السادس ورمسيس التاسع فى أبواب الملوك وفى جدول القرانين التى يجب أن تقدم بين ٢٦ بشنس و ١٩ طوبه وهما موجودان على جدران معبد رمسيس الثانى فى جزيرة الفنتين ، وفى تقاويم إدفو وإسنا ودندرة، وفى بردية Sallier IV و Ebers والبردية المحفوظة فى ليدن Leyde . ومع ذلك لا يمكن القطع بأن علم الفلك لم يكن موجودا فى مصر ، ولا بأن هناك شاهدا إيجابيا على أننا أمام نتائج لدراسات أو أبحاث جرت على أساس قوانين أو قواعد .

ولم يلاحظ وجود علم فلكى صحيح فى مصر إلا فى عهد البطالسة لأن واضع « المجسط » *L'almagèste* أهمل ذكر من تقدمه من المصريين ولم يذكر إلا البابليين والاغريق فى المصادر التى استعان بها . على أنه لايسعنا إذا تصفحنا تاريخ التقويم فى وادى النيل لنقف على الدورات التى وضعها أهل هذه البلاد على مر الزمن من دورة قمرية إلى دورة شمسية ناقصة (٣٦٥ يوماً) ودورة ١٢٠ سنة و ٣٠ سنة ودورة إيبس ودورة العنقاء (فنيكس) والدورة الايزيسية (الدورة السوتياقية) — لا يسعنا إذا تصفحنا كل هذا أن نتجاهل وجود علم الفلك فى مصر . ومن العسير أيضا أن يفسر كيف يصبح شعب كان يجهل علم الفلك ، إماماً فى هذا العلم والمرشد الأوحد لأولئك الذين حكموا العالم بقوتهم وثقافتهم . إن روما نفسها لم تستحى من أن ترسل إلى مصر من ينقل علوم المصريين . لقد نقل يوليوس قيصر عن مصر إصلاح التقويم الذى يحمل اسمه . وكان الفلكى سوسيجين الذى كلفه يوليوس أن يقوم بهذا العمل من أهالى مدينة الاسكندرية . وقد استمد إصلاح التقويم من الحسابات التى قام بها الرياضى اودوكس الذى تحقق منذ الجيل الرابع قبل الميلاد أن عدد أيام السنة تزيد عن ٣٦٥ يوم . وليست لدينا معلومات عن تاريخ الدراسات الفلكية فى هذا العهد . ومع ذلك يمكننا أن نؤكد أن هذه الدراسات التى كان يحتفظ بها كهنة ممفيس لم تضع بانهيار الامبراطورية ؛ فقد تلقاها علماء الاسكندرية وحافظوا عليها . وقد كان لدراسات بطليموس من علماء الاسكندرية فى القرن الثانى للميلاد شأن كبير بحيث إن العلوم الفلكية كانت تستند إليها حتى القرن السادس عشر .

كامل صالح نخلة

شهرية السياسة الدولية

ثلاثة أحداث شغلت مضمار السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى: إخفاق مؤتمر وزراء خارجيات الدول الأربع العظمى، والسعى الحثيث فى تحقيق اتحاد صقالبة الجنوب، وتطورات القضية الفلسطينية بعد، إذ أصدرت فيها الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة توصيتها بالتقسيم.

مؤتمر وزراء الخارجية

أما مؤتمر وزراء الخارجية فقد انعقد فى لندن، واكتنف انعقاده جو مكهرب. كان جدول أعماله شاملا معاهدة الصلح مع النمسا ومعاهدة الصلح مع ألمانيا وما إليهما من تحديد للتخوم وتقرير لنظام الادارة والاستثمار الاقتصادى فى المناطق الألمانية الموحدة أو الموزعة، المراد إضافتها إلى كيان دولة معينة أو المرغوب فى فرض رقابة دولية عليها. وكان المعروف أن الاتحاد السوفييتى يريد أن يقدم مناقشة معاهدة الصلح الألمانية على مناقشة معاهدة الصلح النمسوية، وكان المعروف أنه يريد أن يستمع لرأى الألمان فى مشروع معاهدة الصلح معهم قبل أن تعرض على المؤتمر العام حيث يوقع عليها قبل اتخاذ اجراءات ابرامها. لكن الحوادث لم تشأ أن تمهل مؤتمر وزراء الخارجية حتى يجتمع فيجابه فى اجتماعه كل تلك الصعوبات، إذ ألقى القائد الروسى المشرف على المنطقة السوفيتية بالأراضى الألمانية بارحة الانعقاد خطابا دعا فيه إلى ضرورة التعجيل بتأليف حكومة ألمانية مركزية، وإذ اتهم الرفيق مولوتوف وزير الخارجية السوفيتية الانجليز والاميريكيين بالتواطؤ على إقامة حكومة فى غرب ألمانيا منفصلة عن شرقها. ومن شأن هذا الاتهام الثانى أن يثير ثائرة الشعب الألمانى على الدولتين الانجلوسكسونيتين، وهو شعب يود أن يظل محتفظا بوحدته وباندماج عناصره فى كتلة واحدة. ومن شأن ذلك التعجيل إلقاء الرعب فى القلوب الفرنسية التى لا ترى خلاص فرنسا إلا فى تمزيق الوحدة الألمانية أو فى تعيين حدودها الغربية على الأقل تحديدا يضم بلاد السار إلى الأراضى الفرنسية ضما، ويخضع منطقة الرور لنظام دولى يكون لفرنسا فيه مركز ممتاز.

وقد شاء وزير الخارجية الأميريكية ألا يعرض للموقف الروسى برد، وراح يستمسك بالنظر المباشر إلى المسائل المدرجة فى جدول أعمال المؤتمر. وراح المؤتمر يعرض لاجراءات معاهدة الصلح مع ألمانيا على ضوء ما كان مقررا بشأنها فى اجتماع المؤتمر السابق انعقاده بمدينة موسكو فى شهر ابريل الماضى. ولم يكن الاتفاق قد تم على كثير من تلك الاجراءات، ولاح فى الأفق أن الاتفاق عليها لا يزال عسيرا، فأجل المؤتمر نظرها إلى موعد آخر.

وبدأ بمعالجة موضوع الدول التى تدعى

إلى حضور مؤتمر الصلح لتوقيع المعاهدة ، فرضيت روسيا بضم باكستان إلى هذه الدول ووافقت على تأجيل النظر فى دعوة ألبانيا ، وهى الدعوة التى تعارضها الدولتان الانجلوسكسونيتان .

وحسب القوم أن الصفاء قد أخذ يلوح فى الجو ، فتدخل وزير الخارجية البريتانية مقترحا حلا وسطا للوصول إلى تفاهم بين روسيا والولايات المتحدة على مسألة مساهمة ممثلين لألمانيا فى وضع شروط معاهدة الصلح معها ، فعرض أن تكون « لممثلى الحكومة الألمانية التى ستقبل معاهدة الصلح فرصة إبداء وجهات نظرهم فى مؤتمر الصلح » . لكن اقتراحه لم يفز برضا الجانبين المتنازعين ، فعاد إلى الجو ما كان مخيما عليه من قلق . وتفاقم هذا القلق إذ هدد وزير الخارجية الفرنسية بوقف المباحثات المتصلة باقامة حكومة مركزية فى ألمانيا إلى أن تتم تسوية مشكلة السار ، وإذ أدلى الجنرال ديجول بتصريح هدد فيه بمعارضة الخطة التى قد يلجأ أليها وزير الخارجية إذا هو رضى بتأليف الوحدة الألمانية التى يعتبرها أعظم خطر على فرنسا .

وتداعت الأحداث بعد ذلك ، فقد طالبت روسيا بنصيبها من التعويضات الألمانية متناسبا مع ما نزل بها من جراء الاعتداء الألمانى من خراب ودمار ، وإذ عارضت فى ضم السار إلى فرنسا إلا إذا وافق المؤتمر على التخوم الواقعية بين ألمانيا وبولونيا ، وإذ رفضت توحيد المناطق الألمانية إلا بعد أن يقرر نظام الادارة والاقتصاد فيها عن طريق حكومة ألمانية مركزية .

وكان من شأن ذلك كله أن أعلن وزير الخارجية الأميريكية استحالة العمل فى هذا الجو ، وأن طالب بتأجيل المؤتمر ، فتقرر رفض دورته الحالية وأعلن فى العالم نبأ إخفاقه .

والمعقول أن الدول الغربيات الثلاث الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا سيعقد وزراء خارجياتها مؤتمرا ثلاثيا يتفاهمون خلاله على تنظيم العلاقات بين ثلاثتهن والدولة الألمانية مع فتح الباب أمام روسيا حين ترى محل التفاهم وإياهن على ضم المنطقة الألمانية الخاضعة لاحتلالها إلى مناطق ألمانيا الأخرى .

وأغلب الظن — إذا ذهب وزراء خارجية الدول الثلاث هذا المذهب — أن الخط الفاصل بين المنطقة السوفيتية والمناطق الانجليزية والاميريكية والفرنسية سينقلب خطا فاصلا بين كتلة البلاد الغربية وكتلة البلاد الشرقية ، تستقل كل منهما بكيانها الاقتصادى ، ولا تتصل بالأخرى إلا فى حالات الضرورات القصوى .

وقد يعمل أنصار « الخلافات الدولية » لاستغلال الحال الجديدة حين تتبلور ، لكن يصعب عليهم أن يصلوا باستغلالهم إلى حد الدفع بالعالم إلى حرب عالمية ثالثة .

صقالبة الجنوب

وبينما كانت تكتنف تلك الصعوبات مؤتمر وزراء الخارجية بلندن ، كان المارشال تيتو يزور العاصمة البلغارية ويزور العاصمة المجرية ويزور العاصمة الرومانية ويوقع مواثيق التعاون بين يوغسلافيا وبلغاريا والمجر ورومانيا وألبانيا ، وهى وإن لم تخرج نصوصها عن كونها نصوص مواثيق التعاون العسكرى والسياسى والاقتصادى والثقافى

التى كثرت فى هذه الأيام ، يدعو قيامها فى هذه الظروف التى تنتاب العلاقات الدولية العالمية إلى الاهتمام الكبير خلال العالم كله . فقد أذيع عن الآستانة أن تلك المواثيق إنما تنطوى على فكرة إقامة حلف صقلبى من تلك الدول الأربع ومن مقدونيا اليونانية أيضا يدخل فى نطاق النفوذ السوفيتى إن لم ينته أمره بالالتحاق بالاتحاد السوفيتى كله ، وهو ما يدعم الكتلة الشرقية فى أوربا أكبر الدعم وما يقلق بال الكتلة الغربية فى أوربا وأمريكا أعظم الاقلاق .

وقد خطب فى ذلك المارشال تيتو عند عودته إلى بلغراد من زيارته لصوفيا فقال فيها : « لم تعد البلقان مخزنا للبارود بعد الآن . فقد عقدت الشعوب السلافية عزمها على أن تحيا فى ظل الصداقة والوحدة . » وخطب الرفيق ديمتروف رئيس الوزارة البلغارية من ناحيته فنوه بأن المعاهدة الجديدة منطوية على مقاومة « كل من يحاول العدوان على حرية الشعبين واستقلالهما . » وأضاف قوله : « إن القنبلة الذرية التى طالما اتخذتها أميركا الاستعمارية وسيلة لاثارة الفزع والاضطراب فى النفوس لم تغد ترهب الآن سوى ضعاف الأعصاب ، فضلا عن أن إنتاجها لم يعد بعد الآن وقفا على تلك الدول الاستعمارية .

ولهذا الزج بالولايات المتحدة خلال تحدثه عن المعاهدة والميثاق مغزاه .

قضية فلسطين

أصدرت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة توصيتها بتقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية رغم تحذير مندوبى الدول العربية لديها بسوء مغبة قرار التقسيم . فهبت الجماعات فى هذه الدول تعلن الاحتجاج وتطالب حكوماتها بالتدخل وتعرض استعدادها للبذل بالأموال والأرواح فى سبيل الاحتفاظ بعروبة فلسطين ووحدتها .

وكانت جامعة الدول العربية قد أدرجت مشكلة فلسطين فى جدول أعمالها منذ سنتين أو أكثر من سنتين ، وكانت قد أصدرت فيها قرارات خلال اجتماعات مجلسها ولجانها ببلوادان وصوفر والقاهرة ، لكنها كانت قد أحاطت تلك القرارات بالكتمان .

فلما جاء قرار التقسيم بادرت جامعة الدول العربية إلى عقد مجلس رؤساء حكوماتها كى يعرض للوضع الجديد على ضوء هذا القرار من ناحية ، وما بدا من رغبات الناس والجماعات فى بلادها من ناحية أخرى . فصدر عنه بعد اجتماعه أسبوعين كاملين بيان تناول فى إيجاز تطورات المشكلة الفلسطينية منذ « تلاقت أغراض الاستعمار وأطماع الصهيونية على إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين إلى أن تنكرت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة لذات المبادئ التى تضمنها ميثاقها » أى منذ صدر وعد بلفور فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر لسنة ١٩١٧ إلى أن صدرت التوصية بالتقسيم فى اليوم الثانى والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٤٧ ؛ كما سجل البيان أن « رؤساء الحكومات العربية وممثليها قد قرروا فى اجتماعهم بالقاهرة أن التقسيم باطل من أساسه، وقرروا كذلك ، عملا بارادة شعوبهم، أن يتخذوا من التدابير الحاسمة ما هو كفيل بعون الله باحباط مشروع التقسيم الظالم ونصرة حق العرب ومجابهة كل احتمال من الاحتمالات».

وقد كان لهذا البيان صداه عند العرب وعند غير العرب . أما عرب فلسطين فمالوا إلى اعتباره فاترا إذ لم يتضمن ذكراً صريحا لأنواع المعونة التى ينتظرونها من الحكومات العربية ، وإن كانوا قد وطنوا أنفسهم على ألا يعتمدوا فى جهادهم إلا عليها، فأعدوا عدتهم على اعتبار أنهم وحدهم فى الميدان ، فان جاءتهم من إخوانهم فى سائر البلاد العربية معونة فأهلا بها ومرحبا ، وإن لم تجئهم فهم فى طريقهم ماضون وبالنصر مؤمنون .

لكن أصحاب البيان يهدئون من روع عرب فلسطين ؛ إذ يؤكدون أن السكوت عن التصريح بالخطط التنفيذية التى وضعت لمجابهة الاحتمالات راجع إلى ما تقضى به الحكمة إذ يترتب على كشفها ما يترتب من أضرار مؤكدة .

أما دوائر لندن الرسمية فقد كان أثر البيان فيها أن « بدت عليها مظاهر الأسف لانتقاد العرب الموقف الذى وقفته بريتانيا من تقسيم فلسطين » . وأكثر ما يثير أسف هذه الدوائر «أن يكون مكان بريتانيا من احتجاج العرب بعد الولايات المتحدة وقبل السوفيت» أى إنها لا تؤاخذ العرب على مبدأ الاحتجاج فى ذاته بل على نظام الترتيب والتعقيب فيه ليس غير ، وكانت تود لو خصوا بغضبهم الولايات المتحدة أول الأمر وثنوا بعدها بالاتحاد السوفيتى ، ثم استبقوا غضبهم على بريتانيا بعد ذلك عند حد المرتبة الثالثة . . .

وأما الاتحاد السوفيتى — وهو الذى قصد أول ما قصد بتأييده قرار تقسيم فلسطين إلى إجلاء بريتانيا عن هذه المنطقة من الشرق الأوسط — فقد صرح مندوبه لدى الأمم المتحدة بضرورة المضى فى سبيل تحقيق التقسيم على الرغم مما يقع من اضطرابات كان متنظراً وقوعها بطبيعة الحال .

وأما الولايات المتحدة التى اشتهر أمر تدخلها عند التصويت على التقسيم فيلوح أن قد هالها ما بدا فى البلاد العربية من تذمر وما قد ينال هذا التذمر المصالح الأمريكية الناشئة فى هذه البلاد من مساس، فراحت تقترح فى مجلس الأمن تأجيل النظر فى قرار الجمعية العامة، وراحت تتلمس حلولا أخرى غير الحل الذى لست الآن أنه يشرك معها الاتحاد السوفيتى فى فلسطين .

محمود عزمى

شهرية الفلسفة

CHRONIQUES PHILOSOPHIQUES

DIDIER ANZIEU

المؤتمرات والمحاضرات*

كلية جان وال الفلسفية Le Collège philosophique de Jean Wahl

إن انحطاط التعليم الفلسفي في الجامعة الفرنسية ، وانتشار الثقافة الفلسفية في غير الأوساط الجامعية ، هما العاملان اللذان يفسران ما صادفته كلية جان وال الفلسفية من نجاح بلغ حد الدهشة في النصف الأول من سنة ١٩٤٧ . وكان الاقبال عظيما على المحاضرات التي كانت تلقى واحدة منها كل ليلة . وكان الجمهور مزاجا من الأدباء والصحفيين ورجال المسرح ، إلى جانب الأساتذة والطلاب . وكان الجميع يسعون للاستماع إلى بعض أساطين العلم أمثال لويس دى بروى العالم الطبيعي والدكتور لاكان ، وإلى بعض المشتغلين بالنقد الفني والأدبي ، وإلى فريق من القصصيين والشعراء ، وإلى بعض فلاسفة سويسرا وهولندا وبلجيكا ، وإلى كل ذلك النفر من المفكرين الفرنسيين الذين يتميزون برأى مبتكر شخصي أمثال : يانكيليفتش ونظريته في البشر ، ورولان كايوا في التاريخ ، وليفيناس في الزمان ، وكوارى في اللاهوت ، وجرفتش في علم الاجتماع وباشلار في التخيل ، وبردياف في الدين والشيوعية الخ . أما جامعة السوربون القديمة فهي دائما مقيمة على دراسة المؤلفين المدرسيين الغلاة على ما في هذه الدراسة ملل . وهي دائما آخذة بطرق التعليم غير الشخصي على ما في هذه الطرق من عقم . لذلك لانراها تشترك في ذلك الحشد اللامع من المحاضرين إلا بنصيب ضئيل . وعند ما تصبح الجامعة منظمة مغلقة منفصلة عن العالم الراهن ، نرى الفلسفة وهي المنظمة التي لاتغلق أبدا تذيع وتثمر في مكان آخر.

والأستاذ جان وال الذى اضطرته الحرب إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة ، هو الفيلسوف الوجودى الوحيد الذى يتمتع بكرسي في كلية الآداب بباريس ، وقد قدم كليته الفلسفية بهذه العبارات : « إن أوربا والغرب كله والعالم بأسره ، بعد تلك الفترة المروعة يبحثون بين عدة أشياء أخرى عن مدى ما بلغ إليه الفكر وما وصلت إليه الفلسفة . ولم يسبق أن اتجهت الأنظار إلى باريس كما تتجه إليها اليوم . فلابد أن

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

تكون باريس جديرة بما يرجى وينتظر منها. وعند عودتى من أمريكا خطر لى أن أنشئ فى باريس مركزاً قوميا ودوليا للفلسفة الحية حيث تمثل الاتجاهات المتنوعة ، من فلسفة مدرسية وفلسفة برجسونية، وماركسية، وفلسفة الوجود ، وفلسفة ويتهد ، وتمثل فيه أيضاً ، إذا أمكن إن لم يكن حالا ففيما بعد ، الوضعية المنطقية وعلم النفس الشكلى والتحليل النفسانى . . . والواقع أن هناك قلقاً فلسفيا ، لم تكن الحرب مصدره ، بل كان موجوداً من قبل ، إلا أنه أحس بنفسه بوضوح أقوى ... وسواء أتحققنا من ذلك أم لم نتحقق ، فنحن نجتاز ثورة فكرية بلغت أشدها . . . ومن واجب الفيلسوف اليوم ، وقد لمس هذه الثورة ، أن يتعرف إلى ما هو أبدى فى الفلسفية . . . فكلية ، وحشد مواهب متنوعة ، وجوقة ذات أصوات عدة ، يتولد من نغماتها المتفرقة الملموسة ، توافق يصعب لمسه . تلك هى هذه « الجامعة » إذا نمت واتسعت كما نشاء لها النمو والاتساع .

ولابد أن نقول إن التوافق لم يوجد بعد ، ولم نحس بأية وحدة، والعقل البشرى فى حاجة إلى نظام ونقط ثابتة ، والمحاضرات كانت تتوالى دون أن يكون بينها رابط . حتى إن المستمعين المواظبين كل المواظبة بدءوا يتفرقون بعد أن هبطت حماستهم ، وانقطع عن الحضور غير واحد منهم وقد أحسوا بحاجتهم إلى أن يخلوا إلى أنفسهم ويخلدوا إلى التأمل . وقد سافر الأستاذ وال فى الاجازة السنوية الكبرى إلى أمريكا اعتقاداً منه أن القوم هناك يحسنون فهمه . فلم تفتح الكلية أبوابها فى أكتوبر ، وهكذا لم يتحقق النظام الفلسفى الذى كان عصرنا يترقبه .

وقد حاضر بين من حاضر فى ذلك الحشد رجال ثلاثة خليقون بالذكر ، هم : ريمون آرون ، وفرديناند الكيى ، وموريس مرلو بونتى .

وكان الأستاذ آرون عند ما ألقى محاضرته ما زال يعمل بعد فى جريدة « كومبا » محرراً للمقالات الافتتاحية . وكانت محاضرته تدور حول استحالة الاتفاق بين الوجودية والماركسية . فهو يرى أنه لا يوجد بالفعل أية نقطة اتصال بين رأى فى الوجود هو رأى شخصى بحت و بين مذهب فى العمل هو مذهب جمعى مشترك . وقد تستطيع الثورة أن توجد حلا للمشاكل الاجتماعية ، ولكنها عاجزة عن حل مشكلة نفسية كامنة فيما وراء العقل . إن الثورة نقيض كل قلق شخصى ولو كان غير دينى . وإن الوجودية تأبى أن تسلك سبيل التقدم الاجتماعى إلا إذا كان ذلك من أجل الحرية الفردية وبوساطتها . وهى لا تعير الآلة قدراً بل تقيم وزناً للقلق ولاختيار نوع الحياة والموت . ويضيف الأستاذ آرون إلى ذلك الاعتبار الأول اعتبارا آخر ، وهو أن الحوار الدائر بين الوجوديين والماركسيين ، مع تنافيه التام ، لا يتجاوز ميدان الميتافيزيقا إطلاقا ، غير متعلق بالناحية العملية الراهنة للحياة السياسية . فبدلا من مناقشة الأسباب التى تدعو إلى تغيير النظام الاقتصادى فى المجتمع يحسن بنا أن ندرس خير الوسائل التى تحدث بها تغييرات مجدية فعالة ، وأن نعيد النظر مثلا فيما أصدرنا من حكم على الرأسمالية .

أما فرديناند الكيى فهو من زعماء حركة السيريالزم ، وقد أضحى مدرساً للحكمة وفيلسوفاً له نظرياته فيها ، وقد أوضح فى محاضرته أن نمو حركتى الوجودية والسيريالزم دليل على ما فى عصرنا من متناقضات . كانت الفلسفة المدرسية تنظر

إلى الانسان لنظرتها إلى عالمين : عالم الجسد والميول ، وعالم النفس أو الروح أو العقل ، وكانت تغض الطرف عن الأول لتستقر فى العالم الآخر، مخولة له السلطة على كل شئ. وهى لذلك كانت ترسم طريقاً بسيطا ومستقيما يسهل إدراكه ؛ ولم تكن تواجه من المصاعب إلا المصاعب العملية ، وذلك عند ما يأبى الجسد أن يخضع بتلك السهولة التى أرادتها له الروح . أما الفلسفة الحديثة أى فلسفة بريتون (السيريالزم) أو فلسفة سارتر (الوجودية) ، فهى تريد ألا تترك شيئا يفقد من الانسان بأجمعه . فاللاشعور والتخيل والميول والغرائز ترفع كلها إلى مرتبة الفلسفة . إن الوجودية والسيريالزم مذهبان إنسانيان أى من المذاهب التى لاتعتبر غير الانسان موجودا وهو شئ واحد لا يتبدل . ولكن الانسان لا يستطيع أن يحقق كل الممكنات الكامنة فيه . ويرجع ما صادفته الفلسفتان من إخفاق إلى عجز كلتيهما عن حماية كيان الانسان الحسى فى جملته . فالأمر يكاد ينتهى بهما دائما إلى التساؤل عما يختاران بين الثورة والحب . فالحياة الخاصة والحياة العامة قد أصبحتا نزعتين متخاصمتين .

وقد حاول الأستاذ مرلو بونتى بالفعل أن يجد حلا لهذا التباين فى العالم الحديث الذى يرى الأستاذ ألكيى أنه تباين مصطنع . وقد ألقى عدة محاضرات عن الحرية ، أعلن فيها عن حدث فلسفى هام ، قال إن وجودية سارتر لم تكن إلا وجودية سلبية ، وسوف تصبح إيجابية مع الأستاذ مرلو بونتى أى مع سارتر مقبل ، سارتر من طراز آخر . إن وجوه التناقض بين الحياة الخاصة والحياة الجماعية ، هى نتيجة الجمع بين وجهتى نظر مختلفتين فى الانسان ، الأولى هى الشعور بالذات والثانية هى الشعور بالغير ، أى بين وجهة النظر الداخلية ووجهة النظر الخارجية . فاذا عارضنا بين هاتين الوجهتين كما هى الحال بين الوجود والعدم ، أصبحت العلاقات بين البشر قائمة على أساس من القتال وعدم الاكتراث ، وأضحى الحب فى المرء هو الرغبة المستبدة الملحة فى أن يحبه الغير ، واعتبر الفرد شيئاً بين الأشياء . أما إذا ذهبنا مع الأستاذ مرلو بونتى إلى إيجاد الانسجام بين هاتين الوجهتين بحيث تكمل إحداهما الأخرى ، وذلك بأن يكون بين الخارج والداخل اتصال بفضل مايحدث فى الداخل من نشاط—إذا سعينا إلى ذلك ، كان للحرية معنى وكان لها حياة ، وأصبح الحب هو التعاقد المتبادل بين إرادتين على إرادة المشروعات نفسها ، فيصبح المجتمع وقتئذ إرادة مشتركة ، فيزيد كل فرد حرية الغير ، ويصبح المجتمع نداء وحوارا ، ومشروعا بشريا . يسمى الأستاذ مرلو بونتى هذه الظاهرة ظاهرة «اتحاد الذاتية» intersubjectivité أى إن الانسان لا وجود له وحده ، وأن الغير هو جزء من الحيز الذى يكون ذاتيا . أليس مصدر الأخطاء البشرية كلها هو انطواء الانسان على نفسه ؟

ما هو علم السينما Filmologie

عقد أول مؤتمر دولى للفيلمولوجى فى باريس من ١٥ حتى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٤٧ . وعرف علماء النفس وعلماء الجمال فى العالم كله بعلم جديد هو علم . السينما وقد نظمت

هذا المؤتمر الجمعية الناشئة باسم « الجمعية الفرنسية للبحث السينمائى » . وقد سبق هذا المؤتمر صدور « المجلة الدولية لعلم السينما » وانتهى المؤتمر بأن قرر إنشاء مكتب دولى يكون مقره المؤقت باريس ، ويرأسه ثلاثة علماء هم مسيو جونست من سويسرا ومسيو ميشوت فان ديربيك من بلجيكاومسيو والون من فرنسا . وهكذا تغدو السينما موضوع بحث تكتب فيه الرسائل ويحصل فيه على شهادات وتمنح عنه مكافآت مالية ، وسوف تنشأ كراسى فى علم السينما فى الكليات . وقد بدأ من الآن بعض الطلاب والمدرسين بحوثهم . لم هذا الاهتمام المفاجىء بالسينما ؟ ذلك لأن هذا الفن الشعبى ذا الأثر الفعلى يرشدنا عن الانسان .

كان المؤتمر منقسما إلى خمس شعب . أما الشعبة الأولى وهى شعبة البحوث التجريبية فقد واجهت مسائل ثلاث : ما هى النتائج الفيزويولوجية والسيكولوجية لرؤية حركات تتم غالباً على عمق فوق شاشة ثابتة ؟

هل فى رؤية الصور الشريطية وحدات من الزمن والقياس كوحدات الايقاع والوزن ، والتتابع والتوقيت ، خاصة بالسينما وقد تتغير بتغير السن والثقافة والحضارة ؟ هل شروط العرض السينمائى وبالأخص ظلمة القاعة ، توجد فى الجمهور استعدادات وميولا غير التى توجدها المناظر الأخرى ؟ أما الشعبة الثانية وهى شعبة تطور الناحية التجريبية فى السينما فقد درست تاريخ المخترعات السينمائية وتاريخ وسائلها الفنية : الفيلم الصامت والناطق والملون ، والحيل السينمائية الخ ، فى حين أن الشعبة الثالثة توفرت على مشاكل تتعلق بالفلسفة العامة وبعلمى الجمال والاجتماع : ما هو التكوين الخاص بالصورة الشريطية والعالم الشريطى ؟ ما هى ضروب الجمال فى الشريط ؟ السينما كأثر من آثار الحضارة ؛ وظيفتها الاجتماعية ، أثر المجموع فيها . أما الشعبة الرابعة وهى شعبة الدراسات المقارنة فقد أنشأت قواعد صرف ونحو ومفردات خاصة باللغة السينمائية ودرست الفصاحة والسرد القصصى ، والمنظر التمثيلى فى السينما ، كما درست علم الصور المنقوشة فى السينما ، والأسطورة السينمائية . والشعبة الأخيرة وهى الخاصة بالبحوث التنظيمية توفرت على دراسة تأثير السينما فى كشف أسباب المرض وعلاجه ، ودراسة أثر السينما التربوى ، كما وضعت خطة لتنظيم الصناعة السينمائية .

أين وحدة علم السينما فى كل ذلك ؟ نجدها فى كتاب المسيو جيلبير كوهين سيا وهو الذى أنشأ ذلك العلم وابتكر له اسمه . والكتاب لم يظهر إلا الجزء الأول منه وعنوانه : « رسالة فى مبادىء فلسفة سينمائية » . ومسيو كوهين سيا من الذين اشتغلوا بالسينما وهو فى الوقت نفسه فيلسوف ، وهو يثير المسألة العامة وهى : هل الانسان اليوم يختلف عنه قبل عصر السينما ؟ إن هذا الفن السابع ينتج الجمال بطريقة آلية خاصة به ، وهو بانتشاره انتشارا يكاد يكون عالميا ، يوحد بين مختلف الجماهير . فغاية علم السينما المزدوجة هى أن يدرس تلك الطريقة الآلية وهذه الوحدة ، أى أن يقدم بوساطة مذهب إنسانى جديد هدفا جديدا ووسائل تحقيق ذلك الهدف.

وأول مبدأ فى الفيلمولوجية أو علم السينما هو التميز بين الظاهرة الفيلمية أو الشريطية ، والظاهرة السينمائية أو الحركية . فالظاهرة الأولى تهدف إلى « التعبير عن الحياة ، حياة العالم أو حياة العقل والتخيل ، أو حياة الكائنات

والأشياء ، بوساطة صور مجموعة حسب نظام معين (صور منظورة : طبيعية أو اصطلاحية وسمعية : صوتية أو ناطقة) » فاذا أخذنا بوجهة النظر تلك تكون السينما هى « نوع الصور ومضمونها ووسائلها » ، وتكون دراستها فنية وجمالية . ومن ناحية أخرى « يكون من خصائص الظاهرة السينمائية أن تنشر فى الجماعات البشرية شيئا من الوثائق والاحساسات والأفكار والعواطف وهى مواد تقدمها لنا الحياة ويشكلها الفيلم حسب طريقته » ومن هنا تكون السينما ظاهرة عالية تابعة لعلم الاجتماع .

والمبدأ الثانى فى علم السينما أنه يتخذ صورة موضوعه أى إنه بحث جمعى . « يجب أن نعتبر اليوم أن رجلا واحدا لا يستطيع أن يقوم بمفرده بدراسة السينما دراسة عميقة لا لأن المسائل التى تثيرها متنوعة كل التنوع ، وأنها تتطلب فى غالب الأحيان تخصصا كليا ، وأنها بالحرى ذات أهمية واحدة فحسب ، بل لأن العمل فيها يستغرق وقتا طويلا إلى درجة أنه حتى قبل إنجازه ، قد يعاد مرة ثانية بحكم الوسائل الفنية التى تتطور تطورا متصلا عجيبا . . . ويبدو جليا أن كل مشروع منظم يظل خاضعا لتحقيق أولى عميق شاق ، كما يبدو جليا أنه لابد من اجتياز هذه الفترة من الفوضى الظاهرة والخصوبة الواقعة حيث تدرس كل فكرة وتمحص على حدة . » ومثل ذلك التحقيق هو الذى شرع فيه المؤتمر الدولى الأول للفيلمولوجيا .

إنشاء اتحاد دولى للعلاج النفسانى

وقبل عقد المؤتمر السابق بعام عقد مؤتمر آخر كانت له هذه الرسالة نفسها وهى العالمية . ذلك هو مؤتمر علم النفس العملى الذى عقد فى مدينة زوريخ من السادس حتى العاشر من شهر سبتمبر من عام ١٩٤٦ . وكانت النتيجة الملموسة هى الموافقة بالأجماع على إنشاء اتحاد دولى للعلاج النفسانى . ويتضمن هذا النظام الأخير استعمال الاختبارات ووصف نواحى الشخصية ، والتوجيه المهنى وأحلام اليقظة الموجهة ، كما تتضمن تحليل اللاشعور . والتشارها لا يعدو السنوات الأولى من عصرنا . وقد أصبحت ممارسة هذا النظام فى حاجة اليوم إلى أن يعترف بها رسميا ، وأن ترسم لها مقاييس دقيقة أكيدة . كان الأمر يقتضى ألا يجعل العلاج النفسانى فرعا ضيقا من فروع التخصص الطبى ، وأن يقصى فى الوقت نفسه عن مزاولة المهنة غير الاخصائيين والمشعوذون والفاسدون من المجتمع . وقد قرر المؤتمر أن يقبل فى اتحاده الأطباء الحاصلين على مؤهلات فى العلاج النفسانى ، وأن يقبل أيضا بنسبة العشر أشخاصا ذوى ثقافة سيكلوجية فقط . وهكذا أصبح الفلاسفة والأطباء يلتقون فى ميدان واحد من غير أن يضحى أحدهم بما تخصص فيه من علم . وتستطيع الآن كل دولة أن تجعل من المهنة مهنة شرعية وأن تعلمها فى معاهد عالية ، وأن تعبئ نفرا من أبنائها تخصصوا فى العلاج النفسانى . وتستطيع كل مدرسة أن تحصل قريبا على مستشار لها فى علم النفس التربوى ؛ وكل مصنع على إخصائى فى سيكلوجية العمل .

إن هذا التوحيد البديع لم يتجاوز الميدان الادارى . وكان الأستاذ يونج السويسرى

الألمانى يود أن يقيم الوحدة فى المذهب . فاقترح لذلك اعتناق أربع عشرة وجهة نظر مشتركة بين مختلف المدارس المهتمة بالعلاج النفسانى ، وبالأخص مدرسة فرويد ومدرسته هو نفسه . وتلك هى وجهات النظر الأربع عشرة التى نشرتها أعظم الصحف السيكلوجية فى العالم كله .

١ — الوسائل الطبيـــة Intervention médicale

إن العلاج النفسانى يسير بأسلوب طبى على اعتبار أنه من الطرق الطبية . وهو يهدف أول ما يهدف إلى تشخيص المرض . وفى سبيل ذلك يحاول أن يحمل المريض على استرجاع ذكرياته . ومن سرد المريض للأحداث الماضيـة المتعلقة بمنشأ انحرافاته النفسية ، وكذلك من خلال أعراض المرض ، يحاول العلاج النفسى أن يقرر طبيعة نوع المرض النفسى .

٢ — المنهج التكوينى Psychogénèse

إذا تقرر نوع المرض النفسى ، وضح للمعالج أن هناك أمراضا ليست ناتجة عن إصابات جسمانية ، ولا يمكن تفسيرها إلا فى دائرة الاختلالات النفسية .

٣ — التشخيص Diagnostic

لذلك لا يتجه اهتمام المعالج النفسانى بوساطة التشخيص إلى السبب العضوى فى المرض بل إلى التكوين النفسى للشخصية المعتلة من غير إخلال بالعوامل الأخرى .

٤ — الاستكشاف Exploration

يعير الاستكشاف أهمية لمختلف وسائل التعبير عند الانسان : الكلام ، والأفكار الطارئة ، والخواطر ، والحلم ، وتباشير الأغراض ، وحالة الشخص العامة الخ ...

٥ — منشأ المرض Etiologie

أثنـاء الاستكشاف العميق ، يتضح للمعالج أن منشأ المرض يرجع إلى عوامل دفينـة فى الأركان المجهولة من الشخصية ، وأنه يتجاوز حدود العقل .

٦ — اللاشعور L'inconscient

المركبة الغامضة فى الشخصية تدعى اللاشعور .

٧ — العـودة إلى الشعـور والتحليل Prise de conscience et analyse .

ان مهمـة العــلاج النفسانى أن يجلو الروابط اللاشعورية التى ساعدت على نشأة المرض والتى يمكنها الآن أن تنميه . ووسائله الآن هى التحليل والتفسير لمختلف ألواع التعبير .

٨ — التثبت Fixation

إن استكشاف الأعمـاق يؤدى بـين ما يؤدى إليه إلى تثبت النضوج النفسى عند مراحل معينة ، وعند مواقف أو عنـد أشخاص فى سن الطفولة ، وهو ذو أهمية حيوية .

٩ — معنى التثبت Signification de la fixation

تبدو مظاهر التثبت من ناحية كأنها الأسباب الفاعلة للحالات المرضية اللاحقة ، ومن ناحية أخرى كأنها الأسباب الغائية ، وذلك بما تثير من أعمال معينة تحكم مصير حياة الفرد وسلوكه التـالى . ومن ضمن الأسباب المادية نذكر الغرائز ونموها ، كما

أن الرموز تعتبر من الأسباب التشكيلية . وقد يكون للتثبت فى أول الأمر فعل مرضى ، أو قد يحرك ويثار من جديد بقوة يبدو معها أنه سبب فعال من غير أن يكون فى الواقع سببا فعالا .

١٠ — العلاقة بين الطبيب والمريض .

إن طريقة العلاج النفسانى تقوم على أساس العلاقات التى تربط الطبيب بالمريض . إن المواجهات الشخصية التى تؤدى إليها تعتبر أساساً للتكيف مع المجتمع وللمواجهات التى يتطلبها هذا التكيف .

١١ — نقل Transfert

إن العلاقات القائمة بين الطبيب والمريض قد تتخذ أثناء العلاج الشكل الخاص للنقل الذى يكون إسقاطاً من محتويات اللاشعور .

١٢ — إلتخفيف التحليلى La réduction analytique

إن تخفيف النقل يكشف عن نيات النقل البعيدة فى تاريخ المريض وفى تثبتاته أثناء الطفولة ، وبفضل هذا التخفيف والحذف تدخل تلك النيات فى منطقة اللاشعور .

١٣ — التوسع التأليفى Le dévelop-pement synthétique

الطريقة التأليفية التى يعمل بها تحاول أن تدخل فى اللاشعور معنى المحتويات المسقطة فى النقل بفضل طريقة التضخيم والايضاح والتوسيع .

١٤ — العلاج Thérapie

يختلف منهج العلاج باختلاف حاجات الحالة العلمية الراهنة . ولا بد من اعتبار ما يأتى :

(١) النصائح العملية ، والوسائل الايحائية وأخيراً مجرد الاعتراف .

(٢) تأثير عامل أو أكثر من العوامل الجرحية (العضوية) .

(٣) فى حالات أخرى يلزم استعمال التخفيف والحذف فى بعض مواقف الابتداء عند الطفولة .

(٤) فى حالات أخرى لا بد من تحليل النقل وسلوك المريض العام وموقفه . فى الفقرتين الثالثة والرابعة لا غنى عن تحليل الاحلام .

(٥) إذا لم يظهر أى تحسن جوهرى بالرغم من تحسن التكيف والتوافق ، فمعنى ذلك أنه يتحتم تجهيز محتويات النقل تجهيزاً تأليفيا élaboration synthétique . كذلك فى بعض الحالات قد تكون الطريقة التأليفية من أول وهلة ممكنة ومجدية .

والجدال الذى احتدم بعد ذلك بين الدكتور ريس من لندن والاستاذ يونج ، أظهر مقدار الهوة التى تفصل بين النزعة التجريبية الانجلوسكسونية empirisme ، والنزعة التعيينية الألمانية dogmatisme فالأولى تهتم بالنتيجة وتترك لكل طبيب نفسانى طريقته الشخصية . أما الثانية فهى تناهض الفردية وتتشبث بالعلم الصحيح وتحاول أن تمجد القوة . الدكتور ريس رجل واقعى لايهتم كثيراً بالنظريات . فقد نظم أثناء الحرب العيادات النفسانية فى الجيش البريطانى ، مرسلا الجنود إلى الميدان أو إلى الخلف حسب الطباع الدفينة عندكل منهم . وقد قوى بذلك الروح المعنوية وحسن الانتاج . أما يونج فهو بالعكس مرتاح فى مكتبه منفرد بمريضه . إنه رجل

المشاكل الداخلية والعلاقات الشخصية والصداقة .

وقد أدلى الدكتور لا فورج ممثل فرنسا بمبدأين وسطين وهما (١) أن التسامح أمر ضروري للعلاج النفساني الذي يجب بطبيعته أن يقضي على اليقينية والتشيعية، فهما من الأمراض الجمعيه التي تصحب عصور الانتقال . (٢) وأن العلاج النفساني في تقدم عظيم ؛ وهو باعتباره علم الحركة (الديناميكا) بالنسبة للفرد ، ليس في الامكان التعبير عنه بعبارات الاستقرار (الاستاتيكا) كما لا يمكنه أن يثبت عند حد بصورة دائمة .

وآخر الأمر قبلت النقط الأربع عشرة كبادئ بعد أن احتفظ كل واحد من أعضاء المؤتمر لنفسه « بحق التعبير عنها بالصيغة التي يراها أكثر ملاءمة لحاجاته الخاصة » .

أندريه مالرو فيلسوف الجولية غير الرسمي

في نوفمبر من سنة ١٩٤٦ وهو الشهر الذي عقدت فيها الهيئة الثقافية للأمم المتحدة جلساتها ، ألقى المسيو مالرو محاضرة كانت أول محاضرة له منذ الحرب . وكان موضوع محاضرته الثقافة ، وقد جمع فيها أهم موضوعات قصته الأخيرة « الصراع مع الملك » *La lutte avec l'ange* التي ما زال الجزء الأكبر من الجمهور يجهلها لقلة الأعداد التي أصدرتها لها الطبعة السويسرية .

إن المبدأ الأساسي الذي يأخذ به المسيو مالرو هو أن الانسان يعرف بذاته لا بعمله ، ويذهب به ذلك إلى إنشاء فلسفة للاشعور . إن قصص مالرو تتتبع مراحل حياته : الثورة الصينية في سنة ١٩٢٧ ، والثورة الألمانية في ١٩٣٣ ، والثورة الأسبانية في ١٩٣٦ وأخيرا تنظيم المقاومة في فرنسا أثناء الاحتلال . وقد قاتل مسيو مالرو في كل من تلك الحركات إلى جانب الشيوعيين . ولكنه لم يكن معهم كما ظن بعضهم . لذلك كان انضمامه إلى الجنرال ديجول بصفته أمين سره مفاجأة للجميع ، حتى إنه يتولى يوما وزارة الاستعلامات ، وصادف نجاحا لا يستهان به في الانتخابات الفرنسية الأخيرة .

إن فلسفة أندريه مالرو تساعد على إيضاح معنى الجولية . وأول فكرة عزيزة على مالرو هي فكرة الحضارة . فهو يرى أن المؤرخ مهما بحث في أبعد عصور التاريخ ، وأقدمها ، لا يجد إلا جماعات لا أفراداً منعزلة . والتاريخ البشري هو تاريخ الحضارات . فالحضارة هي أسلوب من أساليب الحياة ، قد يعبر عنه بمنشآت فنية وآثار كما قد يعبر عنه بنظام سياسي . وهي تولد وتموت . هناك إذن حضارات زائلة (ميتة) كحضارات الشرق التي قضى عليها الاسراف في تأمل الطبيعة والعدام الشخصية ، وقد تسلمها من الشرق ثوار الغرب . والجولية على هذا الاعتبار أبعد من أن تكون حزبا محافظا ، بل هي حركة من تلك الحركات التي تنشئ « الامبراطوريات العظمى » . إنها حزب الامبراطورية الفرنسية ؛ إن بها ما يشبه تقديس الملاحم التاريخية وتقديس الرجل العظيم وتقديس الازدهار الفني .

والفكرة الثانية هى فكرة الحضارة الأوربية . إذا كانت الحضارة نظاما مكونا من قيم مبتكرة ، فالغرب قد شهد مولد حضارتين : الحضارة الأمريكية والحضارة الروسية ، كما شهد زوال حضارة ثالثة هى الحضارة الأوربية . فالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وهما فى أشد تقدمهما الاقتصادى ، انتزعا من أوربا إيمانها العقلى البحث فى رقى مستمر للعلم ورقى مقابل له من الضمير . غير أن أوربا لم تستنفد كل قوتها فى خلق القيم ، وسينتج عن الانتعاش الراهن حضارة جديدة . إن ذلك الايمان بالعقل ليس هو خير ما فى التراث الأوربى ، إن خير ما فيه هو الانشاء المتصل لقيم عليا . إن الصفة الأوربية الحقة هى الارادة فى الشعور والارادة فى الاستكشاف ، وتفضيل الناحية السيكلوجية على المنطق ، وتغلب الثورة على كل أسلوب من أساليب الحياة يأتى من الخارج .

لاشك فى أن تلك القيم تعنى نقطة ابتداء ، ولاتستطيع أن تتكهن بما ستكون عليه نقطة الوصول للحضارة التى ترسم خططها . إن علة عظمة أوربا بل مأساتها نفسها ، هى أنها تقبل ما هو مجهول ، وتنصب نفسها لحماية الانسان . من هنا كانت الجولية مرتبطة بفكرة الكتلة الغربية ، وهى القوة الثالثة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة . وهى على نقيض الماركسية ذات صبغة صوفية وليست نظرية اقتصادية . إنها تدين برأى هيجل .

وآخر فكرة هامة لمالرو هى فكرة الانسان . إن هناك شرطا أوليا لا بد منه للرد على هذا السؤال : ما هو الانسان ؟ إن كلا من علم الأمم والتحليل النفسانى والأدب والتصوير ، يسائل ذلك السؤال . لقد مات الانسان القديم . ولا بد من ترك الثقافة التقليدية ، وإعداد بناء هذا الأوربى الحديث الذى يعتبر آخر تحول ظهر فى البقاء الانسانى . ليس الانسان الجديد ملكا أو قديسا وإنما هو بطل . إنه يصارع العالم الخارجى الذى يريد أن يجعله أشد إنسانية ، وذلك بفضل الانتاج الفنى أكثر منه بفضل الأداة الصناعية . وهو يصارع أحيانا «الملك» الذى يسر إليه أنه خالد لن يموت ويشير عليه أن يتكئ على هذه الفكرة .

تعد الماركسية البشر السعادة . ولكن هل يريد البشر السعادة ؟ أما الجولية فهى تعرض عليهم العظمة ، إنها نوع من الجمال وليست نوعا من الأخلاق . إنها تعتبر ناحية العظمة خير ما فى كل فرد منا ، وهى تحاول أن تستثير خير ما فى الانسان . ومن هنا يدرك معنى عبارة الجنرال ديجول : « تمهيد الطريق من أعلى » خلق الانسان إذن ليلزم نفسه ويلزم الآخرين بأن يقيموا دائما فى « طريق الذرا » .

خاتمة

هل الحضارة الصناعية هى الحضارة الحقة أم لا ؟ هل التاريخ متروك أمره للمصادفات ؟ وهل هو خاضع لقوانين الاقتصاد السياسى ؟ وهل كان إنسان الأمس يختلف كل الاختلاف عنا ؟ ماذا سيكون إنسان الغد ؟ ذلك هو السؤال الذى يسأله فى كل أنحاء أوربا أعضاء المؤتمرات والحاضرون . وربما اتجهت الردود المختلفة

التى أجاب بها على السؤال نفسه الأب تيلار دى شاردان ومرلو بونتى وكوهين سيا ومالرو وكامو وعلماء التحليل النفسانى ، اتجاها واحدا حيث تلتقى . وربما كان ذلك إيذانا بمولد إنسانية جديدة . إن فرنسا على جهلها التام بالحضارات الأجنبية، مازالت تعتقد أنها مركز تلك الانسانية .

ديديه أنزيو

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

شهرية السينما

الأزمة الراهنة فى السينما الأمريكية

إن صناعة الأفلام فى أمريكا تمر الآن فى أزمة شديدة . نلحظ هذه الأزمة فى جميع الأفلام التى تعرض علينا فى هذه الأيام : فهى واضحة فى القصص التى تخرج فى ستوديوهات هوليوود ، وفى أساليب الاخراج ، وفى التصوير حينا ، وفى التمثيل أحيانا . وهذا لا يعنى أن فى هوليوود ركودا عاما أو إهمالا سائدا فى الانتاج . فهناك محاولات يبذلها أفراد للتجديد والابتكار ، نذكر منهم اثنين شهدنا ما وصلوا إليه من نتائج ، وهما أورسون ويلز الذى تكلمت عنه فى المقال السابق ، وروبرت مونتجومرى الذى ابتدع نوعا جديدا من الأفلام حيث تلعب آلة التصوير الدور الرئيسى فى القصة ، أو بمعنى آخر حيث لا تسجل إلا ما يراه الفتى الأول الذى يقص علينا قصته . وقد شهدنا هذه الطريقة الطريفة فى إخراج فيلم « السيدة فى البحيرة » *Lady in the Lake* . أما المخرجون الآخرون فمنهم من يتبع منهجا بعينه لا يحاول أن يغير منه شيئا ، ومنهم من لا يجد سبيله إلى الابتكار فيحاول أن يحاكى من يراهم أقدر منه على الابتكار . وقد تحدثت فى العدد السابق عن طريقة عرض الحوادث بالتقهقر التى ابتدعها أورسون ولز وتناولها بعده المخرجون فى هوليوود وأسرفوا فى استعمالها دون مسوغ حتى فقدت طرافتها . لقد شهدت ما يزيد على أربعة أفلام فى أسبوع واحد عرضت حوادثها على هذا النمط ، وهى «لن يصدقونى» و « انهيار » و « قضية أسرة ما كومبر » و « هيوموسك » فجميع هذه الأفلام تبدأ من نهايتها لا لشئ إلا للمحاكاة التى لا مسوغ لها . ففى الفيلم الأول « لن يصدقونى » يبدأ الشريط فى المحكمة حيث يقص المتهم قصته ، والثانى يبدأ فى مستشفى حيث نرى سيدة قد اختفى وجهها تحت الأربطة البيضاء وهى تعانى آلاما مبرحة من حروقها . ثم يستعرض لنا الشريط قصة هذه المرأة حتى وقوع الحادث . أما الثالث وهو « قضية أسرة ما كومبر » فنرى فى أوله وصول جثة ما كومبر بالطائرة ، ثم نعلم كيف قتل هذا السيد من اعترافات الصياد ولسون أثناء التحقيق . وهذا الفيلم قد وضع قصته الكاتب الأمريكى إرنست همنجواى وأخرجه بيندكت بوجوس . والقصة تافهة ، والاخراج مهمل كل الاهمال حتى لجأ المخرج إلى مناظر فيلم قديم عنوانه « التاجر هورن » ليصور مناظر الصيد وعدو الوحوش فى غابات كينيا . ومن يشهد الفيلم يشعر شعوراً قويا بأن المثلين لم يواجهوا وحشا ولم يذهبوا إلى غابات إفريقية . هذا عدا الضوء الردئ الذى جعل الصورة بيضاء غير واضحة المعالم أحيانا . أربعة أفلام أخرجت على نمط واحد وعرضت فى وقت واحد . أليس هذا دليلا كافيا على ما تعانيه الأفلام الأمريكية من أزمة لا نرى معالمها فى الاخراج فحسب وإنما نراها أيضا فيما تنشئ أمريكا من قصص ؟ لقد شهدنا فى هذا الشهر فيلمين ما هما إلا اعادة لفيلمين

سابقين لقيا فيما مضى بقصتيهما أو بجوهما نجاحاً كبيراً . نجد فى قصة « انهيار » تكرارا لفيلم « عطلة الأسبوع المفقودة » . « فانهيار » ما هو إلا قصة امرأة امتحنت بداء الخمر بعد أن أهملها زوجها ليتفرغ لفنه . و « عطلة الأسبوع المفقودة » الذى ظفر بجائزة فى مهرجان كان ما هو أيضا إلا قصة شاب امتحن بالداء نفسه . أما الفيلم الثانى فهو فيلم « دراجون ويك » الذى يعد من القصص السوداء ويذكر بجوه القاتم فيلم « ربيكا » الذى أخرج منذ أكثر من أربع سنوات . وقد يذكرنا أيضاً هذا الفيلم « بجين إير » للتشابه الذى يوجد بين بطلى القصتين . فثمة تكرار فى القصة وفى جوها وفى رسم شخصياتها . فكأن مخرجى هوليوود وكتابها لم يستطيعوا إلا أن يحتذوا نماذج وضعت لهم خصيصا ليحاكوها تمام المحاكاة ، غير معنيين بأن يجددوا فى تأليفهم وإخراجهم . وهذا لا يعنى أن فيلم « دراجون ويك » لم يصب نجاحا كبيرا ، أو أنه أخفق إخفاقا شنيعا لانك تلمس فيه شيئا من الجهد وإن لم يصل إلى حد العنف . فقد لجأ المخرج إلى طريقة طريفة ليعبر عن اللعنة التى تعذب هذه الأسرة . لقد رمز إلى هذه اللعنة بشبح امرأة يعود إلى القصر حين توشك الكارثة أن تقع ويأخذ فى الغناء ، ولكن لا يسمعه ولا يراه أحد غير أفراد الأسرة الملعونة . وقد تجد أيضا فى الفيلم بعض صور تذكرك باللوحات الفنية الهولندية .

وما دمنا نتحدث عن الاسراف فى عالم السينما الأمريكية فلنتحدث عن الأفلام الملونة . هذا نوع من الأفلام أسرف فى استعماله ، وأسئ إليه فى كثير من الأحيان مع أنه جدير بالعناية ؛ لأنه يساعد المصور على تحقيق صور فنية جميلة تنسجم فيها الألوان ؛ ولأنه يساعد المخرج أيضاً على أن يسبغ على فيلمه طابعا واقعيا . ولكن للآن لم ينجح هذا النوع من الأفلام إلا فى الملهاة الراقصة فحسب إذ تزيد الألوان الصورة بهجة وروعة . أما فى الأفلام الأخرى ، وخاصة فى الأفلام السوداء ، فلم تنجح الألوان فى إعطاء طابع واقعى للشريط . فالسماء تبدو أكثر زرقة من الواقع ، والوجوه تظهر أكثر احمراراً من الحقيقة . وهناك عنصر آخر ضرورى للأفلام السوداء أو القصص العنيفة وهو الضوء القاتم . وهذا الضوء لا يمكن إظهاره فى الصورة الملونة ، مع أنه يبدو جليا فى الصورة البيضاء أو السوداء التى تفوق الصورة الملونة فى أنها تسمح لخيال الشاهد أن يسبغ على الأشياء الألوان التى تروق له ، وأغلب الظن أنه أكثر قدرة على إيجاد اللون الطبيعى الملائم . ولننظر إلى الفيلمين الملونين « السماء الزرقاء » و« غضب الصحراء » . فالأول منهما فيلم غنائى راقص ، والثانى فيلم مغامرات وحب . ولست أرمى هنا إلى دراسة الألوان فحسب أو قيمة الصورة الملونة ، وإنما أريد أن أعرف إلى أى حد يلائم هذا النوع من الأفلام كلا القصتين . « فالسماء الزرقاء » فيلم مرح ملىء بالأغانى والاستعراضات الراقصة ، والموسيقى الشجية المطربة . فالألوان هنا ساعدت على إبراز رونق هذه الاستعراضات ، وساهمت فى إنشاء جو مرح طول الشريط . كانت الألوان هنا إذن عنصرا مهما فى إخراج القصة . أما فى الفيلم الآخر « غضب الصحراء » فلن نجد للألوان مسوغا إلا نزوة المخرج . فهذا فيلم غرامى تافه القصة يطمح إلى أن يكون مأساة عنيفة ، ولكن لا يجد سبيله إلى أن يكون مأساة عنيفة ، لما أدخل عليه المخرج

والقاص من مشاهد وتفاصيل لا يجرؤ على إضافتها إلا الأمريكيون . لقد أراد المخرج أن يجعل الشاهد فى لهفة على بطلة الرواية التى تحب رجلا شريراً ، فأسرف فى المشاهد الخطيرة ، والمعارك العنيفة ، والعدو فى طرق الصحراء الموحشة ، إلى غير ذلك . ولو كان هناك مناظر طبيعية تستدعى استعمال الألوان لاظهار حسنها لوجدنا مسوغا للصورة الملونة . ولكن لا القصة ولا المناظر تسوغ استعمالها : فربما كان المخرج يرمى إلى إظهار لون شعر ليزابيت سكوت ممثلة الفيلم !

فالسينما الأمريكية إذن تعانى أزمة شديدة رغم هذا الانتاج الضخم الذى تغمر به أسواق العالم . وهى إزاء هذه الأزمة التى تزداد وضوحا إذا نظرنا إلى المحاولات الناجحة التى يقوم بها المخرجون الأوربيون عامة والفرنسيون والانجليز والايطاليون خاصة لا تفعل شيئاً . لقد شهدنا ما قام به كوكتو ورينيه كلير فى السينما الفرنسية وأعجبنا بآثارهما . وسنشهد ما قام به الايطاليون عما قريب فى أفلامهم : مثل « روما مدينة مفتوحة » و « بايزا » و « شوشا » . فالانتاج الأوربى حالا يهدد الانتاج الأمريكى ، لاسيما أن السينما الأمريكية لا تجد من يجدد فى أساليبها ويزودها بالقصة الصالحة الحسنة . نعم إن هنالك أورسون ولز وروبرت مونتجمرى وسام وود . ولكن أيكفى ابتكار هؤلاء لاحياء السينما فى أمريكا؟ لم نر منذ أمد بعيد أفلاما فيها شئ من التجديد والابتكار . ففرانك كابرا دائب على اتباع أسلوبه فى الاخراج ، وسيسيل دى ميل دائب أيضا على تحقيق أفلامه حسب منهجه المألوف . والآخرون مثل نيجولوسكو وسيلزنيك ويوجوس ، هؤلاء الأشخاص الذين تملأ أسماؤهم دنيا السينما دويا لا يسعهم إلا محاكاة أساليب ويلز ؛ وإن أتوا بأسلوب مبتكر فسرعان ما يسرفون فى استعماله حتى يمله الشاهد . فهؤلاء المخرجون يعتبرون أسرى لأساليب موضوعة ولقوانين بالية لا يستطيعون مخالفتها . لابد لهم من الاستوديو ولا بد لهم من التزييف ليعرضوا علينا الواقع . ألا يمكنهم أن يتركوا معامل التزييف ليصوروا مناظرهم ؟ فلماذا لا يصورون شخصيات قصصهم فى شوارع المدن أو بين أحضان الطبيعة كما يفعل الايطاليون حين وجدوا أن معدات استوديوهاتهم لا تصلح لتصوير الحقيقة : فالجماهير فى الأفلام الايطالية جماهير صورت فى مدن إيطالية لا حشد من الكومبارس ، والشوارع فى الأفلام الايطالية شوارع حقيقية لم تشيد من الورق المقوى فى فناء الاستوديو . والسينما فى إيطاليا تمتاز بهذا الطابع الواقعى الذى تخلو منه الأفلام الأمريكية المزيفة .

وإذا كانت الأفلام الفرنسية لا تجد معدات تساعدها دائما على الاخراج المتقن فانك تجد فيها ما ينسيك هذا الضعف . فالقصة فى كثير من الأحيان حسنة قوية ، والحوار أدبى رفيع ، والصورة جميلة متقنة ، والتمثيل يدل على فن سام . ففى فيلم « الفتاة ذات العينين الخضراوين » سحرنا فرناند لودو بتمثيله المتقن وبقدرته على التعبير الصحيح . ولننظر إلى فيلم « صورة مطابقة » الذى مثله لويس جوفيه . إن قصة الفيلم تافهة لا قيمة لها ، ولكنها تتيح للممثل أن يظهر فنه فى أدوار عدة ، إن صح أن نعتبر أدوار الشخصيات التى انتحلها بطل القصة . فهذا لص مغامر وجد له شبيها فاتخذه ليتستر وراءه أثناء مغامراته ، وكان هذا الشبيه صورة مطابقة للص . وقد قام لويس جوفيه بتمثيل الشخصيتين : والشاهد

لايلمس عبقرية جوفيه فى التمثيل إلا فى دور الشبيه لأنه بدا فى دور اللص كما اعتدنا أن نراه دائما ، لم يغير شيئا من تعبيراته ولا من نبرات صوته . أما فى الدور الثانى فقد غير كل شىء : اختلف التعبير كل الاختلاف ، وتبدل صوته تمام التبدل ، وحنى قامته ، وتعثر فى مشيته . ولم يكن الفيلم إلا ليظهر لنا جوفيه ممثلا قديراً . فأنت تلمس فى الأفلام الفرنسية محاولات تكون ناجحة حينا ، أو تكون بين النجاح والاخفاق حينا آخر ، ولكن على كل حال تلمس طموح الفرنسيين إلى الوصول إلى الفن الصحيح . وستتيح لنا الفرصة أن نرى ما أنتجته فرنسا من أفلام قيمة مثل «الصمت من ذهب» و «معركة القضبان» و «السنفونية الريفية» . لما نر تلك الأفلام ولكن ما قاله عنها النقاد ومن شهدوها فى فرنسا ينبئنا أنها إنتاج فنى رائع .

وخلاصة القول أن السينما الأوربية قد تقدمت بعد الحرب تقدما أقلق الامريكيين وإن كان لم يدفعهم إلى تحسين إنتاجهم ؛ بل دفعهم إلى زيادة عدد الأفلام التى ينتجها الأستوديو ليغمروا السوق ويحولوا دون تصدير الأفلام الأوربية . وهم حين يعملون لهذا الانتاج لا يهتمون بقيمة ما ينتجون ، وإنما يعنون بعدده . وقد توصلوا إلى عقد معاهدات تمنع بعض الدول من تصدير أفلامها إلا بعد سنة أو سنتين من إنتاجها . وهذه الاجراءات وإن كانت تسمح لامريكا أن تواصل صناعة الأفلام ، فهى لا تحل الأزمة التى تزداد فى هذه الصناعة . إنه من المؤلم أن نرى هذا الفن يسقط تلك السقطة فى أمريكا ولا يحاول أحد أن يرفعه . وأكبر الظن أن أوربا قد تلقت هذا الفن وأنها قد أحيته تماما . لقد انتقل فن السينما من أمريكا إلى أوربا نهائيا .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

RENOUVEAU DE LA LITTÉRATURE COMPARÉE

ETIEMBLE

نهضة الأدب المقارن*

حين انتوى مونتانى Montaigne أن يرحل إلى إيطاليا ، لم يكن عليه إلا أن يعد كيسا مليئا ، وحصانا وخادما . أما عن جواز السفر فلا تسل . وقبل حرب ١٩١٤ كان يستطيع من يريد رؤية الدنيا أن يراها دون عائق يعوق حريته اللهم إلا ما كانت تفرض عليه تركيا وروسيا من قيود . أما فى عام ١٩٣٦ ، فإ أكثر الأختام والمرور بالجمارك التى تفرض على من يريد السفر من باريس إلى هولندا . وعندما كنت أقيم بشيكاجو عام ١٩٤٠ ، أردت أن أمضى بضع أسابيع فى المكسيك ، فكان على أن أعد فى حقائبى حقيبة خاصة للوثائق اللازمة لتلك الحملة . ولقد وجد المتصنعون snobs فى هذا فائدة لهم ومسرة : فهم يعددون تراخيص السفر إلى البلاد الأجنبية كما لو كانوا يحصون أجدادهم من الأشراف ، ويصطنعون الكثير من ذلك العبث الذى كان يدفعهم إلى جمع بطاقات الفنادق . أما الآخرون، أولئك الذين يريدون أن يحيوا حياة الرجال ، حياة بسيطة ومليئة أيضا ، فما برحوا يسائلون أنفسهم لم تكون الصلات اليوم من وطن إلى آخر أكثر صعوبة مما كانت فى زمن الحريات .

ولا يصح الادعاء بأن كثرة تلك التراخيص والأوراق قد منع اللصوص الدوليين ، أو الجواسيس الأعداء من تأديتهم مهمتهم فى سلام . فان أى رجل من رجال الشرطة ، وأى عضو من أعضاء الأحزاب الثورية يعرف كيف يصنع أوراقا مزيفة . وقد أثبت التاريخ الحديث لجماعات مقاومة الاضطهاد النازى ، أن رجالا أقوياء قد استطاعوا أن يجوسوا خلال أوربا ساخرين من رجال الجستابو . ولم يكن عبثا تقسيم الأرض وتفريقها بهذه الصرامة وخاصة فى عهد الاستبداد . فما كان تقطير الأجانب إلا لوقف الآراء التى سرعان ما تنتشر بانتشار الكلمات السيارة mots-voyageurs (ولنذكر تاريخ الكلمة الصينية تشا tch'a التى صارت فى الروسية تشاى tchai وفى العربية شاى ، وفى الفرنسية ، تيه thé الخ) . فالحواجز الجمركية تستخدم إذن فى وقف الكتب والمجلات والأفكار . وقد ساعد تشويش الأمواج اللاسلكية (أو منع استخدام أجهزة الراديو التى تستطيع التقاط المحطات الضعيفة والبعيدة) على جعل حدود الدول أسوار سجن بدلا من أن توحد بين الشعوب .

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

فليست مصادفة إذن أن تختفى فى سنة ١٩٤٠ مجلة الأدب القارن .Revue de Litt *comparée* التى أنشئت عام ١٩٢٠ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى لتؤكد حاجات العقل وضرورات الاتحاد الثقافى ضد ما كان يسود الناس من بغض . «فما هو الأدب القارن إذا لم يكن دراسة التبادل الحر ؟ فلو قد ظهرت هذه المجلة أثناء الاحتلال ، لقضت على نفسها بأن تقطع أوصالها ، وألا تفحص من المؤثرات إلا ما يسير فى اتجاه واحد ، وألا تدرس من الآراء إلا ذات الاتجاه الواحد . ولو قد فعلت ذلك لفرضت على نفسها أن تصمت عما يحدث فى انجلترا وفى أمريكا. كلا ! لم يكن هناك مكان لهذا النوع من الدراسة ، لا مكان لدراستنا فيما دعى « النظام الجديد » ، لا مكان لها فى نظام من الأوتوقراطية الفكرية حيث كان المرء يلقى فى كل طرق المدينة اللافتة « ممنوع » Verboten التى تحدد ما يسمح للمرء برؤيته . وما أكثر ما كرر المعهد الألمانى بباريس دعواته لى ، ولكن عبثا ! كانت ترسل لى باستمرار فى السوربون الكراسات الفرنسية الألمانية *Cahiers Franco allemands* ، والكتيبات التى كانت تصدرها جماعة التعاون Collaboration وعديد من المطبوعات الأخرى الآتية رأسا من برلين . لقد صمتنا» (١) وليست مصادفة أيضا أن يكون مارسيل باتايون ، وجان مارى كاريه J. M. Carré — وهما المديران الحاليان للمجلة واللذان أبانا عن حبهما للدراسات البشرية الأجنبية humanismes étrangers أحدهما بكتاباته عن جوته Goethe والآخر ببحوثه عن أرزمس Erasme فى أسبانيا — أثناء فترة احتجاب المعرفة ، فى قمة النضال الجامعى .

أسفاً ! إن أول كراسة من المجلة هى رثاء لبول هازارد P. Hazard (الذى مات قبل أن يرى عودة المجلة التى أسسها وأدارها طيلة عشرين عاما . مات قبل أن يقرأ التجارب الأخيرة لكتابه : « الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر » *La pensée européenne au XVIIIe Siècle*) وتقرأ فيها آخر دراسة أعدها هذا الأستاذ العالم ، وهى مقدمة لكتاب إرزمس « ثناء على الجنون » *Eloge de la folie* وفيها يتضح روح النقد . وإنه لأمر « رائع ومنقذ » فى نفس الوقت أن تظهر روح النقد فى ساعات التاريخ التى تكون فيها الآراء التقليدية قد استنفدت أغراضها .. وإنه لمن الخير أن تعود مجلة الأدب القارن إلى الحياة لتحيا فى إرزمس « هادم الآراء الزائفة » ، ذلك لأننا اليوم فى حاجة إلى اثنين أو ثلاثة من طراز إرزمس .

وقد ظهرت أربع من تلك الكراسات : ديدرو وهولانده ، برانجيه فى ألمانيا Béranger en Allemagne ؛ جوته وفاليرى Goethe et Valry ؛ كاموئس فى ألمانيا Camoëns en Allemagne ؛ بوكاس والقصة الفرنسية فى عهد النهضة ؛ ريلكه وفان جوج Rilke et Van Gogh ؛ رسكين وبروست Ruskin et Proust ؛ فنكلمان وأندريه شنييه Winckelman et Chénier كوستيس بالاماس وأوروبا Costis Palamas et l'Europe ؛ مونتانى عند أصدقائه الأنجلوسكسون Montaigne chez ses amis anglo-saxons ؛ جوته والأدب فى العالم Goethe und die

---

(١) هذا ما كتبه كاريه J. M. Carré فى مقدمته للعدد الأول من المجموعة الجديدة .

Weltliteratur ؛ مانزونى فى فرنسا Manzoni en France ؛ بنوا بيكار أنموذج شيلر ؛ بوشكين المدافع عن مدام دى ستال . وماذا عن الشرق ؟ هناك كتاب للانسة دفرنوا Dufrénoy عن الشرق الأسطورى فى فرنسا (وهناك جزء آخر فى طور الاعداد وسيشمل المراجع الخاصة une bibliographie) ؛ وهناك كتاب عن بارس والشرق *Barrès et l'Orient* ؛ وهناك كتاب عن « السعدى فى فرنسا » *Saadi en France* للكاتب بنشنب Bencheneb (١) .

رسكن وبروست ، جوته وفالرى ، السعدى وفرنسا . كل شئ يتوقف على هذا الحرف : « و » ؛ حرف العطف المتواضع هذا ، لا يصل بين كلمتين من الجملة ، ولا بين فعلين ولا بين جملتين ، وإنما بين رجلين ، بين عملين ، بين نوعين ، بين بلدين ، بين عالمين .

كثيراً ما أخذت على الأدب المقارن تحفظات حقة : من المؤكد أن هذه الدراسة لا تلغى المتعة الأدبية وأنها لا يمكن (ولا هى تدعى ذلك) أن تقوم مقام الدراسة التحليلية للأعمال الأدبية . واليوم ، وقد أخذت الخلافات الوطنية يساء استخدامها فتصبح قطيعة أدبية ، نخطىء إذا قللنا من قيمة الدراسات فى الأدب المقارن ومن المثل الذى تضربه . فهذه الدراسات تدلنا على أن الصلات بين فرنسا وبين الثقافة العربية لم تكن قط أكثر منها يوم كان الاسلام والمسيحية يتصارعان على السيادة فى البحر المتوسط ، وأن الصراع بين فرنسا والأسرة المالكة النمساوية لم تمنع كتابنا الكلاسيين من حبهم للأدب الأسبانى ، وأن الجزو يت

---

(١) يدهشنى ألا يحصى حتى الآن من بين تلك المؤلفات ، كتاب بريفو Briffault عن « التروبادور والمشاعر الأسطورية » . فهل سننتظر حتى تطبع فى كتاب الرسالة التى قدمها حديثاً الدكتور محمد عبد الحميد عنبر إلى السوربون وعنوانها : « مشكلة التأثير العربى فى شعراء التروبادور الأول» *Le problème de l'influence arabe sur les premiers troubadours* . وكلمات الأستاذ عنبر الأخيرة ، تؤيد ما قاله ج . م . كاريه Jean Marie Carré فهى تدمغ التعصب الشائع فى أعمال الأدب المقارن . وبهذه المناسبة أقول إن رسالة الأستاذ عنبر تدعونى إلى أن أعدل عبارة من المقال الذى سبق أن نشرته هنا عن بريفو Briffault : (فيما عدا الحب الجسدى ، كشف العرب لشعراء التروبادور بعض قواعد الحب الفاضل) . وهى تؤيد نظرية بريفو فى كتابه : «التروبادور والمشاعر الأسطورية » . ويقول الأستاذ عنبر إنه من العدل أن نقول إن أسبانيا المسلمة فى القرن الحادى عشر كانت السبب فى انبثاق كل هذه الأغنيات فى بروفانس Provence .

نشر حديثا مقالان فى عدد خاص لمجلة « الكاييه دو سود » *Les Caliers du Sud* عن الاسلام والغرب يثبتان تأثير الشعراء الأندلسيين فى نشأة الشعر فى البروفانس . إن الفكرة صحيحة إذن . ولكن ، لكى لا نغالى فى التأكيد كما فعل مسيو جانروا الذى كان ينكر أى تأثير عربى ، يستحسن أن نذكر أن اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى كانت تستبدل القافية بالوزن المعتاد خاصة فى التراتيل الدينية وأن التروبادور قد استمدوا ميلهم المتجدد لنظام القافية من مصادر عدة .

الذين رحلوا لغزو الصين فى القرن السابع عشر قد كشفوا لأوربا عن حكمة كونفشيوس — رغم إخفاقهم فى حملتهم الدينية — وقد أتاحوا لفولتير موضوع كتابه : « يتيم الصين » *Orphelin de la Chine* . وهذه الدراسات تعلمنا أيضاً أن كل أدب يفرض على نفسه حدوداً وطنية إنما يشوه ويفنى ، وأنه كلما فتحت الحدود العقلية كان نتاج ثقافة ما أعذب وأكثر أصالة . إن ما وهبه مونتانى لشكسبير (١) قد أعاده شكسبير بعد قليل إلى فرنسا . الحقيقة كما كان يقول الحكيم لاو تسى Lao-tseu ، هى حركة ذهاب وحركة إياب . والأدب القارن يؤيد صحة ذلك .

وإذ كانت دار النشر Guillaume Budé تعد مجموعة من الأدب العربى بنصوصه الأصلية وترجمته الفرنسية ، فى حين تقوم دار الكاتب المصرى والآداب الفرنسية Lettres Françaises بنقل آثار بعض الكتاب الذين يمثلون فرنسا الحديثة (٢) أعظم تمثيل ، فلنرج ولنعمل لأن تكون عودة هذه الصلات دائمة ونهائية . ولا خوف من مضار المؤثرات . لنذكر قول بول فاليرى : «صنع الأسد من خروف مهضوم » .

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

---

(١) بترجمة فلوريو Florio .

(٢) ظهر فى العربية ترجمة : برجسون *Essai sur les données immédiates* ، «سلامبو» لفلوبرت Flaubert, *Salammbo* وذلك فى طبعة : (الآداب الفرنسية ، بيروت) . وظهر أيضاً « الباب الضيق » ، « أوديب — ثيسيوس » لجيد فى طبعة الكاتب المصرى (القاهرة) . . . وقد أعلنت طبعة Budé عن نصوص عربية وترجمة فرنسية لشعر عربى من الجاهلية ، وعدة مختارات أخرى (شعر أندلسى ، شعر أموى ، شعر معاصر) . وأعلنت أيضاً عن طبع المتنبى ، وابن سينا ، وابن خلدون ، والغزالى ، الخ .

من وراء البحار

أزمة الدولار

تكلم عدد نوفمبر من مجلة «العالم اليوم» بين مقالاته عن أزمة الدولار وبعض تأثيراتها. فقال كاتب المقال إن بعض الاقتصاديين ينكرون عبارة أزمة الدولار أو نقص الدولار؛ ومن بينهم مستر روى هارود الذى أنكرها بتاتاً، وقد يكون فى ذلك شئ من الحقيقة. وهو يرى أن العجز فى الميزان الحسابى لبريطانيا إنما هو نتيجة لاتساع برنامج السكن والبناء، وأنه لو أنفقت جهود الرجال والمواد التى وجهت هذه الوجهة فى إنتاج الحاجيات للتصدير أو بدلا مما يستورد، لصغر كثيراً مقدار العجز الذى عانته بريطانيا، وأنه يمكن إعادة التوازن سريعاً إذا نقصت بريطانيا من نفقاتها فى هذا الميدان.

وإذا كان فى هذا الرأى شئ من الحقيقة، فانه ليس الحقيقة كلها؛ لأنه لا يقدر بعض العناصر فى الحالة العالمية الآن إلا فيما يتعلق بالاتجاه العام نحو التضخم. ولم يعمل فى هذا الرأى حساب عدم التوازن الاقتصادى بين الجزء الغربى والشرقى من الكرة الأرضية، بل عدم التوازن بين ممالك مثل كندا والولايات المتحدة وهما واقعتان فى جزء واحد من الكرة الأرضية. ولم يحسب فى هذا الرأى حساب سوء حالة المحصول بأوروبا الغربية فى هذه السنة، وهو يكاد يكون كارثة.

وعبارة النقص فى الدولارات تعبر عن حقيقة واقعة، هى أن العالم بأسره أخذ يتوسع فى برنامجه الانشائى وتضخمت أمواله، لكى يستطيع بناء الدور والطرقات والجسور والمصانع وحفر مناجم جديدة وشراء آلات صناعية وآلات المناجم. وهو يعبر كذلك عن واقعة أخرى هى أن الولايات المتحدة، وإن أصابها شئ من التضخم، يدل عليه الارتفاع المستمر فى مستوى الأسعار، قادرة على عمل أمرين فى وقت واحد: أولهما الاتساع فى برنامجها الانشائى، والآخر تقديم كميات ضخمة للعالم من الأطعمة والمواد الاستهلاكية والآلات إما هبة أو قرضاً.

ويختلف رأى الناس فى تفسير هذا التناقض الغريب بين حالة الولايات المتحدة وأحوال جميع البلدان الأخرى فى العالم تقريباً. ومما لا ريب فيه أن ثراء أمريكا فى المواد الخام ونجاتها من أضرار الحرب وحرية تجارتها الدولية ونشاط شعبها ومهارته فى الأمور الصناعية والزراعية، كل ذلك مما يفسر هذا الأمر. ولكن أليس من الممكن أن تكون السياسة التى جرت عليها أمريكا، وهى أنها تخلت فى الحال عن التنظيمات الحربية والرقابات الاقتصادية التى دعت إليها الحرب والتى كانت مطبقة فيها بشدة أكثر مما هى فى أى بلد آخر من العالم — أليس من الممكن أن يكون ذلك مما جعل لها التسلط الحالى الاقتصادى؟

كل ما تهم معرفته هو أن قوة الولايات المتحدة فيما قبل الحرب لم تمنع سائر العالم من إيجاد التوازن بينها وبينه. ولذلك لم يكن من المعقول أن يستمر العالم متأثراً بالنقص فى الدولار؛ إذ ليس فى أحواله الطبيعية والسياسية ما يؤيد مثل هذا الفرض. فالموقف الحالى هو نتيجة أسباب بسيطة غير مستمرة. وأهم هذه الأسباب هو ما أصاب

أوربا من خراب ونهك على أثر الحرب . ومما زاد الحالة سوءا أن بذلت مجهودات فى بريطانيا وغيرها من بلاد أوربا لمعالجة الأمور بسرعة أكثر مما يجب ، والقيام بمشروعات فى البناء وفى التطور الصناعى أكثر مما تتحمله موارد تلك البلاد ، وهذا يتطلب من الحرمان أكثر مما يقره أهلها . ومن الأسباب الاضافية الهامة وقوع أضرار فى الجنوب الشرقى من آسيا وحدوث انفصال سياسى على أثر الحرب فى الأراضى الاستعمارية فى تلك الأنحاء . ولقد كانت الولايات المتحدة من قبل تستورد مقادير كبيرة من الصفيح والمطاط ومنتجات تلك المناطق . وكانت هذه الواردات سلسلة حيوية فى التوازن التجارى بين بريطانيا وأوربا من جهة والولايات المتحدة من جهة أخرى . فاذا لم تعد إلى تلك الجهات قوة التصدير ولم تجد إقبالا من الولايات المتحدة على صادراتها ، فيكون من الصعب جدا على أوربا أن تستأنف العلاقات التجارية على قاعدة طبيعية مع الولايات المتحدة ومع كندا أيضاً .

والآن لنتجه بالبحث نحو تأثير أزمة الدولار التى أدت إلى إعلان الحكومة البريطانية فى ٢٠ أغسطس الماضى ، وقف حق تحويل الجنيه الاسترلينى إلى دولار ، وهو الحق الذى كانت ترتبط به بريطانيا مع عدد من الدول الأخرى . وكانت بريطانيا مقيدة به بموجب القرض الأمريكى الانجليزى الذى عقد فى سنة ١٩٤٦ .

لقد كان الغرض من هذا القرض عند المفاوضين فيه أنه يمكن بريطانيا من بلوغ التوازن فى ميزانها الحسابى فى ثلاث سنوات ، فاذا جاءت سنتا ١٩٤٩ و ١٩٥٠ تمكنت بريطانيا من الوصول إلى هذا التوازن ، وتبتدئ من سنة ١٩٥١ فى الوفاء بالقرض وفوائده . وقد اختيرت بريطانيا لهذا النوع من المساعدة لأنه كان من المتوقع أن توجه إدارة التعمير والانشاء عنايتها دول أوربا . ولكن نص فى شروط هذا القرض على أن تقوم بريطانيا بعد ١٥ يوليه سنة ١٩٤٧ بتحويل جميع الجنيهات الاسترلينية التى نشأت عن معاملات جارية إلى دولارات إذا رغبت البلاد المتعاملة فى ذلك . وكانت الفكرة عند الأمريكيين لا أن تشرك بريطانيا البلاد الأخرى فى قرض الدولار بل ألا تتأثر الصادرات الأمريكية بقلة الدولارات بسبب عدم إمكان تحويل الجنيه الاسترلينى . وكان القصد من النص الوصول من أقرب طريق إلى حرية المعاملة والتجارة العالمية المتشعبة . وظهر من سير الأمور أن الخطوة كانت سابقة لأوانها ، وأن بريطانيا قد أشركت فى الواقع سائر العالم فى الدولارات التى جاءتها عن طريق القرض وكانت مخصصة لها وحدها .

والواقع أن بريطانيا اضطرت فى عدة اتفاقات مع بعض البلاد أن ترضى بتحويل الجنيهات الاسترلينية إلى دولارات قبل ١٥ يوليه ، وهذه البلاد هى الأرجنتين والبلجيك والبرازيل وكندا وإيطاليا والبرتغال . والطريقة التى اتبعت فى ذلك هى أن بنك انجلترا قد فتح لكل دولة من هذه الدول حساباً تحويليا يمكن استعماله بناء على شروط القرض . وقد اضطرت انجلترا إلى هذا الاجراء لأن هذه البلاد تقدم مواد ضرورية وكان الميزان التجارى مع انجلترا فى صالحها . ولو أن بريطانيا لم تفعل هذا لما رضيت الدول أن تستمر فى إمدادها بهذه المواد . وقد كان من تأثير تحديد ١٥ يوليه أن صار الناس أقل ثقة بالاسترلينى كلما رأوا أن دولارات القرض تقل بسرعة

دون أن تبذل الحكومة البريطانية مجهودات فعالة للقضاء على تيار الاستيراد .

ومهما يقل من الآراء فيما يتعلق بالاسراف فى استعمال القرض ، فانه كان من المحتم أن يستهلك هذا القرض فى مدة وجيزة ؛ إذ أنه حدث ارتفاع كبير فى مستوى الأسعار بالولايات المتحدة منذ يوليه سنة١٩٤٦ . كما أن بريطانيا أخفقت فى إنتاج المقدار الكافى من الوقود فى فبراير سنة ١٩٤٧ ولذلك لم يكن القرض كبيراً بحيث يؤدى الغرض المقصود منه .

ومما يؤسف له أشد الأسف أن تكون لأزمة الدولار الحاضرة نتيجتان سيئتان : أولاهما أنه إذا لم تقدم مساعدة سريعة لأوربا فان جزءا كبيراً منها سيكون على حافة المجاعة قبل ظهور المحصول القادم وسيصحب ذلك الانقلاب السياسى والفوضى . فأزمة الدولار من هذه الوجهة هى أزمة رداءة المحصول فى أوربا .

والنتيجة الأخرى هى أن هذه الأزمة تهدد بانكماش شديد فى التجارة بين الدول الأوربية فى وقت تكون فيه هذه الدول فى أشد الحاجة إلى المعونة فيما بينها . فمعنى عدم إمكان تحويل الجنيه الاسترلينى إلى دولار وانتهاء الاحتياطى من الدولار فى أوربا أنه لا توجد عملة دولية تقبلها جميع الدول وتتعامل بها . فليس هنالك دولة ترغب الآن فى الجنيه الاسترلينى أو غيره من أنواع العملة ما عدا الدولار غير الموجود. ولذلك فان العالم يسير نحو تبادل تجارى ثنائى أى تحاول كل دولة يكون ميزانها الحسابى فى غير صالحها مع دولة أخرى أن تقلل من وارداتها من تلك الدولة . وهذا مما يهدد العالم بانخفاض التجارة بين أرجائه بسبب عدم وجود عملة موثوق بها .

ومما لا شك فيه أن لجنة التعاون الاقتصادى الأوربى متنبهة إلى هذا الخطأ ويلح خبراؤها بضرورة القضاء على التضخم وإيجاد التوازن فى كل من الدول المشتركة فى اللجنة ؛ ثم إيجاد نظام لتحويل العملات الأوربية بين هذه الدول . ويرى هؤلاء الخبراء أن مثل هذا النظام هو خطوة ضرورية لايجاد سياسة تجارية تكون أكثر حرية فى أوربا .

ويرى الخبراء الماليون أن هذا النظام يكون عبارة عن بناء يعلو الاتفاقات الثنائية التى تعقدها الدول فيما بينها ؛ فتستطيع الدولة الدائنة أن تحول الزيادة لديها من عملة الدولة المدينة إلى أية عملة أخرى حسب حاجات تجارتها . وفى نهاية الأمر يمكن تحويل هذه العملات إلى ذهب أو دولارات بشرط أن يحصر استعمال الذهب أو الدولارات فى أضيق نطاق .

واقترحت اللجنة المالية أن يعقد مؤتمر من خبراء فنيين لوضع تفصيلات هذا النظام . وقد عقد المؤتمر فعلا ، ولكنه لم يصل إلى نتيجة حاسمة. وهذا ليس غريباً؛ فان وضع مثل هذا النظام فى أوربا يتطلب أمرين : أولا إيجاد سلطة جديدة أو بعبارة أخرى إيجاد مصرف مبادلات ليقرر طريقة التحويل والمعاملات . وثانياً ضمان الولايات المتحدة لتقديم دولارات بدلا من أية مقادير من العملة لا ترغب الدول المشتركة فى مصرف التبادل الأوربى فى قبولها .

ومن الواضح أن الأمر الثانى يتوقف على السياسة الأمريكية ، كما أنه يجب على الدول الأوربية أن تعمل لوقف التضخم والوصول إلى التوازن فى حزم . ومع ذلك فالثقة فى الأمور المالية تتطلب وقتاً. وإيجاد السلطة التى تتولى أمور المصرف التبادلى يحتاج إلى زعامة، وقد يكون من الطبيعى أن تتولى بريطانيا

هذه الزعامة بالنسبة لتجارتها وشهرتها فى أمور التجارة الدولية ، وأن يكون الاسترلينى هو واسطة الحساب فى المصرف التبادلى ، بشرط أن يكون قابلا للتحويل إلى دولارات أو ذهب .

على أن الماليين البريطانيين يترددون فى قبول مثل هذه المسئولية وقد يكون الوقت غير ملائم الآن لقبولهم مثل هذا العمل . ولكن مما يرجوه كاتب المقال ، إذا وجد مشروع عملى ليس فيه التواء ، ألا تتردد بريطانيا فى الاشتراك فيه ، وأنه من صالحها كما أنه من صالح كل دولة فى العالم أن تكون لها تجارة دولية حرة نشيطة ، بل ذلك شرط أساسى لوجودها الوطنى .

ظهر حديثا

بين يدى الآن كتب أربعة تختلف موضوعاتها ومادتها وأغراض أصحابها أشد الاختلاف ، ولكنها على ذلك أو من أجل ذلك تصور حياتنا العقلية أصدق تصوير ، وهي إلى ذلك تسر وترضي وترد إلى نفوسنا القلقة بعض الطمأنينة ، وإلى قلوبنا النازعة إلى اليأس فى هذه الأيام شيئا من الاستمساك بالأمل، وإلى عقولنا المائلة إلى التشاؤم شيئا من الميل إلى التفاؤل والاستبشار ؛ لأن هذه الكتب كلها تعطينا من حياتنا العقلية صورة ملائمة إلى حد ما للحياة العقلية التى نشهدها فى كثير من الأمم الراقية .

فالحياة العقلية فى هذه الأمم تأتلف من عناصر ثلاثة : أولها عنصر الرجوع إلى القديم لاحياء ما يصلح للحياة منه وصوغه فى الصيغة المعاصرة التى تلائم ما طرأ على القلوب والعقول من تغير ، وتلائم الظروف الجديدة التى تخالف تلك الظروف التى أحاطت بالقديم حين أنتجته الأجيال الماضية .

والثانى الاتصال بالحياة العقلية المعاصرة فى الحياة الأجنبية ، لاستخلاص ما يلائم مزاج الشعب منها ، ولتغذية هذا المزاج بها وتمكينه من أن يثبت وينمو ويصفو ويمضى فى سبيله إلى الرقى غير متلكئ ولا متعرض للجمود والخمود .

والثالث الانتاج الخاص الذى يصور شخصيتنا وما يكونها من العواطف والأهواء والميول ومن الخواطر والأفكار والآراء ، محتفظا فى هذا كله بما لابد من الاحتفاظ به من الخصائص الموروثة ، ملائما بينه مع ذلك وبين ما يطرأ من حقائق التطور ومظاهره .

وسيرى القارئ أن هذه الكتب الأربعة تبين فى وضوح أن حياتنا العقلية ما زالت مؤتلفة من هذه العناصر على رغم ما يحيط بنا من الخطوب ، وعلى رغم الظروف التى تعرض حياتنا العقلية للضعف والانحلال . فما يسر ويرضى إذن أن هذه الحياة ما زالت قوية خصبة ، تقاوم الخطوب وتغالب الأحداث وتمضى فى طريقها لاتتأثر إلا قليلا بهذه الأعراض التى تحد النشاط وتثبط الهمم وتفل العزائم . ولعل هذه الكتب الأربعة تصور ظاهرة أخرى من الظواهر التى تمتاز بها حياتنا العقلية فى هذه الأيام الشداد ، وهى محاولة الهرب من الواقع البغيض إما إلى الماضى فى الزمان لنساير قوما كانوا راضين مستبشرين ، وإما إلى الحاضر فى مكان بعيد عنا يعيش فيه قوم يفكرون على نحو غير النحو الذى نفكر عليه ويتأثرون بمؤثرات غير التى نتأثر بها ، وإما إلى الخيال نتخذه وسيلة إلى التخلص مما يحيط بنا من الظروف ويثقلنا من الاعباء .

ونحن فى أثناء هذا كله لا ننسى بيئتنا ولا نعرض عن أنفسنا ، وإنما نفر منها لنعود إليها بما ينفعها ويصلح من شأنها بعض الاصلاح .

رسائل صينية تأليف لويس ديكنسن ترجمة الدكتورة سهير القلماوى (دار المعارف بمصر)

وأول هذه الكتب هذا السفر الضئيل النحيل الممتع على ضآلته ونحوله ، أو الممتع لضآلته ونحوله ؛ لأنه لا يثقلك ولا يشق عليك ، ولا يخيفك حين تأخذه وتنظر فيه ، ولا يلقى فى روعك أنك ستحتاج إلى إنفاق الوقت الطويل والجهد المتصل لتقرأه . وأنت مع ذلك لا تكاد تبدأ قراءته حتى يشغلك عن نفسك وعما حولك ، وإذا أنت ممعن فيه حتى تفرغ منه . ثم تعود إلى نفسك فاذا أنت لم تفارقها ، وتعود إلى ما حولك فاذا أنت لم تتركه . ذلك لأن المترجمة قد حاولت أن تفر من نفسها ومن بيئتها إلى كتاب إنجليزى يتحدث عن الصين فأبعدت فى الفرار . وأين مصر من انجلترا ! وأين مصر من الصين ! ولكن المترجمة مع ذلك قد أبعدت ولم تبعد ؛ فالموضوعات أو الموضوع الذى يتناوله الكاتب متصل بمصر أشد الاتصال وأقواه ؛ لأنه الاختلاف بين الشرق والغرب ، والاصطدام بين الاستعمار المتغلب المتسلط والمغلوب الذى أعوزته القوة المادية ولم يعوزه التراث القيم ولا القوة الروحية الخصبة ؛ فهو ينكر الغرب ومذهبه فى فهم الحياة وتدبيرها ومذهبه فى النظر إلى الشرق ومحاولة الغض منه والتسلط عليه . فهذه الفكرة هى التى تشغل المصريين ، بل تشغل الشرقيين منذ استيقظ الشرق . فلتصدر هذه الرسائل عن الصين أو عن الهند أو عن ايران أو عن مصر ، فهى إنما تعبر عما تضطرب به النفوس الشرقية كلها من هذا الشعور المر بتسلط قوم ليس لهم الحق فى أن يتسلطوا ، وخضوع قوم لاينبغى لهم أن يخضعوا ، وبأن للشرقيين من حضارتهم الموروثة وأخلاقهم ومذهبهم فى الحياة وتدبيرها ما هو خليق أن يكفل لهم حسن الرأى فيهم وحسن الظن بهم ، وأن يكفل لهم العزة والكرامة والسلطان إن أتيحت لهم الوسائل المادية لتحقيق هذه الخصال . وهم خليقون إذا ظفروا بعزتهم وكرامتهم ، وسلطانهم ألا يطغوا كما طغى الغرب ، وألا يستعلوا ولا يستأثروا كما يستعلى الغربيون ويستأثرون ؛ لأن لهم من حضارتهم وتراثهم الروحى ما يعصمهم من التكبر والتجبر ومن العدوان والطغيان .

ولست فى حاجة إلى أن أصف مذهب الكاتب فى الكتابة وأسلوب المترجمة فى الترجمة . فالكاتب الانجليزى لويس دكنسن أشهر وأظهر من أن يحتاج إلى تعريف ، ومكانه الأدبى العالمى أظهر من أن ندل عليه . والدكتورة سهير القلماوى قد عرفها القراء الشرقيون جميعاً بما يمتاز به أسلوبها من اليسر والقرب والارتفاع مع ذلك إلى أرقى منازل البيان .

المحقق هو أن هذا العنوان خفيف على اللسان غريب الموقع فى الأذان، مغر بقراءة ما يأتى بعده من الحديث. وإغراؤه صادق حسن، لا يغر ولا يخدع ولا يكذب القارئ ولا يخيب أمله، وإنما يرضيه كل الرضا ويقنعه كل الاقناع.

وقد وفق الأستاذ العقاد حين جمع بين الأستاذ صدقى والأستاذ على أدهم فى مقال واحد نشرته الرسالة أخيرا. فالأستاذ عبد الرحمن كصديقه الأستاذ على أدهم من هؤلاء الذين سلكوا إلى الثقافة الممتازة طريقا رسموها لأنفسهم فأحسنوا رسمها وأحسنوا سلوكها، وانتهوا إلى غايتها فى كثير جدا من المشقة والجهد لا يعلمه الذين يقرءون كتبهما ويجدون فيها ما يجدون من متاع العقل والقلب جميعا.

فالأستاذ صدقى لم يتخرج فى الأزهر ولا دار العلوم ولا فى كلية الآداب بجامعة فؤاد، ولكنه يتقن الأدب العربى كما لا يتقنه كثير جدا من الأزهريين و« الدرعميين » — إن أجاز المجمع اللغوى هذا النحت — والجامعيين.

وقد قرأ الناس له منذ أعوام قليلة رسالة موجزة ممتعة عن حياة أبى نواس، فلم يكتفوا بالرضا عنها وإنما أعجبوا بها إعجابا شديدا. وهو الآن يقدم إليهم سفرا ضخما يدرس فيه أبا نواس شاعر الخمر والمجون درسا دقيقا مفصلا مستقصى، كأحسن ما يكون الدرس وكأروع ما تكون الدقة والتفصيل والاستقصاء. وأيسر النظر فى هذا الكتاب يدل فى وضوح على أن الأستاذ عبد الرحمن صدقى قد قرأ ديوان أبى نواس كله فأحسن قراءته وفهمه والنفوذ إلى أغراضه وأسراره. وما أقل الذين يجدون فى أنفسهم القدرة والشجاعة على قراءة ديوان من دواوين الشعر القصار فكيف بديوان طويل عريض عميق متنوع أشد التنوع مختلف أعظم الاختلاف، كديوان أبى نواس!

والأستاذ صدقى لم يقرأ ديون أبى نواس مكتفيا بنسخته المطبوعة الشائعة؛ لأنها قد طبعت على عجل فكثر فيها الغلط والخلط، وإنما صحح ما قرأ، رجع إلى النسخ المخطوطة التى أتيح له الوقوف عليها، ثم تتبع شعر أبى نواس فى كتب الأدب وأسفار النقد، فلم يرو ما روى من الشعر إلا عن علم وفقه وحسن استيثاق. ثم هو لم يكتف بقراءة أبى نواس وإنما قرأ شعر الذين عاصروه والذين سبقوه والذين جاءوا بعده فى وصف الخمر واللهو ليعرف لأبى نواس مكانته عن دراية وفهم. ثم هو قد قرأ بعد ذلك ما كتب الكاتبون عن أبى نواس فى العصور القديمة وفى العصر الحديث، لم يهمل أو لم يكد يهمل من ذلك شيئا.

وما عسى أن يطلب إليه المتشددون فى مناهج البحث أكثر مما فعل، ولكنه هو قد فعل أكثر مما يريد المتشددون فى مناهج البحث. فاتخذ شعر أبى نواس ولهوه ومجونه وسيلة إلى الدرس المفصل لأشياء كان يستطيع أن يلم بها إلماما قصيرا. فهو يصف أندية اللهو ومجالس الشراب والأديرة التى كان اللاهون والماجنون يخلون فيها أو يجتمعون فيها إلى لهوهم ومجونهم لا فى العراق وحده ولكن فى الشام ومصر. ثم هو يستقصى بعد ذلك أشياء أخرى كثيرة مختلفة إن دلت على شئ فانما تدل على أنه قد بذل أعنف الجهد، وظفر بأحسن التوفيق.

ولو لم يكن الأستاذ صدقى قد أهدى إلى قرائه إلا هذه الجملة الضخمة الصالحة من شعر أبى نواس وأصحابه مصححة مصفاة

الرضا، وإنما يدعو إلى التشاؤم والاشفاق، ثم إلى انتهاز الفرص والتخلص بانتهازها من آلام الحياة الواقعة .

وعمر الخيام أكان متفائلا أم كان متشائما ؟ فمن التشاؤم ما يتخذ مظاهر البهجة واللذة. وكيف يوازن بين عمر الخيام وأبي نواس ، ولا يوازن بين عمر الخيام وأبي العلاء ؟ وهناك أشياء أخرى قد تخاصم فيها الأستاذ عبد الرحمن صدقي . ولكن خير الكتب ما يثير أسباب الخصام .

سلوى فى مهب الريح قصة مصرية للأستاذ محمود تيمور بك (مطبعة الاستقامة بالقاهرة)

ولم يرتحل الأستاذ محمود تيمور بك إلى الشرق ولا إلى الغرب ولم يبعد فى الزمان ولا فى المكان ليأتينا بقصته هذه الرائعة البارعة حقا ، وإنما أقام بيننا فى مصر ، بل أقام بيننا فى القاهرة . ولم يكن له بد من أن يقيم بيننا ليقدم إلينا أثره هذا الممتع الرفيع ؛ فهو إنما انتزع هذا الأثر من حياتنا انتزاعا واستخلصه منها استخلاصا بعد أن تعمقها حتى وصل إلى أدق أسرارها وأعمق دخائلها ، دون أن نحس جهده فى ذلك أو نشهد ما احتمل فيه من العناء . وكذلك الكتاب البارعون من أصحاب الخيال الممتاز النافذ يسحرون الناس عن أنفسهم ويسرقون منهم ضمائرهم ثم يقهرونهم بعد ذلك ويفرضون عليهم لا أقول الرضا والاعجاب ، بل أقول ماهو خير من الرضا والاعجاب وهو الاستمتاع الفنى الخالص من جهة ، وتغذية القلب والعقل والشعور من جهة أخرى .

وفن الأستاذ محمود تيمور ليس فى حاجة إلى وصف أو تحليل ؛ فقد عرفه قراء العربية جميعا أدق معرفة وأصدقها لكثرة ما قرءوا من آثاره الممتعة ، ولأنه عرض عليهم مذهبه فى الفن عرضا لم ينسوه بعد ، بحيث أصبح الذين يتحدثون عن آثاره الجديدة إنما يقصدون إلى التسجيل والشكر أكثر مما يقصدون إلى التحليل والنقد .

وقصة سلوى هذه قد وصلت إلى فى أعماق الريف الفرنسى أثناء الصيف الماضى ، فلم ألق إليها بالا أول الأمر إذ كنت عنها مشغولا فأرجأت النظر فيها إلى وقت من أوقات الفراغ ، ثم رجعت بها إلى باريس وفى باريس هممت أن أستريح إليها من بعض الجهد ، فهى تصرفنى صرفا تاما عن كل ما كنت فيه من قراءة وزيارة وإملاء ، وإذا أنا أفرغ لها ولا أفارقها حتى أفرغ منها . وإذا استطاع الكاتب أن يردنى إلى القاهرة وإلى الريف المصرى وأنا مقيم فى باريس ، وأن يصرفنى عما تعودت الاقبال عليه حين أكون فى باريس من القراءة والاملاء والزيارة والاضطراب فى الحياة الباريسية، فقد استطاع أمراً عظيما .

والواقع أن قصة سلوى هذه من أمتع ما كتب الأستاذ محمود تيمور ومن ألفعه ومن أنفذه إلى حقائق النفس المصرية . فهذه الفتاة التى تنشأ فى بيئة متوسطة قريبة إلى الطبقة العليا والتى تختلف عليها ظروف الحياة ، وإذا هى تصور لنا طبقات المعاصرين من المصريين جميعا ، قد درسها الأستاذ تيمور فوفق فى درسها إلى أبعد حدود التوفيق . فتاة ساذجة نقية كأحسن ما تكون السذاجة والنقاء ، بما تزال بها ظروف الحياة حتى

فى مجلات الغرب

من لندن

القرن التاسع عشر وما بعده The Nineteenth Century and After

(عدد نوفمبر ١٩٤٧)

فى الفلسفة — يبتدئ هذا العدد بمقال ذى شأن للكاتب الايطالى الكبير بنديتو كروتشى (١) عنوانه « وجود المسيخ الدجال فى أنفسنا » . ويريد الكاتب أن يثبت لنا ثم أن يبسط لنا فكرته عن وجود المسيخ الدجال لا بيننا بل فى أنفسنا . وإذا كان المسيخ الدجال فى العصور القديمة « يعتبر العدو الأكبر الكامل للعلم والخير » ويتمثل بمقتضى الظروف التاريخية فى شخصية هذا الحاكم أو ذاك ، أو فى هذه النظم أو تلك (كما حدث مع البابا فى عهد الأصلاح) أو فى شعب أو فى دولة (كما كانت الحال فى الحرب الأخيرة) فهو اليوم فى حقيقة الأمر « ميل ، إن لم يكن ظاهر النشاط فى أنفسنا ، فهو كامن فيها » . ثم يحاول بنديتو كروتشى أن يصف هذا المسيخ الدجال المعاصر لنا ويعدد مميزاته وأفعاله . فهو يوجد ، على حد قول الكاتب ، فى الجهل والجحود واستغلال القيم وازدرائها التى يعدها لغواً باطلا وخرافات ، بل « حيلا للنفاق ترمى إلى أن تخفى عن السذج والبلهاء الحقيقة الوحيدة التى ما هى إلا رغبة الفرد وطموحه الموجهان نحو اللذة والرفاهية » . وقد أصبح خطر المسيخ الدجال عظيما ، فنجده بين هؤلاء الذين ننتظر منهم أن يدرسوا الوسائل إلى تكوين جبهات للمقاومة . ولكن هذه الجبهات تشبه جبهات العدو ؛ ولذا لن تنتصر عليه بل ستكون ضحية له .

ثم يقول الكاتب إن اللواء الوحيد الذى يجب أن نرفعه لنواجه به روح الشر هو لواء الحرية ؛ ففى الحرية تنمو الصفات النشئة ؛ إذ أن حل المشكلات الفردية يسمح بتحقيق المثل العليا . ولحرب هذه الفردية يقف المسيخ الدجال وقد تمثل فى شكل جماعة منظمة . وتثبت بعض الأحداث المعاصرة هذا الوصف للمسيخ الدجال « كالخديعة التى تتخذ سلاحا عاديا للهجوم فى غير خوف من استكشاف وفى غير حياء إذا استكشفت ، بل حتى فى غير هذه الصورة اليسيرة من الحياء التى نسميها الاختلاط ، وإنما تصبح الخديعة مادة للابتسام والتمدح بما فيها من جرأة وشجاعة ، ويصبح المنكر لها موضع التهكم ويعتبر ساذجا غرا لم يلاحظ أن الكذب قد صار حقا للذين يستسلمون لهذا الاله الخبيث .

وإذا كان هذا المقال موفقا فى عباراته

(١) *The antichrist within us*, by Benedetto Croce

وفي منهجه اللاتيني في التفكير وفي الاستنتاج ، فيجب على الأقل أن نعترف بأنه لا يأتي بشيء نكاد نجهله ولا يدلنا على شيء من وسائل المقاومة لهذا الشر البغيض .

في السياسة — وتقدم لنا المجلة نفسها نصا يكشف لنا عن الفكرة السياسية الفرنسية بعد التحرير ، ولكن الأحداث كما سيتضح لنا فيما بعد قد تخطت هذا المقال الذي ما هو إلا حديث دار بين الكاتب الفرنسي الشهير جان كاسو الذي كان عضواً في حركة المقاومة وبين أ. أ. سيمان[1] المحرر في المجلة .وقد قدم الكاتب في إطناب شخصية جان كاسو وأعماله في حركة المقاومة ، ثم عرض فكرة مقاله الأساسية ، وهي بسط حال فرنسا السياسية بعد تحريرها . وتمتاز هذه الحال بخيبة الأمل التي أصابت حركة المقاومة ، وقد فرق بينها وبين تحديد مصير فرنسا . كانت تعتقد أنها جديرة بأن تتولى الحكم . وكان طموحها إلى الحكم يرتكز على أمرين أساسيين : أولا نظامها الاداري الجديد بالاعجاب . وثانيا اشتراك أعضاء الأحزاب معها مهما تكن عقائدهم وميولهم اشتراكا كاملا غير مشروط . ثم كانت حركة المقاومة ترمى إلى أن تجعل من توليها للحكم ثورة سلمية : كانت تريد أن تحرر فرنسا لا من الألمان فحسب بل من أشياء تفوق الاحتلال الألماني . وكانت تأمل أن تصل إلى ما أسماه يونج Young في سنة ١٧٨٩ : « إصلاح ما فسد عامة » . ويقول كاسو : « ولم لا ؟ وهذا الشعور أيمكن إهماله وقد أصبح دافعا وطنيا ؟ » وقد عرض الكاتب الأسباب التي حالت دون تحقيق هذه الآمال . ثم سأل كاسو إلى أى مدى يريد أن يشترك مع الشيوعيين الفرنسيين . فأجاب : « دع هذا الحديث[2] لا داعي لاقامة العقبات ونحن جادون في العمل . لقد بذل الشيوعيون أعنف الجهد أثناء الحرب ، وكانت سياستهم موجهة إلى تحقيق عظمة فرنسا . » وأضاف إلى ذلك : « وقد أكون غير راض عن وسائلهم ، ولكنى الآن على استعداد أن أشترك معهم اشتراكا كاملا . »

هورايزن Horizon (عدد نوفمبر ١٩٤٧)

في الفنون — يقدم لنا هذا العدد مقالا لهربرت ريد Herbert Read ذا شأن خطير وهو جدير بأن ينقل بأكمله . وعنوان المقال : «مصير فن التصوير الحديث»[3] ولا يدور موضوعه ، كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن ، حول مصير التصوير من حيث الأسلوب والفن بل من حيث مصيره الاجتماعي والحيوى . ويدرس الكاتب في مقاله هذه الوسائل التي تتيح للرسامين ولآثارهم أن يحيوا في عالمنا الحديث . ويقصد بالحياة أبعد معنى لهذه الكلمة .

ويبدأ هذا الحديث بكلمة للشاعر روبرت

---

(١) *Conversations in France. I*, by Jean Cassou

(٢) بالفرنسية في النص : « Pas d'histoires »

(٣) *The Fate of Modern Painting*, by Herbert Read

جريفز Robert Graves : « إنى أنظم قصائد للشعراء وهجاء ولهو (١) للأذكياء ، أما للافراد العاديين فأكتب نثراً . ويسرنى أن أراهم لا يلحظون أنى أكتب شيئاً آخر . » ومعنى هذا أنه إذا كان الأدباء يستطيعون أن يعيشوا فى غنى عن تقدير الجمهور أو اهتمامه فأمر الرسامين مختلف ، وإن لم يكن هذا منطقيا فى رأى الكاتب . وسبب ذلك يرجع إلى التكوين الاقتصادى للمجتمع . فقديماً كان الفنانون يجدون عند حماة الفن ما ييسر لهم العيش ويتيح لفنهم أن يزدهر ، ويغنيهم عن أن يهتموا بحاجاتهم المادية . وكان أساس هذا النظام الثروة الفردية . ويبدو أن هذا الأساس كاد ينهار نهائياً ، فى أوربا على الأقل . وقد استطاع الشاعر أن يرضى بهذه الحال : فهو يقوم بعمل ما ليعيش منه وينظم شعره « فى السيارات العامة أو فى عطلة الأسبوع » . أما المصور فلم يقبل هذا الوضع . ولذا يطالب الدولة بأن تقوم بدور حماة الفن . وهذا هو موضوع المقال . ويريد هربرت ريد أن يدرس هذه المسألة من ثلاث نواح : هى باختصار :

١ — إذا اختير هذا الحل فمن يكون بالفعل حامى الفن ؟ وبأية وسيلة سيكون اختيار الآثار ؟

٢ — ماذا يكون مصير الآثار الفنية التى تشتريها الدولة ؟ وما تأثيرها فى الجمهور حينئذ ؟

٣ — ما أثر الدولة الحامية للفن فى الفنان وأثرها فى فنه من حيث الجودة ؟

ثم يحلل الكاتب هذه النقط الثلاث وينقدها ويثبت بوضوح أنه ليس حلا ؛ لأن اختيار الآثار وتشجيع الفنانين سيكون خاضعا للاستبداد الادارى من اللجان وتغيير أعضائها واختيار أعضاء قد لا يكون لهم ذوق فنى بل قد لا يكون لهم ذوق سليم . وإلام تصير حال هذه الآثار ؟ وهل تزيد كثرة الآثار الفنية فى المتاحف الكثيرة الذوق الفنى عند الجمهور ؟ ويقول هربرت ريد : كلا ! وهو ينصح باتباع قصد الصينيين واليابانيين فى الفن : الحد من الاحساسات الفنية . إن حالات يقظة الاحساسات الفنية من تأثير زيارات المتاحف نادرة جدا . لأن الانسان اليوم « إنسان ميت » فنيا . لقد ماتت عنده الاحساسات الفنية فى المدرسة قبل أن يجاوز الثانية عشرة من عمره .

وهذا النظام يجعل الفنان فى حيرة لأنه يجهل ما يطلب إليه . وهنا يعود الكاتب إلى الجملة التى ذكرها فى أول المقال ويغير من ألفاظها بعض الشىء فيقول : « يجب أن ترسم اللوحات الفنية للرسامين . أما لعامة الناس فيجب على الفنانين أن ينشئوا أشياء مفيدة ، وأن يسرهم ألا يلحظ الجمهور أنهم ينتجون إنتاجا آخر . »

والكاتب يرى أن من الأصلح أن نعود متواضعين صابرين إلى الظروف التى نشأ فيها الفن ، أى يجب على المؤرخين أن يقدموا لنا تحليلا دقيقا جدا للظروف الاجتماعية التى نشأ فيها الفن فى الماضى ، وعلى علماء النفس أن يقدموا لنا تحليلا دقيقا للمراحل التى يمر بها الانشاء الفنى عند الفنان وفيما بينه وبين زملائه من الصلات ، وعلى المربين أن يصلحوا طرق التعليم لكى يحافظوا على الحس الطبيعى للانسان ويرهفوه . وإذا ضمنا توازنا كاملا بين مواهبنا الحسية

(١) « I write poems for poets and satires or grotesques for wits... »

والعقلية فقد وضعنا أساسا متينا لعهد إنشاء فني . »

وثمة مقال جدير باهتمام المعنيين بالموسيقى الحديثة . وهذا المقال يسبغ على هذا العدد من مجلة « هوريزن » صفة فنية . وقد أنشأه إريك ولتر وايت ويتحدث فيه عن إيجور سترافنسكى (١) .

والمقال دراسة لفن الملحن الذى يؤثر اليوم موسيقى الأوركسترا على موسيقى الآلة المنفردة . والجزء الأكثر شأنا في هذا المقال الفني هو الذى يحلل فيه الكاتب آثار سترافنسكى أثناء الحرب الأخيرة ، وخاصة « السنفونية ذات ثلاثة أقسام (٢) » حيث أضاف سترافنسكى إلى الأوركسترا العادى البيان والهارب ، وهما يقومان بدور ذى خطر . ويقول الكاتب إننا نلمس في هذا الأثر نفس الاستعداد القوى الساخط الذى نلمسه في آثار الملحن الأولى ، وقد وضعه داخل إطار منظم لسنفونية كلاسيكية تدل على بلوغ أوج الفن .

من نيويورك

الفنون المسرحية *Theater Arts* (عدد أكتوبر ١٩٤٧)

في المسرح — ويجد القارئ في هذا العدد حديثا دار بين الممثل الفرنسي جان — لوى بارو واثنين من الصحفيين (٣) إن للممثل جان — لوى بارو نشاطا متعدد النواحي : فهو ممثل مسرحي وسينمائي ، ومخرج ومدير مسرح ، بل مؤلف أيضاً ؛ إذ أنه نشر دراسة عن مأساة « فيدر » . وآخر ما أنتجه جان — لوى بارو ، هو «القضية» لكفكا التي اقتبسها أندريه جيد الذى ترجم « هملت » لشكسبير وقد مثلها هذا الممثل . ويقول كاتبا المقال عن فن جان لوى بارو : « انه لاءم بين الحركة والإلقاء في أسلوبه التمثيلي — وهو يهتم غالبا بالإيماءات التعبيرية — وقد أصبحت هذه الملاءمة روح فنه . »

في الرقص — (في عدد نوفمبر ١٩٤٧ من المجلة نفسها)

وفي هذا العدد نجد مقالا عن مؤلف الرقص بالونشين (٤) Balanchine يسوق إلينا بعض معلومات عن شخصية هذا الراقص وعن بعض نواحي فن المراقص التي لا نعرف عنها إلا القليل . ويلاحظ صاحب المقال في حق أنه من العسير أن نقدر مركز مؤلف الرقص أثناء نشاطه الفني ؛ إذ أنه «من اليسير أن نلحظ الكمال النسبي عند الرسام أو الموسيقى في منتصف نشاطه .» أما في فن الرقص فالأمر يختلف كل الاختلاف .

---

(١) *Stravinsky, Latter Day Symphonist,* by Eric Walter White

(٢) *The Symphony in Three Movements,* by Igor Stravinsky

(٣) *Jean-Louis Barrault, An Interview with France's Outstanding Actor-Director,* by Luce and Arthur Klein.

(٤) *Balanchine Musagète,* by Lincoln Kirstein

ترك بالونشين روسيا فى سنة ١٩٢٤ ، وهو حائز لشهادة المجمع الدولى للرقص فى بتروجراد ثم عمل مع دياجيليف Diaghileff الذى صقل مواهبه وبنى له مجدا عظيما . ويقيم بالونشين فى أمريكا منذ ١٩٣٣ . إن أسلوب المراقص الجديد قد نشأ فى أوربا وفى باريس خاصة. وهذا الأسلوب يجمع بين مواهب الموسيقى ومؤلف الرقص والرسام (١) . مثال ذلك الرقص الذى يسمى «استعراض» *Parade* (١٩١٧) وقد وضع موسيقاه إيريك ساتى Eric Satie وصور رقصة ماسين Massine وأنشأ قصته كوكتو Cocteau ورسم مناظره بيكاسو Picasso . ويزدان هذا المقال الذى يمدنا بمعلومات قيمة بصور ورسوم عدة .

من باريس

طرق العالم *Chemins du Monde* عدد ١ : «حضارة»

أنشأت هذه المجلة الجمعية « حضارة » التى تكونت فى سنة ١٩٤٦ « والتى تريد خاصة أن تهيئ الفرصة لرجال بلاد مختلفة ليتبادلوا الآراء فى بعض المشكلات الخطيرة المعاصرة سواء أكانت مادية أم روحية » . وفى المقال الافتتاحى يحاول فرنسوا برج François Berge أن يعطى لنا فكرة واضحة عن الحضارة كما يتخيلها . ويجد القارئ فى هذه الصفحات القليلة بعض آراء بنديتو كروتشى وخاصة رأيه عن النفاق فى حياتنا الحالية . ويقول فرنسوا برج : « كان النفاق قديما احتراما تقدمه الرذيلة إلى الفضيلة ؛ أما اليوم فالرذيلة —أى القوة الذاتية — أصبحت هى الفضيلة نفسها وهى التى تنظم القيم كلها . » ويلمس القارئ الغرض الأساسى للمقال بعد أن يمر سالما بأمواج من التصوف تملأ هذه الصفحات . وهذا الغرض هو أن يدفع الانسان إلى أن يعود إلى القيم الدائمة على هامش كل دين وكل فلسفة . والفقرة الأخيرة من المقال تبسط لنا عقيدة جمعية « الحضارة » وهى : « نحن نعتقد أن الانسان مقدس فى جسمه وفى قلبه وفى عقله ، وأن تبادل الآراء الصالحة يجب أن يساعد على تنظيم الحقائق الجزئية احتراما لروح الحق . »

فى هذا العدد مقال للعالم الفرنسى الكبير لويس دى بروى (٢) وعنوانه « العلم والحضارة » . وما يلفت نظر القارئ فى هذا المقال هو أناقة الأسلوب الجديرة بالاعجاب : فرجل العلم هنا يعبر عن فكره فى لغة دقيقة ساحرة لا نجد لها مثيلا عند الأدباء فى أكثر الأحيان . ويذكر الكاتب فى أول الأمر تلك الكلمة المأثورة التى تقول إن المعرفة العلمية تتيح للانسان « أن يتحكم فى الطبيعة وهو مذعن

(١) أنظر « المسرحيات الراقصة » فى مجلة « الكاتب المصرى » عدد ٢٧ (ديسمبر ١٩٤٧) .

(٢) Louis de Broglie, *Science et Civilisation*

لقوانينها » . ويلحظ لويس دى بروى حين يتحدث عن البحث غير المغرض والعلم التطبيقى أن اعتبار العلم اعتبارا نفعيا يضيره ويوشك أن يذهب بما فيه من خصب حين يكبت صوراً أخرى للتفكير والشعور ، وحين يدفع إلى شئ من الشك . كل هذا يوشك أن يضيع على الانسانية الشعور بالجمال الكامل للآثار الفنية الرفيعة لحساب جمال آخر لا شك فيه ولكنه مختلف النوع ، وهو جمال بعض الآلات المبتكرة . ويضيف الكاتب أن خطر الرقى العلمى يزداد بمقدار « ما تبطىء الانسانية فى التقدم لأن تطورها أشد بطئا من علمها » .

ويختم المقال بتأملات رائعة حول قول هنرى بوانكاريه : « . . . إنما الفكرة برق يلوح فى ليلة طويلة ، وإن هذا البرق هو كل شئ » (١).

(١) Henri Poincaré in *La valeur de la science*

فهرس المجلد السابع

أكتوبر ١٩٤٧ — يناير ١٩٤٨

دراسات أدبية

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين أو أمريكيين .

(١) *The 400th Birthday of Cervantes*, by Henry Baerlein

دراسات فلسفية

دراسات اجتماعية واقتصادية

دراسات تاريخية

دراسات سياسية

دراسات فنية

(١) Hilde Zaloscer, *Symbole et ornement*

(٢) ilde Zaloscer, *La crise actuelle de l'art*

قصص

شعر

من هنا وهناك

شهرية العلم

شهرية السياسة الدولية

شهرية الفلسفة (١)

شهرية المسرح

شهرية السينما

من وراء البحار

من كتب الشرق والغرب

ظهر حديثاً

---

(١) Didier Anzieu, *Chroniques Philosophiques*

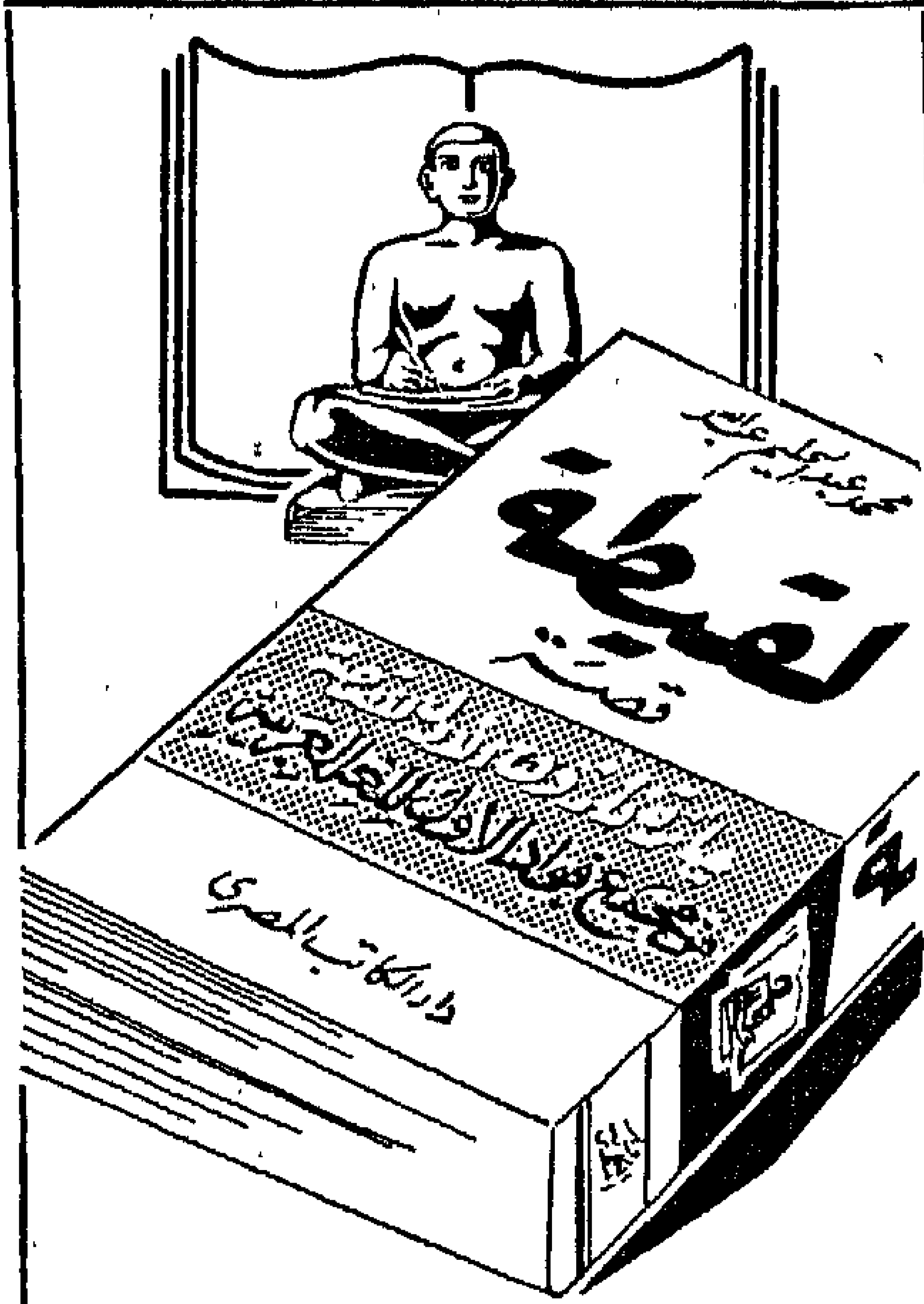
(٢) Etiemble, *André Malraux victorieux de la mort*

(٣) Etiemble, *Hermès Trismégiste et la crise du rationalisme*

(٤) Etiemble, *Renouveau de la littérature comparée*

فى مجلات الشرق

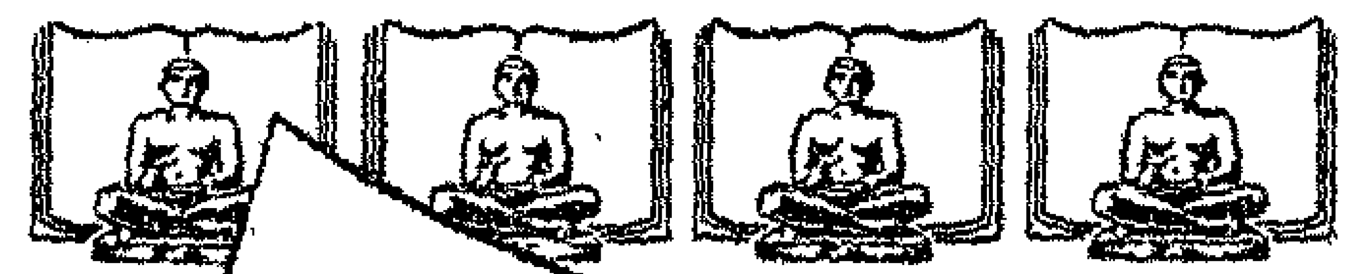
فى مجلات الغرب

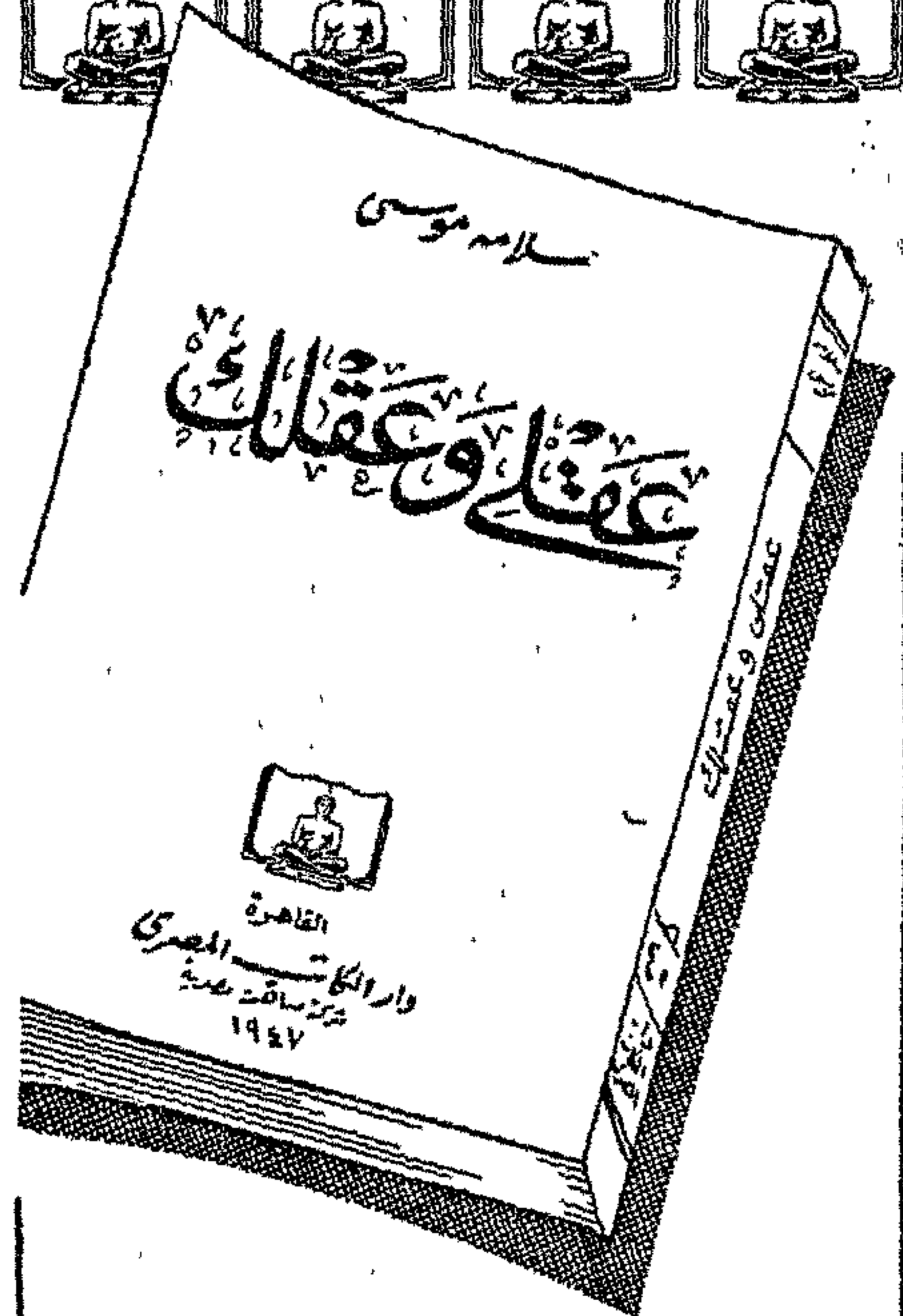


لقيطة
دار الكاتب المصري




بايار
القلم الذى
لا يبارى
466
أناقة
BAYARD
le stylo
sans reproche




سلامه موسى
عقلى وعقلك
القاهرة
دار الكاتب المصرى
١٩٤٧

تحت الطبع

سافونارولا

قصة الراهب الثائر والمصلح الديني والسياسي والاجتماعي

للدكتور حسن عثمان

الضحك

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

تعريب سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم

غانية أطلنطا

قصة رائعة للكاتب الفرنسي بيير بنوا عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب رشدي كامل

عقدة الافاعي

قصة تحليلية لفرنسوا مورياك عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب نزيه الحكيم

قصة رجل مجهول

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

تعريب محمود الشنيطي